السيارة ليكساس وشجرة الزيتون

محاولة لفهم العولمة

توماس ل. فريدمان

تصوير
أحمد ياسين
@Ahmedyassin90

ترجمة: ليلى زيدان
مراجعة: فايزة حكيم

مكتبة العبيكان

السيارة ليكساس وشجرة الزيتون

محاولة لفهم العولمة

تأليف
توماس ل. فريدمان
Thomas L. Friedman

ترجمة
ليلى زيدان

مراجعة
فايزة حكيم

الدار الدولية للنشر والتوزيع
القاهرة - مصر

الطبعة الثانية

2001 م

السيارة ليكساس وشجرة الزيتون

محاولة لفهم العولمة

تأليف

توماس ل. فريدمان

رقم الإيداع

99/16923

I.S.B.N
977-282-068-4

THE LEXUS AND THE OLIVE TREE: UNDERSTANDING GLOBALIZION

by Thomas L. Friedman

Copyright © 1999 by Thomas L. Friedman

ALL RIGHTS RESERVED.

حقوق النشر © 2000 محفوظة للدار الدولية للنشر والتوزيع.

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية أو خلاف ذلك إلا بموافقة الناشر على هذا كتابة ومقدماً.

حقوق الطبع والاقتباس

والترجمة والنشر محفوظة

للدار الدولية للنشر والتوزيع

Ahmedyassin06@

8 إبراهيم العرابي ـ النزهة الجديدة ـ مصر الجديدة ـ القاهرة ـ ج.م.ع.

ص.ب: 5599 هليوبوليس غرب / القاهرة ـ تليفون: 2957655/2972344 فاكس: 2957655 (00202)

يطلب من

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥ هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

المحتويات

المشهد الافتتاحى : العالم عمره عشر سنوات 5

الجزء الأول : رؤية النظام 21

الفصل الأول : سائح له موقف 23

الفصل الثانى : السيارة ليكساس وشجرة الزيتون 57

الفصل الثالث : .... وانهارت الأسوار 77

الفصل الرابع : نقص المناعة فى شذرة الكمبيوتر الدقيقة 109

الفصل الخامس : قميص القيد الذهبى 145

الفصل السادس : القطيع الإلكترونى 161

الجزء الثانى : الالتحام بالنظام 203

الفصل السابع : نظام تشغيل رأس المال 6.0 205

الفصل الثامن : ثورة العولمة 231

الفصل التاسع : اشتر تايوان واحتفظ بإيطاليا وبع فرنسا 267

الفصل العاشر : نظرية الأقواس الذهبية لمنع الصراعات 313

الفصل الحادى عشر : رجل الدمار 347

الفصل الثانى عشر : الفائزون يحصدون كل الأرباح 391

الجزء الثالث : الردة على النظام 419

الفصل الثالث عشر : الردة 421

الفصل الرابع عشر : النمو التلقائى السريع 447

تصوير أحمد ياسين

الجزء الرابع : امريكا والنظام 461

الفصل الخامس عشر : الحماس المنطقى 463

الفصل السادس عشر : الثورة هى الولايات المتحدة 477

الفصل السابع عشر : إذا أردت التحدث إلى أحد البشر، اضغط على الزر رقم 1 511

الفصل الثامن عشر : ثمة طريق للتقدم إلى الأمام 537

شكر وتقدير 585

تصوير
أحمد ياسين

المشهد الافتتاحى
العالم عمره عشر سنوات

«إن الوضع يتفاقم، لا علاقة لنا بروسيا أو آسيا. لسنا سوى مشروع اقتصادى محلى صغير، نحاول أن ننمو، ولكن يحول بيننا وبين تحقيق ذلك تلك الطريقة التى تتبعها تلك الحكومات فى إدارة بلادها».

دوجلاس هانسون، المدير التنفيذى الأول لشركة روكى ماونتين إنترنت المحدودة فى حديث له لصحيفة وول ستريت جورنال بعد أن اضطر إلى تأجيل إصدار سندات ضعيفة قيمتها 175 مليون دولار بسبب انهيار السوق فى عام 1998.

فى صباح يوم 8 ديسمبر عام 1997، أعلنت حكومة تايلاند أنها ستغلق 56 بيتاً من بين كبرى بيوت التمويل فى البلاد وعددها 58. ففى ليلة وضحاها أفلست هذه البنوك الخاصة بسبب انهيار العملة التايلاندية «الباهت». كانت بيوت التمويل قد أسرفت فى اقتراض الدولارات الأمريكية، ثم أقرضت هذه الدولارات للمشروعات التايلاندية لبناء الفنادق والمبانى الإدارية الضخمة والشقق الفخمة والمصانع. وكانت بيوت التمويل جميعاً تظن إنها بمأمن لأن الحكومة التايلاندية كانت ملتزمة بالحفاظ على تثبيت سعر «الباهت» أمام «الدولار». بيد أنه عندما أخفقت الحكومة فى الوفاء بهذا الالتزام إثر مضاربات عالمية مكثفة ضد الباهت ـ أشعلها ظهور نوع من الإدراك بأن الاقتصاد التايلاندى ليس بالقوة التى كان يعتقد فيما سبق إنه عليها ـ حدث

هبوط حاد فى سعر العملة التايلاندية بلغ 30 فى المائة. وكان معنى ذلك أنه يتعين على المشروعات التى اقترضت دولارات أن تجلب كميات إضافية من الباهت التايلاندى بنسبة 30 فى المائة من أجل سداد قيمة القروض الدولارية أى تدفع باهت واحد تايلاندى مقابل كل دولار أمريكى من القرض. وقد تعذر على الكثير من هذه المشروعات السداد لبيوت التمويل، وتعذر على الكثير من بيوت التمويل السداد لمقرضيهم الأجانب وأصبح النظام بأسره محاصراً، وفقد 20 ألف من أصحاب الياقات البيضاء وظائفهم. وفى اليوم التالى، تصادف أن كنت فى طريقى إلى موعد فى وسط شارع آسوكى فى بانكوك، وهو الشارع الموجود فى تايلاند الذى يماثل شارع وول ستريت، ويوجد به معظم بيوت التمويل التى أفلست. وطوال مرورنا ببطء بهذه الشركات المنهارة كان سائق التاكسى يشير إلى كل واحدة منها قائلاً: «ميتة!.... ميتة!.... ميتة!.... ميتة!».

ولم أكن أدرى وقتها ـ ولا أحد يدرى ـ ولكن هذه البيوت الاستثمارية التايلاندية كانت أول حجر دومينو يسقط كمؤشر لما سيتحول بعد ذلك إلى أول أزمة مالية عالمية فى الحقبة الجديدة للعولمة ـ تلك الحقبة التى أعقبت انتهاء الحرب الباردة. وقد أشعلت الأزمة التايلاندية فتيل موجة عالمية من هروب رؤوس الأموال من جميع الأسواق الناهضة فى جنوب شرقى آسيا تقريباً، وهبطت بأسعار العملات فى كل من كوريا الجنوبية وماليزيا وإندونسيا. وقد بدأ المستثمرون، سواء على المستوى العالمى أو المحلى، فى إمعان النظر فى هذه الاقتصاديات عن كثب، واكتشفوا ضعفها، فانتقلوا بأموالهم إلى ملاذٍ آمن فى الخارج أو طالبوا بمعدلات فائدة أعلى تتناسب مع ارتفاع المخاطر. ولم يمر وقت طويل حتى كان أكثر قمصان التى شيرت رواجاً فى أنحاء بانكوك مزيّنا بهذه الكلمات؛ «الأثرياء سابقاً».

وفى غضون عدة شهور بدأ الكساد فى جنوب شرقى آسيا يؤثر فى أسعار السلع فى أنحاء العالم. فقد كانت آسيا محركاً مهماً للنمو الاقتصادى فى العالم ـ محرك

يستهلك كميات هائلة من المواد الأولية. ولما بدأ هذا المحرك فى التوقف بدأت أسعار الذهب والنحاس والألمونيوم، والأهم من ذلك البترول، فى الهبوط. وقد ثبت أن هذا الهبوط فى أسعار السلع فى أنحاء العالم كان الآلية التى انتقلت بها الأزمة فى جنوب شرقى آسيا إلى روسيا. كانت روسيا فى ذلك الوقت لا يعنيها ما يجرى خارج أراضيها، وتحاول بمساعدة من صندوق النقد الدولى أن تخرج من المستنقع الاقتصادى الذى ألقت بنفسها فيه والسير فى طريق ثابت للنمو. بيد أن مشكلة روسيا كانت تتمثل فى أن معظم مصانعها لم تكن تنتج شيئاً له قيمة. وكان الكثير مما تنتجه فى الواقع يعتبر «قيمة سلبية مضافة». بمعنى أن الجرار الذى يصنعه مصنع روسى كان على درجة من السوء بحيث كان يساوى فى الواقع وهو معدن خردة أو مجرد حديد خام، أكثر مما يساوى وهو فى صورته النهائية، «جرار صنع فى روسيا». والأهم من ذلك كله إن المصانع الروسية التى كانت تصنع منتجات يمكن أن تباع فى الخارج لم تكن تدفع سوى القليل من الضرائب للحكومة أو ربما لا تدفع على الإطلاق، ولذلك كان الكرملين يعانى من نقص حاد فى السيولة النقدية.

وقد أصبحت الحكومة الروسية، فى غيبة اقتصاد حقيقى تعتمد عليه فى توليد الإيرادات، تعتمد اعتماداً كبيراً على الضرائب المفروضة على زيت البترول وصادرات السلع الأخرى فى تمويل ميزانيتها. كذلك أصبحت تعتمد على المقرضين الأجانب الذين كانت روسيا تجتذبهم بالتلويح لهم بمعدلات فائدة مثيرة للسخرية على السندات المختلفة التى تصدرها الحكومة الروسية.

ومع استمرار تدهور الاقتصاد الروسى فى مطلع عام 1998 كان على الروس أن يرفعوا من معدلات الفائدة على سندات الروبل من 20 إلى 50 إلى 70 فى المائة بغية اجتذاب الأجانب. واستمرت صناديق التغطية والبنوك الأجنبية فى شرائها متصورة أنه حتى إذا تعذر على الحكومة الروسية سدادها، فإن صندوق النقد الدولى سوف يتدخل

لإنقاذ روسيا ويستعيد الأجانب أموالهم. بل إن بعض صناديق التغطية والبنوك الأجنبية لم تكتف بوضع أموالها فى روسيا، وإنما سعت إلى الخارج لاقتراض مزيد من الأموال، بفائدة 5 فى المائة، ثم اشترت سندات الخزانة التى تتراوح فائدتها بين 20 إلى 30 فى المائة. وكما تقول جدتى: «يالها من صفقة!» ولكن كما تقول جدتى أيضاً: «إذا كانت تبدو صفقة جيدة إلى حد يصعب معه أن تتحقق، فإنها عادة لن تتحقق!».

وقد حدث ذلك بالفعل. فقد تعذر على الحكومة الروسية سداد الفائدة والرأسمال الأصلى لسندات الخزانة بسبب انخفاض أسعار البترول بفعل الأزمة الآسيوية. وبما أن صندوق النقد الدولى تعرض لضغوط لتقديم قروض لإنقاذ تايلاند وكوريا وإندونسيا فقد قاوم أى مقترحات لمزيد من الأموال لروسيا ـ قبل أن يفى الروس بوعودهم بإصلاح اقتصادهم، مبتدئين ذلك بإجبار كبرى المؤسسات والبنوك لديهم على دفع بعض الضرائب. وفى 17 أغسطس تهاوى بيت البطاقات الاقتصادية الروسى موجهاً للأسواق ضربة مزدوجة من الحظ العاثر: فقد قامت روسيا بخفض قيمة سنداتها الحكومية وتوقفت من جانب واحد عن سدادها، بدون أى إنذار لدائنيها أو ترتيب أى نوع من الاتفاق معهم. وبدأت صناديق التغطية والبنوك وبنوك الاستثمار التى كانت تستثمر فى روسيا فى تكبد خسائر جسيمة، وتعرضت تلك البنوك التى اقترضت الأموال بغية تعظيم رهانها فى كازينو الكرملين للإفلاس.

لم يكن لانهيار الاقتصاد الروسى أن يحدث، ظاهرياً، تأثيراً كبيراً فى النظام العالمى؛ ذلك إن الاقتصاد الروسى كان أصغر من اقتصاد دولة مثل هولندا. ولكن النظام أصبح الآن عالمى أكثر من أى وقت مضى، ومثلما كانت أسعار البترول الخام هى آلية الانتقال من جنوب شرقى آسيا إلى روسيا، كانت صناديق التغطية ـ ذلك التجمع الهائل غير المنظم لرؤوس الأموال الخاصة الذى يجوب العالم بحثاً عن أفضل استثمار ـ آلية الانتقال من روسيا إلى جميع الأسواق الناهضة الأخرى فى العالم، ولا

سيما البرازيل. وفجأة وجدت صناديق التغطية وغيرها من الشركات التجارية، التى تكبدت خسائر هائلة فى روسيا، والتى تفاقمت خسائر بعضها إلى خمسين ضعفاً لاستخدامها أموالاً مقترضة، أن عليها جمع أموال من أجل السداد للبنوك التى اقترضت منها. وكان عليها أن تبيع أى شئ له سيولة. ومن ثم بدأت فى بيع الأصول فى دول سليمة الاقتصاد لتعويض خسائرها فى الدول ذات الاقتصاد السيئ. فمثلاً وعلى حين غرة وجدت البرازيل، التى كانت تفعل أشياء كثيرة جيدة من وجهة نظر الأسواق العالمية وصندوق النقد الدولى، أن المستثمرين المذعورين يبيعون كل أسهمها وسنداتها. وكان على البرازيل أن ترفع معدلات الفائدة بنسبة وصلت إلى 40 فى المائة فى محاولة للإبقاء على رؤوس الأموال داخل البلاد. وحدث هذا السيناريو بأشكال مختلفة فى جميع الأسواق الناهضة فى العالم، أثناء محاولات هروب المستثمرين نحو الأمان، فقد قاموا بتسييل قيمة أسهمهم وسنداتهم البرازيلية والكورية والمصرية والإسرائيلية والمكسيكية، واحتفظوا بأموالهم إما تحت البلاطة وإما فى أكثر السندات الأمريكية أماناً. وهكذا أصبح هبوط الأسواق فى البرازيل وفى غيرها من الأسواق الناهضة آلية الانتقال التى أشعلت موجة أشبه بالفرار المذعور للقطيع لشراء سندات الخزانة الأمريكية. وأدى هذا، بدوره، إلى الارتفاع الحاد فى قيمة هذه السندات، وإلى انخفاض سعر الفائدة الذى تقدمه الحكومة الأمريكية لها لجذب المستثمرين وزيادة الفجوة بين سندات الخزانة الأمريكية وغيرها من سندات الأسواق الناهضة والشركات.

وأصبح الانخفاض الحاد فى العائدات على سندات الخزانة الأمريكية حينئذ آلية الانتقال التى أصابت المزيد من صناديق التغطية وبنوك الاستثمار بالشلل. ولنأخذ مثلاً صندوق إدارة رؤوس الأموال طويلة المدى (LTCM) Long-Term Capital Management ومقره مدينة جرينيتش بولاية كونيكتيكت. إذ أصبح هذا الصندوق هو القدوة لجميع صناديق التغطية. وكانت المنافسة فى مجال صناديق التغطية قد أصبحت

شديدة الشراسة نظراً لاجتذاب الكثير منها للعمل فى السوق فى أواخر الثمانينيات. فالجميع يتطلعون إلى انتهاز الفرص نفسها. وكان على صناديق التغطية، أن تسعى إلى المزيد من المراهنات الغريبة مع جهات تجميع السيولة النقدية الأكبر حتى تستطيع تحقيق أرباح فى مثل هذا الجو من التنافس الشرس. وقد لجأ صندوق إدارة الأموال طويلة المدى إلى اثنين من علماء الاقتصاد التجارى من الحاصلين على جائزة نوبل، كانت أبحاثهما ترى أنه يمكن تقدير التقلبات الأساسية للأسهم والسندات من تصرفاتها فى الماضى، وذلك بغية إرشاد هذه الصناديق إلى أفضل الرهانات. وقد قام صندوق إدارة الأموال طويلة المدى، باستخدام نماذج الكمبيوتر وبالاقتراض المكثف من البنوك المختلفة، بالمخاطرة بالرهان بمبلغ 120 مليار دولار بناء على توجيه بأن سندات رئيسية معينة سوف ترتفع قيمتها فى صيف عام 1998. وراهنت ضمناً على أن قيمة سندات الخزانة الأمريكية سوف تنخفض، وأن قيمة السندات الضعيفة وسندات الأسواق الناهضة سوف ترتفع. بيد أن نموذج الكمبيوتر لصندوق إدارة رؤوس الأموال طويلة المدى، لم يتوقع مطلقاً شيئاً مثل العدوى العالمية التى ستنفجر فى أغسطس مع الانهيار الروسى، ونتيجة لذلك كانت رهاناته جميعاً خاطئة. وعندما ساد الذعر فى عالم الاستثمارات بأسره فجأة وقرر الاندفاع إلى شراء سندات الخزانة الأمريكية قفز سعرها إلى أعلى بدلاً من أن يهبط، وانهارت أسعار السندات الضعيفة وسندات الأسواق الناهضة بدلاً من أن ترتفع ارتفاعاً حاداً. وأصبح صندوق إدارة الأموال طويلة المدى مثل عظمة ترقوة الطيور التى تنبئك بتحقيق أمنيتك والتى تمزقت من كلا الطرفين. وكان على البنوك التى يتعامل معها أن تسارع إلى إنقاذه لمنعه من الدخول فى عملية بيع متفجرة لكل أسهمه وسنداته التى كان من شأنها أن تشعل فتيل انهيار للأسواق فى أنحاء العالم.

وننتقل الآن إلى شارعى الخاص وأعنى تجربتى الخاصة فى هذا الشأن. حدث فى أوائل أغسطس عام 1998 أن استثمرت أموالى فى بنك جديد لأحد أصدقائى على

الإنترنت. كان سعر الإصدار للأسهم 14.50 دولار للسهم ثم قفز السعر إلى 27 دولار. وشعرت أننى إنسان عبقرى. ولكن روسيا بعدها عجزت عن سداد ديونها وحركت جميع قطع الدومينو؛ وهكذا هبطت أسعار أسهم صديقى إلى 8 دولارات. لماذا؟ ذلك لأن بنكه كان يمتلك الكثير من الرهونات العقارية، ومع الانخفاض فى معدلات الفائدة فى أمريكا، المترتب على الاندفاع نحو شراء سندات الخزانة، خشيت الأسواق من أن يقوم كثير من الناس بالسداد المبكر لرهوناتهم العقارية. وإذا سدد كثير من الناس رهوناتهم العقارية مبكراً، فقد لا يكون لدى البنك الذى يمتلكه صديقى التدفق النقدى من الدخل الذى كان يعوّل عليه لدفع أموال أصحاب الودائع. لقد كانت الأسواق على خطأ فى الواقع بشأن بنك صديقى، وعادت أسعار أسهمه إلى طبيعتها بشكل مرض. والواقع، أننى شعرت فى أوائل عام 1999 بأننى عبقرى مرة أخرى، عندما بدأ جنون شركة الأمازون على الإنترنت وقفز بأسعار أسهم البنك الذى يمتلكه صديقى على الإنترنت إلى عنان السماء، هى وغيرها من أسهم التكنولوجيا التى نمتلكها. ولكن، ومرة أخرى، لم ينقض وقت طويل حتى اقتحم بقية العالم الحفل. غير أنه فى هذه المرة لم تكن روسيا هى التى تعرضت للهجمة الشرسة، بل جاء دور البرازيل فى إشاعة القلق فى الأسواق الأمريكية بل وفى كبح جماح ازدهار أسهم الإنترنت (مؤقتاً).

كل ما استطعت التوصل إليه وأنا أرقب كل ذلك، هو أن أحداث شارع آسوكى استغرقت تسعة أشهر للتأثير فى تجربتى الخاصة، واستغرقت الأحداث فى حوض الأمازون البرازيلى (دولة الأمازون) أسبوعاً واحداً فقط للتأثير فى شركة الأمازون على الإنترنت. وقد لخصت صحيفة **يو إس إيه توداى** *USA Today* الوضع فى السوق العالمية بأسرها فى أواخر عام 1998 على النحو التالى: «لقد انتقلت المتاعب من قارة إلى أخرى مثل الفيروس»، وذكرت الصحيفة أن «رد فعل السوق الأمريكية كان

فورياً....» فقد كان الناس فى صالونات الحلاقة يتحدثون بالفعل عن الباهت التايلاندى».

والشئ المؤكد هو أن الدورة من شارع آسوكى إلى شارعى ومن دولة الأمازون إلى شركة الأمازون نجحت فى تثقيفى أنا وكثيرين غيرى عن الأوضاع فى عالم اليوم، فقد حل بثبات محل النظام البطئ والمستقر والمفتت فى حقبة الحرب الباردة، الذى سيطر على الشئون الدولية منذ عام 1945، نظام جديد شديد التماسك وشديد الاتصال، يسمى العولمة. فنحن جميعاً فى زورق واحد، ولكن إذا كنا لم ندرك تماماً ذلك فى عام 1989 عندما انهار سور برلين، فمن المؤكد أننا أدركناه بعدها بعشر سنوات. والحقيقة أنه فى 11 أكتوبر عام 1998، وفى ذروة الأزمة الاقتصادية العالمية، نشر ميريل لينش إعلاناً على صفحة كاملة فى الصحف الرئيسية فى أنحاء الولايات المتحدة ليصل هذا المفهوم إلى الناس. كان هذا الإعلان يقول:

العالم عمره عشر سنوات

لقد ولد هذا العالم عندما انهار سور برلين فى عام 1989. وليس ثمة ما يدعو للدهشة فى أن أحدث اقتصاد فى العالم ـ الاقتصاد العالمى ـ ما زال يتحسس طريقه. إن عمليات الضبط والتوازن الشائكة التى كانت تؤدى إلى استقرار الاقتصاديات مرتبطة فقط بالزمن. فكثير من أسواق العالم تحررت حديثاً، وتتحكم فيها للمرة الأولى عواطف الناس لا قبضة الدولة. ولا يوجد شئ من هذا يضعف من الأمل الذى انبثق قبل عشر سنوات مع زوال العالم المحاط بالأسوار .... فلقد أتاح انتشار اقتصاد الأسواق الحرة والديموقراطية فى أنحاء العالم لمزيد من الناس فى كل مكان تجسيد ما كانوا يصبون إليه فى صورة إنجازات فعلية. كما أن التكنولوجيا، إذا استخدمت الاستخدام السليم ووزعت بطريقة ليبرالية، ليست قادرة على محو الحدود الجغرافية فحسب، بل والحدود البشرية أيضاً. ونحن نرى أن عالم اليوم الذى لا يتجاوز عمره عشر سنوات، ما زال يعدنا بالكثير، وفى غضون ذلك، ليس هناك من يدعى أن النمو على مر السنين كان أمراً يسيراً.

حقيقة الأمر أن إعلان ميريل لينش كان من الممكن أن يصبح أكثر دقة لو قال إن هذه الحقبة من العولمة عمرها عشر سنوات. ذلك أنه منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى أواخر العشرينيات من القرن العشرين شهد العالم حقبة مماثلة من العولمة؛ فإذا قارنت بين أحجام التجارة وتدفقات الأموال عبر الحدود، بالنسبة إلى إجمالى الناتج القومى فى العالم، وقارنت بين تدفق العمالة عبر الحدود بالنسبة إلى تعداد السكان، لوجدت أن فترة العولمة التى سبقت الحرب العالمية الأولى كانت تشبه تماماً الفترة التى نمر بها الآن. فقد كانت بريطانيا العظمى، القوة العالمية المسيطرة حينئذ تستثمر استثمارات ضخمة فى الأسواق الناهضة، وكانت القطط السمان فى إنجلترا وأوروبا وأمريكا يسعدون غالباً بالأزمات المالية التى تندلع بسبب شئ حدث فى سندات السكك الحديدية فى الأرجنتين، أو بسبب سندات الحكومة فى لاتفيا، أو سندات الحكومة الألمانية. لم تكن هناك قيود على العملات. ولذلك فإنه ما إن تم وصل الكابل العابر للأطلنطى فى عام 1866 حتى انتقلت الأزمة المصرفية والمالية على وجه السرعة من نيويورك إلى لندن وباريس. كنت مشتركاً ذات مرة فى لجنة مع جون مونكز رئيس مؤتمر اتحاد نقابات العمال البريطانى، الذى لاحظ أن جدول أعمال المؤتمر العام الأول لمؤتمر اتحاد نقابات العمال فى مانشيستر بانجلترا فى عام 1868 تضمن من بين الموضوعات التى تحتاج إلى المناقشة: «ضرورة مواجهة المنافسة من المستعمرات الآسيوية» و «ضرورة تناظر مستويات التعليم والتدريب فى الولايات المتحدة وألمانيا». وكان الناس أيضاً، فى تلك الأيام يهاجرون بأعداد أكبر مما نتذكر، ولم تكن الدول قبل عام 1914 تطالب بجوازات سفر إلا فى أوقات الحروب. وكل هؤلاء المهاجرين الذين تدفقوا إلى السواحل الأمريكية لم يدخلوها بتأشيرات دخول. وإذا وضعنا هذه العوامل جنباً إلى جنب، إضافة إلى اختراع السفينة البخارية والتلغراف والسكك الحديدية وآخرها التليفون، يمكن القول بثقة بأن حقبة العولمة الأولى تلك

التى سبقت الحرب العالمية الأولى أدت إلى تقلص حجم العالم من «المقاس الكبير» إلى «المقاس المتوسط».

وقد تفتت حقبة العولمة الأولى والرأسمالية المالية العالمية تلك مادياً وعقائدياً بفعل الضربات المتتالية للحرب العالمية الأولى، والثورة الروسية، والكساد العظيم. كذلك تجمد التقسيم الرسمى للعالم الذى ظهر بعد الحرب العالمية الثانية بفعل الحرب الباردة. فقد كانت الحرب الباردة أيضاً نظاماً دولياً. واستمرت تقريباً من عام 1945 إلى عام 1989، عندما حل محلها نظام آخر بسقوط سور برلين: أى حقبة العولمة الجديدة التى نعيشها الآن. ولنطلق عليها «العولمة، الجولة الثانية». وثبت أن فترة السنوات الخمس والسبعين تقريباً التى تمتد ما بين بداية الحرب العالمية الأولى ونهاية الحرب الباردة لم تكن سوى وقت مستقطع ما بين حقبة عولمة وأخرى.

وعلى الرغم من وجود أوجه تشابه كثيرة فى النوعية بين الحقبة السابقة من العولمة والحقبة التى نعيشها الآن، فإن الجديد اليوم هو مدى وكثافة الرابطة التى تربط العالم بعضه ببعض فى سوق عالمية واحدة. والجديد أيضاً هو ذلك العدد الهائل من الأشخاص والبلدان التى تستطيع أن يكون لها دور فى هذه العملية وفى التأثر بها. ربما كانت حقبة العولمة لما قبل الحرب العالمية الأولى مكثفة، غير أن الكثير من البلدان النامية فى تلك الفترة ضاعت عليها فرصة الاشتراك فيها. وربما كانت حقبة العولمة لما قبل عام 1914 كبيرة بحساب ذلك الوقت، غير أنها تعتبر ضئيلة الحجم تماماً مقارنة باليوم. فقد كان حجم التعامل اليومى فى تبادل العملات الأجنبية يحسب بملايين الدولارات. أما فى عام 1992، فقد بلغ 820 مليار دولار يومياً بناء على تقارير الاحتياطى الفيدرالى فى نيويورك، وارتفع فى أبريل عام 1998 إلى 1.5 تريليون يومياً، وما زال يواصل الارتفاع. وقد تضاعف إجمالى حجم الإقراض عبر الحدود للبنوك فى أنحاء العالم أثناء السنوات العشر الماضية فقط. وفى عام 1900 تقريباً، كان من

الممكن حساب تدفقات رؤوس الأموال من الدول المتقدمة إلى الدول النامية بمئات الملايين من الدولارات، وكان عدد الدول المشاركة فى هذا النشاط صغيراً نسبياً. أما فى عام 1997 وحده، فإن إجمالى تدفق رؤوس الأموال الخاصة من العالم المتقدم إلى الأسواق الناهضة وصل إلى 215 مليار دولار بناء على تقرير صندوق النقد الدولى. وهذه الحقبة الجديدة من العولمة تتحرك توربينياً مقارنة بالحقبة التى سبقت الحرب العالمية الأولى.

بيد أن حقبة العولمة اليوم لا تختلف فقط فى مداها، ولكنها تختلف من وجوه شديدة الأهمية فى نوعها أيضاً. فقد ذكرت صحيفة ***إيكونوميست*** ذات مرة أن حقبة العولمة السابقة قامت على أساس تكاليف نقل تنخفض بصورة مستمرة. إذ بفضل اختراع السكك الحديدية والسفينة البخارية والسيارة، كان الناس يستطيعون الوصول إلى الكثير من الأماكن على نحو أسرع وأرخص، ويستطيعون أن يتاجروا مع كثير من الأماكن على نحو أسرع وأرخص. أما حقبة عولمة اليوم فإنها قامت على أساس تكاليف اتصالات لاسلكية تنخفض بصورة مستمرة ـ وذلك بفضل شذرات الكمبيوتر الدقيقة (microchips) والأقمار الصناعية وبصريات الألياف والإنترنت. هذه التكنولوجيات الجديدة تستطيع أن تنسج العالم معاً بصورة أكثر إحكاماً. ولا تعنى هذه التكنولوجيات فقط أنه لا يتعين على البلدان النامية بيع مواردها الأولية للغرب مقابل الحصول على المنتجات النهائية، وإنما تعنى أيضاً أن البلدان النامية تستطيع أن تصبح من كبار المنتجين. وتتيح هذه التكنولوجيات أيضاً للشركات إقامة الأجزاء المختلفة لإنتاجها وبحوثها وتسويقها فى دول مختلفة، وتستطيع مع ذلك الربط بينها عن طريق أجهزة الكمبيوتر والتشاور عن بعد وكأنهم فى مكان واحد. وكذلك يستطيع الناس الآن، بفضل الجمع بين أجهزة الكمبيوتر والاتصالات الرخيصة، عرض وتبادل الخدمات فى أنحاء العالم ـ بدءاً من المشورة الطبية إلى كتابة البرمجيات إلى معالجة

البيانات ـ وكان من المستحيل تبادلها من قبل. ثم ما الذى يمنع؟ تقول صحيفة **إيكونوميست** إن مكالمة مدتها ثلاث دقائق (بسعر الدولار فى عام 1996) بين نيويورك ولندن كانت تتكلف 300 دولار فى عام 1930. واليوم أصبحت بلا مقابل تقريباً عبر الإنترنت.

ولكن تفرد هذه الحقبة للعولمة لا يرجع فقط إلى مجرد أن هذه التكنولوجيات تتيح للدول الأمم التقليدية والشركات أن تتصل ببعضها عن بعد أكبر، وعلى نحو أسرع وأرخص وأعمق حول العالم أكثر من أى وقت مضى. إنه يرجع إلى أن هذه التكنولوجيات تتيح للأفراد أيضاً أن يفعلوا بالمثل. لقد تذكرت هذه النقطة فى أحد أيام صيف عام 1998 عندما اتصلت بى والدتى، مارجريت فريدمان، وكان عمرها حينئذ تسعة وسبعين عاماً، وتقيم فى مينيابوليس، وكانت تبدو منزعجة بشدة. سألتها: «ماذا حدث يا أمى؟» قالت « كنت ألعب البريدج عبر الإنترنت مع ثلاثة أشخاص فرنسيين وهم لا يتوقفون عن الحديث مع بعضهم بعض بالفرنسية ولا أستطيع أن أفهمهم». وعندما ضحكت بينى وبين نفسى لفكرة أن أمى المولعة بلعب الكوتشينة تلعب البريدج مع ثلاثة فرنسيين عبر الإنترنت، امتعضت قليلاً وقالت: «لا تضحك، لقد كنت ألعب البريدج ذلك اليوم مع شخص يعيش فى سيبيريا».

إننى أتوجه بسؤال بسيط إلى كل أولئك الذين يقولون إن هذه الحقبة للعولمة لا تختلف عن سابقتها، هل كانت جدة جدتك تلعب البريدج مع أشخاص فرنسيين على الإنترنت فى عام 1900؟ لا أعتقد. فهناك بعض الأشياء فى هذه الحقبة من العولمة شهدناها من قبل، وبعض الأشياء التى لم نشهدها قط من قبل، وبعض الأشياء الجديدة تماماً علينا بحيث يصعب علينا إلى الآن حتى فهمها. ولهذه الأسباب، فإننى سأوجز الاختلافات بين الحقبتين من العولمة على هذا النحو: إن الحقبة الأولى من العولمة قلصت العالم من المقاس «الكبير» إلى المقاس «المتوسط»، أما هذه الحقبة من العولمة فقد قلصت العالم من المقاس «المتوسط» إلى المقاس «الصغير».

هذا الكتاب إذن هو محاولة لشرح كيف أن هذه الحقبة من العولمة أصبحت هى النظام الدولى المسيطر فى نهاية القرن العشرين ـ وحلت محل نظام الحرب الباردة ـ وبحث كيف أنها الآن تشكل السياسات الداخلية والعلاقات الدولية للجميع. وبهذا المعنى، قصدت أن يكون هذا الكتاب إسهاماً فى مجموعة الدراسات التى تحاول تعريف العالم فى فترة ما بعد الحرب الباردة. ومن بين أهم الكتب انتشاراً فى هذا النوع من الكتابات هناك أربعة كتب: ***ظهور القوى العظمى وسقوطها: التغير الاقتصادى والصراع العسكرى من 1500 حتى 2000***، *The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000* بقلم بول م. كينيدى، و ***نهاية التاريخ والإنسان الأخير*** *The End of History and the Last Man* بقلم فرانسيس فوكوياما؛ والمقالات والكتب المختلفة بقلم روبرت د. كابلان وصامويل ب. هنتينجتون بعنوان ***تصادم الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمى*** *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*.

ولئن كانت هذه الكتب جميعاً تنطوى على حقائق مهمة، إلا أن أيا منها فى اعتقادى لم يرصد عالم ما بعد الحرب الباردة بصورة كلية. فقد كان عرض كابلان مفعماً بالحيوية والأمانة، غير أنه بحث فى أكثر أركان العالم تجهماً واستمد منها نتائج عامة لمصير باقى العالم. ورأى هنتينجتون الصراعات الثقافية حول العالم ووسعها فى جموح لتصبح تصادماً مستمراً وحاد التعريف للحضارات، بل إنه أعلن أن الحرب العالمية القادمة، إن حدثت «ستكون حرباً بين الحضارات». وفى اعتقادى أن كابلان وهنتينجتون معاً بخسا إلى حد بعيد تقدير مدى ما يمكن أن تفعله القوى الدولية، وجاذبية الأسواق العالمية، وانتشار التكنولوجيا، وظهور الشبكات وانتشار المعايير العالمية لدحض توقعاتهما التى تقتصر على الأبيض والأسود (معظمها سوداء).

لقد حاول كينيدى وهنتينجتون الاعتماد أكثر مما يجب فى التنبؤ بالمستقبل على الماضى، والماضى وحده. ولقد رصد كينيدى (وببراعة شديدة) انهيار الامبراطوريات

الإسبانية والفرنسية والبريطانية، ولكنه خلص إلى أن الإمبراطورية الأمريكية ستليها فى السقوط بسبب تجاوزاتها الإمبريالية. وكان يعنى ضمناً بذلك أن انتهاء الحرب الباردة لم يكن يعنى فقط نهاية الاتحاد السوفيتى وإنما كان أيضاً إرهاصاً بسقوط الولايات المتحدة. وفى اعتقادى أن كينيدى لم يقدر التقدير الكافى أن انحدار الولايات المتحدة نسبياً فى الثمانينيات، عندما كتب ذلك الكتاب، كان جزءاً من إعداد الولايات المتحدة لنفسها لنظام العولمة الجديد وتهيئة نفسها له، وهى عملية لم تخضها الكثير من دول العالم الأخرى إلا الآن فقط. ولم يتوقع كينيدى بأن أمريكا قد تلجأ تحت وطأة العولمة إلى تقليص ميزانيتها الدفاعية، وخفض عدد المشاركين فى حكومتها، وتحويل المزيد والمزيد من القوى إلى السوق الحرة بطرق من شأنها إطالة وضعها كقوة عظمى، وليس التقليل منه.

أما وجهة نظر هنتينجتون فهى أنه بانتهاء الحرب الباردة، لن يكون السوفيت هناك لنوجه إليهم عداءنا بعد الآن، ومن ثم فسوف نتحول نحن بعدائنا بطبيعة الحال نحو الهندوس والمسلمين الذين سيبادلوننا العداء نفسه. واستبعد ضمناً ظهور نوع ما من النظام الدولى الجديد الذى يمكن أن يشكل الأحداث على نحو مختلف. وليس هناك، بالنسبة لهنتينجتون، من شئ يأتى بعد الحرب الباردة سوى القبلية، وليس أى شئ جديد آخر.

ثم يأتى كتاب فوكوياما القاطع ليحتوى على رؤية مستقبلية دقيقة إزاء الأشياء التى استجدت، وأعنى بها انتصار الليبرالية ورأسمالية السوق الحرة باعتبارهما أكثر الطرق فاعلية لتنظيم أى مجتمع، غير أن عنوان كتابه (وليس الكتاب نفسه) يشير ضمناً إلى نهاية لهذا الانتصار لا تنسجم مع العالم كما أراه أنا.

وأصبح كل عمل من هذه الأعمال مشهوراً بطريقة ما، لأنها حاولت اغتنام فكرة واحدة آسرة هى «الشئ الوحيد الكبير»، أو الجزء المتحرك الرئيسى، المحرك المهم،

الذى سيقود الشئون الدولية فيما بعد الحرب الباردة، سواء كان ذلك صداماً للحضارات أو فوضى أو سقوط الامبراطوريات أو انتصار الليبرالية.

أما هذا الكتاب فهو مختلف تماماً. ففى اعتقادى أنه إذا كنت تريد فهم عالم ما بعد الحرب الباردة فعليك أن تبدأ بالتسليم بأن نظاماً دولياً جديداً قد جاء بعده، وذلك هو العولمة. فهذا هو «الشئ الوحيد الكبير» الذى يجب على الناس التركيز عليه. والعولمة ليست الشئ الوحيد الذى يؤثر فى الأحداث فى العالم اليوم، ومع ذلك فهى أشبه بالنجم القطبى والقوة التى تقوم بتشكيل العالم أجمع، إنه ذلك النظام. فالجديد إذن هو النظام، أما القديم فهو سياسات القوة والفوضى وصدام الحضارات والليبرالية. وقد تمثلت دراما عالم ما بعد الحرب الباردة فى التفاعل بين هذا النظام الجديد وتلك الانفعالات القديمة. إنها نوع من الدراما المركبة ما زال الفصل الختامى لم يكتب لها بعد. وهذا هو السبب فى أنك ستجد فى ظل نظام العولمة صداما للحضارات وتجانساً للحضارات معاً، وكوارث بيئية وأعمال إنقاذ مدهشة للبيئة على السواء، وانتصاراً لرأسمالية السوق الحرة الليبرالية وردة عنيفة عنها معاً، واستمراراً لبقاء الدول الأمم وظهور كيانات تمثيلية هائلة ولكنها ليست دولة معاً. إن ما سعيت إليه هو تأليف كتاب توجيهى لكيفية تتبع هذه الدراما وكيفية التفكير فى إدارتها.

وثمة كلمة أخيرة قبل أن نبدأ، فقد دعانى ناشر هذا الكتاب ومحرره جوناثان جلاسى فى أحد الأيام، وقال: «كنت أقول لبعض أصدقائى إنك تؤلف كتاباً عن العولمة فقالوا، "أوه، فريدمان، إنه يعشق العولمة". فما قولك فى ذلك؟» أجبت جوناثان بأننى أكن شعوراً جارفاً تجاه العولمة مثلما أشعر تجاه الفجر. وأرى بوجه عام، أنه لمن النعم أن تطلع علينا الشمس كل صباح. إنها تفيد أكثر مما تضر. ولكن حتى إذا لم أكن أعبأ كثيراً بالفجر فلا حيلة لى فى ذلك. أنا لم أبدأ العولمة، ولا أستطيع فى الوقت نفسه إيقافها، إلا بثمن باهظ على حساب التنمية البشرية، ولن أضيع وقتى فى

محاولة ذلك. وكل ما أود النظر فيه هو الطريقة التى أستطيع بها أن أحصل على أفضل ما فى هذا النظام الجديد، وأن ألطف من الجانب السيئ فيه، بالنسبة لمعظم الناس. هذه هى الروح التى حفزتنى لتأليف هذا الكتاب.

ويشرح الجزء الأول من الكتاب طريقة النظر إلى نظام العولمة اليوم والطريقة التى يعمل بها النظام. ويشرح الجزء الثانى كيفية تفاعل الدول الأمم، والمجتمعات، والأفراد، والبيئة مع هذا النظام. وبشرح الجزء الثالث الردة المفاجئة ضد العولمة. ويشرح الجزء الرابع الدور الفريد الذى تلعبه الولايات المتحدة، ويجب عليها أن تظل تلعبه، فى استقرار هذا النظام الجديد.

توماس ل. فريدمان

واشنطن العاصمة

أول فبراير 1999

الجزء الأول

رؤية النظام

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل الأول

سائح له موقف

شاهدت فى متحف العلوم الرائع فى برشلونة شيئاً معروضاً يمثل «الفوضى». فقد وضع ما يشبه البندول غير المستقيم بحيث يستطيع الزائر إيقاف حركته ثم إطلاقها عند وضع يختاره وبسرعة يختارها. ويستطيع المرء حينئذ مراقبة الحركة المترتبة على ذلك، التى تسجل أيضاً بقلم على فرخ من الورق. ثم يطلب إلى الزائر حينئذ إمساك البندول مرة أخرى ومحاولة محاكاة الوضع والسرعة السابقين تماماً. وبصرف النظر عن الدقة فى الأداء، كانت الحركة اللاحقة مختلفة تماماً عن الحركة فى المرة الأولى.... سألت مدير المتحف عما يفعله الرجلان اللذان يقفان فى ركن الحجرة يراقباننا. فأجاب: «أوه، إن مهمة هذين الهولنديين الانتظار لحمل ,الفوضى، بعيداً». وكان هذا الشئ المعروض فيما يبدو على وشك تفكيكه ونقله إلى أمستردام. غير أننى ما فتئت أتساءل منذ ذلك الوقت عما إذا كانت خدمات هذين الهولنديين مطلوبة بشدة عبر الكرة الأرضية، من جانب منظمات ترغب فى التخلص من الفوضى بها.

ـ فقرة مقتطفة من كتاب «الكوارك والنمر» تأليف مورى جيل–مان.

ما الذى كانت تريد أم فورست جامب قوله؟ إن الحياة مثل علبة الشكولاتة: إنك لن تعرف قط ما الذى ستجده داخلها. أما بالنسبة لى، أنا المولع بالسفر والمراسل الأجنبى فإن الحياة تشبه خدمة الغرف؛ إنك لن تعرف قط ما الذى تجده خارج باب غرفتك.

لنأخذ مثلاً، ليلة 31 ديسمبر عام 1994، عندما بدأت وظيفتى كاتب عمود للشئون الخارجية فى صحيفة *نيويورك تايمز*. وقد بدأت العمود بالكتابة من طوكيو، وعندما وصلت إلى فندق أوكورا بعد رحلة جوية طويلة عبر المحيط الهادى طلبت من خدمة الغرف طلباً واحداً بسيطاً: «من فضلك هل تستطيع أن ترسل لى أربع برتقالات». فأنا أدمن الموالح وكنت أشعر بالحاجة إليها فى تلك اللحظة. وقد تخيلت أن هذا الطلب بسيط حينما اتصلت تليفونياً وبدا لى أن الشخص على الطرف الآخر فهمه تماماً. وبعد عشرين دقيقة سمعت طرقاً على باب غرفتى وأحد العاملين فى خدمة الغرف يقف بالباب فى زيه الرسمى شديد الأناقة، وكانت هناك أمامه عربة عليها مفرش أنيق أبيض. وقد وضع على هذا المفرش أربعة أكواب طويلة مملؤة بعصير البرتقال الطازج، وكل كوب منها يقف فى شموخ ملكى داخل سلطانية صغيرة من الفضة مليئة بالثلج.

قلت للنادل: «لا، لا، أريد برتقالاً، وليس عصير برتقال». ثم أخذت أمثل له بالإشارة أننى أقضم شيئاً مثل البرتقالة.

قال النادل وهو يومئ برأسه موافقاً: «آه ه ه، بور ـ تقال، بور ـ تقال».

انسحبت بعدها إلى داخل غرفتى وعاودت القيام بعملى. وبعدها بعشرين دقيقة سمعت مرة أخرى طرقاً على الباب. إنه النادل نفسه. وعربة الترولى نفسها المخصصة لخدمة الغرف وعليها ذلك المفرش الأنيق. ولكن كان هناك عليها فى هذه المرة أربعة أطباق وفى كل طبق منها برتقالة منزوعة القشرة ومقطعة إلى مكعبات صغيرة شديدة الانتظام ومرصوصة على صورة مروحة فى كل طبق بشكل يشبه طبق السوشى، الذى لا يجيده إلا اليابانيون.

قلت مرة أخرى وأنا أهز رأسى: «لا، لا، أريد البرتقال كما هو». ومثلت له بيدى شكل الكرة. «فأنا أريد أن أحتفظ بالبرتقالات فى الحجرة حتى آكلها فى أى

وقت بين الوجبات الرئيسية. فلا أستطيع أن آكل أربع برتقالات مقطعة هكذا مرة واحدة. كما أننى لا أستطيع وضعها على هذا النحو داخل الثلاجة، أريد البرتقالات كاملة دون تقطيع».

ومرة أخرى بالغت فى محاكاة شخص يأكل البرتقالة.

قال النادل وهو يومئ برأسه: «آه ه ه، بور ـ تقال ، بور ـ تقال، تريد بور ـ تقالاً كاملاً بدون تقطيع».

ومرت عشرون دقيقة أخرى. ومرة أخرى كانت هناك طرقة على الباب. النادل نفسه. وعربة الترولى نفسها، ولكن عليها فى هذه المرة أربع برتقالات لامعة، وكل واحدة منها فوق طبق خاص بها وبجانبها سكين وشوكة وفوطة. وكان ذلك تقدماً لا بأس به.

قلت وأنا أوقع على الفاتورة، «تمام هكذا، هذا هو ما كنت أريده تماماً».

وفيما النادل يغادر الغرفة، ألقيت نظرة على فاتورة خدمة الغرف. كانت تكلفة البرتقالات الأربع 22 دولاراً. قل بربك كيف أستطيع أن أشرح ذلك للناشر الذى أعمل له؟

بيد أن مغامرتى مع الموالح لم تنته بعد، فبعد مرور أسبوعين، كنت فى هانوى أتناول طعام الغداء وحدى فى حجرة الطعام بفندوق متروبول. وكان ذلك موسم اليوسفى فى ڤيتنام، وكان البائعة الجائلون يبيعون تلالاً من ذلك اليوسفى البرتقالى اللون واللامع، الذى يعتبر ألذ يوسفى شاهدته، فى كل شبر من شوارع هانوى. وفى كل صباح كنت ألتهم منها عدة حبات كإفطار لى. وعندما جاءنى النادل ليعرف طلبى من الحلو قلت إن كل ما أريده هو اليوسفى فقط.

ذهب بعيداً ثم جاءنى بعد بضع دقائق وقال «آسف، لا يوجد يوسفى».

سألته في دهشة «كيف يكون ذلك؟ إنه يوجد هنا في غرفة الطعام منضدة مليئة به كل صباح! من المؤكد أنه يوجد يوسفي في مكان ما هناك في المطبخ؟»

قال: وهو يهز رأسه، «آسف. ربما تحب البطيخ؟»

قلت: «وهو كذلك، آتني ببعض البطيخ».

بعد مرور خمس دقائق عاد النادل وهو يحمل طبقاً فوقه ثلاث حبات يوسفي.

قال: «لقد عثرنا على يوسفي. ولا يوجد بطيخ».

لو كنت أعرف وقتها ما أعرفه الآن لاعتبرت كل ذلك نوعاً من النذير. فأنا أيضاً يمكن أن أجد أشياء كثيرة فوق طبقي أو خارج باب غرفتي مما لم أتوقع أن أجدها وأنا أجوب العالم في عملي لصحيفة *تايمز*.

أن يكون المرء كاتب عمود في الشئون الخارجية لصحيفة *نيويورك تايمز* فذلك في الواقع أفضل وظيفة في العالم. بمعنى أن هناك شخصاً ما يجب أن يشغل أفضل وظيفة، أليس كذلك؟ حسناً، لقد حصلت أنا على هذه الوظيفة. والسبب في تميز هذه الوظيفة هو أنني يجب أن أكون سائحاً له موقف. إذ يجب أن أكون في أي مكان، وفي أي وقت من الأوقات، وأن يكون لي مواقف إزاء ما أرى وأسمع. بيد أن السؤال كان بالنسبة لي وأنا أشرع في هذه الملحمة: أية مواقف؟ ماذا تكون عدساتي في الرؤية، أو المنظور، أو النظام الذي سيسير عليه المقال أو القصة الأعظم التي سوف أنظر من خلالها إلى العالم، والتي ستجعل للأحداث معنى، وأضع أولوياتها، وأبدي رأيي فيها وأساعد القراء على فهمها؟

لقد كانت مهمة من تولوا قبلي هذه الوظيفة أسهل قليلاً على نحو ما. إذ كانت القصة الأعظم الشديدة الوضوح والنظام العالمي المستقر قائمين أمام كل منهم.

فأنا خامس كاتب عمود فى الشئون الخارجية فى تاريخ صحيفة **نيويورك تايمز**. ففى الواقع كان عنوان «الشئون الخارجية» أقدم عمود فى الصحيفة. وقد بدأت هذا العمود فى عام 1937سيدة رائعة هى آن أوهير ماكورميك، وكان اسمه فى البداية، «فى أوروبا» ، ففى تلك الأيام كانت «فى أوروبا» ، تعنى الشئون الخارجية لمعظم الأمريكيين، وكان من الطبيعى تماماً أن يكون كاتب العمود الخارجى الوحيد للصحيفة متمركزاً فى القارة الأوروبية. وقد جاء فى النعى الذى نشرته الصحيفة للسيدة ماكورميك فى عام 1954 أنها بدأت عملها مراسلة فى الشئون الخارجية «لأنها زوجة للسيد ماكورميك، المهندس الذى يعمل بمدينة ديتون، وكانت تصحبه فى رحلات الشراء الكثيرة له فى أوروبا» . (أصبح النعى الذى تنشره صحيفة **نيويورك تايمز** أكثر دقة من الناحية السياسية منذ ذلك الوقت) . وكان النظام الدولى الذى تغطيه فى وظيفتها هو تفسخ ميزان القوى الذى أرسته معاهدة ڤيرساى فى أوروبا وبدايات الحرب العالمية الثانية.

وبعد أن خرجت أمريكا من الحرب العالمية الثانية تواجه العالم باعتبارها القوة العظمى المتفوقة ذات المسئوليات العالمية وأصبحت طرفاً فى صراع عالمى للقوى مع الاتحاد السوڤيتى تغير عنوان العمود فى عام 1954 إلى «الشئون الخارجية» . وأصبح العالم كله فجأة ملعباً لأمريكا وأصبح أمر العالم كله يهمها، لأنه أصبح هناك منافسة مع الاتحاد السوڤيتى فى كل ركن من أركان العالم. وأصبح النظام الدولى للحرب الباردة، بما فيه تنافس على النفوذ والتفوق بين الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى، بين واشنطن وموسكو وبيچنج (بكين) ، هو القصة الأعظم التى نظم كتاب الأعمدة الثلاثة التالون لماكورميك آراءهم حولها.

بيد أنه عندما بدأت أنا كتابة العمود فى بداية عام 1995 ، كانت الحرب الباردة قد انتهت. وانهار سور برلين وأصبح الاتحاد السوڤيتى تاريخاً. وكان من حسن طالعى

أن أشهد في الكرملين واحداً من آخر أنفاس الاتحاد السوفيتي، وكان ذلك في يوم 16 ديسمبر عام 1991. وكان جيمس بيكر الثالث وزير الخارجية الأمريكي في ذلك الوقت في زيارة لموسكو، حين كان بوريس يلتسين يطيح بلطف بميخائيل جورباتشوف إلى خارج السلطة. وكانت كل المحادثات السابقة التي كانت تدور بين بيكر وجورباتشوف تجرى في قاعة سانت كاترين المذهبة في الكرملين. وكان يوجد دائماً مشهد منسق للغاية لدخول الصحافة إلى القاعة، إذ ينتظر السيد بيكر ومرافقوه خلف باب خشبي مزدوج هائل الحجم عند أحد طرفي قاعة الكرملين الطويلة، وينتظر جورباتشوف وفريقه خلف الباب الآخر عند الطرف الثاني من القاعة. وبعد ذلك، وبناء على إشارة ما، يفتح البابان في آن واحد ليدلف الرجلان منهما حيث يتصافحان أمام الكاميرات في وسط الغرفة. حسناً، وصل بيكر في ذلك اليوم في الساعة المحددة، وفتح البابان كلٌ على مصراعيه، ودخل يلتسين بدلاً من جورباتشوف. من القادم على العشاء! قال يلتسين لبيكر، «مرحباً بك على الأرض الروسية وفي هذا المبنى الروسي». وقد اجتمع بيكر بالفعل في وقت لاحق مع جورباتشوف، ولكن كان من الواضح أنه قد حدث انتقال للسلطة. أما نحن، المراسلين الصحفيين الأمريكيين المختصين بوزارة الخارجية الذين جئنا لرصد الحدث، فقد انتهى بنا الأمر إلى قضاء ذلك اليوم بطوله في الكرملين. وقد هطلت الثلوج بغزارة أثناء وجودنا في الداخل، وعندما خرجنا في نهاية الأمر بعد الغروب وجدنا ساحة الكرملين مغطاة بطبقة كثيفة من الثلوج البيضاء. وكانت أحذيتنا، أثناء خروجنا من بوابة سباسكي في الكرملين، تترك آثارها على الجليد، عندما لاحظت أن العلم الأحمر الذي يوجد عليه المطرقة والسندان ما زال يرفرف فوق سارية الكرملين، وتتسلط عليه أضواء كاشفة كعهده منذ نحو سبعين عاماً. قلت لنفسي: «ربما تكون هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها ذلك العلم مرتفعاً هناك». وبالفعل، بعد بضعة أسابيع كان قد ذهب ، وذهب معه نظام الحرب الباردة والقصة الأعظم.

غير أن الشئ الذى لم يكن واضحاً لى وأنا عاكف على أداء وظيفتى فى كتابة عمودى الصحفى بعد ذلك بسنوات قليلة هو ما حل محل نظام الحرب الباردة كإطار غالب لتنظيم الشئون الدولية. وهكذا بدأت كتابة عمودى الصحفى بالفعل كسائح بدون موقف، أى مجرد عقل مفتوح. وظللت لعدة سنوات، مثلى مثل الآخرين جميعاً، أشير فقط إلى «عالم ما بعد الحرب الباردة». كنا نعرف أن هناك نظاماً جديداً على وشك الميلاد يمثل إطاراً عاماً مختلفاً للعلاقات الدولية، ولكننا لم نكن نستطيع تعريف ماهيته، ومن ثم فقد كنا نعرفه بما ليس فيه. فهو لم يكن الحرب الباردة. لذلك فقد أطلقنا عليه اسم عالم ما بعد الحرب الباردة.

غير أننى كلما زادت أسفارى تبين لى أن هذا النظام له منطقه الخاص ويستحق أن يكون له اسم خاص به: «العولمة». والعولمة ليست ظاهرة. وليست مجرد اتجاه عابر. فاليوم أصبح النظام الدولى العلوى يشكل السياسات الداخلية والعلاقات الخارجية لكل دولة فى العالم تقريباً، ونحن بحاجة إلى أن نفهمه على هذا النحو.

عندما أتكلم عن «نظام الحرب الباردة» و«نظام العولمة» فماذا أعنى بذلك؟

أعنى أن الحرب الباردة، كنظام دولى، كان لها هيكلها القوى الخاص بها: التوازن بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. وكانت للحرب الباردة قواعدها الخاصة بها: فى مجال العلاقات الخارجية، لايمكن لأى من القوتين العظميين التعدى على مجال نفوذ الأخرى. وفى مجال الاقتصاد، لابد أن تركز البلدان الأقل تقدماً جهودها على رعاية صناعاتها الوطنية، وأن تركز الدول النامية على زيادة النمو عن طريق الصادرات، والدول الشيوعية على الاكتفاء الذاتى، والاقتصاديات الغربية على التجارة المقننة. وكانت للحرب الباردة أفكارها الخاصة السائدة: الصدام بين الشيوعية والرأسمالية، بالإضافة إلى حالة الانفراج فى العلاقات وعدم الانحياز والبرويسترويكا.

وكانت للحرب الباردة اتجاهاتها الديموجرافية الخاصة بها: تجميد حركة انتقال الأفراد من الشرق إلى الغرب بفعل الستار الحديدى إلى حد كبير، بيد أن الحركة من الجنوب إلى الشمال كانت فى تدفق أكثر اضطراداً. وكانت للحرب الباردة المنظور الخاص بها تجاه العالم: العالم عبارة عن مساحة مقسمة إلى المعسكر الشرقى، والمعسكر الغربى، والمعسكر المحايد، وكانت كل دولة من دول العالم ضمن واحد من هذه المعسكرات. وكانت للحرب الباردة التكنولوجيا الخاصة بها: كانت الأسلحة النووية والثورة الصناعية الثانية مسيطرتين، غير أن المطرقة والسندان ظلا بالنسبة للكثيرين من الناس فى البلدان النامية هما الأداتين الأكثر أهمية. وكانت للحرب الباردة مقياسها الخاص: ثقل قذف الصواريخ النووية. وأخيراً، كانت للحرب الباردة أسباب القلق الخاصة بها: الخراب النووى. وبالنظر إلى هذه العناصر مجتمعة نجد أن نظام الحرب الباردة ذاك أثر فى السياسات الداخلية والعلاقات الخارجية لكل دولة من دول العالم تقريباً. إن نظام الحرب الباردة لم يشكل كل شئ، ولكنه شكل كثيراً من الأشياء.

وحقبة العولمة اليوم التى حلت محل الحرب الباردة هى أيضاً نظام دولى مماثل، ولكن له صفاته الفريدة الخاصة به.

أول كل شئ إن نظام العولمة، على عكس نظام الحرب الباردة، ليس نظاماً جامداً، ولكنه عملية ديناميكية مستمرة: العولمة تنطوى على ذلك التكامل الصارم فى الأسواق، وفى الدول الأمم، وفى التكنولوجيات إلى درجة لم تحدث من قبل، وبطريقة تمكن الأفراد والشركات والدول الأمم، من التجول حول العالم والوصول إلى مسافات أبعد وبصورة أسرع وأعمق وأرخص من أى وقت مضى، وبطريقة من شأنها أن تفرز أيضاً ردة قوية من جانب أولئك الذين تعرضوا لمعاملة وحشية أو فاتهم ركب ذلك النظام الجديد.

إن الفكرة الدافعة وراء العولمة هى رأسمالية السوق الحرة؛ إذ كلما تركت قوى السوق هى التى تحكم وكلما فتحت أبواب اقتصادك أمام التجارة الحرة والمنافسة، أصبح اقتصادك أكثر كفاءة وازدهاراً. والعولمة تعنى انتشار رأسمالية السوق الحرة إلى كل دولة تقريباً فى العالم. والعولمة أيضاً لها مجموعة خاصة بها من القوانين الاقتصادية ـ قوانين تدور حول انفتاح اقتصاد كل دولة وإلغاء القوانين المنظمة له وخصخصته.

والعولمة، على عكس نظام الحرب الباردة، لها ثقافتها الغالبة الخاصة بها، وهذه الثقافة تجعلها تميل نحو إيجاد التجانس. كان هذا الاتجاه نحو التجانس الثقافى فى الحقب السابقة يحدث على نطاق إقليمى ـ الهيلينية فى الشرق الأدنى وحوض البحر المتوسط تحت حكم الإغريق، أو أتركة آسيا الوسطى وشمال أفريقيا وأوروبا والشرق الأوسط تحت الحكم العثمانى، أو التأثير الروسى فى شرق أوروبا ووسطها وأجزاء من آسيا الأوروبية فى ظل الاتحاد السوڤيتى. العولمة، من الناحية الثقافية، هى إلى حد بعيد، ولكن ليس بصورة شاملة، انتشار للأمركة، بدءاً من البيج ماك والأيماك وانتهاء بميكى ماوس، على نطاق يشمل العالم.

والعولمة لها تكنولوجياتها المحددة الخاصة بها: دنيا الكمبيوتر، تصغير الأشياء إلى منمنمات، والرقميات، والاتصالات عن طريق الأقمار الصناعية، وبصريات الألياف والإنترنت. وقد ساعدت هذه التكنولوجيات على إيجاد المنظور الذى يحدد العولمة. فإذا كان المنظور الذى يحدد عالم الحرب الباردة هو «الانقسام» فالمنظور الذى يحدد العولمة هو «التكامل». كان الرمز لنظام الحرب الباردة هو السور الذى يقسم الجميع. أما رمز نظام العولمة فهو شبكة الإنترنت العالمية التى توحد بين الجميع. كانت الوثيقة التى تحدد نظام الحرب الباردة هى «المعاهدة». أما الوثيقة التى تحدد نظام العولمة فهى «الصفقة».

وما أن تقفز دولة ما إلى نظام العولمة، حتى تبدأ الصفوة فيها في إدماج منظور التكامل هذا في الداخل، وتحاول دائماً تحديد موقع بلادها في إطار عالمي. كنت في زيارة لعمان، عاصمة الأردن في صيف عام 1998، وكنت في فندق إنتركونتننتال أحتسي القهوة مع صديقي رامي خوري، وهو أحد كتاب الأعمدة السياسية البارزين في الأردن. جلسنا معاً وسألته: ما الجديد؟ وكان أول شئ قاله لي هو: «لقد أضيفت الأردن من توها إلى نشرة أخبار الأرصاد الجوية في شبكة سي إن إن». إن ما قاله رامي يعني أنه من المهم بالنسبة للأردن أن تعرف هذه المؤسسات، التي يشمل تفكيرها العالم كله، أن ثمة جدوى الآن من معرفة حالة الطقس في عمان. فهذا يجعل الأردنيين يشعرون بمزيد من الأهمية ويقدم لهم الأمل بتحقيق المزيد من الدخل من زيادة السائحين والزائرين من العالم. وفي اليوم التالي لالتقائي برامي، تصادف أن ذهبت إلى إسرائيل وتقابلت مع جاكوب فرينكل محافظ البنك المركزي الإسرائيلي والاقتصادي المتدرب في جامعة شيكاجو. ولاحظ فرينكل أنه هو أيضاً يمر بتغيير في المنظور: «كنا من قبل، عندما نتحدث عن الاقتصاد الكلي، نبدأ بنظرة على الأسواق المحلية، والنظام المالي المحلي، والعلاقة المتبادلة بينهما، ثم ننظر بعد ذلك، وكنوع من التفكير العرضي، في الاقتصاد الدولي. كان هناك شعور بأن ما نصنعه هو في الدرجة الأولى شئ يخصنا ثم يوجد بعد ذلك بعض المنافذ التي سوف نبيع فيها في الخارج. والآن أصبح المنظور معكوساً. إننا لن نسأل عن الأسواق التي يجب أن نصدر إليها، بعد أن نحدد الأشياء التي ننتجها، بل علينا أولاً أن ندرس الإطار العالمي الذي نعمل من خلاله ثم نقرر بعد ذلك ماذا ننتج. إن ذلك يغير منظورك بأسره».

ولئن كان المقياس الذي تعرف به الحرب الباردة هو الثقل ولا سيما ثقل قذف الصواريخ ـ إلا أن المقياس الذي يعرف به نظام العولمة هو السرعة: سرعة التجارة والسفر والاتصال والابتكار. فالحرب الباردة كانت تتعلق بمعادلة الكتلة والطاقة لأينشتاين،

$e= mc^2$ (الطاقة = مربع الكتلة). أما العولمة فتتعلق بقانون مور، الذى ينص على أن القوة الحاسبة لشذرات السيليكون سوف تتضاعف كل فترة تتفاوت بين ثمانية عشر شهراً وأربعة وعشرين شهراً. فى الحرب الباردة، كان السؤال الأكثر ترديداً هو: «ما مدى ضخامة صاروخك؟» أما فى العولمة، فالسؤال الأكثر ترديداً هو: «ما مدى سرعة المودم لديك؟»

ولئن كان الاقتصاديان اللذان يعرفان نظام الحرب الباردة هما كارل ماركس وجون مينارد كينز، وكان كل منهما يرغب بطريقته الخاصة فى ترويض الرأسمالية، فإن الاقتصاديين اللذين يحددان نظام العولمة هما جوزيف شومبيتر وآندى جروف المدير التنفيذى الأول السابق لشركة إنتل، وهما اللذان يفضلان إطلاق العنان للرأسمالية. لقد عبر شومبيتر وزير المالية النمساوى السابق والأستاذ بكلية الأعمال فى جامعة هارفارد عن وجهة نظره فى كتابه الكلاسيكى ***الرأسمالية والاشتراكية والديموقراطية***، ومؤداها أن جوهر الرأسمالية هو عملية «التدمير الخلاق» ـ أى دورة دائمة من تدمير المنتج أو الخدمة القديمة أو الأقل كفاءة وإحلال الجديد والأكثر كفاءة محله. أما آندى جروف فقد استعار نظرة شومبيتر الثاقبة «لن يكتب البقاء إلا للمجنون بالاضطهاد» عنواناً لكتابه عن الحياة فى وادى السيليكون، وجعله من نواح عديدة نموذج العمل لرأسمالية العولمة. وعمل جروف على انتشار وجهة النظر القائلة بأن الابتكارات المذهلة التى من شأنها تغيير شكل الصناعة تحدث الآن بصورة أسرع وأسرع. إذ بفضل تلك الإنجازات التكنولوجية الكبرى، أصبحت الآن سرعة البرق هى السرعة، التى من شأنها أن تجعل من أحدث اختراعاتك شيئاً عفا عليه الزمن أو تحوله إلى مجرد سلعة. ولذلك، فإن من لديهم عقدة الاضطهاد وحدهم هم أولئك الذين يتلفتون دائماً ـ حولهم فى ريبة ليعرفوا من الذين يبتكرون شيئاً جديداً وبالتالى سوف يدمرونهم ومن ثم فلابـد أن يظلوا متقدمين عليهم بخطوة، هؤلاء هم الذين سيكتب لهم البقاء. ولسوف يكتب الازدهار فى عصر العولمة لتلك الدول التى سترغب أكثر

من غيرها فى السماح للرأسمالية بالقضاء فوراً على الشركات المتعثرة بحيث يستطيع المال أن يتحرر ويوجه إلى الشركات الأكثر ابتكاراً، أما تلك الدول التى ستعتمد على حكوماتها فى حمايتها من ذلك التدمير الخلاق فسوف تتخلف عن الركب فى هذه الحقبة.

لقد قدم جيمس سورويكى، الكاتب الصحفى فى شئون الأعمال الحرة بمجلة **سليت** فى عرضه لكتاب جروف تلخيصاً دقيقاً للعامل المشترك بين شومبيتر وجروف الذى يعتبر جوهر اقتصاديات العولمة. إنها تلك الفكرة القائلة بأن «الابتكار يحل محل التقليد. ويحل الحاضر وربما المستقبل محل الماضى. لا شئ فى أهمية ما سيأتى بعد، ولن يصل ما سيأتى بعد إلا بعد الإطاحة بما هو موجود الآن. ولئن كان ذلك يجعل من هذا النظام مكاناً رائعاً للابتكار والتجديد، فإنه يجعله مكاناً يصعب العيش فيه، لأن الناس يفضلون نوعاً ما من الشعور بالأمان تجاه المستقبل على حياة العيش فيها محاط بالشكوك باستمرار تقريباً .... إننا لسنا مجبرين على إعادة صياغة علاقاتنا مع أولئك المقربين منا بصورة منتظمة. ومع ذلك فإن هذا بالتحديد ما يرى شومبيتر وجروف من بعده أنه أمر ضرورى لتحقيق الازدهار (اليوم)».

فى الواقع إذا كانت الحرب الباردة نوعاً من الرياضة فإنها تكون أشبه بمصارعة السومو، يقول مايكل ماندلبوم أستاذ الشئون الخارجية بجامعة جونز هوبكنز. «إنها عبارة عن رجلين بدينين ضخمى الجثة فى حلبة، يقومان بكل أنواع الأوضاع والطقوس وحركات الأرجل الراقصة، ولكن لا يوجد بينهما فى الواقع سوى النذر اليسير من الاتصال، حتى نهاية المباراة، عندما يحتدم الصراع بينهما لبرهة وجيزة ويدفع الخاسر إلى خارج الحلبة، ولكن لا تحدث أية خسائر فى الأرواح».

وعلى العكس إذا كانت العولمة نوعاً من الرياضة فإنها ستكون أشبه بسباق المائة متر المستمر مراراً وتكراراً. ولا يهم عدد المرات التى تفوز فيها، وإنما عليك الاشتراك

فى سباق اليوم التالى. أما إذا خسرت بواقع واحد على مائة من الثانية فإن الخسارة ستكون وكأنها بواقع ساعة. (ما عليك إلا أن تسأل فى ذلك الشركات متعددة الجنسية فى فرنسا. ففى عام 1999، تغيرت قوانين العمل الفرنسية بحيث أصبحت تتطلب ـ *تتطلب* ـ من كل صاحب عمل تنفيذ خفض لساعات العمل الأسبوعية القانونية من 39 ساعة إلى 35 ساعة، وبدون خفض فى الأجور. وقد سعت كثير من الشركات الفرنسية جاهدة للانتقال من فرنسا بسبب أثر ذلك فى الإنتاجية فى سوق عالمية. وقد صرح هنرى تييرى، مدير الموارد البشرية فى شركة طومسون ـ سى إس إف للاتصالات، وهى شركة لإنتاج التكنولوجيا المتقدمة يقع مقرها فى إحدى ضواحى باريس لصحيفة ***واشنطن بوست*** بقوله: «إننا نعيش فى ظل منافسة تشمل العالم أجمع. وإذا فقدنا نقطة واحدة فى الإنتاجية فسوف نفقد طلبيات. وإذا فرض علينا تنفيذ قرار العمل 35 ساعة فسوف يكون ذلك بمثابة أن تطلب من الرياضيين الفرنسيين الجرى فى سباق 100متر وهم يرتدون زعانف فى أرجلهم، ولن تكون لديهم أية فرصة للفوز بميدالية»).

إذا أعدنا صياغة ما قاله المنظر السياسى الألمانى كارل شميت فقد كانت الحرب الباردة عالماً من «الأصدقاء» و «الأعداء». أما عالم العولمة فهو على العكس يميل إلى تحويل كل الأصدقاء والأعداء إلى «متنافسين».

ولئن كان القلق الذى تُعرِّف به الحرب الباردة هو الخوف من الفناء على يد عدو تعرفونه جميعاً معرفة جيدة فى ظل صراع عالمى محدد وثابت، فإن القلق الذى تُعرِّف به العولمة هو الخوف من ذلك التغير السريع من عدو لا تستطيع أن تراه أو تلمسه أو تحسه، وهو إحساس بأن وظيفتك أو المجتمع الذى تعيش فيه أو مكان العمل يمكن أن يتغير فى أى لحظة بفعل قوى اقتصادية وتكنولوجية مجهولة صفتها الوحيدة هى عدم الثبات.

فى الحرب الباردة سعينا إلى إقامة الخط الساخن بين البيت الأبيض والكرملين، وهو ما يرمز إلى أننا جميعاً منقسمون، ولكن هناك على الأقل من يتولى المسئولية: القوتان العظميان. أما فى حقبة العولمة فإننا نسعى من أجل الوصول إلى الإنترنت، وهو ما يرمز إلى أننا جميعاً على اتصال ولكن لا يوجد من هو مسئول. ولقد كان النظام الدفاعى الذى تُعرِّف به الحرب الباردة هو الرادار، وذلك لكشف التهديدات القادمة من الجهة الأخرى من السور. أما النظام الدفاعى الذى تعّرف به حقبة العولمة فهو جهاز الأشعة السينية لكشف التهديدات القادمة من الداخل.

وللعولمة أيضاً طرازها الديموجرافى الخاص بها، وهو التسارع المستمر فى حركة الناس من المناطق الريفية وأساليب الحياة الزراعية إلى المناطق الحضرية وأساليب الحياة الحضرية شديدة الارتباط بالموضة، والطعام، والأسواق واتجاهات التسلية السائدة فى العالم.

وأخيراً، والأهم من أى شئ، أن العولمة لها هيكل القوة الذى تعّرف به، والذى يتميز بأنه أكثر تركيباً من هيكل الحرب الباردة. فقد اقتصر بناء نظام الحرب الباردة على الدول الأمم وتحقق له التوازن عند المركز بالقوتين العظميين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

أما نظام العولمة فهو على العكس قائم على أساس ثلاثة توازنات تتداخل مع بعضها بعض وتؤثر فى بعضها بعض. التوازن الأول يتمثل فى التوازن التقليدى بين الدول الأمم. ففى نظام العولمة أصبحت الولايات المتحدة الآن القوة المسيطرة الوحيدة وكل الأمم الأخرى تابعة لها بدرجة أو بأخرى. وما زال التوازن فى القوى بين الولايات المتحدة والدول الأخرى مهماً فى تحقيق الاستقرار لهذا النظام. كما إنه يفسر الكثير من الأنباء التى تقرأها على الصفحة الأولى فى الصحف، سواء كان ذلك عن احتواء

العراق في الشرق الأوسط أو في توسيع حلف شمال الأطلنطي في وسط أوروبا على حساب روسيا.

التوازن الثاني في نظام العولمة هو بين الدول الأمم والأسواق العالمية. فهذه الأسواق العالمية تقوم على ملايين المستثمرين الذين يحركون أموالهم حول العالم بمجرد الضغط على فأر الكمبيوتر (الماوس). وأنا أسميهم «القطيع الإلكتروني»، وهذا القطيع يتجمع في المراكز المالية العالمية الرئيسة، مثل: وول ستريت، وهونج كونج، ولندن، وفرانكفورت، التي أسميها «أسواق السوبر ماركت». ومن الممكن أن تؤثر مواقف وتصرفات القطيع الإلكتروني والسوبر ماركت تأثيراً هائلاً في الدول الأمم اليوم، بما قد يصل حتى إلى التسبب في إسقاط الحكومات. ولن يستطيع المرء فهم ما ينشر في الصفحة الأولى للصحف اليوم، سواء كانت تلك أنباء إسقاط سوهارتو في إندونيسيا أو الانهيار الداخلي في روسيا أو السياسة النقدية للولايات المتحدة، ما لم يدخل أسواق السوبر ماركت في تحليله لهذه الأحداث.

إن الولايات المتحدة تستطيع تدميرك بالقنابل، والسوبر ماركت يستطيع تدميرك بخفض قيمة أسهمك. والولايات المتحدة هي اللاعب الرئيس في المحافظة على لوحة لعبة شطرنج العولمة، ولكنها ليست وحدها التي تؤثر في التحركات فوق لوحة اللعب. إن لوحة لعب شطرنج العولمة اليوم تشبه كثيراً لوحة أويجا Ouija - حيث تتحرك القطعة أحياناً فوق اللوحة بوضوح بيد القوة العظمى، وأحياناً تحركها أيدي السوبر ماركت الخفية.

والتوازن الثالث الذي يجب أن توليه اهتمامك في نظام العولمة، وهو أحدث التوازنات على الإطلاق، هو التوازن بين الأفراد والدول الأمم؛ إذ إنه نظراً لأن العولمة حطمت الكثير من الأسوار التي كانت تحد من الحركة والوصول إلى الناس،

ونظراً لأنها ربطت العالم معاً في شبكة اتصالات عالمية، فقد أعطت مزيداً من القوة للأفراد تمكنهم من التأثير في الأسواق وفي الدول الأمم على السواء أكثر من أي وقت مضى، ولذلك، فما لديك الآن ليست قوة عظمى فقط، وليست أسواق السوبر ماركت فقط، وإنما لديك أيضاً أفراد اكتسبوا قوة عظمى حسبما سأوضح لاحقاً في هذا الكتاب. وبعض هؤلاء الأفراد ممن اكتسبوا قوة عظمى غاضبون إلى حد بعيد، وبعضهم رائع إلى حد بعيد، غير أنهم جميعاً قادرون الآن على العمل مباشرة على المسرح العالمي بدون الوساطة التقليدية للحكومات أو الشركات أو أي مؤسسات عامة أو خاصة أخرى.

لقد استطاعت منظمة إدارة رؤوس الأموال طويلة المدى -وهي منظمة تضم مجموعة صغيرة من الرجال ومقرها جرينيتش بولاية كونيكتيكت، وبدون علم الولايات المتحدة- القيام بمضاربات مالية في أنحاء العالم تفوق في قيمتها جميع الاحتياطي الصيني من العملات الأجنبية.

ونالت جودي وليامز جائزة نوبل للسلام لعام 1997 لإسهامها في الحظر الدولي على الألغام الأرضية. استطاعت تحقيق هذا الحظر ليس فقط بدون مؤازرة حكومية كبيرة، بل وأيضاً في ظل معارضة من القوى الكبرى الخمس في العالم. وماذا قالت عن سلاحها السري الذي استخدمته في تنظيم ألف جماعة مختلفة من جماعات حقوق الإنسان والرقابة على التسلح في القارات الست؟ «إنه البريد الإلكتروني E-mail».

ما زالت الدول الأمم والقوة العظمى الأمريكية بصفة خاصة لها أهمية هائلة اليوم، ولكن أسواق السوبر ماركت والأفراد الذي اكتسبوا قوة عظمى لهم أيضاً هذه الأهمية الآن ولن يستطيع المرء أبداً فهم نظام العولمة، ولا الصفحة الأولى في

الصحيفة الصباحية، ما لم يعتبرها نوعاً من التفاعل المركب بين هؤلاء الممثلين الثلاثة: دول تتصارع ضد دول، ودول تتصارع ضد أسواق السوبر ماركت، ودول تتصارع ضد الأفراد الذين اكتسبوا قوة عظمى.

لقد استغرقنا جميعاً وقتاً طويلاً فى وضع نظام العولمة تحت الفحص الدقيق وتقدير مفاهيمه الضمنية. وقد كان علىّ، مثلى مثل كل الآخرين الذين يحاولون التكيف معه، أن أعيد تدريب نفسى بالفعل وأن أطور لنفسى عدسات جديدة لرؤيته. ودعنى أبدأ باعتراف كنت أتوق إلى إلقاء عبئه عن كاهلى منذ فترة طويلة، طويلة، حتى أستطيع أن أشرح كيف حققت ذلك. فهل أنت على استعداد؟ إليك الاعتراف: لقد اعتدت جمع تقارير الطقس من بيروت.

حسناً، ولكننى فى الواقع لم أكن أجمعها. لأن ذلك سيكون التعبير الخاطئ. كنت «أضع تقديراتها». كان ذلك فى عام 1979 وكنت أعمل مراسلاً مبتدئاً فى بيروت لوكالة أنباء يونايتد برس إنترناشيونال (يو بى آى UPI). وكان يتعين على كثيراً أن أعمل فى الوردية المتأخرة من الليل، ومن بين مسئوليات من يعمل حتى وقت متأخر أن يرسل تقريراً عن الطقس من بيروت لإدراجه ضمن تقرير وكالة يو بى آى عن الطقس فى أنحاء العالم لكى يرسل إلى الصحف كل يوم مع درجات الحرارة العظمى والصغرى. وكانت المشكلة الوحيدة تتمثل فى أنه لم يكن هناك خبير للأرصاد الجوية فى بيروت أو على الأقل ليس معروفاً لى. وكان هذا البلد فى خضم حرب أهلية فمن ذا الذى يعبأ بدرجة الحرارة؟ كان الناس سعداء لمجرد أنهم أحياء. وكانت درجة الحرارة الوحيدة التى تهم المرء فى بيروت فى تلك الأيام هى حرارتك أنت شخصياً ـ 98.6 درجة فهرنهيت(37° س). ومن ثم كنت أقدر كثيراً درجة الحرارة باستفتاء الشخص الوحيد الموجود. وكانت عملية جمع تقرير الطقس تتضمن أساساً صياحى عبر القاعة قائلاً، «هاى، أحمد، ماذا عن الجو عندك فى الخارج اليوم؟»

وقد يرد أحمد أو سونيا أو داوود صائحاً «يعنى! حار نوعاً ما».

أسأل: «حوالى 90 درجة؟» ويأتينى الرد: «بالتأكيد، مستر توماس، كلامك صحيح». أو «شئ كهذا» وهكذا أكتب فى تقريرى «الدرجة العظمى 90» ثم إننى قد أسأل فى وقت لاحق! «هل الجو بارد نوعاً ما فى الخارج؟» ويأتينى الرد: «بالتأكيد مستر توماس»، ثم أسأل: حوالى 72درجة، فى رأيك؟» ويأتينى الرد؛ «بالتأكيد مستر توماس، كلامك صحيح». وهكذا أكتب أنا فى التقرير «الدرجة الصغرى 72». وعلى هذا النحو كان تقرير الطقس يرسل من بيروت.

بعد ذلك بعدة سنوات كنت أعود بالذاكرة إلى هذه اللحظات التى كنت أجد نفسى فيها أعمل فى القسم الاقتصادى والأعمال بصحيفة ***نيويورك تايمز***. كانت توكل إلىّ أحياناً مهمة كتابة الأخبار المتعلقة بالأسعار اليومية للدولار أو أسعار الأسهم فى البورصة، وكان علىّ أن أقوم بجولة بين السماسرة بعد إقفال الأسواق لمعرفة سعر الإقفال للدولار مقابل العملات الرئيسية، أو للتأكد من سبب انخفاض أو ارتفاع مؤشر داو جونز لمتوسط أسعار الأسهم الصناعية الكبرى. وكان مما يثير دهشتى دائماً أنه أيا كان اتجاه تحرك الأسواق، أو انخفاض أو ارتفاع سعر الدولار، فهناك دائماً أحد المحللين الذين لديهم ما يقولونه من بليغ القول فى شرح السبب فى أن المعاملات التى بلغت قيمتها 1.2 تريليون دولار والتى تمثلت فى القارات الست على مدار أربع وعشرين منطقة زمنية مختلفة قد أسفرت عن انخفاض سعر الدولار أو ارتفاعه مقابل الين اليابانى بواقع نصف بنس. وكنا جميعاً نصدق هذا التفسير. ولكن هناك فى مكان ما من مؤخرة رأسى اعتدت أن أتساءل ماذا لو كان هؤلاء المعلقون يحاولون جرّ رجلى فحسب. فى مكان ما من مؤخرة رأسى اعتدت أن أتساءل ماذا لو كان ذلك مجرد نسخة وول ستريت من تقرير الطقس الذى يرسل من بيروت، حيث يوجد ثمة شخص يصيح عبر القاعة فى مكاتب ميريل لينش أو بينويير بشئ على غرار، «هاى،

أحمد، لماذا انخفض سعر الدولار اليوم؟» وأيا كان الرد القادم من الشخص الذى تصادف مروره سواء كان الساعى المختص بالأسهم أو السكرتير أو أى سمسار، فسوف يظهر هذا الرد فى النهاية فى صحيفة اليوم التالى باعتباره التفسير العالمى لتصرف الآلاف من المتعاملين فى الأوراق المالية فى أنحاء العالم.

فى عام 1994، كنت أعمل مراسلاً لصحيفة ***نيويورك تايمز*** لشئون التجارة والمال الدولية، حيث كنت أغطى محادثات تجارية بين الولايات المتحدة واليابان. كنت جالساً أتصفح البرقيات الإخبارية على جهاز الكمبيوتر عصر أحد الأيام، عندما لفت انتباهى خبران على وكالة أنباء رويترز، الواحد تلو الآخر:

ارتفاع سعر الإقفال للدولار وسط أجواء متفائلة بالمحادثات التجارية نيويورك (رويترز) - ارتفع سعر الإقفال للدولار مقابل معظم العملات الرئيسية الجمعة مع تزايد التفاؤل باحتمال توصل واشنطن وطوكيو إلى اتفاقية تجارية.

انخفاض سعر الإقفال لأسهم بلو تشيبس وسط أجواء تشكك إزاء المحادثات التجارية: نيويورك (رويترز) - انخفض سعر الإقفال لأسهم بلو تشيبس الجمعة وسط أجواء من التشكك إزاء المحادثات التجارية الأمريكية اليابانية قبل الموعد المحدد بمنتصف الليل لفرض عقوبات اقتصادية.

«هاى، أحمد، ماذا ترى عن المحادثات الأمريكية اليابانية؟»

إن ما كنت أقوم به فى تلك الأيام أثناء كتابة تقارير الطقس من بيروت، وما كانت تقوم به وكالة أنباء رويترز فى أخبارها الخاصة بأسعار الأسهم والعملات، هو محاولة لتنظيم الفوضى - بدون تحقيق نجاح لأى منا. كنت أعرف عندما بدأت العمل كاتب عمود فى الشئون الخارجية فى عام 1995 أننى قد لا أستمر فى هذا العمل كثيراً إذا اقتصر ما أقوم به من أجل تنظيم الفوضى على المعادل السياسى لمجرد تخمين حالة الطقس ودرجات الحرارة فى بيروت. إذن ما العمل؟ كيف يتسنى لى فهم وشرح نظام العولمة المركب بصورة يتعذر تصديقها؟

الرد باختصار هو أننى تعلمت أن المرء بحاجة إلى شيئين فى آن واحد: أن ينظر إلى العالم من منظور متعدد الأبعاد ومتعدد البؤرات، وأن ينقل فى الوقت نفسه هذا الوضع المركب إلى القراء فى أخبار بسيطة، وليس فى أخبار فخمة. وهذا هو السبب فى أننى أجيب على من يسألوننى عن كيفية تغطيتى لأخبار العالم هذه الأيام بأننى استخدم أسلوبين: «أقوم بمراجحة المعلومات» حتى يتسنى لى فهم العالم، ثم «أنقل الأخبار» حتى يتسنى لى شرحها.

دعنا ندقق فى كل من هاتين الوسيلتين. ما هى مراجحة المعلومات؟ إن كلمة مراجحة arbitrage مصطلح مستخدم فى أسواق المال. وهو يشير من الناحية الفنية إلى البيع والشراء فى آن واحد للأوراق المالية نفسها أو السلع أو لصرف العملات الأجنبية فى أسواق مختلفة للاستفادة من اختلاف الأسعار واختلاف المعلومات. والمراجح هو تاجر يعلم أن اللحم يباع بسعر دولار للرطل فى شيكاجو وبسعر 1.5دولار فى نيويورك، وهو بهذا يشتريها من شيكاجو ويبيعها فى نيويورك. ويستطيع المرء القيام بمثل هذه المراجحة بين الأسواق. ويستطيع المرء أن يفعل الشئ نفسه فى الأدب. لقد قيل إن الكاتب الأسبانى العظيم خوزيه أورتيجا إى جاسيت كان «يشترى المعلومات رخيصة فى لندن ويبيعها غالية فى أسبانيا». بمعنى أنه كان يتردد على جميع الصالونات العظيمة فى لندن ثم يترجم ما اكتسبه من رؤية ثاقبة هناك إلى الأسبانية للقراء الأسبان هناك فى بلاده. غير أنه سواء كنت تبيع اللحم أو رؤية ثاقبة فإن الوسيلة لكى تصبح مراجحاً ناجحاً هى أن تكون لديك شبكة متسعة من المعلومات وممن يكشفون عن المعلومات ثم تعرف كيف تركبها وتؤلف بينها بطريقة تحقق بها الربح.

وإذا كنت تريد أن تصبح مراسلاً أو كاتب عمود مؤثراً وأن تحاول فهم معنى ما يحدث فى الشئون العالمية اليوم، فعليك أن تكون قادراً على القيام بشئ مماثل. ذلك أنه فى هذا اليوم، أكثر من أى وقت مضى، تختفى تلك الحدود التقليدية بين السياسة

والثقافة والتكنولوجيا والمال والأمن القومى وعلوم البيئة. ولن يكون بوسعك فى كثير من الأحيان توضيح إحداها دون الإشارة إلى الأخريات، ولن تستطيع توضيح الأشياء كلها بدون الإشارة إليها جميعاً. ولذلك، فلكى تكون كاتب عمود أو مراسلاً مؤثراً فى الشئون الخارجية، عليك أن تتعلم كيف تراجح بين المعلومات من هذه المنظورات المتباينة ثم تنسجها معاً من أجل الخروج بصورة للعالم لم تكن لتحصل عليها قط إذا نظرت إليها من منظور واحد فقط. هذا إذن هو جوهر المراجحة بين المعلومات. إن القدرة على قراءة أوجه الارتباط ووصل الخطوط بين النقاط المتباعدة فى عالم أصبحنا جميعاً فيه على هذا القدر الكبير من الاتصال المتبادل هو القيمة المضافة الحقيقية التى يقدمها الصحفى. فإن لم تر أوجه الارتباط فلن ترى العالم.

لقد خلصت إلى هذا الأسلوب بمحض الصدفة تماماً، لأن التغييرات المتعاقبة فى عملى أجبرتنى على إضافة عدسة رؤية جديدة فوق الأخرى، لمجرد أن يتحقق لى البقاء فى عملى. وإليك ما حدث:

بدأت حياتى الصحفية كصحفى فى أضيق الحدود. ففى السنوات العشر الأولى من حياتى العملية قمت بتغطية «أم جميع الحروب القبلية» أى الصراع العربى الإسرائيلى، أولاً من بيروت ثم من القدس. فى تلك الأيام، كانت الصحافة بالنسبة لى عملية ذات بعدين بالضرورة. إنها تتعلق بالسياسة والثقافة، لأن الثقافة فى الشرق الأوسط هى التى تحدد نوع السياسة. بعبارة أخرى، كان العالم بالنسبة لى مجرد مراقبة الناس وهم يتشبثون بجذورهم واقتلاع جيرانهم من جذورهم.

ثم رحلت عن القدس فى عام 1988، بعد عشر سنوات قضيتها فى الشرق الأوسط، وقدمت إلى واشنطن، حيث أصبحت المراسل الدبلوماسى لصحيفة ***نيويورك تايمز***. وكانت أول مهمة أوكلت إلىّ لتغطيتها هى جلسة الاستماع بمجلس الشيوخ الخاصة بالموافقة على تعيين وزير الخارجية المرشح جيمس بيكر الثالث. وإننى لأشعر

بالحرج فى أن أقول إنه نظراً لأننى حاصل على شهادة الليسانس والماجستير فى الدراسات العربية والشرق أوسطية، ولأننى أمضيت معظم السنوات التى قضيتها فى مهنة الصحافة حتى الآن فى تغطية أنباء الشرق الأوسط، فلم أكن أعرف الكثير عن أى جزء آخر من العالم، وكنت بلا شك لا أعرف شيئاً عن معظم القضايا التى كان أعضاء مجلس الشيوخ يعتصرون السيد بيكر فى الإجابة عنها، مثل معاهدة خفض الأسلحة الاستراتيجية (ستارت)، ومنظمة الكونترا، وأنجولا، ومفاوضات الرقابة على الأسلحة بين القوات التقليدية فى أوروبا (CFE)، ومنظمة حلف شمال الأطلنطى (الناتو). لقد شعرت بدوار فى رأسى وأنا خارج من جلسة الاستماع. لم يكن لدىّ فكرة عن المقدمة التى سوف أبدأ بها تقريرى. بل إننى لم أكن أعرف معنى نصف اختصارات الأسماء التى ذكرت. لم أكن أعرف ما إذا كان رجال الكونترا معنا أم ضدنا، واعتقدت أن CFE، كانت خطأ هجائياً وأنها فى الواقع "Cafe" بدون حرف "a". وكل ما كان يدور فى رأسى، وأنا فى طريقى عائداً إلى مكتب ***التايمز***، عنوان عريض فى صحيفة ***واشنطن بوست*** صباح اليوم التالى عن شئ قاله بيكر لم يرد حتى ذكره فى التقرير الذى كتبته لصحيفتى. ولكن بفضل المساعدة التى قدمها لى مراسل ***التايمز*** فى البنتاجون مايكل جوردون، استطعت كتابة خبر متماسك فى ذلك اليوم. ولكننى أدركت حينئذ وفى تلك اللحظة أن الاقتصار على بعدين لن يصلح بعد الآن. ولحسن الحظ، استطعت إضافة بعد جديد إلى السياسة والثقافة وهو بعد الأمن القومى وتوازن القوى، وذلك بفضل السنوات الأربع التى عملت فيها بتغطية الأخبار الدبلوماسية وتضمنت أسفاراً وصلت إلى 500 ألف ميل مع بيكر. وقد شمل ذلك سلسلة المواضيع المترابطة التى تدور حول الرقابة على التسلح، وتنافس القوى الكبرى، وإدارة تحالف الحرب الباردة والجغرافيا السياسية للقوة. وبإضافتى لهذا البعد الجديد تحولت نظرتى السابقة ذات البعدين للعالم. أذكر مرة أننى كنت أصحب بيكر فى رحلة إلى إسرائيل، وطُلب إلى طائرته التحول لفترة وجيزة عن الهبوط فى مطار تل

أبيب و لذلك فقد حلقت فى شكل قوس كبير متسع فوق الضفة الغربية قبل عودتها إلى الهبوط فى المطار. وجدت نفسى أنظر من نافذة طائرة وزير الخارجية إلى أسفل نحو الضفة الغربية، وأنا أقول لنفسى «أتعرف، لم يعد هذا المكان، من حيث موازين القُوى البحتة، على هذا القدر من الأهمية. مكان مثير، نعم. ولكنه مهم من ناحية الجغرافيا السياسية، كلا».

بعد تلك الجولات التى قضيتها فى وزارة الخارجية، ثم تلك الفترة الوجيزة التى أشكر الله أنى قضيتها مراسلاً فى البيت الأبيض (لا أحد يستطيع أن يطلق على هذا العمل صحافة)، أضفت عدسة جديدة فى عام 1994 عندما طلبت منى صحيفة *التايمز* أن أبدأ سبقاً صحفياً جديداً من شأنه تغطية التداخل بين السياسة الخارجية والشئون المالية الدولية. فقد أصبح واضحاً بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتى، أن المال والتجارة يلعبان دوراً أكبر فى تشكيل العلاقات الدولية. وقد كانت عملية السبق الصحفى الذى تحقق بإقرار التداخل المتبادل بين الاقتصاد ووضع سياسات الأمن القومى بمثابة تجربة خطيرة بالنسبة لى ولصحيفة *التايمز* على السواء. كنت من الناحية الفنية قد أوكل إلىّ مهمة المراسل فى وزارتى الخزانة والتجارة، بيد أنه على ضوء خبرتى فى تغطية أخبار وزارة الخارجية والبيت الأبيض، طُلب إلىّ الدمج بين أخبار هذه الجهات جميعاً. لقد كنا نصف هذا السبق أوصافاً مختلفة مثل «الدبلوماسية التجارية» أو « الشئون الخارجية والمال» . ولقد اكتشفت وأنا أقف أمام هذا التداخل شيئين: أولاً أن هذا التداخل سوف يفرز كماً هائلاً من الأخبار مع انتهاء نظام الحرب الباردة. والشئ الآخر الذى اكتشفته هو أنه لا يوجد غيرى فى هذا الموقع. وبدلاً من ذلك، كان هناك الكثير من الصحفيين المختصين بالتجارة الذين لم يسبق لهم تغطية الشئون الدبلوماسية. وهناك الكثير من الصحفيين للشئون المالية الذين لم يسبق لهم تغطية شئون الأمن القومى. وهناك الكثير من الصحفيين الدبلوماسيين الذين

لم يسبق لهم تغطية الشئون المالية. وهناك أيضاً صحفيون فى البيت الأبيض لم يسبق لهم تغطية الشئون المالية أو الشئون الخارجية وليس عليهم سوى تغطية أخبار ما يقوله الرئيس أو يفعله.

كانت إضافة بُعد الأسواق المالية إلى السياسة والثقافة والأمن القومى، بالنسبة لى، مثل إضافة نظارات جديدة والنظر فجأة إلى العالم بأبعاد أربعة. ولقد رأيت بها قصصاً إخبارية لم أكن لأدرك من قبل أنها قصص إخبارية. رأيت أيادى خفية وأصفاد تقيد القادة والأمم عن فعل أشياء لم أكن لأتصورها من قبل.

بيد أنه لم ينقض وقت طويل إلا واكتشفت أن الأبعاد الأربعة ليست كافية. إذ بمجرد تكليفى بالعمل كاتب عمود للشئون الخارجية، أدركت تدريجياً أن القوة الدافعة وراء بزوغ وقوة الأسواق، وأن ما يعيد تشكيل الطريقة التى تتداخل بها أفعال الأمم والأفراد الواحد بالآخر، وأن الشئ الذى يمثل حقيقة جوهر العولمة، هو تلك الاكتشافات التكنولوجية الأخيرة ـ بدءاً من الإنترنت إلى الاتصالات عبر الأقمار الصناعية. أدركت أننى لا أستطيع أن أشرح لنفسى، ناهيك عن الشرح للقراء، القوى التى تشكل السياسات العالمية ما لم أفهم أولاً هذه التكنولوجيات التى تكسب الناس والشركات والحكومات القوة فى جميع أنواع الأساليب الجديدة. إن من يسيطر على السلاح فى مجتمع ما هو شخص له وضع خطير دائماً. أما من يسيطر على التليفونات وعلى كيفية عملها فهو شخص مهم أيضاً. إن حجم ما تمتلكه دولتك من قوات وأسلحة شئ خطير دائماً. غير أن حجم سعة الحزمة الموجودة فى شبكة الإنترنت لديك شئ مهم دائماً. ومن ثم فقد كان علىّ إضافة بُعد آخر وهو ـ التكنولوجيا ـ وأن أصبح صحفياً ينظر إلى الأشياء من خمسة أبعاد. وكان ذلك يعنى إضافة وادى السيليكون إلى قائمة عواصم العالم ـ موسكو، وبيجنج (بكين) ولندن والقدس ـ التى كنت أشعر بأهمية زيارتها مرة فى العام حتى يتسنى لى مسايرة الأحداث التى تجرى فيها.

وفى النهاية، فإننى كلما زادت مراقبتى لنظام العولمة أثناء تفاعله أصبح واضحاً أنه أطلق العنان لقوى التنمية الساحقة للغابات وعملية دائبة من فرض التجانس التى إذا تركت دون تحكم فإنها قادرة على تدمير البيئة واقتلاع الثقافات بسرعة لم يشهدها تاريخ البشرية من قبل. وأدركت تدريجياً أننى إذا لم أضع المنظور البيئى ذاك فى تحليلى للأحداث أكون بذلك قد أغفلت واحدة من القوى الرئيسية التى يمكن أن تحدّ من التنمية وتطلق العنان لردة ضد العولمة. ولذلك فقد أضفت البُعد السادس لمراجحة نفسى أى تثقيف نفسى فى علوم البيئة، وبدأت فى إضافة رحلات تتعلق بالجانب البيئى إلى أسفارى لكى أفهم كيفية تأثير النظم الأيكولوجية بالعولمة وكيف يؤثر تدهور هذه النظم فى العولمة.

والآن وقد اكتملت لى الأبعاد الستة، فلست أدرى ماذا بعد. ولكن إذا اتضح وجود بعد جديد فسوف أضيفه فى أى وقت. ذلك لأننى من «أنصار العولمة». فتلك هى مدرسة التفكير التى أنتمى إليها. وهذا يعنى أننى لست شخصاً واقعياً يفكر فى أنه يمكن تفسير كل شئ فى الشئون الخارجية بالسعى فى طلب القوة وميزة الجغرافيا السياسية ـ ولا أهمية عندى للأسواق فى هذا الصدد. كما أننى لست من أنصار البيئة الذين ينظرون إلى مصير العالم فقط من خلال منظور الرؤية البيئى وما يمكن عمله لإنقاذها ـ ولا أهمية عندى للتنمية فى هذا الصدد. وأنا لست من رجال التكنولوجيا ـ واحد من قطيع التكنولوچيا الذى يسكن وادى السيليكون ويعتقد أن التاريخ بدأ باختراع الميكروبروسسور وأن الإنترنت هى التى ستحدد مستقبل العلاقات الدولية ـ ولا أهمية للجغرافيا السياسية فى هذا الصدد. ولست أيضاً من المؤمنين بالأمور الجوهرية فأعتقد أنه يمكن تفسير سلوك الناس بتتبع الملامح الثقافية الجوهرية أو الصفات الوراثية الموجودة فى الحمض النووى (الدنا DNA)ـ ولا أهمية عندى للتكنولوجيا. ولست أيضاً رجل اقتصاد يعتقد أنه يمكن تفسير العالم بالإشارة فقط إلى الأسواق ـ ولا أهمية عندى للقوى السياسية والثقافة.

فى اعتقادى أن هذا النظام الجديد للعولمة يشكل جذرياً حالة جديدة للأمور، والطريقة الوحيدة لرؤيتها وفهمها وتفسيرها هى المراجحة بين كل هذه الأبعاد الستة التى عرضت لها آنفاً ـ أن نعطى أثقالاً مختلفة للمنظورات المختلفة فى الأوقات المختلفة وفى المواقف المختلفة، ولكن علينا أن نفهم أولاً أن التفاعل المتبادل بينها جميعاً هو السمة التى تحدد حقيقة العلاقات الدولية اليوم. ولذلك، فإن السبيل الوحيد لتكون جزءاً من العولمة هو أن تظل تربط بين النقاط بطريقة منتظمة، وأن ترى نظام العولمة ومن ثم تنظم الفوضى.

إذا كنت على خطأ إزاء هذا العالم فسرعان ما سيظهر ذلك. أما إذا لم أكن مخطئاً فسوف يكون لزاماً على كثيرين من الناس أن يعاودوا الذهاب إلى المدرسة من جديد. وفى اعتقادى أنه من المهم بصفة خاصة لكل من الصحفيين الذين أوكلت إليهم مهمة تفسير العالم، والاستراتيجيين المسئولين عن إعادة تشكيله، أن يفكروا كما يفكر المختصون بالعولمة. فهناك شبكة تتلاشى خيوطها باستمرار بين كل هذه العوالم والمؤسسات، و لذلك فإنه على الصحفيين والمختصين بالاستراتيجية أن يكونوا مثل هذه الشبكة التى تتلاشى خيوطها. والمؤسف أنه فى كل من مجالى الصحافة والبيئة الأكاديمية هناك ثمة اتجاه عميق الرسوخ للتفكير فى ضوء مجالات الخبرة شديدة الضيق والمقسمة إلى شرائح عديدة، يتجاهل حقيقة أن العالم الحقيقى ليس مقسماً إلى مثل هذه القطع الصغيرة المحددة بدقة، وأن الحدود بين الشئون الداخلية والدولية والسياسية والتكنولوجية تنهار جميعاً.

دعنى أقدم مثالاً واحداً. لقد ظلت إدارة كلينتون طوال سنوات، تهدد بفرض عقوبات تجارية على اليابان ما لم تقض على بعض التعريفات الجمركية الرسمية والخفية المفروضة على مجموعة من السلع. غير أنه فى كل مرة يبدو فيها ميكى كانتور الممثل التجارى الأمريكى الفاهم للأمور وقد فاز فى الجدل الدائر داخل الإدارة

باتخاذ إجراء، ويكون الرئيس على وشك أن ينزل العقاب باليابان حتى يتراجع فى اللحظة الأخيرة. وإليك ما أتخيل حدوثه داخل المكتب البيضاوى فى ذلك الوقت:

يدخل كانتور إلى المكتب البيضاوى ويجذب المقعد المجاور للرئيس ويقول: «سيدى الرئيس، إن هؤلاء اليابانيين الملاعين يواصلون إقامة الحواجز، إنهم يرفعونها فى مواجهتنا مرة أخرى. فهم لا يسمحون لصادراتنا بالدخول إلى بلادهم. لقد حان الوقت بالفعل لتمضى قدماً فى التنفيذ. العقوبات ياسيدى الرئيس. عقوبات رادعة. لقد حان الوقت لعقابهم. وهذا هو ما يستحقونه، وبالمناسبة، ياسيدى الرئيس، إن ذلك سيروق كثيراً لنقابات العمال وسيحبوننا بسببه».

وقد يرد عليه الرئيس بالقول: «ميكى، إنك على حق تماماً. امض قدماً فى تنفيذ ذلك». غير أنه ما أن يشرع كانتور فى مغادرة الحجرة لتنفيذ العقوبات ضد طوكيو حتى يدلف روبرت روبين وزير الخزانة الأمريكى من الباب الجانبى للمكتب البيضاوى.

قد يقول روبين: «آه، سيدى الرئيس، تعلم أننا إذا فرضنا عقوبات تجارية ضد اليابان فسوف يهبط سعر الدولار هبوطاً حاداً ويبدأ اليابانيون فى بيع جميع سندات الخزانة الأمريكية التى يحتفظون بها، وترتفع معدلات الفائدة الأمريكية فى الداخل».

حينئذ قد يلتفت الرئيس إلى كانتور، الذى يكون فى منتصف الطريق إلى باب الخروج، ويقول: «يو! ميكى، ميكى، ميكى، ارجع هنا لحظة. علينا أن نعيد التفكير فى ذلك».

قد يعود ميكى بعد بضعة أيام. ثم يعيد إثارة القضية نفسها. وفى هذه المرة قد يقتنع الرئيس تماماً. وقد يقول لكانتور، «لم أعد أحتمل هؤلاء اليابانيين بعد الآن. ميكى. العقوبات. امض قدماً فى التنفيذ».

وما أن يشرع كانتور فى الانصراف لتنفيذ العقوبات ضد طوكيو، حتى يدخل ويليام بيرى وزير الدفاع من الباب الجانبى للمكتب البيضاوى.

قد يقول بيرى: «آه، سيدى الرئيس. تعلم أننا إذا فرضنا عقوبات تجارية ضد اليابان، فلن يعيد اليابانيون التفاوض معنا بشأن اتفاقية قاعدتنا فى أوكيناوا، أو يقوموا بتعويض كوريا الشمالية عن ذلك المفاعل النووى، الأمر الذى نعول عليه كثيراً».

حينئذ قد يلتفت الرئيس فى حدة إلى كانتور الذى كان يحاول الخروج من الباب. «يو! ميكى، ميكى، ميكى. ارجع هنا لحظة. يجب أن نعيد التفكير فى ذلك».

هذا بالطبع مشهد تخيلته، بيد أننى أراهن بمبلغ كبير من المال على أنه يحمل شبهاً كبيراً بما كان يجرى بالفعل، والصحفى الذى يستطيع الإلمام بكل ما فيه على نحو سليم ونقله إلى القراء لن يكون هو المحرر التجارى أو المحرر المختص بوازرة الخزانة أو البنتاجون، وإنما هو شخص يتحرك جيئة وذهاباً، يراجح بين هذه المجالات الثلاثة فى آن واحد.

لقد قرر بول كينيدى وجون لويس جاديس مؤرخا العلاقات الدولية بجامعة ييل أن يجعلا تدريب الجيل التالى من الخبراء الاستراتيجيين فى أمريكا إحدى وظائفهما. ويرجع إليهما الفضل الكبير فى سعيهما من أجل التوسع فى المناهج التى يدرسانها بغية تخريج جيل جديد من الاستراتيجيين الذين يستطيعون التفكير كخبراء فى العولمة وليس مجرد خبراء فى شئ محدد فقط. وقد تحسر جاديس وكينيدى فى مقالة كتباها معاً على أنه غالباً يكون المتخصصون فى فروع محددة من المجالات، فى كثير من الدول، هم الذين يصنعون السياسة الخارجية ويحللونها.

كتب المؤرخان فى جامعة ييل: «يتمتع هؤلاء الناس، بكفاءة شديدة فى أخذ أجزاء من الصورة، ولكنهم يجدون صعوبة فى رؤية الشئ بأكمله. إنهم يرتبون أولوياتهم، ويتتبعونها على نحو منفصل وفى آن واحد، وبأدنى تفكير فى طريقة تقاطع

كل منها مع الأخرى. إنهم يتقدمون بثقة من شجرة إلى شجرة، ولكنهم يندهشون إذا وجدوا أنفسهم ضالين فى الغابة. فقد كان رجال الاستراتيجية العظماء فى الماضى يحتفظون برؤية للغابة وللأشجار على السواء. لقد كانت لهم نظرة عامة وكانوا على دراية واسعة بالمعرفة والمهارات فى مجالات عديدة، وكانوا يعملون من منظور إيكولوجى. كانوا يدركون أن العالم عبارة عن شبكة، إذا حدثت فيها أية تعديلات هنا فمن المؤكد أن تحدث تأثيراً هناك ـ وأن كل شئ مترابط بحيث تؤثر حركة أى جزء منه فى حركة باقى الأجزاء. ومع ذلك، أين نجد اليوم أصحاب النظرة العامة؟ .... إن الاتجاه السائد فى الجامعات ومؤسسات الفكر ينحو إلى مزيد من التضييق فى مجالات التخصص: أى الإعلاء من شأن العمل المتعمق فى مجال واحد بدلاً من العمل فى توسع فى عدة مجالات. ومع ذلك، فبدون بعض الإدراك بالكل، أى بدون بعض الوعى بمدى تأثير الوسائل على تحقيق الغايات سلباً أو إيجاباً، فلن تكون هناك استراتيجية. وبدون استراتيجية لن يكون هناك سوى الطوفان.

لقد بدأ بعض الناس فى اللحاق بهذا الاتجاه. وذلك هو السبب فى أن وكالة الأمن القومى فائقة السرية، التى تتنصت على أنحاء العالم، وتجمع كميات هائلة من المعلومات السرية، قررت فى أواخر التسعينيات أنه لابد لها من تغيير الشعار الداخلى لها فى تناول المعلومات من «الحاجة إلى المعرفة» الذى رفعته أثناء الحرب الباردة، بمعنى أنه لا بد لك من البحث عن المعلومات إذا كانت هناك ضرورة للعلم بها، إلى شعار «الحاجة إلى المشاركة»، بمعنى أننا لن نفهم قط الصورة الكبرى ما لم نتبادل جميعاً فهم صورنا الصغيرة.

ربما كان فى ذلك تفسير للسبب فى أننى تدريجياً كنت أجد بعضاً (وليس الكل قط) من أفضل مصادرى الفكرية هذه الأيام لا هم أساتذة فى العلاقات الدولية ولا دبلوماسيون من وزارة الخارجية بل هم بالأحرى ممن نجحوا حقيقة فى مدرسة

العولمة فى العالم اليوم ـ أى مديرو صناديق الحماية. لقد وجدت نفسى مشدوداً أكثر وأكثر إلى مديرى صناديق الحماية الأذكياء بدلاً من الدبلوماسيين والأساتذة، لأن أكثرهم كفاءة هم الذين يميلون إلى المزيد والمزيد من حسن الاطلاع على الشئون الدولية ولديهم القدرة والرغبة بطبيعتهم لمراجعة المعلومات واستيفائها من جميع الأبعاد الستة قبل التوصل إلى قرارتهم. ويعتبر روبرت جونسون، الذى اعتاد أن يكون شريكاً لجورج سوروس، من أفضل الأشخاص فى هذه المجموعة. لقد كنا جونسون وأنا دائماً نلاحظ أننا بعد أى مناقشة لنا نحلل فيها العالم، أننا نقوم أساساً بالعمل نفسه ـ والاختلاف الوحيد هو أنه فى آخر اليوم كان هو يضارب على سهم أو سند أما أنا فأكتب رأياً عن أحد جوانب العلاقات الدولية. ولكن كلينا كان يدرس بدقة عملية المراجحة نفسها حتى نصل إلى هدفنا.

ولئن كانت المراجحة بين المعلومات من أبعادها الستة هى أفضل طريقة لرؤية نظام العولمة، إلا أن أفضل طريقة لشرحها تكون غالباً بسرد أخبار بسيطة ـ ولهذا السبب سيجد القارئ أن هذا الكتاب ملئ بالأخبار. ذلك أن العولمة نظام شديد التركيب ربما يتعذر معه شرحه بالأخبار الضخمة وحدها. فالعولمة يصعب إدراكها. لقد ذكرت هذا فى إحدى الأمسيات أمام روبرت هورماتس، نائب رئيس شركة جولدمان زاكس إنترناشيونال فقدم وصفا دقيقاً لما أعنيه: «من الأجدى لك، إذا أردت فهم العولمة ثم شرحها بعد ذلك، أن ترى فى نفسك بدوياً مفكراً. ففى عالم البدو الرُّحل ليس هناك رقعة محددة بدقة من الأرض العشبية، ولذلك كان البدو الرحل هم الذين توصلوا إلى الأديان التوحيدية، اليهودية والإسلام. فإذا كان المرء مقيماً فى مكان واحد فسوف يتوصل إلى جميع أنواع الأساطير عن هذه الصخرة أو تلك الشجرة، وسيعتقد أن الله موجود فى هذه الصخرة أو تلك الشجرة فقط. أما البدو الرحل فإنهم يرون المزيد من العالم. إنهم يعرفون أن الله ليس فى هذه الصخرة. إنه موجود فى كل

مكان. كما ينقل البدو الرحل بعد ذلك، هذه الحقيقة المركبة فى قصص وأخبار بسيطة، وذلك عندما يجلسون حول نيران مخيمهم أو وهم ينتقلون من واحة إلى أخرى.

كان المندوب الصحفى أو كاتب العمود أو رجل الدولة فيما مضى يستطيع النجاح فى وظيفته بمجرد أن يرى أن هذه «السوق» تتمثل فقط فى مبنى الكونجرس، أو مبنى وزارة الخارجية أو البيت الأبيض أو البنتاجون أو وزارة الخزانة. ولكن السوق الحقيقية اليوم أصبحت تتمثل الآن فى كوكب الأرض وفى التكامل العالمى فى مجال التكنولوجيا والمال والتجارة والمعلومات على نحو يؤثر فى الأجور، ومعدلات الفائدة، ومستويات المعيشة، والثقافة، وفرص الوظائف، والحروب وأحوال الطقس فى أنحاء العالم. ولا يعنى ذلك أن نظام العولمة يفسر كل شئ يحدث فى العالم اليوم. إنه يعنى ببساطة أنه كلما كان نظام واحد يؤثر فى عدد أكبر من الناس بعدد أكبر من الطرق وفى آن واحد، فذلك النظام هو العولمة.

والمؤسف، أن نظام العولمة، ولأسباب سوف أوضحها فيما بعد، هبط علينا على نحو أسرع كثيراً من قدرتنا على إعادة تدريب أنفسنا على رؤيته وفهمه. تدبر فقط هذه الحقيقة: إن معظم الناس لم يسمعوا حتى عن الإنترنت فى عام 1990، وكان عدد ضئيل من الناس لديهم عنوان للبريد الإلكترونى E-mail فى ذلك الوقت. لقد كان ذلك هو الحال قبل تسع سنوات فقط! واليوم أصبحت الإنترنت والتليفونات الخلوية والبريد الإلكترونى أدوات لا غنى عنها لا يستطيع كثير من الناس، ليس فى الدول المتقدمة وحدها، تخيل الحياة بدونها. وإننى على ثقة من أن ذلك لا يختلف عن فترة بداية الحرب الباردة، ومع بداية ظهور الترسانات النووية ونظريات الردع. فقد استغرق القادة والمحللون فى تلك الحقبة وقتاً طويلاً ليدركوا تماماً حقيقة طبيعة وأبعاد نظام الحرب الباردة. فقد خرجوا من الحرب العالمية الثانية بفكرة أن هذه الحرب الكبرى

أفرزت عالماً من نوع جديد، بيد أنهم سرعان ما اكتشفوا أنها أرست الأساس لعالم شديد الاختلاف عن العالم الذى كانوا يتوقعونه. وكان الكثير مما كان يعتبر هندسة ووضع استراتيجيات عظيمة للحرب الباردة مجرد ردود أفعال سريعة للأحداث المتغيرة والتهديدات الناشئة. وقام خبراء الاستراتيجية لحقبة الحرب الباردة خطوة خطوة ببناء المؤسسات، والمفاهيم، وردود الأفعال التى عرفت فى النهاية بنظام الحرب الباردة.

ولا يختلف الأمر بالنسبة لنظام العولمة، فيما عدا أننا قد نستغرق وقتاً أطول فى استيعاب عقولنا له، لأن الأمر يحتاج إلى كثير من إعادة التدريب لمجرد رؤية هذا النظام ولأنه لا يدور فقط حول القوى العظمى بل أيضاً حول أسواق السوبر ماركت وحول الأفراد الذين اكتسبوا قوة عظمى. قد أقول إننا فى عام 1999نفهم الآن عن الطريقة التى سيعمل بها نظام العولمة بقدر ما كنا نفهم عن الطريقة التى سيعمل بها نظام الحرب الباردة فى عام 1946 ـ ذلك العام الذى ألقى فيه ونستون تشرشل كلمة حذر فيها من أن «ستاراً حديدياً» بسبيله إلى النزول سوف يحجب نفوذ المنطقة السوفيتية عن أوروبا الغربية. وإذا أردت أن تقدر ضآلة عدد الذين يفهمون تماماً الطريقة التى يعمل بها هذا النظام، فما عليك إلا أن تتدبر فى حقيقة واحدة عجيبة: لقد اقتسم الاقتصاديان البارزان اللذان كانا يقدمان المشورة لصندوق إدارة رؤوس الأموال طويلة المدى وهما روبرت سى. ميرتون ومايرون إس. شولز جائزة نوبل للاقتصاد فى عام 1997، قبل عام تقريباً فقط من الخطأ الذى ارتكبه هذا الصندوق فى فهم طبيعة مخاطر السوق العالمية شديدة التكامل فى يومنا هذا مما جعله يمنى بأكبر خسائر فى تاريخ صناديق الحماية. إذن فلماذا حصل هذان الاقتصاديان فى صندوق إدارة رؤوس الأموال طويلة المدى على جائزة نوبل؟ حصلا عليها من أجل دراساتهما كيف يمكن للمستثمرين فى العالم استخدام الأدوات المالية المركبة المعروفة باسم المشتقات فى التغلب على المخاطر! لقد حصلا على جائزة نوبل لعام 1997 فى كيفية التغلب على المخاطر. وفى عام 1998 حصلا على جائزة المغفلين لما قاما به من خلق المخاطر ـ الرجلان ذاتهما، السوق نفسها، وعالم جديد.

لقد كان من رأى مورى جيل-مان الحائز على جائزة نوبل، والأستاذ السابق فى الفيزياء النظرية بجامعة كالتيك وأحد مؤسسى معهد سانتا فى، الذى قال فى سلسلة محاضرات إن ما أسميه أنا بالمراجحة بين المعلومات لا يختلف كثيراً عن الأسلوب الذى يتبعه العلماء فى محاولة فهم النظم المعقدة. وهو على حق. وليس هناك نظام سياسى اليوم أعقد من العولمة، وفهمها يتطلب من الصحفى ورجل الاستراتيجية أن يكونا على القدر نفسه من التعقيد والتركيب.

قال جيل-مان فى هذه المحاضرات: «لقد ظهرت هنا على كوكب الأرض، بمجرد تشكلها، نظم متزايدة التركيب والتعقيد نتيجة للتطور الفيزيائى للكوكب، والتطور البيولوجى، والتطور الثقافى البشرى. ولقد سارت العملية مشواراً بعيداً إلى درجة أننا نحن البشر نواجه الآن مشكلات إيكولوجية وسياسية واقتصادية واجتماعية بالغة التعقيد. وعندما نحاول التصدى لهذه المشكلات الصعبة، فإننا بطبيعة الحال نميل إلى تقسيمها إلى أجزاء أسهل فى التعامل معها. وهذا أسلوب مفيد، ولكن له أوجه قصور خطيرة. فعندما يتعامل المرء مع أى نظام لا خطى، ولا سيما إن كان مركباً، فإنه لا يستطيع قصر تفكيره على الأجزاء أو الجوانب أو مجرد جمع الأشياء معاً وأن يقول إن ذلك سلوك هذا وسلوك ذاك، وعند جمعهما معاً، يسفران عن الأمر برمته. لا بد للمرء، فى وجود نظام لا خطى مركب، أن يقسمه إلى أجزاء، ثم يدرس كل جانب، وبعد ذلك يدرس التفاعل الشديد جداً بينها جميعاً. فبهذه الطريقة وحدها يستطيع وصف النظام بأكمله».

هذا بالنسبة لى هو جوهر ما أعتبره مدرسة العولمة فى العلاقات الدولية. ولكن حتى يكون لدينا مدرسة عولمة فنحن بحاجة إلى مزيد من الطلبة والأساتذة والدبلوماسيين والصحفيين والجواسيس وعلماء الاجتماع المدربين لكى يكونوا رجال العولمة.

يقول جيل-مان: «نحن بحاجة إلى مجموعة كاملة من الناس الذين يرون أنه من المهم إلقاء نظرة إجمالية جادة ومحترفة على النظام بكامله. ولابد أن تكون نظرة إجمالية، لأنك لن تتمكن قط من السيطرة على كل جزء أو كل اتصال متبادل. قد تظن أن معظم الصحفيين يقومون بذلك. ولكنهم لا يفعلون. والمؤسف، أن لا تمنح المكانة فى كثير جداً من الأماكن فى مجتمعنا بما فى ذلك المؤسسات الأكاديمية ومعظم المؤسسات البيروقراطية، بالدرجة الأولى إلا لأولئك الذين يدرسون بعض الجوانب (الضيقة) لمشكلة ما، أو نوع ما من التجارة، أو من التكنولوجيا، أو الثقافة، بينما تقتصر مناقشة الصورة الكبرى على الأحاديث التى تدور فى حفلات الكوكتيل. هذا جنون. وما يجب علينا أن نتعلمه لا أن يكون لدينا متخصصون، وإنما أن يكون لدينا أيضاً أولئك الذين تخصصوا فى رصد التفاعلات المتبادلة القوية وتشابك الأبعاد المختلفة، ثم إلقاء نظرة إجمالية على الكل. فما كنا نعتبرها فى يوم من الأيام أشياء لا توجد إلا فى حفلات الكوكتيل هى نفسها الجزء الحاسم من القصة الحقيقية.

إذن، هيا بنا إلى حفل الكوكتيل الخاص بى.

الفصل الثاني
السيارة ليكساس وشجرة الزيتون

هب أنك تدرك أن العولمة هي النظام الدولي الذي حل محل نظام الحرب الباردة، فهل ذلك هو كل ما يجب أن تعرفه حتى يتسنى لك تفسير الشؤون الدولية اليوم؟

ليس تماماً. فالعولمة هي ما هو جديد. وإذا كان العالم قائماً على مجرد شذرات الكمبيوتر الدقيقة والأسواق، فربما يستطيع المرء الاعتماد على العولمة في تفسير كل شيء تقريباً. لكن العالم -وا أسفاه- قائم على شذرات الكمبيوتر الدقيقة والأسواق والرجال والنساء بكل ما لديهم من عادات وتقاليد وأشواق وآمال غريبة يصعب التنبوء بها.

وهكذا لا يمكن تفسير الشؤون العالمية اليوم إلا باعتبارها تفاعلاً متبادلاً بين ما هو حديث جداً مثل الموقع على شبكة الإنترنت، وما هو قديم قدم شجرة الزيتون ذات العقد على ضفاف نهر الأردن. لقد بدأت التفكير في ذلك حين كنت مستقلاً القطار في اليابان في شهر مايو عام 1992، وكنت أتناول صندوقاً من السوشي على العشاء، ومسافراً بسرعة 180 ميلاً في الساعة.

كنت في طوكيو في مهمة صحفية وكنت أعتزم زيارة مصنع السيارات الفارهة من طراز ليكساس الموجود خارج مدينة تويوتا جنوبي طوكيو. وكانت جولة لا تنسى. ففي ذلك الوقت كان هذا المصنع ينتج 300 سيارة ليكساس يومياً، يصنعها 66 إنساناً بشرياً و310 إنساناً آلياً (روبوت).

وتبين لي مما رأيت أن مهمة العاملين من البشر تقتصر في الغالب على مراقبة الجودة. ولم يكن هناك سوى القليل منهم ممن يثبتون بالفعل المسامير الملولبة أو يلحمون أجزاء معاً. وكان الإنسان الآلي ينجز كل العمل. بل كانت هناك سيارات نقل آلية تلقي بمواد في أماكن على الأرض، وكانت تستطيع أن تشعر بوجود بشر يعترضون طريقها ومن ثم تعطيهم إنذاراً، «بيب، بيب، بيب» ليفسحوا الطريق.

شاهدت وأنا مبهور الإنسان الآلي الذي كان يضع المطاط لكي يحكم تثبيت الزجاج الأمامي لكل سيارة ليكساس. فقد كانت ذراع الإنسان الآلي تضع المطاط المنصهر الساخن بعناية في مستطيل محكم حول النافذة.

غير أن أكثر ما أثار إعجابي أنه عندما تنتهي هذه الذراع من العملية كانت هناك دائماً نقطة دقيقة من المطاط تظل معلقة في طرف إصبع الإنسان الآلي -مثل نقطة معجون الأسنان التي قد تظل عالقة عند طرف الأنبوبة بعد الضغط عليها فوق فرشاة الأسنان. أما في مصنع ليكساس فكانت ذراع الإنسان الآلي تتحرك بعيداً في شبه حلقة متسعة إلى أن يتقابل طرفها مع سلك معدني شديد الدقة قد تتعذر رؤيته لكي يفصل بعناية تلك النقطة الدقيقة الأخيرة من المطاط الساخن الأسود، بحيث لا يتبقى شيء منه. وكنت

أظل أحدق في هذه العملية، وأتساءل في نفسي عن حجم التخطيط والتصميم والتكنولوجيا الذي استخدم لكي تؤدي ذراع الإنسان الآلي مهمتها ثم تدور بعيداً في كل مرة، وبالزاوية المحددة بدقة، حتى يتسنى لذلك السلك الصغير صغر ظفر الإصبع الإبهام قص النقطة الأخيرة من المطاط الساخن، ثم يبدأ نظيفاً من جديد في النافذة التالية. لقد كان شيئًا مثيراً.

بعد انتهاء جولتي في المصنع، عدت إلى مدينة تويوتا لكي أستقل مرة أخرى القطار الطلقة (السهمي) للعودة إلى طوكيو. وياله من اسم مناسب لهذا القطار! لأنه بالفعل يشبه طلقة الرصاص في كل من شكله وسرعته على السواء. وكنت جالساً أتناول وجبة العشاء من صندوق السوشي الذي تستطيع شراءه من أي محطة قطارات في اليابان، وأنا أقرأ في صحيفة ***إنترناشيونال هيرالد تريبيون*** لذلك اليوم، وجذبت اهتمامي قصة إخبارية في أعلى الركن الأيمن من الصفحة الثالثة. كانت القصة تتعلق بالتقرير الصحفي اليومي لوزارة الخارجية الذي قدمته مارجريت ذي توتوايلر المتحدثة باسم وزارة الخارجية، وكان قد تضمن تفسيراً مثيراً للجدل الدائر حول قرار الأمم المتحدة لعام 1998، ويتعلق بحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى إسرائيل. لا أتذكر الآن التفاصيل كلها، بيد أنه مهما كان ذلك التفسير فقد تسبب في إثارة العرب والإسرائيليين على السواء، وأثار غلياناً في الشرق الأوسط، وكان ذلك ما تضمنته هذه القصة الإخبارية.

وهكذا كنت منطلقاً بسرعة 180 ميلاً في الساعة داخل أحدث قطار في العالم، وأنا أقرأ هذه القصة التي تتعلق بأقدم منطقة في العالم. وقد جالت بذهني فكرة أن هؤلاء اليابانيين الذين زرت من فوري مصنعهم لسيارات ليكساس والذين

أستقل قطارهم هذا يبنون أعظم سيارة رفاهية في العالم بالإنسان الآلي. وهنا، في أعلى الصفحة الثالثة من صحيفة ***هيرالد تريبيون*** ما زال الناس الذين عشت بينهم لسنوات عديدة في بيروت والقدس والذين أعرفهم معرفة وثيقة، يقتتلون حول ملكية شجرة الزيتون هذه أو تلك. وتبين لي حينئذ أن السيارة ليكساس وشجرة الزيتون رمزان جيدان لحقبة ما بعد الحرب الباردة تلك: نصف العالم خرج من الحرب الباردة عازماً فيما يبدو على بناء سيارة ليكساس أفضل، وكرس نفسه لتحديث وتبسيط وخصخصة اقتصادياته حتى يتسنى له الازدهار في نظام العولمة. والنصف الآخر من العالم -بل نصف بلد واحد أحياناً أو نصف شخص واحد أحياناً أخرى- ما زال محاصراً في الصراع على من الذي يملك شجرة الزيتون هذه أو تلك.

إن أشجار الزيتون شيء مهم. إنها تمثل كل شيء تعنيه الجذور بالنسبة لنا، يثبتنا في مواقعنا، ويحدد هويتنا وموقعنا من العالم - سواء كان ذلك انتماء إلى أسرة أو مجتمع أو قبيلة أو أمة أو دين أو إلى ما هو أهمها جميعاً، مكان يسمى الديار. إن أشجار الزيتون هي ما يمنحنا دفء العائلة، وبهجة التفرد، وحميمية الطقوس الشخصية، وعمق العلاقات الخاصة، فضلاً عن الثقة والأمان في بسط أيدينا للخارج والالتقاء بالآخرين. إننا أحياناً نقاتل بشراسة بسبب أشجار الزيتون التي نمتلكها؛ لأنها في أفضل الظروف توفر لنا الشعور بالاعتزاز بالنفس وبالانتماء اللذين لا غنى عنهما لبقاء الإنسان مثل الغذاء للمعدة. أما في أسوأ الظروف وعندما نصل بالأمور إلى حد الإفراط فإن تسلط أشجار الزيتون التي نمتلكها على أفكارنا يؤدي بنا إلى اختلاق هويات وروابط ومجتمعات قائمة على إبعاد

الآخرين، وعندما يصل هذا التسلط، في أسوأ الحالات، إلى نزعة القتل بالفعل، مثلما حدث من النازيين في ألمانيا أو الصرب في يوغوسلافيا، فإنه يؤدي إلى إبادة الآخرين.

لقد كانت الصراعات بين الصرب والمسلمين، وبين اليهود والفلسطينيين، والأرمن والأذريين حول من له حق ملكية أشجار الزيتون هذه أو تلك شديدة الشراسة تحديداً لأنها كانت تدور حول من الذي سيكون ملازماً لدياره ومتشبثاً بالعالم المحلي ومن الذي لن يكون كذلك. والمبرر المنطقي الأساسي لهذه الصراعات هو: لا بد لي من السيطرة على شجرة الزيتون هذه، لأنه إذا سيطر عليها الآخرون فلن يؤدي ذلك إلى مجرد وقوعي تحت ضغط إبهامهم اقتصادياً وسياسياً فحسب، بل إن إحساسي بمعنى الوطن سوف يضيع مني. ولن أتمكن قط من خلع حذائي والتمدد في استرخاء. وليس هناك الكثير من الأشياء التي تثير حفيظة الناس مثل محاولة انتزاع هويتهم وينشدون لذلك، ويقرضون الشعر لذلك ويؤلفون الروايات عن ذلك. فالحياة بدون الإحساس بالوطن وبالانتماء، تصبح قاحلة وبلا جذور. والحياة كالعشب العشوائي ليس حياة على الإطلاق.

إذن ما الذي تمثله السيارة ليكساس؟ إنها تمثل مسعى أساسي للإنسان منذ بدء الخليقة - السعي نحو الرزق والتقدم والازدهار والتحديث- حسبما يدور في لعبة نظام العولمة اليوم. السيارة ليكساس تمثل كل الأسواق العالمية المزدهرة، والمؤسسات المالية وتكنولوجيا الكمبيوتر التي نسعى من خلالها إلى رفع مستويات المعيشة اليوم. غير أن السعي في طلب التقدم المادي، بالنسبة لملايين الناس في

الدول النامية، ما زال ينطوي على السير إلى البئر، وحرث الأرض بقدمين حافيتين خلف ثور، أو جمع الأخشاب وحملها فوق الرؤوس لمسافة خمسة أميال، إن هؤلاء الناس ما زالوا يكدون في طلب الرزق.

بيد أن هذا السعي نحو حياة مادية أفضل ونحو التحديث، يجري بالنسبة لملايين الناس في الدول المتقدمة على نحو مطرد، وهم يرتدون الأحذية ماركة نايك، ويتسوقون في أسواق متكاملة ويستخدمون تكنولوجيات الشبكات الجديدة، ولئن كان هناك أناس مختلفون لهم حريات مختلفة للوصول إلى الأسواق والتكنولوجيات الجديدة التي يتسم بها نظام العولمة، ويحصلون منها على فوائد بالغة التفاوت، إلا أن ذلك لا يغير حقيقة أنها ما زالت الأدوات الاقتصادية التي يعرف بها اليوم وأن الجميع يتأثرون بها سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

هذا هو السبب في أنني أحب أن أقول إن المراجحة بين المعلومات توفر لنا العدسات التي نحتاجها للنظر إلى عالم اليوم، ولكن العدسات وحدها لا تكفي. فنحن بحاجة أيضاً إلى نعرف ماهية الشيء الذي ننظر إليه أو نبحث عنه. كما أنا ننظر إليه أو نبحث عنه هو كيف أن مسعانا منذ بدء الخليقة من أجل الأحسن مادياً ومن أجل الهوية الفردية والاجتماعية -الذي ترجع آثاره إلى سفر التكوين- تجسد في نظام العولمة الدولي السائد اليوم. وتلك هي دراما السيارة ليكساس وشجرة الزيتون.

في نظام الحرب الباردة، كان التهديد الأكثر احتمالاً الذي تتعرض له شجرة

زيتونك يأتي من شجرة زيتون أخرى، يأتي التهديد من أن يخرج عليك جارك، ثم يقتلع في عنف شجرة زيتونك ويغرس شجرته مكانها. وهذا التهديد لم يقض عليه اليوم ولكنه في الوقت الراهن تناقص في كثير من مناطق العالم، أما التهديد الأكبر الذي تتعرض له شجرة زيتونك اليوم فقد يأتي على الأرجح من السيارة ليكساس - من قوى للسوق وتكنولوجيات مجهولة المصدر، تتخطى حدود الدول، وتعمد إلى التجانس وتوحيد القياس صنعت النظام الاقتصادي العالمي اليوم. وثمة أشياء في هذا النظام من شأنها أن تكسب السيارة ليكساس قوة فائقة بحيث تتمكن من اجتياح كل شجرة زيتون تقع في طريقها وسحقها - ومن الممكن أن يسفر ذلك عن ردة حقيقية. غير أن هناك أشياء أخرى في هذا النظام تُكسب حتى أصغر المجتمعات حجماً وأضعفها سياسياً القوة لاستخدام هذه التكنولوجيات والأسواق في سبيل المحافظة على أشجار زيتونها وثقافتها وهويتها. لقد بهرني أثناء أسفاري حول العالم في السنوات الأخيرة رؤية هذه المباراة المتزامنة في المصارعة، ذلك الصراع العنيف، وعملية التوازن بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون.

لقد انعكست مباراة المصارعة بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون على نظام العولمة الجديد في الاستفتاء الذي أجري في النرويج عام 1994 حول انضمامها أو عدم انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي وكان انضمامها سيعد ضربة ساحقة للنرويجيين فالنرويج -برغم كل شيء- تقع في أوروبا. وهي دولة غنية ومتقدمة وحجم تجارتها مع أوروبا لا بأس به. والانضمام إلى الاتحاد الأوروبي له جدواه الاقتصادية بكل المعايير بالنسبة للنرويج في عالم يزداد عولمة. ولكن الاستفتاء

أخفق، لأن عدداً كبيراً من النرويجيين شعروا أن الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي قد يعني اقتلاع الكثير من الهوية الخاصة بالنرويجيين وبطريقتهم في الحياة، التي ما زال النرويجيون يستطيعون الحفاظ عليها بدون عضوية الاتحاد الأوروبي بفضل البترول النرويجي في بحر الشمال الذي يباع في إطار اقتصاد عولمي. وكان الكثير من النرويجيين ينظرون إلى الاتحاد الأوروبي ويقولون في أنفسهم: الآن دعني أقولها صراحة هل سيتعين عليّ أن آخذ هويتي النرويجية وأن أضعها في مطبخ أوروبي، حيث تحول إلى دقيق أوروبي على يد بيروقراطيين أوروبيين تدفع مرتباتهم بالدولار الأوروبي في البرلمان الأوروبي في العاصمة الأوروبية التي يغطي أخبارها صحفيون أوروبيون؟ هاي كلا، شكراً من الأفضل لي أن أظل بندقية رش شتين من النرويج، وأن أتشبث بهوية شجرة زيتوني الفريدة وإن أدى ذلك إلى انخفاض كفاءتي الاقتصادية قليلاً.

أما أن تكون السيارة ليكساس وشجرة الزيتون في حالة توزان صحي فقد تمثل في تلك القصة التي رواها لي جلين بريكيت، أحد كبار نواب الرئيس في المجموعة الدولية للحفاظ على البيئة، عند زيارته لقبائل الكايابو بقرية أوكر Auker الهندية في كايابو Kayapo التي تقع في أحد الأطراف المنعزلة في الغابة المطيرة في حوض نهر الأمازون بالبرازيل ولا يمكن الوصول إليها إلا بطائرة ذات محرك صغير. قال بريكيت وهو يعود بذاكرته، «عندما هبطت الطائرة على ممر الهبوط العشبي، استقبلنا جميع سكان القرية بملابسهم التقليدية، وبدون ملابس، وبوجوههم المطلية، ويضعون على رؤوسهم كاب البيزبول الأمريكية التي تحمل شعارات مختلفة. وكنت قد ذهبت إلى هناك ضمن وفد من

المجموعة الدولية لحماية البيئة للتفتيش على التقدم الذي حققته محطة البحوث البيولوجية التي نديرها أعلى النهر مع الكايابو. وكان الكايابو قد حافظوا على مساحة كبيرة سليمة في الأمازون طوال عدة قرون عن طريق القوة فقط. وقد تعلموا الآن حمايتها عن طريق التعاون مع العلماء الدوليين، ودعاة الحفاظ على البيئة ورجال الأعمال المهتمين بالعمل الاجتماعي. وكان في قريتهم طريق رئيسي صغير ويوجد بها متجر للمجموعة الدولية للحفاظ على البيئة وفرع من محلات بودي شوب، التي يمتلكها أصحاب مصانع صابون مهتمون بشؤون البيئة. وهكذا بعد أن قضينا يومين في محطة البحوث البيولوجية، عدنا مرة أخرى إلى القرية لإنجاز بعض الأعمال النهائية. وكنا قد أعددنا العدة لإقامة سوق في الهواء الطلق لعرض معروضات من ثقافة الكايابو التقليدية، والأشغال اليدوية، والسلال، والعصى الحربية، والرماح، والأقواس والسهام. ثم بدأت مجموعتنا في شراء كل هذه الأشياء بأسعار مرتفعة جداً بالدولار الأمريكي. وبعد ذلك ذهبنا للجلوس في كوخ الرجال بوسط تلك القرية التي يسكنها الكايابو، ويمكن اعتبارها قادمة من عصر ما قبل التاريخ. ولاحظت أثناء جلوسي مع الرجال البارزين في هذه القرية أنهم يشاهدون جميعاً تليفزيون واحد متصل بطبق كبير للقمر الصناعي. وكان الرجال ينتقلون جيئة وذهاباً بين قناة تذيع مباراة كرة قدم برازيلية وقناة تذيع الأسعار الجارية للذهب في الأسواق العالمية. وكان رجال الكايابو يريدون التأكد من أنهم يبيعون الذهب الذي يعثرون عليه بالسعر الدولي السائد لصغار رجال التعدين الذين سمحوا لهم بالحفر على أطراف غابتهم. وبعد ذلك يستخدمون تلك

الأرباح التي يحققونها من سوق الذهب الدولية في حماية أسلوب حياتهم الفريد في وسط الغابة المطيرة في حوض الأمازون.

أما تفوق شجرة الزيتون على السيارة ليكساس فقد تمثل في قرار الهند في ربيع عام 1998 بتحدي العالم واستئناف تجارب أسلحتها النووية. فلقد قمت بزيارة للهند بعد فترة قصيرة من إجراء التجارب، حيث تحدثت مع نماذج من الأغنياء والفقراء، ومن الحكوميين وغير الحكوميين، ومن القرويين وسكان المدن. وانتظرت في صبر الالتقاء بذلك المواطن الهندي الذي قد يقول لي: «إن هذه التجارب النووية، كما تعلم شيء غبي حقيقة. إنها لن تحقق لنا مزيداً من الأمن بل إنها ستكبدنا في الواقع عقوبات اقتصادية». وكنت على ثقة من أن مثل هذا الإحساس موجود - ولكنني لم أعثر قط على واحد يعبر عنه. بل قد يقول لأولئك السياسيين الهنود الذين شجبوا تجاربهم النووية باعتبارها مناورة رخيصة مغالية في الوطنية من جانب الحكومة الهندوسية الوطنية الجديدة في الهند. كانت هذه التجارب السبيل الوحيد أمام الهند للحصول على ما ترغب بشدة الحصول عليه من الولايات المتحدة والصين: ا ل ا ح ت ر ا م. وأدركت في النهاية عمق هذا الشعور عندما ذهبت لزيارة أحد دعاة حقوق الإنسان من الهنود ويرتدي ثوباً في لون الزعفران، هو سوامي أجنيفيش. جال في ذهني ونحن جالسين على الأرض في حجرة المعيشة بمنزله البسيط في دلهي الخاطر التالي: بالتأكيد سيكون هذا الشخص هو الذي يندد بهذه التجربة النووية. غير أنه ما إن بدأنا الحديث حتى أعلن قائلاً: «نحن هنا الهند، ثاني أكبر دولة في العالم! إنك لا تستطيع أن تغفل هذه الحقيقة، والهند لا تشعر بأنها مهددة من جانب

باكستان، ولكن محور الصين والولايات المتحدة عمد إلى تهميش دور الهند فى اللعبة الدولية بأسرها». وفى اليوم التالى ذهبت إلى داسنا، وهى قرية تقع فى شمال نيو دلهى، حيث كنت أجرى أحاديث بصورة عشوائية مع أصحاب المحال. وتعتبر داسنا واحدة من أفقر الأماكن التى رأيتها على الإطلاق. ولا يبدو أن أحداً فيها لديه حذاء. وكل من فيها جلد على عظم. وكان فيها جاموس الماء والدراجات أكثر مما فيها من عربات. كان الجو مثقلاً برائحة روث الأبقار المستخدم كوقود. غير أنهم كانوا فخورين بعرض حكومتهم للصوت والضوء النووى. قال لى برامود باترا طبيب القرية فى داسنا البالغ من العمر اثنين وأربعين عاماً، «نحن بلد يضم 900 مليون نسمة. ولن نموت بسبب هذه العقوبات، إن هذه التجربة النووية معنية باحترام الذات، واحترام الذات أهم من الطرق والكهرباء والماء. وعلى كل حال، ما الذى فعلناه؟ لقد فجرنا قنبلتين. إننا كمن أطلق رصاص بندقيته فى الهواء. إننا لم نتسبب فى أذى لأى إنسان».

بيد أنه على الرغم من أن دوافع شجرة الزيتون الهندية تفوقت فيما يبدو على حاجاتها للسيارة ليكساس إلا أنه عندما يحدث ذلك فى نظام العولمة فى يومنا هذا، يكون له دائماً ثمن غير ظاهر على المدى البعيد. فقد كنت أثناء زيارتى لنيو دلهى أقيم فى فندق أوبروى، حيث كنت أقضى بعض الوقت فى السباحة فى حمام السباحة فى نهاية كل يوم للتغلب على آثار درجة الحرارة التى كانت تصل إلى 100° فهرنهيت. وفى أول يوم لى هناك، وأثناء قيامى ببعض تدريبات سباحة الصدر، كانت هناك امرأة هندية فى الحارة المجاورة لى. وأثناء إحدى فترات الاستراحة تبادلنا الحديث حيث قالت لى إنها تدير المكتب الهندى لإخوان سالمون ـ سميث بارنى، أكبر بنوك الاستثمار الأمريكية. قلت لها إننى كاتب عمود صحفى جئت إلى الهند للكتابة عن الجزيئات الدقيقة المشعة التى تتساقط من الجو فى أعقاب التجارب النووية الهندية.

سألتنى ونحن نخوض فى مياه حمام السباحة: «هل تدرى من يزور المدينة؟» قلت وأنا أهز ر أسى: «كلا، من الذى يزور المدينة؟»

قالت: «خبراء وكالة موديز». ووكالة موديز لخدمة المستثمرين وكالة دولية تقيِّم اقتصاديات الدول وتعطى درجات أ، ب، جـ لها، بحيث يعرف المستثمرون فى أنحاء العالم الدول التى تسير على سياسات اقتصادية سليمة والتى تسير على غير ذلك، وإذا حصل اقتصاد دولتك على ترتيب منخفض فإن ذلك يعنى أن عليها أن تدفع معدلات فوائد أعلى على قروضها الدولية. وأضافت السيدة: «لقد أرسلت وكالة موديز فريقاً لإعادة تقييم الاقتصاد الهندى».

وأضافت قائلة : «هل سمعت شيئاً عن قرارهم؟»

أجبت: «كلا. لم أسمع».

قالت وهى تسبح مبتعدة: «يجدر بك أن تتحرى عن ذلك».

وبالفعل تحريت. وتبين لى أن فريق وكالة موديز تحرك فى أنحاء نيو دلهى بصورة تماثل فى هدوئها وسريتها الطريقة التى أعد بها علماء الذرة الهنود قنبلتهم. ولم أتمكن قط من اكتشاف أى شئ عن القرارت التى اتخذوها، ولكن فى الليلة التى غادرت فيها الهند، كنت استمع إلى أخبار المساء عندما شد انتباهى الخبر الرابع فى النشرة. كان يقول إنه فى رد فعل لميزانية الحكومة الهندية الجديدة المتضخمة والمفتقرة إلى الاتجاه، وفى أعقاب التجارب النووية الهندية، والعقوبات التى فرضتها الولايات المتحدة على الهند لتفجيراتها النووية، قررت وكالة موديزخفض تصنيف الاقتصاد الهندى من «مرتبة الاستثمار»، التى تعنى أنه اقتصاد آمن للمستثمرين العالميين، إلى «مرتبة المضاربة»، التى تعنى أن هناك مخاطر. كما غيرت وكالة ستاندارد آند پورز للتصنيف الاقتصادى تقريرها عن الاقتصاد الهندى من «مستقر» إلى «سلبى». وذلك

من شأنه أن يؤدى إلى أن تدفع أى شركة هندية تحاول اقتراض أموال من الأسواق الدولية فوائد أعلى. ونظراً لأن معدل المدخرات فى الهند منخفض فإن الصناديق الأجنبية حاسمة فى أهميتها بالنسبة لدولة تحتاج إلى 500 مليار دولار لإنفاقها على البنية الأساسية الجديدة على مدى السنوات العشر التالية حتى تصبح دولة قادرة على المنافسة. إذن نعم، لقد كان لشجرة الزيتون أيامها فى الهند. ولكنها عندما تنمو على هذا النحو من السرعة فى نظام العولمة فلا بد دائماً من دفع الثمن، ولذلك أخذت الحكومة الهندية تبحث بعد شهور قليلة عن طريقة تحفظ بها ماء وجهها للهبوط من فوق شجرة الزيتون، لأن القيد الاقتصادى على تسلق تلك الشجرة قد ابتكر من أجل ثانى أكبر دول العالم من حيث عدد السكان.

ومن أمثلة التوازن بين قوتى السيارة ليكساس وشجرة الزيتون تلك الرحلة الجوية التى قمت بها على إحدى طائرات شركة طيران الخليج من البحرين إلى لندن، والتى كان مونيتور التليفزيون الموجود على مقعد درجة رجال الأعمال الذى أجلس عليه يتضمن قناة تبين للركاب موقع الطائرة بالتحديد من مدينة مكة طوال الوقت، وذلك باستخدام قمر صناعى لتحديد الموقع فى العالم (GPS) يتصل بهوائى الطائرة. وكانت الشاشة تظهر رسماً بيانياً للطائرة على صورة نقطة بيضاء تتحرك عبر الرسم البيانى كلما تغير اتجاه الطائرة. وقد سهّل ذلك للركاب المسلمين، المفروض عليهم أداء خمس صلوات يومياً وهم متجهون نحو مكة، معرفة كيف يتجهون إليها وهم داخل الطائرة بسجاجيد صلاتهم. وقد رأيت أثناء الرحلة عدداً من الركاب بالقرب منى يتجهون إلى مطبخ الطائرة لأداء صلواتهم، وكانوا يعرفون وجهتهم تماماً بفضل نظام قمر تحديد الموقع فى العالم.

أما السيارة ليكساس التى تتجاهل شجرة الزيتون فى حقبة العولمة فقد كانت جزءاً من جهاز كمبيوتر أرسله لى أحد أصدقائى. وقد كتب على ظهره، « هذا الجزء صنع فى ماليزيا وسنغافورة والفلبين والصين والمكسيك وألمانيا والولايات المتحدة

وتايلاند وكندا واليابان. لقد صنع فى كثير من الدول بحيث يتعذر علينا تحديد دولة المنشأ».

أما السيارة ليكساس التى تبز شجرة الزيتون فى حقبة العولمة فقد كانت فقرة صغيرة ظهرت فى مجلة ***الرياضة المصورة*** *Sports Illustrated* فى العدد الصادر يوم11 أغسطس عام 1997 تقول: «إن نادى لانسانتفريد لكرة القدم فى ويلز الذى تأسس قبل 38 عاماً غير اسمه إلى توتال نيتورك سولوشانز Total Network Solutions فى مقابل 400 ألف دولار حصل عليها من إحدى شركات التليفون الخلوى».

أما السيارة ليكساس وشجرة الزيتون وهما يعملان حقاً فى عصر العولمة فقد تمثل فى اليوم الذى ظهر فيه بوريس يلتسين فى شبكة الإنترنت. ففى 12أبريل عام 1998، أذاعت وكالة أنباء أسوشييتد برس النبأ التالى:

موسكو (أ ب) - بوريس يلتسين فوق الشبكة؟ حسناً، تقريباً. ظهر الرئيس الروسى بوريس يلتسين على الخط مباشرة من الكرملين لمدة 30 دقيقة يوم الثلاثاء، حيث أجاب على الأسئلة التى وجهت إليه من أنحاء العالم أثناء جلسة محادثة على الهواء نظمتها شبكة MSNBCعلى موقعها فى شبكة الإنترنت.

سؤال من رجل فى هولندا: ما هو رأى يلتسين فى التدخين؟ الإجابة: أكرهه.

سؤال: هل تقبل روسيا امرأة فى منصب الرئيس؟ الإجابة: مستحيل!

سؤال: هل ليلتسين أى جذور إيرلندية؟ الإجابة: لم يبلغه أسلافه السيبيريين بمثل هذه المعلومة.

كانت هذه الدردشة هى الأولى بالنسبة إلى يلتسين الذى يعتبر مبتدئاً فيما يتعلق بالاختراعات التكنولوجية. ولكنه فى الواقع لم يستخدم الكمبيوتر المتنقل الذى أمامه ولم يكن مطالباً بأن يكافح مع أى من أجراس وصفارات الإنترنت

ذات التكنولوجيا المتقدمة. فقد اختارت شبكة MSNBC 14 سؤالاً من بين 4900 سؤال تلقتها، وترجمها أحد المترجمين إلى الروسية. ثم قام آخر بترجمة إجابات يلتسين مرة أخرى إلى الإنجليزية وأملاها إلى ميكروفون متصل بمقر شبكة تليفزيون MSNBC فى ريدموند بواشنطن، حيث طبعت على الشبكة. وقالت شبكة التليفزيون إن 4000 شخص تحدثوا أثناء هذه الجلسة. وكان كثيرون من المواطنين الروس قد تعاملوا مع أجهزة الكمبيوتر والإنترنت فور انهيار الاتحاد السوفيتى، فى حين ظل الكثير من مشروعات الأعمال تستخدم العدادات والمكالمات التليفونية الدولية التى تحجز قبلها بعدة ساعات، إن لم يكن بعدة أيام.

كذلك كانت السيارة ليكساس وشجرة الزيتون تعملان معاً فى عصر العولمة فى قصة غير عادية نشرتها صحيفة *واشنطن بوست* يوم 21 سبتمبر1977، جاء فيها أن ضباط مكافحة التجسس الروس يشتكون من أنهم يضطرون إلى دفع مبلغ لتجنيد جاسوس من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA كعميل مزدوج يساوى ضعف المبلغ الذى يدفع إذا كان الوضع معكوساً. فقد صرح مسئول فى جهاز الأمن الفيدرالى الروسى (خليفة جهاز مخابرات كى جى بى KGB)، بشرط عدم الإفصاح عن هويته، لوكالة أنباء أيتار تاس بأن الجاسوس الروسى يمكن شراؤه بمبلغ لا يتجاوز مليون دولار فى حين يطلب الواحد من عملاء وكالة المخابرات المركزية الأمريكية مليونى دولار مقابل العمل للجانب الآخر.

وفى الوقت نفسه الذى ظهر فيه هذا التقرير تقريباً، نشرت صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، ما أعتبره أول نبأ ينشر على الإطلاق عن وجود سوق حرة للمخابرات. فقد ذهب مراسلو صحيفة يديعوت أحرونوت إلى موسكو و اشتروا بعض صور الأقمار الصناعية السرية الروسية لقواعد صواريخ سكود فى سوريا. ثم استأجرت

الصحيفة بعد ذلك خبيراً أمريكياً خاصاً فى صور الأقمار الصناعية لتحليل الصور. ثم نشرت يديعوت بعد ذلك الصفقة كلها على صورة نبأ مثير عن التهديد الجديد الذى تمثله الصواريخ السورية، بدون أن تورد تعليقاً واحداً لأى مسئول حكومى. فما حاجتها إلى صوت عميق إذا كان لديها جيب عميق؟

ولا عجب فى أنه فى عام 1997 افتتح الأردنيون الموقع الساخن الجديد الخاص بهم على الإنترنت ليعلن عن التقاء شجرة الزيتون بالعولمة. عنوان الموقع: http:// www. arab. net/gid/welcome. html. هذه إذن هى الصفحة المحلية الخاصة بجهاز المخابرات الأردنى الحكومى، جهاز CIA الخاص بها ـ وأول وكالة مخابرات فى الشرق الأوسط يكون لها موقع خاص بها على الإنترنت. وذكر بيان رسمى أن: «الموقع يقدم لمحة ممتعة عن تاريخ إدراة المخابرات العامة (الأردنية) وعقيدتها، ومسئولياتها، ووجهات نظرها.

وفى النهاية، تدور قصتى المفضلة «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون فى عصر العولمة» حول ابن أبو جهاد. كنت أحضر مؤتمر القمة الاقتصادى للشرق الأوسط الذى عقد فى العاصمة الأردنية عمان فى عام 1995، وكنت أتناول طعام الغداء بمفردى فى شرفة الماريوت عمان. وفجأة، اقترب شاب عربى من منضدتى وسألنى: «هل أنت توم فريدمان؟» قلت: «نعم»، قال الشاب فى أدب: «مستر فريدمان، لقد كنت تعرف أبى».

سألته: «من هو والدك؟»

قال: «أبى هو أبو جهاد». كان أبو جهاد، واسمه الحقيقى خليل الوزير، أحد الفلسطينيين وقد شارك وياسر عرفات فى تأسيس منظمة فتح الذى قاد بعد ذلك منظمة التحرير الفلسطينية. وكان اسم أبو جهاد هو اسمه المستعار، وكان هو القائد العام للعمليات العسكرية الفلسطينية فى لبنان والضفة الغربية أثناء الفترة التى كنت

أعمل فيها مراسلاً لصحيفة *نيويورك تايمز* فى بيروت. وقد تعرفت عليه بالفعل فى بيروت. وكان الفلسطينيون يعتبرونه بطلاً حربياً، وكان الإسرائيليون يعتبرونه أخطر إرهابى فلسطينى. وقد قامت فرقة إعدام إسرائيلية باغتيال أبو جهاد فى حجرة المعيشة بمنزله فى تونس يوم 16أبريل1988 ، حيث أفرغت مائة طلقة رصاص فى جسده.

قلت للشاب: «نعم أعرف والدك معرفة جيدة ـ وقد زرت مرة منزلكم فى دمشق. ماذا تعمل الآن؟»

قدم إلىّ الشاب بطاقة عمله. وقد كتب فيها، «جهاد الوزير، المدير الإدارى، مركز التجارة العالمى، غزة، فلسطين».

قرأت هذه البطاقة وقلت فى نفسى: «شئ مدهش. من تشى چيفارا إلى ديل كارنيجى فى جيل واحد».

إن التحدى فى حقبة العولمة هذه ـ بالنسبة للدول وللأفراد ـ يتمثل فى تحقيق توازن صحى بين الحفاظ على الإحساس بالهوية والوطن والمجتمع وبين القيام بكل ما من شأنه تحقيق البقاء داخل نظام العولمة. ويجب على أى مجتمع يسعى إلى تحقيق الازدهار الاقتصادى اليوم أن يسعى باستمرار إلى بناء سيارة ليكساس أفضل والدفع بها إلى العالم. بيد أنه يجب أن لا يكون لأى إنسان أى أوهام بأن مجرد المشاركة فى هذا الاقتصاد العالمى سوف يجعل من أى مجتمع مجتمعاً صحياً. إذ إنه إذا جاءت هذه المشاركة على حساب هوية المجتمع، وإذا شعر الأفراد بأن جذور شجرة زيتونهم قد سحقت، أو لم تؤخذ فى الحسبان من جانب ذلك النظام العالمى، فإن جذور شجرة الزيتون تلك سوف تتمرد. إنها سوف تثور وتخنق العملية.

ويتوقف بقاء العولمة كنظام، إلى حد ما، على مدى تحقيق كل فرد منا هذا التوازن. وأى دولة بدون سيارة ليكساس لن تنمو قط أو تسير قدماً شوطاً بعيداً. وأى

دولة بدون أشجار زيتون مزهرة لن تكون راسخة الجذور أو آمنة بالدرجة التى تكفى لانفتاحها تماماً على العالم. بيد أن إحداث التوازن بينهما هو عملية كفاح مستمرة.

ربما كان ذلك هو السبب فى أن الكثير من القصص المفضلة لدىّ التى سوف تقرأها فى هذا الكتاب مصدرها زميلى القديم فى الكلية فيكتور فريدمان، الذى يقوم بتدريس إدارة الأعمال فى معهد روبين فى إسرائيل. اتصلت به تليفونياً مرة لتحيته فقال لى إنه مسرور لاتصالى به لأنه لم يعد لديه أرقام تليفوناتى. وعندما سألته عن السبب، قال إن جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به لم يعد موجوداً، وهو الجهاز الذى كان يحتفظ فيه بكل شئ ـ عناوين أصدقائه، أرقام بريدهم الإلكترونى، أرقام تليفوناتهم وجدول أعماله للعامين التاليين، ثم أخذ بعد ذلك يحكى لى ما حدث لجهاز الكمبيوتر.

«كان لدينا جهاز كمبيوتر مكتبى فى المنزل وحدث به عطل. وأخذت هذا الجهاز إلى محل لإصلاح أجهزة الكمبيوتر فى هاديرا (مدينة تقع فى وسط إسرائيل). اتصل بى المحل بعد أسبوعين وقال إن الكمبيوتر الشخصى الخاص بى قد تم إصلاحه. وهكذا دفعت بجهاز الكمبيوتر الصغير الذى أحمله فى يدى إلى داخل حقيبة الأوراق الجلدية الخاصة بى وذهبت بالسيارة إلى هاديرا لاسترجاع جهاز الكمبيوتر الشخصى الخاص بى بعد إصلاحه. غادرت المحل وأنا أحمل جهاز الكمبيوتر الشخصى الكبير وحقيبة الأوراق التى يوجد بداخلها جهاز الكمبيوتر الصغير. وعندما وصلت إلى مكان السيارة، وضعت حقيبة الأوراق على الرصيف، وفتحت حقيبة السيارة ووضعت فيها جهاز الكمبيوتر الشخصى الذى تم إصلاحه بكل حرص حتى أضمن أنه آمن. ثم ركبت بعد ذلك السيارة وسرت بها، تاركاً حقيبة الأوراق على الرصيف. حسناً، لقد أدركت بمجرد وصولى إلى مكتبى ما حدث وما سوف يحدث واتصلت على الفور بالشرطة فى هاديرا وقلت لهم، 'لا تنسفوا حقيبة أوراقى' (من الممارسات الإسرائيلية

الروتينية نسف أى لفافة أو حقيبة أوراق أو أى شئ مثير للشبهات متروك على أى رصيف، لأن هذه كانت الوسيلة التى بواسطتها فجر كثيرون من الفلسطنيين قنابل ضد المدنيين الإسرائيليين. وقد أصبح الإسرائيليون مدربين تدريباً عالياً لحماية أنفسهم فى مواجهة ذلك بحيث إنك إذا تركت لفافة لمدة دقيقة واحدة، فسوف تستدعى الشرطة على الفور). كنت أعلم أن أحداً لن يسرق حقيبة الأوراق. ففى إسرائيل، لن يلمس أى لص مثل هذا الشئ المتروك على الرصيف. غير أننى تأخرت كثيراً. فقد أبلغنى رجل الشرطة الذى رد على مكالمتى بأن فرقة مكافحة القنابل قد وصلت بالفعل إلى الموقع «وتعاملت معها». وعندما وصلت إلى مركز الشرطة سلمونى حقيبة أوراقى الجميلة وبها ثقب لطلقة رصاص اخترقتها من الوسط تماماً. وكان الكمبيوتر المحمول هو الشئ الوحيد الذى أتلفته الرصاصة. لقد تلقى إصابة مباشرة. وكانت حياتى كلها موجودة داخل هذا الشئ ولم أتمكن قط من تعويض ما فيه. عبرت للشرطة عن مدى الحرج الذى أشعر به لتسببى فى مثل هذه المشكلة. وكان ردهم علىّ: 'لا تشغل بالك، إن ذلك يحدث للجميع'. وظللت طوال عدة أسابيع أتحرك داخل حرم المعهد بحقيبة أوراقى وفى وسطها ثقب الرصاصة لأذكّر نفسى بأن أتوقف كثيراً لأمعن النظر فى الأمور. وقد كان معظم طلبتى فى منهج الإدارة فى الجيش الإسرائيلى، وبمجرد رؤيتهم لحقيبة الأوراق وبها ثقب الرصاصة انفجروا فى موجة من الضحك، لأنهم كانوا يعرفون تماماً ما حدث لها».

بعد انتهاء ڤيكتور من سرد هذه القصة قال: «بالمناسبة، إرسل لى رقم بريدك الإلكترونى. فلابد من أن أبدأ فى تدوين مفكرة جديدة للعناوين».

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل الثالث

... وانهارت الأسوار

فى صيف عام 1998، كنت فى زيارة للبرازيل والتقيت فى أحد الأيام بأحد رجال الصناعة البارزين هناك، هو جيلهيرم فريرينج، رئيس مجلس إدارة شركة كايمى مينيرساو إى ميتالورجيا البرازيلية العملاقة للتعدين. كان فريرينج يصف لى التغييرات المذهلة التى حدثت فى الاقتصاد البرازيلى على مدى العقد السابق، حينما قال الملاحظة العابرة التالية: «أتدرى! لقد انهار سور برلين هنا أيضاً». إنه لم يكن حدثاً محلياً فى أوروبا. بل كان حدثاً عالمياً. فقد انهار فى البرازيل أيضاً. إن التغييرات الكبرى التى حدثت فى الاقتصاد البرازيلى تزامنت تماماً مع انهيار حائط برلين».

وساق لى القصة التالية، لشرح وجهة نظره: فى نوفمبر عام 1988 أضرب عمال الصلب المتشددين فى مصنع لشركة الصلب الوطنية (CSN) التى تسيطر عليه الحكومة فى مدينة ڤولتا ريدوندا التى تقع إلى الشمال الغربى من ريو دى جانيرو، وهو أكبر مصنع للصلب فى أمريكا الجنوبية. وقام نحو 2,500 من عمال الصلب الغاضبين بالاستيلاء على المصنع وطالبوا بزيادة فى الأجور بأثر رجعى وبخفض ساعات العمل من ثمانى ساعات إلى ست ساعات يومياً. وقد انتهى الأمر إلى تصاعد الاشتباكات بين العمال وقوات الشرطة المحلية إلى درجة تطلبت استدعاء الجيش البرازيلى للتدخل.

وأسفرت معركة السيطرة على المصنع عن مقتل ثلاثة وإصابة ستة وثلاثين من عمال الصلب. وقد اتهم الجيش البرازيلى العمال «بارتكاب عملية حرب عصابات مدنية حقيقية»، استخدموا فيها الحجارة، وقنابل المولوتوف، وأسياخ الحديد، والأسلحة النارية للدفاع عن وظائفهم وأرباحهم التى توفرها لهم الدولة. وقد ظل حكام البرازيل دائماً من جنرالات الجيش، طوال الحكم العسكرى الدكتاتورى هناك الذى استمر واحداً وعشرين عاماً ولم ينته إلا فى عام 1985، شديدى الحساسية تجاه السيطرة على مصنع الصلب العملاق، إلى حد إعلان مدينة ڤولتا ريدوندا، «مدينة أمن قومى»، وتتولى الحكومة تعيين العمد فيها. بعد أن شرح فريرينج كل ذلك لى، أضاف هذا التعليق اللاذع: «بعد أربع سنوات تقريباً من هذا الإضراب الدموى، وبعد سقوط حائط برلين، يطالب عمال شركة الصلب الوطنية أنفسهم بخصخصة المصنع، لأنهم أدركوا أن تلك هى الطريقة الوحيدة لكى يظل المصنع قادراً على المنافسة ويحتفظ معظمهم بوظائفهم». واليوم تمت خصخصة المصنع بالكامل، وهو يشارك، بمثابة مساهم رئيسى، فى خصخصة المصانع الأخرى المملوكة للدولة فى البرازيل».

كانت ملاحظات فريرينج تشبه شعاع من النور أضاء فى رأسى: بالطبع هو على حق! سور برلين لم يسقط فقط فى برلين. لقد سقط شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وضرب سقوط السور الدول والشركات على السواء، وضربها جميعاً فى آن واحد تقريباً. ولكننا ركزنا اهتمامنا على سقوط حائط برلين فى الشرق الألمانى لأنه كان حدثاً خطيراً وملموساً إلى حد بعيد: أخبار المساء تذيع انهيار سور من الأسمنت. بيد أنه كان هناك، فى الواقع، سقوط مماثل لأسوار ليست ملموسة بالقدر نفسه فى أنحاء العالم. وبفضل سقوط كل تلك الأسوار فى أنحاء العالم خرجت إلى الوجود حقبة العولمة والتكامل. ومن ثم فإن ذلك يثير سؤالاً شديد الأهمية: ما الذى نسف الأسوار؟ أو بطريقة أطفالى فى توجيه السؤال: «أبى، من أين جاءت العولمة؟»

سوف أبدأ فى الإجابة عن هذا السؤال على النحو التالى: لقد كانت الحرب الباردة مثل السهل الفسيح الذى تتقاطع فيه وتقسمه الأسوار، والجدران، والحفر والنهايات المسدودة. وكان من المستحيل المضى لمسافة أبعد أو بصورة أسرع فى هذا العالم بدون التعثر فى سور برلين أو فى ستار حديدى أو حلف وارسو أو تعريفات جمركية يفرضها هذا الطرف أو ذاك لحماية إنتاجه أو فرض قيود على رؤوس الأموال. وقد تجد الدول، خلف هذه الأسوار والجدران، أماكن كثيرة للاختباء فيها والحفاظ على تفردها فى الحياة والسياسة والاقتصاد والثقافة. قد تكون هذه الدول فى العالم الأول أو العالم الثانى أو العالم الثالث، وتستطيع هذه الدول أن تسير على نظم اقتصادية شديدة التنوع مثل الاقتصاد الشيوعى ذى التخطيط المركزى، أو اقتصاد دولة الرفاهية، أو الاقتصاد الاشتراكى، أو اقتصاد السوق الحرة. كما أنها تستطيع الاحتفاظ بنظم سياسية شديدة التنوع ـ أى شئ بدءاً من الديموقراطية إلى الدكتاتورية إلى السلطوية أو (الاستبدادية) المستنيرة إلى الملكية إلى الشمولية. والاختلافات أيضاً يمكن أن تظل حادة، بل يمكن أن تكون أبيض وأسود، لأن الأسوار التى تحميها لا حصر لها، وليس من السهل اختراقها.

بيد أن هناك ثلاثة تغييرات أساسية نسفت كل الأسوار ـ تغييرات فى كيفية اتصالنا بعضنا ببعض، وفى كيفية استثمار أموالنا وكيفية معرفتنا بالعالم. هذه التغييرات ولدت ونمت فى أثناء الحرب الباردة، وبلغت حجماً خطيراً فى أواخر الثمانينيات، حتى تجمعت فى النهاية فى دوامة قوية بدرجة تكفى للعصف بكل أسوار نظام الحرب الباردة، وتُمكن العالم من التجمع معاً فى سهل واحد مفتوح ومتكامل. واليوم ينمو هذا السهل بصورة أوسع وأسرع، وبانفتاح أكبر كل يوم كلما زاد عدد الأسوار المنهارة وكلما زاد عدد الدول التى تمتص داخل هذا السهل. وهذا هو السبب فى أنه لم يعد هناك اليوم عالم أول أو عالم ثان أو عالم ثالث. لا يوجد الآن سوى « عالم سريع» ـ

عالم السهل المنبسط المفتوح على مصراعيه ـ و «العالم البطئ» ـ عالم هؤلاء الذين إما أن يسقطوا على جانب الطريق أو يختاروا الحياة بعيداً عن السهل فى وادى محاط بأسوار مزيفة صنعوها بأنفسهم، لأنهم يرون أن « العالم السريع»، سريع أكثر مما يجب، ومفزع إلى حد بعيد، والتجانس الذى يحدثه أكثر مما يجب، و إلحاحاته أكثر مما يجب. وإليك كيف حدث ذلك.

ديموقراطية التكنولوجيا

كثيراً ما يحب لارى سومرز نائب وزير الخزانة الأمريكى أن يروى هذه القصة؛ إنه فى عام 1988، كان يعمل فى حملة الدعاية لانتخابات الرئاسة لمايكل دوكاكيس وأوفد فى أحد الأيام إلى شيكاجو لإلقاء كلمة نيابة عن دوكاكيس. وكان العاملون فى حملة دوكاكيس قد وفروا له أثناء وجوده فى شيكاجو سيارة مزودة بتليفون خلوى.

يتذكر سومرز قائلاً: «اعتقدت أن وجود تليفون خلوى فى سيارتى حينئذ، فى عام 1988، شئ جميل إلى درجة أننى اتصلت بزوجتى حتى أبلغها أننى أتصل من تليفون السيارة».

بعدها بتسع سنوات، فى عام1997، كان سومرز يزور أيفورى كوست (ساحل العاج ـ كوت دى ڤوار) بغرب أفريقيا، فى مهمة خاصة بوزارة الخزانة. وكان جدول أعمال زيارته الرسمية يتضمن افتتاح مشروع صحى أقيم بتمويل أمريكى فى قرية تقع أعلى النهر بعيداً عن العاصمة أبيدجان. وكانت هذه القرية التى تفتتح فيها أول بئر للمياه الصالحة للشرب لا يمكن الوصول إليها إلا بواسطة «كانو» أى زورق ضيق طويل له مجداف واحد محفور من جذع شجرة. وقد اعتبر سكان القرية سومرز، ذلك الأنيق القادم من أمريكا رئيساً أفريقياً شرفياً وخرجوا لاستقباله فى ملابسهم الأفريقية بالزوارق. غير أن الشئ الذى ما زال عالقاً فى ذاكرته أنه فى طريق عودته من القرية وأثناء ركوبه لزورق الكانو الذى سيعود به عبر النهر، سلمه أحد المسئولين فى

كوت ديفوار هاتفاً خلوياً، وقال : «واشنطن تريد أن تسألك عن شئ». تسع سنوات مرت ما بين إعجاب سومرز بوجود تليفون فى سيارته فى شيكاجو وتوقعه أن يوجد تليفون فى الزورق الخشبى الذى يستقله فى أبيدجان كشئ طبيعى.

لم تكن مغامرات سومرز التليفونية لتحدث إلا بفضل أول التغييرات وأهمها والتى نمت أثناء الحرب الباردة - التغيير فى طريقة اتصال كل منا بالآخر. إننى أسمّى هذا التغيير «ديموقراطية التكنولوجيا»، أى أنها تيسر لمزيد ومزيد من الناس، وبمزيد ومزيد من أجهزة الكمبيوتر المنزلية، والمودم والتليفونات الخلوية ونظم الكابلات، وخطوط الاتصال عبر الإنترنت، لكى تصل إلى أبعد وأبعد، وإلى المزيد والمزيد من الدول، أسرع وأسرع، أعمق وأعمق، أرخص وأرخص من أى وقت مضى. ويوجد فى منطقة واشنطن العاصمة بنك ڤالى سبرينج الذى يقدم كل أنواع الخدمات المصرفية عن طريق الإنترنت والتليفون لعملائه. ويلخص شعار البنك بدقة معنى ديموقراطية التكنولوجيا. فيقول: «دعنا ننقل إليك بنكنا فى منزلك». فبفضل ديموقراطية التكنولوجيا نستطيع جميعاً الآن أن يكون لنا بنك فى منازلنا، أو مكتب عمل فى منازلنا، أو صحيفة فى منازلنا، أو محل لبيع الكتب فى منازلنا، أو شركة سمسرة فى منازلنا، أو مصنع فى منازلنا، أو شركة استثمار فى منازلنا، أو مدرسة فى منازلنا...

كانت ديموقراطية التكنولوجيا نتيجة لعدة ابتكارات تجمعت معاً فى الثمانينيات تشتمل على استخدامات الكمبيوتر والاتصالات، ونمنمة الأجهزة، وتكنولوجيا الانضغاط والرقميات. فعلى سبيل المثال، أسفر التقدم فى تكنولوجيا الشذرات الدقيقة للكمبيوتر عن مضاعفة قوة الحاسوب كل ثمانية عشر شهراً تقريباً على مدى الثلاثين عاماً الماضية، فى حين يعنى التقدم فى تكنولوجيا الانضغاط أن حجم البيانات التى يمكن تخزينها على بوصة مربعة من سطح القرص زادت بنسبة 60 فى المائة كل عام منذ عام 1991. وفى الوقت نفسه انخفضت تكلفة سعة القدرة على التخزين من

خمسة دولارات للميجابايت إلى خمسة سنتات، مما يزيد من قوة الكمبيوتر ويسهل من الوصول إليه فى كل يوم. كما أدى التقدم فى الاتصالات إلى انخفاض مستمر فى تكلفة المكالمة التليفونية ونقل البيانات، فى حين تزداد باستمرار السرعة والمسافة وحجم المعلومات التى يمكن إرسالها عن طريق الخط التليفونى أو الكابل أو الإشارات اللاسلكية.

ولا يقتصر الأمر على أنك تستطيع الاتصال بأى مكان بثمن رخيص، وإنما تستطيع أيضاً أن تتصل من أى مكان بثمن رخيص، سواء كنت تعمل على الكمبيوتر الشخصى الخاص بك أو واقفاً على قمة الجبل أو مستلقياً على مقعدك فى الطائرة أو حتى فوق قمة إڤريست. لقد أصبح ذلك ممكناً بسبب الابتكارات فى مجال نمنمة الأجهزة التى تخفض باستمرار من حجم ووزن أجهزة الكمبيوتر والتليفونات وتليفونات الاستدعاء (البيدچر). وأصبح من الممكن الآن حمل هذه الأجهزة إلى أماكن لا تخطر على بال، كما أصبح من اليسير على ذوى الدخول البسيطة اقتناؤها. تأمل إعلاناً ظهر مؤخراً على صفحة كاملة فى صحيفة *يو إس إيه توداى* لشركة نيكستيل NEXTEL للتليفونات الخلوية كشفت فيه النقاب عن إنتاجها الجديد من تليفونات الجيب طراز موتورولا i1000 .وكان عنوان الإعلان كالتالى، «كبير بدرجة تكفى لتغيير شكل الصناعة. صغير بدرجة تكفى لوضعه داخل جيبك». ومضى الإعلان يقول فى شرح المميزات التى يحتوى عليها التليفون الخلوى الجديد لشركة موتورولا الذى لا يتجاوز وزنه 5.4 أوقية (153 جرام تقريباً): تخزين الكلمات والأرقام، وإنذار عن طريق الذبذبات، وبطارية طويلة العمر، وبريد صوتى، ومعرفة هوية الطالب، وإرسال واستقبال لاسلكى رقمى، واتصال ثلاثى الأطراف، وميكروفون للمتحدث. أو ماذا عن الخبر الذى نشر فى عدد يوليه عام 1998 من مجلة *جولف* الذى أشار إلى أن الكثير من ملاعب الجولف بدأت فى تركيب نظام الكمبيوتر Spyder- 9000 فى عربات

الجولف الموجودة بها، الذى يتيح لقائدى تلك العربات الاحتفاظ بالنتائج إلكترونياً، وقياس المسافات رقمياً، ومشاهدة مسبقة لحفر الجولف مسجلة على شرائط فيديو، ومشاهدة أفلام فيديو للجولف، وإعطاء طلبات الغداء، والتعرف على أسعار الأسهم، ومشاهدة الإعلانات التليفزيونية». والشئ الوحيد الذى لا تؤديه لك هو ضرب كرة الجولف برفق نحو الحفرة.

وقد كانت ثورة الرقميات سبباً فى التدعيم المستمر لهذه الابتكارات، إن الرقميات هى ذلك الساحر الذى يحيل لنا الأصوات أو أفلام السينما، أو الإشارات التليفزيونية، أو الموسيقى، أو الألوان، أو الصور، أو الكلمات، أو الوثائق، أو الأرقام، أو لغة الحاسوب أو أى شكل آخر من أشكال البيانات التى يمكن أن ترد على ذهنك إلى وحدات متناهية الصغر من المعلومات يتعرف عليها الكمبيوتر، هى البت (bit)، ثم يرسلها بالخطوط التليفونية والأقمار الصناعية وكابلات بصريات الألياف المنتشرة حول العالم. وتعتبر وحدات البت الجزيئات الأساسية فى أنظمة الكمبيوتر، وهى ليست سوى تركيبات متنوعة من الرقمين 1 و 0. وتنطوى عملية الرقميات على تحويل أى صوت أو صورة أو أعداد أو حروف إلى شفرة مختلفة مكونة من الرقمين 1 و 0 ثم تقوم بعد ذلك بإرسالها عبر وسائل الاتصالات اللاسلكية إلى نقطة أخرى حيث يتم فك الشفرة المكونة من الرقمين 1 و 0 لجهاز الاستقبال ثم إعادة صياغتها فى شكل أقرب ما يكون إلى الوضع الأصلى. وقد كان لنيكولاس نيجروبونتى، مؤلف كتاب **أن تكون رقمياً** *Being Digital*، طريقة جذابة فى وصف الرقميات، يقول فيها: «إن الأمر يبدو فجأة كما لو كنا نستطيع صنع كابوتشينو مجفف ومجمد بحيث يعود إلينا بمجرد إضافة الماء شراباً غنياً وفواح الرائحة تماماً كما يأتى إلينا طازجاً فى أى مقهى إيطالى». وكما يشير نيجروبونتى فإننا نستطيع الآن تجفيف وتجميد الكثير من الأشياء «بتحويلها من ذرات إلى وحدات البت»، من صور وأصوات إلى الرقمين 1 و 0، وإرسالها بعد ذلك إلى مزيد من الأماكن وبأسعار أرخص من أى وقت مضى.

تأمل فى هذه العملية على النحو التالى: الشذرة الدقيقة والكمبيوتر أشبه بالفرن الذى يستطيع أن يحول أى شئ مصنوع من ذرات إلى وحدات البت. والأقمار الصناعية، وخطوط التليفون، وكابل بصريات الألياف أشبه بالأنابيب التى تخرج من هذا الفرن إلى أنحاء العالم. وكلما زاد تطور هذه الأنابيب - إذ إنها تتزايد فى «سعة الحزمة» التى تعتبر أداة القياس لعدد الرقمين 1 و 0 التى تستطيع أنبوبتك الرقمية إرساله فى الثانية - استطعنا استخدامها فى نقل المزيد والمزيد من الذرات التى حوّلها الفرن الذى لدينا إلى وحدات البت .

إن عملية التحول الرقمى تلك أساسية إلى حد بعيد فى فهم هذه الحقبة من العولمة وتجعلها شيئاً فريداً يستحق التوقف برهة هنا لتقديم مثال من الحياة الواقعية لكيفية عملها. تأمل مكالمة تليفونية بسيطة. إنك تلتقط سماعة تليفونك فى نيويورك وتطلب رقم تليفون صديق لك فى بانكوك. وعندما تتحدث أنت فى ميكروفون السماعة فإن ضغط الهواء الصادر من فمك يصطدم بغشاء متذبذب موجود فى سماعة التليفون، حينئذ يتحرك هذا الغشاء جيئة وذهاباً مع الصوت الصادر من فمك. هذا الغشاء متصل بمغناطيس ملاصق لملف سلك كهربائى. وعندما يحرك الغشاء هذا المغناطيس، ينشأ عن المجال المغناطيسى تيار كهربائى فى السلك. ويتذبذب هذا المجال المغناطيسى مع تذبذب الصوت الصادر منك ومن ثم يتذبذب التيار الكهربائى فى السلك مثلما يتذبذب صوتك. وهكذا تحول لدينا الآن الصوت الصادر من فمك إلى إشارات كهربائية متذبذبة ترتفع وتنخفض مثل الموجة بحسب التغييرات فى صوتك. وتستطيع رؤية هذه العملية فى مرسمة تتبع ذبذبات الصوت (oscilloscope).

كيف يتسنى لنا تحويل ذلك إلى وحدات البت التى يمكن إرسالها؟ ما عليك إلا أن تتخيل أن هذه الموجات الصوتية تنخفض وترتفع فوق صفيحة معدنية مثقبة. وتقوم أنت بتقطيع كل موجة إلى شرائح دقيقة منفصلة وتقيس ارتفاع كل شريحة ثم

تعطيها رقماً مكوناً من رقم 1 ورقم 0 . وهكذا فإن الارتفاع 10قد يعبر عنه بالرقم 11110000والارتفاع 11 يعبر عنه بالرقم 11111000 وهكذا. وكل من1 و 0 يترجم إلى نبضة كهربائية تعرف بعد تثبيتها معاً بالموجة المربعة. هذه الموجة المربعة، على عكس موجة الصوت التماثلية التى ترتفع وتنخفض مثل أمواج البحر، تكون أكثر عرضة للتشويشات والتغييرات الطفيفة أثناء عملية الإرسال، إذ ترتفع الموجة المربعة ببساطة عند الأرقام 1 وتنخفض عند الأرقام 0. ويكون من السهل كثيراً على الجهاز الذى يستقبل مثل هذه الإشارة قراءتها بوضوح تام. فكل ما عليه هو أن يسأل، أهى فوق أم تحت ـ على عكس محاولة قراءة الموجة. وهذا هو السبب فى أن تكون النسخ الرقمية دائماً أكثر وضوحاً والسبب فى أن أى شئ يرسل كخيط من أرقام 1 و 0 من فمك أو جهاز الفاكس أو الكمبيوتر فى نيويورك سوف يخرج من الطرف الآخر أتوماتيكياً بالأرقام 1 و 0 نفسها .

ولكن دعنا نفترض أنك ممن يتحدثون لفترات طويلة. وأنك تجرى محادثة عميقة فى بانكوك. ولذلك فإن هناك الكثير من النبضات الإلكترونية للأرقام بالأرقام 1 و 0 التى يجب إرسالها. ولكن بفضل معجزة التكنولوجيا يمكن ضغط هذه الأرقام 1 و 0 (الأساس أن جهاز الكمبيوتر لديك، يقول 1×8 و 5×8، بدلاً من 11111111 و 00000000) والآن أصبح صوتى مضغوطاً إلى مجموعة صغيرة لطيفة من وحدات البت وحان الآن وقت نقلها. بوسعنا أن نقوم بذلك بطرق متعددة. أبسطها عن طريق إصدار تيار متذبذب، بحيث يصبح فى كلمات بسيطة، فولت واحد للأرقام 1 وفولتين للأرقام 0. أو يمكننا نقلها على كابل بصريات الألياف الذى يعمل بإصدار نبضات من الضوء. أى إنك تومض الضوء للأرقام 1 وتوقفه للأرقام 0. (القرص المدمج سى دى CD ليس إلا أسطوانة مسطحة من البلاستيك مغلفة بطبقة من الألومنيوم. وهى تحفر ثقوباً صغيرة فى الاسطوانة عند الأرقام 1 وتتركها بلا ثقوب عند الأرقام 0. وكل

ما يفعله المتحكم فى القرص المدمج هو أن يجعل شعاع ليزر يتألق على كل مسار فى الأسطوانة، ويقرأ الأرقام 1 و 0 ثم يحولها مرة أخرى إلى تلك الأصوات الجميلة التى بدأ بها). أو أن نستخدم الموجات اللاسلكية، بحيث يكون الصوت العالى للأرقام 1والمنخفض للأرقام 0 . وأيا كانت الطريقة التى نختارها، فمن المؤكد أن تخرج نسخة طبق الأصل فى كل مرة. وفى حالة المكالمة التليفونية التى أجريها مع بانكوك فقد يتحول صوتى إلى نبضات ضوء بصريات الألياف، ثم عندما تصل هذه النبضات إلى بانكوك، وإلى المستقبل فى سماعة تليفون صديقى، فإنها تتحول مرة أخرى إلى موجات صوتية عن طريق جهاز دقيق يترجم كل من الأرقام 1 و 0 إلى كمية معينة من الفولتات تضرب الملف الكهربائى الموجود فى التليفون. وعندما يضرب هذا الملف، فإنه ينشأ مجال مغناطيسى يوجه المغناطيس جيئة وذهاباً، ويحرك بالتالى الغشاء الموجود بسماعة التليفون، فيدفع الهواء، بحيث يعود مرة أخرى ذلك الصوت الذى أخرجته من فمى. بريستو! أى قهوة نيجروبونتى الكابوتشينو الرائعة فى كل مرة.

وهكذا، فعندما أقول إن الابتكارات فى مجالات الحاسوب ونمنمة الأجهزة والاتصالات والرقميات قد أدت إلى ديموقراطية التكنولوجيا فإننى أعنى بذلك أنها مكنت مئات الملايين من البشر فى أنحاء العالم من الاتصال ببعضهم بعض وتبادل المعلومات أو الأخبار أو المعرفة أو النقود أو صور العائلة أو التبادل النقدى أو الموسيقى أو العروض التليفزيونية بطرق وبدرجة لم تحدث قط من قبل. ففيما مضى، إذا كنت مقيماً فى نيويورك، ورزق ابنك الذى يعيش فى أستراليا بطفل جديد، فقد كان المعتاد أن يخرج من منزله ومعه الكاميرا ثم يشترى فيلم كوداك، ويلتقط صوراً لابنه ثم يحمضها، ويضعها فى مظروف ويرسلها إليك بالبريد. فإذا كنت محظوظاً فسوف يكتب لك رؤية وجه حفيدك الجميل بعد مرور عشرة أيام. والآن لم يعد الأمر كذلك. فالآن يستطيع ابنك التقاط هذه الصور لابنه بكاميرا رقمية، وتسجيلها رقمياً على

قرص مرن سعة 3.5 بوصة، وتحريرها رقمياً على الكمبيوتر، ثم إرسالها رقمياً إليك عبر الإنترنت ـ وكل ذلك قبل أن يبلغ الوليد عشر ساعات من العمر.

يلخص لورانس جروسمان الرئيس السابق لشبكة إن بى سى NBC الإخبارية، بدقة ديموقراطية التكنولوجيا هذه على النحو التالى: «الطباعة جعلت منا جميعاً قراء. وآلات زيروكس للتصوير الفورى جعلت منا جميعاً ناشرين. والتليفزيون جعل منا جميعاً مشاهدين. والرقميات جعلت منا جميعاً مذيعين».

وتسلط ملاحظة جروسمان الضوء على عامل آخر يجعل هذه الحقبة من العولمة تختلف فى درجتها ونوعها على السواء عن الحقبة السابقة. ببساطة، إن ديموقراطية التكنولوجيا هذه أدت إلى «عولمة الإنتاج». فاليوم، بوسعنا جميعاً أن نكون منتجين. ولا تتعلق عولمة اليوم بمجرد قيام الدول النامية بشحن المواد الأولية للدول المتقدمة، وتركها تنتج السلع النهائية، ثم تعيد شحنها إليها مرة أخرى. كلا. فاليوم، وبفضل ديموقراطية التكنولوجيا، أصبح لكل الدول فرصة لتجميع التكنولوجيات والمواد الأولية والتمويل لكى تصبح دولاً منتجة أو متعاقدة من الباطن، لإنتاج منتجات أو خدمات نهائية فائقة التعقيد، وهو ما يصبح عاملاً دقيقاً آخر يغزل العالم فى نسيج أكثر تماسكاً. وسوف أعود إلى مناقشة ذلك بالتفصيل لاحقاً. ويكفينا الآن أن نقول إن ديموقراطية التكنولوجيا تلك هى التى جعلت تايلاند تتحول على مدى خمسة عشر عاماً من مجرد دولة منتجة للأرز أساساً إلى ثانى أكبر دولة منتجة فى العالم لسيارات نصف النقل وتنافس فى ذلك ديترويت، ورابع أكبر دولة مصنعة للدراجات البخارية.

ولا تنطبق ديموقراطية التكنولوجيا تلك على مجرد السيارات أو الدراجات البخارية. بل هى كما وصفها لى ذات مرة تيرا فوتراكال مدير أحد الصناديق المشتركة فى بانكوك: «إننا فى هذا الصندوق المشترك لسنا مطالبين بإعادة اختراع العجلة، إننا نستوردها فحسب. إننا نحصل على بعض التكنولوجيا التى نشتريها بعُشر الثمن الذى

اشترتها به شركتنا الأم بانكرز ترست. خذ مثلاً، نظام الرد الصوتى الأوتوماتى الذى يتصل به المستثمرون، بمجرد الضغط على العلامة 1# تتعرف على قيمة أصول الصندوق، وبالضغط على العلامة 2# تحصل على عروض بالشراء، وبالضغط على العلامة 3# تستطيع البيع. وإذا كنت تريد الشراء أو استعادة (أسهم الصندوق المشترك التى تمتلكها)، فإنك تستطيع القيام بذلك الآن بالاتصال عن بعد بالبنك، وكل ما تراه هنا من أجراس وصفارات تأتينا بأسعار أرخص. كل ما علينا هو الانتظار لتطويرها فى الخارج. وذلك هو الجمال الحقيقى للعولمة. فنحن مجرد بيت محلى ذى معرفة محلية، ولكن أصبح لدينا الآن تكنولوجيا عالمية نستطيع الحصول عليها».

كنت أمزح مرة مع جيوف باير رئيس تصميمات الشبكات فى شركة صن مايكروسيستيمز حول ما يمكن أن تقودنا إليه ديموقراطية التكنولوجيا ووسائل الإنتاج تلك. بدأنا بمناقشة كل ما يدور خلف الكواليس فى تلك الأيام، وهى أشياء لا يدرى عنها الناس شيئاً. فعلى سبيل المثال، أصبحت الهند المكتب الخلفى للعالم. فقد نقلت شركة سويس إير قسم الحسابات بأسره، بما فى ذلك أجهزة الكمبيوتر، من سويسرا إلى الهند للاستفادة من انخفاض تكلفة أجور العمالة بالنسبة للسكرتيريين والمبرمجين والمحاسبين. وبفضل الرقميات وشبكات العمل استطاعت سويس إير أن تحتفظ بحساباتها فى بومباى بسهولة بقائها فى بيرن. وفى 16 يناير 1999 نشرت صحيفة **الإيكونوميست** أن شبكة خدمات شركة الخطوط الجوية البريطانية العالمية، ومقرها مومباى بالهند، تؤدى العديد من الوظائف المكتبية للشركة الأم، بما فى ذلك التعامل مع الأخطاء التى تظهر فى نظم الحجز الأوتوماتى واقتفاء أثر الأميال التى يقطعها الطيار المعتاد. وأضافت **الإيكونوميست** «إن شركة سيليكترونيك، التى تأسست منذ عامين ومقرها دلهى، تلتقط أوامر الأطباء من رقم تليفونى معفى من حساب عدد المكالمات (فى أمريكا) وتنسخ التسجيلات ثم تعيد إرسال النتائج بمثابة نص إلى المنظمة

الأمريكية للحفاظ على الصحة». وكلما استطردنا أنا وباير فى أفكارنا حول كل تلك الأمور، أصبحت أفكارنا شيطانية.

سألنى باير: «الآن وبعد أن أصبح باستطاعتنا توفير كل هذه الخدمات التى كان يتعذر الوصول إليها من قبل عبر الشبكات، مثل الإنترنت، فما الذى يمنع أيضاً من توفير الخدمات لحكومتك من مصادر خارجية؟ فكر فى الأمر - إنك تستطيع توفير وظائف عمليات الكوماندوز وحرس الحدود للروس من الخارج. تستطيع أن تعهد إلى الهند بمهمة إمساك حسابات بلادك وللسويسريين بإدارة جهاز الرسوم الجمركية. وتستطيع أن تجعل الألمان يديرون لك البنك المركزى لديك. وتستطيع أن تجعل الإيطاليين يصممون لك كل الأحذية فى بلادك. وتستطيع أن تجعل البريطانيين يديرون لك مدارسك العليا. ويمكن لليابانيين أن يديروا لك مدارسك الأولية وقطاراتك.

ديموقراطية التمويل

مما لا شك فيه أن ديموقراطية التكنولوجيا ساعدت على تعزيز التغيير الرئيسى الثانى الذى يقود إلى العولمة، وذلك هو التغيير فى الطريقة التى نستثمر بها، وهو ما أسميه «ديموقراطية التمويل». ذلك أن معظم عمليات الإقراض والتأمين الكبرى المحلية والدولية التى تمت فى معظم حقبة الحرب الباردة قامت بها كبرى البنوك التجارية وبنوك الاستثمار وشركات التأمين. وكانت هذه المؤسسات الأنيقة تفضل دائماً إقراض الشركات التى لديها تسجيلات موثقة لأنشطتها السابقة والحاصلة على تقدير «مستوى الاستثمار». وقد جعل ذلك الاقتراض من البنوك عملية غير ديموقراطية تماماً. ولم يكن لدى البنوك التقليدية القديمة سوى فكرة محدودة للغاية عمن هو جدير بالحصول على القروض من هذه الشركات، أما إذا كنت شركة مبتدئة فقد كانت محاولة الحصول على قرض تتوقف دائماً على ما إذا كان لديك حساب فى البنك أو

فى شركة تأمين. وكانت هذه المؤسسات التقليدية تميل أيضاً إلى أن يتولى إدارتها تنفيذيون يتميزون ببطء الحركة ولجان لاتخاذ القرار، تتصف باجتناب المخاطرة وعدم الاستجابة السريعة للتغيرات التى تحدث فى الأسواق.

وقد بدأت ديموقراطية التمويل فى الواقع فى أواخر الستينيات بظهور سوق «الورقة التجارية». وكانت تلك الورقة نوع من السندات التى تصدرها الشركات مباشرة للجمهور بغية جمع رؤوس الأموال. وقد أدى إنشاء هذه السوق لسندات الشركات إلى ظهور بعض التعددية فى عالم التمويل وقضى على احتكار البنوك. وتبع ذلك فى السبعينيات «تأمين توفير» رهنيّات المنازل. وبدأت البنوك الاستثمارية فى الاقتراب من البنوك وشركات الرهونات، واشترت منهم محفظة الرهونات بأسرها، ثم قامت بتفتيتها إلى سندات قيمة الواحد منها 1,000 دولار أستطيع أنا أو أنت أو خالتى بيف شراءها. وبذلك أتيحت لنا الفرصة لتحقيق زيادة ضئيلة فى الأرباح من استثمار آمن إلى حد ما، وكانت الأرباح وأقساط رأس المال الأصلى تدفع من التدفق النقدى الشهرى الذى يقدمه من يسددون الأقساط الشهرية لرهونات منازلهم. وفتح ذلك التأمين لتوفير الأموال الباب على مصراعيه لجميع أنواع الشركات والمستثمرين الذين لم تسنح لهم قط فرصة الوصول إلى جمع الأموال.

ومع ذلك لم يحدث الانفجار الحقيقى لديموقراطية التمويل إلا فى الثمانينيات على يد مايكل ميلكن، ذلك العبقرى متقلب المزاج، الذى ناضل لإزالة العوائق، وتحول فى نهاية الأمر إلى ملك فاسد للسندات المتدنية. تخرج ميلكن فى كلية وارتون للأعمال والتمويل بجامعة بنسلفانيا، وبدأ العمل بشركة دريكسل للسمسرة فى فيلادلفيا فى عام 1970. وفى ذلك الوقت لم تكن البنوك الكبرى أو بيوت الاستثمار تأبه بأن يكون لها علاقة كبيرة ببيع «السندات المتدنية» ذات السعر المنخفض، التى كانت فى تلك الأيام أساساً شركات سندات الدرجة الأولى التى هبطت إلى الحضيض

أو شركات مبتدئة ذات رأسمال قليل و ليس لها نشاط سابق. كان ميلكن يرى أن البنوك الكبرى غبية. فأجرى حساباته الخاصة، ودرس بعض البحوث الأكاديمية التى لم تحظ باهتمام يذكر فى موضوع السندات المتدنية، وخلص إلى ما يلى: كانت الشركات التى لم يكن لها تقدير درجة استثمارى مطالبة بدفع معدلات فوائد تزيد بنسبة من ثلاث إلى عشر نقاط مئوية عن المعدلات السائدة ـ وذلك إذا نجحت على الإطلاق فى الحصول على قرض. ولكن كانت هذه الشركات فى الواقع تفلس أكثر قليلاً من شركات سندات الدرجة الأولى ذات التصنيف المرتفع، التى كانت سنداتها تقدم معدلات عائدات أكثر انخفاضاً. ولذلك، فإن ما يسمى بالسندات المتدنية أتاحت فى الواقع فرصة تحقيق أرباح أكثر كثيراً، وبدون كثير من المجازفة. وإذا جمعت معاً الكثير من السندات المتدنية المختلفة فى صندوق واحد، حتى إذا تخلف القليل منها، فإن إجمالى الصندوق يستطيع مع ذلك دفع عائد يزيد بنسبة تتراوح بين ثلاث أو أربع نقاط مئوية فى المتوسط من سندات الدرجة الأولى، وبدون زيادة تذكر فى المخاطرة. وقد عرضت مجلة ***بيزنس ويك*** الموضوع فى مارس 1995 على النحو التالى: لقد كان ميلكن، مسلحاً ببعد نظره «أول من شرع فى المهمة الشاقة المتمثلة فى إقناع عالم متشكك بأنه قد اكتشف المعادل الاستثمارى لوجبة غداء مجانية».

ولما كانت البنوك التقليدية وبيوت الاستثمار متشككة، واستمرت فى ابتعادها عن هذا النوع من النشاط، فإن ميلكن سرعان ما انتقل من العمل فى تبادل تلك السندات المتدنية التى كانت موجودة بالفعل، ومن الشركات المنهارة ذات التقدير A ، إلى تأمين سوق جديدة كاملة يحرك خيوطها لاعبون فى السندات المتدنية: شركات فيها مخاطرة، وشركات منهارة، وشركات جديدة، ورجال أعمال ومبتدئون تعذر عليهم الحصول على قروض من البنوك التقليدية، بل وقراصنة المال الذين كانوا يرغبون فى الاستيلاء على شركات أخرى ولكن تعذر عليهم جمع الأموال للقيام بذلك عن

طريق قنوات البنوك التقليدية. واستطاع ميلكن أيضاً، بفضل اتصالاته، بيع السندات المتدنية التى أصدرها لصناديق مشتركة، ومستثمرين من القطاع الخاص، وصناديق المعاشات الذين أدركوا أنه كان صادقاً فى توفير عائدات أعلى لهم فى مقابل مخاطر ليست كبيرة. وقد أتاح ذلك لى ولك ولخالتى بيف الفرصة لشراء قطعة صغيرة من هذه الصفقات التى كانت محظورة من قبل على الشخص البسيط. ولم يمض وقت طويل حتى طبقت تجربة ميلكن الرائدة فى كل مكان. وسرعان ما وجدت أسهم متدنية مزدهرة ـ أو صناعة ذات «عائد مرتفع» ـ توفر للجمهور نصيباً فى جميع أنواع الشركات والصفقات.

وقد حدث ما يشبه ذلك من ديموقراطية التمويل على المستوى الدولى. فقد ظلت البنوك الكبرى، طوال عشرات السنين، تقرض كميات هائلة من الأموال للحكومات الأجنبية وللدول والشركات وتسجل هذه القروض فى حساباتها بقيمتها الاسمية. ومعنى ذلك أنه إذا أقرض بنك لدولة أو لشركة 10ملايين دولار، فإنها تسجل فى الحسابات على أنها قرض قيمته 10ملايين دولار واجب السداد بالكامل، سواء كان لهذه الدولة أو الشركة أصول قيمتها 10ملايين دولار فى ذلك اليوم أم لا. ولما كانت البنوك تقدم هذه القروض أساساً وترصدها فى حساباتها، فإنه إذا حاقت المشكلات المالية بدولة مثل المكسيك، كما حدث بالفعل فى عام 1982 بسبب اعتمادها على القروض الأجنبية لتمويل الاستهلاك المحلى لشعبها، فقد وقع عبء هذه المشكلة على عاتق البنوك. وكان من السهل على الرئيس المكسيكى أن يطير إلى نيويورك ويستدعى البنوك العشرين الرئيسية المقرضة للمكسيك للاجتماع به، وأن يقول لهم: «أيها السادة. لقد أفلسنا. وأنتم تعرفون القول المأثور: إذا كان هناك رجل مدين لك بمبلغ 1,000دولار فهذه مشكلته، أما إذا كان هناك رجل مدين لك بمبلغ 10ملايين دولار فتلك مشكلتك أنت. حسناً، نحن مشكلتكم. نحن لا نستطيع سداد

ديوننا. إذن أنتم مطالبون بالتراخى فى مطالبكم منا، وإعادة التفاوض بشأن قروضنا وتقديم قروض جديدة لنا». ويضطر المصرفيون إلى الانصياع والتوصل إلى نوع من الاتفاق، يتضمن تمديد فترة سداد القروض (وغالباً مع فرض معدلات فائدة أعلى). فهل كان لديهم اختيار آخر؟ لقد كانت المكسيك مشكلتهم، ولم يكن المصرفيون الأمريكيون يرغبون فى العودة إلى حملة أسهمهم ليقولوا لهم إن ذلك القرض المكسيكى المدون فى حساباتهم كأصول قيمتها 10ملايين دولار لا يساوى فى الواقع شيئاً. والأفضل لهم مجاراة الوضع فى المكسيك. ولما كان معظم الدين مقدماً من عشرين بنكاً فقد تمكنوا من الاتفاق فيما بينهم وتسوية الموضوع برمته فى غرفة اجتماعات واحدة.

كان جون بيدج أحد خبراء الاقتصاد العاملين بإدارة أمريكا اللاتينية فى البنك الدولى فى ذلك الوقت. وقد شرح لى تماماً الطريقة التى تمت بها تسوية المشكلة. كان بيدج، الذى يتحدث الإسبانية، فى زيارة للمكسيك فى عام 1982، للاجتماع مع خوزيه آنجل جويريا، الذى كان فى ذلك الوقت يشغل منصب المدير العام للدين العام بوزارة المالية المكسيكية. وكان جويريا يتمتع ببراعة أسطورية فى إقناع المصرفيين الأجانب - بدءاً من كبار المصرفيين فى نيويورك إلى صغار المصرفيين فى ويست تكساس - بتقديم القروض للحكومة المكسيكية.

يحكى لى بيدج قائلاً، «كنت ذات مرة موجوداً فى مكتب جويريا، وكنا نتحدث بالإسبانية، عندما رن جرس التليفون، وكان المتكلم رئيس أحد البنوك الصغيرة فى تكساس ممن أقنعهم جويريا بتحمل جزء من الدين المكسيكى، وكان هذا الرجل يشعر بالقلق إزاء التقارير التى تشير إلى أن الاقتصاد المكسيكى يواجه مشكلة. وقد تحول جويريا من الحديث معى بالإسبانية إلى الحديث مع هذا المصرفى الأمريكى بالعامية الإنجليزية السليمة تماماً. كأن يقول :«هاى، جو، سعيد باتصالك بى.... كلا، كلا، لا تقلق. الأمور طيبة هنا. أموالك آمنة تماماً. كيف حال العائلة؟ ....

عظيم. كيف حال ابنتك؟ هل ما زالت فى المدرسة؟ .... سعدت بالحديث معك. اتصل بى فى أى وقت. كن دائم الاتصال بى». وبعدها، وبدون تضييع أى وقت، يضع سماعة التليفون ويتحول فوراً إلى الحديث معى بالإسبانية. لقد حل مشكلته مع أحد كبار المستثمرين فى ثلاثين ثانية».

ولكن حدث حينئذ شئ عجيب فى الطريق نحو العولمة. فقد تم تحويل تلك السوق الدولية للديون إلى سندات، تماماً مثلما فعلت شركات ميلكن وأصدقائه. بمعنى أنه عندما وقعت أمريكا اللاتينية فى أزمة ديون أخرى فى أواخر الثمانينيات، حاول نيكولاس بريدى وزير الخزانة الأمريكى فى ذلك الوقت، التوصل إلى حل بطريقة ميلكن. ففى عام 1989تم تحويل ديون أمريكا اللاتينية للبنوك التجارية الرئيسية إلى سندات تدعمها الحكومة الأمريكية، وكانت هذه السندات إما أن تشتريها البنوك كأصول وإما أن تباع لعامة الجمهور وللصناديق المشتركة وصناديق المعاشات، بمعدلات فائدة أعلى من المعدلات العادية. وفجأة أصبح باستطاعتنا أنا وأنت وخالتى بيف شراء جزء من الدين المكسيكى، أو الدين البرازيلى، أو الدين الأرجنتينى – إما بطريقة مباشرة أو عن طريق صناديق معاشاتنا أو الصناديق المشتركة. وكان تبادل هذه السندات يتم يومياً، بحيث ترتفع أو تنخفض قيمتها وفقاً للأداء الاقتصادى لكل دولة. وبذلك لا تظل مقيدة فى الدفاتر الحسابية للبنوك بقيمتها الاسمية فقط. لقد قال جويل كورن، رئيس بنك أوف أمريكا البرازيل فى ذلك الوقت: «ما فعله بريدى يعد ثورة حقيقية. إذ كانت وزارة الخزانة الأمريكية تضغط فقط على البنوك الأمريكية وصندوق النقد الدولى للاستمرار فى ضخ الأموال المرة تلو الأخرى إلى دول أمريكا اللاتينية تلك. أما ما فعله بريدى فهو أنه توصل إلى حل قائم على تفاعلات السوق. فقد حصل المصرفيون على ضمانات من الحكومة الأمريكية لتقديم قروض جديدة إلى أمريكا اللاتينية، شريطة أن تقوم هذه الدول بإصلاحات اقتصادية. وكانت هذه البنوك، بعد تقديم هذه القروض، تقوم بتجزئتها إلى سندات تضمنها الحكومة الأمريكية ثم

تباع للجمهور وذلك بدلاً من مجرد تدوينها فى دفاترها الحسابية. وقد أتى ذلك بآلاف من اللاعبين الجدد فى المباراة. فبدلاً من أن تتعامل الدولة مع لجنة تمثل عشرين بنكاً تجارياً كبيراً، فقد وجدت نفسها تتعامل فجأة مع آلاف المستثمرين الأفراد والصناديق المشتركة. وأدى ذلك إلى توسيع السوق، وجعلها أكثر سيولة، ولكنه أوجد نوعاً جديداً تماماً من الضغط على الدول. وكان الناس يتداولون أسهمهم بيعاً وشراء كل يوم، بناء على مدى ما حققته هذه الدول من نجاح فى أدائها الاقتصادى. وكان ذلك معناه أنها تقدر بحسب أدائها كل يوم. وكان الكثير من الأشخاص الذين يقومون بعمليات الشراء والتقدير من الأجانب الذين لا سلطان للبرازيل أو المكسيك أو الأرجنتين عليهم» . ولم يكن حملة السندات هؤلاء مثل البنوك التى شعرت بأن عليها أن تواصل تقديم مزيد من القروض لحماية قروضها السابقة، لأنها كانت بالفعل تحت رحمة هذه الدول. فإذا لم تحقق دولة ما الأداء المطلوب فما على حملة السندات سوى بيع سندات هذه الدولة، وتقول لها مع السلامة وتضع أموالها فى سندات دولة أخرى تحقق هذا الأداء.

وهكذا فإنه عندما وقعت المكسيك فى المشاكل مرة أخرى بسبب الإفراط فى الإنفاق فى عام 1995، بدأ كل البشر كباراً وصغاراً فى بيع ما لديهم من السندات المكسيكية، مما هبط بأسعارها، ولم يعد بوسع جويريا بعد الآن مجرد الاتصال تليفونياً بعشرين بنكاً ويطلب منهم تمديد فترة سداد الدين وموافاته ببعض القروض الجديدة. لقد قسم دين المكسيك ديموقراطياً على عدد كبير من الناس. ومن ثم كان على المكسيك فى هذه المرة أن تتصل بوزارة الخزانة الأمريكية طلباً للعون، ولكن العم سام لم يقدم الأموال للمكسيك إلا بشروط مشددة للغاية وكان على المكسيك أن تقدم احتياطياتها البترولية كضمان. وكانت الطريقة الوحيدة التى ستجعل الحكومة الأمريكية تتقدم لإنقاذ المكسيك أن تشترط عليها أن تدير اقتصادها بالطريقة التى يدار بها الاقتصاد فى ولاية نيومكسيكو الأمريكية. وسرعان ما بدأ الكثير من الاقتصادات

الناهضة فى بيع سندات على طريقة بريدى، وغالبا يكون معظمها بالدولارات، واليوم هناك ست عشرة دولة تصدر سندات على طريقة بريدى تصل قيمتها تقريباً إلى 150 مليار دولار. ولم يعد هناك جديد فى أن تصدر الدول سندات يشتريها أجانب، فإن ذلك يحدث منذ سنوات عديدة. أما الجديد فهو المدى الذى وصل إليه الآن انتشار هذه السندات فى أيدى الأفراد وصناديق المعاشات والصناديق المشتركة. فى أوائل هذا القرن،كان الأثرياء فى الغالب هم الذين يشاركون فى صفقات سندات دولية. والآن أصبح فى إمكان صندوق التقاعد فى مقاطعة أورانج، وبواب المدرسة، فضلاً عنك وعنى وعن خالتى بيف الاشتراك جميعاً فى اللعبة.

ويرجع ذلك إلى أن ديموقراطية الإقراض تزامنت، فى أمريكا، مع ديموقراطية الاستثمار، بفضل إصلاح نظام المعاشات أساساً وإنشاء 401(K) مجموعة حسابات المعاش الشخصية. إن أمريكا تتحول من دولة تضمن فيها الشركات معاش العامل من خلال «مجموعة من المزايا» المحددة إلى دولة تضمن فيها كثير من الشركات الآن «مساهمة» محددة ويقوم الأفراد بإدارة أموالهم بأنفسهم ويتنقلون بها هنا وهناك، حيثما يستطيع الواحد منهم الحصول على أفضل عائد. ونظراً لأن الناس أصبحوا الآن أطول عمراً، ويتساءلون عما إذا كانوا سيتمتعون بتأمين اجتماعى لحياتهم إذا رغبوا فى التقاعد، فإنهم أصبحوا لا يلجأون فقط إلى هذه الصناديق المشتركة وصناديق المعاشات فى إقدام، بل يديرونها أيضاً بإقدام شديد للحصول على عائدات أعلى. وربما لم يكن لدى والديك على الأرجح سوى فكرة بسيطة عن المكان أو الطريقة التى تستثمر فيها صناديق معاشاتهم. أما الآن فتعرض على كثير من العمال قائمة صناديق بأنواع مختلفة من العائدات والمخاطر، وينتقلون بأموالهم هنا وهناك مثل تنقل الفيشات على مائدة الروليت، حيث تمنح الجوائز للصناديق المشتركة الناجحة وتعاقب الأقل نجاحاً.

كذلك تعززت ديموقراطية الاستثمار على المستوى الدولى عندما انهار فى أوائل السبعينيات نظام أسعار الصرف الثابتة والقيود المشددة على التدفقات الدولية لرؤوس الأموال الذى بدأ بعد الحرب العالمية الثانية فى بريتون وودز. إننا ننسى الآن، ولكن قبل عام 1970 ، كان من الصعوبة بمكان على المستثمرين اليابانيين أو المكسيكيين أو الأروبيين شراء أسهم أو سندات فى أمريكا، وكان من الصعب على الأمريكى أن يفعل ذلك فى بلدانهم. غير أنه بعد تفكك نظام أسعار الصرف الثابتة والقيود على رؤوس الأموال قامت الدول المتقدمة بإضفاء الديموقراطية تدريجياً على أسواق رؤوس الأموال لديها، وفتحتها أمام أى متعاملين أجانب ممن يودون الاشتراك فى اللعبة، ثم حذت الدول النامية بعد ذلك حذوها.

وسرعان ما أصبحت جميع أنواع المنتجات معروضة: سندات مكسيكية، سندات لبنانية، سندات تركية، سندات روسية، سندات ألمانية، سندات فرنسية، وما عليك إلا أن تختار منها على مهل، وهذا ما فعله الناس. وكلما سهل على المستثمرين الأفراد الانتقال بأموالهم هنا وهناك بين تلك الصناديق المشتركة العالمية شديدة التنافس، كان مديرو هذه الصناديق أقدر على الانتقال بما لديهم من أموال فيما بين الشركات والدول مطالبين باستمرار بعائدات أعلى وأكثر ثباتاً. وكل من هذه الصناديق يرغب فى منافسة الصناديق الأخرى لكى يجذب المزيد من الأموال. يقول خبير الأسواق الاقتصادى هنرى كاوفمان إن إجمالى الأرباح وصناديق السندات فى الولايات المتحدة بلغت مجتمعة فى عام 1985أكثر من 100مليار دولار، أى بنسبة تقل 2 فى المائة من إجمالى القيمة المالية الصافية لإنفاق الأسرة. واليوم أصبحت هذه الأسهم وصناديق السندات المشتركة تمثل أكثر من 3 تريليونات دولار، منها تريليونان دولار مملوكة لأفراد الأسرة، تمثل تقريبا 10فى المائة من صافى الأصول الخاصة بهم وهى نسبة آخذة فى الزيادة.

وتجدر الإشارة إلى أن الكثير من أموال السندات المتدنية استخدمت أيضاً فى اندلاع موجة ازدهار فى عمليات الاستيلاء على الشركات فى أمريكا. وهنا أيضاً، أصبح الرجل البسيط الذى لم يكن باستطاعته قط المشاركة فى مثل هذه الصفقات المبشرة بالمكاسب قادراً فجأة على ذلك بصورة مباشرة عن طريق صندوق معاشه والصناديق المشتركة. غير أن عملية الاستيلاء على الشركات تلك جعلت مديريها يتعرضون لرقابة أشد، ولا سيما إذا كان أداؤهم دون المستوى. كما ساعدت هذه العملية على دفع انسيابية الاقتصاد الأمريكى فى الثمانينيات وإعداد أمريكا لحقبة العولمة على نحو أفضل وأسرع من أى دولة كبرى أخرى فى العالم. فقد شهدت الكثير من الشركات زيادة فى كفاءتها نتيجة لذلك، وإن كان بعضها كابد عملية اعتصار ماء الحياة منها.

من بين الأسباب الرئيسية فى تعثر ذلك العدد الكبير من الشركات المحلية فى اليابان أن التمويل هناك لم يكن ديموقراطياً على الإطلاق حتى أواخر التسعينيات. وكانت البنوك الكبرى فى اليابان تسيطر على التمويل، ولذلك كان المبتدئون المجهولون يذوقون الأمرين فى توفير السيولة النقدية، وكان من المتعذر توفير رأس المال من أجل عمليات الاستيلاء العدائية على الشركات. وحتى إذا توافر رأس المال ذاك، فلم تكن عمليات الاستيلاء مستحبة لأسباب ثقافية ولأن الكثير من مجالس إدارة البنوك ومجالس إدارة الشركات كانت على وفاق تام مع بعضها بعض. هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن لدى العمال اليابانيين فرصة كبيرة للاختيار بالنسبة لمعاشاتهم. ولم يكن لديهم سيطرة كبيرة عليها. ولم يكن باستطاعتهم الانتقال بأموالهم هنا وهناك، ومن ثم تلاشى الضغط على الشركات المحلية اليابانية والصناديق المشتركة وصناديق المعاشات للارتقاء بأدائها إلى المستويات العالمية. وهذا هو السبب فى أن اليابان لديها اقتصاد أكثر ارستقراطية، ولكنه أقل كفاءة كثيراً فى عملية التدمير الخلاق التى قال بها شومبيتر.

لقد انتقلنا، بفضل ديموقراطية التمويل، من عالم كانت فيه حفنة من المصرفيين يسيطرون على الدين الوطنى لعدد قليل من الدول إلى عالم يسيطر فيه عدد كبير من المصرفيين على الدين الوطنى لعدد كبير من الدول، ثم إلى عالم يسيطر فيه بعض الأفراد الأثرياء والمصرفيين على الدين الوطنى لكثير من الدول، ثم أخيراً إلى عالم اليوم الذى يسيطر فيه كثير من الأفراد، عن طريق صناديق المعاشات والصناديق المشتركة على الدين الوطنى لكثير من الدول.

ديموقراطية المعلومات

كان جون بيرنز يعمل رئيساً لمكتب صحيفة ***نيويورك تايمز*** فى نيودلهى فى أواخر التسعينيات. زرته مرة فى صيف عام 1998، فى أثناء إقامة مباريات كأس العالم لكرة القدم. وكان بيرنز يحاول متابعتها على شاشة التليفزيون. أخبرنى بيرنز فى صباح أحد الأيام القصة التالية: «لدينا أربعة أطباق للأقمار الصناعية فوق سطح منزلنا (فى نيودلهى) تكلف الصحيفة آلاف الدولارات سنوياً. وقد أصبح الأمر وكأننا ندير محطة اتصالات هنا . على أية حال، سئمت الوضع لأنه على الرغم من وجود كل أطباق الأقمار الصناعية، لم أستطع الوصول إلى القناة الهندية التى تبث كأس العالم تليفزيونياً. وكان الأمر يتعلق بالتداخل الجوى ويحتاج إلى تعديل اتجاه الأطباق، وكان الرجل المكلف بهذه المهمة يقوم بزيارتنا بين الحين والآخر. كنت اشتكى من ذلك كله أثناء تناول طعام الإفطار، فقال لى عبد التوحيد طباخ منزلنا البالغ من العمر واحداً وسبعين عاماً الذى كان فى صباه يعمل بتلميع أحذية آخر القادة البريطانيين فى الهند: 'لا أدرى ما الذى يضايقك. إننى أستطيع مشاهدة جميع القنوات فى التليفزيون الخاص بى. إنك تضيع وقتك ومالك على هذه الأقمار الصناعية. تعال لزيارتنا فى منزلنا'. وكان يعيش هو وزوجته فى مجمع صغير خلف منزلنا. وهكذا ذهبت إلى هناك وكانت زوجته تستمع إلى إذاعة بى بى سى. قلت له: 'ماذا تفعل؟

إنها لا تتحدث الإنجليزية' رد قائلاً: 'إنها تتعلم'. ثم قدم لى جهاز التحكم فى التليفزيون عن بُعد، ولدهشتى بدأت فى تغيير القنوات من القناة 1 حتى القناة 27. لقد كان لديه إرسال لقنوات من الصين وباكستان وأستراليا وإيطاليا وفرنسا ـ كل هذه القنوات ليختار منها ما يحلو له، ولم يكن يكلفه ذلك سوى 150 روبية شهرياً [3.75 دولار]. أما أنا، وبكل أطباق الأقمار الصناعية عندى، فليس لدىّ سوى أربع عشرة قناة. فقد استعان هو بأحد أصدقائه ممن لديهم نظام كابل للقرصنة فى توصيل كابل بأسلاك التليفون ثم توصيله إلى منزله الموجود خلف منزلى مباشرة. وكان كل شئ غير رسمى وغير قانونى، ولكنه يعيش الآن فى عالم متصل بالأسلاك وزوجته تتعلم الإنجليزية. هذا فى الوقت الذى ما زلت فيه أعانى فى الوصول إلى قناة التليفزيون الهندى».

تصور لنا القصة التى حكاها بيرنز التغيير الثالث الذى أدى إلى العولمة ـ التغيير فى كيفية نظرتنا إلى العالم. وأطلق أنا على ذلك اسم: «ديموقراطية المعلومات». فقد أصبحنا نستطيع، بفضل أطباق الأقمار الصناعية والإنترنت والتليفزيون، أن نخترق بأبصارنا وأسماعنا وتفكيرنا كل سور يمكن تخيله تقريباً.

بدأ هذا الإنجاز الكبير مع عولمة التليفزيون. فقد كان التليفزيون والإذاعة طوال معظم حقبة الحرب الباردة من الأعمال المقيّدة، لأن الأدوات والتكنولوجيات المتاحة للبث كانت محدودة. وكانت الحكومات إما أن تتولى بنفسها إدارة معظم البث التليفزيونى مباشرة، وإما أن تفرض عليه ضوابط مشددة. ثم بدأ ذلك فى الانهيار أولاً فى الولايات المتحدة مع قدوم تليفزيون الكابل، الذى يستطيع نقل قنوات أكثر كثيراً من القنوات التى تبث عن طريق الهواء. ثم حدث، كما تقول صحيفة ***الإيكونوميست***، «أن بدأ التليفزيون متعدد القنوات فى الانتشار حول العالم فى الثمانينيات. وكان السبب الرئيسى فى ذلك انخفاض تكاليف إطلاق الأقمار الصناعية ـ فقد أصبحت

تلك التكنولوجيا التى سمحت ذات مرة للاتحاد السوفيتى وأمريكا بالتجسس كل على الأخرى طريقة غير مكلفة لبث الإشارات التليفزيونية».

فى البداية، لم يكن يقدر على بناء هوائيات التقاط هذه الإشارات القادمة من الأقمار الصناعية سوى نظم الكابلات الكبرى، ولكن بفضل ديموقراطية التكنولوجيا، وبصفة خاصة تكنولوجيا النمنمة، سرعان ما أصبح بوسع ملايين البشر حول العالم التقاط هذه الإشارات على طبق جهاز استقبال للأقمار الصناعية لا يزيد حجمه عن فطيرة البيتزا معلق فى شرفات منازلهم. وفجأة ذهبت القيود على الإرسال أدراج الرياح وأصبح هناك ذلك العدد الهائل من المشاهدين. وسوف يكون بوسع أصحاب المحطات الإذاعية، بمجرد انتشار التليفزيون الرقمى، توفير قنوات يصل عددها إلى 500 قناة وليس فقط خمس أو خمسين قناة. كما أن زيادة انتشار التليفزيون والإنترنت، تعنى أكثر من أى وقت مضى أن ظهور مزيد من الناس فى التليفزيون ورواية حكاياتهم ومشاهدة هذه القصص أيضاً فى أجهزة الكمبيوتر المنزلية أمر ميسور.

وفى النهاية، ونتيجة للتقدم فى تكنولوجيا الانضغاط، سوف تستطيع حالاً أن يكون لديك أقراص فيديو رقمية (DVD) لتحل محل شرائط الفيديو. وأقراص الفيديو الرقمية أقراص صغيرة مدمجة لا يزيد حجمها على قطعة الحلوى الصغيرة، بعرض خمس بوصات (12.7 سم)، وسوف تتمكن من حمل فيلم سينمائى كامل، بخاصية الصوت الدائرى، وبلغات متعددة، تستطيع أنت أن تديره فى الكمبيوتر الشخصى الخاص بك أو جهاز فيديو تحمله فى يدك. أتذكر أننى كنت مرة فى زيارة للخليج الفارسى فى أواخر السبعينيات وكان عملاء الجمارك قد اعتادوا على التفتيش فى أمتعة الركاب للتأكد من عدم وجود أى شرائط فيديو تحمل مواد إباحية أو خطيرة سياسياً. وكم أود الآن أن أراهم وهم يفتشون فى حقيبة أوراقى عن أقراص الفيديو الرقمية!

لقد ولت تلك الأيام التى كانت الحكومات تستطيع فيها عزل شعوبها تماماً عن المعلومات التى يتعرفون بها على الحياة خارج حدودها تماماً أو حتى خارج حدود قريتهم. فالحياة فى الخارج لا يمكن تهميشها أو إظهارها على صورة أسوأ مما هى عليه بالفعل. والحياة فى الداخل لا يمكن ترويجها والدعاية لها لتبدو أفضل مما هى عليه. (لقد اكتشف ترومان فى النهاية العالم الحقيقى الموجود خارج المسلسل التليفزيونى ***ترومان شو***). هناك قصة تقول إن السوفيت نشروا ذات مرة فى الثمانينيات صورة فى صحيفة ***برافدا*** لطوابير الخبز فى أمريكا. وبالفحص الدقيق ثبت أن الصورة كانت لمجموعة من الناس فى مانهاتن يقفون فى طابور فى انتظار فتح أبواب مخبز وحلوانى زابار صبيحة أحد أيام السبت. اليوم لا تحاول قط الخداع – حتى ولو فى الصين.

فى يوم 4 ديسمبر 1998، قدمت الصين أحد أصحاب مشروعات الكمبيوتر للمحاكمة، حيث وصف بأنه أول «خارج على موقع المعلومات». إذ كان يعطى عناوين البريد الإلكترونى فى الصين لمجلة تصدر على الإنترنت باللغة الصينية تساند الديموقراطية. فقد أجرت محكمة الشعب المتوسطة رقم 1 فى شنغهاى محاكمة سرية لرجل الأعمال لين هاى بتهم التخريب لأنه أعطى عناوين 30 ألف مستخدم صينى للكمبيوتر لصحيفة ***فى آى بى ريفرنس*** *VIP Reference*، التى يصدرها المنشقون الصينيون فى الولايات المتحدة. وصرح مدير تحرير هذه الصحيفة المولود فى الصين لصحيفة ***لوس أنجيليس تايمز*** (4 يناير 1999) بقوله: «لقد وضع القدر على عاتقنا مهمة تدمير نظام الرقابة الصينى على الإنترنت. ونحن نؤمن بأن الشعب الصينى، مثل كل شعوب العالم، له الحق فى المعرفة والتعبير الحر عن رأيه». وكان العنوان الذى نشرته المجلة وأرسل بالبريد الإلكترونى إلى 250 ألف من سكان الصين فيه سخرية من القادة الصينيين. ذلك أنه لدى كبار المسئولين فى الحزب الشيوعى الصينى

ملخص يومى للأخبار يعد خصيصاً لهم ولا يقرأه غيرهم، ويتضمن الأخبار الحقيقية. ويسمى هذا الملخص «الأخبار المرجعية». وحسبما ذكرت صحيفة ***لوس إنجيليس تايمز***، فإن محررى صحيفة ***فى آى بى ريفرنس*** يقولون إن مجلتهم التى تصدر على الإنترنت تهدف إلى نشر الأخبار الصادقة عن الشخصيات المهمة جداً الحقيقية فى الصين – أى «الناس العاديين». ويحدث هذا الشئ فى مجال المال. فإن إحدى شركات الإنترنت التى تأسست فى شيكاجو فى عام 1998 واسمها تشاينا أون لاين «الصين متصلة بالشبكة»، تستخدم أشخاصاً متميزين داخل الصين لجمع أخبار السوق وغيرها من الأخبار. ويرسل هؤلاء الأشخاص المعلومات إلى شيكاجو عبر الإنترنت، ثم تعيد شركة تشاينا أون لاين بثها مرة أخرى إلى داخل الصين، وأيضاً عبر الإنترنت. ومن بين ما تعرضه شركة تشانيا أون لاين من خدمات يومية معدل أسعار العملة الصينية فى السوق السوداء مقابل سعر الدولار فى المدن الصينية الكبرى. إذ يخرج محرورها إلى السوق كل يوم، ويسألون عن سعر العملة مع المتعاملين فى السوق السوداء، ثم يرسلونه إلى شيكاجو .وهذه بيانات مفيدة جداً لأى إنسان يقوم بأعمال فى الصين، ولا سيما للصينيين. فذلك شئ لن توفره الحكومة الصينية قط لشعبها، ناهيك عن بقية العالم، ولكن بيجنج (بكين) تقف الآن مكتوفة اليدين لمنع ذلك.

فى جنوبى طهران، الذى يعتبر أفقر الأحياء فى العاصمة الإيرانية، تستطيع بعض العائلات شراء تليفزيون وبعضها الآخر لا يستطيع. وعندما زرت طهران فى عام1997 ، وجدت أن بعض قاطنى جنوبى طهران ممن لديهم أجهزة تليفزيون يصفّون بعض المقاعد ويبيعون تذاكر لمشاهدة أكثر العروض الأمريكية شعبية الذى يُذاع مرة كل أسبوع (شكراً للقمر الصناعى). يسمى ذلك العرض الشهير ***باى ووتش*** *Bay watch* ، وهو رواية خيالية تجرى أحداثها فى كاليفورنيا الجنوبية، حيث يرتدى فيها جميع النساء البكينى ومقاسات أجسامهن 36-24-36. وقد حظرت الحكومة الإيرانية أطباق الأقمار الصناعية، ولذلك فإن أصدقائى الإيرانيين يخفونها تحت حبال الغسيل أو تحت

«الشجيرات كثيفة الأغصان» وهى النباتات التى يستخدمونها فى تغطية الأقمار الصناعية فى شرفات منازلهم.

بلا شك، يستطيع رئيس إحدى الدول النامية، مثل ماليزيا أن يقول لشعبه اليوم: « إخوانى، سوف نتوقف عن الحركة نحو نظام العولمة ذاك. سوف نشيد أسواراً جديدة ونفرض قيوداً على رؤوس الأموال . بذلك سوف يكون تألمنا أقل والتقلبات الاقتصادية لدينا أقل، ولكن نمونا سيكون أبطأ لأننا لن نستطيع جلب المدخرات من بقية العالم. ومن ثم فإن من لم يصل بعد منكم إلى الطبقة الوسطى فعليه الانتظار قليلاً» . ولكنه إذا فعل ذلك فإن شخصاً ما فى قرية خارج العاصمة سوف يحتج فى نهاية الأمر قائلاً: «سيدى الرئيس، إننى أتابع مشاهدة عرض ***باى ووتش*** منذ خمس سنوات، فهل تعنى بذلك أننى لن أشاهده بعد الآن؟ لن أشاهد عالم ديزنى؟ ولا مايوهات البكينى» ؟ إن على الحكومات التى ترغب فى اجتناب العولمة أن تثبت أن البديل الذى تقدمه يستطيع أن يؤدى إلى رفع مستويات المعيشة ولكن ـ وذلك شئ شديد الأهمية ـ عليهم أن يفعلوا ذلك فى بيئة نستطيع جميعاً فيها أن نعرف كيف يعيش الآخرون جميعاً.

لقد أصبحنا جميعاً قادرين على معرفة ما يدور خلف نوافذ كل واحد منا. وقد أصبح الناس، نتيجة لذلك، أقل رغبة فى قبول مستوى منخفض للمعيشة يقل عما يتمتع به جيرانهم. فما أدت إليه العولمة من انكماش العالم إلى المقاس الصغير، يأتى للجميع بكل ما يجعله يعرف تماماً موقعه من الآخرين سواء أكان ذلك الموقع متقدماً عليهم أم متخلفاً عنهم.

لقد كانت صديقتى لورا بلومينفيلد الكاتبة الروائية فى صحيفة ***واشنطن بوست***، فى جولة بالشرق الأوسط لإجراء دراسات قبل تأليف كتاب لها عن الثأر، وزارت سوريا مع والدتها فى ربيع عام 1998 .وحكت لى القصة التالية: «استخدمنا أمى وأنا

مرشداً أثناء وجودنا فى دمشق ليصاحبنا فى جولاتنا. كان اسمه وليد. وأصبحت معرفتنا به وثيقة بعد مرور وقت قصير، وقلنا له إننا قدمنا من إسرائيل. وكان يدور بيننا، فى نهاية الأمر، بعض الأحاديث شديدة الصراحة. قال لنا إنه يحب الجلوس فى مكتبه فى الليل، حيث يوجد لديه طبق للأقمار الصناعية، ومشاهدة التليفزيون الإسرائيلى. مما قاله تخيلته وهو جالس فى مكتب مظلم، وعيناه مبهورتان وهو يشاهد على شاشة التليفزيون هذه أناساً يكرههم، ولكنه يريد أن يصبح مثلهم ويشعر بالغيرة منهم. غير أنه قال: إنه برغم كل ما شاهده فى التليفزيون الإسرائيلى كانت إعلانات اليوغورت أكثر شئ ضايقه حقيقة. فاليوغورت فى إسرائيل يقدم فى كل هذه العلب الزاهية بألون الفاكهة - أحمر وبرتقالى - كما يحدث فى أمريكا - فى حين لا يوجد فى سورية سوى اللونين الأسود والأبيض. بل إنه أشار لنا، وهو مهموم، فى أحد الأيام إلى علب اليوغورت السورية الموجودة فى الشارع. وقال لنا أيضاً: إن رقائق القمح (الكورن فليكس) السورية تزوى وتذبل بمجرد وضعها فى اللبن، ولكن الكورن فليكس الإسرائيلية وكما أراها (فى الإعلانات التجارية للتليفزيون الإسرائيلى) تكون مقرمشة ولا تزوى. لم يذكر مرتفعات الجولان، وإنما كل ما يزعجه حقيقة هو علب اليوغورت ورقائق القمح فى إسرائيل. قال لنا فى أحد الأيام: ليس من العدل أن نكون متخلفين عنهم بمائة عام فى حين لم يصلوا إلى هنا إلا من توهم.

تحدث ديموقراطية المعلومات تلك تحولات فى الأسواق المالية. فلا يقتصر الأمر على أن المستثمرين أصبحوا يستطيعون الآن شراء وبيع الأسهم والسندات من أنحاء العالم، وأنهم يستطيعون الآن إجراء كل عمليات البيع والشراء تلك عن طريق أجهزة الكمبيوتر الموجودة فى منازلهم، ولكن مواقع السماسرة على الإنترنت تمنحهم الآن أيضاً - وبدون مقابل - المعلومات والأدوات التحليلية لهذه العمليات، وبدون حتى الاتصال بالسمسار. ويرى جون تى. وول، رئيس النظام الدولى لعروض الأسعار

الأوتوماتيكى للاتحاد القومى لتجار الأوراق المالية فى أمريكا (ناسداق) International NASDAQ، أن 70 فى المائة من عمليات التبادل التى تجرى فى بورصته للأوراق المالية سوف يجريها أناس جالسون فى بيوتهم أمام أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم يعملون عبر الإنترنت وذلك فى غضون عشر سنوات. وكلما زاد عدد الناس الذى يفعلون ذلك، زاد طلبهم من المعلومات والتحليلات عن الاقتصادات والشركات المختلفة، و زادت السهولة التى يحركون بها أموالهم هنا وهناك، وهم فى ذلك يوزعون العقاب على ذوى الأداء السيئ والثواب على ذوى الأداء الجيد. وقال لى وول: «لقد افتتحنا مكتباً لنا فى لندن فى عام 1985 لعمليات التبادل الدولى، لكن الناس هناك قالوا لنا 'نحن نحب الأسهم التى تعرضونها، ولكننا لا نستطيع الحصول على معلومات عنها'. ومن ثم فقد افتتحنا موقعاً لنا على شبكة الإنترنت فى عام 1996. وكان أول ما وضعناه على موقعنا فى الإنترنت عبارة عن صندوق تستطيع النقر عليه فيأخذك فوراً إلى داخل هيئة الأوراق المالية والبورصة Securities and Exchange Commission (SEC) بحيث يستطيع أى إنسان فى أى مكان الاطلاع على آخر تقارير الحالة المالية للشركات التى تود استثمار أموالك فيها. ويوجد لدينا صندوق آخر تستطيع النقر عليه، فتظهر لك قائمة تضم 3500 شركة وآخر بياناتها المالية. وهكذا فأنت لم تعد بحاجة إلى الاعتماد الآن على أى سمسار».

وقد بدأت شركة السمسرة تشارلس شواب، فى عرض إعلان فى أواخر عام 1998 يمثل إحدى ربات البيوت وهى تتباهى بمشترياتها بطريقة الاتصال عبر الإنترنت وبأنها تستطيع الحصول على أى معلومات تحتاجها الآن من موقع شواب على الإنترنت. وتقول هذه المرأة، واسمها هولى، فى الإعلان: «قبل بضع سنوات دعيت للانضمام إلى مجموعة استثمارية نسائية تسمى 'جرو ناو'. ونحن فى الواقع نستخدم الأرقام فى كثير من عملنا. ثم نتناقش ثم نجرى تصويتاً ونقوم بعده بصفقة التبادل.

وفى الواقع إن كل ما أحتاجه موجود فى مركز تحليل شركة شواب. تقارير صناعية، معلومات عن الإدارة، تقديرات للعائدات، وهى تعطيك فكرة عن كيفية تقييم الأسهم».

وسرعان ما سيحصل أى إنسان على مقعد فعلى فى بورصة نيويورك. وبحلول عام2001، لن تكون بحاجة حتى إلى الجلوس؛ لأن الخطوة التالية فى هذا المجال ستكون تحرير الناس من أجهزة الكمبيوتر المنزلية وتمكينهم من إجراء عمليات تبادل الأوراق المالية بالاتصال المباشر باستخدام تليفونات خلوية لاسلكية لطيفة وأجهزة الكمبيوتر اليدوية.

وفى الواقع، يجمع موقعا شواب وناسداق وأمثالهما فى مكان واحد ديموقراطيات التكنولوجيا والتمويل والمعلومات، وتثبت إلى أى مدى وصلت العولمة فى مجال المال. فى خريف عام 1997، نشرت صحيفة *نيويورك تايمز* إعلاناً ضخماً عن التبادل الإلكترونى للأوراق المالية E*Trade، وهو موقع على الإنترنت لتبادل الأوراق المالية بالاتصال المباشر. وكان الإعلان الذى يقع على صفحتين يحمل عنواناً رئيسياً يقول: **حلم المستثمر . كابوس السمسار**. يقدم لك موقع التبادل الإلكترونى للأوراق المالية. المركز المالى على الإنترنت بدون توقف. مع المزيد من البحوث. والمزيد من الأدوات. والمزيد من القوة مضاعفة 10 مرات، بذلك تستطيع استثمار أموالك فى الأوراق المالية، ولديك الاختيارات، وأكثر من 4,000 من الصناديق المشتركة. احزم أمرك وحدد حافظة أوراقك المالية. قم بجميع معاملاتك المالية فى أى وقت من ساعات اليوم بالاتصال المباشر بالإنترنت أو بالتليفون- بتكلفة لا تتعدى 14.95دولاراً. نقدم المشورة والمعلومات مجاناً، مثل أدوات عرض الصناديق المشتركة. نقدم أسعار الأسهم الحقيقية فى لحظتها مجاناً، لأن المعلومات القديمة هى معلومات سيئة. كذلك نقدم نشرات خاصة بآخر الأنباء. رسوم بيانية. تحليلات من مصادر بارزة. [و]

أمان لا يضاهى باستخدام تكنولوجيا التصغير المتقدمة فى الإنترنت [تقنية لترميز البيانات بحيث تبدو مبهمة للذين لا يعرفون حل رموزها] ..... كل ذلك متوافر بلا مقابل للجمهور، 24 ساعة. ابحث الأمر. اتصل الآن. اتصل على الفور. فقريباً، سوف نستثمر أموالنا جميعاً بهذه الطريقة.

وفى اعتقادى أنه يجب أن تختتم الإعلانات التليفزيونية للتبادل الإلكترونى للأوراق المالية بالجملة التالية. «التبادل الإلكترونى للأوراق المالية. الآن أصبحت القوة بين يديك».

الفصل الرابع
نقص المناعة
فى شذرة الكمبيوتر الدقيقة

سوف تتهاوى كل أنظمة الحكم الاستبدادية إن عاجلاً أو آجلاً.

سوف يتهاوى سريعاً أولئك الذين يواصلون احتجاز زبائنهم..

– إعلان ظهر فى صحيفة واشنطن بوست يعلن عن ظهور شركة ستار باور وهى تقدم خدمة جديدة بالتليفون والكابل والإنترنت وتنافس شركة بل أتلانتك

والآن سيقول بعض الناس: «حسناً يا فريدمان، إن هذه التغييرات فى الطريقة، التى يتصل بها الناس ويستثمرون بها أموالهم ويرون بها العالم، وتقول إنها هى التى أدت إلى العولمة كلها أشياء طيبة وجيدة للمجتمعات المتقدمة، ولكن ماذا عن بقية العالم؟ كيف تستطيع أن تتحدث عن أن العولمة شئ عالمى فى حين ما زالت الغالبية العظمى من البشر يعيشون فى قرى بدون تليفونات، ولم يلمسوا بأيديهم قط جهاز كمبيوتر أو يرسلوا رسالة بالبريد الإلكترونى؟»

صحيح أن العولمة اليوم ليست عالمية، من حيث إنه ما زال أمامنا طريق طويل، طويل قبل أن نصل إلى عالم يكون فيه الجميع على اتصال مباشر بالإنترنت (على

الرغم من أن نحو 300 ألف مستخدم جديد يشتركون فى الإنترنت كل أسبوع). ولكن العولمة عالمية من حيث إن كل إنسان تقريباً يشعر الآن - بصورة مباشرة أو غير مباشرة - بالضغوط والقيود والفرص الموجودة للتكيف مع ديموقراطيات التكنولوجيا والتمويل والمعلومات التى تمثل لب نظام العولمة. وكما قالها لى تشن يوان نائب محافظ البنك المركزى الصينى مرة: «إن كل دولة يوجد فيها جزء غير متقدم. وحتى فى الولايات المتحدة، قد تقود سيارتك إلى الجنوب من واشنطن نحو فيرچينيا وتجد أنه ما زالت هناك بعض المناطق الجبلية التى يوجد بها قرى منعزلة. ولكنك لا تستطيع أن تقول إن هذه المنطقة ليست فى طريقها إلى العولمة. الصين أيضاً لا تختلف عن ذلك».

هى كذلك بالفعل، فلو أن هناك مكاناً فى العالم تتجاوزه حدود العولمة لكان ذلك قرية جوجيالينجزى، وهى قرية صغيرة فى شمال شرقى الصين، إلى الشمال من كوريا الشمالية. كنت قد وصلت إلى هناك فى شتاء عام 1998 مع فريق من المراقبين الدوليين لمراقبة انتخابات القرى فى ريف الصين. غير أننى فى الواقع كان لدىّ دافع أبعد من ذلك فى الذهاب إلى هناك. كنت أريد معرفة كيف تبدو العولمة من وراء الحدود - من خارج النظام، إن شئنا القول - واكتشفت شيئاً أساسياً فى هذه الرحلة: إننى لا أستطيع الوصول إلى هناك، لا أستطيع أن أتخطى الحدود، لا أستطيع الوصول إلى خارج النظام، الذى يمتد الآن إلى أعماق قرى شمال شرقى الصين. فعندما وصل فريق المراقبين إلى جوجيالينجزى، وجدنا جميع البالغين ممن لهم حق التصويت مجتمعين فى فناء المدرسة. كانوا مجتمعين للاستماع إلى المرشحين لرئاسة القرية وكل منهما يلقى خطبته الانتخابية لهما. وكان هذا المكان ترابياً فقيراً، بل الواقع أن أرضية الفصول كانت ترابية. وكانت المقاطعة الصينية التى توجد بها القرية، مقاطعة چيلين، تقع فى قلب منطقة حزام الصناعة السابق فى الصين الذى يتحول

سريعاً إلى حزام صدئ، لأن الصناعات المملوكة للدولة هناك لم تعد على المستوى العالمى للمنافسة وأصبح من المتعذر على حكومة بيجنج (بكين) دعم هذه المصانع، أو دعم المزايا الاجتماعية التى توفرها عادة. وربما كان ذلك هو السبب فى أنه عندما كان المرشحان لرئاسة القرية يلقيان خطبتيهما الانتخابية فى جوجياالينجزى كانا وكأنهما مرشحان لمنصب العمدة فى بلدة قديمة مقامة حول مصنع للصلب فى وسط ولاية أوهايو.

وكان أول المتحدثين رئيس القرية المعين، لى هونجلينج. وإليكم كلمات مقتطفة من خطابه: « إخوانى سكان القرية. كيف حالكم؟ دعونى أذكركم أننى أبلغ من العمر سبعة وأربعين عاماً، وإننى عضو فى الحزب الشيوعى وحاصل على تعليم متوسط. إننى أريد أن أفعل شيئاً طيباً من أجل القرية، وكما تعلمون، إننى ساعدت هذه القرية على تجاوز آثار الثورة الثقافية وأنتم تجدون أن كل مكان فى القرية ارتوى من عرقى، فإننى أزور كل منزل فى القرية. وأستفيد من أفكاركم. ولم استغل أموال القرية مطلقاً فى إقامة مأدبة. وحاولت أن أعالج كل شئ بصورة قانونية. وأعدكم بالنهوض بمدرستنا الأولية وزيادة دخولكم. وأتعهد لكم إذا انتخبت أن تصل خضرواتكم إلى المدينة بصورة أسرع. كما أننى سوف أنهض بروح القرية. ونحن بحاجة إلى مزيد من الأشجار، و إلى كابل من بصريات الألياف حتى يكون لكل فرد تليفون. وسوف أصحح فى ظل قيادة فرع الحزب، كل ما لدىّ من قصور . وهذا هو العقد الذى أبرمه معكم».

وبعد تصفيق رقيق، وقف منافسه ليو فو على المنصة. ولجأ من فوره إلى مخاطبة أصوات النساء: «أقول لكم أولاً، إن غداً هو يوم المرأة العالمى وأنا أريد أن أعبر عن تهنئتى لجميع النساء. إننى أبلغ من العمر واحداً وخمسين عاماً، وحاصل على تعليم متوسط. وأمتلك معمل معجون فول الصويا الخاص بى. وأنا أحب هذه القرية. أحبكم

جميعاً. وأشعر بالخجل لما أنتم فيه من فقر. وسوف أفتح صفحة جديدة هنا بتوجيه من الحزب. وأعدكم بخفض المقامرة والفنون الإباحية فى القرية وإيجاد قنوات جديدة للرزق. ولن أكون متعالياً. وسوف أخفض ميزانية الإنفاق فى القرية لتوفير أموالكم. ولن أحصل على أى رشوة، وحتى إذا جاء رئيسى من المدينة، فلن أقيم له مأدبة. إننا نفرط فى إقامة المآدب الرسمية. وإننى لم أحضر مأدبة أو أشرب نقطة واحدة من الكحوليات طوال عشر سنوات. سوف أحافظ على أموال الجماهير. ولن يُسمح بسفر كوادر من القرية إلى المدينة على حساب أموال القرية. سوف أجلب لكم التكنولوجيا هنا. وأعدكم بأن أقدم للجميع هنا تكنولوجيا صناعة معجون فول الصويا. سوف أقوم بحفر مزيد من الآبار. لقد أضاعت الثورة الثقافية عشر سنوات من عمرنا. ويجب علينا الآن أن نبحث عن أفكار أفضل تحقق لنا الازدهار. سوف أبتعد كثيراً عن الأيديولوجيات. وكما قال دينج سياوبينج: 'قطة سوداء، قطة بيضاء. لا يهم. المهم أن تستطيع القطة اصطياد الفئران'. سوف أنهض بالمدارس هنا؛ فالمعرفة شئ مهم. لأن الجهلة لا يستطيعون بناء الاقتصاد الاشتراكى. كما أننى سوف أكفل برعايتى جميع العزّاب هنا الذين لا يتوافر لهم الدخل الكافى للعثور على زوجة. سوف أجعلكم أثرياء! هيا نسير معاً جنباً إلى جنب».

أثناء إدلاء القرويين بأصواتهم وانتظار إعلان النتائج، أجريت استطلاعاً آخر للرأى، حيث كنت أوجه سؤالاً للقرويين بصورة عشوائية عن أى الخطبتين أثرت فيهم. تقدم جزار القرية مرتدياً غطاء الرأس الأزرق لماو تسى تونغ من بين حشد القرويين وعبر عن رأيه بحرية: «عندما قال [المرشح] إنه لم يذهب قط إلى مطعم. فأنا أصدقه. و يجب أن لا تقام بعد الآن المآدب للرؤساء القادمين من المدينة. ففى النهاية نحن الذين ندفع ثمنها».

قاطعه حينئذ قروى آخر قائلاً: «إنهم يخفضون عدد أعضاء الحكومة فى بيجنج (بكين). يجب أن نفعل بالمثل هنا أيضاً... وهو على حق، يجب أن يكون لدينا كابل من بصريات الألياف هنا. فليس لدينا تليفونات حتى الآن».

سألت القروى: «ما الذى تعرفه عن بصريات الألياف؟»

هز كتفيه وقال: «لا أعرف. سمعت فقط عنها».

وحصلت على إجابة مماثلة فى قرية مجاورة، قرية هينج داو، حيث ذهبنا أيضاً للاستماع إلى الخطب الانتخابية. قال الرئيس المعين للقرويين: «لقد حاولت أن أكون عملياً للغاية فى قيادة القرية على الطريق نحو الثرورة. إذ يبلغ دخلنا السنوى الآن 2,300 يوان. والميزانية أصغر بكثير من ذلك واستطعت أثناء ولايتى إقصاء كثير من الكوادر من كشوف الأجور فى القرية. وإذا انتخبت فسيكون لزاماً علىّ إدخال مزيد من العلم والتكنولوجيا فى الزراعة، وإقامة مزيد من المشروعات هنا، والإسراع فى إجراءات توليد الثروة..... [لأن] العالم كله يتحول إلى سوق واحدة كبيرة للبضائع».

سألته من أين أتى بمثل هذه الأفكار. فلا يوجد سوى تليفون واحد بالقرية. فأجابنى قائلاً: «أنا أقرأ الصحف. واستمع إلى الراديو... ولدينا هنا مصنع لإطارات النوافذ. ونحن الآن نبيع محلياً فقط، ولكن قيل لنا إنه إذا استطعنا أن نرتفع بالجودة فسيكون بوسعنا أن نبيع فى الخارج، ونكسب مزيداً من الأرباح.

إذن هل ما زلت تقول إن العولمة ليست عالمية. ايه؟

* * *

لا تصدق ذلك ولو للحظة. لقد كان تيب أونيل مخطئاً. فالسياسة كلها ليست محلية ـ ليس بعد الآن. فقد أصبحت السياسة عالمية. قد لا تشعر كل دولة أنها جزء من نظام العولمة، ولكن كل دولة أصابتها العولمة بطريق مباشر أو غير مباشر وتشكلت

وفقاً لهذا النظام. ولهذا السبب لم يكن من قبيل المصادفة أن ألمانيا الشرقية، والاتحاد السوفيتى، والرأسمالية الآسيوية، والصناعات البرازيلية المملوكة للدولة، والشيوعية الصينية، وشركات مثل جنرال موتورز أو آى بى إم، كانت إما ستنهار وإما ستضطر إلى إعادة الهيكلة على نحو جذرى فى وقت واحد تقريباً.

فقد أصيبت جميعاً بالمرض الذى أدى إلى انهيار سور برلين وكل الأسوار الأخرى التى كانت تعرف بها حقبة الحرب الباردة. لقد أصيبت جميعاً بمرض أطلق عليه اسم متلازمة نقص المناعة فى شذرة الكمبيوتر الدقيقة Microchip Immune Deficiency Syndrome (MIDS). فمرض نقص المناعة ضد شذرات الكمبيوتر الدقيقة (ميدز) هو المرض السياسى الذى تعرّف به حقبة العولمة. وهو مرض يمكن أن يصيب أى شركة أو أى دولة صغيرة أم كبيرة، فى الشرق أم فى الغرب، فى الشمال أم فى الجنوب. ولو كان لى أن أكتب مدخلاً فى تعريف مرض نقص المناعة فى شذرات الكمبيوتر فى قاموس طبى لجاءت على النحو التالى:

ميدز أو متلازمة نقص المناعة فى شذرة الكمبيوتر الدقيقة: مرض يمكن أن يصيب أى نظام منتفخ، مترهل، متصلب فى حقبة ما بعد الحرب الباردة. وتصيب عدوى نقص المناعة فى شذرات الكمبيوتر الدقيقة غالباً تلك الدول والشركات التى تخفق فى تلقيح نفسها بطعم ضد التغييرات التى أحدثتها شذرة الكمبيوتر الدقيقة، وديموقراطيات التكنولوجيا والتمويل والمعلومات - التى أوجدت سوقاً أكثر سرعةٍ وأكثر شفافية وأكثر تركيباً، تتميز بمجموعة كاملة جديدة من الكفاءات. وتظهر أعراض مرض نقص المناعة فى شذرة الكمبيوتر الدقيقة عندما تظهر دولتك أو شركتك عجزاً مستمراً عن زيادة الإنتاجية، والأجور، ومستويات المعيشة، واستخدام المعرفة، والقدرة على المنافسة، وتصبح شديدة البطء فى الاستجابة لتحديات العالم السريع. وغالباً تكون الدول والشركات المصابة بمرض نقص المناعة فى شذرة الكمبيوتر الدقيقة هى تلك

التى تُدار وفقاً للنماذج التى كانت سائدة فى الحرب الباردة ـ وفيها يحتل شخص واحد أو أفراد قلائل القمة وبأيديهم كل المعلومات ويتخذون كل القرارات، وعلى جميع الموجودين فى الوسط أو القاع تنفيذ هذه القرارات ببساطة، مستخدمين فقط المعلومات التى يحتاجونها لأداء وظائفهم. والعلاج الوحيد المعروف للدول والشركات المصابة بمرض نقص المناعة فى شذرات الكمبيوتر الدقيقة هو 'الديموقراطية الرابعة'. وتلك هى ديموقراطية اتخاذ القرار وتدفق المعلومات وتوزيع السلطات على نحو يتيح لمزيد من الناس فى دولتك أو شركتك المشاركة فى المعرفة والتجربة والتجديد السريع. فذلك يمكّنهم من اللحاق بما يجرى فى السوق حيث يطلب المستهلكون باستمرار منتجات أرخص وخدمات صممت لهم بالتحديد. ويمكن أن يؤدى مرض نقص المناعة فى شذرات الكمبيوتر الدقيقة إلى الموت بالنسبة لتلك الدول أو الشركات التى لا تحصل على العلاج السليم فى الوقت المناسب. (انظر مداخل الاتحاد السوفيتى وألمانيا الشرقية والخطوط الجوية بان أمريكان)».

لا يوجد عند مستوى معين شئ جديد فى المفهوم الأساسى لمرض نقص المناعة فى شذرات الكمبيوتر الدقيقة. فقد ازدهرت اقتصاديات السوق على مدى قرون بالقضاء فى وحشية على تلك الشركات الأقل كفاءة، والأقل قدرة على التكيف مع التكنولوجيات الجديدة، والأقل قدرة على أن تظل على اتصال بالمطالب المتغيرة للمستهلكين وتلبية هذه المطالب بأقل قدر من الاستخدام للعمالة ورأس المال. ولكن الجديد هو أن ديموقراطيات التكنولوجيا والتمويل والمعلومات جعلت هذه العملية تحدث بسرعة فائقة فى الثمانينيات مما يتطلب من الشركات والدول التحرك بسرعة أكبر حتى تجتنب الإصابة بمرض نقص المناعة فى شذرة الكمبيوتر الدقيقة. انظر إلى المسألة باعتبارها نوعاً من التطور فى ثلاث مراحل:

بدأ هذا التطور فى الحقبة التى سبقت ظهور الكمبيوتر الشخصى بفضل أجهزة البروسسور الدقيقة والشذرات الدقيقة، التى سبقت ظهور ديموقراطيات التكنولوجيا والتمويل والمعلومات بفضل الكمبيوتر الشخصى. كانت تلك هى الحقبة التى بدأت بانتهاء الحرب العالمية الأولى واستمرت حتى السبعينيات من القرن العشرين. وكانت تلك هى الفترة التى استطاعت فيها الحكومات والشركات أن تكون أكثر تثاقلاً وأقل كفاءة، فقد كان الجميع مشاركين فى لعبة فرضت عليها حماية أكبر. لقد وصف ألان جرينسبان ذات مرة نظام الحرب الباردة التقييدى ذاك فى خطاب له قائلاً: «كانت عمليات التكيف أبطأ. ولم تشتمل التجارة الدولية إلا على نصيب شديد الضآلة من الاقتصادات المحلية. وكانت الحواجز الجمركية تحد من المنافسة، وغالباً كانت القيود المفروضة على رؤوس الأموال تؤدى إلى إعاقة تدفق العملات خارج الحدود. وإذا نظرنا إلى الماضى نجد أن هذه البيئة الاقتصادية تبدو أقل قدرة على المنافسة، وأكثر هدوءاً، ومخاطرها أقل بالنسبة لأولئك الذين يتمتعون بمهارات عادية أو أقل. حقاً، لقد كان غير المهرة يستطيعون، قبل أن تجعل تكنولوجيا الكمبيوتر الكثير من المهام المتكررة أوتوماتيكية، الإسهام بقيمة مضافة لا بأس بها والحصول على مرتب محترم مقارنة بذلك الذى يتمتع بالمهارة. وكانت الحكومات، فى ذلك العالم الأقل إلحاحاً، قادرة على بناء شبكات للأمان الاجتماعى وتنفيذ سياسات تستهدف إعادة توزيع الدخل».

ويضيف جرينسبان: إنه من المؤكد أن هذه المستويات المتوسطة للمعيشة كانت أقل مما كان يمكن أن تكون عليه فى نظام الحرب الباردة ذى الأسوار، وكان اختيار المنتجات فى السوق أقل حساسية إلى حد بعيد للتغيير فى أذواق المستهلك من البيئة القائمة على أساس شذرات الكمبيوتر الدقيقة فى يومنا هذا. ومع ذلك، فقد كان ذلك عالماً أبطأ وكان معظم الناس غير مدركين لوجود أى بدائل. فقد كانت الحواجز

الهائلة أمام الدخول من مشروع لآخر كفيلة بأن تجعل التغيير يحدث على مهل شديد، وكان أمام الدولة أو الشركة وقت طويل قبل أن تواجه المشاكل. وعلى الرغم من أن العمالة وتكلفة المنتج فى تلك الأيام كانت أعلى وأقل مرونة مما يجب أن تكون عليه، فإن قطاعاً لا بأس به من أى مجتمع ينظر اليوم إلى ذلك العصر الحجرى الأبطأ والأقل قدرة على المنافسة بحنين دافئ.

ومن الأمثلة الصارخة لتلك البيئة الاقتصادية الأكثر قيوداً، ذلك الاقتصاد ذو التخطيط المركزى، والتحكم المركزى، والموجَّه من أعلى إلى أسفل فى الاتحاد السوفيتى. لم يكن هدف الاقتصاد السوفيتى تلبية مطالب المستهلكين، وإنما تعزيز سيطرة الحكومة المركزية. ومن ثم كانت جميع المعلومات تتدفق إلى أعلى وجميع الأوامر تتدفق إلى أسفل. ففى إحدى الشركات السوفيتية لصناعة الأسِرَّة كانت الحكومة المركزية تدفع أجور المديرين لا على أساس عدد الأسرة التى بيعت، وإنما على أساس حجم الصلب المستخدم فيها. إذ إن عدد الأسرة المباعة مؤشر لمدى رضا المستهلك. أما كمية الصلب التى أنتجت واستخدمت فهى مؤشر على قوة الدولة. وفى أثناء الحرب الباردة لم يكن الاتحاد السوفيتى يعبأ إلا بالمؤشر الأخير. وكان باستطاعة السوفيت مواصلة ذلك النظام الغريب، طالما الحرب الباردة مستمرة وطالما استمر التحكم فى سرعة التغيير وتدفق المعلومات.

لن أنسى قط رحلة فى صحبة وزير الخارجية الأسبق بيكر فى عام 1992 لزيارة مجمع تشيليابنسيك 70 لتصميم القنابل النووية السوفيتية الذى يقع فى شرقى جبال الأورال - وهو مكان شديد السرية إلى درجة أنه لم يسجل مطلقاً على أى خرائط رسمية سوفيتية. كان ذلك هو موقع لوس آلاموس السوفيتى، مأوى جميع علماء الذرة السوفيت البارزين. غير أن أكثر ما تحتفظ به ذاكرتى، هو أننا أمضينا الليلة فى فندق أكتوبر بمدينة سفردلوفسك المجاورة، وأنه عندما دخلت المصعد لاحظت أن الأزرار

تحمل أرقام 1,3,4,5,6,7,8,9,2 . فقد نسى أحدهم وضع زر الطابق الثانى ثم ما كان منه إلا أن وضعه فى وقت لاحق. وعندما تضغط على الزر رقم 2، فإنه يحملك إلى الطابق الثانى رغم أن موقعه فى مكان زر الطابق العاشر. وكان ذلك الفندق فى أكثر المجمعات الصناعية السوفيتية تطوراً ! ولم يكن بوسع الروس الإفلات بمصعد لا تأخذ أزرار طوابقه الترتيب الصحيح إلا فى نظام الحرب الباردة، المقسم، والمفتت، والبطئ ، والمقيد.

كانت شركة آى بى إم فى السبعينيات والثمانينيات تشبه كثيراً جوسبلان، أى نظام التخطيط المركزى السوفيتى الذى يقوم فيه من يحتلون القمة بإبلاغ من فى القاع بما يجب أن تكون عليه المنتجات وما الذى يريده الزبائن. سألت مرة جون تشيمبرز رئيس شركة سيسكو سيستمز التى تصنع الصناديق السوداء التى تصل الإنترنت حول العالم وتعتبر الآن من أهم الشركات فى أمريكا؛ كيف كان الحال فى العمل فى شركة آى بى إم فى أيامها أثناء حقبة جوسبلان؟ قال تشيمبرز إنه عندما كان يعمل بشركة آى بى إم فى مطلع الثمانينيات، كان من المفروض أنها تتبع سياسة « الباب المفتوح» ، حيث يستطيع أى من العاملين فيها توجيه أى سؤال إلى أى مسئول تنفيذى على أى مستوى، وإذا لم تعجبه الإجابة التى حصل عليها يستطيع الذهاب بسؤاله إلى مستوى أعلى من المسئولين. يتذكر تشيمبرز ذلك قائلاً : «لقد حاولت ذلك مرة، فأخذنى أحد أصدقائى فى الشركة جانباً وقال لى، 'لقد أفلتّ هذه المرة، ولكن لا تفعلها مرة أخرى'. فقد قلت فى لحظة ما لأحد رؤسائى إن خط الإنتاج الذى يدفعون به لن يكون مقبولاً من زبائننا وسوف يكلفنا تشغيله كميات هائلة من الموارد، ولكنه لم يكن على استعداد للاستماع إلىّ. وقال لى، 'إن مكافأتى تتوقف على ذلك. وما عليك إلا أن تسعى لبيع الكثير منها'» .

كانت شركة آى بى إم بعيدة عن الخطر طالما ظلت الحواجز أمام الدخول فى شئ مركب مثل صناعة الكمبيوتر شديدة الارتفاع بحيث يمكن حماية الشركات الكبيرة والبطيئة من الأخطاء، بل ومن الإخفاق لفترة طويلة. وكانت دول مثل الاتحاد السوفيتى تظل بعيدة عن الخطر طالما ظلت الحواجز أمام المعلومات شديدة الارتفاع، وطالما ظل وعى شعوبها بأساليب الحياة القادرة على المنافسة شديد الانخفاض إلى الدرجة التى يمكن أن تحمى الكرملين من أخطائه، بل ومن إخفاقه إلى فترة طويلة من الزمن.

... وبعد ذلك جاءت الثمانينيات.

جاءت المرحلة الثانية فى تطور متلازمة نقص المناعة فى شذرات الكمبيوتر الدقيقة كمرض فى آن واحد تقريباً مع انهيار ذلك العالم البطئ الحركة. فعلى مستوى الشركات والحكومات على السواء، بدأت ديموقراطيات التكنولوجيا والتمويل والمعلومات فى التجمع فى أواخر الثمانينيات وأوجدت كفاءات مذهلة جديدة واقتصادات ضخمة فى السوق، فضلاً عن خلق موقع متكامل جديد لإنجاز الأعمال يسمى سايبرسبيس Cyberspace (الفضاء المعلوماتى). وأصبح هذا التحول يعرف باسم ثورة المعلومات، وسوف ينظر إليه فى الوقت المناسب باعتباره واحداً من تلك القفزات العظيمة للأمام فى مجال التكنولوجيا التى تحدث كل مائة عام، مثل اكتشاف الكهرباء الذى بدأ به انفصال أساسى عن الحقبة السابقة.

ثمة كثير من الطرق لتلخيص ما فعلته ثورة المعلومات والديموقراطيات الثلاث فى السوق. أما بالنسبة لى فهى تتلخص فى مفهومين بسيطين: إنها خفضت إلى حد بعيد من الحواجز أمام الدخول فى أى عمل تجارى تقريباً. وهى إذ تفعل ذلك، فإنها تزيد إلى حد بعيد المنافسة والسرعة التى ينتقل بها المنتج من مجرد ابتكار إلى سلعة.

دعنى أشرح ذلك. فإن تلك القوى خفضت الحواجز أمام الدخول لأنه بجهاز كمبيوتر شخصى واحد، وبطاقة ائتمان، وخط تليفونى، ومودم، وطابعة بالألوان، واتصال بالإنترنت، وموقع على هذه الشبكة وحساب تسليم فيديرال إكسبريس، يستطيع أى إنسان الجلوس فى بدروم منزله وأن يؤسس دار النشر الخاصة به، أو منفذاً للبيع بالقطاعى، أو مشروع كتالوجات، أو تصميماً عالمياً، أو شركة استشارية، أو صحيفة، أو وكالة إعلان، أو شركة توزيع، أو منشأة سمسرة، أو كازينو للقمار، أو محلاً لبيع شرائط الفيديو، أو بنكاً، أو مكتبة، أو سوقاً لبيع السيارات، أو صالة لعرض الأزياء. كما يمكن أن يحدث ذلك بين ليلة وضحاها وبتكلفة منخفضة جداً وأن تصبح الشركة قادرة على التنافس على المستوى الدولى صبيحة اليوم التالى. ومن الممكن أن تسكن فى مجمع سكنى يضم ثلاث مكتبات لبيع الكتب - بارنز ونوبل، وكراون بوكس وبوردرز بوكس - ومن الممكن عملياً أن تمنحهم جميعاً فى ليلة واحدة مكافأة مقابل أموالهم بأن تؤسس لهم شركة «كتب بلا حدود» فى موقع الفضاء المعلوماتى تحت اسم أمازون كوم. لقد نشأت شركة أمازون كوم بفضل ديموقراطية التكنولوجيا (أجهزة كمبيوتر منزلية للجميع) وديموقراطية التمويل (بطاقات الائتمان للجميع)، وديموقراطية المعلومات (الإنترنت للجميع)، ليس لكى تصبح مجرد حى يضم مكتبات بيع الكتب مصممة على أساس عادات معينة للشراء للمجتمع الذى تعيش فيه، وإنما لكى تصبح مكتبة لبيع الكتب على مدار الأربع والعشرين ساعة فى اليوم، بحيث تستطيع التسوق فى أى وقت وبحيث تكون المكتبة مكرسة بالكامل لك وحدك.

عندما يبدأ شئ كهذا فى الحدوث عبر الاقتصاد الأمريكى وعبر العالم، فإن معنى ذلك أن أى منتج أو خدمة يمكن أن تتحول وبسرعة أكبر كثيراً، من مجرد ابتكار - لا يصنعه سوى فرد أو اثنين وبه مكون له قيمة مضافة مرتفعة وهوامش ربح متضخمة - إلى مجرد سلعة. والسلعة هى أى خدمة أو عملية جيدة يمكن لأى عدد

من الشركات إنتاجها، وكل ما يميز هذه الشركات بعضها عن بعض هو أيها سيتمكن من تقديمها بتكلفة أقل. إن تحويل منتجك أو الخدمة التى توفرها إلى سلعة ليس هزلاً، لأنه يعنى أن هوامش ربحك سوف تصبح رقيقة كحد الموسى، وسيكون لديك العشرات من المنافسين وكل ما بوسعك فعله هو أن تجعل هذا المنتج أو هذه الخدمة كل يوم أرخص من اليوم السابق وأن تبيع منها عدداً أكبر من جارك، وإلا فإنه الموت.

فى نظام الحرب الباردة ذى الأسوار، كانت عملية الانتقال من الابتكار إلى السلعة تحدث بسرعة عشرة أميال فى الساعة، لأن حواجز الدخول فى مجال الأعمال كانت أكثر ارتفاعاً بوجه عام، وكانت الحواجز التى تستطيع الدول إحاطة اقتصاداتها بها أعلى بكثير. أما فى عالم العولمة، ومع انخفاض ارتفاع هذه الحواجز أو إلغائها، أصبحت هذه العملية تحدث بسرعة 110 أميال فى الساعة. ولسوف يصبح الانتقال من إنتاج المبتكرات إلى إنتاج السلع بسرعة تصل إلى 220 ميلاً فى الساعة مع تطورنا إلى اقتصاد قائم على الإنترنت .

يرى إدوارد ياردينى الاقتصادى البارز فى دويتش بانك، أن الإنترنت هى أقرب شئ فى العالم اليوم إلى نموذج المنافسة الكاملة. ففى نموذج المنافسة الكاملة حسبما يرى، «لا توجد حواجز للدخول، ولا حماية من الإخفاق للشركات التى لا تحقق أرباحاً، وسيكون للجميع (المستهلكين والمنتجين) حرية وسهولة الوصول إلى كل المعلومات. هذه العناصر الثلاثة سوف تكون هى الملامح الرئيسية لتجارة الإنترنت.... فالإنترنت تخفض أسعار المقارنة فى التسوق إلى الصفر. ويستطيع المستهلك وبإطراد العثور بسهولة وبسرعة على أرخص سعر لأى سلعة أو خدمة. وفى الاقتصاد القائم على الفضاء المعلوماتى يعرض صاحب الإنتاج منخفض التكلفة أقل سعر ويقدم هذه المعلومة بلا مقابل لأى زبائن فى أى مكان على كوكب الأرض» . ويشير ياردينى إلى

أنه فى الاقتصاد المنخفض التكنولوجيا كانت تكلفة البحث عن أقل الأسعار مرتفعة نسبياً. فعليك أن تتسلق جميع أنواع الأسوار وأن تنتقل عبر جميع أنواع المسافات من أجل الحصول على أفضل صفقة، وهو ما أعطى ميزة كامنة للشركات والمتاجر المحلية أو الراسخة. والآن، يستطيع أصحاب المصانع أو مقدمو الخدمات أو تجار التجزئة فى أى مكان فى العالم تقديم عطاءات أسعارهم فى أى مكان فى العالم. وهذا هو السبب فى أن المستهلك يتمتع بميزة مدهشة فى عصر الإنترنت ولكن المنتج على العكس من ذلك سوف يعانى الأمرين. وتستطيع الآن معرفة لماذا أطلق آندى جروف الرئيس السابق لشركة إنتل على كتابه عن تأسيس المشروعات فى حقبة العولمة عنوان ***البقاء فقط لمن يعانى جنون الاضطهاد*** *Only Paranoid Survive*.

لنلقى نظرة على مهنة السمسرة. فقد تظن أن لمهنة سمسار الأوراق المالية قيمة مضافة مرتفعة، ولابد أن تعطيك مرتباً محترماً. غير أنه عندما ظهر خمسون موقعاً متصلاً على الإنترنت للسمسرة فجأة فى السايبرسبيس (الفضاء المعلوماتى) الذى يتيح لكل زبائنك شراء وبيع الأسهم مقابل جزء بسيط مما تتقاضاه مؤسسة مثل ميريل لينش للسمسرة، وتعطيهم أيضاً أفضل تحليل للسوق بالاتصال المباشر عبر الإنترنت بدون مقابل، فإن وظيفة السمسار الذى تتعامل معه تحولت بذلك إلى سلعة. وعندما تبدأ الحواجز أمام دخول تجارتك فى السقوط بهذه الصورة المثيرة، وعندما تزيد سرعة انتقال المنتجات والخدمات من الابتكارات إلى السلع بهذه الكثافة المثيرة، فمعنى ذلك أنه حتى يتسنى لشركتك تحقيق تفوقها وهوامش أرباحها فإن عليها أن تصبح أكثر سرعة فى حركتها أو أضخم فى حجمها أو أكثر ذكاء - ويفضل أن تتمتع بالمزايا الثلاث فى وقت واحد، لأنك إذا كنت أبطأ قليلاً أو أغلى قليلاً - والحال أنك فى عالم أزيلت فيه من حولك الأسوار وأصبحت المنافسة الآن تأتيك من أى مكان- فسوف تترك جريحاً على الطريق قبل أن تدرى ما الذى اصطدم بك.

دعنى أقدم لك مثالاً من الحياة الحقيقية لهذا العالم الجديد: كنت فى أحد الأيام أتصفح مجلة إخبارية ورأيت فيها إعلاناً عن نظام الكاميرا الرقمية الجديدة التى تنتجها شركة سونى. ولذلك كان أول شئ قلته لنفسى: «انتظر لحظة، هل يقول هذا الإعلان شركة سونى؟ إن شركة سونى لم تخض أبداً مجال صناعة الكاميرات أو الأفلام. وكنت أعتقد أنهم يصنعون فقط أجهزة الاستريو، ووكمن، والأقراص المدمجة أو السى دى CD». حسناً، هم بالفعل يصنعون ذلك. ولكن ما هو القرص المدمج؟ إنه مجرد قطعة مستديرة من البلاستيك المشفرة رقمياً - بالرقمين 1 و 0 - التى تقرأ بشعاع ضوئى يحولها إلى موسيقى. وعندما تنظر إلى الأمر من هذه الزاوية، تجد أنه ما دامت شركة سونى تعمل فى مجال الرقميات ولديها كل المعرفة بتكنولوجيا الرقميات فإنها تستطيع الدخول فى أى مجال للعمل يمكن تحويله إلى رقميات. ويعود بنا ذلك إلى الإعلان عن الكاميرا سونى ديجيتال ماڤيكا وكان الإعلان يحتوى على ثلاث صور: الأولى عن كاميرا سونى الجديدة التى تلتقط صوراً فورية مثل الكاميرا القديمة إنستامتك Instamatic، وكل ما فى الأمر أنها تسجلها رقمياً. وقد كتب فى الإعلان فوق هذه الكاميرا ما يلى: «هذه كاميرتك». وإلى جانب الكاميرا يوجد قرص مرن صغير مقاس 3.5 بوصة ماركة سونى. وكتب فوق هذا القرص الصغير ما يلى: «هذا هو فيلمك». وإلى جانب القرص الصغير يوجد جهاز كمبيوتر حيث وضعت صورة طفل على شاشته. وكتب فوق جهاز الكمبيوتر ما يلى: «هذا هو مكتب بريدك». فأنت بهذه الكاميرا الرقمية تستطيع التقاط صور تسجل بالرقمين 1 و 0 ، ثم تضعها على القرص الصغير ثم ترسل نسخاً شديدة الدقة منها عن طريق جهاز الكمبيوتر والمودم والبريد الإلكترونى إلى أى مكان، و فى أى وقت. وتساءلت عما سيكون عليه شعور أصحاب شركة كوداك عندما يقرأون هذا الإعلان. غير أننى كنت أستمع عندئذ إلى الراديو وسمعت إعلاناً لشركة كوداك، تروج فيه لكل تكنولوجياتها

الجديدة للتصوير عن طريق الكمبيوتر المتصل بالإنترنت، وبدت شركة كوداك لى كما لو كانت شركة لإنتاج أجهزة الكمبيوتر الشخصية. وجعلنى ذلك أتسأل عما سيكون عليه شعور أصحاب شركتى كومباك ودل عندما يستمعون إلى كوداك وهى تتحدث كشركة لإنتاج أجهزة الكمبيوتر. ولكننى بعد ذلك شاهدت إعلانات لشركتى كومباك ودل كانتا تتيهان فيها فخراً بأنهما لن تبيعا بعد الآن أجهزة كمبيوتر؛ لأن هذه أصبحت سلعة. إنهما تبيعان الآن «حلولاً للأعمال التجارية»، عن طريق أجهزة الكمبيوتر لأى مشكلة ترغب شركتك أو بلدك فى التوصل إلى حل لها. وجعلنى ذلك أتساءل عن شعور أصحاب شركة برايسووترهاوسكوبرز ، لأننى كنت قد رأيت من قبل إعلانات لهذه الشركة العملاقة للمحاسبة والاستشارات جاء فيها أنهم يوفرون الآن حلولاً للأعمال التجارية، و ليس مجرد إعداد الحسابات الخاصة بالضرائب. وبعدها أخبرنى صديق لى يعمل فى شركة برايسووترهاوسكوبرز فى أحد الأيام أنهم لا يشعرون بالقلق تجاه شركات إنتاج أجهزة الكمبيوتر الشخصى، ولكنهم يشعرون بالقلق لأن بنك الاستثمار جولدمان زاكس، يقدم الآن حلولاً لتخفيض الضرائب على صورة منتجات مالية مصممة حديثاً. ولهذا تشعر برايسووترهاوسكوبرز بالقلق الآن إزاء أصحاب البنوك الاستثمارية الذين بصدد التحرك نحو مجال عملهم للاستشارات الخاصة بالضرائب. واقترح علىّ صديقى أن أقرأ شيئاً حول هذا الموضوع، ومن ثم فكرت فى الذهاب إلى محل بوردرز بوكس لبيع الكتب لمحاولة العثور على بعض المؤلفات فى هذا الموضوع. غير أن زوجتى قالت إنها لا تفكر بعد الآن فى الذهاب إلى متاجر بيع الكتب لأن لدينا مكتبة «بوردرلس بوكس» وعنوانها “Borderless Books,” a.k.a. Amazon.com. فى الدور الأرضى مباشرة. ومن ثم فقد نقرت لشركة أمازون ووجدت أنها ليست مجرد محل لبيع الكتب الآن، وإنما تبيع أيضاً أقراصاً مدمجة. وهكذا قلت لنفسى: «أليست تلك أعمال شركة سونى؟»

قادنى هذا كله بعد ذلك إلى أن أبدأ فى التساؤل عما سيعنيه ذلك كله إزاء بيع هذا الكتاب الذى فى يدك. ومن ثم فقد ذهبت إلى نيويورك واتصلت بإدارة المبيعات فى شركة فارار وستراوس وجيروكس ناشرى هذا الكتاب، وجلست بجانب مارك جيتس أحد كبار مندوبى مبيعات الشركة. وبدأنا نتحدث عن مجال العمل فى الكتب، وكان جيتس بادى الانزعاج. لماذا؟ قال لى «لقد ذهبت لتوى إلى محل بروكس براذرز للبحث عن بدلة. ومن ثم فقد توجهت إلى قسم البدل ووجدت فوق إحدى المناضد هناك كومة من كتاب ***فى سبيل حب اللعبة For the Love of the Game*** ، أحدث ما كتبه مايكل جوردان. أى أنه يباع فى قسم ملابس الرجال بمحل بروكس براذرز، حيث يعرض فوق كومة من البدل! وهكذا توجهت إلى البائع وقلت له: 'إنكم لستم محلاً لبيع الكتب. فماذا سيكون الحال بالنسبة لكم إذا قلت لمحال بيع الكتب التى أشترى منها أنه يجب عليهم أن يبدأوا فى بيع البدل؟ ' ضحك الرجل. وشعر بالحرج إلى حد ما، ولكنه قال لى بعد ذلك: 'هل نظرت فى فاتورة استهلاك الكهرباء عندك مؤخراً؟ إن شركة كومونولث إديسون لديها عرض خاص بمناسبة أعياد الكريسماس. إنهم يعرضون كتاب جوردان بسعر منخفض بنسبة 40 فى المائة وكل ما هو مطلوب منك هو أن تدفع ثمنه مع فاتورة الكهرباء وسوف ترسله الشركة إليك بالبريد!' لقد شعرت فعلاً بالاكتئاب. إننى أبلغ من العمر ستة وأربعين عاماً. ولا أعتزم التقاعد قبل تسعة عشر عاماً. ولكننى أسأل نفسى الآن عما إذا كنت سأصلح للعمل فى هذه السنوات التسع عشرة. أشعر فى قرارة نفسى بأننى لن أستطيع. فقد أصبحت كل الخطوط متداخلة الآن».

بعد أن أصبح لا وجود للزمن أو المسافة، ومع السقوط المستمر للحواجز، يقول جون تشيمبرز رئيس شركة سيسكو، : «إذا لم تستطع وضع إصبعك على نبض الزبون طوال الوقت فسوف ينتقل زبونك إلى مكان آخر بمجرد نقرة على فأر الكمبيوتر

(الماوس). أما إذا أخفق منتجك فى ملاحقة السوق فقد لا يصبح لشركتك بأسرها وجود فى غضون عامين أو قد يتحول مجال عملك بأسره إلى مجرد سلعة. وحتى وأنت تضع إصبعك على نبض الزبون، فإذا لم تتخذ قرارك بالسرعة الكافية، فسوف يجتاحك الطوفان».

لا عجب إذن فى أن يكون أول من يصاب بمرض نقص المناعة فى شذرة الكمبيوتر الدقيقة فى هذه الحقبة هو أكثر النظم تكدساً بالقيادات، وثقلاً فى الوزن، وبطئاً فى الحركة، مثل الاتحاد السوفيتى وشركة آى بى إم، ويليها فى الإصابة بالفيروس تلك النظم الأكثر قرباً من نظام التخطيط المركزى للاتحاد السوفيتى ـ أى اقتصادات أمريكا اللاتينية التى تئن تحت سيطرة الدولة، وأكثر النظم اتباعاً لسياسة الرفاهية المنتفخة غروراً فى كندا وأوروبا الغربية وأكثر الشركات إفراطاً فى المركزية وبطئاً فى الحركة فى أمريكا الشمالية. لقد انتشر فيروس نقص المناعة فى شذرة الكمبيوتر الدقيقة فى أواخر التسعينيات إلى آسيا وضرب الاقتصادات المكدسة بالقيادات، التى توجهها الدولة فى إندونيسيا وماليزيا وتايلاند والصين وكذلك كوريا الجنوبية واليابان.

لقد قال لى مرة لارى سومرز نائب وزير الخزانة «إننى أشعر دائماً بأنه لم يكن من قبيل الصدفة أن تواجه الشيوعية، ووزارات التخطيط، ومجمعات الشركات جميعاً مصاعب كبيرة فى الحقبة نفسها، لأنه مع وجود أجهزة الكمبيوتر الشخصى وشذرات الكمبيوتر الدقيقة أصبحت هناك كفاءة أكبر وأكبر فى وضع السلطة فى يد الأفراد، الذين يستطيعون الحصول على مزيد من المعلومات واتخاذ مزيد من القرارت بأنفسهم بدلاً من أن يحاول فرد واحد على القمة توجيه كل شئ».

المرحلة الأخيرة فى هذه العملية هى المرحلة التى نمر بها الآن. إنها عصر العولمة الذى إما أن تجرى فيه الحكومات والشركات إعادة هيكلة حتى تتمكن من الاستفادة من الديموقراطيات الثلاث، وإما أن تخفق فى ذلك وتستسلم للإصابة بمرض نقص المناعة ضد شذرات الكمبيوتر الدقيقة. وفى هذه المرحلة تشهد الديموقراطية الرابعة - ديموقراطية اتخاذ القرار ولامركزية السلطة والمعلومات - التى تستخدم باعتبارها التقنية الرئيسية لاجتناب الإصابة بنقص المناعة فى شذرة الكمبيوتر الدقيقة أو للشفاء منه.

وحتى يتسنى فهم ما أعنيه بديموقراطية اتخاذ القرار ولامركزية السلطة والمعلومات، يجب أن نتدبر من جديد أكثر الحالات تطرفاً؛ الاتحاد السوڤيتى السابق. بما أن النظام السوڤيتى بنى من أجل هدف واحد هو التحكم والسيطرة فقد أخذ بمركزية كل مهام القيادة الرئيسية. أخذ بمركزية اتخاذ القرار؛ فكانت كل القرارت تتخذ عند القمة، وكانت القمة هى التى تحدد لك ما تفكر فيه، وما تفعله، وما تصبو إليه، وما تحب. أخذ بمركزية المعلومات، فكل المعلومات تتدفق إلى القمة، وأفراد القمة القلائل هم من كانت لديهم صورة كاملة عما يجرى. وأخذ بمركزية الاستراتيجية؛ فكل القرارات الاستراتيجية بشأن الهدف الذى تسير إليه البلاد تتخذ عند القمة.

إن ما فعلته ديموقراطية اتخاذ القرار ولامركزية السلطة هو أن أخذت نظاماً مركزى التوجيه على هذا النحو، وخففت من إحكام القبضة فيه، وأعادت تعريف مركزه بحيث تتدفق عملية اتخاذ القرار والمعلومات إلى أعلى وأسفل وإلى القاع والقمة على السواء. وسوف تعيد كل شركة أو دولة ناجحة تنظيم مركزها بصورة مختلفة قليلاً، بناء على قوى السوق فيها، وعلى الجغرافيا والسكان ومستوى التنمية فيها.

فلقد ركزت شركة دل كمبيوترز الآن كل عملياتها الحسابية وإدارة الجرد وتوزيع أجهزة الكمبيوتر لعملياتها الأوروبية بأن جعلتها جميعاً تتدفق عبر نداء مركزى واحد موجود فى أيرلندا. أى أنها طبقت المركزية على وظائف معينة، ليس بهدف التحكم، وإنما للاستفادة من الكفاءات الجديدة التى توفر فى النفقات التى أنشئت من أجل إدارة الجرد والتوزيع. وأخذت شركة دل فى الوقت نفسه بلامركزية الكثير من عمليات اتخاذ القرار الأخرى وأوكلتها إلى مراكز البيع والخدمة المنتشرة فى كل من الدول الأوروبية، لأن كل من هذه المراكز أقرب إلى زبائنه ويستطيع تهيئة خدماته لتتناسب مع احتياجاتهم وأذواقهم الخاصة، ويستطيع التكيف سريعاً مع أى تغييرات.

فى نظام العولمة اليوم الذى يتميز بالسرعة الفائقة والتركيب الهائل والحجم الكبير، تتركز كل المعلومات اللازمة للتصدى لمعظم المشاكل الآن فى أيدى أناس يقفون على الحدود الخارجية لأى تنظيم، وليس فى مركزه. وإذا امتنعت دولتك أو شركتك عن الأخذ بسياسة ديموقراطية اتخاذ القرار ولامركزية السلطة لكى تمكن هؤلاء الناس من استخدام المعرفة والمشاركة فيها فإنها ستكون فى وضع سيئ حقيقة.

ويضعها وارين بينيس فى كتابه ***تنظيم العبقرية*** *Organizing Genius* على النحو التالى: «ليس فينا من هو أكثر عبقرية من مجموعنا جميعاً». ويتبعه جون تشيمبرز بوصف ديموقراطية اتخاذ القرار فى شركته، شركة سيسكو بالقول: «أستطيع وحدى أن اتخذ قرارات كثيرة، وأن أجمع كثيراً من المعلومات، لملاحقة سرعة الاقتصاد اليوم. وأريد اتخاذ قرارات استراتيجية كبرى، ولكننى بعد ذلك إذا وزعت عملية اتخاذ القرار على الناس الأدنى درجة منى ممن هم أقرب إلى حركة السوق، وإذا وزعت عليهم المعلومات نفسها التى لدىّ، فسوف يكون عندى حينئذ الآلاف من متخذى القرارت يعملون من أجلى، وسوف تكون لدينا فرصة أفضل ألا نتخلف عن ملاحقة السوق. كما أن هناك أيضاً فرصة أفضل لكى يجربوا ويعثروا على الحلول الصحيحة لبعض

المشكلات المعقدة بحق. إن سياسة اتخاذ القرارات من أعلى إلى أسفل لا تنجح إلا عندما يتحرك السوق ببطء أو إذا كان الشخص الموجود على القمة قادراً على أن يضع إصبعه على نبض المستهلك طوال الوقت، وذلك أمر شديد الندرة هذه الأيام. لا تفهمنى خطأ، فما زالت المسئولية فى يدى. وما زالت لى الكلمة الأخيرة. ولكن القرارات التى اتخذها طوال الوقت قرارات استراتيجية للخطوط العريضة تتعلق بالهدف الذى نسير إليه ومجال العمل الذى سندخل فيه، وجوهر استراتيجيتنا وثقافتنا. ثم إننى أترك بعد ذلك لرجالى الخروج للتنفيذ. لأنك إذا أعطيت السلطة للعاملين لديك وكانوا يجهلون الاستراتيجية الأساسية لشركتك، فسوف يؤدى ذلك أيضاً إلى الإخفاق وإلى تفرق كل منهم فى اتجاه مختلف».

لقد انتقلنا من نموذج القيادة التى تقوم على إصدار الأوامر والتحكم لحقبة الحرب الباردة إلى ما أطلقت عليه مجلة **وورلد لينك** *World Link* نموذج القيادة التى تقوم على «إصدار الأوامر والوصل بين الأشياء» فى حقبة العولمة. وثمة طريقة وحيدة تلخص ذلك التحول وهى تأمل الشعار الذى ظل قائماً فوق مكتب كل قائد أو تنفيذى فى حقبة الحرب الباردة. ذلك هو شعار « الدولار يقف هنا». لقد كان ذلك شعاراً مقبولاً أثناء الحرب الباردة لأن كل المعلومات كانت تتدفق إلى القمة، ومن ثم كانت كل القرارات تتدفق من القمة إلى أسفل، وكان السوق من البطء بحيث ينتظر شخصاً واحداً يتخذ جميع القرارات. ولكن الآن سيصبح أفضل المديرين التنفيذيين الأول هم أولئك الذين يدركون أن وظيفتهم هى تخطيط الاستراتيجيات العريضة للشركة، وإرساء الثقافة الأساسية لها، والتأكد من أن الأمور تجرى فى المسارات الصحيحة، ثم يترك لأولئك القريبين من الزبائن وللسوق سريعة التغير مسئولية تدبير هذه الأمور. ومن ثم لن يكون الشعار الموجود فوق مكتب المدير التنفيذى الناجح فى حقبة العولمة «الدولار يتوقف هنا». بل سيكون «الدولار يبدأ من هنا». أنا الرئيس أضع

الاستراتيجيات العريضة، وأتأكد من أن الجميع متصلون على المسار نفسه، وأعمل على أن تستمر الأمور تجرى فى مساراتها، أما أنت العامل لدى فعليك بجمع المعلومات، وتبادل المعلومات واتخاذ أكبر عدد ممكن من القرارت بسرعة، وأن تكون هذه القرارات وثيقة الاتصال بالسوق.

والد زوجتى ماثيو باكزبوم الذى يعمل رئيساً لشركة كبرى لتطوير مراكز التسوق، هى شركة جنرال جروث بروبرتيز، ولقد قرر تجربة هذه الفكرة. هذه الشركة تتخذ من شيكاجو مقراً لها ولكنها تسيطر على 130 مركزاً للتسوق تنتشر فى أنحاء الولايات المتحدة، ولكل من هذه المراكز مدير واحد يعيش فى تلك المدينة ويدير المركز. ويُعقد كل عام مؤتمر واحد يشارك فيه جميع هؤلاء المديرون. وهكذا وضع ماثيو فى مؤتمر عام 1999على أحد أزرار سترته شعاراً يقول «الدولار يبدأ من هنا» وأعطى لكل من مديرى مراكز التسوق المائة والثلاثين زراً كتب عليه شعار «الدولار يتوقف هنا».

كانت تلك طريقة ماثيو فى محاولة تحصين شركته ضد مرض نقص المناعة فى شذرة الكمبيوتر الدقيقة، حتى لا يسقط سور برلين عليه. وعلى كل شركة أن تفعل ذلك بطريقتها الخاصة، وقد جمعت قصصاً مختلفة عن استراتيجيات مختلفة من أجل ذلك. أقدم لكم منها ثلاث قصص ـ واحدة من مزارع فى ولاية مينيسوتا، وواحدة من أحد كبار رجال الأعمال فى ولاية شيكاجو، وواحدة من أحد صغار رجال الأعمال فى مدينة بالتيمور.

يمتلك جارى واجنر البالغ من العمر أربعة وأربعين عاماً مع أخويه مزرعة مساحتها 4,200 فدان فى قلب وادى نهر ريد ريفير بولاية مينيسوتا، خارج مدينة كروكستون على الحدود مع ولاية نورث داكوتا. استطاع جارى واجنر عبر سنوات

التسعينيات أن يرى ما يحدث فى مجال العمل فى المزارع: إما أن تصبح كبيراً وبوسعك الاستفادة من الاقتصاديات الكبيرة الحجم وأن تلعب فى السوق العالمية للمزارعين، وإما أن يبتلعك شخص آخر يستطيع ذلك. ولم يكن واجنر وأخواه يرغبون فى أن يبتلعهم أحد، ومن ثم شرعوا فى البحث عن التفوق. وربما لأن والد واجنر توفى عندما كان هو يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً وترك له مسئولية المزرعة، فقد كان أكثر انفتاحاً على الأفكار الجديدة، مثلما حدث فى ذلك اليوم من عام 1993 عندما عرضت عليه شركة البحوث الزراعية آجليدر تكنولوجيا جديدة غريبة. كانت عبارة عن مجس موجود على شذرة كمبيوتر دقيقة يمكن وصله بالماكينة التى تحصد وتدرس القمح. وفى حين يقود واجنر هذه الماكينة لحصاد القمح ودرسه يمكن للمجس أن يقيس بدقة تيار تدفق القمح الذى يخرج من كل قدم فى حقله. وفى الوقت نفسه يتصل جرار واجنر ،عن طريق جهاز إرسال، بنظام قمر صناعى لتحديد الموقع موجود فى الفضاء الخارجى (GPS)، يستطيع تحديد موقعه بدقة فى حقله طوال الوقت. وعندما كان واجنر يجمع البيانات التى يقدمها المجس الذى يرصد المحصول فى كل قدم مع البيانات القادمة من القمر الصناعى الذى يرصد حركة ماكينة الحصاد والدراس فى كل قدم، فقد وجد أنه يستطيع حساب كمية القمح التى تحصد من كل فدان فى حقله بدقة.

واستغرقت عملية التنسيق بين النظام كله بعض الوقت. قال لى واجنر: «كان مبرمج البرمجيات يجلس معى فى مؤخرة ماكينة الحصاد والدراس، ويكتب البرنامج على الكمبيوتر الشخصى الخاص به ونحن نسير بالماكينة، ثم يعود إلى فندقه حيث يجرى بعض التعديلات ثم يعود إلى الجرار لاختبار هذه التعديلات مرة أخرى». ولكن ما أن نجح فى تشغيل النظام، حتى تبين لنا أن التجربة كانت تستحق ما بذل فيها من عناء.

قال واجنر: «كانت النتيجة بالنسبة لى بمثابة مفاجأة. فقد كان الاعتقاد الشائع أن الغلة لا تتغير كثيراً من منطقة فى حقلك إلى منطقة أخرى. فالمرء ينظر إلى حقله ويراه متماثلاً تماماً. ولكن ما أن حصلنا على خريطة دقيقة للغلة بواسطة هذا البرنامج حتى اكتشفنا أن هناك اختلافاً رئيسياً فى الغلة بين بعض الفدادين وبعضها الآخر، يصل إلى 150 دولاراً فى الفدان، وهو ما قد يكون الفرق بين المكسب والخسارة فى ذلك الفدان. وكان حصولى على هذه المعلومات يساوى ثقلها ذهباً بالنسبة لى، فقد أصبح لدينا الاختيار فى كل موسم لمجموعة متنوعة من المحاصيل والزراعات. وأصبحنا نستطيع باستخدام هذه التكنولوجيا لرصد الغلة بالكمبيوتر أن نحدد بدقة أفضل أنواع المحاصيل المناسبة لتربة الأراضى التى نمتلكها».

فيما مضى، كان على واجنر أن يعيش فى ظل نظام التخطيط المركزى فى العمل الزراعى. وكانت المعلومات تتدفق إليه من أعلى إلى أسفل. وكان يزرع مجموعة المحاصيل التى توصى بها شركات بيع البذور. ولكن كل ما كانت تفعله هذه الشركات هو تحديد أفضل نتيجة لمجموعة عادية من المحاصيل فى مزرعة عادية مثل مزرعته فى منطقة عادية مثل منطقته. ولم تكن مجموعة المحاصيل التى يوصون بها مصممة لتناسب كل فدان فى مزرعته على حدة. ولكن عندما تسلح واجنر بمعلوماته المتعمقة عن مزرعته أصبح بوسعه أن يطبق اللامركزية والديموقراطية فى مزرعته. لقد تمكن من نقل اتخاذ القرار والمعلومات إلى كل فدان فى مزرعته، أى أنه فى الواقع ترك لكل فدان مهمة إبلاغه بمجموعة المحاصيل المحددة ومستوى المياه والأسمدة التى يفضلها لكى ينتج أعلى غلة، على ضوء النوع المحدد لتربته ومدى رطوبة الأرض وانحدارها. كما تمكن من برمجة كل هذه المعلومات فى جهاز التسميد، ثم ربط هذا الجهاز مع نظام القمر الصناعى لتحديد الموقع. وعندما ربط هذا النظام معاً، استطاع أن ينزل إلى حقل بنجر السكر وأن يحدد بنظام القمر الصناعى موقع الفدان الذى يمر

به، وأن يعرف برنامج الكمبيوتر بدقة كمية ونوع الأسمدة التى يحتاجها هذا الفدان بالتحديد، ومن ثم يوزع جهاز التسميد الكمية المحددة من النترات - يزيد منها فى بعض الأماكن ويقلل منها فى مواقع أخرى - حسب طلب ذلك الفدان بالتحديد. وأدى ذلك إلى التوفير فى استخدام الأسمدة، وهو شئ استفادت منه البيئة، وإلى الوصول بالغلة إلى أقصى حد لها، وهو شئ تضخمت به حافظة نقوده.

وأضاف واجنر: «أنه بعد أن كان يتعين علينا العمل بناء على معلومات من مجمع مركزى قائم على المستويات العادية للإقليم وللمزارع العادى، استطعنا تهيئة كل شئ وفق احتياجاتنا. وكانت تكلفة تعلمنا مرتفعة. وكانت تلك العملية مشروعاً استثمارياً كبيراً بالنسبة لنا. ولكنه يؤتى ثماره الآن. وأصارحك القول : إننا نتنافس مع جيراننا ونحن بحاجة إلى عنصر من التفوق. فالجميع لديهم الجرارات نفسها، وآلات الحصاد والدراس نفسها، ونوعية الأرض نفسها، والمياه نفسها، ومن ثم فإن الشئ الوحيد الذى يمكن أن يميزك عن منافسك الآن هو تفوقك عليه فى حجم ما لديك من معرفة».

لقد استطاع واجنر، متسلحاً بمزيد من المعرفة، أن يفوض لعماله أداء مزيد من المهام حتى يتسنى له تركيز جهده فى وضع الاستراتيجيات الأساسية التى تزيد من مساحة مزرعته وتجعلها قادرة بذلك على أن تلتهم المزارع الأخرى لا أن تلتهمها المزارع الأخرى.

ويضيف قائلاً على سبيل المثال: «نحن نستأجر متخصصين فى فحص عينات التربة حتى ندخل بعض المعلومات الأساسية التى نحتاجها فى قاعدة بياناتنا. فيما مضى كانوا يأتون إلينا فقط لأخذ عينات عشوائية من تربة حقلنا ثم يبلغوننا بما لدينا. أما الآن فقد انقلب الوضع. وبما أننى أعرف أكثر منهم عن حقولى، لهذا أستطيع أن

أحدد للمتخصصين فى عينات التربة بدقة الأماكن التى يحصلون منها على عيناتهم ثم يستخدمون نظام القمر الصناعى للوصول إلى هذه المواقع بالتحديد. وهكذا فإننى إذا كنت أبحث عن مناطق متجانسة فى حقولى لزراعة مجموعة بعينها من المحاصيل فقد كنت أبلغهم بالمكان الذى يجرون عليه تجاربهم بدقة. ومعنى ذلك أننى أستطيع الاستفادة من تفويض الآخرين صورة أكبر، وأن أحصل على معلومات على درجة جودة المعلومات التى كان من الممكن أن أحصل عليها لو أنجزت العمل بنفسى. وأتاح لى ذلك فرصة التركيز على توسيع مزرعتى. ولكن الطريقة الوحيدة للتوسع وتحقيق أرباح فى آن واحد هى أن تكون أذكى، لأننى إذا استطعت عرض هذه النوعية من التحسينات التى أدخلتها على مزرعتى فسوف سيصبحون أكثر استعداداً لإقراضى الأموال اللازمة لهذا النمو».

ما زال واجنر رائداً فيما يعرف باسم «الزراعة المحكمة». وما زال معظم جيرانه متشككين. ويقول: « فى اعتقادى أنه لو كان والدى ما زال على قيد الحياة، لأبدى اهتمامه بالأمر، ولكنه لم يكن ليوافق قط على سيرنا فى هذا الطريق بهذه السرعة. ولكن بما أنه لا يوجد من يتحمل المسئولية سوانا نحن الإخوة الثلاثة. ولا يوجد رئيس كبير لنا، فإننا أكثر انفتاحاً إلى حد ما للأفكار الجديدة. إن مجتمع الزراعة المحكمة ما زال صغيراً إلى حد ما، ولذلك فإننا على اتصال ببعضنا عن طريق الإنترنت. ولقد أصبح لنا موقع لتبادل الأحاديث بين مزارعى الزراعة المحكمة حيث نشترك جميعاً فى عرض المشكلات وحلها».

يقع مكتب روبرت شابيرو رئيس شركة مونسانتو فى مركز مارت التجارى العملاق للتسوق بوسط شيكاجو ـ بعيداً تماماً عن مزرعة جارى واجنر وعن سور برلين. غير أن شابيرو أيضاً أدرك هذه الحقيقة البسيطة مثلما فعل واجنر ـ وهى إنه إذا لم يغيّر من

طريقة اتخاذ قراراته وأن يطبق الديموقراطية فى حرية الوصول إلى المعلومات فى مجال عمل علوم الحياة سريعة الخطى التى كانت مصدر رفاهية شركة مونسانتو، لاالتهمه أحد منافسيه. وهكذا، وبمرور الزمن، جدد شابيرو مركز شركته حتى يتسنى له التكيف مع الديموقراطيات الثلاث وتبنيها.

قال لى مرة وهو جالس فى كابينة العمل الخاصة به التى لا تختلف فى حجمها عن كابينة سكرتيرته، موضحاً: «فيما مضى كان حدث ما يقع فى مكان ما من العالم، قد يلحظه أحد صغار العاملين فى شركتك؛ وفى الواقع كان صغار العاملين هم الذين يلحظون دائماً الأشياء. وقد تكون هذه الملاحظة لذلك الشخص من صغار العاملين لها صلة بما يدور بالنسبة لزبائنك أو منافسيك. هذه المعلومة الصغيرة التى قد يتوصل إليها أحد صغار العاملين لديك عن المحيط الذى تعمل به قد تنتقل حينئذ عن طريق السلم الوظيفى إلى أعلى - شريطة أن يكون الناس عند كل درجة من درجات هذا السلم مدركين لمغزاها ولا تشكل تهديداً لهم ومن ثم لا يحاولون قتلها. ولكن لنفترض أنها أخذت فى نهاية الأمر طريقها إلى أعلى إلى شخص قريب من الشخص الموجود على القمة وفى يده سلطة اتخاذ القرار. والاحتمالات فى نظام العولمة لهذه الأيام أنه عندما تصل هذه المعلومة يكون أوانها قد فات. وربما تصل محرفة أو مشوهة، بل والأسوأ أنه ربما يتعامل معها الشخص المفترض أن يتخذ القرار بشأنها على أساس تجاربه القديمة عندما كان فى أدنى هذا السلم الوظيفى قبل خمسة عشر عاماً. قد يقول: 'آه، نعم. لقد واجهتنى مشكلة مماثلة ذات مرة فى عصر ما قبل الطوفان'، والآن، قد يكون ذلك أمراً مقبولاً إذا كان الجميع يعملون بالأساس العام نفسه وأنه لا بأس من أن يكون المرء أبطأ قليلاً فى حركته، أو أبعد قليلاً عن التفوق، أو أبعد قليلاً من الزبون. ولكن هذا الزمن قد ولى وانقضى.

ويستطرد شابيرو قائلاً، «وهكذا فإن ما نقوم به الآن فى شركة مونسانتو هو محاولة إعادة تعريف المركز. إننا لا نلغى المركزية فى كل شئ فحسب ونترك لكل منا أن يتحرر وأن يتخذ قراره بنفسه. ولا نقول أيضاً إن المراكز الرئيسية للمؤسسات لا تهم فى شئ. ولكننا نعيد تعريف معنى المركز بطرق أكثر شمولاً، وبطرق تسمح لنا بالتحرك الأسرع، وأن نكون أكثر استجابة للتغيرات التى تحدث فى السوق. فيما مضى، كان بوسعى تبرير [قيادتى] بأن لدىّ أوسع مدى من المعلومات ومن ثم لدىّ المنظور الذى لا يتوافر لغيرى فى الشركة، و لذلك كنت أقدم قيمة مضافة للعملية باتخاذ القرارت بنفسى. أما الآن، ومع وجود البريد الإلكترونى، والشبكات المحلية للمعلومات والإنترنت، أصبح لكل الموجودين فى الخط الأمامى الكثير من المعلومات التى لدىّ، بل وأكثر منها فى كثير من الأحيان. إننى لا أستطيع أن أحرمهم من المعلومات، حتى إن رغبت فى ذلك. وهكذا فلن ينجح البناء الهرمى الوظيفى الذى يقوم على أساس حرمان مواطنيه أو العاملين فيه. فالآن أصبح العمل أكثر اعتماداً على جهد الفريق. و أظن أننى أستمع الآن على نحو أفضل لمزيد من الناس طوال الوقت، لأننى أدرك أن لديهم معلومات أكثر كثيراً، ومن ثم يكون لديهم أساساً أفضل لوجهة نظرهم ـ أفضل مما كان لديهم من قبل وأفضل مما كان لدىّ من قبل. إننى أستطيع الاتصال فوراً الآن بالشخص الأدنى مرتبة الذى يمتلك الفكرة أو الخبرة مع الزبون التى كانت من قبل تشق طريقها بصعوبة إلى أعلى سلم الوظائف.

«إننى أستطيع فى آن واحد أن أشترك فى المناقشة مع عددكبير من الناس من أنحاء العالم وأقول لهم 'هاى، هل مرّ بكم شئ كهذا فى الجزء الذى تعيشون فيه من العالم؟ هل صادف أى منكم رد فعل كهذا تجاه منتجنا الجديد أو من منافسينا؟' وهكذا فإن ما تنتهى إليه بعد كل ما قيل وأنجز، مع مقارنته بالطريقة التى كانت الشركة تُدار بها طوال تاريخها، يعتبر عملية اتخاذ قرار أكثر احتراماً، وأكثر اعتماداً

على جهد الفريق، وأكثر شمولاً، بالإضافة إلى زيادة طفيفة فى التواضع من جانب الموجودين على القمة، من أناس مثلى، وزيادة طفيفة من الحزم على المستوى الأدنى التقليدى، وبالقضاء تقريباً على المستوى المتوسط التقليدى فى سلم الوظائف».

عندما تأخذ بأسلوب الديموقراطية فى اتخاذ القرار على هذا النحو فإن ذلك يتبعه عدة أشياء، حسبما يقول شابيرو. «أول كل شئ أنها تعنى أن عليك استخدام الأشخاص على أساس مختلف؛ فإنك لم تعد تبحث عن شخص ليس عليه سوى تنفيذ الأوامر القادمة من القمة؛ فقد أصبح ذلك جزءاً يتضاءل ويتضاءل حجمه فى كل الوظائف تقريباً. وأنت تريد بدلاً من ذلك، أشخاصاً يستطيعون رؤية مجال العمل بأسره وأن يكونوا مديرين لفريق عملهم حتى آخر درجات السلم الوظيفى. وكان يتعين علىّ، كقائد للشركة، التأكد من أن هؤلاء المديرين لديهم التدريب فى ثقافة الشركة وقيمتها واستراتيجيتها حتى يكون لديهم وهم يجمعون المعلومات السياق المناسب لتقييمها ومعرفة ما إذا كانت تتواءم أم تتعارض مع الطريق الذى نسير عليه. ولكن عليهم أن يعرفوا أولاً الطريق الذى نسير عليه، وأن يكون لديهم معلومات عنه طوال الوقت حتى يتسنى لهم القيام بذلك. ووظيفتى هى ضمان أن يحدث ذلك».

إن ما يصدق على شركة متعددة الجنسية تصل أعمالها إلى مليار من الدولارات مثل مونسانتو يصدق أيضاً على شركة چيرى بورتنوى التى يعمل بها خمسة وثلاثون شخصاً، شركة ڤالى لايتينج المحدودة، فى بالتيمور.

ذات يوم شرح لى بورتنوى الأمر قائلاً: «نحن أساساً نعمل بالتوزيع التجارى للإضاءة؛ إذ نقوم بتوفير المواد للمتعهدين بإمدادات الكهرباء وأعمالها للمشروعات التجارية الكبرى على أساس تقديم عروض أسعار تنافسية أو التفاوض بشأن الأسعار على السواء. نحن نقدم عروض أسعار ونصمم ونضع الميزانيات – أو نفعل كل ما هو

مطلوب منا ـ حتى نقدم للمتعاقدين ولزبائننا أفضل خدمة لكل دولار يدفعونه لأعمال الإضاءة. إننا لا ننجح إلا إذا قدمنا قيمة مضافة للعمل الذى يقوم به زبائننا. والآن قد تتساءل ،كيف يتسنى لشركة إضاءة تقديم قيمة مضافة؟ إننا نفعل ذلك بتقديم أقل تكلفة لحلول الإضاءة وخدمة الإضاء أيا كانت المتطلبات فى هذا الصدد» .

بيد أنه فى أوائل التسعينيات، وفى حوالى الوقت الذى سقط فيه حائط برلين، أدرك بورتنوى أن سوقه تتغير فجأة.

قال: «كنت بمثابة شخص أغلق من توه ستارة النافذة، ومعها انتهت حقبة معينة من الزمان. لقد تغيرت مواقف زبائننا تجاهنا، أصبحوا أكثر إلحاحاً فى مطالبهم، وفى لحظة أصبح الرجال الذين اعتادوا أن يعهدوا إلينا بالتزامات فى العمل لا يعهدون إلينا بهذه الالتزامات، والرجال الذين اعتادوا التفاوض معنا وحدنا بدأوا فجأة فى طلب عروض أسعار من كل شخص ومن أى شخص. وبدأ مندوبو المبيعات عندى فى الشكوى قائلين: 'إننا لا نستطيع الحصول على طلبيات، أصبح التنافس على الأشياء شديداً، وعندما نحصل على طلبيات، لا نستطيع تحقيق أرباح'. وبدأت أشعر بأن الخطر يحدق بشركتنا، ولكننا لم نفهم حقيقة ما يجرى. وكان الأمر وكأن سور برلين يسقط فوق رؤوسنا دون أن ندرى» .

قرر بورتنوى وشريكه، إجراء بعض الإصلاحات لمواجهة هذا الموقف. لقد وضعا جانباً مبلغاً من المال ـ 100 ألف دولار ـ من شأنه أن يجعل مندوبى المبيعات قادرين على إبرام صفقات بنصف هامش الربح العادى لهم. ولهذا مثلا، يستطيع مندوب المبيعات، الذى يبرم صفقة بأقل من هامش الربح التقليدى، تعويض الفرق من مبلغ المائة ألف دولار هذا.

يضيف بورتنوى قائلاً: «إن ما كنت أحاول القيام به هو حقيقة البحث عن سبيل لكى نصبح أكثر سرعة وأكثر كفاءة، وأن نفهم بحق السماء ما الذى يجرى هناك فى السوق. كان باستطاعتى بعد أن وافقت على تنفيذ تلك العقود أن أبحث فيما إذا كنا نستطيع شراء المواد الخام وتشغيلها بكفاءة ونواصل خدمة زبائننا ـ كل ذلك بتكلفة أقل ـ ومع ذلك نستطيع تحقيق الربح. حسناً، لقد حدث شئ غريب. فقد تمكن المنتجون الرئيسيون الذين أتعامل معهم من تجميع مبلغ من الدولارات مثلما كانوا يفعلون من قبل ـ وبدون اللجوء إلى المائة ألف دولار. فقد كان ذلك أمر يتعلق بإثبات الذات بالنسبة لهم ولم يكن هناك من يريد أن يلجأ إلى ذلك المبلغ. كان عليهم بذل جهد أكبر لكى يظلوا حيث كانوا، ولكن كثيرين منهم تمكنوا من القيام بذلك لفترة من الزمن على الأقل. ولكن قد يمكننى القول بأنه ما زال هناك كثير من الإحباط الذى يشعر به من يعملون معى للطريقة التى اتبعها زبائنهم فى معاملتهم. لقد اعتقدنا جميعاً، ونحن نودع حقبة الثمانينيات، أننا بلغنا الذروة، ولكن، فجأة، أصبح الناس يتعاملون معنا وكأننا مجرد محل عادى لبيع السلع. إننا نواصل تقديم قيمة مضافة، ولكن زبائننا لا يعترفون بها مع ذلك. إنهم يقولون: 'نعم أنتم تقدمون خدمة جيدة، ولكن ماذا بعد؟' فقد كانوا يخسرون، ومن ثم كان كل ما يفكرون فيه هو اللجوء إلى من يقدم لهم أقل سعر. لقد أصبحت صناعة البناء بأسرها مجرد سلع، ومن ثم فلم يعد هناك من يركن إليه. وأصبح مندوبو المبيعات فى منتصف التسعينيات يقولون لى كثيراً إنه سيكون عليهم أن يقبلوا بزوال بعض العلاقات القديمة. وكانوا يشتكون من أنه يتعذر عليهم تجميع الطلبيات معاً مثلما كانوا يفعلون فى الماضى، لأنهم من جهة، إذا أرادوا الحصول على القدر نفسه من الأموال فإن عليهم التقدم بعروض لكثير من العمليات، لمجرد الحصول على عملية واحدة، ومن ثم أصبح الوقت المتاح لدراسة كل مكون من مكونات العملية وتحديد موطن الربح والفرص فيها أقل.

ولا تنس أن سر التقدم بعروض يكمن فى المعلومات والمعرفة. فكلما كان فهمك أكبر للعملية ومكوناتها المختلفة، تمكنت من التقدم لها بعرض سليم وأن يكون الرقم فى العرض منخفضاً ويتحقق لك فى الوقت نفسه مع ذلك هوامش الربح اللازمة لبقائك».

حتى عام 1994، لم تكن شركة ڤالى لايتينج تتكبد خسائر بعد، ولكنها كانت مع ذلك تربح أقل كثيراً، أى أن الإصابة بمرض ميدز أى نقص المناعة فى شذرات الكمبيوتر الدقيقة قد بدأت. لقد أصبح من الواضح أن ديموقراطيات المعلومات والتمويل والتكنولوجيا قد أحدثت تغييرات جذرية فى بيئة العمل لبورتنوى وحولت الكثير من الأشياء التى لم تكن سلعاً من قبل إلى سلع.

يقول بورتنوى: «وهكذا فقد بدأت فى النظر ملياً إلى ما أقوم به من عمل، وأدركت أن أكثر ما نفتقر إليه هو المعلومات. فلم يكن لدينا من المعلومات ومن المعرفة ما يكفينا للبقاء فى السوق. وكان وعدنا دائماً لزبائننا أن السماح لنا بتلبية مطالبهم للإضاءة سوف يجعلنا نقدم مزيداً من القيمة المضافة لمشروعاتهم تفوق ما سنحصل عليه من مقابل لخدماتنا. فإذا كانت لديك مصاعب مالية، فباستطاعتنا أن نجد وسيلة نمنحك بها 90 فى المائة مما ترغب فيه من شكل وإحساس الإضاءة بنسبة 70 فى المائة فقط من التكلفة ، مقارنة بمنافسينا الذين لن يقدموا لك إلا 70 فى المائة فقط مما ترغب فيه من الإضاءة مقابل 70 فى المائة من التكلفة. وكنت أدرك أنه يجب علىّ العودة إلى استراتيجية القيمة المضافة فى هذه البيئة الجديدة للعمل».

وهكذا أصبح بورتنوى يميل إلى إحداث تغييرات بالفعل. فقد استعان باستشارى فى البرمجيات وأنفق 20 ألف دولار فى البحث فى السوق عن برنامج للكمبيوتر يستطيع أن يجعل شركته أذكى وأسرع، حتى يتسنى لها تقديم خدمتها ذات القيمة المضافة فى هذه السوق الجديدة وأن يجتنب تحولها إلى سلعة.

أضاف بورتنوى موضحاً: «بعد عام أو نحو ذلك من البحث لم نستطع العثور على صفقة برمجيات تفى حتى بخمسين فى المائة من احتياجاتنا. ومن ثم، فقد قررنا كتابة البرمجيات الكاملة الخاصة بنا. وأنا لا أعرف شيئاً عن كتابة البرمجيات. ولكن كان هناك اثنان من العاملين المهمين لدىّ فى مجال الإضاءة قد قاما بتعليم أنفسهما هذا النوع من التقنية، كانت مجرد هواية، وأحبَّا مجال البرمجيات هذا. واستعنت بأحد المبرمجين المحترفين الذى تعاون مع هذين العاملين لدىّ فى تصميم نظام يمكن تطبيقه بدقة على الأسلوب الذى نعتقد أنه يتعين علينا إدارة شركتنا به. ولا أدرى كيف قاموا بذلك. فقد كانت وظيفتى مقصورة على الموافقة على الميزانية اللازمة لذلك. ولكن ذلك كان التزاماً ضخماً بالنسبة لى. وانتهى الأمر بتكلفة 35 ألف دولار. ولكن هذا المبلغ أنقذ شركتنا. فقد توصلوا إلى برنامج للكمبيوتر يتيح لكل من مندوبى مبيعاتنا ومحاسبينا مزيداً من الفهم لكل مكون فى أى عملية، ثم التقدم بعد ذلك بعروض وأسعار على نحو أكثر كفاءة وأكثر سرعة، بمجرد ملء مجموعة من الفراغات التى كنا نعلم أن فيها تقلبات خطيرة. بل والأهم من ذلك هو أن النظام بأسره يعمل كسلسلة متصلة، بحيث تتحول عروض الأسعار الأصلية أتوماتيكياً إلى طلبات شراء، وتتحول طلبات الشراء أوتوماتيكياً إلى معلومات للتسليم وإعداد لفواتير الحساب وإدارة الصيانة. وكل هذه المعلومات يمكن عرضها على شاشة واحدة، بحيث يكون على العاملين عدم التوقف لإجراء كل عملية بصورة منفصلة. فالمعلومات نفسها دخلت مرة واحدة وأصبح من الممكن الآن استخدامها مرات ومرات ومرات. في البداية، كنا نعمل بأجهزة كمبيوتر منفصلة. ولكننا نعمل الآن بشبكة من أجهزة الكمبيوتر الشخصية، وهكذا أصبح الأمر كله متكاملاً فى الشركة بأسرها. فى الشهور الستة الأولى من عام 1998، ارتفعت مبيعاتنا وأرباحنا بنسبة 33 فى المائة، وبالعدد نفسه من الأشخاص. فحين ينجح المرء فى زيادة أعماله بواقع الثلث وبالعدد نفسه من

الأشخاص، فمعنى ذلك أنه إذا استعان بعدد إضافى من الأشخاص يستطيع بالفعل التوسع فى عمله. وفى مثل هذه البيئة التى يلتهم فيها الفائز كل شئ على المرء أن يكون أكبر، وأكثر ذكاء، وأسرع من منافسيه، وإلا أزيح عن الطريق. ولا أدرى إذا كان ذلك سيكفل لى الاستمرار، وإنما أعلم أنه منحنى الفرصة للبقاء حتى المرحلة التالية ـ إلى أن يصبح أحدهم أكثر كفاءة منى».

سألت بورتنوى: كيف غيّر ذلك من وظيفتك كمدير تنفيذى أول؟

أجاب. «أصدقك القول، لقد أصبحت معرفتى أقل بما يدور على أرض الواقع الآن. ولكن ذلك لا يزعجنى. لقد فوضت للعاملين لدىّ اتخاذ مزيد من القرارت بما لديهم من مزيد من المعلومات. ولا يعمل مندوبو المبيعات عندى بأسلوب العمولة. إنهم يعملون كفريق، حتى يستطيعوا التفاعل معاً ولا يتنافسون فيما بينهم. وهم يعلمون أنه إذا حققت الشركة مزيداً من الأرباح فسوف تزيد أرباحهم أيضاً. وبالفعل، يبث فيهم تبادل المعلومات الحماس. وأصبح لديهم جميعاً الآن معلومات أكثر، ولذلك فقد أصبح لديهم مزيد من السلطة. فبإمكانهم اتخاذ القرار بمفردهم بشأن العمليات التى يستحسن إغلاقها، والعمليات التى يمكن أن تعطى أكبر إجمالى أرباح وأيها الأسهل فى تقديمها. والأهم من ذلك، أنه أتيح لهم الآن الوقت للتفكير وذلك بفضل البرمجيات الجديدة. وهو أمر شديد الأهمية، بدلاً من تضييع الوقت طوال اليوم فى إجراء العمليات الحسابية. وأصبحوا الآن هم الذين يديرون العمل بدلاً من أن يديرهم العمل. لقد أصبحوا جميعاً الآن وكأن كلاً منهم مركز للربح قائم بذاته ـ كل منهم لديه عمله الخاص ـ ووظيفتى هى العمل على اقترابهم من بعضهم بعض ومنحهم المساندة التى يريدونها، والأدوات التى يحتاجونها، حتى يقوموا بما يقومون به على أفضل وجه».

إذن فإن الدولار يبدأ من هنا.

بهذا الشعار، انضم چيرى بورتنوى إلى مجموعة روبرت شابيرو، وجون تشيمبرز، وشركة دل للكمبيوتر، وجارى واجنر التى نجت من آثار سقوط حائط برلين.

وهذا هو تماماً ما كانت الحكومة الصينية تحاول أن تفعله عندما تشجع انتخابات القرى، حتى إذا كان نصفها زائفاً. فهم يحاولون دفع عربة الاقتصاد على المستوى المحلى، لأن بيجنج (بكين) خلصت إلى أن السبيل الوحيد لمواجهة المشكلات الاقتصادية للريف الصينى هو السماح للقرويين بتنظيم انتخاباتهم الخاصة لاختيار رؤسائهم. وكان قادة الحكم الشمولى فى الصين يأملون فى أن تفرز هذه الانتخابات قادة محليين أفضل يستطيعون فهم احتياجات وظروف الريف بصورة أفضل، ويستطيعون الدفع بسرعة أكبر، والتصدى بأنفسهم لبناء الاقتصادات المحلية. كانت تلك هى طريقتهم فى لامركزية السلطة واتخاذ القرار - ليس فى المجال السياسى، وإنما فى المجال الاقتصادى - على الأقل أن يجتنبوا سقوط حائط برلين فوق رؤوسهم.

إننى على ثقة من أن إجراء مثل هذه الانتخابات المحلية لن يكون كافياً لاستمرار نمو الاقتصاد الصينى بالمعدل اللازم لذلك. فالأمر يتطلب الكثير من اللامركزية فى السلطة. ولكننى أيضاً على ثقة من أن تلك كانت بداية ضرورية، كما أن القرويين الصينيين الذين التقيت بهم على ثقة أيضاً من ذلك.

وبالمناسبة، فإننى لم أخبرك قط بمن الذى فاز فى انتخابات رئيس قرية جوجيا لينجزى. فقد لبثنا هناك عدة ساعات أثناء قيامهم بفرز الأصوات على سبورة الطباشير فى أحد الفصول المدرسية. ولن أنس مطلقاً منظر أولئك القرويين الصينيين جميعهم، وهم يتزاحمون عند باب الفصل وعند نوافذه، يراقبون كل صوت وهو يحسب بعلامة بالطباشير الأبيض. وعلى الرغم من نداء ليو فو للنساء للتصويت لصالحه، فقد فاز

منافسه الذى كان يشغل هذا المنصب من قبل. وقد قام عدد منا بالدردشة مع ليو بعد ذلك. وقال لنا إنه يشعر بالأسف لأنه خسر، ولكنه كابد ما هو أسوأ من ذلك من قبل. أسوأ بكثير. فقد طرد أثناء الثورة الثقافية، ولكنه الآن، وبعد عشرين عاماً، استطاع خوض الانتخابات لمنصب رئيس القرية (وهى انتخابات يراقبها فريق من الولايات المتحدة).

ولما سألناه إن كان قد شعر قط باليأس أثناء الثورة الثقافية، أجابنا بأحد الأمثال الصينية التى تقول، «أبداً لا يمكن ليد إنسان أن تحجب نور الشمس».

الفصل الخامس

قميص القيد الذهبى

عندما كنت فى تلك الرحلة لمراقبة الانتخابات فى القرى الصينية، وأثناء تجولنا أنا والمترجم فى قرية هينج داو تقابلنا مع مزارع تحول إلى ميكانيكى، يوجد عنده أوز وخنازير فى الفناء الأمامى، ولكن يوجد لديه جهاز ستريو وتليفزيون ملون داخل كوخه المبنى من الآجر. ولاحظ المترجم الذى يرافقنى، وهو طالب صينى يدرس فى أمريكا شيئاً لم أكن لألحظه مطلقاً ـ وهو أنه لا يوجد أى مكبرات للصوت فى القرية. فقد كان الحزب الشيوعى أثناء فترة حكم ماو تسى تونج يضع مكبرات للصوت فى «اللواءات» حسبما كان يطلق على القرى الصغيرة، وكان يستخدمها فى إطلاق الدعايات وغيرها من الرسائل لحفز العمال. سألنا مضيفنا عما جرى لمكبرات الصوت تلك.

أجابنا القروى قائلاً «لقد انتزعناها فى العام الماضى. فلم يعد هناك من يريد الاستماع إليها بعد الآن. لقد أصبح لدينا الآن أجهزة استريو وتليفزيون». ولكن ما لم يفصح القروى عنه هو أنه لم يعد هناك من يريد الاستماع إلى رسائل من بيجنج (بكين) والحزب الشيوعى؛ لأنهم أصبحوا يعرفون ماذا تدعو إليه تعاليم ماو تسى تونج وما لا تدعو إليه. وأصبحت الرسالة التى يبعثون بها أبسط كثيراً من ذلك وهى: «اعتمدوا على أنفسكم. ابحثوا لأنفسكم عن وظائف. وأرسلوا إلينا الأموال».

وقبل ذلك ببضعة شهور كنت فى تايلاند أرقب اقتصاد تايلاند الرأسمالى الحميم وهو يهوى منزلقاً نحو القاع. وكنت قد رتبت مقابلة صحفية مع سيريفات ڤوراڤيتفوثيكون، وهو أحد العاملين فى مجال المنشآت العقارية ممن أفلسوا فى الانهيار الاقتصادى التايلاندى. وأصبح هو وزوجته بمثابة ملصق إعلانات عن الانهيار التايلاندى؛ لأنهما قررا التحول إلى مهنة بيع السندويتشات بغية الاقتصاد فى الإنفاق. استأجر هذان الزوجان، اللذان كانا سابقاً من الأغنياء، مكاناً خالياً فى وسط بانكوك، ورتبا عملية لصنع الساندويتشات مع كثيرين ممن كانوا يعملون معهما من قبل، وبدأوا جميعاً فى عملية لتوزيع سندويتشات الهامبورجر والجبن الطازجة فى أنحاء شوارع بانكوك. وصل سيريفات إلى المكان الذى سنجرى فيه اللقاء حاملاً صندوق رحلات أصفر اللون معلقاً حول رقبته مثل بائع الساندويتشات الجائل فى مباريات البيسبول الأمريكية. غير أن أكثر ما ظل عالقاً فى ذاكرتى من هذا الحديث هو غياب أى مرارة فى صوته، وحالة الاستسلام الموجعة التى بدت عليه. وكانت الرسالة التى يبعث بها هى أن تايلاند اختلطت فيها الأمور. وأن الناس يدركون ذلك. وأن عليهم الآن أن يشدوا الأحزمة حول البطون، وأن يقبلوا بما نزل بهم، ولا يوجد شئ آخر يقال. سألته، ألا يشعر بالغضب؟ ألا يود لو أنه أشعل النيران فى بعض المبانى الحكومية للتعبير عن غضبه لما ألمَّ به من إفلاس؟

قال سيريفات كلا موضحاً. «لقد سقطت الشيوعية، وسقطت الاشتراكية، ولم يعد هناك الآن سوى الرأسمالية. ونحن لا نريد العودة مرة أخرى إلى الغابة؛ فجميعنا يريد مستويات أفضل للمعيشة، ومن ثم فما عليك إلا أن تعمل على نجاح الرأسمالية، لأنه ليس لديك بديل آخر. ينبغى لنا أن نحسِّن من أنفسنا ونسير وفق القواعد التى تسرى على العالم... فلا بقاء إلا لمن له قدرة على المنافسة. وربما سيحتاج الأمر إلى حكومة وحدة وطنية، لأن العبء هائل».

وبعد عدة شهور استمعت إلى محاضرة فى واشنطن ألقاها أناتولى تشوبايس، مهندس الإصلاحات الاقتصادية والخصخصة المعيبة فى روسيا. وكان تشوبايس قد حضر إلى واشنطن لتوجيه نداء أخير لصندوق النقد الدولى من أجل تقديم مزيد من المساعدات لروسيا، غير أن مجلس النواب الروسى «الدوما» الذى ما زال الشيوعيون يسيطرون عليه كان يقاوم شروط صندوق النقد الدولى. كما كان الدوما يتهم تشوبايس بصفة مستمرة بأنه خائن وعميل للأجانب لأنه يقدم مطالب لصندوق النقد الدولى بأن تجرى روسيا إصلاحات جذرية فى اقتصادها تسير على الخطوط الحقيقية للسوق الحرة. عندئذ سألت تشوبايس كيف يرد على منتقديه قال لى: 'حسناً، أقول لهم، تشوبايس بالفعل جاسوس للمخابرات المركزية الأمريكية ولصندوق النقد الدولى. فما هو البديل لديكم إذن؟ هل لديكم أية أفكار عملية (بديلة) ؟' وأضاف تشوبايس أنه لم يحصل قط على إجابة شافية لتساؤلاته، لأنه لا يوجد لدى الشيوعيين بديل بالفعل.

وكنت فى البرازيل بعد بضعة أشهر، حيث أجريت مقابلة صحفية مع فابيو فيلدمان، وزير البيئة السابق فى ساو باولو، والنائب الفيدرالى فى البرلمان البرازيلى، الذى كان يخوض حملة انتخابية لإعادة انتخابه فى ساو باولو. وكان مكتبه بمثابة خلية نحل من العاملين فى الحملة الانتخابية المنهمكين وسط الملصقات وغيرها من أدوات الحملة الانتخابية. كان فيلدمان ليبرالياً وسألته عن طبيعة الجدل السياسى الدائر اليوم فى البرازيل. أجابنى قائلاً: «لقد فقد اليسار [الأيديولوچى] مصداقيته فى البرازيل. والتحدى الذى تواجهه الحكومة الفيدرالية يتمثل فى الوظائف وتوفير فرص العمل. إن عليهم توليد وتوزيع الدخل. فما هو إذن برنامج اليسار؟ ليست لديه مقترحات لتوليد الدخل، وإنما فقط لتوزيعه».

ماذا نستخلص من هذه القصص؟ بعد أن اجتمعت الديموقراطيات الثلاث فى أواخر الثمانينيات ونسفت جميع الأسوار، نسفت أيضاً كل البدائل الأيديولوجية الرئيسية لرأسمالية السوق الحرة. قد يستطيع الناس الحديث عن البدائل للسوق الحرة والتكامل العالمى، وقد يستطيعون المطالبة بهذه البدائل، وقد يستطيعون الإصرار على «طريق ثالث»، ولكن لم يظهر حتى الآن أى من هذه البدائل.

يختلف ذلك أشد الاختلاف عن الحقبة الأولى للعولمة؛ ففى أثناء القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، عندما اجتاحت الثورة الصناعية ورأسمالية التمويل العالمى أنحاء أوروبا وأمريكا، شعر الكثيرون من الناس بالصدمة إزاء وحشية الداروينية و«المصانع الشيطانية السوداء». فقد أطاحت بالنظم والطبقات القديمة، وأفرزت تفاوتات هائلة فى الدخل وعرضت الجميع للضغوط، غير أنها أفرزت أيضاً ارتفاعات حادة فى مستويات المعيشة لأولئك الذين يتمكنون من شق طريق لهم فيها. وفجرت هذه التجربة الكثير من الجدل والعقائد الثورية، حيث كان الناس يحاولون التخفيف عن العمال من أشد جوانب رأسمالية السوق الحرة قسوة فى تلك الأيام. لقد وصف كارل ماركس وفريدريك إنجلز هذه الحقبة فى كتابهما ***البيان الشيوعى*** حيث قالا: «إن إحداث ثورة مستمرة فى الإنتاج، والاضطراب الذى لا ينقطع بكل الظروف الاجتماعية، والشكوك وإثارة المشاعر التى لا تنتهى هو ما يميز عصر البورجوازية عن كل العصور السابقة له. فقد اجتيحت كل العلاقات الثابتة سريعة التجمد، بكل ما يتصل بها من أهواء وأفكار لا تقوى على الصمود، أما الجديد منها فيصبح قديماً قبل أن يقوى ويتعزز. وانصهر كل ما هو صلب وذهب أدراج الرياح، وأصبح كل ما هو مقدس دنساً، وأجبر الإنسان فى النهاية على المواجهة بأحاسيسه الواعية، ومواجهة ظروفه الحقيقية للحياة، وعلاقاته مع أخيه الإنسان».

فى النهاية، جاء أناس أعلنوا أنهم يستطيعون انتزاع هذه العناصر التى تشيع عدم الاستقرار والقسوة فى نظام السوق الحرة، ثم خلق عالم لن يعتمد قط على الطبقة الرأسمالية البورجوازية الجامحة. سوف تكون لهم حكومة تخطط وتمول كل شئ مركزياً، وتوزع الإنتاج على كل عامل كل بحسب احتياجاته وتتوقع من كل عامل أن يسهم حسب قدراته. وكان من بين أسماء هؤلاء الثوريين إنجلز، وماركس، ولينين، وموسولينى. وساعدت البدائل التى قدموها لنظم التخطيط المركزى غير الديموقراطية، مثل الشيوعية والاشتراكية والفاشستية، على إجهاض حقبة العولمة الأولى طوال الفترة التى عاشتها هذه التجارب منذ عام 1917 حتى عام 1989.

وليس هناك ما يقال عن هذه البدائل سوى أنها لم تنجح، وكان الناس الذين أصدروا هذا الحكم عليها هم من عاشوا فى ظلها. وهكذا، فإنه مع انهيار الشيوعية فى أوروبا وفى الاتحاد السوفيتى وفى الصين، وانهيار كل الأسوار التى كانت تحمى هذه النظم، فإن البديل الأيديولوجى ليس فى متناول هؤلاء الذين لا يسعدون بتلك القسوة الداروينية لرأسمالية السوق الحرة الآن. وإذا انتهى بنا الحال إلى السؤال عن أكثر النظم فاعلية فى توليد مستويات للمعيشة ترتفع بصفة مستمرة، عندئذ سوف يتوقف الحوار التاريخى. والإجابة واحدة وهى رأسمالية السوق الحرة. قد تكون النظم الأخرى قادرة على توزيع وتقسيم الدخل على نحو أكثر كفاءة وعدالة، ولكن أياً منها لا يستطيع توليد هذا الدخل لتوزيعه بهذه الكفاءة مثل رأسمالية السوق الحرة. وأصبحت هذه الحقيقة معروفة لمزيد ومزيد من الناس. وهكذا، فإنه من وجهة النظر الأيديولوجية، لم يعد هناك رقائق الشيكولاتة بالنعناع، ولم تعد هناك كعكة بطعم الفراولة، ولم يعد هناك عصير الليمون. اليوم لم يعد هناك سوى الڤانيليا التى تباع فى السوق الحرة وكوريا الجنوبية. ربما تكون هناك ماركات مختلفة من ڤانيليا السوق الحرة وعليك أن تكيف مجتمعك لذلك إما أسرع وإما أبطأ. ولكنك فى النهاية إذا أردت مستويات

مرتفعة للمعيشة فى عالم سقطت فيه الأسوار، فإن السوق الحرة هى البديل الأيديولوچى الموجود. أى ليس هناك سوى طريق واحد، وسرعات مختلفة. ولكنه طريق واحد.

عندما تعترف دولتك بهذه الحقيقة، وعندما تعترف بقواعد السوق الحرة فى نظام الاقتصاد العالمى هذا، وعندما تقرر الالتزام بها، فإنها تستخدم ما أطلق أنا عليه اسم «قميص القيد الذهبى». هذا القميص هو السترة التى تعرف بها حقبة العولمة هذه سياسياً واقتصادياً، كان للحرب الباردة حلة ماو تسى تونج وسترة نهرو والفراء الروسى. أما العولمة فليس لديها سوى قميص القيد الذهبى. وإذا تعذر على دولتك تكييف نفسها لتتناسب مع هذا القميص، فإنها سرعان ما تفعل ذلك.

بدأت مارجريت تاتشر فى انجلترا خياطة قميص القيد الذهبى وروّجت له ابتداء من عام 1979. وسرعان ما قام رونالد ريجان بتعزيزه فى الولايات المتحدة فى الثمانينيات، بحيث أعطى لهذا القيد ولقواعد استخدامه حجماً حقيقياً حاسماً. وأصبح موضة عالمية بنهاية الحرب الباردة، بمجرد أن أطاحت الديموقراطيات الثلاث المشار إليها آنفا بكل الموضات البديلة وبكل الأسوار التى كانت تحميها.

لقد حدثت الثورتان التاتشرية والريجانية لأن الأغلبية الشعبية فى هاتين الدولتين الكبيرتين اللتين تمثلان الاقتصاد الغربى خلصت إلى أن الأساليب القديمة التى تتولى فيها الحكومات توجيه الاقتصاد لا توفر ببساطة المعدلات الكافية للنمو. فقد عمد ريجان وتاتشر إلى اقتطاع أجزاء ضخمة من سلطة اتخاذ القرار الاقتصادى من الدولة، ومن المدافعين عن سياسة المجتمع العظيم ومن الاقتصاديات الكينزية التقليدية وتسليمها إلى السوق الحرة.

لابد للدولة، حتى يتسنى لها التكيف مع قميص القيد الذهبى، إما أن تتبنى القواعد الذهبية التالية وإما أن يراها الآخرون تتحرك تجاه ذلك: أن تجعل القطاع

الخاص المحرك الأساسى لنموها الاقتصادى، وأن تحتفظ بمعدل منخفض للتضخم وبثبات فى الأسعار، وأن تقلص من حجم بيروقراطية الدولة، وأن تعمل على الاحتفاظ بميزانية متوازنة بقدر الإمكان إن لم تحقق فائضاً، وإلغاء التعريفات الجمركية أو خفضها على البضائع المستوردة، وإزالة القيود على الاستثمارات الأجنبية، والتخلص من نظام الحصص والاحتكارات المحلية، وزيادة الصادرات، وخصخصة الصناعات والخدمات المملوكة للدولة، وتخفيف القيود المفروضة على أسواق رؤوس الأموال، وأن تجعل عملتها قابلة للتحويل، وأن تفتح صناعاتها وأسواق الأسهم والسندات فيها أمام الملكية والاستثمار الأجنبى المباشر، وتخفف سيطرة الدولة على الاقتصاد بهدف تعزيز التنافس المحلى قدر الإمكان، وتقضى على الفساد الحكومى والدعم وابتزاز أصحاب العمل للعمال قدر الإمكان، وتفتح أنظمتها المصرفية ونظم الاتصالات أمام الملكية والتنافس الخاص، وتسمح لمواطنيها بالاختيار من بين مجموعة من البدائل المتعلقة بصناديق المعاشات المتنافسة والإدارة الأجنبية للمعاشات والصناديق المشتركة. فإذا قامت الدولة بخياطة هذه الأجزاء جميعاً معاً فسوف يصبح لديها قميص القيد الذهبى .

والمؤسف أن قميص القيد الذهبى يقترب كثيراً من «الملابس ذات المقاس الواحد التى تناسب الجميع». ومن ثم فإنه يضغط جماعات معينة، ويعتصر جماعات أخرى، ويضع المجتمع تحت ضغوط من أجل تنظيم مؤسساته الاقتصادية، ويرفع من مستوى أدائها. وهو يتخلى عن الناس بسرعة لا مثيل لها إذا خلعوه عنهم، ويساعدهم أيضاً بسرعة لا مثيل لها إذا ارتدوه بالصورة السليمة. وقد لا يكون دائماً جميلاً أو رقيقاً أو مريحاً. ولكنه موجود دائماً وهو الموديل الوحيد المعروض فى هذا الموسم.

وإذا استخدمت بلادك قميص القيد الذهبى، فسوف يحدث غالباً شيئان: أن ينمو الاقتصاد فى بلادك فى حين تتقلص السياسة. ذلك إن ارتداء قميص القيد الذهبى، من الوجهة الاقتصادية، سوف يعزز غالباً استمرار النمو وارتفاع متوسط

الدخول، عن طريق زيادة التجارة والاستثمارات الأجنبية والخصخصة وزيادة كفاءة استخدام الموارد تحت ضغط التنافس العالمى. أما على الجبهة السياسية، فسوف يضيق قميص القيد الذهبى الاختيارات السياسية والاقتصادية أمام أولئك الذين يتولون السلطة، إلى أقصى حد ممكن. ولهذا السبب تتزايد صعوبة العثور على أى اختلافات حقيقية بين الأحزاب الحاكمة وأحزاب المعارضة هذه الأيام فى الدول التى ترتدى قميص القيد الذهبى. فما أن تستخدم بلادك قميص القيد الذهبى حتى تتقلص الاختيارات السياسية أمامها إلى الاختيار ما بين البيبسى أو الكوكا، أى فروق ضئيلة فى المذاق، أو فروق ضئيلة فى السياسات، أو تعديلات طفيفة فى التصميم لمراعاة التقاليد المحلية، أو للتخفيف قليلاً من حدة التحكم هنا أو هناك، ولكن أبداً لا يوجد انحراف كبير عن جوهر القواعد الذهبية. فالحكومات، سواء كانت بقيادة الديموقراطيين أم الجمهوريين، المحافظين أم العمال، الديجوليين أم الاشتراكيين، المسيحيين الديموقراطيين أم الاشتراكيين الديموقراطيين، التى تنحرف أكثر مما يجب عن جوهر هذه القواعد سوف ترى مستثمريها وهم يتدافعون هرباً منها، وسوف ترى أيضاً ارتفاع معدلات الفائدة وانخفاض تقديرات أسواق الأسهم. والطريقة الوحيدة لاكتساب حرية أكبر فى الحركة داخل قميص القيد الذهبى تتمثل فى توسيعه، والطريقة الوحيدة لتوسيعه هى الاحتفاظ به ضيقاً على الجسد. فتلك هى الفضيلة الوحيدة التى يتميز بها: كلما زاد ضيقاً وأنت ترتديه، زادت كمية الذهب التى ينتجها وزادت الحشوة التى تستطيع أن تضعها فيه لصالح مجتمعك.

ولا عجب أن الكثير من الجدل السياسى فى الدول المتقدمة قد تقلص إلى مجرد جدل حول إجراء تغييرات طفيفة فى تفصيل قميص القيد الذهبى، وليس إجراء تعديلات جذرية. فى عام 1996، كان بيل كلينتون يؤكد فى أثناء انتخابات الرئاسة ما مضمونه أنه، «بلا شك نحن نرتدى قميص القيد الذهبى، ولكن لدىّ طريقة نستطيع

بها أن نضع بعض الحشوة عند المرفقين، ونعمل على توسيع الوسط قليلاً» . أما بوب دول مرشح الحزب الجمهورى فقد قال ما معناه، كلا، كلا. لا يمكن توسيع الوسط مطلقاً. نحتفظ به ضيقاً ولكن نضع مزيداً من الحشوة عند المرفقين» . وفى الحملة الانتخابية البريطانية لعام 1997 ، تعهد تونى بلير فى حالة فوزه بما يعنى أساساً أن «القميص سوف يظل على ضيقه كما كان فى عهد المحافظين، ولكننا سنضيف بعض الحشوة للأكتاف والصدر» . فى حين بدا منافسه المحافظ جون ميجور وكأنه يرد عليه بقوله، «حذار أن تجرؤ على لمس خيط واحد من خيوط القميص، لقد صممته مارجريت تاتشر على أن يكون محكم التفصيل وهذا بحق السماء ما يجب أن يظل عليه» . ولا عجب فى أن بادى آشداون، زعيم حزب الأحرار البريطانى، نظر إلى كل من تونى بلير وجون ميجور فى أثناء الانتخابات البريطانية عام 1997 وأعلن أنه لا يوجد ذرة اختلاف بين الاثنين. لقد أعلن آشداون أن بلير وميجور «يسبحان فى توافق أو توازى» .

بسقوط أسوار الحرب الباردة وظهور قميص القيد الذهبى أستطيع أن أرى الكثير من السباحات المتوافقة عندما أجوب العالم هذه الأيام. فقبل الانتخابات الألمانية عام 1998 ، التى تمكن فيها زعيم الحزب الاشتراكى جيرهارد شرودر من هزيمة هيلموت كول زعيم الحزب المسيحى الديموقراطى، نقلت وكالة أنباء *أسوشيتد برس* عن كارل جوزيف ميبرز عضو الجمعية الألمانية للشئون الخارجية قوله عن المرشحين الألمانيين: «يمكنك أن تنسى اتجاه اليمين أو اليسار. فكلاهما يجلسان فى زورق واحد» . والكورى لى هونغ كوو تعلم بصورة مباشرة كيف يعيش المرء داخل قميص القيد الذهبى عندما شغل منصب رئيس الوزراء فى بلاده فى منتصف التسعينيات. قال لى كوو مرة موضحاً: «اعتدنا فى الأيام الخوالى على أن نقول ’لقد أملى علينا هذا أو ذاك‘ ، أما الآن فنقول إن ’قوى السوق‘ أملت علينا ذلك وأن علينا أن نتحرك فى

[إطار هذه القوى] . ولكننا لم ندرك ذلك إلا بعد مرور بعض الوقت. ولم ندرك أن النصر الذى حققته الحرب الباردة هو انتصار قوى السوق على السياسة. فالقرارات الكبرى اليوم هى ما إذا كنت ستلتزم بالديموقراطية أم لا، وما إذا كان الاقتصاد عندك سيكون مفتوحاً أم لا. فتلك هى الاختيارات الكبرى ولكن بمجرد اتخاذك لتلك الاختيارات الكبرى، سوف تصبح السياسة مجرد هندسة سياسية لتنفيذ القرارات فى إطار المساحة الضيقة المسموح لك بالتحرك فيها فى إطار هذا النظام» . لقد نشأ لى هونغ كوو فى ظل الحزب الوطنى الكبير الذى سيطر طويلاً على الحكم فى كوريا. غير أنه بعد الانصهار الاقتصادى لكوريا فى عامى 98-1997، وعندما أدركت البلاد أن عليها أن تزيد من إحكام قميص القيد الذهبى عليها حتى يتسنى لها مواصلة النمو واجتذاب الاستثمارات الأجنبية، رفض الشعب الكورى فى ازدراء السياسيين المخضرمين المتمسكين بالأسلوب القديم، وانتخب للرئاسة كيم داى يونغ الليبرالى الذى ظل فترة طويلة مدافعاً عن حقوق الإنسان وتزعم حزب المؤتمر الوطنى للسياسات الجديدة المعارض. غير أن كيم طلب من لى التوجه إلى واشنطن ليكون سفيراً لبلاده هناك على كل حال. وأخبرنى لى: «لم يكن معقولاً من قبل أن يتوجه شخص مثلى، كان مرشح حزبه للرئاسة ورئيساً سابقاً للوزراء وزعيم حزب، إلى واشنطن للعمل سفيراً من قبل زعيم حزب آخر، مثل الرئيس كيم. ولكن الآن، وبعد أن أصبح يتحتم على كوريا أن تفعل ما يجب أن تفعله للخروج من هذه الأزمة الاقتصادية، فإن الاختلافات بينى وبين السيد كيم أصبحت تافهة. فليس أمامنا خيارات كثيرة» . كيف تقول «زورق واحد» أو «سباحة متوافقة متوازية» باللغة الكورية؟

كان مانموهان سينغ يشغل منصب وزير المالية فى الهند عندما قررت بلاده، فى عام 1991 ، التخلى عن سياسات تركيز السلطة الاقتصادية شبه الاشتراكية فى يد الدولة بعد أن سارت عليها طوال عشرات السنين، وأن تضع عليها قميص القيد الذهبى. كان

جالساً فى مكتبه بالبرلمان الهندى فى صيف عام 1998 حين كان يتحدث إلىّ عن فقدان السيطرة التى أحس بها بمجرد شروع الهند فى السير فى هذا الطريق فقال: «لقد شعرنا بأن هناك مميزات فى أن تكون لنا حرية الوصول إلى أسواق رؤوس الأموال الدولية، [ولكن] قدرة الحكومة على التسليم والسيطرة كانت تتقلص كلما انفتحت على العالم؛ فعندما يعمل المرء فى إطار اقتصاد عالمى فإن مراعاتك لوجود غيرك من المشاركين فى هذا الاقتصاد تصبح أكثر أهمية ـ سواء كانوا على صواب أو على خطأ. وعندئذ يكون عليك أن تأخذ هذه المراعاة وتجعلها مدخلاً مهماً فى اتخاذ قراراتك... لقد أصبح لدينا عالم ارتبطت فيه أقدارنا، ولكن اهتمامات وآمال [الهند بالتحديد] لا تُؤخذ فى الاعتبار. وهذا يسبب كثير من القلق. ذلك أنك إذا كنت تضع سياسة لمعدل سعر الصرف أو سياسات نقدية فإن سياساتك تصبح ملحقة بما يفعله آلان جرينسبان. وذلك يقلل من درجة الحرية لديك، حتى إزاء السياسات المالية. وفى عالم أصبح فيه رأس المال متنقلاً على مستوى العالم لا تستطيع تبنى معدلات ضرائبية تختلف كثيراً عن المعدلات السائدة فى الدول الأخرى، وعندما تكون العمالة متنقلة لن تستطيع أيضاً أن تنحرف عن الخط الذى تسير عليه أجور الآخرين. لقد حد ذلك من القدرة على المناورة.... لى صديق من دولة مجاورة أصبح هو أيضاً وزيراً لماليتها. اتصلت به فى يوم توليه هذا المنصب لتهنئته فقال، 'لا تهنئنى، فإننى مجرد نصف وزير والنصف الآخر موجود فى واشنطن'».

لا ترتدى كل الدول طوال الوقت قميص القيد الذهبى ـ فبعضها يلبسه جزءاً من الطريق أو فترة قصيرة من الوقت (الهند ومصر). وبعضها يرتديه ثم يخلعه (ماليزيا وروسيا). وبعضها يسعى إلى تهيئته ليتناسب مع ثقافته الخاصة ويترك بعض أزراره مفتوحة (ألمانيا واليابان وفرنسا). وبعضها يعتقد أنه يستطيع مقاومة مضايقاته كلها لأن لديه الموارد الطبيعية مثل البترول (إيران والمملكة العربية السعودية). وبعضها شديد الفقر

والعزلة، بحيث تستطيع حكوماتها إجبار شعوبها على أن يتقبل فقره، وبحيث تستطيع الإفلات بإلباس شعوبها قميص قيد قديماً عادياً وليس قميص قيد ذهبى (كوريا الشمالية والسودان وأفغانستان).

بيد أنه بمضى الوقت يصبح من الصعوبة بمكان على الدول اجتناب ارتداء قميص القيد الذهبى هذا. وكلما أشرت إلى هذه النقطة فى محاضراتى، ولا سيما لغير الأمريكيين، يأتينى ردود فعل على النحو التالى: «لا تحاول إقناعنا بأنه يجب علينا أن نرتدى قميص القيد وأن نندمج فى أسواق عالمية. فلدينا ثقافتنا وقيمنا الخاصة بنا، وسوف نقوم بذلك بطريقتنا الخاصة وبالسرعة التى نريدها. ونظريتك فيها حتمية أكثر مما يجب. لماذا لا نجتمع جميعاً ونتفق على نموذج مختلف، وأقل تقييداً لحرية الحركة؟»

وتكون إجابتى على مثل هذا السؤال: «إننى لا أقول أنه يتحتم عليك ارتداء قميص القيد. وإذا كانت ثقافتك وتقاليدك الاجتماعية تتعارض مع القيم الكامنة فى هذا القميص، فإننى بالتأكيد أشعر بالتعاطف مع ذلك. ولكن ما أقوله هو: لقد كان نظام السوق العالمية والعالم السريع وقميص القيد الذهبى نتيجة لقوى تاريخية كبرى استطاعت بالفعل إعادة تغيير طريقة اتصالنا وطريقة استثمارنا لأموالنا وطريقة رؤيتنا للعالم بصورة جذرية. فإذا كنت تريد مقاومة هذه التغييرات، فهذا شأنك أنت. ولابد أن يكون شأنك. ولكنك إذا اعتقدت أنه باستطاعتك مقاومة التغييرات بدون دفع ثمن باهظ، أو بدون بناء سور يرتفع باستمرار، إذن فإنك تغالط نفسك».

وإليك السبب: إن ديموقراطيات التمويل والتكنولوجيا والمعلومات لم تنسف فقط جميع الأسوار التى تحمى النظم البديلة ـ بدءاً من الكتاب الأحمر الصغير لماو تسى تونغ إلى البيان الشيوعى إلى دول الرفاهية فى أوروبا الغربية إلى

الرأسمالية المتهاونة لجنوب شرقى آسيا. بل إن هذه الديموقراطيات الثلاث ولدت مصدراً جديداً للقوة فى العالم ـ وهذا ما أطلق عليه اسم « القطيع الإلكترونى».

يتكون هذا القطيع الإلكترونى من كل المتعاملين فى تجارة الأسهم والسندات والعملة غير المحددة ملامحهم الجالسين أمام شاشات الكمبيوتر فى أنحاء المعمورة، ينتقلون بأموالهم هنا وهناك بمجرد النقر على الماوس من الصناديق المشتركة إلى صناديق المعاشات إلى صناديق الأسواق الناهضة، أو الذين يجرون معاملاتهم التجارية عبر الإنترنت من بدرومات منازلهم. ويتكون أيضاً هذا القطيع من الشركات متعددة الجنسية الكبرى التى تنشر مصانعها الآن فى أنحاء العالم، وتنقلها بصفة مستمرة إلى الدول المنتجة الأكثر كفاءة والأقل تكلفة.

لقد تنامى حجم هذا القطيع بصورة قياسية بفضل ديموقراطيات التمويل والتكنولوجيا والمعلومات ـ بحيث بدأ يحل اليوم محل الحكومات باعتباره المصدر الأول لرأس المال اللازم لنمو الدول والشركات على السواء. وأصبح يتعين على أى دولة تسعى إلى تحقيق الازدهار فى نظام العولمة اليوم لا مجرد ارتداء قميص القيد الذهبى، وإنما يتعين عليها أيضاً أن تلتحم مع هذا القطيع الإلكترونى. هذا القطيع الإلكترونى يحب قميص القيد الذهبى؛ لأنه يجسد كل قواعد السوق الحرة الليبرالية التى يرغب هذا القطيع أن يراها موجودة فى دولة ما. وتلك الدول التى ترتدى قميص القيد الذهبى ولا تخلعه عنها تحصل على مكافأتها من هذا القطيع بتوفير رأس المال اللازم لنموها. أما تلك الدول التى لا ترتديه فإن هذا القطيع يعاقبها ـ إما أن يجتنبها القطيع وإما أن يسحب أمواله من هذه الدولة.

تعتبر وكالتا موديز إنفيستورز سيرفيس وستاندارد وبورز بمثابة كلبى المطاردة بالنسبة للقطيع الإلكترونى. ذلك إن هاتين الوكالتين، لتحديد وضع الدول الائتمانى، تجوبان سراً أنحاء العالم تكتشفان بالشم أحوال الدول باستمرار. ومن المفترض أنهما

تنبحان بصوت عال عندما تشعران بأن دولة ما تخلع عنها بهدوء قميص القيد الذهبى، (وذلك برغم أن وكالتى موديز وستاندارد وپورز تفقدان أحياناً أثر الرائحة أو يحاصرهما خضم تسارع الأحداث، مثلما حدث فى جنوب شرقى آسيا ولا تنبحان إلا بعد فوات الأوان).

هذا التفاعل بين القطيع الإلكترونى والدول الأم وقميص القيد الذهبى، هو جوهر نظام العولمة الحالى. ولقد أدركت ذلك لأول مرة فى فبراير عام 1995، عشية أول زيارة يقوم بها الرئيس كلينتون لكندا. وكنت فى ذلك الوقت أغطى أخبار البيت الأبيض، وكنت أتابع، استعداداً لرحلة الرئيس، المقالات المنشورة فى صحيفة ***فاينانشيال تايمز*** وغيرها من الصحف لمعرفة ما يشغل بال الكنديين قبل أول زيارة لهم من «الرجل القادم من الأمل». ولقد حيرنى أننى لم أجدهم يتحدثون عن زيارة رئيس الولايات المتحدة على الإطلاق. وكانوا بدلاً من ذلك منشغلين بزيارة قام بها من فوره «الرجل القادم من موديز». وكان البرلمان الكندى يناقش فى ذلك الوقت ميزانية البلاد. وكان قد وصل على التو إلى أوتاوا فريق من وكالة موديز وقرأ على وزير المالية الكندى وأعضاء البرلمان مرسوم الشغب. فقد أبلغهم فريق وكالة موديز أنهم إذا لم يصححوا من معدل العجز مقابل إجمالى الناتج المحلى ليتماشى مع المعايير والتوقعات الدولية، فسوف تهبط وكالة موديز بتصنيف ائتمانهم الحاصل على ثلاث درجات A، ومن ثم فإنه سوف يتعين على كندا وكل شركة كندية دفع معدلات فائدة أعلى للاقتراض من الخارج. وحتى يتسنى لوزير مالية كندا تجاوز هذه النقطة فقد أصدر بياناً أعلن فيه: «إن ضخامة حجم الدين الخارجى لكندا مقارنة بحجم اقتصادها يعنى فى حد ذاته أن كندا أصبحت سريعة التأثر بالانفعالات الملتهبة للأسواق المالية العالمية..لقد تكبدنا خسارة ملموسة فى سيادتنا الاقتصادية». وبالنسبة لأولئك الكنديين الذين قد لايدركون ما وصلت إليه الأمور فقد قالها لهم وزير المالية پول مارتين بصراحة أكبر، «لقد أصبحنا رهائن حتى مقلة أعيننا». كلا، لم يكن الكنديون يعيرون «الرجل القادم

من الأمل» أدنى انتباه. لقد كان ذلك «الرجل القادم من موديز» ، والقطيع الإلكترونى هم كل ما يستحوذ على الاهتمام.

فمن أين أتى هذا القطيع، وكيف أصبح قوة كبرى على هذا النحو بحيث يستطيع أن يرعب أو يثرى الدول الأمم وكأنه قوة عظمى تماماً؟

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل السادس

القطيع الإلكترونى

فى سبتمبر1997 ، استغل دكتور مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا اجتماع البنك الدولى فى هونج كونج فى التنديد بشرور العولمة، بعد الهجوم الشرس الذى تعرضت له الأسهم والعملة الماليزية من جانب المستثمرين العالميين والمحليين. وشن مهاتير هجوماً عنيفاً على «الأغبياء» الذين يتاجرون فى العملات، واتهم «القوى العظمى» والممولين مثل جورج سوروس بإجبار الآسيويين على فتح أسواقهم الداخلية أمام المضاربين الأجانب واستخدام عملاتهم فى تدميرهم كمنافسين لهم. وشبه عواصم المال العالمية فى يومنا هذا بأنها «غابة من الوحوش الضارية»، وألمح إلى أن المتآمرين اليهود هم الذين يوجهونها. وقد حاولت، وأنا أستمع إليه أن أتخيل ما قد يقوله روبرت روبين وزير الخزانة الأمريكى الذى كان من بين الحضور للزعيم الماليزى لو أتيحت له فرصة الإفصاح عما يدور فى ذهنه. وأظن أنه ربما كان سيقول له ما يلى:

«آه، اسمح لى، مهاتير، لكن ما هو الكوكب الذى تعيش فوقه؟ إنك تتحدث عن المشاركة فى العولمة وكأن لديك حرية الاختيار. إن العولمة ليست اختياراً. إنها حقيقة اليوم. لا يوجد سوى سوق عالمية واحدة الآن، والطريقة الوحيدة التى تستطيع أن تنمو بها بالسرعة التى يريدها شعبك هى بالانفتاح على أسواق الأسهم والسندات العالمية، وبالسعى إلى الشركات متعددة الجنسية لكى تستثمر فى بلادك، وببيع ما

تنتجه مصانعك وفقاً لنظام التبادل التجارى العالمى. كما أن أكثر الحقائق أهمية إزاء العولمة هى: ليس هناك من يتحمل المسئولية - لا جورج سوروس، ولا «القوى العظمى» ولا أنا. فأنا لم أبدأ العولمة. ولا أستطيع إيقافها ولا أنت أيضاً - إلا بثمن باهظ يدفعه مجتمعك وفرصه للنمو. إنك ما تفتأ تبحث عمن تشكو إليه، عمن يخفف من حدة ما تتعرض له أسواقك، عمن تلقى عليه باللوم. حسناً، أتدرى، يا ماهاتير أنه لا يوجد هناك من يستمع إليك على الطرف الآخر من الهاتف! أعلم أن ذلك يصعب تقبله. إنه أشبه بأن تقول للناس إنه لا يوجد إله. إننا نود جميعاً أن نؤمن بأن هناك من بيده الأمر ويتحمل المسئولية. ولكن السوق العالمية اليوم قطيع إلكترونى من المستثمرين متعددى الجنسية ومجهولى الهوية فى الأسهم والسندات والعملة، المتصلين ببعضهم بعض بالشاشات والشبكات. أيضاً، لا تمثل علىّ الغباء يا مهاتير. فنحن جميعاً نعلم أن البنك المركزى عندك خسر ثلاثة مليارات دولار فى المضاربة على الجنيه الاسترلينى فى أوائل التسعينيات - لذلك لا تتظاهر أمامى بالبراءة. فالقطيع الإلكترونى لا يعبأ بضعف أى إنسان. أى إنسان. ولا يعترف بالظروف الخاصة لأى إنسان. ولا يعرف هذا القطيع سوى القواعد الخاصة به. ولكن قواعد هذا القطيع ثابتة إلى حد بعيد - فهى قوانين قميص القيد الذهبى. إن مراعى القطيع الآن باتساع 180 دولة، يامهاتير، ومن ثم فإن وقته لا يسمح بأن ينظر إليك بالتحديد طوال الوقت. والقطيع يتخذ أحكاماً خاطفة عما إذا كنت تسير وفقاً لقواعده، وهو يكافئ بسخاء شديد تلك الدول التى تتمتع بالشفافية إزاء ما يجرى فيها. والقطيع يكره المفاجآت. وقد ظلت ماليزيا لسنوات تسير وفقاً لهذه القواعد كما يبدو، واجتذبت أموالاً طائلة كاستثمارات مباشرة واستثمارات محافظ أوراق مالية، مكنتك من رفع دخل الفرد لديك من 350 دولار إلى 5,000 دولار فى السنة فى غضون عشرين سنة. ولكن عندما بدأت فى كسر القواعد بالإفراط فى الاقتراض ثم بالإفراط فى البناء، باعك

القطيع. هل أنت حقيقة بحاجة إلى بناء أعلى برجين إداريين فى العالم؟ هل استطعت تأجير حتى نصف مكاتبهما؟ كلا، على حد علمي. ولذلك فقد وضعك القطيع تحت أقدامه وهو يفر مذعوراً وتركك مثل المصاب فى حادثة طريق. لقد انخفض مؤشر أسعار أسهمك KLCI، النظير لمؤشر داو جونز بنسبة 48 فى المائة فى عام 1997، وانخفضت أسعار عملتك إلى أدنى سعر لها منذ ستة وعشرين عاماً. ولكن عندما يحدث ذلك فلا تطلب الرحمة من القطيع. ولا تندد بالقطيع وتقول أنها «'مؤامرة يهودية' ولكن عليك فقط أن تنهض وتزيح الأتربة عن ملابسك، وترتدى قميص القيد الذهبى أضيق قليلاً وتعود مرة أخرى إلى أحضان القطيع. بلا شك إن ذلك ليس عدلاً. فقد استدرجك القطيع بصورة ما إلى هذه المشكلة: فقد ظل يوفر لك كل النقود الرخيصة وأنت تأخذها وبعدها أفرطت فى بناء السدود وفى توسعة مصانعك وفى إقامة أبراجك الإدارية. وذلك هو ما أثار الذعر حقيقة يا مهاتير: والقطيع ليس معصوماً من الخطأ. فهو يرتكب أيضاً أخطاء. إنه يبالغ فى الثواب ويبالغ فى العقاب. غير أنه إذا كانت أساسياتك بالدرجة الأولى سليمة فسوف يدرك القطيع ذلك ويعود إليك. فالقطيع لا يتصرف بغباء لفترة طويلة؛ فهو يستجيب فى نهاية الأمر لسلامة الحكم وسلامة الإدارة الاقتصادية. انظر، لقد واجهت أمريكا تذبذبات مماثلة عندما كانت سوقاً ناهضة، بفعل الإخفاقات والازدهارات فى خطوط السكك الحديدية عندنا. ما عليك إذن سوى إدارة هذه التذبذبات بحكمة وأن تبنى قدر ما تستطيع من ممتصات الصدمات. إننى أرصد حركات القطيع على شاشة بلومبرج الملاصقة لمكتبى. إن نظم الحكم الديموقراطية تصوّت على سياسات الحكومة مرة كل عامين أو أربعة أعوام. ولكن القطيع الإلكترونى يصوّت فى كل دقيقة فى كل ساعة فى كل يوم. فى أى وقت تريد أن تعرف، يقول لك القطيع بدقة كيف تبدو فى قميص القيد الذهبى وما إذا كان يناسب مقاسك أم لا. أعلم أنك تظن أننى وزير

الخزانة الأمريكى القوى باستمرار. ولكننى أعيش مثلك تماماً يا مهاتير ـ أعيش فى رعب من القطيع الإلكترونى. إن هؤلاء الأغبياء فى وسائل الإعلام ما فتئوا يضعون صورتى على الصفحات الأولى، وكأن الأمر بيدى حقيقة، فى حين تجدنى جالساً هنا خائفاً من أنه إذا رفض الكونجرس عندنا منح الرئيس سلطة التوسع فى التجارة الحرة، أو تجاوز الحد الأعلى للميزانية، فسوف ينقلب القطيع ضدى ويسحق الدولار، ومؤشر داو جونز. ولذلك فدعنى أفضى إليك بسر صغير، يا مهاتير ـ ولكن لا تكشفه لأحد غيرك. إننى لم أعد أحتفظ بتليفون فى مكتبى لأننى أدرى أكثر من غيرى بأنه «لا أحد هناك يسمعنى على الطرف الآخر من الخط».

سواء أعجبك هذا أم لا، فإن ما يقوله وزير الخزانة الذى تخيلته هو الحقيقة. ذلك أن الدول لا تستطيع أن تحقق الازدهار فى عالم اليوم ما لم تلتحم بالقطيع الإلكترونى، ولن يكتب لها البقاء ما لم تتعلم كيف تحصل على أفضل ما يمكن من هذا القطيع بدون أن تنسحق تحت أقدامه أو تصدمها اندفاعاته العارمة المحتومة. القطيع الإلكترونى يشبه تماماً سلكاً كهربائياً يمر به تيار ذو فولت مرتفع يصل إلى داخل بيتك. فى الأوقات العادية يمكن أن يدفئك، ويضئ لك المنزل، ويوفر لك الكثير من احتياجاتك من الطاقة. ولكن إذا لم يكن لديك منظم التيار الكهربائى السليم والأدوات الواقية من الاندفاع العارم، ثم حدث اندفاع عارم أو هبوط مفاجئ، فقد يصعقك، أو يقليك حتى تصبح هشاً ويتركك جثة هامدة.

يتكون القطيع الإلكترونى فى يومنا هذا من مجموعتين رئيسيتين: مجموعة منها أطلق عليها اسم «الماشية قصيرة القرون». وتضم هذه المجموعة كل من يشارك فى عمليات بيع وشراء الأسهم والسندات والعملات فى أنحاء العالم، وهم يستطيعون دائماً الانتقال بأموالهم هنا وهناك على أساس المدى القصير جداً. إذن فالماشية قصيرة

القرون هم المتعاملون فى العملة، والصناديق المشتركة وصناديق المعاشات الرئيسية، وصناديق الحماية، وشركات التأمين، وغرف التجارة المصرفية والمستثمرون الأفراد. وهم يشملون الجميع، بدءاً من شركات مثل ميريل لينش إلى بنوك مثل كريديه سويس أو فوچى بانك إلى موقع شبكة تشارلس شواب، بحيث يستطيع أى إنسان لديه كمبيوتر شخصى ومودم إجراء معاملات مالية عبر الاتصال المباشر وهو جالس فى حجرة المعيشة.

أما المجموعة الأخرى فإننى أطلق عليها اسم «الماشية طويلة القرن». وتلك هى الشركات متعددة الجنسية ـ مثل شركات جنرال إلكتريك، أو جنرال موتورز، أو آى بى إم ، أو إنتل، أو سيمنز ـ التى يتزايد اشتراكها فى الاستثمارات الأجنبية المباشرة، أو بناء المصانع حول العالم، أو إبرام صفقات أو تحالفات إنتاجية طويلة المدى مع مصانع حول العالم لصنع منتجاتها أو تجميعها. وأنا أسميها الماشية طويلة القرون، لأن عليها تقديم التزامات طويلة المدى عند ما تستثمر فى دولة ما. ولكنها مع ذلك أصبحت اليوم تتحرك دخولاً وخروجاً مثل القطيع بسرعة تثير الدهشة.

ولئن كان القطيع الإلكترونى قد ولد وترعرع فى حقبة الحرب الباردة إلا أن أعضاءه لا يستطيعون فقط تجميع العدد اللازم أو تحقيق السرعة الحاسمة أو إحداث التأثير المطلوب فى الدول ذات النظم المفرطة فى التحكم أو التى تحيط نفسها بالأسوار. فقد كانت معظم الدول تأخذ بسياسات التحكم فى رؤوس الأموال (حتى السبعينيات على الأقل)، ولذلك لم يكن رأس المال يستطيع الانتقال عبر حدود الدول كما هو الحال فى نظام العولمة لأيامنا هذه. وزاد ذلك من صعوبة تجميع قطيع عالمى معاً. ففى الاقتصادات المغلقة نسبياً التى كانت سائدة فى نظام الحرب الباردة فى الفترة التى سبقت السبعينيات، كانت السياسات النقدية الخاصة بكل دولة تتحكم تماماً فى وضع معدلات الفائدة الخاصة بها وكانت السياسات المالية الخاصة بأى حكومة هى إلى حد

بعيد الأداة المسيطرة لحفز النمو. كذلك كان باستطاعة حكومتى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، فى أثناء الحرب الباردة، ببساطة تبرير ارتفاع الضرائب اللازمة للسياسات المالية بالتعلل بالحرب الباردة: «نحن نحتاج إلى أموال الضرائب لمحاربة العدو، والوصول بالإنسان إلى القمر، وبناء شبكة من الطرق السريعة حتى نتمكن من تحريك جيشنا هنا وهناك بسرعة أكبر». وفى الوقت نفسه، كان من الممكن أن تتخبط دول نامية كثيرة فى طريقها باستنزاف واحدة من القوى العظمى ـ وبالتحديد، الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى أو الصين ـ أو مؤسسات الإقراض الدولية ـ لتمويل بناء سد أو دعم جيش أو مد طريق سريع. ونظراً لأن مواطنى هذه الدول النامية لم يكونوا على درجة الوعى التى هم عليها الآن إزاء الحياة التى يعيشها الآخرون فى العالم، فقد كانوا على استعداد لتحمل مستويات المعيشة المنخفضة المترتبة على الاقتصاد المنغلق إلى حد ما.

غير أنه مع التخلى تدريجياً عن التحكم فى رأس المال فى السبعينيات، ووجود ديموقراطيات التمويل والتكنولوجيا والمعلومات، وانتهاء نظام الحرب الباردة، وسقوط الأسوار فى كل مكان، ظهر إلى الوجود فجأة سهل عالمى هائل يستطيع قطيع المستثمرين من كثير من الدول المختلفة التجول فيه بحرية. وفى هذا السهل المنبسط والمفتوح على مصراعيه، الذى اتسع فيما بعد ليصبح السايبر سبيس (الفضاء المعلوماتى) استطاع القطيع الإلكترونى حقيقة أن يرعى وينمو ويتضاعف عدده، وأن يتجمع فى نهاية الأمر ليصبح أسواق سوبر ماركت قوية الشكيمة.

تتمثل أسواق السوبر ماركت تلك فى الأسواق الضخمة فى طوكيو، وفرانكفورت، وسيدنى، وسنغافورة، وشنغهاى، وهونج كونج، وبومباى، وساو باولو، وباريس، وزيورخ، وشيكاجو، ولندن، وول ستريت. إنها توجد أينما وجد تجمع لأكبر عدد من أعضاء القطيع الإلكترونى معاً، حيث يتبادلون المعلومات، وينفذون عملياتهم

التجارية، ويصدرون الأسهم والسندات للشركات المختلفة حتى يتغذى عليها القطيع. تقول ساسكيا ساسين خبيرة العولمة فى جامعة شيكاجو إنه بنهاية عام 1997 كان هناك خمس وعشرون سوقاً من أسواق السوبر ماركت تسيطر على 83 فى المائة من الأسهم العالمية الخاضعة لإدارة مؤسسية وتستأثر بنصف رؤوس الأموال العالمية تقريباً ـ أى نحو 20.9 تريليون دولار (مجلة *فورين أفيرز*، يناير1999).

لقد أصبح القطيع الإلكترونى ـ وأسواق السوبر ماركت حيث يتجمع ليعمل ويتكاثر ـ ممثلين دوليين مهمين فى نظام العولمة. ولئن كان القطيع لا يستطيع شن حرب أو غزو دولة ما، مثل الدول الأمم، إلا أنه قادر على تشكيل سلوك الدول الأمم فى مناطق كثيرة. وهذا هو سبب اعتقادى بأنه على حين كان نظام الحرب الباردة نظاماً قائماً على التوازن بين الدول، فإن نظام العولمة نظام قائم على توازن بين دول ودول، وبين الدول والقطيع الإلكترونى وأسواق السوبر ماركت.

منذ اختراع الكابل الذى يعبر الأطلنطى فى حقبة العولمة التى سبقت الحرب العالمية الأولى، بدأ ظهور نوع ما من القطيع الإلكترونى، ولكنه لم يكن طوال نظام الحرب الباردة بمثل أهميته فى يومنا هذا. ولا يختلف الجديد، فيما يتعلق بقطيع اليوم كثيراً فى أهميته من حيث النوع قدر اختلافه من حيث الدرجة. فبسبب العولمة أصبح القطيع الإلكترونى فى يومنا هذا ـ سواء كان الماشية قصيرة أو الماشية طويلة القرون ـ يجمع ما بين الحجم والسرعة والتنوع بدرجة لم تحدث من قبل على مر التاريخ. إن الفأر له ذيل مثلما أن للتيرانوصور ركس ذيل. وكلاهما يسمى «ذيل»، ولكن عندما يهز أحدهما ذيله يكون له تأثير على العالم حوله مختلف تماماً عن الآخر. لقد كان القطيع الإلكترونى فى الحقبة الأولى من العولمة أشبه بذيل الفأر. أما القطيع الإلكترونى الآن فهو أشبه بذيل التيرانوصور ركس، وعندما يهزّ زيله يعيد تشكيل العالم من حوله بعدة طرق أساسية. ويوضح هذا الفصل من الكتاب كيف أن هذا القطيع أصبح

مصدراً لا يمكن مقاومته للنمو الاقتصادى فى يومنا هذا، وهو فى الوقت نفسه قوة مرعبة إلى حد أنه يستطيع إسقاط الحكومات عندما يهتز.

الماشية قصيرة القرون

إن أول ما يخطر ببال المرء اليوم إزاء الماشية قصيرة القرون هو ذلك التنوع المذهل للمنتجات المالية التى يستطيع الآن أن يقتات عليها. ذلك أن وفرة الأسهم والسندات، والسلع، والعقود المستقبلية، والخيارات، والاشتقاقات المقدمة من عشرات من الدول والأسواق المختلفة حول العالم يعنى أن المرء يستطيع المضاربة على أى شئ تقريباً اليوم. حقاً، إننى عندما أنظر إلى حقيبة القوت المعروضة الآن على القطيع الإلكترونى، أتذكر دائماً مشهداً من مسرحية ***رجال وعرائس*** الذى يريد فيه ناثان ديترويت مراهنة سكاى ماسترسون حول ما إذا كانت ميندى تبيع من فطيرة الجبن أكثر مما تبيع من فطيرة الستردل. ويمضى الحوار بينهما كما يلى:

ناثان ديترويت: «إننى متشوق أن أسمع منك. قل لى ارتجالاً، هل تبيع ميندى من فطيرة الجبن أكثر مما تبيع من فطيرة الستردل؟»

يقول سكاى إنه بناء على ما يفضله هو نفسه فإنه يعتقد أن ميندى تبيع من فطيرة الجبن أكثر مما تبيع من فطيرة الستردل. وما دار بينهما بعد ذلك عبارة عن حوار فكاهى حول الرهان الذى يريد سكاى أن يراهن عليه ناثان بتفوق فطيرة الجبن على فطيرة الستردل، وكان ناثان قد سأل بالفعل فى المطبخ وعلم أن فطيرة الستردل تبيع أكثر من فطيرة الجبن، ومحاولة ناثان استدراج سكاى فى أن يراهن بأمواله على ما تفضله معدته. الآن، لدينا سكاى ماسترسون ذلك الرجل الذى يهوى المراهنة. وفى الأحوال العادية فإنه قد يراهن على فطيرة الجبن بأسرع مما يراهن المتعاملون فى أسهم سالومون براذرز على معدل الفائدة. ولكن سكاى يشتم رائحة خديعة. ذلك أن ناثان

يبدى شغفاً مبالغاً فيه بأن يزيد الرهان إلى 1,000 دولار. وهكذا فإن سكاى بدلاً من أن يبتلع الطعم، فإنه يقدم له النصيحة التالية: «ناثان، دعنى أحكِ لك قصة. فى اليوم الذى رحلت فيه عن المنزل حتى أشق طريقى بنفسى ، انتحى بى أبى جانباً وقال، 'ولدى، آسف لأننى لا أستطيع أن أقدم لك شيئاً من المال يساعدك على شق طريقك، لذلك فإننى سوف أقدم لك نصيحة غالية جداً. سوف يصادفك فى يوم ما رجل يظهر لك مجموعة أوراق كوتشينة جديدة. وسوف يراهنك على أنه يستطيع أن يجعل ولد الكوتشينة يقفز إلى خارج هذه المجموعة ليصب عصير الفاكهة فى أذنك. ولكن يا ولدى، لا توافق على هذا الرهان، فإنه رغم ثقتك التامة فى فوزك بالرهان إلا أن الأمر سينتهى بك وأذنك مليئة بعصير الفاكهة' . والآن ياناثان، إننى لا أزعم بذلك أنك كنت تراقب فطائر الجبن التى تبيعها ميندى....»

ناثان: « وهل يمكن أن أقوم أنا بمثل هذا العمل؟»

سكاى (يضع يده فوق رباط عنق ناثان المعقود حول رقبته) ويقول، «على أية حال، إذا كنت تريد بعض الإثارة حقيقة فإننى سوف أراهنك بنفسى بمبلغ الألف دولار على أنك لن تستطيع تحديد لون رباط عنقك. أتراهننى؟»

ناثان: «كلا لا رهان».

وبعد أن يلقى ناثان نظرة على رباط عنقه يصرخ متعجباً «قماش منقط! يا إلهى لا يوجد إنسان فى العالم يضيع رهاناً بألف دولار على قماش منقط إلا ناثان ديترويت!»

حسناً، لو كان ناثان وسكاى موجودين فى يومنا هذا، لكان هناك ثمة نوع من السندات التى يمكن أن يقوما بشرائها بناء على المبيعات من كلتا فطيرتى الجبن والستردل عند ميندى. وربما كان هناك أيضاً نوع من الأداة المالية التى تعدلت وفقاً

لرغبات الزبون يستطيعان شراءها لتأمين رهانهما، سواء كانا سيراهنان على الستردل أو فطيرة الجبن أو القماش المنقط. ذلك أنه نظراً لوجود ديموقراطية التمويل، وثورة تحويل كل شئ إلى سندات، فقد أصبح من الممكن اليوم تحويل كل شئ تقريباً إلى سندات. بل إنك تستطيع إصدار سندات على نفسك وما تتمتع به من مواهب فريدة، مثلما فعل المغنى ديفيد باوى. فقد تمكن من جمع 55 مليون دولار على صورة سندات باوى فى عام 1997، تدعمها أرباحه المتوقعة، وقد لخصت صحيفة ***نيويورك تايمز*** الأمر كله فى عنوان كبير هو: «أنت أيضاً يمكن أن يكون معدلك AAA».

صديقتى ليزلى جولدواسر، وهى من كبار المتعاملين فى الأسهم فى وول ستريت، خبيرة فى تحويل الأفلام التى لم تنتج بعد إلى سندات. وقد شرحت ذلك على النحو التالى: هب أنك شركة رهنيات عقارية مقرها مينيابوليس وأن لديك رهنيات عقارية لمائة منزل فى السوق المحلية. هذه الرهنيات العقارية لمائة منزل تتضمن نفقات لشركة الرهنيات العقارية تبلغ 100 مليون دولار وتجلب مليون دولار شهرياً على صورة أقساط سداد رأس المال الأصلى وفوائده. وتستطيع هذه الشركة للرهنيات العقارية جمع كل رهنياتها معاً ثم تصدرها سندات تستطيع أنت أو أنا شراءها بسعر 1,000 دولار للسند. وتتمثل الميزة التى ستحصل عليها شركة الرهنيات العقارية فى أنها تستطيع استعادة أموالها التى تبلغ قيمتها 100 مليون دولار على الفور، بدون أن يكون عليها الانتظار إلى أن يسدد كل هؤلاء الناس رهنياتهم على مدى ثلاثين عاماً. أما الميزة التى سيحصل عليها حملة السندات فتتمثل فى أن أموالهم سددت لهم من التدفق النقدى لسداد أقساط رأس المال الأصلى وفوائده التى تأتى كل شهر، وسيكون معدل الفائدة أعلى بعدة نقاط مما قد تدفعه أسواق المال أو حسابات الادخار. وعلاوة على ذلك، فإن ضمان أموالهم يتمثل فى العقارات الفعلية، ونظراً لأن كل مجموعة

من العقارات تتضمن عدة مئات من المنازل، فإنه حتى إذا حدث تخلف طفيف فى السداد فالأرجح أن معظم الآخرين سيسددون قروضهم وفقاً لذلك. حسناً، لقد خلص الناس إلى أنه ما دام من الممكن تجميع أموال الرهنيات العقارية معاً فما الذى يمنع من تجميع أموال أفلام هوليود السينمائية معاً، حتى تلك الأفلام التى لم تصنع بعد. هب أنك شركة سينمائية وليس لديك أى تصنيف ائتمانى. إن كل ما سيفعله البنك الاستثمارى الذى أتعامل معه هو تجميع عشرة من أفكار أفلامك السينمائية. ولا يهم حتى إذا كانت قد وصلت إلى مرحلة الإنتاج، بل مجرد مشروع للإنتاج. إننا سوف نجرى حينئذ عملية تحليل إحصائى لكيفية أداء عشرة من هذه الأفلام بعد إنتاجها، استناداً على سوابق تاريخية: سوف يحرز واحد منها نجاحاً منقطع النظير، وسيحقق آخر نجاحاً كبيراً، واثنان منها سيحققان نجاحاً محدوداً، واثنان سوف يتراوح نجاحهما ما بين الارتفاع والانخفاض، وأربعة سوف تخرج دون ربح أو خسارة. وسوف نتوصل، بناء على هذا التحليل للاحتمالات، إلى حجم الأموال التى ستجنيها على مدى خمس سنوات. هب أننا قلنا إن هذه الأفلام سوف تتكلف 500 مليون دولار وسوف تدر جميعاً 600 مليون دولار. إذن فسوف نفاتح شركتك السينمائية بتقديم 400 مليون دولار بمعدل فائدة مساوٍ لهذا المبلغ مسحوبة على سندات الخزانة لمدة ثلاث سنوات، بالإضافة إلى نقطة مئوية أو نقطتين. إذن سيكون على شركتك السينمائية أن تدبر بمعرفتها مبلغ المائة مليون دولار المتبقية من تكاليف الإنتاج. ثم نأخذ بعد ذلك الأربعمائة مليون دولار التى قدمناها قرضاً لشركتك السينمائية ونفتتها إلى سندات، قيمة كل منها 1,000 دولار نستطيع أنا وأنت شراءها. وسوف تسدد أقساط المبلغ الأصلى لهذه السندات وفوائدها من المبالغ التى تدرّها الأفلام تباعاً. وسرعان ما تحصل شركتك السينمائية ، التى لا تمتلك سوى رأسمال ضئيل وليس لها تصنيف ائتمانى، على الأموال التى تحتاجها فى صناعة أفلامك والتى كان يستحيل عليك

الحصول عليها من البنوك، وسوف تشترى أنت كمستثمر جزءاً منها وتحقق عائداً يزيد قليلاً عما تحصل عليه عادة من البنك. تلك إذن العملية. فما دام ما تقوم به أو تصنعه أو تؤديه يجلب تدفقاً نقدياً يمكن التنبوء به من الناحية الإحصائية على مدى فترة زمنية فإننا نستطيع تحويله إلى سندات».

لا يهم بعد ذلك إذا كان ذلك مبيعات فطيرة الجبن عند ميندى، أو رهنيات عقارية، أو متحصلات من بطاقات ائتمانية، أو ديون معدومة أو قروض السيارات، أو قروض تجارية، أو إعادة صنع فيلم ***تايتانيك***، أو ديون شركات برازيلية، أو سندات خزانة الحكومة اللبنانية، أو تمويل لشركة جنرال موتورز، أو تدفق دخل نجم الروك ديفيد باوى. وكلما زادت القيود التى تفرضها الدول على الحصول على رأس المال، أصبح باستطاعة أى إنسان عرض أى شئ للبيع على صورة أسهم أو سندات أو مشتقاتهما. إن هذه الخطوة التى يتحول فيها كل شئ إلى أوراق مالية، «غيرت جذرياً من طبيعة الأسواق الائتمانية» حسبما يقول هنرى كاوفمان الاقتصادى المخضرم فى وول ستريت. ومن السهل معرفة السبب. ففيما مضى، لم يعرض للبيع فى سوق مفتوحة الرهن العقارى لوالديك، أو قرض شراء السيارة، أو ديون البطاقات الائتمانية أو سياسات التأمين على الحياة أو حتى القروض التى تحصل عليها حكومة البرازيل من البنك الذى يتعامل معه والداك. بل كانت تسجل فى حسابات البنك الذى يتعامل معه والداك أو فى حسابات شركات التأمين على الحياة بقيمتها الأساسية، وكانت هذه المؤسسات عادة تحتفظ بها كأصول إلى أن تبلغ تاريخ الاستحقاق. ولكن مع مرور سنوات الثمانينيات وما حدث فيها من تحويل كل شئ إلى أوراق مالية، وتجميعها معاً ثم بيعها كسندات لك ولى ولخالتى بيف، أصبح من الممكن تبادلها، وتذبذب أسعارها صعوداً وهبوطاً كل يوم فى الأسواق ـ استناداً إلى الأداء الذى تبدو عليه هذه السندات، واستناداً إلى الظروف الاقتصادية العامة، واستناداً إلى معدلات عائدها مقارنة

بغيرها من الأصول. ويضيف كاوفمان أن النتيجة النهائية هى أن تحويل كل شىء إلى أوراق مالية فتح الطريق بالفعل أمام أصول تصل قيمتها إلى تريليونات الدولارات ـ التى إما أنها لم تكن تعرض للتبادل من قبل وإما أن أحداً من قبل لم يحلم بتحويلها إلى سندات ـ «الشئ الذى أدى إلى ظروف تغيّر من طبيعة الأسواق تثير العجب العجاب». وقد أدى ذلك كله إلى إحداث تنوع مذهل فى الأسواق، وهذا التنوع وفّر للقطيع الإلكترونى الكثير من الأشياء التى يقتات عليها ولم يشهدها من قبل، وأضاف عنصراً للتذبذب فى أسعار الأصول التى لم يكن يجرى تبادلها من قبل قط.

إن أفضل من يخبرك عن الحقيقة فى هذا الصدد هم الثيران قادة القطيع الإلكترونى. فهم لا ينسون كيف كان حال الرعى أيام الأسوار التى كانت مقامة إبان حقبة الحرب الباردة. فى عام 1998 قال لى ليون كوبرمان المدير السابق للبحوث فى شركة جولدمان زاكس، والمدير الحالى لصندوق الحماية فى شركته الخاصة، أوميجا أدفايزورز: «طوال فترة عملى فى شركة جولدمان زاكس ـ من 1967 إلى 1991 ـ لم أمتلك قط سهماً أجنبياً أو نصيباً فى سوق ناهضة أجنبية. والآن أصبح لدى مئات الملايين من الدولارات فى روسيا والبرازيل والأرجنتين وشيلى، ويشغل بالى دائماً سعر الدولار مقابل الين اليابانى. وفى كل ليلة وقبل ذهابى للنوم. أجرى اتصالاً لمعرفة سعر الدولار مقابل الين ومعرفة أوضاع مؤشر نيكى ومؤشر هانج سينج. فلدينا مضاربات فى كل هذه الأسواق. وفى هذه اللحظة بالذات هناك پول (مشيراً إلى أحد المتعاملين وهو ينظر فى جهاز يحمله فى يده يقدم له الأسعار الفعلية لكل مؤشرات الأسهم والسندات) يتقصى أخبار الدولار الكندى. فلدينا مضاربات فى أنحاء العالم، وكنت قبل عشرين عاماً لا يشغل بالى شئ من هذا. أما الآن فلا بد من الانشغال بكل هذه الأشياء».

ثم يجذب كوبرمان بعد ذلك نسخة من صحيفة *وول ستريت جورنال* لذلك اليوم ويبدأ فى البحث عن المضاربات التى يمكن أن يقوم بها: «دعنا ننظر هنا .... دولارات اليورو، سندات الخزانة الأمريكية، الجنيه الاسترلينى، فول الصويا، زيت التدفئة، النفط الخفيف، سندات سنغافورة، سندات فنزويلا، ناسداق 100 ، مؤشر اليابان، مؤشر داو جونز، الصناديق المشتركة، صناديق الخدمات، سندات العائد المرتفع، سندات الشركات، السندات الوسيطة.....» وهممت بالانصراف وهو ما زال يقرأ القائمة.

هذا التنوع فى أدوات وفرص الاستثمار كان نعمة وهبها الله لكل من الدول المتقدمة والدول النامية والشركات على السواء. فقد يسرت لبعضها النمو بسرعات لم تخطر من قبل على بال. وفى هذا الصدد قالت صحيفة *الإيكونوميست* مرة : «لم تعد الدول الفقيرة ذات الاحتياجات الاستثمارية الكبيرة عاجزة بسبب نقص رؤوس الأموال. ذلك أن المدخرين لم يعد نشاطهم مقصوراً على سوق دولتهم، ولكنهم أصبحوا [الآن] قادرين على البحث عن الفرص الاستثمارية التى تمنحهم أعلى عائد فى أنحاء العالم» (عدد 25 أكتوبر 1997) . واليوم يستطيع كل صندوق حماية أمريكى كبير تقديم خيار استثمارى واحد جذاب على الأقل فى «سوق ناهضة».

عندما يكون لديك هذا الكمّ من المنتجات المختلفة، وبكل هذه المعلومات المتوافرة بمثل هذه السرعة، تصبح قدرتك أقل أقل على أن تحقق التفوق التنافسى وأن تمسك بالفرصة قبل أن يراها غيرك. ولذلك يتعين على المستثمرين الآن البحث عن هذا التفوق الصغير الذى قد يسرق الأضواء مما عداه من المعروض فى السوق.

يعود كوبرمان بذاكرته إلى الوراء قائلاً: «عندما التحقت بشركة جولدمان زاكس فى عام 1967 ، كنت رئيساً للبحوث وقمت بتوظيف محللين. فى تلك الأيام، كان المحلل النموذجى يغطى بتحليلاته خمساً وسبعين شركة وربما ست صناعات أخرى مختلفة. وقد كنت أتحدث مؤخراً مع أحد المحللين الذين كانوا يعملون لدىّ

فى ذلك الوقت فقال لى إنه مثقل للغاية بالعمل الآن لأن عليه أن يحلل اثنتى عشر شركة. ضحكت. اثنتا عشر شركة فقط؟ ولكن عليك الآن أن تبحث فى هذه الشركات الاثنتى عشرة بمزيد من العمق حتى يتسنى لك فهم بعض الحماس الذى يستغرق وقته كله. إنه الشئ نفسه بالنسبة للبيانات الاقتصادية. (فيما مضى) عندما كانت الحكومة تصدر إحصائية بعدد العاطلين، كان كل ما ينظر إليه الجميع هو معدل البطالة. ثم بدأوا فى البحث فيما وراء هذا الرقم العام إلى الأرقام الخاصة بالأجور - هل انخفض أم ارتفع إجمالى الأجور؟ لأن ذلك قد يشير إلى شىء [تستطيع المضاربة فيه]. ثم بدأوا بعد ذلك فى بحث تركيب أرقام الأجور: من ارتفعت أجوره ومن انخفضت أجوره وماذا نستخلص من ذلك؟ إن حجم العمل الذى يجب عليك القيام به للوصول إلى الحد الذى يؤهلك لتحقيق الثروة الآن أصبح أكبر كثيراً».

أعرف أحد المتعاملين مع صناديق الحماية يقضى ساعات فى متابعة تقارير حالة الطقس. تقارير حالة الطقس! لقد وضّح لى الأمر قائلاً: «إن الفكرة هى البحث عن اتجاهات غير تقليدية وكيف يمكن أن تؤثر فى البيانات الاقتصادية. فعلى سبيل المثال، إن مجرد غياب الشتاء عنا فى عام 1998 ربما قد جعل اقتصادنا يبدو أقوى مما هو عليه حقيقة، ومن ثم فقد أجد طريقة لاستغلال هذه المعلومة للقيام بنوع من المضاربة على ما قد يحدث فى معدلات الفائدة. أو لنأخذ ما وقع عندنا من انهيارات أرضية رهيبة فى الساحل الغربى فى الأسبوع نفسه حين كانت الحكومة تجمع بيانات اقتصادية متعلقة بنوع ما من الإحصائيات الرئيسية، مثل مؤشر أسعار المستهلك. ولما كانت هذه البيانات الاقتصادية ليست لها أهمية إلا عند الفروق الهامشية فى أرباح الأسهم والسندات، فإن عدة انهيارات أرضية تقع فى الوقت المناسب فى ولاية رئيسية، مثل كاليفورنيا، يمكن أن تؤثر فى هذه الإحصائيات. وهكذا قد تجدنى أقول 'أوه، إن

أسهم شركة هوم ديبوت، التى تبيع جميع أنواع منتجات الإصلاحات المنزلية، ربما قد تستفيد من الانهيارات الأرضية والأعاصير' أو ربما ألاحظ أنه حدثت عاصفة ثلجية هائلة فى الأسبوع الذى تجمع فيه الحكومة أرقام البطالة. وربما قد يقودنى ذلك إلى الاستنتاج بأن هناك دلالة حقيقية فى هذه الأرقام. وربما يتوقع الجميع إنشاء 250 ألف فرصة عمل جديدة فى المجال غير الزراعى، ولكن يجئ الرقم الفعلى مقصوراً على 150 ألف فرصة عمل جديدة بسبب سوء الأحوال الجوية، مما يشير إلى أن الاقتصاد قد يكون أكثر بطئاً وهدوءاً مما يتوقع الناس، ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك، لأن هذا الطقس الشاذ انعكس على الأرقام. ولكن نظراً لأن الأرقام جاءت على هذا النحو الذى تعرفه أنت فقد يستنتج الناس منها أن الاقتصاد سيشهد تباطئاً ومعدلات الفائدة قد تنخفض وأن ذلك سيكون مفيداً بالنسبة للسندات. ومن ثم فقد تبحث عن نوع من السندات قبل ظهور إحصائيات البطالة ـ استناداً فقط إلى تقارير الأحوال الجوية ـ ثم تقوم بشرائها عندما تظهر إحصائيات البطالة أقل مما هو متوقع لها، ثم تبيعها مرة أخرى بسرعة قبل ظهور إحصائيات الشهر التالى، لأن هذه الإحصائيات ستبين أن الأعداد الواردة فى إحصائيات الشهر الماضى كانت شاذة بسبب حالة الطقس. فهى إذن فرصة لكسب بعض الدولارات بمجرد الاستفادة من تقارير حالة الطقس. وتستطيع أن تستغل حالة الطقس على هذا النحو فى التنبوء بأسعار البترول فى المستقبل، أو أسعار وقود التدفئة أو معدلات الفائدة، أو الأسعار الآجلة للكهرباء، أو الأسعار الآجلة للغاز الطبيعى، أو مؤشر الأسعار الآجلة للمستهلك، أو الذرة أو فول الصويا أو البنزين أو البنزين الخالى من الرصاص أو أسعار بترول برنت أو السولار أو الأصواف أو النحاس أو الذهب أو الفضة ...... إلخ».

أسواق كثيرة جداً ومعلومات كثيرة وقليل من الربح. ولذلك إذا فشلت جميع الطرق الأخرى فلا تتصل بسمسارك، اتصل بخبير الأرصاد الجوية.

لا تحتاج الماشية قصيرة القرون من أجل تحقيق أى ربح فى مثل هذه السوق، إلى الحافة الفضية للربح فحسب، وإنما هى بحاجة أيضاً إلى مضاربات أكبر وأكبر فوقها. تصوّر أن هناك مليار دولار مكومة فوق رأس دبوس وأن لديك الفكرة الصحيحة. هذه غالباً مهمة مديرى الصناديق الذين يستخدمون منتجات تجارية غريبة ـ مثل المقايضات، والأسعار الآجلة، والأسعار المستقبلية، والخيارات، والمشتقات، والأسعار الإشارية ـ ثم تفعيلها مالياً باقتراض أموال تزيد حتى على ما أعطاه لهم مستثمروهم بغية التوسع فى كل نوع من أنواع مضارباتهم. وقد أسهم ذلك فى الزيادة الهائلة فى حجم المعاملات التى تتدفق حول العالم كل يوم. وعندما تكون مديراً لصندوق فإنك إذا استطعت تحقيق ربح كبير الآن فسوف يؤدى بك ذلك إلى تحقيق ربح كبير جداً جداً، وإذا كنت تخسر الآن فإنك أيضاً يمكن أن تخسر كثيراً جداً جداً. وهذا هو السبب فى أننا شهدنا فى السنوات الأخيرة انهيار بيوت سمسرة بكاملها (المثال البارز لها بنك بارينجز) بسبب المضاربات التى يقوم بها سمسار واحد فقط مستخدماً مبدأ الرافعة المالية أو تفعيل الأموال. وهذا هو أيضاً ما يؤدى إلى تضخيم اهتزازات ذيل التيرانوصور ركس. قال لى أحد أصدقائى من العاملين فى بنك استثمارى أمريكى كبير إن أحد عملاء البنك يمتلك صندوق حماية برأس مال أصلى يبلغ 200 مليون دولار. ولكنه، من خلال معجزة تفعيل الأموال، استطاع امتلاك ما قيمته 900 مليون دولار من السندات الروسية، وما قيمته 5 مليارات دولار من سندات ساللى ماى (وهى سندات مكونة من مجموعة من قروض الطلبة الأمريكيين). وعندما انهارت روسيا فى أغسطس عام 1998 خسر صندوق الحماية هذا كل ما لديه من رأسمال تقريباً فى روسيا. إذن، ما الذى فعله؟ لقد باع فجأة جزءاً كبيراً من سندات قروض الطلبة الأمريكيين لتعويض الخسائر الروسية، مما أدى إلى توقف مؤقت فى حركة سوق أسهم قروض الطلبة والقضاء على بعض مراكز صديقى فى تلك السوق وهى ليست لها علاقة بروسيا.

لا يقتصر الأمر على أن ما يقتات عليه القطيع أصبح أكثر تنوعاً، بل إن ذلك ينطبق على القطيع نفسه، ولا سيما الماشية قصيرة القرون. وفى هذا يذكر كاوفمان: «أن الثقل النسبى للبنوك التجارية التقليدية، وللمدخرات والقروض وشركات التأمين قد تضاءل. وبدلاً من ذلك انتقلت إلى الصدارة سلالة جديدة من المؤسسات المشاركة فى هذا المضمار. وتتميز هذه المؤسسات بالتركيز على أداء الاستثمار قصير المدى، واستخدامها لتفعيل الأموال بكثافة، وقدرتها على التحرك إلى داخل الأسواق وخارجها، سواء كان ذلك فى صورة أسهم وسندات أو عملات أو سلع، وأينما تكون هناك عائدات أعلى». ويعتبر ما يسمى صناديق الحماية أبرز هؤلاء اللاعبين الجدد، وهى الصناديق التى تتجمع فيها تجمعات ضخمة من أموال الأفراد والمؤسسات الأثرياء ثم تعظّم هذه التجمعات النقدية بالاقتراض من البنوك للقيام بمضاربات مرتفعة المخاطرة ومرتفعة الفائدة على العملات والأسهم والسندات فى أنحاء العالم. غير أن كاوفمان يشير إلى أن ما حدث فى السنوات الأخيرة هو، أن الكثير من البنوك الكبرى وشركات السمسرة وبنوك الاستثمار وشركات التأمين وإدارات الأموال فى الشركات متعددة الجنسية بل وحتى الغرف التجارية فى البنوك المركزية الرئيسية فى العالم ـ هذه المؤسسات جميعاً شعرت بحاجتها للقيام بنفسها بعمليات تبادل مشابهة لعمليات صناديق الحماية. ولم يعد غريباً بالنسبة لبنك استثمارى كبير القيام بدور السمسار لمبادلات أحد صناديق الحماية وأيضاً محاكاة مبادلات صندوق الحماية بعمليات تبادل خاصة به.

وبطبيعة الحال، كلما انهار مزيد من الأسوار، زاد الناس الذين يجوبون فى مناطق لا يعرفون شيئاً عنها. لنتخيل الأمر على هذا النحو: يتلقى بنك الادخار والتسليف لمزارعى تايلاند اتصالاً هاتفياً من مكتب بنك فيرست جلوبال إنفيستمنت

فى بانكوك، الذى يقع مقره فى جزيرة كايمان، يقول فيه: «هاى، يجب عليكم يا رفاق شراء السندات الروسية. إنها تعطى أرباحها بنسبة 20 فى المائة، وحتى إذا انخفضت قيمة الروبل قليلاً فإنكم سوف تحققون مع ذلك ثروة». وفجأة يسجل بنك الادخار والتسليف لمزارعى تايلاند فى حساباته شراء سندات روسية قيمتها 20 مليون دولار، وعندما تضرب هذه السندات ينهار ذلك البنك الذى رخص له بتقديم قروض لمزارعى الأرز فى تايلاند. لقد أصيب العالم بالصدمة والدهشة إزاء عدد البنوك الكورية التى تحمل سندات روسية، وذلك عندما بدأت روسيا فى الانهيار عام 1998. وعندما أصبح الائتمان سهل المنال فإن ما حدث هو أن « الإنسان الذى يتمتع بغباء حدى» ، أى الشخص الذى لم يكن ليحصل مطلقاً على تمويل خلال فترة تتميز بالحذر والكساد، أصبح قادراً على الحصول على أموال من مستثمرين وبنوك والقيام بمضاربات جنباً إلى جنب مع اللاعبين الجادين. إن هؤلاء الأشخاص الذين يتمتعون بغباء حدىّ هم الذين يستطيعون بحق المبالغة فى اهتزازات السوق العالمية.

هذا بالإضافة إلى أنه فى وجود أسواق السوبر ماركت التى تجعل الاستثمار العالمى على هذا النحو من السرعة والسهولة، فإنك تستطيع الآن القيام بذلك عن طريق جهاز الكمبيوتر الموجود فى منزلك، باستخدام موقع متألق للسمسرة على الإنترنت. وبما أن الاستثمار العالمى أصبح أكثر سهولة وأكثر انفتاحاً للجميع فإنه يستطيع استدراج الناس إلى الظن بأن كل سوق فى العالم يعمل على شاكلة وول ستريت. وفى هذا كان لارى سومرز نائب وزير الخزانة يردد القول: « بأن الأمر يبدو أشبه بمد طرق سريعة أفضل فيميل الناس إلى القيادة بسرعة أكبر. وفى الواقع ينتهى الأمر إلى مصرع أناس أكثر فى حوادث للسيارات على هذه الطرق السريعة الجديدة، لأنهم أخطأوا فى تقدير السرعة التى يجب عليهم الالتزام بها، وينتهى بهم الأمر إلى القيادة بصورة أسرع مما يجب».

وهكذا فإن بنك فيرست جلوبال إنفيستمنت يتصل ببنك الادخار والتسليف لمزارعى تايلاند ويقول: «يجب عليكم شراء السندات التركية، بوسعكم تحقيق خبطة كبرى الآن». ويرد المصرفى الموجود فى بنك تايلاند قائلاً: «السندات التركية تعطى عائداً بنسبة 25 فى المائة، أليس كذلك؟ لا علم لى بأن تركيا لديها سندات فى السوق. أكيد. سوف أحصل على بضعة ملايين. تحت أمرك». ولكن هنا تكمن الصعوبة. عندما يسمع الناس «سوق السندات التركية»، يفكرون، «أوه، وول ستريت بها سوق للسندات، فرانكفورت بها سوق للسندات، طوكيو بها سوق للسندات، والآن أصبح لتركيا سوق للسندات، يا لها من روعة». ولكن على الرغم من أن سوق السندات التركية قد تصدر أصواتاً مثل السوق، وتسير مثل السوق، وتبدو مثل السوق، فإنها مع ذلك ليست سوق وول ستريت للسندات. وتكتشف أنت ذلك عندما تنخفض أسعار سنداتك التركية وترغب فى بيعها. حينئذ تكتشف أن السوق التركية صغيرة إلى درجة أنه حينما يريد عدد ضئيل من اللاعبين بيع سنداتهم لا يوجد مشترون، ولا يوجد سيولة ومن ثم لا يوجد مخرج. يشير كاوفمان إلى أن أسواق العولمة تخلق نوعاً من الوهم بأن كل الأسواق « تتسم بالكفاءة والسيولة والتماثل». وأن هناك معلومات صحيحة تماماً وشفافية فى كل سوق منها. الأمر أبعد ما يكون عن ذلك. انظر فقط إلى الحقيقة التالية: يبلغ إجمالى قيمة جميع أسهم شركة مايكروسوفت حالياً نحو 380 مليار دولار. أى أن نوعية واحدة من الأسهم الأمريكية تفوق فى قيمتها جميع الأسهم الموجودة فى الأسواق الناهضة مجتمعة.

ولا يقتصر الأمر على وجود مزيد من اللاعبين الكبار» المشاركين فى اللعبة اليوم، بل هناك أيضاً « اللاعبون الصغار». فى عام 1980، كان هناك 4.6 مليون من أفراد الأسر الأمريكية يمتلكون أسهماً فى الصناديق المشتركة. واليوم، واستناداً إلى تقارير معهد شركة الاستثمار، أصبح هناك 60 مليون أمريكى ينتمون إلى 37 مليون

أسرة يستثمرون أموالهم الآن فى الصناديق المشتركة، سواء بصورة مباشرة أو من خلال مشاريع معاشات التقاعد. وقد تضاعفت أصول الصناديق المشتركة فى مشاريع التقاعد، مثل صناديق IRA من 412 مليار دولار فى عام 1992 إلى 1.6 تريليون دولار فى عام 1997. وقد تم استثمار 10فى المائة من أصول الصناديق المشتركة تلك فى الأسهم العالمية. ولأول مرة فى التاريخ الأمريكى نجد أن الرجل العادى والمليونير يشاهدان معاً النشرة الاقتصادية فى تليفزيون CNBC للاطمئنان على نصيبهم من السوق. حقاً، لقد أظهر إعلان لشركة سمسرة الخصم تشارلس شواب فى عام 1998، زوجين من الطبقة الوسطى، ماريون وريك، يجلسان فوق أريكة ويتحدثان عن إجازتهما الصيفية على النحو التالى:

ماريون: عندما كنا فى جولة نجوب فيها البلاد توقفنا فى مكان، وكانوا يفتحون التليفزيون على القناة الاقتصادية. بدأنا فى المشاهدة وكانت السوق آخذة فى الانخفاض وقلنا إن هذه هى الأسهم التى كنا نريد شراءها واتصلنا من الطريق ....»

ريك: اتصلنا بشركة شواب لأنه لم يكن لدينا مودم فى منزلنا المتنقل، ولذلك لم نكن نستطيع إجراء التبادل بالاتصال المباشر. أين كنا فى ذلك الوقت؟

ماريون: «فى يوتاه».

ريك: « يوتاه؟ »

ماريون: «نعم كنا فى يوتاه».

ريك: «اتصلنا بشواب بأحد تليفونات الطريق»

ماريون: «لنحاول أن نحصل ..... »

ريك: «نشترى الأسهم. وكنا نشعر بالابتهاج. واوا لقد فعلناها .... وبعد ذلك عدنا إلى منزلنا المتنقل، واستأنفنا رحلتنا».

ماريون: «وقد ربحنا فى هذه الصفقة».

ريك وماريون، مرحباً بكما فى القطيع الإلكترونى. وإننى أشعر بالسعادة لهما لأنهما حققا صفقة طيبة، ولكن هنا تبدو الحقيقة وهى أن انتشار أدوات الاستثمار استدرجت الكثيرين من أشباه ماريون وريك إلى الأسواق التى لا يعرفون عنها شيئاً. قد لا أستطيع إثبات ما يلى، ولكننى أستطيع أن أخمن أنه لم يحدث من قبل فى التاريخ ذلك العدد الهائل من الناس ممن يستثمرون هذا الكم من الأموال فى مثل هذا العدد من الأماكن التى قد لا تستطيعون العثور عليها على الخريطة. ويضعها ليون كوبرمان على النحو التالى: «فى السنوات الخمس الأخيرة أصبح الرجل الذى كان عادة يأخذ مدخراته ويشترى بها أذون الخزانة ليضمن ألا يفقد مطلقاً هذا الدخل، قد خرج بدلاً من ذلك لشراء السندات. والرجل الذى كان عادة يشترى السندات، لأنه كان على استعداد لتحمل شئ من المخاطرة من أجل الحصول على عائد أكبر قليلاً، قد خرج بدلاً من ذلك باحثاً عن شراء سندات فى الأسواق الناهضة، من أماكن مثل روسيا أو البرازيل. والرجل الذى كان يشترى عادة سندات الأسواق الناهضة أصبح الآن يخرج باحثاً عن أسهم الأسواق الناهضة. والأمر الذى لابد أن يحدث حينئذ، وسوف يحدث، هو أن بعض الناس الذين صعدوا سلم المخاطرة هذا سوف يفقدون الكثير من أموالهم ومن ثم سوف يعودون أدراجهم».

لقد أصبح التكامل العالمى يسبق التعليم؛ إذ بفضل العولمة أصبحنا جميعاً بلا شك نعلم عن بعضنا بعض أكثر من أى وقت مضى، ولكننا ما زلنا لا نعرف من أمر بعضنا بعض الكثير. إنه لمما يثير الخوف أن تنوع اللاعبين فى القطيع الإلكترونى اتسع إلى درجة أنه لم يعد طبيب الأسنان فى نيوجيرسى هو وحده الذى لا يعرف ما الذى يجرى، بل أيضاً أصبح بعض الرجال الذين يديرون الصناديق المالية الكبيرة فى الأسواق الناهضة لا يعرفون. إن أفضل ما يحضرنى فى هذا الصدد ما صرح به أحد مديرى

صناديق الحماية لموازيز نايم المحرر بمجلة **فورين بوليسى** *Foreign Policy* بعد أزمة ديون المكسيك فى عام 1995 عندما قال: « لقد ذهبنا إلى أمريكا اللاتينية ونحن لا نعلم أى شئ عن ذلك المكان. والآن نحن نرحل عنه أيضاً دون أن نعلم شيئاً عنه».

ثمة شئ آخر شديد الأهمية يجب ألا يغيب عن ذهننا وذلك قبل أن ننتهى من موضوع تنوع القطيع الإلكترونى ـ وهو أن هذا القطيع ليس مجرد قوة تنمو إلى الخارج. وهو لا يتكون فقط من مجرد صناديق أموال بلا دولة خارج الحدود ومستثمرى الإنترنت من الخارج وأسواق السوبر ماركت البعيدة. إنها تتكون أيضاً من السكان المحليين فى كل دولة فتحت أبوابها لهذا القطيع. وما يعطى القوة لهذا القطيع ليس مجرد أن إزالة القيود على رؤوس الأموال فى دولة ما يجعل من السهل على الأجانب الدخول إليها والتعامل بيعاً وشراء فى عملتها وأسهمها وسنداتها. إنما تنبع قوة هذا القطيع أيضاً من حقيقة أن المواطنين المحليين يستطيعون أيضاً الخروج بسهولة. إن أكبر الأسرار التى لم يكشف عنها بعد عن القطيع الإلكترونى هو أن معظم اندفاعات الفرار المذعور لا تبدأ بصندوق حماية فى وول ستريت أو ببنك كبير فى فرانكفورت. بل تبدأ بمصرفى محلى، أو ممول محلى، أو بمدير مالى محلى ينقل أمواله من البلاد بتحويلها من العملة المحلية إلى دولارات أو المضاربة بعملة بلاده (أى تقصيرها) فى سوق آجلة. وقد ذكرت دراسة لصندوق النقد الدولى بعنوان، «صناديق الحماية وديناميات السوق المالية»، التحليل الدقيق لأزمة البيزو المكسيكية فى الفترة من 1994 إلى 1995 يكشف أن «السكان المحليين وليس المستثمرين الدوليين» لعبوا دوراً رئيسياً فى هذه الأزمة. وخلص صندوق النقد الدولى إلى أنه فى سوق مالية تخضع لقوانين العولمة: قد يجد المستثمرون الأجانب الذين يديرون محافظ دولية متنوعة من السندات أنه من الصعب عليهم السير جنباً إلى جنب مع الظروف فى مجموعة كبيرة من الدول. وكلما كانت السوق الناهضة صغيرة، قل الحافز لدى كبار

المستثمرين لكى يقوموا بذلك. وبناء عليه، فربما يكون السكان المحليون غالباً ممن لديهم ميزة نسبية فى الوصول إلى المعلومات المناسبة عن السوق ومعالجتها هم أول من يتخذون موقفاً ضد عملة ثابتة. كذلك فإن إلغاء التحكم فى الأسواق المالية المحلية والمعاملات المالية الدولية الذى كان يمنع السكان المحليين من اتخاذ مواقف جعل الأمر أيسر وأسهل كثيراً الآن عليهم أن يفعلوا ذلك. وبعبارة أخرى، لقد كان رجال المال المحليون فى المكسيك، والمضاربون المحليون فى إندونيسيا، ورجال البنوك المحليون فى تايلاند هم الذين بدأو اندفاعات الفرار المذعور ضد عملة بلادهم وأسهمها وسنداتها ـ وتبعهم بقية أفراد القطيع الإلكترونى. وهذا بطبيعة الحال أمر منطقى؛ لأن الناس المحليين غالباً يكون لديهم معلومات أفضل عن طريق الأسرة والأصدقاء واتصالات العمل عما يجرى حقيقة داخل بلادهم، ومن ثم فإنهم سيكونون أول من ينتقل إلى حيث يكون العشب أكثر أمناً. وقد أصبحوا يفعلونها اليوم بسهولة شديدة ـ بدون أن يكون عليهم تهريب الأموال إلى الخارج أو إقناع أحد أصدقائهم بفتح حساب لهم فى بنك أجنبى، مثلما كان الحال فى الأيام الماضية عندما كانت هناك قيود على حركة رؤوس الأموال.

قال لى ريتشارد ميدلى، الذى يعمل بالتحليل السياسى والاقتصادى للمخاطر لكثير من البنوك وصناديق الحماية الدولية، إنه بدأ تحذير عملائه من احتمال سقوط الأسواق والعملات الآسيوية قبل خمسة أشهر من حدوثها بالفعل فى عام 1997، ليس لأنه أكثر عبقرية ولكن لأنه كان يستمع إلى القطيع المحلى. وقال موضحاً «إن أول شيء أبحث عنه هو عندما تطلب المؤسسات المالية المحلية القروض بالعملة الأجنبية بدلاً من عملتها المحلية. فإذا رفض أحد بنوك تايلاند إقراض أحد رجال الأعمال التايلانديين بعملة الباهت المحلية، ويصر بدلاً من ذلك على إقراضه بالدولار أو الين، فإن معنى ذلك أنه يعلم أن هناك خطأ ما فيما يتعلق بالعملة التايلاندية وأنها قد لا

تثبت على قيمتها. وعليك أن تعتمد على مثل هذا النوع من الأدلة التى يتناقلها الناس، لأن البيانات الاقتصادية فى كثير من الدول تكون متخلفة. ولذلك أفترض دائماً، فى مثل هذه الاقتصادات الشخصية إلى حد بعيد، مثل تلك الموجودة فى آسيا، إن السكان المحليين يعرفون أكثر منى».

لقد كانت الحكومة الصينية تعزف عن جعل عملتها قابلة للتحويل تماماً، مثلما فعلت الدول المجاورة لها، ليس لأنها تخشى ألا تستطيع السيطرة على الاستثمارات التى قد تأتى من الخارج فحسب، ولكن لأن بيجنج (بكين) تخشى ألا تستطيع التحكم فى ما سينقله مواطنوها إلى الخارج. وهم على حق فى ذلك: إذ يوجد بالفعل سوق سوداء هائلة فى الصين للمضاربة ضد العملة الصينية. وقد نقل لى أحد المراسلين الماليين الأمريكيين فى شنغهاى حديثاً دار بينه وبين صديق صينى كان يشكو من «مؤامرة» من جانب المصرفيين وصناديق الحماية الغربية الذين تآمروا على عملات تايلاند وماليزيا وكوريا الجنوبية وإندونيسيا فى أثناء الأزمة الاقتصادية الآسيوية فى الفترة من1997–1998 .

سأل رجل الأعمال الصينى ذلك المراسل الأمريكى: «لماذا يفعلون ذلك بنا؟»

أجاب المراسل المالى الأمريكى: «قل لى، هل استبدلت مؤخراً الدولار باليوان الصينى؟»

اعترف رجل الأعمال الصينى: «نعم، وأشعر بالقلق قليلاً إزاء الوضع».

تذكر دائماً: عندما يبدأ القطيع الإلكترونى فى الفرار مذعوراً، فإن أول ثور يفعل ذلك يكون محلياً دائماً.

والأمر لا يقتصر على أن القطيع الإلكترونى أصبح ضخماً وأكثر تنوعاً من أى وقت مضى، ولكنه أصبح أكثر وأكثر سرعة. لقد انضم جوزيف ساسون، أحد الشركاء فى

مكتب جولدمان زاكس فى لندن، إلى القطيع الإلكترونى منذ عام 1982. قال لى مرة: «فى لندن عام 1982، ولأننا كنا نسبق التوقيت فى نيويورك بست ساعات فإننا عادة لم نكن نعرف أسعار إقفال داو جونز فى نيويورك إلى أن نعود إلى العمل صباح اليوم التالى. وكان لدى عدد قليل من الناس آلات كوترون Quotron، وكان ذلك هو كل شئ. وترى شركة جولدمان زاكس أن الأمر كان فى ذلك الوقت ينطوى على ذكاء حقيقى، إذ إن أحدهم فى مكتب نيويورك قرر فى أحد الأيام أنه يستطيع تعيين صبى ليكون فى المكتب فى الساعة 3.30 صباحاً بتوقيت نيويورك. ويقوم هذا الصبى بعمل نسختين مصورتين من العمودين الرئيسيين فى صحيفة **وول ستريت جورنال**، 'سمعت فى الطريق' و'جنباً إلى جنب فى السوق' ـ وهما عمودان يتضمنان أخباراً عن الأسهم التى تؤثر عادة فى السوق' ـ ثم يعيد إرسال محتوياتهما إلى لندن. وقد حصلنا بذلك على ميزة السبق أربع ساعات على كل شركات السمسرة الموجودة فى لندن، وبذلك كنا نخرج للحديث مع عملائنا عن الأسهم التى استطلعنا أخبارها فى نيويورك قبل أن يعرف أى من منافسينا شيئاً عنها، لأنهم كانوا فى انتظار أن تفتح مكاتبهم فى نيويورك أبوابها ثم الحصول على نسخة من صحيفة **وول ستريت جورنال**. ولم يتوصلوا إلى معرفة ما نقوم به إلا بعد مضى فترة من الوقت. لقد كان ذلك يحدث فى عام 1982فقط، ولكننى عندما أحكى لزملائى هذه القصة اليوم فإنهم ينظرون إلىّ وكأننى أحكى لهم شيئاً عن جدى الكبير».

لا عجب. تجول حول مكتب أحد صناديق الحماية فى نيويورك اليوم وسوف ترى الناس يحملون أينما ذهبوا أجهزة لرصد الأسواق لا تزيد فى حجمها عن راحة اليد، تقوم برصد أى سوق أو أى أسهم أو أى سندات، فى الوقت نفسه، بحيث يستطيعون الاتصال حتى وهم فى طريقهم إلى الحمام، ناهيك عن الذهاب إلى المنزل. لقد تم تشحيم العجلات بعناية الآن بحيث يمكن انتقال كميات هائلة مما يطلق عليه

ديفيد هيل «رأس المال الغجرى» هنا وهناك فى أنحاء العالم لاستغلال فرص البيع والشراء فى أى مكان، بتكلفة تبادل تصل إلى الصفر تقريباً، وتكلفة إرسال تصل إلى الصفر تقريباً، وبسرعة اللحظة نفسها فعلاً. ويمكن تلخيص حالة اللعب فى خط التثقيب فى ذلك الإعلان الذى بدأ بنكا كريدى سويس/ فيرست بوسطن فى نشره فى عام 1998 عما يقدمانه من خدمات، تسمى تبادل تفضيلى Prime Trade، وتوفر أسرع تنفيذ ممكن لأى عملية تبادل فى أى بورصة مشتقات مسجلة فى العالم. يقول الإعلان: «التبادل التفضيلى: كل الأسواق، فى كل الأوقات، فى كل مكان».

قد يكون عامل السرعة هذا خيراً وقد يكون شراً. فإذا اعترض القطيع طريقك يستطيع، بالأمر المباشر، إمطار أسواق الأسهم والسندات فى بلادك بمليارات ومليارات الدولارات، وعلى مصانعك ومشروعاتك الصناعية مباشرة. وهذا هو السبب فى زيادة عدد الدول التى تبدى اهتمامها بالقيام بأى شىء من شأنه الاتصال بهذا القطيع. ولكن إذا أصبحت أسواق إحدى الدول غير مستقرة أو ضعيفة لأسباب سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية، فإن القطيع الإلكترونى يستطيع تحويل ما من شأنه أن يكون عملية تعديل محدودة، وإن كانت قاسية فى السوق، إلى شئ أكثر ألماً ومبالغة، كما أنه يستطيع أيضاً أن ينشر عدم الاستقرار بصورة أشد سرعة فى ما بين الأسواق، ومن الأسواق السيئة إلى الأسواق الجيدة.

ويرى آلان جرينسبان فى محاضراته أن هذه العولمة المالية ذاتها « التى كانت سبباً فى الزيادة المثيرة لتدفق رؤوس الأموال الخاصة، قد أظهرت أيضاً قدرات لا بأس بها فى نشر الاستثمارات غير الحكيمة». ويضيف رئيس الاحتياطى الفيدرالى أنه «ليصعب على المرء أن يتخيل حجم خسائر (مليار دولار) متعامل واحد يستخدم التقنيات الحديثة التى أسهمت فى سقوط بنك بارينجز فى عام 1995، مقارنة بتلك الخسائر التى كان من الممكن أن تحدث فى بيئة التعامل بالأوراق قبل بضع عشرات

من السنين. فمن الواضح أن قدرتنا على خلق الخسائر قد تحسنت إلى حد بعيد فى السنوات الأخيرة». أو حسبما يصفها يوسف بطرس غالى وزير الاقتصاد المصرى: «فى الماضى كنت تصاب بالذعر فى حجرة يوجد بها مائة من المصرفيين، والآن أنت تشعر بالذعر فى كل مكان. لقد أصبحت هناك ديموقراطية الذعر».

ولا يتبقى سوى نعمة إلهية واحدة فى كل هذا. إن ما يتحرك هنا وهناك أسرع يأتى من هنا وهناك أسرع، ولكنه حينئذ سوف يتحرك مرة أخرى إلى هنا وهناك بمزيد من السرعة. ولئن كانت المشكلات يمكن تأتى أسرع، إلا أن الحلول تأتى أيضاً أسرع ـ بشرط أن تفعل دولتك الأشياء السليمة. ذلك إنه إذا أصبحت السرعة هى طبيعة كل شئ، فإن العالم يصبح ضعيف الذاكرة. ففى عام 1995، كانت المكسيك شوكة فى حلق الدائنين، وفى عام 1998 أصبحت مرة أخرى معشوقة للمستثمرين الدوليين. فمن ذاك الذى يذكر عام 1995 ؟

الماشية طويلة القرون

لئن كانت الماشية قصيرة القرون التى تشكل الجزء الأكبر من القطيع الإلكترونى، مثل جورج سوروس، هى التى تحتل أنباؤها العناوين الرئيسية هذه الأيام إلا أن الماشية طويلة القرون أصبحت تلعب دوراً متزايد الأهمية. الماشية طويلة القرون هى الشركات متعددة الجنسية التى تعمل فيما يعرف باسم « الاستثمار الأجنبى المباشر» ـ بمعنى أنها لا تستثمر فى أسهم وسندات دولة نامية فحسب، وإنما تستثمر مباشرة فى المصانع، والمرافق، ومحطات توليد الطاقة، وجميع أنوع المشروعات الأخرى التى تستغرق وقتاً فى تخطيطها وبنائها ويتعذر الانتهاء منها بين ليلة وضحاها. الماشية طويلة القرون هى شركات مثل فورد، وإنتل، وكومباك، وإنرون، وتويوتا. إذ بفضل العولمة أصبحت هذه الشركات تستثمر مزيداً من الأموال فى الخارج بمزيد من الطرق وفى مزيد من الدول أكثر من أى وقت مضى.

وعندما كانت الدول، فى ظل نظام الحرب الباردة، تحمى أسواقها غالباً بإحاطة نفسها بأسوار التعريفات الجمركية، كان يمكن للشركات متعددة الجنسية القيام باستثمارات طويلة الأجل بملايين الدولارات فى الدول ذات الأسواق الكبيرة بمجرد القفز أساساً فوق هذه الأسوار. بمعنى أن شركة تويوتا قد تتحايل على الحصة التى فرضتها أمريكا لوارداتها من السيارات اليابانية، وذلك ببناء مصنع فى الولايات المتحدة قد يجعل السوق الأمريكية مغلقة تقريباً على سيارات تويوتا، وقد تقوم شركة فورد بالشىء نفسه فى اليابان. وكان على الشركات متعددة الجنسية، إذا أرادت أن يكتب لها البقاء فى عالم من الأسوار، بناء مصانع فى الأسواق الرئيسية حتى تصبح فى وضع أفضل محلياً كمنتجين وبائعين فى هذه السوق.

غير أنه حالما أطاحت ديموقراطيات التكنولوجيا والتمويل والمعلومات بالكثير من أسوار الحرب الباردة أصبح للماشية طويلة القرون من هذا القطيع الإلكترونى حافزاً أعظم، ومختلفاً نوعا ما، لبناء المصانع فى الخارج. فقد أصبحت هناك السوق الواحدة المفتوحة، والفضاء المعلوماتى، حيث تستطيع الشركات متعددة الجنسية فى ظله بيع أى شئ فى أى مكان فى العالم أو صنع أى شئ فى أى مكان فى العالم. وقد أدى ذلك إلى منافسة أكثر حدة وقلص هوامش الربح فى كثير من الصناعات. ونجم عن ذلك أن أصبحت كل الشركات متعددة الجنسية الكبرى بحاجة إلى محاولة البيع على نطاق العالم، حتى يتسنى لها تعويض انكماش هوامش الربح عن طريق حجم المبيعات، وبحاجة إلى محاولة الإنتاج على النطاق العالمى ـ عن طريق تجزئة خطوط إنتاجها إلى شرائح وتحويل إنتاج كل جزء منها إلى الدولة التى تستطيع القيام بذلك بأرخص التكاليف وبأقصى قدر من الكفاءة ـ حتى يتسنى لها الاحتفاظ بانخفاض تكلفة التصنيع وتظل قادرة على المنافسة. وقد أدى ذلك إلى زيادة عدد الشركات متعددة الجنسية التى تنتقل استثماراتها إلى أرخص المرافق الإنتاجية تكلفة فى

الخارج، أو عقد تحالفات مع متعاقدين من الباطن أقل تكلفة فى الخارج ـ وذلك ليس بهدف البقاء فى عالم تحيطه الأسوار، ***وإنما بهدف البقاء فى عالم بدون أسوار***. لقد أصبحت الشركات متعددة الجنسية فى ظل حقبة العولمة بحاجة متزايدة إلى التوسع عبر البحار، ليس لأن تلك هى الطريقة الوحيدة لتكون منتجاً محلياً مؤثراً فى هذه الدول، وإنما لأنها أصبحت الآن هى الطريقة الوحيدة لتكون منتجاً مؤثراً على نطاق العالم.

نشر كيڤين مانى فى طبعة 24 أبريل 1997 من صحيفة ***يو إس إيه توداى***، تحقيقاً يحكى كيف أن شركة آى بى إم تستخدم الآن كل أنواع الشركاء الأجانب والشركات الفرعية لتصبح منتجاً عالمياً أفضل وأكثر ذكاء فى عالم بدون أسوار. قال مانى فى تحقيقه ما يلى: «يقوم مجموعة من مبرمجى الكمبيوتر بجامعة تسينجهوا فى بيجنج (بكين) بكتابة برمجيات باستخدام تكنولوجيا جاڤا. ويعمل هؤلاء لشركة آى بى إم. وفى نهاية كل يوم يرسلون عملهم عبر الإنترنت إلى مصنع آى بى إم فى سياتل. وهناك يبنى المبرمجون على هذه البرامج ويستخدمون الإنترنت فى إرسالها إلى معهد علوم الكمبيوتر فى بيلاروس (روسيا البيضاء) وإلى مجموعة سوفتوير هاوس فى لاتفيا على بعد 8,355 كيلو متراً. ومن هناك يرسل العمل شرقاً إلى مجموعة تاتا فى الهند، التى ترسل البرمجيات مرة أخرى إلى جامعة تسينجهوا فى بيجنج (بيكين) فى الصباح، ثم تعود مرة أخرى إلى سياتل وهكذا فى عملية تناوب كبرى عبر العالم لا تتوقف قط إلى أن يستكمل المشروع. وصرح جون باتريك نائب رئيس إدارة تكنولوجيا الإنترنت لشركة آى بى إم بقوله: 'إننا نطلق على ذلك جاڤا طوال الأربع والعشرين ساعة. إنه أشبه بخلق يوم من ثمانية وأربعين ساعة عبر الإنترنت'».

فى السبعينيات، كان يمكن لشركة أحذية باتا الكندية أن تفتتح لها العشرات من مصانع الأحذية فى الأسواق الرئيسية حول العالم، ولكن يجب أن يجعل كل مصنع السوق المحلية هدفاً له، وأن يتكيف وفقاً للأساليب والطلب المحلى وأن يبيع 100

فى المائة تقريباً من إنتاجه فى تلك السوق. وبالمقارنة، فإن شركة نايك تستطيع اليوم تصميم حذاء فى أوريجون وترسل بالفاكس أو البريد الإلكترونى ليلاً آخر التعديلات التى أدخلتها على التصميمات إلى مصانعها والمتعاقدين معها فى أنحاء آسيا الذين سيبدأون فى إدارة خط جديد لإنتاج حذاء يشتريه العالم فى اليوم التالى.

حقاً إن شركات مثل فورد، ونايك، وتويوتا ـ تلك الماشية طويلة القرون ـ لا تحرك أموالها هنا وهناك بسرعة الماشية قصيرة القرون، ولكنها تنقلها مع ذلك من دولة إلى دولة أسرع مما يظن الكثيرون من الناس. ذلك أن الكثير من الاستثمارات الأجنبية التى تقوم بها الماشية طويلة القرون هذه الأيام لم تعد بناء المصانع. إنها تنشئ تحالفات مع المصانع المملوكة للسكان المحليين، تكون بمثابة فروع، ومتعاقدين من الباطن، وشركاء للشركات متعددة الجنسية، ويمكن لهذه العلاقات الإنتاجية أن تنتقل ـ وهى تنتقل بالفعل ـ هنا وهناك من دولة إلى أخرى، ومن أحد المنتجين إلى الآخر، وبسرعة متزايدة بحثاً عن أفضل الصفقات من الناحية الضريبية، وعن أكفأ وأرخص قوة عاملة. وتقوم الماشية طويلة القرون بضرب دولة نامية بدولة نامية أخرى. وكل واحدة من هذه الدول بحاجة ماسة إلى الاستثمارات متعددة الجنسية، لأنها أسرع طريقة بالنسبة لها لتحقيق قفزات تكنولوجية. ولقد أنشأت شركة نايك أول منشآت إنتاجية لها فى آسيا فى اليابان، ولكن عندما أصبحت تلك الدولة باهظة التكاليف قفزت إلى كوريا ثم ذهبت بعد ذلك إلى تايلاند والصين والفلبين وإندونيسيا وڤيتنام.

يقول جويل كورن استشارى الإدارة البرازيلى وهو يتحدث عن الشركات متعددة الجنسية، «إنها جيدة بالضرورة. وما زالت أمريكا اللاتينية تعتمد على رأس المال الخارجى، لأن المدخرات المحلية ببساطة ليست كافية لمساندة معدل نمو اقتصادى مرتفع. ولهذا نحن بحاجة إلى استثمار أجنبى مباشر. [هذه الماشية طويلة القرون] تأتى معها أيضاً بمستويات دولية من التكنولوجيا وتساعدنا لكى نصبح متوافقين مع أساليب

الأسواق المختلفة، كما أنها تجلب شركات أجنبية تنقل بدورها تكنولوجيات وأسواق جديدة خاصة بها. وإذا أنت لم تسمح [للماشية طويلة القرون] بالدخول اليوم فكأنما أنت تعيش وحيداً فى كوكب مختلف».

وعلى الرغم من أن هذه العولمة فى الإنتاج بدأت فى نظام الحرب الباردة فإنها اتسعت إلى حد بعيد فى حقبة العولمة، فى حين كانت الماشية طويلة القرون تكدح من أجل التكاثر. وبناء على تقارير البنك الدولى، فإن نصيب إجمالى إنتاجية العالم من المصانع المحلية التابعة للشركات متعددة الجنسية ارتفع من 4.5 فى المائة من إجمالى الناتج المحلى للعالم فى عام 1970 إلى ضعف هذا القدر اليوم. ولئن كانت هذه النسبة قد تبدو صغيرة، إلا أن حجم الدولارات التى تنطوى عليها هائل لأننا نتحدث هنا على إجمالى الإنتاجية فى العالم. فى عام 1987، استأثرت الاستثمارات الأجنبية المباشرة فى الدول النامية بنسبة 0.4 فى المائة من إجمالى الناتج المحلى. واليوم أصبحت تزيد على 2 فى المائة، وأصبحت الآن موزعة ليس فقط على الأسواق الناهضة العشر الكبرى، وإنما فى أنحاء العالم. وإذا أنت ألقيت نظرة على كل الشركات التابعة لشركات أمريكية ـ شركة مثل فورد موتور ميكسيكو على سبيل المثال ـ وسألت عن النسبة المئوية للصادرات فى مبيعاتها فى عام 1966 والنسبة المئوية لمبيعاتها فى الأسواق المحلية لجاءتك الإجابة بأن نسبة الصادرات كانت 20 فى المائة فى عام 1966، وأن نسبة الاستهلاك المحلى كانت 80 فى المائة. أما اليوم، فإن نسبة التصدير 40 فى المائة ونسبة الاستهلاك المحلى 60 فى المائة فقط. ولا عجب فيما قاله لى كريج باريت رئيس شركة إنتل من أن كثيرين من السفراء ورجال الدول من أنحاء العالم يتصلون به كل شهر فى وادى السيليكون، وجميعهم يبلغونه رسالة واحدة هى«تعال إلينا ومعك مصنعك».

جورج سان لوران هو رئيس شركة ڤيتيك، الشركة البرازيلية لإنتاج أجهزة الكمبيوتر التى أسسها فى ولاية باهيا فى شمال شرقى البرازيل، وهو نموذج للماشية

طويلة القرون من القطيع الإلكترونى. فهو يدرك أنه صاحب نفوذ بطريقته الخاصة فى هذه الأيام، ووضّح لى ذات مرة فى إحدى الأمسيات فى البرازيل أنه لا يتوانى فى أن يبلغ السلطات البرازيلية بمطالبه إذا كان سيبقى شركته لصناعة الكمبيوتر هناك، بكل ما تمثله من فرص للعمالة ونقل للتكنولوجيا. قال : «لابد من أن أعمل فى ظل ثبات للعملة حتى أستطيع جذب رؤوس الأموال الأجنبية، ومن ثم يجب أن تكون لديهم ميزانية متوازنة ولهم سيطرة على التضخم مع خفض حجم الحكومة. إن من أهم أهدافنا جلب رأس المال الاستثمارى هنا، ولن يأتى رأس المال إذا لم يكن على يقين من قيمته إذا أراد الخروج مرة أخرى. هذا علاوة على أننى يجب أن أكون مقتنعاً بأن السياسيين لديهم مثل ما لدى من الإحساس بعلاقة الزبون وصاحب السلعة. فإننى قد أركع أمامك إذا كنت زبونى حتى أجعلك تشترى جهاز الكمبيوتر الذى أصنعه. والسياسيون هنا لا يحبون التفكير على هذا النحو، لأنهم لم يعتادوا قط لعب دور البائع. إنما اعتادوا أن يأتى إليهم الجميع ويجلسون تحت أقدام عروشهم فى حين يوزعون هم صدقاتهم ونفوذهم حسبما يرونه مناسباً لهم».

صحيح تماماً ذلك الذى يوح به سان لوران، لقد أصبح استفحال نفوذ القطيع الإلكترونى من الضخامة بحيث لم يبدأ القادة التقليديون فى فهمه والتكيف معه إلا من توهّم. ولقد اكتشفت ذلك للمرة الأولى فى أثناء زيارتى للمكسيك فى ذروة انهيار عملة البيزو المكسيكية فى عام 1995 . وبدأت معرفتى بحجم الأزمة فى أثناء رحلتى بالطائرة إلى المكسيك. فقد كنت منهمكاً فى ملء استمارة الجمارك التى سلموها لى على الطائرة، حين لفت انتباهى السطر الثالث فى الاستمارة. كان يقول إن عليك أن تحدد نوع وظيفتك وتحيطها بدائرة وذلك من بين قائمة اختيارات تضم تسع وظائف مختلفة. ولم يكن من بينها وظيفة «كاتب عمود»، بل كانت تضم وظائف «مزارع» «قائد مركبة»، «مربى مواش»، ثم قفزت أمامى فجأة وظيفة أخرى

تقول «حامل سندات». لقد كشفت لى هاتان الكلمتان كل شئ عن المأزق الذى كانت تمر به المكسيك فى ذلك الوقت. فقد أصبحت المكسيك تعتمد كثيراً فى نموها الاقتصادى على المستثمرين الأجانب ممن قد يشترون سندات حكومتها أو سنداتها التجارية إلى درجة أن «حملةالسندات» الأجانب أصبح لهم فئة وظيفية خاصة بهم فى استمارة الجمارك.

ولسوء حظ المكسيك،كان معظم من يضعون علامة حول هذا المربع فى ذلك الوقت الخارجين منها بنقودهم، وليسوا القادمين إليها. وعندما ذهبت لإجراء مقابلة صحفية مع أحد المسئولين فى البنك المركزى المكسيكى الذين أصابتهم الأزمة بالصدمة، سألنى عن حملة السندات العالميين الذين يغرقون السندات المكسيكية قائلاً: «لماذا هم غاضبون كل هذا الغضب؟ ولماذا هذا الانتقام؟» ولم أعرف كيف أخبره بأن الجحيم ذاته لا يثور ثورة الشخص الحامل لسندات أحد الصناديق المشتركة الأمريكية وبيده تليفون خلوى ثم يرى أن استثماراته قد انخفضت قيمتها. ثم ذهبت لمقابلة إنريك ديل ڤال بلانكو، وهو أحد المسئولين بوزارة الخدمات الإنسانية المكسيكية، وبدا لى فى حالة أشبه بمن تعرض لغزو من أكلة لحوم البشر. قال لى: «إن الجميع يشعرون بأن حياتهم يتحكم فيها شخص ما فى الخارج، والجميع يريدون معرفة من يكون هذا الشخص؟ ما هى تلك القوة؟ لقد كنا نشعر بأننا فى طريقنا إلى أن نصبح من بين أعضاء العالم الأول ثم فجأة حدث خطأ ما. فى لحظة كان يقول لنا البنك الدولى وصندوق النقد الدولى إن المكسيك هى أفضل مثال. والآن أصبحنا أسوأ مثال. ما الذى اقترفناه؟ لقد أفلت الزمام منا. وإذا لم نعثر على نوع آخر من التنمية فقل علينا السلام. إننا نعلن استسلامنا».

ذهبت فى ذلك اليوم نفسه إلى قصر لوس بينوس الرئاسى لمقابلة الرئيس إرنستو زيديللو الذى كان يترنح تحت وطأة انهيار البيزو. لا أتذكر الكثير مما قاله، ولكننى لن

أنسى قط المشهد؛ فقد قام أحد الحراس بالإعلان عن دخولنا أنا وزملائى من صحيفة *التايمز* إلى القصر وقيل لنا أن نصعد السلم ومنه إلى بعض القاعات المؤدية إلى مكتب الرئيس. وكان يبدو أنه لا يوجد أحد. وكنا ندلف من باب إلى باب ثم إلى باب إلى أن وصلنا إلى مكتب صغير لإحدى السكرتيرات التى أشارت لنا إلى حجرة مكتب الرئيس التى تشبه الكهف. دلفنا إلى الحجرة حيث كان الرئيس زيديللو قابعاً وحيداً إلى منضدة فى الركن يستمع إلى «الافتتاحية 1812» لتشايكوفسكى من جهاز استريو بالمكتب وهو أشبه كثيراً بنابليون بعد هزيمته فى معركة ووترلو.

لقد اكتشف جيل كامل من قادة ما بعد الحقبة الاستعمارية ـ مثل زيديللو، ومهاتير، وسوهارتو، وأيضاً بوريس يلتسين، فى أثناء العقد الماضى ـ ما هو شعور المرء الذى يتعرض لضرب المطرقة على رأسه من جانب القطيع الإلكترونى. إنه أمر بغيض. لقد أثبت هذا القطيع أنه لا وجه للشبه بينه وبين أى من أعدائهم المعروفين لهم فى الداخل. إنهم لا يستطيعون اعتقاله، ولا فرض الرقابة عليه، ولا رشوته، بل وغالباً يتعذر عليهم رؤيته، لقد انصاع بعضهم لأوامره مثل زيديللو. ولكن مهاتير وسوهارتو اتخذا طريقاً مختلفاً، لقد وجّها السباب إلى القطيع، واتهماه بالتآمر، وأقسما على الانتقام من قسوته، وفى النهاية، وفى حالة مهاتير، أغلقوا فى وجهه الأبواب بفرض قيود على رؤوس الأموال. لقد شب كل من مهاتير وسوهارتو فى ظل حقبة الحرب الباردة التى كانت تمنع أى من القوتين العظميين من التحدث بقسوة أو مباشرة إلى قادة العالم الثالث، أولئك القادة الذين كانت كل من القوتين العظميين تشتهى مساندتهم فى لعبة الحرب الباردة. ولكن بانتهاء نظام الحرب الباردة خرجت هذه القيود من النافذة. واليوم، لم تعد الثيران القائدة لهذا القطيع من أمثال وزارة الخارجية الأمريكية والأمم المتحدة وحركة عدم الانحياز. فهم لا يقولون لك إنهم يشعرون بما تشعر به من آلام، ولا إنهم يفهمون ما تشكو منه بسبب تجربتك مع الاستعمار. ولا يقولون لك كم أنت

متفرد، وكم أنت مهم في تحقيق استقرار المنطقة، وإنهم لن يمسوك بسوء. إن كل ما يفعلونه هو أن ينتهوا منك ويواصلون طريقهم. لقد حوّل القطيع الإلكتروني العالم بأسره إلى نظام برلماني تعيش فيه كل الحكومات تحت وطأة الخوف من التصويت بعدم الثقة من جانب القطيع.

كنت أتحدث مع أنور إبراهيم نائب رئيس وزراء ماليزيا في كوالالمبور إبان ذروة الأزمة الاقتصادية الآسيوية في عام 1997، وقبل أن يطيح به مهاتير. قال لي أنور إنه عندما واصل مهاتير توجيه اتهامه لليهود وإلى سوروس وغيره من المتآمرين بتعمد دفع سعر العملة الماليزية إلى الهبوط، توجه أنور وبعض زملائه في نهاية الأمر إلى مهاتير برسم بياني وقالوا له شيئاً كالتالي: «انظر لقد قلت ذلك عن سوروس يوم الاثنين، فهبط سعر عملة ماليزيا؛ الرينجيت Ringgit، إلى هنا. وقلت ذلك عن اليهود يوم الثلاثاء، فهبط سعر الرينجيت إلى هنا. وقلت ذلك عن المستثمرين العالميين يوم الأربعاء، فهبط سعر الرينجيت إلى هنا. اخرس!» وفي حالة سوهارتو، ساعد القطيع الإلكتروني في الواقع على إشعال الانتفاضة التي أخرجته من السلطة في مطلع عام 1998، بأن عمل على هبوط سعر العملة والأسواق الإندونيسية إلى الحد الذي فقد معه الشعب والجيش الإندونيسيين كل ثقة في زعامة سوهارتو.

لقد أصبح سوپاتشاي پانيتشباكيدي، نائب رئيس الوزراء ووزير التجارة في تايلاند، يحمل اليوم آثار معركة شخص حاولت بلاده ملاكمة القطيع وخسرت المعركة معه: «لقد ارتكبنا خطأ واحداً ـ لقد ربطنا عملتنا (الباهت) بالدولار لمدة ستة شهور طوال بدون خفض قيمتها. ولم يكن ذلك ليحدث كارثة، ولكن قفز الجميع فوق عملتنا بسبب ما يعرف بتأثير القيادة المنظمة [للقطيع]. ولذلك فبدلاً من هبوطها فقط بنسبة 15 أو 20 في المائة انخفضت بنسبة 50 في المائة. وبما أن السوق خاضعة للعولمة، فقد علم القطيع بحدوث نقص في الاحتياطي لدينا من العملات الصعبة.

وكان أول هجوم وجهوه إلى عملتنا فى فبراير، ثم فى مارس، ثم فى أبريل. وفى كل مرة كان البنك المركزى التايلاندى يدعم العملة من الاحتياطى وفى كل مرة كان البنك المركزى يقول لنا، 'لقد انتصرنا'. ولكنهم كانوا فى الواقع يخسرون فى كل مرة. لأن الاحتياطى كان يهبط بالفعل. وكنا نظن أن العالم لا يعرف شيئاً عن معدلات الاحتياطى لدينا، ولكن الأسواق كانت تعرفه، وشعبنا لم يكن يعرف، أما الأسواق فكانت تعرف. كان أصدقائى فى سنغافورة وهونج كونج يعرفون، وكانوا يحسبون، فى كل مرة ندافع فيها عن عملتنا، عما تبقى للحكومة التايلاندية من الاحتياطى للتدخل مرة أخرى للدفاع عن العملة. ولو أنك سألت رئيس وزرائنا السابق لقال لك إن أحداً لم يقدم له هذه المعلومات. ولكن السوق توصلت إليها وكانوا يعرفون متى تحدث نقطة التحول، حين يتعذر علينا الدفاع عن عملتنا بعد ذلك. وهذا هو بالضبط التوقيت الذى بدأوا فيه فى الانقضاض علينا».

إن التكيف لقُوى أسواق السوبر ماركت والقطيع الإلكترونى يتطلب قادة ذوى تفكير مختلف بالكامل، ولا سيما فى دول الأسواق الناهضة. الموقف كله يتلخص فيما يلى: يجب على جميع قادة العالم أن يفكروا الآن مثل المحافظين. فالمحافظون فى الولايات المتحدة الأمريكية يجب عليهم اتخاذ بعض القرارات، تماماً مثل رؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزراء. بل إنهم فى بعض الأحيان يرسلون الحرس الوطنى. ولكن وظيفتهم الأساسية هذه الأيام هى استمالة القطيع الإلكترونى وأسواق السوبر ماركت للاستثمار فى ولاياتهم، وأن يفعلوا كل ما فى وسعهم للاحتفاظ بهم داخلها، وأن يعيشوا فى خوف دائم من أن يرحلوا عنها. وهذا هو السبب فى أن العالم الآن يحكمه محافظون، أيا ما كان الاسم المحدد لوظيفتهم. وهذا هو السبب فى أن القائد السياسى البارز فى حقبة العولمة هو محافظ كل المحافظين، محافظ الولايات المتحدة وليم جيفرسون كلينتون.

لقد أصبح الملوك، والدكتاتوريون، والأمراء، والسلاطين، ورؤساء الجمهوريات، ورؤساء الوزراء، جميعهم مجرد محافظين الآن. ففى خريف عام 1997، كنت فى زيارة لقطر، تلك الدولة العربية البترولية الصغيرة التى تقع قبالة الساحل الشرقى للمملكة العربية السعودية، ودعيت فى أحد الأيام لتناول طعام الغداء مع الأمير الشيخ حمد بن خليفة آل ثانى. وهو رجل ممتع، وذكى مثل الثعلب، ولكنه رجل اعتاد إصدار الأوامر، وليس تلقيها. كان يسألنى عن الأزمة الاقتصادية فى ماليزيا وجنوب شرقى آسيا وكنت أحدثه عن أن القطيع الإلكترونى وأسواق السوبر ماركت تعاقب ماليزيا لما ارتكبه مهاتير من تجاوزات، بما فى ذلك ما قام به من بناء أطول برجين فى العالم. استمع الشيخ حمد إلىّ ثم قال بعدها شيئاً أشبه بما يقوله المحافظ لا الأمير. قال: «حسناً، أظن أنه يجدر بى ألا أبنى هنا أى مبان شديدة الارتفاع؛ فالأسواق ربما لا تحب ذلك».

إن الطريقة التى يتعلم بها القادة والأفراد والمستثمرون والشركات كيف يتكيفون مع نظام العولمة الجديد هى حقيقة السمة المميزة للسنوات الأخيرة من القرن العشرين. ومع ذلك فثمة شىء واحد ما زلت أرغب فى قوله: إنك لم تر شيئاً بعد!

لقد حاولت أن أوضح أن ديموقراطيات التكنولوجيا والتمويل والمعلومات ـ التى غيرت من طريقة اتصال بعضنا ببعض، ومن طريقة استثمارنا لأموالنا، ومن طريقة نظرتنا إلى العالم ـ قد تولدت عنها كل العناصر الرئيسية فى نظام العولمة فى يومنا هذا. إنها هى التى أطاحت بالأسوار، وهى التى ابتكرت شبكات الاتصال التى مكنت كل فرد منا من الوصول إلى أنحاء العالم وأن نصبح أفراداً ذوى نفوذ فائق. وهى التى أوجدت الصلات والمكان للقطيع الإلكترونى وأسواق السوبر ماركت وغيرها لكى يبرزوا إلى السطح بالفعل. وهى التى أدت إلى الإطاحة بكل الأيديولوجيات القديمة فيما عدا رأسمالية السوق الحرة. وهى التى أوجدت تلك الكفاءات المذهلة التى لابد لأى عمل

من التكيف معها وإلا فإنه الموت، وهى التى خفضت الأسوار التى تمنع من الدخول إلى كل موقع عمل فعلاً. وهى التى تجبر الناس على التحول من التفكير محلياً أولاً ثم عالمياً ثانياً إلى التفكير عالمياً أولاً ثم محلياً بعد ذلك.

وعندما أقول إنك لم تر شيئاً بعد فمرد ذلك إلى وجود الإنترنت. إن ظهور الإنترنت الذى جاء فى المراحل الأخيرة من ديموقراطيات التكنولوجيا والتمويل والمعلومات أسهم بلا شك فى هذه الحقبة الجديدة من العولمة. ولكن مع انتشار الإنترنت فإنها ستصبح المحرك المزود بالشاحن التوربينى الذى يقود العولمة إلى الأمام. فالإنترنت سوف تضمن أن تكون طريقتنا فى الاتصال، وطريقتنا فى استثمار أموالنا، وطريقتنا فى النظر إلى العالم، خاضعة للعولمة باستمرار. فمنذ اللحظة التى تدلف فيها إلى الإنترنت سوف تتمكن من الاتصال مع أى إنسان فى العالم بلا مقابل تقريباً، ومن اللحظة التى تدلف فيها إلى الإنترنت سوف تتمكن من الاستثمار فى أى سوق فى العالم بدون مقابل تقريباً، ومن اللحظة التى تبدأ فيها مشروعاً له موقع على شبكة الإنترنت، أينما كنت فى العالم، فإنه سوف يتعين عليك أن تفكر عولمياً ـ من حيث هوية منافسيك ومن حيث هوية زبائنك.

ذهبت فى مطلع عام 1998 إلى وادى السيليكون لتبادل الحديث حول هذا الموضوع مع جون تشيمبرز رئيس شركة سيسكو سيستيمز ، التى تصنع الأنابيب والصناديق السوداء التى تربط بين شبكة الإنترنت فى أنحاء العالم. قال لى وقتها: «إن الانترنت ستغير من كل شئ. لقد جمعت الثورة الصناعية بين الناس بالآلات الموجودة فى المصانع، أما ثورة الإنترنت فإنها ستجمع بين الناس بالمعرفة والمعلومات فى تجمعات فعلية. وسوف يكون لها كل التأثير فى المجتمع مثلما كان للثورة الصناعية تماماً. وسوف تعزز من العولمة بسرعة مذهلة. ولكنها بدلاً من أن تحدث ذلك على مدى مائة عام، مثل الثورة الصناعية، فإنها ستحدثه على مدى سبع سنوات».

كنت أدون ما يقوله تشيمبرز، بل إنى نقلت عنه هذه التصريحات فى عمود صحفى، غير أنها لم تثبت فى أعماقى حقيقة. واعتبرتها ضرباً من ضروب المبالغة فى الأحاديث التى تسمعها من رجال التكنولوجيا. قلت فى نفسى، «نعم، نعم، نعم، الإنترنت سوف تغيّر كل شئ. هذا ما دأبوا على قوله». غير أننى كلما تعمقت فى كتابة هذا الكتاب، أدركت أن ما قاله تشيمبرز لم يكن حقيقياً فقط، بل كان أقل من الحقيقة.

بعد مضى عدة شهور على زيارتى لتشيمبرز أرسل لى مكتبه صندوقاً به أكواب وأقلام وتى شيرت تحمل شعار حملة الدعاية الجديدة لشركة تشيمبرز التى ربما تكون قد شاهدتها فى التليفزيون. كان بسيطاً للغاية. كان الإعلان التليفزيونى لشركة سيسكو عبارة عن مجموعة من الناس، شباباً ومسنين، ومن أنحاء العالم وهم ينظرون مباشرة فى عين الكاميرا ويقولون: «مستعدون؟» ومرة أخرى، عندما جاءنى هذا الصندوق وبه أشياء عليها هذا الشعار فى ربيع عام 1998، نظرت إليه وقلت فى نفسى: «ماذا تعنى كل هذه الأشياء التافهة؟ يا لها من حملة إعلانية غريبة. أعنى، مستعدون لماذا؟»

غير أنه ما أن أصبح عام 99-1998 هو عام الإنترنت، ذلك العام الذى حققت فيه الإنترنت جمهوراً حاسماً وبدأت فعلاً فى تعريف جديد للتجارة والاتصال، بدأت أفهم تماماً ما الذى كانت تعنيه شركة سيسكو بقولها «مستعدون؟» الإنترنت سوف تصبح مثل آلة تجميع هائلة تربط بين عناصر نظام العولمة التى وصفتها فى هذا الجزء من الكتاب ـ العالم السريع، والقطيع الإلكترونى، وأسواق السوبر ماركت، وقميص القيد الذهبى ـ وتظل تربط بإحكام وبإحكام هذا النظام حول كل منا، بطرق ستزيد من صغر حجم العالم وبسرعة تتزايد وتتزايد فى كل يوم يمر علينا.

لنمعن النظر قليلاً: بفضل الإنترنت أصبح لدينا الآن نظام بريد عالمى مشترك، نستطيع من خلاله أن نتراسل جميعاً ولدينا الآن مركز عالمى مشترك للتسوق، نستطيع أن نشترى ونبيع فيه جميعاً. ولدينا الآن مكتبة عالمية مشتركة، نستطيع فيها جميعاً إجراء أبحاثنا، ولدينا أيضاً جامعة عالمية مشتركة نستطيع الذهاب إليها جميعاً ودراسة المناهج. لم تعد الإنترنت مجرد لعبة نينتيندو هائلة. لقد أصبحت أداة حيوية من أدوات الحياة. فى يناير عام 1999، قررت شركة طيران دلتا إير لاينز إجبار زبائنها على الدخول إلى عالم الإنترنت؛ بأن كانت أول شركة طيران تفرض سعراً مرتفعاً على كل التذاكر التى لا تشترى عن طريق موقعها على شبكة الإنترنت. قالت شركة دلتا إنك إذا حجزت تذكرتك من مقر شركة دلتا فسوف يكون عليك دفع رسوم قيمتها دولارين لكل رحلة داخلية ذهاب وعودة. أما إذا أجريت هذا الحجز عن طريق الشبكة فسوف تلغي هذه الرسوم الإضافية. وعندما سألت صحيفة ***واشنطن بوست*** أحد المسئولين فى شركة دلتا ماذا عن أولئك الذين لا يمتلكون أجهزة كمبيوتر منزلية أو اتصال بالإنترنت ـ ماذا عليهم أن يفعلوا؟ أجاب: «يذهبون إلى المكتبة ويستخدمون أجهزة الكمبيوتر بها». وعندما احتج بعض عملائها اضطرت شركة دلتا إلى إلغاء هذه الرسوم الإضافية. ولكننى واثق من أنها ستعود مرة أخرى. إن مجرد شعور شركة دلتا بالشجاعة الكافية لمواجهة عملائها وإجبارهم على التعامل مع الإنترنت يبين لك إلى أين يقودنا ذلك. ولا يقتصر الأمر على أمريكا. انظر إلى الهند. ففى المناطق الفقيرة المحيطة بدلهى، استخدمت شركة هندية مبتدئة للتليفونات الخلوية، اسمها أوشا جروب، فتيات هنديات على غرار فتيات شركة آفون، يتحركن من بيت إلى بيت فى أفقر القرى، وهن يحملن التليفونات الخلوية ويقدمنها لأناس ليس لديهم تليفونات فى منازلهم. ويستطيع هؤلاء القرويون إجراء جميع مكالماتهم التليفونية على مدى بضع دقائق، مقابل مبلغ بسيط. واليوم تقيم شركة أوشا مراكز عامة للاتصالات التليفونية فى كثير من هذه القرى ـ عن طريق خدمة الإنترنت الرخيصة.

ويحب لارى سومرز نائب وزير الخزانة الأمريكى دائماً أن يروى القصة التالية:
«منذ فترة مضت كنت فى زيارة لموزمبيق ـ التى تعتبر فى بعض الإحصائيات أفقر دولة فى العالم ـ لبحث موضوعات تتعلق بتخفيف أعباء الديون. وفى أثناء جلوسى لتناول طعام الغداء مع بعض رجال الأعمال المحليين سألت الشخص الجالس إلى جوارى عن أحوال العمل. أجابنى بقوله، 'جيدة جداً، غير أننى أشعر بالقلق إزاء المستقبل' وعندما سألته عن السبب أوضح لى أنه يحتكر تقديم خدمة الإنترنت فى موزمبيق ولكنه يخشى من المنافسة القادمة التى ستجعل أرباحه تتآكل».

وكان على حق فى الشعور بالقلق. ذلك أن التكيف مع المرحلة التالية من عولمة الإنترنت، وما يترتب عليها من مزيد من الانكماش ومزيد من السرعة فى العالم يوماً بعد يوم، سوف يصبح تحدياً هائلاً لنا جميعاً ـ أفراداً ودولاً وشركات. وسوف أوضح ما أعنيه بذلك فى الجزأين التاليين من هذا الكتاب «الالتحام بالنظام» و« الردة عن النظام».

مستعدون؟

الجزء الثانى

الالتحام بالنظام

@Ahmedyassin90
تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل السابع

نظام تشغيل رأس المال 6.0

موسكو (أ ب) ـ استجوب رجال الادعاء اليوم صاحب معرض للفنون فى موسكو بعد أن التهم الضيوف والنقاد فى أحد العروض مؤخراً كعكة تمثل فلاديمير لينين بالحجم الطبيعى. فقد أشارت صحيفة موسكو *تايمز* يوم الثلاثاء إلى أن رجال الادعاء استجوبوا سيرجى تارابوروف بعد أن تقدم 20 عضواً شيوعياً من أعضاء البرلمان بشكوى من أن هذه الكعكة فيها انتهاك للقانون الذى يحظر إهانة الشخصيات القومية البارزة.

ـ وكالة أنباء أسوشيتدبرس، موسكو، 8 سبتمبر 1998.

«كم تحمل معك من نقود؟»

وجهت هذا السؤال لى فى نبرة جادة إحدى مندوبات الجمارك الألبانيات فى مطار تيرانا عندما كنت أحاول مغادرة البلاد. وما أن خرجت هذه الكلمات من فمها حتى انتابنى شعور مفزع بأننى سأفارق ما معى من مال.

قلت وأنا أربت على حافظة نقودى: « معى 3,500 دولار».

رددت، وقد لمعت عيناها ببريق: « 3,500 دولار». ثم قالت لزميل لها كان واقفاً إلى جوارها عند بوابة فحص الحقائب بالأشعة السينية، «معه 3,500 دولار».

سألنى الرجل، «من أى بلد أنت؟» فى محاولة منه على ما يبدو لتحديد مدى ضعف موقفى والتأكد من أننى لست دبلوماسياً. قلت له إننى كاتب فى صحيفة *نيويورك تايمز*. ردد رجل الجمارك وهو يعطينى إشارة الفحص السريع « *نيويورك تايمز*؟ دعيه يذهب».

من ذا الذى كان يتصور أن يكون لصحيفة *نيويورك تايمز* كل هذا النفوذ فى تيرانا! ثم إننى عدوت تقريباً حتى دخلت إلى الطائرة. لقد كان هناك مبرر لعصبيتى. فلقد خضت هذه اللعبة من قبل فى دولة أخرى حيث لا يعتبر حكم القانون هو السيد تماماً، فى إيران. غير أن الذى حدث هناك لم ينته هذه النهاية السعيدة. بدأت الواقعة فى مطار طهران الدولى بمثل هذه الطريقة، حيث كنت أحاول المرور من الجمارك فى الساعة الرابعة صباحاً. أمرنى رجل الجمارك بفتح حقيبة سفرى وأن أسلمه استمارة الإعلان عن خلو حاجياتى مما يستحق الجمارك. وكان مدوناً عليها سطر يسأل عن قيمة ما أحمله من نقود، ودونت المبلغ الدقيق الذى تبقى معى وهو 3,300 دولار. فقد كان يتعين علىّ حمل مبلغ كبير من النقود فى زيارتى لإيران نظراً لرفض التعامل بالبطاقات الائتمانية هناك. فحص رجل الجمارك، الرفيع ذو الشارب الكبير، استمارة الجمارك ثم قال وهو ينظر إلى بنظرة عجفاء جائعة، «يا سيد، يا سيد، إنك لا تستطيع الخروج من البلاد إلا بمبلغ 500 دولار فقط».

قلت، «أوه، كلا، وماذا أفعل؟»

انحنى رجل الجمارك الإيرانى ناحيتى وهمس فى أذنى قائلاً، أستطيع أن أسوى لك الأمر مقابل 300 دولار فقط». وكان هناك طابور طويل من الإيرانيين يقفون خلفى يراقبون المشهد كله ـ وجميعهم، بلا شك يعرفون تماماً ما الذى يجرى. فتحت حافظة نقودى وأخرجت منها ثلاث ورقات فئة 100 دولار وكورتها فى يدى.

«توخَّ الحذر» همس بها رجل الجمارك لى ـ وكأن أحدهم فى الطابور خلفى سوف يبلغ فعلاً عما يحدث. ثم تظاهرنا ـ أنا وهو ـ بأننا نعبث فى حقيبة سفرى المفتوحة، ثم قام بحركة خاطفة بانتزاع الثلاثمائة دولار من بين أصابعى. حدث ذلك المشهد بسرعة فائقة ـ بحيث كان لابد من استخدام الحركة البطيئة فى التصوير حتى يمكن رؤيته. ثم ناولنى بيده الأخرى استمارة جمارك أخرى فارغة، وطلب منى تدوين البيانات عليها، بحيث أعلن فيها أننى أحمل معى 500 دولار فقط. ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد. إذ عندما صعدت السلم إلى بوابة السفر، اكتشفت أن هناك تفتيشاً شخصياً بعد مرورى من بوابة الرصد المعدنى. توجهت إلى كابينة خلف ستارة حيث طلب منى جندى إيرانى فتح حافظة نقودى. انتابنى الذعر وقلت فى نفسى: «كيف سأفسر له وجود 3000 دولار معى؟ هل أقول له، اسمع، لقد رشوت زميلك أسفل السلم حتى أصل إلى هذا الحد، إذن أغرب عن وجهى؟» ولحسن الحظ أنه نظر إلى النقود وتمتم ببعض الكلمات بالفارسية وتركنى أرحل.

إن المعتادين على السفر يعرفون أن مغامرتى فى إيران وألبانيا ليس فيها شئ من الغرابة. إن المرء ليصادف هذه الأيام الكثير من مظاهر هذه الظاهرة التى قد يكون أفضل وصف لها هو «الابتزاز البيروقراطى». إن هذا النوع من السرقة يتجاوز الرشوة والفساد العاديين اللذين قد يجدهما المرء دائماً فى الدول النامية، وبدرجة أقل فى الدول المتقدمة أيضاً. الابتزاز البيروقراطى يحدث عندما يصبح الكثير من مهام الدولة أو معظمها ـ بدءاً من جمع الضرائب إلى الجمارك إلى الخصخصة إلى التنظيم ـ ملوثة بالفساد إلى درجة أن المعاملات القانونية تصبح هى الاستثناء و ليست القاعدة. القاعدة، التى تصبح مسموحاً بها ومتوقعة، هى أن كل المسئولين على كل المستويات سوف يستغلون نفوذهم لانتزاع كل ما يستطيعون من نقود من المواطنين والمستثمرين، أو من الدولة ذاتها، وأن المواطنين والمستثمرين سيفترضون أن الطريقة الوحيدة للحصول على قرارات أو خدمات هى رشوة شخص ما.

وتتنوع الدول بدءاً من الابتزاز البيروقراطى الصريح - حيث تكون الدولة قائمة على السرقة مثل نيجيريا - إلى الابتزاز البيروقراطى المقنع - حيث يكون الفساد متفشياً أو مسموحاً به ومتوقعاً ولكن يوجد إلى جانب ذلك بعض المعايير القانونية بل والديموقراطية، مثل الهند. والاختلاف بين الابتزاز البيروقراطى الصريح والابتزاز البيروقراطى المقنع نجد له أفضل تصوير فى تلك النكتة القديمة التى تتردد كثيراً فى أروقة البنك الدولى عن وزيرى البنية الأساسية الآسيوى والأفريقى اللذين تبادلا الزيارات. فقد زار الوزير الأفريقى أولاً الوزير الآسيوى فى بلاده، وفى نهاية اليوم اصطحب الوزير الآسيوى الوزير الأفريقى للعشاء فى منزله. كان الوزير الآسيوى يعيش فى منزل أشبه بالقصر. ولذلك سأله الوزير الأفريقى: «واو، كيف يتحمل مرتبك مثل هذا المنزل» ؟ الوزير الآسيوى يصطحب الوزير الأفريقى إلى نافذة كبيرة تطل على الخليج ويشير إلى جسر جديد على البعد. يسأل الوزير الآسيوى الأفريقى: « هل ترى ذلك الجسر الموجود هناك؟» يقول الأفريقى: «نعم، أراه» بعدئذ يشير الوزير الآسيوى بإصبعه إلى نفسه ويقول هامساً: «10 فى المائة». بما يعنى أن 10 فى المائة من تكلفة إنشاء الجسر ذهبت إلى جيبه. حسناً، بعد مضى عام، ذهب الآسيوى لزيارة الوزير الأفريقى فى بلاده، ووجد أنه يعيش فى منزل أكثر فخامة من قصر نظيره الآسيوى. سأل الآسيوى الأفريقى: «واو، كيف يتحمل مرتبك مثل هذا المنزل؟» جذب الأفريقى نظيره الآسيوى نحو نافذة فى حجرة المعيشة تطل على الخليج وأشار نحو الأفق. سأل الأفريقى الآسيوى: هل ترى الجسر الموجود هناك؟» رد الآسيوى: «كلا لا يوجد جسر هناك». أشار الأفريقى إلى نفسه وقال: «هذا صحيح، 100 فى المائة».

ما هى العلامات الملموسة على وجود الابتزاز البيروقراطى سواء كان صريحاً أم مقنعاً؟ حسناً، إليك فيما يلى بعض المؤشرات التى جمعتها عبر السنين.

الابتـزاز البيـروقـراطى هو مـوسكو فى أعـوام 1995 و(1996 و1997 و1998 و1999)، فى وقت انتشرت فيه الجريمة على أثر انهيار الاتحاد السوفيتى. بعد أن نزلت فى فندق بنتا فى وسط موسكو، أخذت ما لدىّ من نقود وذهبت إلى الاستعلامات وقلت للموظف هناك إننى أريد تأجير خزانة لتأمين وديعة فيها. فقد كنت لا أريد المجازفة على أية صورة بالسير فى شوارع موسكو وجيوبى مكتظة بالدولارات.

قال موظف الاستعلامات، «آسف. إنها جميعاً محجوزة، وهناك قائمة انتظار. هل تريد أن أضع اسمك فيها؟»

انتابنى الضحك. قائمة انتظار لخزائن تأمين الودائع فى فندق؟ لقد كان ذلك بمثابة الجملة اللاذعة فى نهاية نكتة سخيفة: كيف تعرف أنك فى مدينة خطيرة بالفعل؟ الإجابة: عندما تكون جميع خزائن تأمين الودائع فى الفنادق محجوزة». لا عجب إذن فيما اكتشفه مستثمر قابلته فى موسكو كان قادماً لتوه من شراء أحد البنوك الروسية ووجد أن عدد رجال الأمن فى البنك يفوق عدد الموظفين به. وقال لى عن سلسلة المطاعم الغربية التى أوفدت مؤخراً فريقاً من محاسبيها لاكتشاف السبب فى أن فرعها فى موسكو يعمل كثيراً ويربح قليلاً. وقد اكتشفوا أن كل موظف تقريباً ضالع فى نوع ما من اللصوصية ـ بدءاً من شيفات المطبخ الذين يسرقون الهامبورجر إلى المديرين الذين يبتزون جزءاً من رواتب العاملين.

الابتزاز البيروقراطى فى ألبانيا يتمثل فى انتشار التهرب من الضرائب إلى درجة أنه فى عام 1997 كانت الشركة رقم خمسة وثلاثين التى تدفع أعلى ضرائب فى البلاد هى مؤسسة ألبانية أمريكية مشتركة لصناعة البيتزا، وكانت سرقة السيارات منتشرة إلى حد أن المسئولين الأمريكيين قدروا أن 80 فى المائة من السيارات التى تسير فى شوارع ألبانيا مسروقة من أماكن أخرى فى أوروبا.

الابتزاز البيروقراطي هو الفساد في روسيا، الذي يشيع إلى درجة كبيرة في قيادات الكرملين إلى درجة أن الروس يتندرون عن الرجل الذي جاء بسيارته من الريف إلى موسكو وأوقف سيارته الجديدة إلى الخارج مباشرة من بوابة سباسكي جيت في الكرملين بالميدان الأحمر. وجاء إليه رجل شرطة وقال له: « اسمع، لا توقف سيارتك هنا. فهذه هي البوابة التي يمر منها كل قادتنا». قال له الرجل، «لا تقلق، فلقد أحكمت إغلاق سيارتي».

الابتزاز البيروقراطي هو القصة التي رواها لي صديق كان يعيش في إندونيسيا إبان حكم عائلة سوهارتو ذات الباع الطويل في الفساد. وكان يعمل منذ فترة طويلة في إندونيسيا مراسلاً لصحيفة مقرها في سنغافورة، وكان عليه تجديد إقامته بصفة مستمرة. قال لي موضحاً إن الفساد ضرب بجذوره في أعماق جاكارتا إلى درجة أن المسئولين كانوا «بالفعل يعطونك إيصالاً بالرشوة التي دفعتها. والواقع أنني كنت أجدد أوراق إقامتي كل عام. أدفع الرشوة وأحصل على الإيصال. فقد كان المحاسبون في مكتبي يريدون توثيق المصروفات وكان المسئول الذي أدفع له الرشوة يوفرها لي». ولا عجب في تلك المقولة التي انتشرت إبان حكم سوهارتو وفحواها: إذا سرق منك جارك عنزتك فلا تأخذه إلى المحكمة بأي حال من الأحوال، لأنه عندما تنتهي من رشوة رجال الشرطة والقضاة ستجد أنك فقدت بقرتك أيضاً.

الابتزاز البيروقراطي هو عندما يعتقد المسئولون وواضعو القوانين المسئولون عن الإشراف على تنفيذ القوانين أن تلك القوانين لا تسري عليهم. حكى لي مرة نايان تشاندا المحرر بصحيفة **فار إيسترن إيكونوميك ريفيو** تجربة مر بها أثناء زيارته للصين: «كنت في بيجنج (بكين) وكنا نسير على الطريق الدائري الثاني ومعي مترجم من وزارة الخارجية وسائقه الرسمي من الوزارة ومساعد مكتب صحيفتنا في الصين. وفي أثناء سيرنا في الطريق السريع قام سائق وزارة الخارجية بحركة التفاف مفاجئة ومضى مباشرة

إلى مدخل أحد المطالع إلى الطريق السريع وهو يرفع نفير السيارة بشراسة. كانت السيارات تأخذ طريقها صاعدة المطلع إلى الطريق السريع ونحن نميل تجاهها. أصابنى الذهول والفزع. قلت للمترجم: 'ما الذى يفعله هذا السا ئق!!! ' أجابنى بأن السائق لاحظ وجود ازدحام شديد فى حركة المرور أمامنا فقرر الالتفاف حولها والخروج من مدخل المطلع. أغلقت عينى، وقبعت خلف المقعد وأنا أدعو الله الخروج سالماً من هذا المأزق. وخرجت سالماً. غير أن الفكرة جاءتنى فيما بعد: ماذا عن الأعمال الخاصة التى ستدخل إلى الصين؟ إن الصينيين يوقعون معهم على الصفقة، ويحصلون منهم على التكنولوجيا ثم بعد ذلك يغيرون القوانين ويقولون لهم عودوا إلى بلادكم. فهل يعودون سالمين؟

كلا عندما يكون واضعو القوانين فى الصين من المرتشين. قال لى رئيس فرع أكبر البنوك الكندية فى الصين فى عام 1997 إن البنك نقل مرة بضعة آلاف من الدولارات من فرعه فى هونج كونج إلى فرعه فى شنغهاى، واستغرقت عملية النقل ثمانية عشر يوماً. قال لى هذا المصرفى مرة ونحن نتناول طعام الغداء: أظن أننا نعرف ما حدث ، لقد أخذ أحدهم فى البنك المركزى النقود، وضارب بها فى بورصة شنغهاى لمدة سبعة عشر يوماً ثم أعادها مرة أخرى فى اليوم الثامن عشر، حين ظهرت فى حساباتنا» .

الابتزاز البيروقراطى هو مليارات الدولارات التى أُخذت بطريق الفساد فى برامج الخصخصة فى أنحاء أوروبا الشرقية وروسيا، حيث نجحت القلة من الصفوة، الذين يتعاونون دائماً تعاوناً وثيقاً مع المافيا المحلية والمسئولين الحكوميين، فى السيطرة على المصانع والموارد الطبيعية التى كانت مملوكة من قبل للدولة بأسعار أقل من معدلات السوق، وجعلتهم بين عشية وضحاها من أصحاب المليارات. وقد حلقت أسعار العقارات من باريس إلى تل أبيب إلى لندن بسبب هؤلاء المستغلين الروس وغيرهم من

المتمرسين فى نشل الأموال الذين خطفوا أصول هذه الدولة وخرجوا بها بمعدلات أسعار مذهلة. أمريكا أيضاً، عندما كانت سوقاً ناهضة، كان لها باروناتها من اللصوص، تماماً مثلما يوجد الآن فى روسيا بارونات لصوص. غير أن بارونات اللصوص الأمريكيين استثمروا نقودهم فى البورصة الأمريكية وفى شراء العقارات الأمريكية، أما الآن، وبفضل العولمة وحرية تحرك رؤوس الأموال، استثمر بارونات اللصوص الروس أموالهم أيضاً فى البورصة والعقارات الأمريكية، وأفقروا بلادهم.

بيد أنه يحدث أحياناً ألا يقتصر الابتزاز البيروقراطى على مجرد أن تمزق الصفوة الغنية المستغلة بلادهم، بل وأيضاً الناس البسطاء فى محاولاتهم للبقاء فى دولة لم يعد بها شبكة للأمان الاجتماعى. كنت مرة فى مطار جاكارتا لتغيير الطائرة وكان على أن أتوجه من صالة الرحلات المحلية إلى صالة الرحلات الدولية. خرجت نحو الممرات ومعى حقائبى وانتظرت فى طابور خلف علامة مكتوب عليها: «الانتقال بدون مقابل بين صالات المطار». وعندما جاءت سيارة المطار، وضعت فيها حقائبى وكنت الراكب الوحيد فيها. وعندما كنت أمر إلى جانب السائق لأهمّ بالنزول عند الصالة التالية، أوقفنى السائق قائلاً، «يا سيد» وأشار إلى لافتة بدائية ثبتها فوق مقعده مكتوب عليها بالحبر الأحمر إن التوصيلة تتكلف 4,900 روبية (نحو دولارين فى ذلك الوقت)، هززت كتفى مستغرباً وأعطيته النقود.

الابتزاز البيروقراطى كان يمضى مع جون بيرنز رئيس مكتب *النيويورك تايمز* فى نيودلهى، فى صيف عام 1998، لزيارة البرلمان الهندى، وهو المكان الذى يصدر القوانين الهندية. لاحظ بيرنز أثناء انتظارنا فى الردهة للسماح لنا بالدخول، كتاباً معروضاً للبيع فى محل بيع الكتب الملحق بالبرلمان وعنوانه *شخصيات البرلمان الهندى* يحتوى على السيرة الذاتية لكل أعضاء البرلمان وصور لهم. فقرر بيرنز شراء نسخة من هذا الكتاب. سأل الموظف الواقف خلف الحامل الذى تعرض عليه الكتب: «إلى من

أذهب لشراء كتاب؟» رد الموظف قائلاً: «هنا يا سيد، 700 روبية». ثم انصرف الرجل لإحضار نسخة من الكتاب. وحين عاد طلب منه بيرنز إيصالاً بثمن الكتاب. قال الرجل «نحن نغلق المحل فى فترة الظهيرة، ولذلك فإن هذا سوف يكون خارج الأوقات الرسمية للبيع ـ بمعنى أنه لن يكون هناك إيصال. وبعدها سلم جون الكتاب ووضع النقود فى جيبه هو. لقد وجدت فى ذلك شيئاً من الطرافة ـ أن يكون عليك رشوة أحدهم فى بهو المجلس التشريعى الهندى للحصول على كتاب عن المشرعين الهنود.

وأظن أن ذلك يفسر ما نشرته صحيفة *تايمز* الهندية فى 16 ديسمبر 1998، عن إلغاء عملية بحث بدأ قبل ثمانية عشر شهراً فى ولاية البنجاب الهندية المثقلة بالفساد. وكان البحث يدور عن أى مسئول يستحق الحصول على مكافأة قدرها 100 ألف روبية (2,380 دولار) لأنه يقدم خدمة حكومية دون الحصول على رشوة فى ولاية يتطلب قضاء أى مصلحة فيها، بدءاً من عدادات الكهرباء إلى الالتحاق بالمدارس الحكومية، دفع رشوة لشخص ما. ولكن لم يعثر على أثر لمسئول يستحق هذه المكافأة. وذكرت صحيفة *نيودلهى* أن البحث، بدلاً من أن يؤدى إلى العثور على من يستحق المكافأة، أفرز أدلة قد تستخدم لتوجيه الاتهامات بالفساد لثلاثمائة مسئول.

ما علاقة كل هذا بالعولمة؟ سوف أحاول الإجابة عن طريق استخدام بعض التشبيهات البسيطة من عالم الكمبيوتر. فأنا أود أن أشبه الدول بثلاثة أجزاء فى الكمبيوتر. أولاً، هناك الآلة ذاتها، أى جهاز الكمبيوتر (الهاردوير). وتلك هى المحارة الأساسية التى تحيط باقتصادك. وقد كان لديك طوال فترة نظام الحرب الباردة ثلاثة أنواع من أجهزة الكمبيوتر فى العالم ـ جهاز كمبيوتر السوق الحرة، وجهاز الكمبيوتر الشيوعى، والجهاز المهجن الذى يجمع بين صفات الاثنين.

والجزء الثانى هو «نظام التشغيل» لجهاز الكمبيوتر عندك. وأنا أشبه ذلك بالخطوط العريضة فى السياسات الاقتصادية الكلية العريضة لأى دولة. ففى الدول

الشيوعية كان نظام التشغيل الاقتصادى الأساسى هو التخطيط المركزى. ولم يكن هناك سوق حرة. وكانت الحكومة تقرر طريقة تخصيص رؤوس الأموال. وأنا أطلق على نظام التشغيل الاقتصادى الشيوعى هذا نظام تشغيل رأس المال صفر (DOScapital 0.0) .

وكانت نظم التشغيل فى الدول المهجنة عبارة عن تركيبات مختلفة من الاشتراكية، والأسواق الحرة، والاقتصاد الذى توجهه الدولة، والرأسمالية المتهاونة، التى يرتبط فيها البيروقراطيون الحكوميون والأعمال الخاصة والبنوك جميعاً بعضهم ببعض. وأنا أطلق على ذلك نظام تشغيل رأس المال DOScapital 1.0 to 4.0 أى نظام تشغيل رأس المال من 1.0 إلى 4.0، حسب درجة تدخل الدولة وتركيب الاقتصاد. المجر، على سبيل المثال، نظام تشغيل رأس المال 1.0 ، والصين نظام تشغيل رأس المال 1.0 فى المناطق الداخلية و4.0 فى شنغهاى، وتايلاند نظام تشغيل رأس المال 3.0، وإندونيسيا نظام تشغيل رأس المال 3.0 وكوريا نظام تشغيل رأس المال 4.0 .

وفى النهاية تأتى النظم الرأسمالية الصناعية الكبرى. بعض هذه النظم لديها نظم تشغيل قائمة على أساس حرية الأسواق ومع ذلك يوجد بها جزء لا بأس به من تدخل الدولة فى توفير الرعاية الاجتماعية. تضم هذه المجموعة كلا من فرنسا وألمانيا واليابان، وأنا أطلق على ما بها من النظم نظم تشغيل رأس المال 5.0. بيد أن الآخرين فى هذه المجموعة مثل الولايات المتحدة، وهونج كونج، وتايوان، والمملكة المتحدة، قد حرروا اقتصاداتهم ووضعوا أنفسهم تماماً داخل قميص القيد الذهبى. وهذه الدول لديها نظام تشغيل رأس المال 6.0 .

بالإضافة إلى نوع جهاز الكمبيوتر أو الجزء الصلب الذى يحتوى فى داخله الاقتصاد وإلى نظام التشغيل الأساسى، يوجد أيضاً «البرمجيات» التى يحتاجها للاستفادة إلى أقصى حد من كلا الجزأين. البرمجيات، بالنسبة لى، هى كل الأشياء

التى تندرج تحت فئة حكم القانون. البرمجيات مقياس جودة النظم القانونية والتنظيمية فى دولة ما، ودرجة فهم المسئولين والبيروقراطيين والمواطنين فى هذه الدولة لقوانينها، واحتضانها ومعرفة كيفية تطبيقها بنجاح. والبرمجيات الجيدة تشتمل على القوانين المصرفية، والقوانين التجارية، وقوانين الإفلاس، وقوانين العقود، ومجموعة القوانين الأساسية لسلوك الأعمال الخاصة، والبنك المركزى الذى يعمل باستقلالية فعلية، وحقوق الملكية التى تشجع على المجازفة، وعمليات مراجعة القوانين، ومعايير المحاسبة الدولية، والمحاكم التجارية، ووكالات الإشراف التنظيمية التى يساندها نظام قضائى عادل، والقوانين المناهضة لتعارض المصالح والعمليات التى ينغمس فيها المطلعون على بواطن الأمور من المسئولين الحكوميين، وكذلك المسئولين والمواطنين المستعدين لتنفيذ هذه القوانين على نحو ثابت إلى حد ما.

فى الحرب الباردة، كان الصراع الأكبر يدور حول من الذى سيسيطر جهاز الكمبيوتر لديه على العالم. ولم يكن السوفيت والأمريكيون يهتمون كثيراً بمدى كفاءة أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهما فى العمل داخل أى دولة حليفة معينة. بل كانوا يريدون فقط التأكد من أن الدول الأخرى تستخدم ماركتهم، وعليها ملصقاتهم. حقاً، لقد كانت أى دولة تستطيع المضى فى طريقها لفترة طويلة فى ظل نظام تشغيل بائس فى داخلها وبرمجيات فاسدة، إذ كان السوفيت والأمريكيون متلهفين لضمها إلى فريقهم إلى درجة أنهم قد يقدمون الدعم لها أو يعرضون الإصلاح بلا مقابل - طالما ظلت هذه الدولة ملتصقة إلى ماركة الدولة العظمى. لقد كانت كل من الدولتين العظميين تعيش فى خوف من «نظرية الدومينو» التى تنص على أنه إذا غيرت دولة مهمة الماركة فسوف تحذو حذوها كل الدول المجاورة.

لقد انتهى هذا الصراع بانهيار نظام الحرب الباردة. أصبحت فجأة كل النماذج الشيوعية والاشتراكية وأيضاً المهجنة موصومة. وفجأة وجدنا أنفسنا وسط لحظة مدهشة

فى تاريخ البشرية: للمرة الأولى أصبح لكل دولة تقريباً فى العالم، جهاز الكمبيوتر نفسه تقريباً ـ رأسمالية السوق الحرة. وبمجرد أن حدث ذلك تغيرت اللعبة بأكملها. ولم يعد يتعين على الدول أن تختار لها جهاز كمبيوتر، وما عليها إلا أن تصنع الأفضل من الجهاز الذى يبدو أنه سينجح ـ أى رأسمالية السوق الحرة.

غير أن هناك مقولة فى عالم تكنولوجيا الكمبيوتر :«إن جهاز الكمبيوتر يسبق دائماً البرمجيات ونظم التشغيل». أى يظل المهندسون يخترعون شذرات الكمبيوتر أسرع فأسرع، وفيما بعد يأتى نظام التشغيل والبرمجيات الأكثر تطوراً للحصول بحق على ميزة هذا الجهاز الجديد لاستخراج أفضل ما فيه. وينطبق هذا القول أيضاً على عالم العولمة. فما شهده العالم منذ انهيار الشيوعية والاشتراكية فى روسيا وأوروبا الشرقية والعالم الثالث ليس إلا تبنى عدد كبير من الدول لذلك الجهاز الأساسى من الأسواق الحرة، وكذلك توصيل أجهزتهم بالتيار عالى الڤولت للقطيع الإلكترونى، ولكن غالباً بدون توصيل نظام التشغيل أو البرمجيات أو المؤسسات الأخرى اللازمة للإدارة الفعالة والتخصيص المنطقى لأوجه تداول رأس المال والطاقة اللذين يمكنهما التدفق داخل الدول وخارجها.

وهذا، الذى سوف نكشفه، يمثل إحدى المشكلات الرئيسية فى التحول من نظام الحرب الباردة إلى نظام العولمة : مشكلة «العولمة الفجة أو غير الناضجة». وأنا أكرر هنا ما سبق لى قوله : إنك لا تستطيع الازدهار اليوم بدون الالتحام بالقطيع الإلكترونى وأسواق السوبر ماركت، كما لا تستطيع الاستمرار فى الحياة اليوم بدون أن يكون لديك نظام تشغيل البرمجيات التى سوف تتيح لك استخراج أفضل ما فيها وأن تقدم لك الحماية من أسوأ تجاوزاتها حين تلجأ إلى اندفاعات الفرار المذعور.

لقد استغرق العالم السنوات العشر الأولى من حقبة العولمة الجديدة لكى يتعلم هذا الدرس. وكان من المحتم أنه فى حين تحرك الجميع نحو الماركة نفسها من جهاز

الكمبيوتر ـ وهى الأسواق الحرة ـ إلا أن هناك أوجه من الفتور أو التباطؤ فى الطريقة التى تتبعها الدول المتقدمة المختلفة فى نظم التشغيل والبرمجيات بها لكى تلحق بها. نعم، من السهل أن تشترى جهاز كمبيوتر ولا سيما عندما تكون هناك ماركة واحدة. إذ إن أى غبى يمكنه أن يذهب إلى مدينة الكمبيوتر ويلتقط جهازاً. ولقد فعلت ذلك كثير من الدول فى أثناء التحول من نظام الحرب الباردة إلى نظام العولمة، بدون أن تفكر فى أن يكون لديها نظام التشغيل والبرمجيات التى تدير الكمبيوتر بفاعلية. ولم تقل هذه الدول سوى «نعم، إن الأمر يبدو سهلاً. وما علىّ إلا توصيل جهازى الممتاز بالقطيع الإلكترونى هنا تماماً .....».

غير أن الأمر فى الحقيقة أكثر صعوبة مما كان يبدو. فمن السهل أن تعلن عن السوق الحرة فى بلادك. أما الصعب فهو أن تضع الأساس للتنفيذ العادل للقوانين واللوائح التجارية العادلة، إلى جانب المحاكم التى تحمى الناس من الرأسمالية التى تحررت من الأغلال. من السهل أن تفتح بورصة أوراق مالية. وحتى منغوليا أصبحت لها اليوم بورصة للأوراق المالية. غير أنه يصعب كثيراً إنشاء هيئة للأوراق المالية والبورصة مثل الموجودة فى أمريكا وتستطيع السيطرة على المطلعين على بواطن الأمور. فمن السهل إرخاء القيود فجأة للصحافة والسماح بالتدفق الحر للمعلومات الاقتصادية. ولكن يصعب كثيراً بناء وحماية صحافة حرة مستقلة حقيقة تستطيع أن تكشف الفساد داخل الحكومة وأن تميط اللثام عن الشركات المخادعة التى تغش حملة الأسهم.

فى نظام الحرب الباردة كان التقسيم الأكبر فى العالم يتمثل فى الاقتصادين الشيوعى والرأسمالى، مع وجود بعض الأشكال المهجنة التى تقف فيما بينهما. والآن وقد أصبح لدى الجميع تقريباً أجهزة الكمبيوتر نفسها، فإن التقسيم الأكبر فى العالم سوف يكون على نحو متزايد فيما بين ديموقراطيات السوق الحرة وبيروقراطيات السوق

الحرة المبتزة. وسوف تتحرك تلك الدول التى تستطيع تطوير نظم تشغيلها وبرمجياتها لتتلائم مع الأسواق الحرة تجاه ديموقراطيات السوق الحرة. أما الدول التى سيتعذر عليها أو ستكون غير راغبة فى تطوير البرمجيات ونظم التشغيل لديها فإنها سوف تتحرك فى اتجاه بيروقراطيات السوق الحرة المبتزة، التى يحتلها بارونات اللصوص والعناصر الإجرامية، وليس بين هؤلاء من يهتم بحكم القانون الحقيقى.

وداعاً عصر الشيوعيين مقابل الرأسماليين. مرحباً بديموقراطيات السوق الحرة مقابل بيروقراطيات السوق الحرة المبتزة.

ولما كان معظم الناس يعرفون كيف تبدو أفضل ديموقراطيات السوق الحرة فدعونى أصور لكم كيف تبدو أسوأ بيروقراطيات السوق الحرة المبتزة. وبعدها سوف يسهل عليكم التعرف على موقع أى دولة فى النطاق الطيفى بين الاثنتين.

كان أنصع مثال على بيروقراطية السوق الحرة المبتزة شاهدته فى حياتى يتمثل فى ألبانيا أثناء التسعينيات. لقد ظلت ألبانيا أكثر الدول الشيوعية عزلة طوال خمسين عاماً، حيث تبنت الموقف المؤيد للصين أثناء الحرب الباردة، أى موقف ماو تسى تونغ. وفى أعقاب انهيار سور برلين انهار أيضاً النظام الشيوعى فى ألبانيا فى عام 1991. وأجريت انتخابات بدائية فيها، ونصبت حكومة شبه ديموقراطية فى تيرانا. وظن الألبان أنه أصبح لديهم أخيراً ما لدى الآخرين جميعاً: جهاز كمبيوتر السوق الحرة. والمؤسف، أن ذلك هو كل ما استطاعوا الحصول عليه. ألبانيا جميعها أصبحت جهاز كمبيوتر، ولكن بدون برمجيات أو نظام تشغيل.

خلال زيارتى للعاصمة الألبانية تيرانا فى عام 1998 وصف لى فاتوس لوبونيا، الكاتب الألبانى ورئيس تحرير مجلة *إنديفور* الأدبية الألبانية البالغ من العمر سبعة وأربعين عاماً، الحياة فى ظل بيروقراطية الابتزاز الألبانية. قال: «بعد انتهاء الشيوعية

أصبحنا متساويين تماماً هنا. أصبحنا جميعاً فى مستوى الصفر. قليل من الناس لديهم ممتلكات أو اتصالات. لذلك برز بعد ذلك نظام هرمى. فقد اعتبر الناس السياسة نوعاً من العمل الخاص أساساً ؛ لأن المرء عندما يكون سياسياً يستطيع أن يفتح أو يغلق الأبواب. تستطيع أن تمنح أو تمنع التوقيعات. واعتبرت السوق الحرة أنها حرة فى أن تفعل أى شئ. ومن ثم بدأ أكثر الناس جرأة فى القيام بكل أشكال الأعمال، واكتشف المجرمون أنهم يحتاجون السياسيين لأمر ما، واكتشف السياسيون أنهم يحتاجون للمال حتى يظلوا فى السلطة. وكان الناس يفتقرون إلى التجارب السابقة. وكانوا جهلة [فى أمور الحكم]. لم يدركوا أنه بدون البرمجيات ستكون ألبانيا غابة، ولذلك شعر الناس بالمعاناة، واختطفت العصابات الكثيرين منهم أو غادر الكثيرون منهم البلاد. [وسرعان ما أدرك الناس أن] ألبانيا لا تستطيع التنافس فى السوق الحرة إلا باقتصاد غير قانونى. ومن ثم فقد أنشأنا هذه البورجوازية الإجرامية. إنهم لا يدفعون ضرائب. وهم لا يشعرون بالمسئولية تجاه الأحوال الاجتماعية للشعب أو تجاه البنية الأساسية. إن كل ما يفعلونه هو الأخذ والأخذ. وإذا تعذر عليك التنافس فى مجال شذرات الكمبيوتر الدقيقة فسوف تتنافس فى مجال المافيا. أما فيما يتعلق ببناء ديموقراطية السوق الحرة فإننا عند نقطة الصفر. كانت السنوات الخمس الأولى مجرد تحول عن الشيوعية. وبدلاً من بناء اقتصاد للسوق الحرة يكافئ المبادرة والمخاطرة، خلقنا اقتصاداً إجرامياً يرتبط بخطط هرمية. كان الناس يضعون أموالهم فى هذه الأهرامات. وبدلاً من استثمارها كانوا يحتسون قهوتهم انتظاراً للمال يأتى إليهم، وهو ما كان يعد به أصحاب الأهرامات. وذكرنى ذلك بالطريقة التى كنا ننتظر بها المساعدات تأتينا من الصين، ونعيش على ذلك [إبان الحرب الباردة]. وأيا كانت صفته، فهو لم يكن اقتصاداً حقيقياً».

حقاً، كان ما حدث فى ألبانيا هو أنه بدلاً من قيام نظام مصرفى سليم، أجازت الحكومة خطط بونزى، بل وعززتها بدرجة ما ـ وهذه الخطط من أقدم أشكال الغش. وكانت خطط بونزى تلك راسخة فى ألبانيا إلى درجة أن واحدة من أكثرها وقاحة قامت برعاية فريق إيطالى لسباق السيارات، كما لو كان ماستر كارد دولية. إذ جاء منظم لخطة بونزى نموذجيـة إلى الناس وقـال لهم إنهم إذا أودعوا مـدخـراتهم فى «الصندوق» فسوف يحصلون على أرباح بنسبـة 20 و30 بل وحتى50 فى المائة على أموالهم فى غضون ستة شهور. ونظراً لأن الصناديق بونزى لم تكن تنفق الأموال فى استثمارات حقيقية أو فى القليل منها فقط بما يجعلها تعطى مثل هذا العائد المرتفع فقد كانت طريقتها فى دفع هذه الفائدة المرتفعة هى استدراج مستثمرين جدد بصفة مستمرة حتى يدفعوا من أموالهم للمستثمرين القدامى ـ فى حين يقتطعون دائماً جزءاً من هذه الأموال لمنحها لمديرى الصندوق. ويمضى الحال على ما يرام إلى أن يتوقف مجىء مستثمرين جدد.

وضح لى كارلوس إلبيرت رئيس مكتب البنك الدولى فى تيرانا الأمور قائلاً: «بدأت خطط البونزى بمحاولات لجمع أموال لتمويل شراء البنزين الذى يمكن تهريبه بأسعار شديدة الارتفاع إلى دولتى مونتنيجرو (الجبل الأسود) وصربيا المجاورتين اللتين فرضت عليهما عقوبات دولية إبان الحرب فى البلقان. ولكن بعد رفع العقوبات عن صربيا لم يكن هناك نشاط حقيقى للأعمال الخاصة وراء خطط البونزى، ولذلك فقد اقتصرت على مجرد جلب أموال جديدة لتمويل الأموال القديمة. وعندما أصبحت حاجة الأشخاص، الذين يديرون هذه العمليات، ملحة إلى السيولة عرضوا أرباحاً بنسبة 50 فى المائة على الأموال التى يحصلون عليها. وأصبح من الصعب علىّ أن أقنع حتى الألبان العاملين لدىّ فى مكتب البنك الدولى فى ألبانيا بأن خطط البونزى هذه مآلها إلى الإخفاق. وكان هؤلاء العاملون يومئون إلىّ برؤوسهم لدى سماع ذلك ثم

يضعون مزيداً من الأموال فى خطط البونزى تلك. لقد كانت شديدة الإغراء، وكان الجميع يفعلون ذلك. كانت بمثابة الحمى. كان الناس يبيعون منازلهم ويضعون أموالهم فى خطط البونزى ثم بعد شهرين أو ثلاثة أشهر يشترون المنزل القديم وآخر جديداً. لقد حذر صندوق النقد الدولى والبنك المركزى الحكومة الألبانية: 'إن الأموال لا تنمو فوق الشجر،' ولكن الحكومة رفضت التدخل»

كان ذلك يرجع من جهة إلى أن الحكومة الألبانية لم يكن لديها من العاملين بها من لديهم معرفة أفضل، ومن جهة أخرى لأن الكثيرين من المسئولين فيها ذاتهم أصيبوا بحمى البونزى. يقول إلبيرت : «كنت إذا ذهبت إلى مقر إقامة أحد السفراء بمناسبة اليوم الوطنى لبلاده كنت أرى أحد أصحاب خطط البونزى هذه. فقد كانوا يتمتعون بالترحيب التام والشرعية، وهذا ما جذب إليهم الكثيرين من الناس البسطاء».

ولكن، وفى النهاية، انهارت صناديق الادخار الهرمية الألبانية فى عام 1997، كما يحدث دائماً لمثل هذه الأشياء، مما أدى إلى انهيار تام للقانون والنظام، حيث قام الألبان فى ثورة غضبهم بنهب بلادهم فى محاولة يائسة لاستعادة أموالهم. وكان على إلبيرت وغيره من الدبلوماسيين الأجانب مغادرة ألبانيا طلباً للسلامة. وتحركوا فى قافلة نظمها البريطانيون من تيرانا إلى ميناء دورئيس الألبانى. وعندما وصلوا إليه لم تستطع طائرة الهليكوبتر، التى كان من المفترض أن تقلهم، الهبوط بسبب طلقات الرصاص الكثيرة المنطلقة هنا وهناك. ولذلك تحركت القافلة إلى منطقة أخرى فى الميناء يسيطر عليها الإيطاليون. وكان الدبلوماسيون جميعاً قد وصلوا إلى دورئيس فى سياراتهم الرسمية التى يقودها سائقوهم الرسميون، وكان السائقون جميعاً ينتظرون بسياراتهم فى الميناء، انتظاراً للعودة مرة أخرى إلى تيرانا. ولكن الفوضى أصبحت لها اليد العليا، وأطبقت على الميناء مجموعة من اللصوص الألبان شبه المخمورين وبدأوا فى سرقة السيارات جميعها. يقول إلبيرت إن أصعب لحظة جاءت عندما ظهر أحد اللصوص

الألبان، وأخرج «بندقية كبيرة جداً» وطلب مفاتيح سيارة أحد المغادرين، ثم أسرع بها هارباً، وكل ذلك فى أقل من دقيقة. ولكن بعد مرور عشر دقائق عاد اللص، وطلب كل وثائق التسجيل الرسمية للسيارة التى سرقها من توه. لقد كان الأمر وكأن اللص لديه فكرة غامضة بأنه فيما لو حصلت ألبانيا فى يوم من الأيام على بعض البرمجيات فقد يحتاج إلى وثائق ملكية السيارة.

ويمضى إلبيرت قائلاً: «لقد كان شديد الأدب؛ فبعد أن انتهى من عملية السرقة أراد فقط أن يجعل هذه العملية رسمية».

تعتبر قصة الألبان فى التسعينيات مثالاً صارخاً يثبت حقيقة بسيطة: لقد أخطأ تماماً هؤلاء الناس الذين خشوا أو تنبأوا، بأن الدول الأمم قد تذوى أو تتلاشى أهميتها بسبب العولمة وتزايد انعدام أهمية الحدود يوماً بعد يوم. بل الواقع أن ما قالوه كان كلاماً فارغاً، لأنه بسبب العولمة والانفتاح المتزايد للحدود أصبحت نوعية دولتك ذات أهمية أكبر، وليس أقل. ذلك أن نوعية دولتك تعنى حقيقة نوعية البرمجيات ونظام التشغيل الذى يجب أن تتعامل بهما مع القطيع الإلكترونى. إن قدرة اقتصاد ما على الصمود أمام تقلبات القطيع التى لا مفر منها تتوقف إلى حد بعيد على نوعية نظامه القانونى ونظامه المالى والإدارة الاقتصادية ـ وكلها عناصر ما زالت تسيطر عليها الحكومات والبيروقراطيون. لقد تمكنت شيلى، وتايوان، وهونج كونج وسنغافورة جميعاً من الإفلات من آثار الأزمة الاقتصادية فى التسعينيات لأنها كانت دولاً ذات نوعية أفضل تدير برمجيات ونظم تشغيل ذات نوعية جيدة.

قال لى رئيس الوزراء التايلاندى تشوان ليكپاى فى أوائل عام 1998، بعد أن سُحقت بلاده فى الأزمة الاقتصادية الآسيوية: «إذا كنت تريد أن تكون جزءاً من هذه السوق العالمية فمن الأفضل لك أن تكون قادراً على الدفاع عن نفسك من هذه

السوق .... ومن الدروس التى تعلمناها من هذه الأزمة أن الكثير من هيا كلنا ومؤسساتنا لم تكن مهيأة لهذه الحقبة الجديدة. والآن أصبح ينبغى علينا أن نكيف أنفسنا بحيث نفى بالمعايير الدولية. إن جميع أفراد المجتمع يتوقعون ذلك. ويتطلعون إلى حكومة أفضل وحكومة تتمتع بالشفافية».

بيد أنه إذا كانت أهمية الدولة أكبر الآن، وليست أقل، فإن الذى تغيّر هو ما الذى نعنيه بالدولة. فى الحرب الباردة، كان حجم الدولة هو المهم. فقد كنت بحاجة إلى دولة كبيرة لمحاربة الشيوعيين، والمحافظة على الأسوار التى تحيط بها دولتك، وأن تبقى على نظام يوفر الرفاهية بسخاء لتستميل به عمالك حتى لا يذهبوا للشيوعيين. أما فى حقبة العولمة فإن نوعية الدولة هى التى تهم. أنت بحاجة إلى دولة أصغر؛ لأنك تريد أن تجعل السوق الحرة هى التى تقوم بعملية التخصيص لرأس المال، وليست الحكومة المنتفخة بطيئة الحركة، وكذلك بحاجة إلى دولة أفضل، دولة أذكى، ودولة أسرع، يكون البيروقراطيون فيها قادرين على تنظيم السوق الحرة بدون خنقها أو الوصول بها إلى حد تتعذر معه السيطرة. إن المعضلة أمام الحكومات اليوم هى أن تعمل على النهوض بنوعية دولهم فى حين تعمل على تصغير حجمها.

لقد أصبحت القضية الكبرى، بالنسبة لكثير من الاقتصادات الشيوعية والمهجنة السابقة التى كانت تسيطر عليها الدولة، هى هل تستطيع عندما تبدأ فى خفض حجم حكوماتها (بتحرير صناعاتها المملوكة للدولة وإزالة الضوابط عليها وخصخصتها) النهوض أيضاً بنوعية حكوماتها. ذلك أن حكومة أقل بدون حكومة أفضل شىء خطير حقاً. وإذا كانت سوقك الحرة كلها طرقاً سريعة وبدون إشارات ضوئية فإنك بذلك تغذى الفوضى. وهذا هو ما أدت إليه العولمة غير الناضجة فى بلدان مثل روسيا وألبانيا. لقد التحمت روسيا بالقطيع الإلكترونى بدون وجود نظام تشغيل تقريباً وبدون برمجيات. وكانت النتيجة أن استغل الناس فى روسيا مميزات السوق الحرة ـ حيث

حصلوا على الاستثمارات الأجنبية، وأصدروا الأسهم والسندات وحصلوا على قروض دولية ـ بدون أن يكون عندهم بُعد النظر الكافى أو النظام الضرائبى الذى يُولد الدخول التى يسدد منها لحاملى السندات. وفى النهاية، أصبح الوضع أشبه بخطط البونزى الألبانية ولكن بأحجام أكبر. وعندما أدرك القطيع فى النهاية أن روسيا ليست سوى جهاز كمبيوتر للسوق الحرة بدون نظام تشغيل أو برمجيات بداخله ثار القطيع وعمد إلى صهر الأسلاك التى يتشكل منها الاقتصاد الروسى.

كان ما حدث فى جنوب شرقى آسيا شكلاً آخر من أشكال العولمة غير الناضجة. إن تايلاند، وماليزيا، وكوريا الجنوبية، وإندونيسيا دول تختلف عن روسيا. فلديها أجهزة كمبيوتر بدائية للسوق الحرة طوال الوقت. بل كانت لديها أصناف مبكرة من نظم التشغيل ـ نظام تشغيل رأس المال بدءاً من 3.0 إلى 4.0. هذه الأصناف المبكرة من نظم تشغيل رأس المال كانت لا بأس بها فى التحرك من مستوى 500 دولار لدخل الفرد السنوى إلى مستوى 5,000 دولار. لأنه، وكما نعرف جميعاً، عندما تحصل للمرة الأولى على جهاز كمبيوتر، فإن أى نظام تشغيل سوف يفى بالغرض، وسوف يجعلك دائماً أكثر إنتاجية مما كنت ولديك آلة كاتبة. ولكن هذه الأصناف المبكرة من نظم تشغيل رأس المال كانت بطيئة نسبياً ومهيئة للرأسمالية المتهاونة. ففى إندونيسيا، على سبيل المثال، كانت وزارة المالية تسيطر على إدارة البنوك المملوكة للدولة.

كتب شيرايشى تاكاشى خبير جامعة كيوتو فى الشئون المالية لجنوب شرقى آسيا يقول: «عندما كان السياسيون أو أعضاء عائلة الرئيس أو المسئولون فى وزارة المالية يأتون إلى هذه البنوك ،كان المسئولون فيها يشعرون بأنهم مضطرون لتقديم قروض حتى لمشاريع كانوا يرون أنها لن تكون مربحة، وعندما أصبح سداد القروض أمراً مشكوكاً فيه، فقد أخفوا هذه المشكلات. كذلك تراكمت الديون المعدومة على بنوك

القطاع الخاص. وكانت وظيفتها خدمة جماعات الأعمال الخاصة التى أنشأت هذه البنوك، وعندما واجهت المشاكل أحد أعضاء هذه الجماعات، كانت البنوك تموله بقروض إضافية من أموال جاءت من مصادر أجنبية بمعدلات فائدة مرتفعة».

عندما استفحل دور القطيع الإلكترونى فى التسعينيات، وزادت قوته من شذرة الكمبيوتر 286 إلى بينتيوم II ، قدم لدول جنوب شرقى آسيا هذه المزيد والمزيد من الأموال. وبدأت البنوك المحلية، التى لا تأخذ إلا بالقليل من الضوابط، الإفراط فى شراء الدولارات، وتحويلها إلى العملات المحلية بسعر محدد، وبدون حمايتها ضد الخسائر المالية على أى صورة، ثم إقراض هذه الأموال للمقربين منها لاستثمارها فى عدد متزايد من مشاريع غير منتجة ـ بدءاً من إنشاء عدد مُبالغ فيه من ملاعب الجولف إلى أعلى أبراج إدارية فى العالم إلى التوسعات المفرطة فى الغرور فى إنشاء الشركات متعددة النشاطات فى كوريا الجنوبية. وكانت أمم جنوب شرقى آسيا بحاجة إلى تجديد نظام تشغيل رأس المال لديها من 3.0 إلى 4.0 ثم تتحرك لتقترب من نظام تشغيل رأس المال 6.0. كانت بحاجة إلى نظم تشغيل أكثر ليبرالية تستطيع أن تقلص من دور الحكومات، وأن تترك للسوق حرية أكبر فى تخصيص الموارد لأكثر الاستخدامات إنتاجية، وتشجيع المزيد من التنافس الداخلى واقتلاع الخاسرين من خلال تفليسات فعالة. وكانت بحاجة إلى مزيد من البرمجيات المتقدمة التى من شأنها النهوض بنوعية التوجيه، وتنظيم اقتصاد أسرع وأكثر انفتاحاً، وفرض النظام على مديرى الشركات، وفتحها أمام تدقيق حملة الأسهم، وأن تكون من القوة والمرونة بحيث تستطيع الصمود أمام أى سحب مفاجئ على نطاق واسع للاستثمار الأجنبى من جانب القطيع.

والمؤسف، أن دول جنوب شرقى آسيا توقفت عند نظام تشغيل رأس المال 3.0. غلطة كبرى. قد يكون نظام تشغيل رأس المال 3.0 لا بأس به فى الانتقال من500 دولار إلى 5,000 دولار فى دخل الفرد سنوياً، عندما يتحرك القطيع بسرعة شذرة

الكمبيوتر 286. ولكنك عندما تريد أن تتحرك من 5,000 دولار لدخل الفرد سنوياً إلى 15,000 دولار، فى حين يتحرك القطيع بسرعة من شذرة الكمبيوتر 286 إلى بينتيوم II، وأنت ما زلت تجلس هناك مستخدماً نظام تشغيل رأس المال 3.0 فالأرجح أن يتجمد جهاز الكمبيوتر عندك. هل رأيت مرة ما يحدث عندما تستخدم النسخة القديمة البطيئة من نظام التشغيل دوس (DOS) وبرمجيات ويندوز فى جهاز كمبيوتر بينتيوم الجديد؟ إن ما يحدث هو أنك تتلقى رسائل على شاشتك مثل، «لقد أديت وظيفة غير قانونية». و«خارج الذاكرة» و «لا يمكن حفظ البند». بالاختصار، هذا ما حدث لدول جنوب شرقى آسيا فى عامى1997ـ98، مع اختلاف بسيط هو أن الرسائل التى ظهرت على شاشتهم كانت تقول « لقد قمت بسلسلة من الاستثمارات غير العقلانية. لا يمكن حفظ البند. اشطب ذاكرة كل الصناعات المتعثرة. اتصل بمتعهد تقديم الخدمة وحملّ برمجيات جديدة ونظام تشغيل جديد». وهذا ما يسعون إلى تنفيذه منذ ذلك الوقت.

قال لى رئيس الوزراء الكورى الجنوبى السابق لى هونغ كو إن فهم الرسالة استغرق من حكومته عدة سنوات: قال «كنت رئيساً للوزراء فى عام 1995 عندما انضمت كوريا إلى عضوية منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية، وبلغ الدخل السنوى للفرد فيها 10 آلاف دولار، واعتقدنا أننا وصلنا بالفعل. واعتقدنا أنه ما دمنا قد تخرجنا فى المدرسة العليا بمرتبة الشرف العليا، فإننا سوف نكون طلبة ممتازين فى الكلية. غير أن الصفات المطلوبة لمرحلة كانت تختلف تماماً عن تلك المطلوبة للمرحلة التالية. لم ندرك أن بيروقراطية الدولة المتضخمة عندنا، التى كنا نفخر بها بشدة، كانت حجر عثرة أكثر منها قوة إيجابية. كنا نعيش وفقاً لمعادلة التصنيع زائد الصادرات يساوى النمو الاقتصادى والنجاح. وقد علمتنا الأزمة [فى أواخر التسعينيات] أننا كنا مخطئين، ولكننا دفعنا ثمناً غالياً مقابل هذا الدرس. تعلمنا أن خسارة الشيوعية كانت

أمام الرأسمالية، وأنه إذا كانت الرأسمالية قد انتصرت فمعنى ذلك أن رأس المال هو الذى يمسك بالزمام. لقد شهدت التسعينيات تلك العولمة السريعة لرأس المال، ولكننا لم نهيئ مؤسساتنا للتعامل مع أسواق رأس المال العالمية. لم تكن لدينا آليات التعامل معها. كنا نقف عزلاً بلا دفاع. وتعاملنا مع بنوكنا كما لو كانت منظمات للخدمة الوطنية، كما لو كانت امتداداً للحكومة. كنا نعتقد أنه يجب عدم توليد الأموال من الأموال. كنا نعتقد أنه يجب توليد الأموال من صنع الأشياء. ومن ثم كانت وظيفة البنوك تعزيز النمو. ولذلك فقد كانت جزءاً من بيروقراطية الحكومة. لم ندرك أن البنوك وتدفق رأس المال هما جوهر الاقتصاد الجديد فإما أن تخضعها للإصلاحات وإلا فإن العواقب وخيمة».

يثبت دانى دوريك الاقتصادى بجامعة هارفارد فى بحث له، أنه «ليس المهم أن تأخذ بالعولمة، وإنما المهم هو كيف تأخذ بالعولمة». فالدول التى أنشأت بنية أساسية مالية وقانونية متقدمة وأمينة وذات مصداقية ـ وذلك يستغرق وقتاً ـ تكون فى وضع أفضل كثيراً للاحتماء من هجمات المضاربة على عملاتها، وأقدر كثيراً على الصمود أمام التدفقات المفاجئة من رؤوس الأموال التى يقوم بها القطيع، وأسرع كثيراً فى اتخاذ الخطوات التى تقلل من آثارها إلى أدنى حد. نعم، هناك بعض الاستثناءات. وحتى الدولة التى لديها نظام تشغيل وبرمجيات سليمة يمكن أن تواجه المتاعب ـ انظر إلى السويد فى عام 1992 أو أمريكا ومأزق المدخرات والدين لديها. غير أن السويد والولايات المتحدة أيضاً نهضتا سريعاً بسبب الجودة الضمنية لنظم التشغيل والبرمجيات لديهما. يذكر الآن جرينسبان فى محاضراته فى هذا الصدد إلى أن تلك الدولتين اللتين تمتلكان نظم تشغيل وبرمجيات مالية متقدمة «استطاعتا عموماً تثبيط هجمات المضاربة ضد عملات محصنة جيداً، لأن النظم المالية لديهما متينة وقادرة على الصمود أمام التدفقات الرأسمالية الكبيرة والسريعة (وأن تعبئ) سياسات ردود الفعل النشطة المطلوبة لكبح مثل هذه الهجمات».

لكل هذه الأسباب أصبح هناك الآن إدراك متزايد بين قادة الدول النامية بأن ما يحتاجونه من أجل تحقيق النجاح فى نظام العولمة ليس مجرد سوق ناهضة وإنما ما يطلق عليه السفير الأمريكى السابق فى المجر دونالد بلينكين اصطلاح «مجتمع ناهض» . فالأمر لا يستحق أن تخصخص اقتصادك فى ظل فراغ مجتمعى وحكومى. يقول بلينكين «إن وضع السوق قبل المجتمع دعوة للمتاعب والإخفاقات» .

لذلك، فإنه من الأهمية بمكان أن يبدأ المستثمرون والسياسون على السواء فى توسيع تعريفهم لما يشكل سوقاً ناهضة مزدهرة، وذلك بالبحث عما يشكل مجتمعاً ناهضاً مزدهراً. فى نظرة تأمل للماضى نجد أن الغلطة الكبرى التى ارتكبها العالم مع روسيا، بعد أن حلت محل الاتحاد السوفيتى، هى أنه اعتبر فترة انتقال روسيا إلى النظام العالمى «مشكلة مالية» بالدرجة الأولى وترك لصندوق النقد الدولى مهمة الخروج منها. وحينما تلقى مسئولية حل مشكلة ما على عاتق المصرفيين فإنهم سوف ينطلقون إلى حلها من المنظور الضيق للمصرفيين. وسوف يركزون على نظام التشغيل، لا على البرمجيات وغيرها من المؤسسات الاجتماعية والسياسية اللازمة للسير معها جنباً إلى جنب.

لقد كان جيمس وولفينسون رئيس البنك الدولى محقاً تماماً عندما اقترح أن نعيد مراجعة أساليبنا فى قياس الدول بواسطة قائمة العناصر الحالية، التى تقتصر تماماً تقريباً على الإحصائيات المالية ـ إجمالى الناتج المحلى، وإجمالى الناتج القومى، ودخل الفرد ـ وأن نغيرها إلى «شكل جديد من المحاسبة» لقياس صحة الدولة باعتبارها مجتمعاً ناهضاً وليست مجرد سوق ناهضة. يجب تصنيف الدول على أساس نوعية برمجياتها الحاكمة، ونظامها القضائى، وإجراءات تسوية النزاعات، وشبكة الأمان الاجتماعى، وحكم القانون، ونظم التشغيل الاقتصادية.

في حين يتحدث جميع مهندسى الأرض المعماريين الغربيين المحتملين عن تصميم بنك مركزى عالمى جديد ومؤسسات حاكمة عالمية جديدة للسيطرة على القطيع الإلكترونى، بدأ قادة الكثير من الدول النامية يدركون أنه لن يحميهم شىء ما لم تكن لديهم حكومة محلية أفضل.

قال لى الرئيس المكسيكى إرنيستو زيديللو فى شتاء عام 1997، «هناك بعض الأصوات، بعض الأصوات المرتفعة جداً، التى تقول ربما تجاوز التكامل الحدود والسرعة ـ ولا سيما فى الأسواق المالية. حسناً، لقد كنت أعتقد العكس تماماً. فالعولمة تضع أمامنا تحديات، ولكنها تقدم لنا فرصاً هائلة. إن حقيقة استطاعة رأس المال التمويلى الانتقال فى لحظة يشكل مخاطرة حقيقية، ولكن القفز من ذلك إلى القول بأننا بحاجة إلى السيطرة على تحركات رأس المال خاطئ تماماً». وأضاف قائلاً، نعم، نحن بحاجة إلى صندوق نقد دولى قوى لكى يقدم المساعدة فى حالات الطوارئ وينبهنا للمخالفات التى تحدث فى الدول أو فى البنوك الفردية. وأضاف الرئيس زيديللو، غير أنه فى نهاية اليوم، «سوف ينتهى الحال بكل هذه التدفقات المالية (العالمية) إلى نظام مالى محلى، أو إلى أن تصبح موارد تقرضها البنوك المحلية». وأضاف قائلاً، إذن فإن الأهم من ذلك أن يكون لديك المؤسسات المالية والسياسية المحلية لكى تنظم العملية بأسرها على نحو سليم.

لم تكن الدول أثناء الحرب الباردة تعبأ كثيراً بما لدى جيرانها من نظام تشغيل أو برمجيات، فلم يكن هناك تكامل كبير بينها. ولكن اليوم، فى حقبة العولمة، ازدادت بصورة هائلة قدرة القطيع على نقل عدم الاستقرار من الدول السيئة إلى الدول الجيدة. وأصبحت نظرية الدومينو اليوم تنتمى إلى عالم المال، وليس إلى عالم السياسة.

بيد أنه فى حين أصبح الخطر علينا أكبر من أى وقت مضى من الطريقة التى يدير بها جيراننا وشركاؤنا التجاريون شئونهم الاقتصادية الداخلية، أصبحت قدرة

الحكومة الأمريكية، أو أى حكومة أخرى، على مساعدة الدول فعلاً فى بناء برمجياتها محدودة للغاية. إن وزير الخارجية الأمريكية يفضل التحرك جيئة وذهاباً فى طائرة، ولكن بناء البرمجيات يتطلب أن تتحرك جيئة وذهاباً فى سيارة أجرة - من وزارة العدل المحلية إلى البورصة إلى وزارة التجارة إلى المقار الرئيسية للشركات. وهذه هى الأشياء التى تتكون منها السياسة الصغرى والدبلوماسية الصغرى، وهى أمور غريبة تماماً عن معظم الدبلوماسيين فى الوقت الحاضر.

إذن كيف الوصول إليها؟ كم يكون رائعاً أن يستطيع كل مجتمع وضع كل برمجياته ونظم تشغيله فى أماكنها قبل أن يلتحم بالقطيع الإلكترونى على الإطلاق. ولكن ذلك أمر غير واقعى. فالعملية سوف يكتنفها المزيد من الفوضى - خطوتان للأمام، وخطوة للخلف. إننا نعلم الآن أنها ستكون عملية التحام بسيط لدول مثل روسيا أو البرازيل أو تايلاند، يصيبها القطيع بحروق، وتصيب هى القطيع بالحروق، وكلاهما يتعلم دروساً معينة، ويطبقون إصلاحات، ثم يبدأون العملية بأسرها من جديد، على نحو نرجو أن يكون أكثر تعقلاً. وستكون تلك عملية تعلم طويلة ومرهقة وسوف تسيطر على السياسات الداخلية والعلاقات الدولية فى حقبة العولمة.

قد ينتهى الحال بأسواق السوبر ماركت والقطيع الإلكترونى، فى تلك العملية الجدلية، بأن يلعبوا دوراً أكثر أهمية من القوة العظمى الأمريكية فى دفع الإصلاح السياسى. وكم يكون رائعاً أن تستطيع كل حركة ديموقراطية أن يكون لديها بطلها الذى يحفزها مثل أندريه زخاروف. وكم يكون رائعاً أن تستطيع كل دولة أن تجعل من جيمس ماديسون حافزاً لها تجاه حكم القانون. غير أنه فى الحقبة التى نتجه إليها قد يكون المحرك الرئيسى للتغيير هو ميريل لينش. وسوف يوضح لكم الفصل التالى السبب.

الفصل الثامن
ثورة العولمة

قصة رقم 1 : فى شتاء عام 1998 أجريت مقابلة صحفية مع رئيس وزراء تايلاند تشوان ليكپاى. بدأت المقابلة بخليط من المداعبة والجدية، حيث نظرت إليه عبر المنضدة قائلاً: «سيدى رئيس الوزراء، لدى اعتراف أقوله لك. لقد ساعدت على الإطاحة بسلفك ـ ولم أكن أعلم حتى ما هو اسمه. أتعلم. لقد كنت جالساً فى بدروم منزلى أراقب الباهت التايلاندية وهى تغرق (وأرقب سلفك وهو يدير اقتصادكم بصورة خاطئة تماماً) . وهكذا فقد اتصلت بسمسارى وطلبت منه أن يخرجنى من الأسواق الناهضة فى جنوب شرقى آسيا. وكان باستطاعتى بيعكم بنفسى، عن طريق الإنترنت، ولكننى قررت بدلاً من ذلك، استشارة السمسار الذى أتعامل معه. لقد أصبح الأمر بمثابة صوت واحد لكل دولار واحد. سيدى رئيس الوزراء، ما هو شعورك بأن يكون توم فريدمان أحد أصوات دائرتك الانتخابية ؟»

ضحك رئيس الوزراء، ولكنه كان يدرك ما أعنيه: إن الانضمام إلى الاقتصاد العالمى والالتحام بالقطيع الإلكترونى يعادل تماماً طرح دولتك للاكتتاب العام. إنه شىء يعادل تحويل بلدك إلى شركة عامة، مع اختلاف واحد أن حملة الأسهم لم يعودوا مواطنى بلدك وحدهم. إنهم أعضاء القطيع الإلكترونى، أينما وجدوا. وكما ذكرت سابقاً، إنهم لن يدلوا بأصواتهم مرة واحدة كل أربع سنوات. إنهم يدلون

بأصواتهم كل ساعة، وكل يوم من خلال صناديقهم المشتركة، وصناديق المعاشات، وسماسرتهم، وأكثر فأكثر ، وذلك عبر الإنترنت وهم قابعون فى بدرومات منازلهم.

قصة رقم 2 : فى خريف عام 1997 كنت فى زيارة لموسكو مع وفد من رجال الأعمال التنفيذيين والأكاديميين الأمريكيين. وكانت المجموعة تضم دونالد رايس الرئيس السابق للتشغيل فى الشركة الأمريكية العملاقة تيليداين لإنتاج التكنولوجيا المتقدمة، ورئيس شركة التكنولوجيا الحيوية الآن. حكى لى دونالد فى أحد أيام الزيارة أنه كان يناقش فرص إنشاء مشروع خاص مع أحد رجال الأعمال الروس ممن يرغبون فى مشاركة شركة أمريكية. وكان رايس مديراً تنفيذياً محنكاً لمشروعات خاصة، وقبل أن يتعمق كثيراً مع رجل الأعمال الروسى فى الحديث سأله سؤالاً بسيطاً: «هل دفعت ما عليك من ضرائب» ؟ أجاب رجل الأعمال الروسى قائلاً، حسناً، ليس بالمعنى الصحيح. قال له رايس، آسف، لأنه إذا لم يكن قد دفع ما عليه من الضرائب فلا سبيل لكى يكونا شريكين، لأن شركة رايس شركة عامة وإذا كان أحد فروعها الدولية لا يدفع ما عليه من الضرائب، فسوف يظهر ذلك فى الحساب الختامى لشركته. حينئذ أصبح الاختيار لرجل الأعمال الروسى: إما أن يظل مواطناً سيئاً ويواصل التهرب من دفع ضرائبه الروسية وأن يدخل المنافسة وحيداً، وإما أن يصبح مواطناً روسياً أفضل وقد يصبح شريكاً لشركة أمريكية ناجحة. كلما زاد اتصال الدول بالقطيع زاد احتمال مواجهتها للاختيار الذى مر به رجل الأعمال الروسى الذى تحدث عنه رايس، وهو إما أن تعدو مع القطيع وأن تعيش ملتزمة بقوانينه وإما أن تعيش بقوانينها على أن تتقبل أنه سيكون لديها فرصة أقل فى الوصول إلى رأس المال وإلى التكنولوجيا، وفى النهاية مستويات معيشة أقل لشعبها.

إن ما تصوره هاتان القصتان بوضوح هو الآثار المتعارضة للعولمة فى عملية الديموقراطية. فالقطيع الإلكترونى سوف يضع، وبشكل عام، مزيداً من الضغوط على

الدول لوضع برمجيات ونظم تشغيل أفضل فى الموضع الصحيح، لكى تشكل الكتل الخرسانية لبناء الديموقراطية. ولكن سرعان ما يصبح القطيع الإلكترونى وأسواق السوبر ماركت، فى الوقت نفسه، من أشد القوى فى العالم إرهاباً وإكراهاً وتدخلاً. فهم يتركون الكثيرين من الناس ولديهم شعور بأنه أيا كان نوع الديموقراطية التى يطبقونها داخل بلادهم، وأيا كانت الاختيارات التى يعتقدون أنهم يمارسونها فى انتخاباتهم الوطنية أو المحلية، وأيا كان من يظنون أنهم انتخبوه لقيادة مجتمعاتهم، فهذه جميعاً مجرد أوهام، لأن هناك فى الواقع أسواق وقطعان أكبر من ذلك وأبعد ومجهولة الهوية هى التى تملى عليهم حياتهم السياسية.

إن المفارقة فى نظام العولمة هى أن القطيع يدخل إلى المدينة فى أحد الأيام ممتطياً صهوة جواد مثل الفارس الوحيد، والبنادق تبرق فى خاصرته، مطالباً بحكم القانون، وفى اليوم التالى يرقص خارجاً من المدينة مثل كينج كونج، محطماً كل من يقف فى طريقه. فى يوم يكون القطيع 1776 وفى اليوم التالى يكون 1984. دعنى أوضح لك كيف يكون الاثنان فى وقت واحد.

إننى أطلق على العملية التى يساعد فيها القطيع فى وضع حجر الأساس للديموقراطية «الثورة من خارج الحدود» أو «ثورة العولمة». وقد اكتشفت «ثورة العولمة» أول مرة فى أثناء زيارة لى لإندونيسيا فى عام 1997، إبان الشهور المترنحة لحكم سوهارتو. كنت أتناول العشاء مع ويمار ويتويلار أحد مقدمى برامج الأحاديث المشهورين فى جاكارتا، حيث كان يصف لى الجيل الجديد من الطبقة الوسطى الإندونيسية. لاحظ أن ما يجمع هؤلاء الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين عشرين وثلاثين عاماً فى صفة مشتركة هو رغبتهم فى أن يصبحوا أثرياء، بدون أن يكون عليهم الوصول إلى ذلك الثراء عن طريق الفساد، وأنهم يريدون الديموقراطية، ولكنهم لا يريدون الخروج إلى الشوارع والقتال من أجلها. لقد أدرك هذا الجيل من الإندونيسيين أنهم فى ظل حكم

سوهارتو لن تحدث قط ثورة ديموقراطية من أعلى، ولكنهم يشعرون بالذعر من الثورة الديموقراطية القادمة من أسفل، لأنه إذا ثار فقراء المدن فإن ذلك معناه الحياة فى خطر عاماً آخر. ولذلك كانت استراتيجيتهم بأسرها تقوم على الثورة من خارج الحدود، أو العولمة. كانت استراتيجيتهم بأسرها هى أن يقدموا كل ما فى وسعهم، أحياناً عن وعى، وأحياناً أخرى بدون وعى، لكى تندمج إندونيسيا فى النظام العالمى. وكانوا يأملون فى أنه بربط إندونيسيا بهذه المؤسسات والأسواق العالمية ـ سواء كانت منظمة التجارة العالمية، أو بيتزا هت، أو منتدى التعاون الاقتصادى بين دول آسيا والمحيط الهادى (آبيك)، أو اتحاد دول جنوب شرقى آسيا (آسيان)، أو شركة ميريل لينش، أو شركة برايسووترهاوسكوبرز أو منظمات حقوق الإنسان غير الحكومية ـ سوف يتسنى لهم استيراد المعايير والنظم القائمة على القواعد التى يعلمون تماماً أن النظام من أعلى لن يبادر بتطبيقها ولا يمكن أيضاً أن تنبثق من أسفل.

فعلى سبيل المثال، لم تستطع الصحافة الإندونيسية أن توجه اللوم مباشرة إلى نظام حكم سوهارتو على محاباته لأقاربه المتفشية فى البلاد، ولذلك فقد كانت بدلاً من ذلك تبالغ فى تقديرها لطريقة الولايات المتحدة واليابان فى وضع إندونيسيا أمام محكمة منظمة التجارة العالمية للاحتجاج على فرض الحماية على المصنع الوطنى للسيارات فى إندونيسيا ـ الذى كان يسيطر عليه حينئذ نجل الرئيس ـ بالتعريفات الجمركية انتهاكاً لمعايير منظمة التجارة العالمية. كانت استراتيجية ثوار العولمة فى إندونيسيا باختصار هى عزل نظام سوهارتو عن طريق عولمة المجتمع الإندونيسى. ولقد وصف المحلل العسكرى الإندونيسى جوونو سودارسونو ثورة العولمة بأنها تعنى «إن السوق العالمية سوف تملى علينا ممارسات وضوابط فى الأعمال الخاصة لا نستطيع وضعها داخلياً». وعبّر عن ذلك أحد دعاة الإصلاح الإندونيسيين فى بساطة أكثر.

فقد قال لى إنه هو وابنه كانا ينتقمان من سوهارتو مرة كل أسبوع «بتناول غدائهما فى ماكدونالدز».

إن مؤسسة السياسات الخارجية التقليدية، ولا سيما اليسار المتطرف واليمين المتطرف، تستخف بنفوذ القطيع الإلكترونى والعولمة للإسهام فى إقرار الديموقراطية. ويذكر مايكل ماندلبوم الخبير فى السياسات الخارجية بجامعة جونز هوبكنز فى هذا الصدد «إننا ما زلنا نعيش وفى مخيلتنا صور لثورات 1776، و1789 و1917 و 1989، التى تعطينا الانطباع بأن الديموقراطية لا يمكن أن تأتى إلا عن طريق ثورة الشعب والإطاحة بالحكومة الفاسدة. وهى إما ثورة قوات المليشيا فى أول معركة ثورية فى بلدة ليكسنجتون بولاية مساتشوشس وإما الجموع وهى تقتحم الباستيل فى باريس، وإما ثورة التضامن فى بولندا، وإما ثورة قوى الشعب فى الفلبين. ولما كانت الصور التى فى مخيلتنا عن كيفية فرض الديموقراطية على هذا النحو فإننا لم نتخيل قط أن يأتى إلينا أحد رجال الأعمال الأجانب ويقول لحكومتك إنه لن يستطيع أن يحصل على الربح الكافى إذا وفر فرص عمل لشعب هذه الدولة ما لم تنشئ الحكومة ضمانات قانونية أفضل مع الأخذ بمعايير المحاسبة والشفافية العالمية».

إن مجرد عدم مطالبة الولايات المتحدة للصين كل يوم بتطبيق الديموقراطية، أو عدم تمرد الشعب الصينى كل يوم مطالباً بحقه فى كتابة أسعار أوراقه المالية فى صحيفة *وول ستريت جورنال* الآسيوية، لا يعنى أن عملية الديموقراطية لم تثبت أركانها بعد هناك. إننا ما زلنا ننظر إلى الأخذ بالديموقراطية باعتبارها حدثاً ـ مثل سقوط سور برلين ـ غير أنها فى الواقع عملية تأخذ مراحلها فى التطبيق كل يوم.

وبطبيعة الحال، إذا كان لعملية الأخذ بالديموقراطية الليبرالية هذه أن يكتب لها النجاح فإنها بحاجة إلى أكثر من مجرد قوى السوق لدفعها، حسبما يذكر لارى داياموند مساعد رئيس تحرير مجلة *جورنال أوف ديموكراسى*، وأحد أكثر الباحثين عمقاً

فى التفكير فى العالم أجمع فيما يتعلق باتجاهات الأخذ بالديموقراطية. فالقطيع، فى رأيه ضرورى، ولكنه غير كاف. ويوضح قائلاً: «من الضرورى أيضاً أن تظل الولايات المتحدة تطالب بقوة وثبات بتطبيق الديموقراطية. ومن الضرورى أيضاً أن يدعم الاتحاد الأوروبى، وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية، وشبكة المنظمات غير الحكومية المستمرة فى الانتشار التى ترصد وتعزز حقوق الإنسان مبادرات الديموقراطية فى دول الأسواق الناهضة. ومن الضرورى أن تعمل عولمة المعلومات باستمرار على إعلام مزيد ومزيد من الناس عن الطريقة التى يعيش بها الآخرون. ومن الضرورى أن تخلق التنمية الاقتصادية داخل الدول طبقات وسطى جديدة فى أنحاء العالم، بما لها من مطالب طبيعية فى مزيد من المشاركة فى اتخاذ القرار والتعددية السياسية. وليس من قبيل الصدفة أن تأخذ بالديموقراطية الليبرالية كل الدول التى يزيد الدخل السنوى للفرد فيها على 15 ألف دولار، باستثناء سنغافورة، وهى دولة مدينة وسوف تصبح بلا شك ديموقراطية ليبرالية عندما يحدث تغيّر فى الأجيال. ومن الضرورى أن تكون نهاية الحرب الباردة وانهيار الشيوعية قد كشفت إخفاق جميع نماذج الأيديولوجيات الأخرى باستثناء الديموقراطية الليبرالية».

أنت إذن بحاجة إلى تفاعل كل هذه العوامل معاً.

إن ما أود الإشارة إليه ببساطة هو أن القطيع الإلكترونى وأسواق السوبر ماركت ليست وحدها التى ستأخذ مكانها ضمن هذه القوى الأخرى التى ذكر داياموند أنها القوى المهمة فى تعزيز الديموقراطية، وإنما قد يكون القطيع وأسواق السوبر ماركت، فى حقبة العولمة هى أهم هذه القوى جميعاً. يرجع ذلك إلى قدرة القطيع على الدخول إلى أعماق الأسلاك المحركة للدول بطرق لا تستطيعها الحكومات بل ولا منظمات حقوق الإنسان. فالقطيع يستطيع ممارسة ضغوط يتعذر على الحكومات مقاومتها ـ باستثناء عدد قليل منها. ولدى القطيع مصلحة شخصية فى القيام بذلك ويولد لدى الآخرين المصلحة الشخصية فى الانصياع له.

مما لا شك فيه أن القطيع مدفوع للدخول إلى عمق تلك الشبكة السلكية. لا لأنه قدر الديموقراطية فى حد ذاتها، وإنما لأنه يقدر الاستقرار والقدرة على التنبوء والشفافية والقدرة على نقل وحماية ممتلكاته الخاصة من المصادرة الإجبارية أو الإجرامية. غير أن القطيع لكى يضمن هذه الأشياء يحتاج من الدول النامية أن تضع فى الأماكن الصحيحة برمجيات ونظم تشغيل وضوابط أفضل تعتبر أحجار لبناء الديموقراطية. إنك لا تستطيع، فى عالم اليوم أن تتحول عن ماو تسى تونغ إلى ميريل لينش بدون وجود بعض من ماديسون أيضاً.

هيا بنا نلقى نظرة تفصيلية على الطريقة التى يمارسها القطيع لفرض تثبيت بعض قطع بناء الديموقراطية فى أماكنها.

الشفافية. ذكرت صحيفة ***وول ستريت جورنال*** أنه عندما تجمع كبار المسئولين الماليين من الولايات المتحدة واليابان والصين وإحدى عشرة دولة آسيوية فى مؤتمر عقد بماليزيا فى نوفمبر عام 1997، وجدوا أن البنك المركزى الماليزى قد نصب لوحة إلكترونية لرصد الأهداف، من نوع اللوحة التى تجدها عادة فى إحدى مباريات الاتحاد القومى لكرة السلة، كانت تعرض رصداً لرقم احتياطى ماليزيا من العملات الأجنبية لكى تبعث الثقة والطمأنينة فى نفوس الزائرين بشأن سلامة اقتصاد البلاد.

لن تذهب كل الدول إلى هذا المدى بوضع لوحة إلكترونية مماثلة فى صالة الوصول بمطاراتها ـ أو ربما قد تفعل جميعاً فى المستقبل. ففى السنوات الأخيرة، تعلم القطيع الإلكترونى، وغالباً من الطريق الصعب، أن يطالب بالشفافية فى البيانات المالية. وتعلمت الدول التى تلتحم بالقطيع أكثر من ذلك، وأيضاً من الطريق الصعب، أنه كلما زادت الشفافية فى بياناتها ومعاملاتها المالية، كانت الفرصة أقل فى أن يهرب منها القطيع فجأة مذعوراً.

تخيل أن القطيع الإلكترونى مثل قطيع من التياتل يرعى فوق منطقة شاسعة من أفريقيا. وعندما يرى أحد التياتل وهو عند طرف القطيع شيئاً يتحرك فى الدغل الطويل الكثيف المجاور للمنطقة التى يرعى فيها فإن هذا التيتل لن يقول للتيتل المجاور له، «احذر، فأنا أعتقد أن هناك أسداً يتحرك فى الدغل». مستحيل. إن كل ما سيفعله هذا التيتل هو أن يبدأ الفرار مذعوراً. وهذه التياتل لا تفر مذعورة لكى تتوقف بعد عدة مئات من الياردات. إنما تفر مذعورة إلى البلد التالى وتحطم فى طريقها كل شىء. إذن كيف تحمى دولتك من هذا؟ الإجابة: أن تقوم بقطع الحشائش، وتزيل الدغل، بحيث إذا رأى التيتل فى المرة التالية شيئاً يحدث حفيفاً فى العشب فإنه يقول فى نفسه، : «لا بأس، فأنا أعرف ما هو، إنه مجرد أرنب». أو إذا كان هناك أسد يقترب فهناك فرصة أمام التيتل لرؤيته وهو قادم من بعيد، وأن يتحرك بالتدريج بدون إحداث هروب مذعور ضخم. وإن لم يكن الأمر كذلك فإنه سيكون لديه على الأقل الوقت الكافى لجمع القطيع معاً بصورة يخيف بها الأسد ويبعده بعيداً. فالشفافية تعطى التياتل مزيداً من المعلومات بصورة أسرع، بحيث يمكنها الإفلات بجلودها بطريقة منظمة. قد يعنى ذلك فى عالم المال الفرق بين أن تنخفض الأسعار فى سوقك بصورة طفيفة وبين أن تهوى على نحو عنيف ومفاجئ متكبداً خسائر مستمرة قد يستغرق التغلب على آثارها شهوراً أو سنوات.

عندما واجه اقتصاد كوريا الجنوبية المشاكل فى ديسمبر عام 1997، كانت تلك الدولة تقول للجميع إن احتياطيها من العملات الأجنبية يبلغ 30 مليار دولار، فى حين كان لا يتجاوز فى الواقع 10 مليارات فقط. وعندما اكتشف القطيع ذلك لاذ بالفرار. وفى الوقت نفسه، أبلغت حكومة سيول صندوق النقد الدولى أن إجمالى قروضها قصيرة الأجل من الدول الأجنبية تبلغ 50 مليار دولار، وبعد مرور أسبوع واحد أعلنت أنها تبلغ 100 مليار دولار . يا للعجب.

يذكر ريتشارد ميدلى الذى يجرى تحليلاً للمخاطر السياسية لبيوت المال أن هذا الافتقار إلى الشفافية هو السبب فى واحدة من أسوأ عمليات الفرار المذعور. ويرى أن الافتقار إلى الشفافية، «هو الذى يسمح تماماً لأصحاب الأوهام المتفائلين ولأصحاب الأوهام المتشائمين بأقصى قدر من حرية الحركة. لننظر إلى تايلاند أو كوريا أو روسيا فى أوائل التسعينيات. فى أوقات السراء، أدى نقص الشفافية عن اقتصاداتها إلى تشجيع أصحاب الأوهام المتفائلين بخلق فقاعة، وذلك بضخ المزيد والمزيد من الأموال فى تلك الدول، وهم على ثقة من أنه سيتوافر لهم العائدات المرتفعة التى توافرت لهم فى العام السابق، مع أن الأموال الأولى ربما تكون قد وجهت إلى مصانع منتجة والأموال الأخيرة وجهت إلى بناء الفنادق الفخمة والمصانع التى لم يكن عليها طلب. ويرى ميدلى «أنك لا تستطيع حقيقة إجراء تحليل جاد لنظم معتمة. إنك تدفع (القطيع الإلكترونى) بذلك النوع من الوهم المتفائل عن بلادك إلى رفع الأسعار إلى السماء. ويقول الواهم المتفائل لنفسه: 'اغمض عينيك واشتر وبلا شك ستجد مياها فى البركة عندما تهبط فيها'. ولكن ذلك أمر شديد الخطورة. لأن ذلك التعتيم الذى يدفع أصحاب الأوهام المتفائلين إلى رفع الأسعار إلى معدلات مبالغ فيها سوف يتيح لصاحب الأوهام المتشائم الهبوط بها إلى معدلات مبالغ فيها أيضاً عندما تتغير المشاعر. ذلك لأنه فى الطريق نحو الهبوط سوف تنهار كل القصص التى اقتنعت بها نفسك كصاحب أوهام متفائل، وتنهار معها كل الافتراضات التى وضعتها عن احتياطيات العملات الصعبة لهذه الدولة أو عن التزاماتها المستقبلية».

إنك تتحول من الإيمان بكل شىء إلى عدم الإيمان بأى شىء. والواقع أن صاحب الأوهام المتشائم يؤمن بضرورة وجود شئ غير سليم - إنه يؤمن بأن هناك ديوناً غير معلنة وهناك التزامات غير مسجلة فى الدفاتر تشيع فى المكان بأسره. وفى كل

قطيع يوجد الواهمون المتفائلون والمتشائمون، وإذا أتحت لهم الفرصة سوف يشيعون الهروب المذعور دخولاً وخروجاً.

لقد أعطى القطيع الإلكترونى هذا الدرس لكثير من الدول فى السنوات الأخيرة. واليوم أصبحت وزارة المالية فى كوريا الجنوبية ترسل رسائل إلكترونية للمستثمرين العالميين تحتوى على بيانات مفصلة عن احتياطيها من العملات الأجنبية فى نهاية كل يوم عمل، بما فى ذلك، وبقدر ما تستطيع، تدفقات رأس المال الخاص. قال لى مدير لصندوق فى وول ستريت، «لقد تحول الكوريون من الاعتقاد بأن الشفافية لا شىء إلى الاعتقاد بأن الشفافية هى كل شىء. فهم على استعداد حتى لإرسال تقرير عن الأرصاد الجوية إذا طلبنا منهم ذلك». وقال لى أيضاً ريتشارد جونستون، الذى يرأس إدارة الاستثمار لأمريكا اللاتينية فى بنك أوفيتبانك ، وهو بنك خاص فى نيويورك: «عندما أذهب إلى البرازيل أقول لهم 'أريد أن أعرف كل شىء' وأقول لهم بكل صراحة، 'ليس ذلك من أجلى. فأنا صديق لكم. وأنا أؤمن بكم. ولكن كيف تستطيعون مساعدتى فى إقناع المتشككين؟' إن المتشكك يقول لنا الآن: 'لن أمنحكم أى أموال إلا إذا نزعتم كل ما تغطون به أنفسكم وسمحتم لى بالنظر فى كل مكان؛ لأن لكم تاريخاً فى الميل إلى إصابتنا بخيبة الأمل. لا شفافية، لا أموال. دعونى أرى ما لديكم من احتياطى، أريد أن أقلب دفاتر حساباتكم رأساً على عقب، فى ضوء الشمس، ثم فى ضوء القمر'. إننى أحصل كل يوم الآن على بيانات إحصائية عن جميع جوانب الاقتصاد البرازيلى، وأحصل على برقية فاكس فى آخر النهار تحتوى على كل التدفقات النقدية للبرازيل فى ذلك اليوم. وأعرف ماذا جرى فى حسابهم التجارى، وماذا جرى فى حسابهم المالى، وما الذى تم فى المعدل الرسمى للبنك المركزى وما الذى تم فى السوق الموازية بالنسبة لمعاملات السائحين. وتأتينى هذه الصحيفة من شركة خاصة محلية قام البنك المركزى البرازيلى بتوفير البيانات الموجودة

بها. إن استثماراتى سوف تزيد إذا كنت أعرف ما الذى يجرى فى بنكهم الصغير فى كل الأوقات ـ حتى وإن كانت المخاطر ما زالت قائمة. لأننى سوف أتمكن بهذه البيانات الصحيحة من تقييم المخاطر وأستطيع أن أغير رأيى إذا أصبحت هذه التدفقات سلبية؛ وإلا فإننى سوف أعتمد على التخمينات القائمة على الشائعات، وهذا هو الطريق إلى الإفلاس».

وعندما تلزم نفسك إلى هذا الحد من التدقيق من جانب القطيع فلا عودة عن ذلك، إلا بثمن باهظ.

المعايير: أشار لارى سومرز نائب وزير الخزانة الأمريكى ذات مرة إلى أنه، «إذا كنت تكتب عن تاريخ أسواق رأس المال الأمريكية، فإننى قد أقترح عليك أن أهم الأشياء المبتكرة التى شكلت هذه السوق لرأس المال هى فكرة المبادئ المحاسبية المتفق عليها بشكل عام. ونحن نريد أن يكون ذلك على نطاق دولى. لقد حقق صندوق النقد الدولى نجاحاً بسيطاً، ولكن له مغزى؛ لأن هناك شخصاً ما فى كوريا يقوم بتدريس مادة المحاسبة فى مدرسة مسائية، قال لى إنه عادة يكون لديه 22 طالباً فى الفصل الدراسى الشتوى، ولكنه هذا العام (1998) عنده 385 طالبا. إننا نريد أن يكون ذلك على مستوى الشركات فى كوريا. نريد أن يكون ذلك على المستوى القومى».

قد يكون من بين أسباب الانفجار فى عدد الدارسين لمنهج المحاسبة فى كوريا أن القطيع بدأ فى أعقاب الأزمة المالية فى جنوب شرقى آسيا فى عامى 1997 و 1998 فى المطالبة بمعايير محاسبية أفضل وأكثر اتساقاً فى كل مكان. فعندما بدأ القطيع فى تدقيق نظرته إلى كثير من الشركات فى كوريا الجنوبية وتايلاند وإندونيسيا، وجد أنه لا يستطيع فهمها، لأنه لم يكن هناك ميزانية عمومية موحدة تشمل جميع الوحدات والوحدات الفرعية للشركات، بحيث تستطيع أن ترى كل الأصول وكل الخصوم، ناهيك عن كل الخصوم والأصول غير المسجلة فى دفاتر الميزانية العمومية.

وكلما تجول القطيع هنا وهناك يستثمر أمواله فى مصانع أو أسواق فى دول مختلفة، وكلما تاقت هذه الدول إلى مزيد من استثمارات القطيع، وكلما تاقت شركات هذه الدول إلى أن تقيد فى بورصة إحدى أسواق السوبر ماركت الكبرى، زاد تعرضها للضغوط لكى تتقيد بالمعايير الدولية للإفصاح عن المراكز المالية.

لنتدارس مثالاً واحداً لموضوع قرأته صدفة فى عدد ديسمبر 1997 من مجلة **هيميسفيرز** التى تصدرها الخطوط الجوية المتحدة، وكان عن واحدة من أسرع شركات البرمجيات نمواً فى العالم، إنديا إنفوسيس. فقد جاء فى المقال ما يلى: «كان مفتاح النجاح لهذه الشركة هو التخلى عن سياسات وممارسات العالم الثالث التى تقيد الكثير من شركات شبه القارة الهندية، والتوصل إلى نوع من الاتصال بالعالم الأول يسمح بأقصى حد من الارتياح للعميل. يقول نارايانا مورثى المؤسس بعيد النظر للشركة ورئيسها، 'قررنا منذ البداية ألا يكون هناك تعتيم على موارد الشركة أو الموارد الخاصة' بمعنى أن أحداً لايستخدم سيارة الشركة فى التنقلات الشخصية ـ وهو انفصال جذرى عن التقاليد الراسخة فى مجال الأعمال الخاصة فى الهند. وقد كان من عادة موظفى أى شركة هندية استخدام أصول الشركة فى استخدامات شخصية. مثلاً أن يعمل كهربائيو الشركة فى منازل المديرين التنفيذيين. أو أن يقوم موظفو الشركة بتوصيل أبناء رؤسائهم من المدرسة إلى المنزل ثم يجالسون الأطفال فى غياب أبويهم. أو أن تسدد حسابات المشتريات المنزلية من حسابات الشركة. وكان على العاملين القبول بمثل هذه الممارسات لأنه ليس لديهم بديل آخر. ومع ذلك، فقد أدى ذلك إلى مزيد من الاغتراب وإلى انسحاب العناصر الخلاقة فى تمرد. ولكن ذلك لا يحدث فى شركة إنفوسيس .... فقد كانت شركة إنفوسيس أول شركة هندية تعلن ميزانيتها العمومية فى غضون أسبوع واحد من انتهاء السنة المالية، وأول شركة تنشر بيانات مالية ربع سنوية، وأول شركة تنشر بيانات مالية بمقتضى المبادئ المحاسبية الأمريكية المتفق

عليها بشكل عام U.S. Generally Accepted Accounting Principles ومتطلبات الإفصاح الخاصة بهيئة الأوراق المالية والبورصة الأمريكية. فقد أكد تقرير لأحد المحللين: 'إن قواعد الإفصاح والممارسات المحاسبية لها وضعت المعايير التى يحتذى بها الآخرون'».

من المتوقع، ونحن نتجه باطراد نحو عالم تقوم فيه الإنترنت بتعريف التجارة، أن تصبح هذه الدفعة نحو المعايير العالمية المشتركة أشد قوة، لسبب وحيد غاية فى البساطة: منذ اللحظة الأولى التى تقرر فيها القيام بعمل خاص عبر الإنترنت باعتبارها جهة تقوم بتوفير السلع والخدمات، ومنذ اللحظة الأولى التى تفتح لك فيها موقعاً على الشبكة تكون قد أصبحت شركة عالمية - سواء كنت فى الهند أو فى إيطاليا أو فى إنديانابوليس. إن القيام بأعمال تجارية خاصة عبر الإنترنت هو عملية عالمية بالضرورة. ولذلك، فلابد أن يكون تفكيرك عالمياً وأن تفكر فى الأشياء التى تجذب بها المشترين العالميين لما تبيعه لهم. ومن الأفضل لك أن تكون قادراً على التأكيد لعملائك أنك تستطيع شحن بضائعك لهم فى الموعد المناسب وبطريقة آمنة، وأن رقم بطاقتك الائتمانية سوف يكون آمناً على موقعك فى الشبكة، وأنه يمكن تحويل الأموال وفقاً للمعايير والقوانين وأفضل الممارسات الدولية، وأن التعامل مع جميع المسائل المحاسبية والتجارية سيكون وفقاً للنظم الدولية. ويرى بوب هورماتس نائب رئيس شركة جولدمان زاكس إنترناشيونال أنه، «كلما زادت الأعمال التجارية الخاصة التى يجريها عبر الإنترنت عدد أكبر من الناس من عدد أكبر من الدول المختلفة فى أنحاء المعمورة، زاد التوافق فى الطريقة التى يؤدى بها الناس أعمالهم فى كل ركن من أرجاء المعمورة».

وإنك تستطيع أن ترى ذلك يحدث فى مجال السمسرة عبر الإنترنت. يقول جون تى. ول، رئيس اتحاد ناسداق إنترناشيونال لتجار الأوراق المالية إن التبادل التجارى بالاتصال المباشر بالشبكة، «سوف يؤدى بالتأكيد إلى تكثيف عملية التدقيق على

الحكومات والشركات من أجل ضوابط أفضل. فعندما يكون باستطاعة الناس الاستثمار فى الخارج أو من الخارج وأن يكونوا قادرين على تنفيذ عمليات تبادل تجارى بالاتصال المباشر عبر الإنترنت، فإنهم يريدون معرفة المزيد عن الشركات، ثم يريدون معرفة ما إذا كان باستطاعتهم الوثوق بالمعلومات المسجلة عن الشركات. وهل تجمعت (البيانات المالية) وفقاً لمعايير المحاسبة الدولية؟ وما هى نوعية ضوابط تكوين الشركات؟ وسوف يؤدى ذلك إلى دفع عملية التوافق فى النظم الضرائبية والقانونية».

حقاً، لقد كان من بين الأشياء التى كشفت عنها الأزمة الاقتصادية الآسيوية فى عامى 1997 و 1998 أن معظم شركات المحاسبة الأمريكية الخمس الكبرى كانت تراجع محاسبياً دفاتر أكبر البيوت المالية الآسيوية التى سقطت فى الأزمة ـ راجعتها محاسبياً بدون أن ترفع أية أعلام حمراء عن مشكلاتهم، وذلك وفقاً لما جاء فى دراسة لمؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية. وكان السبب الرئيسى فى هذا الانهيار، حسبما جاء فى موضوع نشر فى عدد 17 نوفمبر عام 1998 من صحيفة ***نيويورك تايمز*** أن الشركات الخمس الكبرى لم تطبق فى آسيا القواعد والمعايير التفصيلية للمحاسبة التى تستخدمها فى أمريكا. وكان السبب الرئيسى لذلك أن معظم شركات المحاسبة الكبرى ـ مثل شركة برايسووترهاوسكوبرز أو إرنست ويونج ـ انتقلت إلى آسيا بأن ضمت إليها شركات محاسبة وكان عملاؤها يصرون على قواعد محلية أضعف للمحاسبة.

لقد توقف كل ذلك الآن. فقد طلب البنك الدولى من الشركات الخمس الكبرى ألا توقع على أى مراجعة محاسبية لا تتفق مع المعايير المحاسبية الدولية التى تأخذ بها الشركات الخمس الكبرى. وإذا أجرى أحد فروعها المحلية هذه المراجعات المحاسبية وفقاً للقواعد المحلية فلا بد أن توقع عليها هذه الشركة المحلية وحدها ـ وهو ما يمثل تحذيراً للمستثمرين. وتقول دراسة الأمم المتحدة أن ضعف المحاسبة لم يكن السبب فى الأزمة الاقتصادية الآسيوية، ولكن كان من الممكن أن ترصد المراجعة

المحاسبية الأفضل ظهور المشكلات أسرع ومن ثم تخفف من حدة الأزمة. وقد نقل عن روبرت إيه. كامبل المدير الاقليمى الشريك لمنطقة آسيا والمحيط الهادى فى شركة ديلويت تتش توهماتسو أن «القواعد المحاسبية تشبه تماماً مخارج التيار الكهربى التى تختلف من دولة إلى دولة فى أنحاء العالم. ولكن الشركات الخمس الكبرى أصبحت [الآن] شديدة الحماس لتطبيق معايير متسقة فى أنحاء العالم».

ربما كان أوضح مثال فى العالم اليوم لفرض ثورة العولمة لمعايير تأتى من الخارج، حيث لا يمكن أن تتولد من أعلى أو من أسفل فى دولة ما، ذلك القرار للاتحاد الأوروبى بفرض عملة ومعايير مالية موحدة على جميع أعضائه، فى ظل بنك مركزى واحد، بدءاً من عام 1999. وأصبح الاتحاد النقدى الأوروبى بالنسبة لدولة مثل إيطاليا التى اشتهرت حكومتها بالفساد وعدم الكفاءة، هبة أرسلتها العناية الإلهية. لأنه سوف يجبرها على أن تظل داخل قميص القيد الذهبى بإعادة التعاقد بشأن العمليات الحكومية الكبرى مع البنك المركزى الأوروبى فى فرانكفورت. وقد أذاعت الإذاعة الوطنية العامة تقريراً من إيطاليا فى عام 1997 عن كيف أن الإيطاليين ـ بعد جيل من الحكومات العاجزة التى أساءت إدارة عملتهم وحولتها إلى احتكار نقدى ـ متلهفون على أن يدير الاتحاد الأوروبى بلادهم. ونقل عن ماريو أباتى وهو أحد المحامين الإيطاليين فى مجال الشركات قوله: «إن أحد الآثار السريعة للانضمام إلى اليورو (العملة الأوروبية الموحدة) ما أطلق عليه عملية تنظيف البيت من الداخل ـ إنه يجبر الحكومة بالفعل على أن تحكم قبضتها على العجز المالى الهائل، وعلى التضخم والإنفاق الحكومى. إنهم مضطرون إلى ذلك. وهم عندما يفعلون ذلك ستكون هناك، بطبيعة الحال، مزايا للاقتصاد وإننى أؤيد ذلك تماماً». وأضاف أباتى أن معظم الإيطاليين ربما يشعرون بالسعادة لتولى المسئولين فى الاتحاد الأوروبى إدارة بلادهم بأسرها. ولا يشعر الإيطاليون باستياء كبير إزاء مراكز القوى الأوروبية فى بروكسل

وفرانكفورت وستراسبورج. ويختتم أباتى تصريحاته بالقول، «هناك عداء كبير تجاه روما، لأن روما كانت مركزاً للجريمة عندنا. لقد كانوا يسرقون أموالنا. ونحن نعتبرها سرقة لأنهم يأخذونها ولا يردونها مرة أخرى». صرح فينشينزو ڤيسكو وزير المالية الإيطالى لصحيفة **ريبوبليكا**، فى أول يوم لبدء العمل بالعملة الأوروبية الموحدة فى عام 1999، أن اليورو يعنى أنه سوف يكون هناك «تهريج شرير أقل» من جانب السياسيين ورجال الأعمال الإيطاليين، الذين أظهروا فى الماضى «كماً غير عادى من السلوك غير القانونى». وأضاف أن الوحدة النقدية، «تعنى أننا لن نستطيع بعد الآن الرضا بالمعايير الأدنى لمجرد أن ذلك يرضينا».

هذه إذن هى لغة ثورة العولمة.

الفساد : إن ثورة العولمة تكبد أى دولة تتسامح مع الفساد ثمناً أغلى بكثير؛ لأنه إذا لم يكن هناك سبب غير ذلك فى عالم يتمتع فيه الناس بكثير من اختيارات الاستثمار، فما الذى يدفعنى إلى الاستثمار فى الدولة س، حيث يتعين عليك أن تدفع رشاوى لشخص ما ولعمه أيضاً، فى حين إنك تستطيع الذهاب إلى الدولة ص، وتحصل على معدلات أجور العمالة ذاتها بدون أن يطلب منك تقديم رشاوى لأى أحد؟ الفساد بالنسبة للقطيع يعنى اسماً آخر للمجهول الذى يتعذر التنبوء به، لأن أى صفقة يمكن أن تخفق بسبب أى إنسان يرشو إنساناً آخر، وذلك هو أسوأ ما يكرهه القطيع.

لقد رأى ديريك شيرر، الذى عمل سفيراً للولايات المتحدة فى فنلندا فى منتصف التسعينيات رأى العين كيف أن ثورة العولمة تجبر الروس على الاختيار بين السيطرة على الفساد فى بلادهم وأن يظلوا فقراء ومتخلفين إلى الأبد. يقول السفير شيرر، «كانت مهمتى كسفير للولايات المتحدة فى فنلندا أن اتصل بقادة رجال الأعمال فى فنلندا وأن أشجعهم على الاستثمار فى روسيا على أساس أن تلك هى الطريقة المثلى لجلب الاستقرار عبر الحدود بالنسبة لهم. غير أن هؤلاء الفنلنديين كانوا

يجيبون على ذلك بقولهم: 'بالتأكيد، سوف نجرى تعاملات تجارية مع الروس. ففى استطاعتهم أن يقودوا شاحناتهم إلينا هنا وأن يحمّلوها بكل ما يريدون من بضائع ما داموا سيحضرون معهم حقيبة نقودهم لدفع أثمانها. ولكننا لن نذهب نحن إلى هناك للقيام بأعمال تجارية. إنه طريق شديد الفساد والخطورة. ثم إنه ما الذى يجبرنا على ذلك؟ إننا نستطيع الذهاب إلى المجر أو استونيا أو جمهورية التشيك وأن نحقق أرباحاً ونكون على ثقة من أننا سوف نتمكن من الخروج بهذه الأرباح. فما الذى يهمنا من روسيا وهى فى مثل تلك الظروف؟' وكنت أرد عليهم قائلاً، 'نعم، نعم، ولكن لابد أن تفكروا فى الاستثمار هناك من أجل الاستقرار الإقليمى'. وكانوا لا يجيبوننى إلا بنظرة فارغة من أى رد فعل. حسناً، أنا الآن لا أعمل فى الحكومة بل أعمل استشارياً لعدد من شركات الاستثمار فى وول ستريت. وقد سألونى مؤخراً عن الاستثمار فى روسيا ولم أتفوه إلا بكلمة واحدة، 'مستحيل' إذ إننى عندما أنظر إلى الأمر ليس من وجهة نظر واضع السياسات، وإنما من وجهة نظر رجل الأعمال، فإنه يكون ضرباً من الجنون أن تستثمر فى روسيا الآن. لقد كان الفنلنديون على حق».

كنت ذات مرة مع سمير هليلة، الذى يساعد فى إدارة إحدى الشركات الفلسطينية الكبرى فى الضفة الغربية، شركة النصر للاستثمار. كان ذلك فى مكتبه فى إحدى الأمسيات وكنا نتحدث عن القيام بأعمال تجارية فى الشرق الأوسط، وقام هو، دون قصد منه، بوصف جميل لما يمكن أن تفعله ثورة العولمة إزاء الفساد، حتى فى ذلك الجوار الذى يشيع عنه الفساد. قال هليلة: «إن لديك الآن منافسة شرسة فى المنطقة على من الذى سيحقق النمو فى المستقبل. لقد ذهبت مؤخراً إلى المغرب لشراء بعض الأراضى ولكننى لم أستطع بسبب الرشاوى وكل متاعب البيروقراطية. والفساد عند مستوى القمة فى المغرب جزء من النظام. وهناك ستون بنداً للواردات والصادرات محجوزة كاحتكارات للملك وأسرته فقط. وكنا نريد الاستثمار فى أحد المحاجر فى

المغرب ولكن قيل لنا: 'لا. هذا محجوز للملك'. إنك لا تشعر بالأمن و الحرية كمستثمر فى المغرب لأن صانعى القرار هناك دائماً يقفون ضدك بل وأحياناً قد يصبحون منافسيك. وهذا هو النظام فى المغرب ولا يشعر أحد بالخجل تجاهه. وهكذا فقد بحثنا فى مكان آخر. ذهبت إلى دبىّ مؤخراً وافتتحت مكتبنا الإقليمى هناك. وقد أعطتنى دبى هذا (وأبرز لى بطاقة هوية خاصة). إنها تسمح لى بالدخول إلى دبى والخروج منها كمستثمر أجنبى بدون أى تأشيرة دخول. إنهم يريدون أن يسهلوا الأمور قدر المستطاع. ومصر أيضاً تتغير. إنهم يصيغون نظاماً جديداً ويدفعون بدماء جديدة وبيئة منضبطة جديدة أكثر انفتاحاً مما كان سارياً فى الماضى. هناك فساد فى مصر ولكنه غالباً بين الفقراء وأولئك الذين يحصلون على رواتب ضيئلة. (معظم المسئولين المصريين) يتعاملون معك تعاملاً سليماً بدون فساد. وكان علىّ كمستثمر عالمى التأكد من أنه لا يوجد محرمات ـ وأن هناك منافسة حرة. وأصبح بإمكانى البقاء فى البلاد، والدخول والخروج منها وإليها بدون أن أضطر لرشوة الناس أو مواجهة أناس ذوى نفوذ يستطيعون إجبارى على أن أشاركهم. إننى أستطيع التعامل مع البيروقراطية، ولكننى يجب أن أتأكد أننى سوف أحصل فى النهاية على ما أحتاجه. وإذا لعبت وفقاً للقواعد الأساسية، فلابد لى من أن أعرف أننى سوف أحصل على ما أريد فى النهاية. إن لى مشاكلى فى مصر مع البقشيش [الرشوة من أجل الخدمة]، ولكننى أعلم أننى أدفع ما أدفعه من بقشيش حتى تتحرك مصالحى بسرعة أكبر، وأننى فى النهاية سوف أحصل على ما أريد. أما فى المغرب، 'فإما أن تدفع لى الآن وإما أن تدفع لى فيما بعد'، ولن تعرف حينئذ حتى إذا كنت ستحصل على ما تريد أم لا».

إن المغرب، مع تزايد انفتاح اقتصادها على الاتحاد الأوروبى، تحتاج إلى الاستثمارات والتكنولوجيا الأجنبية حتى تتمكن من المنافسة، ولكن لا سبيل إلى أن يجلب الأجانب أيهما إذا كانوا قد وصلوا إلى ما يشعر به هليلة.

أحياناً يمكن أن يأتى فرض القطيع لمعايير أعلى بمثابة الصدمة الهائلة حتى لأكثر الاقتصادات تقدماً. تأمل فى المقال الذى نشرته صحيفة **واشنطن بوست** فى20 فبراير 1998 من طوكيو بعنوان «عضو فى البرلمان اليابانى يشنق نفسه فى فندق». وتوضح مقدمة الخبر أن شوكى أراى عضو البرلمان الذى كان ضالعاً فى فضيحة فساد متفاقمة انتحر فى حجرته بأحد فنادق طوكيو، قبل ساعات فقط من إلقاء القبض عليه. غير أنه بعد قراءة متعمقة للخبر نجد بين السطور نقطتين لهما مغزى: «إن هناك قلقاً بين بعض السياسيين من احتمال أن يكون أراى قد ترك أدلة تدين آخرين... وليس هناك ما يشير إلى أن أراى ترك مثل هذه الوثائق، ولكنه كان قد اشتكى فى المؤتمر الصحفى الذى عقده مساء يوم الأربعاء من أنه تعرض وحده دون غيره لمعاملة غير عادلة من جانب المدعين. وقال أراى للصحفيين إن شركة نيكو سيكيوريتيز للأوراق المالية أكدت له أنها قدمت أرباحاً بطريقة مماثلة لمئات العملاء الآخرين. ***ويقول رجال الأعمال اليابانيون فيما بينهم إنهم صدموا بالطريقة الخاطفة التى تغيرت بها الأمور التى كان مسموحاً بها فى تقاليد الأعمال الخاصة فى اليابان***. لقد كان البيروقراطيون يتوقعون فى لحظة ما إقامة الاحتفالات الباذخة، وأن تشارك الشركات علناً فى مثل هذه الأنشطة، حيث يستطيع البيروقراطيون ورجال الأعمال تبادل المعلومات الضرورية بطريقة غير رسمية. ويقول رجال الأعمال أيضاً إن «حسابات الرجال المهمين جداً» ورشاوى المبتزين كانت أيضاً من الأسرار المعلنة؛ وأن رجال الادعاء كانوا يتجاهلون مثل هذه الأنشطة حتى وقت قريب .***ويرجع*** المعلق السياسى مينورو موريتا ***ذلك الموقف المتشدد إلى مجموعة من المدعين الشباب الأكثر شجاعة ممن تلقوا تدريبهم فى الخارج***. ويقول موريتا: «لقد بدأوا يفكرون مثل الغربيين، ويرون فى التقاليد اليابانية التى تسمح للمسئولين فى الحكومة بحياة البذخ شيئاً يتجاوز المعايير المقبولة دولياً».

قال لى مرة روبرت شابيرو رئيس شركة مونسانتو إن شركته ليست فى حملة صليبية لنشر الممارسات المناهضة للفساد. ولكنها تنجز أعمالها الآن بدون دفع أى رشاوى، وهو مدرك تماماً أن شركة مونسانتو تساعد بذلك على إثراء العالم بأشخاص يشاركونها ما تؤمن به من قيم. يقول شابيرو إننا نستخدم الآن عدداً كبيراً من الناس من الدول الأجنبية، وأصبحنا بالنسبة لهم بمثابة المدرسة التى يتلقون فيها تعليمهم النهائى. فالكثيرون ممن ينضمون إلى العمل معنا فى الخارج يجدون صعوبة فى تصديق أننا جادون إزاء مكافحة الفساد هذا، وأننا بالفعل لن نقدم أى مساهمة لسماسرة الحرب المحليين».

من المؤكد أن هناك استثناءات وسوف تكون هناك استثناءات، ولا سيما بعد أن أصبح التنافس العالمى أكثر شدة ومن ثم سوف يزداد إغراء اصطياد الأعمال المشكوك فيها. وتقول دراسة للكونجرس الأمريكى، إن بنك سيتى بانك كان متلهفاً على القيام بنشاط مع راؤول ساليناس دى جورتارى شقيق رئيس المكسيك السابق، إلى درجة أن البنك تجاهل الضمانات الخاصة به وساعده فى نقل 100 مليون دولار إلى صناديق غير مشروعة خارج المكسيك، بطريقة تم بها إخفاء وجهة الأموال ومنشأها. ومثل هذه الحالات تظل مع ذلك حتى الآن حالات استثنائية. والاتجاه الدولى السائد عكس ذلك بوضوح. ويجرم مرسوم ممارسات الفساد الأجنبية، الصادر فى عام 1977 أن تدفع الشركات الأمريكية لإنهاء الصفقات التجارية. وفى 20 نوفمبر 1997، وافقت منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية التى يشارك فى عضويتها تسع وعشرون دولة، وتضم الدول الصناعية الديموقراطية الرئيسية فى العالم، على تبنى معظم التشريعات الأمريكية المناهضة للفساد. وسوف يحظر على الشركات الأوروبية واليابانية بموجب قوانين منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية رشوة المسئولين الأجانب للفوز بالعقود، كما سيصعب أيضاً على هذه الشركات تدوين هذه الرشاوى فى الدفاتر المحاسبية باعتبارها

خصومات ضرائبية حيث كانت قانونية فى فرنسا وألمانيا. وعلى الرغم من وجود بعض الثغرات فى هذا التشريع الجديد، فإنه يسجل انتصاراً للثيران الأمريكيين فى القطيع الإلكترونى الذى كان يرى أنهم يخسرون مليارات الدولارات فى العقود بسبب الرشاوى التى يدفعها الأوروبيون واليابانيون.

حرية الصحافة: سوف تكون هناك صحافة حرة فى الصين. فسوف تفرض ثورة العولمة وجودها. أوه، حقيقى أن قادة الصين لم يعرفوا ذلك بعد، ولكن ثمة ما يدفعهم إلى هذا الاتجاه مباشرة.

ما عليك إلا أن تنظر فيما حدث فى الأسبوعين الأخيرين من شهر ديسمبر عام 1996. فقد كانت أكثر أسواق الأوراق المالية رواجاً فى آسيا أثناء عام 1996 هى أسواق الصين ـ مثل بورصتى شنغهاى وشينزهن. وفى الفترة ما بين أول أبريل و9 ديسمبر ارتفع مؤشر الودائع فى بورصة شنغهاى بنسبة 120 فى المائة، فى حين ارتفع مؤشر شينزهن بنسبة 315 فى المائة. وكان أحد أسباب رواج هاتين البورصتين أنهما لم تفرض عليهما ضوابط، وكان أحد أسباب عدم وجود الضوابط أن الصين كان لديها أكثر نظم الأوراق المالية والبورصة بدائية، ولم يكن لها تقريباً صحافة مالية مستقلة ومسئولة وغير فاسدة تستطيع تركيز الأضواء على الأسهم الممتازة بصورة فيها مصداقية، وأن تكشف فى قسوة تلك الشركات الصينية المخادعة التى لا تعلن فى الوقت المناسب عن بيانات مالية دقيقة أو ذات شفافية. وتقوم بهذا الدور الرقابى طوال الوقت صحف *بارونز، وفورتشن، وبيزنس ويك، والفار إيسترن إيكونوميك ريفيو، ونيويورك تايمز، وول ستريت جورنال.* وقد أدركت الحكومة الصينية فى ديسمبر عام 1996 أن الزمام قد أفلت فى بورصتى شنغهاى وشينزهن بسبب جميع أنواع المضاربات الشرسة والممارسات غير السليمة فى التعامل ـ ولكن أدواتها فى التعامل مع ذلك كانت محددة فى أداة واحدة شديدة الوطأة: تلك هى الصحافة المملوكة للدولة. وهكذا فإنه

في يوم 16 ديسمبر 1996 نشرت صحيفة ***ذى بيبولز ديلى*** الرسمية فى الصين كلمة افتتاحية تحذيرية مدوية تشير إلى أن أسعار الأسهم رفعت عمداً إلى معدلات «غير معقولة» و«غير عادية».

خمن ماذا حدث؟ سعى الجميع إلى بيع أسهمهم على الفور وهوت الأسعار فى كلتا البورصتين مما أدى إلى خسارة لكثيرين من صغار المستثمرين ـ وكان عددهم كبيراً إلى درجة أن الشرطة تدخلت لحفظ النظام بين المستثمرين الغاضبين الذين قاموا باحتجاجات خارج بيوت السمسرة فى عدد من المدن الصينية الكبرى. ذكرت صحيفة ***وول ستريت جورنال*** الآسيوية أنه «فى أحد بيوت السمسرة فى بيجنج (بكين)، كان أحد العمال يشتكى من أنه خسر 20 ألف يوان (نحو 2,400 دولار) حتى الآن هذا الأسبوع. صرح رجل يرتدى سترة جلدية وسط صيحات الموافقة لعشرات من المستثمرين الآخرين 'قبل أن تفتح صحيفة ***ذى بيبولز ديلى*** فمها، كان هناك توازن بين الشراء والبيع. ولكن بعد ذلك لم يجرؤ أحد على الشراء. لقد كانت السوق تغرق'».

ليس أكثر الناس غضباً من فقد وظيفة. إن أكثر الناس غضباً هو من يشعر بأنه حرم بطريق الغش من مدخراته التى كسبها من وظيفته. ومع مرور الأيام، لا يستطيع قادة الصين ببساطة السيطرة على أسواقهم الحرة المتفجرة أو مراقبتها، أو منع تعرض صغار المواطنين للغش ثم التظاهر بعد ذلك ضد الحكومة، بدون وجود المؤسسات الأخرى التى يجب أن تصاحب السوق الحرة، بدءاً من هيئة أوراق مالية وبورصة فعالة على غرار هيئة الأوراق المالية والبورصة فى الولايات المتحدة إلى صحافة حرة ومسئولة يساندها حكم القانون. أى باختصار «ثورة عولمة». ولم يكن من قبيل المصادفة أن الدولة الوحيدة فى جنوب شرقى آسيا التى يوجد بها صحافة حرة، وهى تايوان، كانت هى أيضاً الدولة الوحيدة فى جنوب شرقى آسيا التى تكبدت أقل كبوة اقتصادية فى الانهيار الاقتصادى الآسيوى فى الفترة 98-1997 .

لقد أصبح هناك الآن بالفعل 30 مليون صينى يمتلكون أسهماً. وفى ظل وجود هذا العدد الكبير من حملة الأُسهم الجدد بدأت تظهر الكثير من الصحف والمجلات السرية المتخصصة فى أخبار الأسهم، لأن المستثمرين يطالبون بأنباء اقتصادية صادقة. يوضح سيث فايسون رئيس مكتب صحيفة *نيويورك تايمز* فى شنغهاى قائلاً : «لقد بدأت هذه الصحف كنوع من النشرات السرية التى تصدرها مكاتب البحوث الملحقة ببيوت السمسرة المختلفة، ثم ترسل إلى أنحاء المدينة بالفاكس. وجميعها، تتركز حول أنباء السوق وما يتعلق بالشركات أو الأسهم المختلفة، أو قد تنشر أنباء سرية عما تنوى إحدى الوزارات فى بيجنج (بكين) القيام به. والكثير مما تحويه هذه النشرات مجرد شائعات، ويتضح فى النهاية أن بعضها حقيقى. وهى موجهة إلى أولئك الذين يؤثرون فى الأسواق، ولكنهم يشعرون أنهم لا يحصلون على ما يكفيهم من الأنباء فى الصحف اليومية» . ولكن ما حدث هو أنه عندما تقول الحكومة الصينية للصحف أنها حرة فى الكتابة حول المسائل الاقتصادية فإن صحفاً مثل *سوزرن ويك إند* التى تصدر فى الصين تستغل هذا التصريح فى نشر كل أنواع الأنباء شبه السياسية والنقد لما يقوم به المسئولون من فساد ومخالفات سياسية فى الصفحات المخصصة لنشر الأنباء الاقتصادية. وهذه هى الطريقة التى سوف تولد بها الصحافة الحرة فى الصين.

سوق للسندات : إلى جانب هذا النوع من برمجيات الضوابط، فإن القطيع الإلكترونى يدخل جزءاً مهماً صغيراً من نظام التشغيل يعمل أيضاً على تعزيز الديموقراطية ـ تلك هى أسواق السندات والصناديق المشتركة وصناديق المعاشات التنافسية. ألق نظرة على دول شرقى آسيا ـ مثل كوريا وتايلاند وماليزيا وإندونيسيا. لقد كان الشىء الذى يشتركون جميعاً فيه عندما ضربتهم الأزمة الاقتصادية أن كل دولة منها كان لديها معدلات مرتفعة للغاية من المدخرات ومعدلات منخفضة للغاية من الدين الحكومى. لم يكن هناك إنفاق من جانب الأفراد ولم يكن هناك اقتراض من

جانب الحكومة. أليست هذه أنباء طيبة؟ ليس بالضرورة. ففى حين كانت هذه الدول بها كل هؤلاء الناس الذى يحبون الادخار كان المكان الوحيد الذى يستطيعون حفظ مدخراتهم فيه فى معظم الأحوال هو البنوك، لأن الصناديق المشتركة وصناديق المعاشات وأسواق السندات المحلية إما أنها لم يكن لها وجود وإما أنها متخلفة كثيراً. ولذلك فإن ما حدث هو أن البنوك المحلية أصبح لديها كميات هائلة من أموال حسابات المدخرات. وكان الشئ الوحيد الذى تستطيع أن تفعله بكل هذه المدخرات هو إقراضها من جديد للشركات المحلية. وقد أدى ذلك إلى تنافس شرس بين البنوك المحلية، وأسهم فى أن تلقى البنوك بالأموال إلى مقترضين أقل كفاءة ومن أجل مشروعات أقل كفاءة. هذا علاوة على أنه عندما أصبحت الشركات معتمدة اعتماداً كلياً على الاقتراض من البنوك ـ ولا سيما فى ظل نظم تشغيل رأسمالى متساهلة يكون فيها المصرفيون على علاقة وثيقة بالشركات والمسئولين ـ فإنها تستطيع اجتناب الكثير من التدقيق الذى كان من الممكن أن تتعرض له إذا كانت تصدر سندات يمكن للجمهور تملكها ويحدد لها معدلات للتبادل على أساس يومى.

لقد ظل القطيع الإلكترونى يشجع منذ فترة طويلة أسواق السندات، سواء كان ذلك من أجل إشباع شهيته أو للدور المهم الذى تقوم به سوق السندات جيدة التنظيم. وأنشأت كل من سنغافورة وهونج كونج عمداً أسواقاً للسندات ـ رغم وجود كثير من رأس المال المحلى من خلال مدخرات البنوك ـ وذلك لأنهم كانوا يرغبون فى وجود سوق محلية للسندات يمكن أن تقدم ما يطلق عليه اسم «رأس المال الصبور»: أى التمويل طويل الأجل للشركات المقترضة بحيث لا تكون عرضة لأهواء الإقراض قصير الأجل من البنوك. كما أنها أتاحت للمدخرين فى سنغافورة وهونج كونج الفرصة لشراء الصناديق المشتركة، وصناديق المعاشات ذات العائدات الأعلى، بديلاً عن حسابات المدخرات فى البنوك فى مجال الاستثمار. والأهم من ذلك أن أسواق

السندات ذات الضوابط السليمة تعزز من الإفصاح والشفافية، لأن الإفصاح هو الطريقة الوحيدة لوضع معدلات أسعار لسندات أى شركة أو إدراج أسهمها فى قوائم الأسعار، فى سوق منضبطة على نحو سليم. وإذا كنت تريد جذب المستثمرين الدوليين، وتريد أن تقوم شركات مثل موديز أو ستاندارد آند پورز بوضع معدلات لأسعار أسهم شركتك فلابد أن يكون هذا الإفصاح مستنداً إلى المعايير الدولية.

انظر إلى هذا التقرير الذى أوردته صحيفة *واشنطن بوست* فى 15 نوفمبر 1998 من باريس: يبدأ الخبر بأن سيرجى تشوروك أحد المديرين التنفيذيين البارزين فى فرنسا أبلغ كبار المستثمرين الدوليين على إفطار عمل أن أرباح شركته، ألكاتل، شركة الاتصالات الفرنسية العملاقة، ستكون أقل كثيراً مما تنبأت به الشركة قبل أسابيع قليلة فقط. والقطيع لا يحب مثل هذه المفاجآت. ومن ثم فإنه فى الفترة ما بين هذا الإفطار وموعد إقفال الأسواق فى ذلك اليوم انخفضت أسعار أسهم شركة ألكاتل بنسبة 38 فى المائة ـ وهو أكبر انخفاض ليوم واحد فى تاريخ البورصة الفرنسية ـ حيث إن صناديق المعاشات والصناديق المشتركة الأمريكية والبريطانية انسحبت من شركة ألكاتل وجعلتها تشرف على الموت. ومضت مراسلة *الواشنطن بوست*، آن سواردسون، فى سرد كيف أن القطيع يعيد تشكيل الأساليب القديمة للشركات الأوروبية: «فى السنوات القليلة الماضية، ظل الأجانب يدفعون كثيراً من الشركات إلى تغيير الإدارة، وإصلاح نظم المحاسبة، والدخول فى اندماجات مع الشركات الدولية، وحقن اللغة الإنجليزية ـ وهى لغة التجارة الدولية ـ فى حجرة مجلس الإدارة. وباختصار، أصبحت الإدارة الأوروبية التى لم تعبأ فى تاريخها بمطالب حملة الأسهم أكثر استجابة واهتماماً».

غير أن أكثر ما أثار متعتى هو أن تشوروك، بعد فرار القطيع مذعوراً من شركة ألكاتل، استقل الطائرة وتوجه إلى لندن، ثم بعدها قفز إلى طائرة الكونكورد وتوجه إلى نيويورك للاجتماع بالمستثمرين الأمريكيين فى الصندوق المشترك، وذلك فى محاولة لتوضيح الخطأ الذى حدث واستعادة ثقتهم من جديد.

وصرح أحد المشتركين الأمريكيين فى ذلك الاجتماع لصحيفة *البوست* بقوله: «لقد كان يحاول الاعتذار ولكن ذلك لم يجد فى شئ. فقد كنا فى ذلك الوقت قد أتممنا عملية بيع أسهمنا».

تطبيق الديموقراطية: سوف يكثف القطيع الإلكترونى من ضغوطه من أجل تطبيق الديموقراطية بشكل عام، وذلك لأسباب ثلاثة حاسمة ـ المرونة والشرعية والاستمرارية. وإليك كيف سيعمل على ذلك.

كلما زادت سرعة وحجم القطيع أصبح الاقتصاد العالمى أكثر دسامة وانفتاحاً وزادت حاجتك إلى المرونة حتى تستفيد أقصى استفادة من القطيع وتستطيع حماية نفسك منه. ولئن كان المرء يجد دائماً استثناءات لهذه القاعدة، إلا أننى ما زلت أومن بأنه كقاعدة عامة كلما زادت ديموقراطية الضوابط التى تضعها ومصداقيتها وانفتاحها، كان الاحتمال أقل فى تعرض نظامك المالى للمفاجآت. كما أنه عندما يتعرض للصدمات والمفاجآت، فإنه سرعان ما يستطيع التكيف مع الظروف والمطالب المتغيرة. كذلك، كلما كان مجتمعك أكثر انفتاحاً وديموقراطية زاد ما ستحصل عليه دائماً من مردود، وكانت فرصتك أفضل لإجراء تصحيحات فى منتصف الطريق قبل أن تتعثر فى منحدر شاهق وكان من الأسهل أن تأتى بمديرين جدد وطرد غير الأكفاء.

هذا علاوة على أنه عندما يصبح على دولتك إجراء هذا التصحيح فى منتصف الطريق، وهو مؤلم غالباً، وكلما كانت هذه العملية أكثر ديموقراطية، زادت شرعية مشاركة حكومتك فى آلام الإصلاح مع جميع أفراد الشعب. يقول لارى دياموند الباحث الأكاديمى فى مجال الديموقراطية: «تأمل فيما كان يقوله قادة دول جنوب شرقى آسيا لشعوبهم طوال فترة ما بعد حقبة الحرب العالمية الثانية. لقد كانوا يقولون لهم: 'تخلَّ لى عن حريتك وأطبق شفتيك عن الكلام، وأنا سوف أمنحك الفرصة

لتصبح غنياً ". وكان من السهل على الشعب أن يكون غير سياسى عندما كانت كل الزوارق تسير إلى أعلى، وكان الناس يشعرون بأنهم يستطيعون ترك الإدارة السياسية لشخص آخر بدون أن يؤدى ذلك إلى المساس برفاهيتهم الاقتصادية. حسناً، لقد نجح ذلك لنحو ثلاثين عاماً، ولكن النمو انهار بعدها، وانهار أيضاً توزيع الثروات والرفاهية والأرباح. وأدرك الناس أنهم لا يستطيعون التخلى عن السياسة لشخص آخر. وهكذا انهارت الصفقة. وكان من نتيجة ذلك ما قالته الشعوب لحكوماتها فى تايلاند وإندونيسيا وكوريا، وقريباً سيقولونه فى الصين، وهو أنه إذا حرمتمونا من النمو، وإذا لم تسلم الدولة نصيبها من الصفقة السابقة فإننا نريد إذن صفقة جديدة وسوف يكون لنا فى هذه الصفقة دور أكبر كثيراً فى كيفية عمل النظام. ولكن لأن دورنا أصبح أكبر فإننا سنكون على استعداد لتقديم تضحيات أكبر أثناء إصلاح النظام ونهوضه ليستأنف سرعته الطبيعية. وهذا هو السبب فى أنهم على استعداد لإظهار قدر من الصبر فى مواجهة المعاناة الاقتصادية أكبر كثيراً مما يتوقع كثيرون من الناس. ونظراً لأن السياسة عندهم أصبحت أكثر انفتاحاً وديموقراطية فإنهم سيشعرون على الأقل بأنهم يعانون حل هذه المشكلات بقدر من المساواة. إنهم يصبحون من المشاركين فى ملكية اللعبة».

كان من بين الدول الآسيوية التى التحمت تماماً بالقطيع الإلكترونى (لن تكون الصين ملتحمة تماماً بدون عملة قابلة للتحويل وأسواق منفتحة لرأس المال) وكانت أقلها تأثراً بانهيار عام 1997، تلك الدول التى تتميز بأقصى قدر من عدم الفساد والديموقراطية وتحمل المسئولية ـ وهى تايوان وهونج كونج وسنغافورة. أما الدول التى بها نظم ديموقراطية ولكنها فاسدة، مثل تايلاند وكوريا، فكانت فى الدرجة الثانية من التأثر بالأزمة، ولكن لأنها كانت تتمتع بالديموقراطية فقد استطاعت مواجهة الأزمة بسرعة بدون حدوث تمرد شعبى، وذلك عن طريق التصويت لصالح فرض ضوابط وبرمجيات أفضل. لقد استطاعت تايلاند فور أن ضربها القطيع الإلكترونى فى خريف

عام 1997 انتخاب أنظف الأحزاب وأكثرها ديموقراطية فى البلاد وإصدار دستور راديكالى جديد مناهض للفساد. لقد نص الدستور الجديد للمرة الأولى على أنه يتعين على السياسيين التايلانديين الإعلان عن ممتلكاتهم الشخصية قبل تولى الوظيفة وبعد تركها ويكونون عرضة للمسائلة الجنائية إذا وقع أكثر من 50 ألف ناخب على التماس بإجراء تحقيق عن الفساد فى شئونهم الخاصة. وكان الدستور يهدف إلى إنهاء ممارسة شراء الأصوات للفوز بالمناصب ثم استغلال المناصب بعد ذلك لتعويض ما أنفق على شراء الأصوات. كذلك يضمن الدستور الجديد حرية الصحافة وعدم إصدار أوامر قضائية بإغلاقها. وصرح لى أحد المسئولين فى مكتب البنك الدولى فى بانكوك بقوله: «لم يكن أبداً من الممكن أن يوافق البرلمان على الدستور الجديد بدون الأزمة البنكية. أبداً. فقد أجبرت الأزمة البنكية الملك والجيش على الدفع بهذا الدستور، بعد أن كانوا مترددين [من قبل]. وماذا كان رد فعل كوريا؟ كان رد كوريا بانتخاب أكثر الشخصيات ليبرالية وديموقراطية فى البلاد، كيم داى يونغ، وهو رجل كان يستحيل انتخابه مطارداً للفساد قبل الأزمة المالية فى كوريا.

أما أشد دول جنوب شرقى آسيا استبدادية وأكثرها فساداً فهى إندونيسيا فى ظل حكم سوهارتو؛ فقد كانت أقلها مرونة، وأقلها قدرة على تبنى برمجيات جديدة، وكانت هى الدولة الوحيدة التى تفككت فى نهاية الأمر، لأن الجماهير الإندونيسية لم تكن مستعدة لتحمل جزء من آلام الإصلاحات، إذ لم تكن تشعر أن الحكومة حكومتها. فعندما ضربت العملة الإندونيسية فى عام 1998، ولم يكن صندوق النقد الدولى ليتقدم لإنقاذها بالقروض إلا إذا خفضت إندونيسيا الإنفاق، كان على الرئيس سوهارتو أن يقول لشعبه: «أصدقائى، إن علينا أن نشد الأحزمة على البطون. إننا جميعاً نواجه هذا الموقف معاً»، وعندما حاول ذلك، كانت الإجابة التى حصل عليها فى نوبة من العنف: «سيدى الرئيس، إننا لم نكن نشاركك فيما تحصل عليه من رسوم للطرق

ولا فى ملكيتك أنت وأولادك للفنادق و شركات الطيران و سيارات الأجرة. إذن فلتذهب إلى الجحيم».

فى النهاية، إن إصلاح حكومة ما لنظام التشغيل والبرمجيات على الورق إنما هو أمر واحد، ولكن الطريقة الوحيدة لضمان استمرار هذه الإصلاحات هى أن تضعها بثبات فى إطار نظام ديموقراطى أو تعمل على أن يصبح ديموقراطياً. ويصف دياموند الوضع بقوله: «إن الدول التى تسعى إلى الالتحام بالقطيع عن طريق برمجيات جيدة، وحكم القانون، وتولى المسئولية ـ ولكن بدون انتخابات حرة منتظمة ـ لن تتمكن من مسايرة القطيع على المدى الطويل. فمن الصعب الاحتفاظ ببرمجيات جيدة فى ظل حكم استبدادى غير مسئول فى حد ذاته، لا يسمح بالتدفق الحر للمعلومات، ولا يسمح لنظام قضائى مستقل بملاحقة الفساد، ولا يسمح بإجراء انتخابات حرة حتى يمكن تغيير الإدارة السياسية».

إن أفضل طريقة للمحافظة على البرمجيات هى أن يكون معلوماً لدى السياسيين الذين يديرونها أن هناك من يراقبهم دائماً وأنه من الممكن دائماً إقصاؤهم عن مناصبهم.

لنتدبر التاريخ الحديث لبلغاريا الذى لخصته ***الإيكونوميست*** (19 يناير 1999) فيما يلى: «لقد رأى رؤساء المصانع البلغارية، مثلهم فى ذلك مثل الكثير من الدول الشيوعية السابقة، فى قدوم السوق الحرة فرصة للنهب. كانوا يدفعون أكثر مما يجب فى المواد الأولية، و يضعون أسعاراً أقل مما يجب للسلع المصنعة. وكان عليهم تعويض خسائرهم عن طريق الاقتراض من البنوك. وأما حكومة الشيوعيين، التى خضعت للإصلاح بالكاد، وكانت هى ذاتها غارقة إلى أذنيها فى معاملات تجارية مشبوهة، فقد غضت الطرف على عملية نهب البنوك. غير أن البلغاريين العاديين، الذين كان

بوسعهم معرفة ما يمكن أن يؤدى إليه ذلك، بدأوا فى سحب أموالهم من البنوك.... وأمكن الحيلولة دون الكارثة فقط لأن الحكومة دعت إلى الانتخابات فى أبريل 1997، وخسرتها. وقد جعل الإصلاحيون الذين نجحوا فى الانتخابات الجديدة ملاحقة الفساد أهم أولوياتهم».

غير أن الانتخابات وحدها ليست كافية قط لضمان سلامة الحكم. وكذلك لن يكون لنظام التشغيل والبرمجيات أى تأثير دون انتخابات تطيح بقادة الفساد. وذلك هو السبب فى أن أكثر القادة حكمة فى الدول النامية سيكونون هم الأسرع من غيرهم فى إدراك أنه لن يكون هناك نمو بدون القطيع، ولن يكون هناك قطيع بدون برمجيات ونظم تشغيل أفضل، ولن يكون هناك حكم أفضل على المدى الطويل بدون انتخابات منتظمة.

ولئن كان منطق ثورة العولمة يجعلنى أتفاءل بأن القطيع سوف يقوم بدور متعاظم الأهمية فى إقرار الديموقراطية، إلا أن فكرة ما سيفضى إليه ذلك يترك المرء حذراً. إنك لا تلتحم فحسب بالقطيع وتحصل على برمجيات ونظم تشغيل أفضل وديموقراطية فى نهاية الأمر. بل يجب عليك أن تشقى للوصول إلى تلك الأهداف. إن بناء برمجيات هو بالضرورة عملية سياسية تشمل بشراً حقيقيين يصطدمون عادة بمقاومة سياسية واقتصادية وتاريخية وثقافية. ليس هناك من طريق مختصر، ولابد دائماً من أن يتعلم الناس بالطريق الصعب. إن أمريكا لم تصل إلى ما وصلت إليه الآن إلا بفضل مائتى عام من دورات متعاقبة من الازدهار والأزمات الاقتصادية فى مجال السكك الحديدية، والأزمات المصرفية التى لا تنتهى، والتفليسات الهائلة، والاحتكارات التى نشأت ثم تهاوت، وانهيار البورصة فى عام 1929، وأزمة المدخرات والقروض فى الثمانينيات. إننا لم نولد على ما نحن عليه الآن.

بلا شك، لن تكون استجابة كل الدول لمطالب القطيع بسرعة واحدة، وبالنسبة لكثيرين، سوف تعزف على مر السنين رقصة «خطوة للأمام وخطوتان للخلف». فعلى سبيل المثال، تمتاز دول مثل بولندا و المجر وجمهورية التشيك امتيازاً هائلاً على روسيا فيما بعد الشيوعية، لأنه ما زال عند هذه الدول الأوروبية الشرقية الكثير من المواطنين الذين لهم خبرة بالرأسمالية قبل الاحتلال السوفيتى، وكان لديهم فى ظل الحكم الشيوعى مزارعون وأصحاب محال صغيرة مسموح لهم بالاحتفاظ بملكية أراضيهم وممتلكاتهم الخاصة. أما روسيا فلم يكن لها ذلك الإرث التاريخى الذى تستطيع أن تزيح عنه التراب. ذلك أن روسيا دولة كان تحقيق الثروة تاريخياً فيها إما عن طريق استخراج شئ من الأرض وإما من شخص آخر، وليس عن طريق الرأسمالية والاستثمار. كان الكثير من المتاجر، إبان سنوات الشيوعية السبعين، يطلق عليها مجرد «خبز» و«لحم» و «لبن». وليس ذلك تماماً هو الأساس الذى يبدأ منه نظام للسوق الحرة. سألت مرة أناتولى تشوبايس مهندس الكثير من الإصلاحات الاقتصادية الروسية العرجاء عن مدى صعوبة انتقال روسيا إلى نظام السوق الحرة.

أجابنى قائلاً: «لم يكن لدينا الكثير ممن لديهم خبرة فى الحكم الحديث أو التكنولوجيات أو الأسواق، لأنه لم تكن لدينا أسواق. كانت كلمة 'أسواق' فى حد ذاتها محظورة فى الاتحاد السوفيتى. وأنا لست رجلاً عجوزاً. ولكننى أتذكر صديقاً لى خبيراً اقتصادياً فقد وظيفته فى عام 1982 لأنه كتب مقالاً فى صحيفة علمية استخدم فيها كلمة 'سوق'.

ثم إن هناك ما يثير الفزع حقيقة. إنك حتى إذا توصلت إلى المعنى الحقيقى لكلمة السوق، وحتى إذا أنشأت برمجيات، فإن مواصلة إدخال التحسينات على هذا الجهد مهمة لا تنتهى. فما الذى يحدث عندما تحصل على نظام تشغيل رأس المال 6.0؟

سوف تبدأ فى العمل على التوصل إلى نظام تشغيل رأس المال 7.0.

* * *

قالت لى مرة جوليا بريستون مراسلة صحيفة *نيويورك تايمز* فى مكسيكو سيتى عن اجتماع غير عادى لرجال جماعة زاباتيستا، وهم جماعة المزارعين التى ظلت تحارب آثار التجارة الحرة والعولمة فى المكسيك. فقد عقدت جماعة زاباتيستا مؤتمراً فى الغابات الموجودة فى جنوبى المكسيك تحت عنوان، «منتدى ما بين القارات لصالح الإنسانية فى مواجهة الليبرالية الجديدة». وقد عقدت الجلسة الختامية فى مدرج موحل مشبع بالبخار برئاسة الزعيم الزاباتيستى «مساعد القائد ماركوس»، وهو خليط من روبين هود ورالف نادر. وانتهى الاجتماع بقيام جماعة الزاباتيستا بنوع من قرع الطبول أعلنوا فيه عن أشد المؤسسات شراً وخطورة فى العالم اليوم. لقد أعلنت جماعة الزاباتيستا، فى ظل ترحيب هائل من الحضور، أن العدو الأكبر للبشرية هو منظمة التجارة العالمية فى جنيف، التى تروج لحرية التجارة فى العالم ولإنهاء إجراءات الحماية.

تذكرنى هذه القصة دائماً بأنه رغم أن القطيع الإلكترونى وأسواق السوبر ماركت سيكون لها دور كبير فى إقرار الديموقراطية فإنها ستنشئ أثراً معاكساً أيضاً. سوف تسهم فى انتشار إحساس، ولا سيما فى النظم الديموقراطية، بأنه حتى وإن حصلت الشعوب على الديموقراطية فى بلادها، فإنها فقدت معها السيطرة على أمور حياتها؛ لأنه سيكون حتى على الممثلين الذين انتخبوهم الانحناء أمام أصحاب الحكم المطلق فى السوق الذين لم ينتخبوهم.

كلما استفحل حجم هذا القطيع وزادت سرعته ونفوذه، حسبما يقول ستيفن جى. كوبرين خبير العولمة فى وارتون سكول، «زاد إحساس المواطنين الأفراد بأن موقع التحكم الاقتصادى واتخاذ القرارات السياسية فى الشئون الاقتصادية يتحول عن

المستوى المحلى حيث يمكن التحكم فيه، إلى المستوى العالمى حيث لا يوجد من يمسك فيه بزمام المسئولية. ولا أحد هناك يعبأ بما هو مخزون. فعندما تكون الأمور السياسية محلية يكون لصوتك الانتخابى أهميته. ولكن عندما تنتقل السلطة إلى هذه المجالات التى تتجاوز الدول، فلن لن يكون هناك انتخابات ولن يكون هناك من تعطيه صوتك».

ولا جدال أن هناك فى نظام العولمة، حيث أصبحت القوة الآن مقسمة بصورة أكثر عدالة بين الدول وأسواق السوبر ماركت، قدراً ما من سلطة اتخاذ القرار انتقل من المجال السياسى لكل دولة إلى مجال السوق العالمية، حيث لا يوجد هناك شخص واحد أو دولة أو مؤسسة تستطيع ممارسة التحكم السياسى دون منازع، حتى الآن على الأقل. تذكر كم مرة سمعت التعبير «الأسواق تقول .... »، «الأسواق تطالب بـ.....»، «الأسواق ليست سعيدة....؟»

يذكر يارون إزراحى المنظر السياسى الإسرائيلى أن: «أكثر القوى التحكمية فى التاريخ تختفى دائماً وراء الزعم ببعض المنطق الغيبى ـ الله، قوانين الطبيعة، قوانين السوق ـ وهى تؤدى إلى ردة عندما تصبح الاختلافات التى لا تحتمل معنوياً واضحة وضوح الشمس. لقد كان التنوير حقاً عولمة للعلم والتعقل وجاءت الردة عندما زعم كل لص ومحتال ومستغل ومخادع أن كل ما يقوم به أملاه العلم والحكمة. قد يحدث هذا أيضاً مع العولمة. سوف يراها كثيرون ليست أكثر من قناع يستخدمه بعض الصفوة الاقتصاديين للحصول على صوت المواطن. وذلك هو السبب فى أن يرى بعض الناس أن العولميين فى كل مجتمع يريدون أولاً شراء وسائل الإعلام؛ لأنهم يريدون أن يتحولوا بالمواطنين الذين يحتمل أن يشعروا بالظلم أو بالثقة فى النفس إلى مجرد مستهلكين متعاونين. ويعتبر التحول بالسياسة إلى نوع من رياضة المشاهدة

إحدى العمليات الماهرة التى تدعم العولمة. إنها ترد المواطن أو تحوله من ممثل إلى مشاهد، يحلم بالمشاركة فى العرض».

كلما زاد شعور المواطنين بأن التحكم فى الأمور فى نظام العولمة الجديد هذا يأتى من بعيد وليس من داخل البلاد، أصبح العولميون فى هذه البلاد عرضة للهجمات. قال لى يوسف بطرس غالى وزير الاقتصاد المصرى الملاحظة التالية: «إن عملية العولمة بأسرها سهلة للغاية على الدهماء. إن أولئك الذين يرغبون فى مقاومة التغيير يشيرون إلى كل من يرغب فى فتح الاقتصاد أمام الاستثمار الأجنبى ويقولون: 'انظروا، هذا رجل خائن لقضيتنا، لأنه يريد فتح اقتصادنا أمام الأجانب' ثم إنك تقول، 'نعم، ولكن العملية تكون أكثر كفاءة عندما تترك للأسواق مهمة تحديد الأسعار'. ثم يعودون إليك ويقولون: 'هل جننت؟ الأجانب يتحكمون فى الأسواق. كيف نترك لأسواقنا تحديد الأسعار فى حين يسيطر الأجانب على هذه الأسواق'؟»

لا شك فى أن من أكبر التحديات للنظرية السياسية فى حقبة العولمة هذه هى كيف تعطى للمواطنين الإحساس بأنهم يستطيعون ممارسة إرادتهم، ليس على حكوماتهم فقط، وإنما على بعض القوى العالمية على الأقل التى تشكل حياتهم. يقول إزراحى، «نظراً لأن قوى ومؤسسات السوق لا تعبأ بالأخلاق، فإنها تكون بحاجة إلى ذكاء واع واجتماعى لمنع حالات الظلم الصارخة. ذلك الدور الواعى هو جوهر المواطنة فى الحكم الديموقراطى - يحرس ويشكل حركة الجمهور وحياته الاجتماعية. ثم إنه ستكون لديك مشكلة حقيقية إذا كانت حركة مواطنيك والحياة الاجتماعية فى بلادك تشكلها قوى لا تطولها سياستك». إن علم التربية الوطنية الذى سيدرسه أولادنا يجب أن يذهب إلى أبعد من دراسة الحكومات المحلية والوطنية، إلى حدود دراسة السلوك المقبول فى العلاقات بين الدول وأسواق السوبر ماركت، وبين الدول والأفراد الذين اكتسبوا قوة عظمى، وبين الأفراد الذين اكتسبوا قوة عظمى وأسواق السوبر

ماركت. كيف يتسنى لنا التعامل مع عالم يستطيع فيه القطيع الإلكترونى أن يصوت فى جـمـيع أنواع الدول فى كل يوم، فى حين لا تصـوت هذه الدول على سلوك القطيع على هذا النحو المباشر والفورى؟ من الذى سيحكم العلاقة بينى وبين الإنترنت، وبين أسواق السوبر ماركت وبينى، وبين حكومتى وأسواق السوبر ماركت؟ أستعين هنا بمقولة لارى سومرز، وهى أن هذا «مأزق العولمة ثلاثى الأبعاد».

الشىء الوحيد الذى يمكن أن تقوله فى صالح نظام العولمة هو أنه يتعامل بدون مفاضلة أو تمييز ـ وأنه يترك فى الضعيف والقوى إحساساً بفقدان السيطرة وبأنه يقع تحت وطأة قوى لم ينتخبها ولا يستطيع التحكم فيها أحياناً. لقد ذهبت لمقابلة وزير المالية المكسيكى، جوليرمو أورتيز، فور انهيار البيزو المكسيكية فى عام 1995. كان جالساً وراء مكتبه وعيناه معلقتان بشاشات الكمبيوتر الموجودة عنده، التى كانت تنقل رسوماً بيانية لحظة بلحظة لهبوط سعر البيزو مثل صورة بيانية كهربائية لإصابة بأزمة قلبية.

كان أورتيز يصيح فى الأسواق العالمية قائلاً: «امنحونا هدنة لقد أطبقتم علينا حتى الموت. توقفوا عن بيعنا بثمن بخس». وعندما سألته عن شعور المرء عندما تدهمه الأسواق العالمية وتطاردة بقميص القيد الذهبى، أومأ أورتيز لشاشات الكمبيوتر الثلاث القريبة من مكتبه، التى ترصد البيزو لحظة بلحظة، وقال: «لقد جاءت علىّ أيام كنت أشعر فيها بأننى لا حيلة لى على الإطلاق. وأحياناً كنت أذهب للعمل فى الحجرة الأخرى حتى أستطيع التركيز بعيداً عن تلك الشاشات».

@Ahmedyassin90

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل التاسع

اشتر تايوان واحتفظ بإيطاليا وبع فرنسا

ريدموند، واشنطن، 12 أكتوبر 1997 ـ فى رد فعل مباشر للاتهامات التى وجهتها وزارة العدل، أعلنت اليوم شركة مايكروسوفت أنها سوف تشترى الحكومة الفيدرالية للولايات المتحدة الأمريكية بمبلغ لم تعلن عنه. وقال بيل جيتس رئيس شركة مايكروسوفت: «إنه امتداد منطقى للنمو الذى خططنا له. إنه سيكون بالفعل اتفاقاً إيجابياً لصالح كل الأطراف».

وقد عقد ممثلو شركة مايكروسوفت مؤتمراً صحفياً فى المكتب البيضاوى مع الرئيس الأمريكى بيل كلينتون، وأكدوا لممثلى الصحافة أن التغييرات ستكون «طفيفة». وسوف تتولى مايكروسوفت إدارة الولايات المتحدة باعتبارها أحد الأقسام التى تمتلكها الشركة بالكامل .

ومن المقرر إجراء طرح أولىّ للاكتتاب العام فى يوليه من العام التالى، ومن المتوقع أن تدر أسهم الولايات المتحدة أرباحاً «فى الربع الرابع من عام 1999» على أقصى تقدير، حسبما أعلن رئيس شركة مايكروسوفت ستيف بالمر.

وقد أعلن الرئيس كلينتون فى تصريح له فى هذا الصدد إنه قبل «بترحيب وحماس» منصب نائب رئيس شركة مايكروسوفت، وسوف يواصل إدارته لحكومة الولايات المتحدة، وأن يكون مسئولاً بصفة مباشرة أمام بيل جيتس. وعندما سئل كلينتون عن شعوره وهو يتخلى عن عباءة السلطة التنفيذية لجيتس، ابتسم وأشار إلى أن ذلك سيكون بمثابة «تحرير له» من عبء القيادة. ومضى قائلاً إن جيتس لديه «سجل تاريخى موثوق به»، وأنه يجب

على المواطنين الأمريكيين منح جيتس «تأييدهم وثقتهم بالكامل». وتردد أن كلينتون سيحصل على دخل من وظيفته الجديدة فى مايكروسوفت يوازى عدة أضعاف ما كان يكسبه وهو رئيس للولايات المتحدة، ويصل إلى 200 ألف دولار سنوياً.

واستبعد جيتس فكرة نقل مبنى الكابيتول الأمريكى إلى ريدموند، ووصفها بأنها فكرة «غبية»، رغم أنه قال إنه سوف يتخذ قرارات تنفيذية لحكومة الولايات المتحدة من مكتبه القائم فى مقر شركة مايكروسوفت. ومضى جيتس قائلاً إنه «من الطبيعى» إلغاء مجلسى النواب والشيوخ. وأشار إلى أن «شركة مايكروسوفت ليست كياناً ديموقراطياً»، ومع ذلك «انظروا إلى مدى ما حققناه من نجاح». وعندما سئل عن مدى صحة الشائعات عن قرب ضم كندا إلى مايكروسوفت، قال جيتس: «إننا لا ننكر أن هناك مناقشات دائرة فى هذا الصدد». وقد أنهى ممثلو مايكروسوفت المؤتمر الصحفى بالتأكيد على أن المواطنين الأمريكيين يمكنهم أن يتوقعوا خفضاً للضرائب، وزيادات فى الخدمات الحكومية، وخصماً على كل منتجات مايكروسوفت.

نبذة عن ميكروسوفت:

تأسست فى عام 1978، وهى كبرى شركات إنتاج برمجيات الكمبيوتر الشخصى والحكومة الديموقراطية فى العالم. وتقدم الشركة مجموعة كبيرة من المنتجات والخدمات للجمهور والشركات والاستخدام الشخصى، وكل من هذه المنتجات والخدمات مصمم بهدف أن يكون استخدامها أسهل وأكثر متعة للناس بحيث يستفيدون من طاقة الحاسوب الشخصى والمجتمع الحر بالكامل كل يوم.

نبذة عن الولايات المتحدة:

إن الولايات المتحدة، التى تأسست فى عام 1789، هى أكثر الأمم نجاحاً فى تاريخ العالم، وظلت منارة للديموقراطية والفرص لمدة تزيد على 200 عام. وقد أصبحت الولايات المتحدة، ومقرها الرئيسى فى واشنطن العاصمة إحدى الفروع المملوكة بالكامل لشركة مايكروسوفت.

ـ فقرات ساخرة مجهولة المصدر لمايكروسوفت ظهرت على الإنترنت.

ذات يوم من أيام خريف عام 1995 كنت أقرأ صحيفة *فاينانشيال تايمز* عندما قفزت فى وجهى صورة منشورة على الصفحة الأولى. كانت صورة لبيل جيتس رئيس شركة مايكروسوفت وهو يجرى محادثات مع الرئيس الصينى چيانج زيمين. كانت السطور المكتوبة تحت الصورة توحى بأن المحادثات كانت على مستوى القمة بين زعيمين من زعماء العالم. إذ قالت إن الرجلين أجريا محادثات «ودية للغاية» ، على عكس اجتماعهما شديد الفتور الذى عقد قبل ثمانية عشر شهراً. قلت فى نفسى، إن بيل جيتس يجتمع مرتين مع جيانج زيمين فى غضون ثمانية عشر شهراً، فى حين لم يجتمع الرئيس الأمريكى بيل كلينتون مع الزعيم الصينى سوى مرة واحدة فى هذه الفترة. لم يكن ذلك من قبيل الصدفة. إذ يبدو أن الصينيين كانوا يؤمنون فى تلك الفترة بأنهم فى حاجة إلى بيل جيتس أكثر من حاجتهم إلى بيل كلينتون. ثم من ذا الذى يستطيع أن يلومهم؟ لقد كان الصينيون يشعرون بالقلق لأن الترجمة الصينية لبرمجيات ويندوز 3.1 (Windows 3.1) قام بها أحد الخبراء فى لغة الكمبيوتر من تايوان ـ حيث استخدم الحروف وشفرات الكمبيوتر التايوانية. وليس هناك ما يمكن أن يثير غضب الصين أكثر من فكرة أن تكون تايوان هى التى تشكل برمجيات ونظم تشغيل كل جهاز كمبيوتر صينى. ونجم عن ذلك أن حظرت السلطات فى بيجنج (بكين) تداول برمجيات ويندوز 95 فى السوق الصينية إلى أن توافق شركة مايكروسوفت على مشاركة شركة كمبيوتر تابعة للصين الأم.

بعد قراءة الموضوع وتدارس ما كتب تعليقاً على الصورة المنشورة، بدأت فى التساؤل، ألم تبدأ الصفات المميزة للدول والشركات فى التقارب نوعاً ما. فمن وجهة نظرى إنك عندما تربط بلدك بالاقتصاد الدولى تكون قد طرحت دولتك فى نهاية الأمر للاكتتاب العام ـ كما تحول شركتك إلى شركة عامة يشارك فيها حملة أسهم من أنحاء العالم ـ فذلك فى حد ذاته قد أعطى الدول مزيداً من صفات الشركات.

لقد أصبح المواطنون أشبه كثيراً بحملة الأسهم، وأصبح القادة أشبه بإدارة الشركة، وأصبح محللو السياسة الخارجية أشبه بوكالات تحديد معدلات الائتمان.

غير أن الدول أيضاً أصبحت أكثر شبهاً بالشركات فى نظام العولمة لسبب آخر: إذ تستطيع الدول باطراد، مثل الشركات، أن تختار أن تكون مزدهرة. فليس هناك ما يجبرها على أن تكون سجينة لمواردها الطبيعية أو للجغرافيا أو التاريخ. ففى عالم تستطيع فيه دولة ما أن تلتحم بالإنترنت وأن تستورد المعرفة، وفى عالم تستطيع فيه دولة ما العثور على حملة أسهم من أى دولة أخرى للاستثمار فى بنيتها الأساسية، وفى عالم تستطيع فيه دولة ما بالقيادة السليمة استخدام نظام تشغيل رأس المال 6.0 فى فترة زمنية قصيرة نسبياً، وفى عالم تستطيع فيه دولة ما استيراد التكنولوجيا التى تجعلها منتجة للسيارات أو مصنعة لأجهزة الكمبيوتر حتى إن لم يكن لديها المواد الأولية لذلك، تستطيع إذن دولة ما أكثر من أى وقت مضى أن تختار بين الازدهار والفقر، بناء على ما تتبعه من سياسات. لقد وضح البروفيسور مايكل بورتر الأستاذ بكلية الأعمال بجامعة هارفارد الأمر على النحو التالى: «لقد أصبحت ثروة أى أمة تتوقف بالدرجة الأولى الآن على عملية الاختيار الجماعى لشعبها. لم يعد الموقع ولا الموارد الطبيعية ولا حتى القوة العسكرية أموراً حاسمة. وبدلاً من ذلك، أصبحت الطريقة التى تختار بها الأمة ومواطنوها تنظيم وإدارة اقتصادها، والمؤسسات التى يضعونها فى مكانها المناسب، وأنواع الاستثمارات التى تختارها على نحو فردى أو جماعى، هى التى تحدد مدى الازدهار الوطنى».

فإذا كانت الدول تستطيع الآن اختيار الازدهار، مثل الشركات تماماً، فما هى الأشياء التى يجب على الدول أن تختار التركيز عليها فى حقبة العولمة هذه؟ إن ذلك يسير. ما عليك إلا أن تسأل فى ذلك أفضل الشركات العالمية. ليست هذه دعابة. فما دامت الدول قد أصبحت أشبه بالشركات من أوجه عديدة، فما عليك، إذا كنت تريد

أن تعرف ما الذى يجعل دولة ما قوية وعالمية، إلا أن تبدأ بالسؤال عما يجعل شركة ما قوية وعالمية.

إن ما سوف أورده فيما يلى هى قائمة، استخلصتها من المقابلات الصحفية التى أجريتها مع كبار التنفيذيين فى شركة كومباك للكمبيوتر - التى صنفتها مجلة **فوربس** *Forbes* فى عام 1998 بأنها أفضل شركة فى أمريكا من حيث الإدارة - وأيضاً مع المسئولين التنفيذيين فى شركات شيڤرون، ومونسانتو، وسيسكو. إننى أطلق على هذه القائمة العادات الثمانية للدول شديدة الفاعلية». ولا أزعم أن هذه القائمة شاملة، وإنما هى ببساطة بداية جيدة فى سعيك لاتخاذ الإجراء المقابل بالنسبة للدول. فعندما أذهب إلى دولة ما اليوم فإن الأسئلة الثمانية التالية هى أول ما أوجهه عندما أحاول تقييم قوتها وإمكانياتها الاقتصادية.

ما هو مستوى الاتصال فى دولتك؟

فى أكتوبر 1995 طرت إلى ريدموند بواشنطن لإجراء مقابلة صحفية مع الرجل الثانى فى شركة مايكروسوفت، الرئيس ستيف بالمر، حتى أوجه إليه سؤالاً واحداً بسيطاً: إن شركة مايكروسوفت هى أهم شركة فى أمريكا اليوم، إذن كيف تقيس مايكروسوفت القوة فى عالمها؟ عندما تلقى نظرة على العالم، فما هى الدول التى تجد أنها قوية اليوم ولماذا؟ كانت إجابة بالمر فى أكتوبر 1995 بسيطة: «إننا نقيس القوة بنسبة واحدة - عدد أجهزة الكمبيوتر الشخصى لكل أسرة». قلت ، حسناً، أعطنى خريطة لقوة الدول عندك. قال، حسناً، كانت آسيا هى أسرع المناطق نمواً بالنسبة لمايكروسوفت، حيث كانت فى كوريا الجنوبية أعلى كثافة من عدد أجهزة الكمبيوتر الشخصى لكل أسرة. وقال إن اليابان كانت فى سبيلها إلى الانطلاق، ولكن مايكروسوفت تشعر بحماس شديد تجاه الصين.

سألت: «كيف يتسنى لك أن تحب الصين؟ إن الناس هناك يكسبون 50 دولاراً فى الشهر».

أجابنى بالمر قائلاً: «أوه، إنك لا تفهم». ثم ذهب إلى سبورة ورسم خطين قصيرين على جانب منها وخطين قصيرين آخرين على الجانب الآخر، وخطين قصيرين تحتهما وخطاً واحداً أسفل السبورة. سألت: «ما هذا»؟ حينئذ رسم دائرة حول كل خطين قصيرين فى أعلى ثم حول الخطين فى أسفلهما ثم حول الخط الأخير فى أسفل السبورة، ثم قال: «هذان يمثلان جدين صينيين من ناحية الأم، وهذان يمثلان جدين صينيين من ناحية الأب وهذان يمثلان أبوين صينيين وجميعهم يدخرون لشراء برمجيات ويندوز 95 لطفل صينى واحد». نعم، حتى تحديد النسل فى الصين يعمل لصالح مايكروسوفت.

قلت: «استمر فى جولتك حول العالم». قال بالمر، كانت كل من البرازيل والهند من الدول الساخنة فى العالم، حيث كان هناك نمو سريع فى نسبة عدد أجهزة الكمبيوتر الشخصى لكل أسرة. غير أن منطقة الشرق الأوسط كانت بمثابة نقطة سوداء بالنسبة لمايكروسوفت بدءاً من المغرب وحتى حدود باكستان، باستثناء إسرائيل، التى يوجد بها مركز خاص بها لتطوير أجهزة مايكروسوفت ـ إنها مستوى مختلف تماماً من القوة ـ والمملكة العربية السعودية، حيث يقوم المصريون بإدارة شركة متعددة الجنسية من مايكروسوفت. وأشار بالمر إلى أن أوروبا الغربية كانت قوية من كل النواحى، فيما عدا دولة واحدة هى فرنسا. قال بالمر: «لا أريد أن أقول إن فرنسا قد تخلفت ولكن اختراق أجهزة الكمبيوتر الشخصى بالنسبة لعدد السكان كان مرتفعاً كثيراً فى فرنسا، ولكن ذلك لم يعد صحيحاً الآن».

لقد أطلقت على خريطة بالمر للقوة اسم «السياسة الخارجية 3.1». وبعد ذلك بثلاث سنوات، وفى عام 1998، قررت أنه يجب علىّ تحديث معلوماتى. ولكننى فى

هذه المرة قررت الذهاب إلى وادى السيليكون لكى أسأل شركات أجهزة الكمبيوتر والبرمجيات الكبرى ـ وهى إنتل، وصن، وسيسكو، فضلاً عن أساتذة كلية الهندسة بجامعة ستانفورد ـ عن طريقتهم فى قياس القوة. وقد أثارنى ما اكتشفته من أن الأشياء قد تطورت إلى درجة كبيرة. فقد وضحوا لى أن وادى السيليكون لم يعد يقيس القوة فى عام 1998 بمجرد عدد أجهزة الكمبيوتر الشخصى لكل أسرة ولكن عن طريق «درجة الاتصال» قالوا: «إن الشئ المهم الآن هو مدى اتساع وعمق الاتصال بين أجهزة الكمبيوتر الشخصى فى بلدك، وبينها وبين شبكات الاتصال داخل الشركات والمدارس ومصادر الترفيه، ثم ربط هذه الشبكات الداخلية بالإنترنت والشبكة العالمية World Wide Web .

وتقاس درجة الاتصال غالباً بمدى كثافة سعة الحزمة فى البلد: سعة الكابل فيه، وخطوط التليفون، وبصريات الألياف لحمل الاتصالات الرقمية ـ أى كل هذه المجموعات من رقمى 1و0 ـ من نقطة إلى نقطة داخل شبكات الاتصال. فإذا كانت الحدود فى عقد الكمبيوتر الشخصى ـ أى عقد الثمانينيات ـ هى «أنك لن تستطع أبداً أن يكون لديك ذاكرة كبيرة فى جهاز الكمبيوتر عندك» . فإن حدود عقد ما بعد الكمبيوتر الشخصى ـ أى عصر الشبكات ـ هى «أنك لن تستطع أبداً أن يكون فى دولتك سعة حزمة كبيرة» .

كلما زاد ما تقيمه من سعة للحزمة فى بلدك، عظمت درجة قدرة الاتصال بها. وإذا كنت تريد أن تعرف مدى ما و صل إليه بلد من اتصال فإنك تقيس ذلك بمقياس «عدد وحدات الميجابيت لكل فرد» ـ أى مقدار سعة الحزمة التى أقيمت فيه مقسوماً على عدد المستخدمين المحتملين لها. إن عدد وحدات الميجابيت لكل فرد انضمت الآن إلى عدد أجهزة الكمبيوتر الشخصى لكل أسرة كمحك أساسى للقوة فى عالم السيليكون. إنها ستكشف لك معدل انتشار المعلومات فيما بين السكان ومن

أصحاب اتخاذ القرار وإليهم. إن الوظائف، واستخدام المعرفة، والنمو الاقتصادى، سوف تنجذب إلى تلك المجتمعات المتصلة أعظم اتصال بمعظم شبكات الاتصال، وأوسع قدر من اتساع الحزمة ـ لأن هذه الدول ستجد أنه من الأسهل عليها تجميع المعلومات ونشرها وتبادلها حتى يتسنى لها التصميم، والاختراع، والتصنيع، والبيع، وتوفير الخدمات، والاتصال، والتعليم، والترفيه. لقد وضح برايان ريد أحد المديرين التنفيذيين فى شركة ديچيتال إكويبمنت كوربوريشن الذى قام ببعض الأعمال الرائدة على الإنترنت ذلك فى تصريح له لصحيفة *نيويورك تايمز* (فى 8 ديسمبر 1997) بقوله: «سعة الحزمة هى نظام التوزيع الذى عن طريقه تبيع الشركات السلع التى تنتجها فى عصر المعلومات. إن سعة الحزمة فى أواخر تسعينيات القرن العشرين مهمة للتجارة أهمية السكك الحديدية فى تسعينيات القرن التاسع عشر والموانئ البحرية فى تسعينيات القرن الثامن عشر. إنها الوسيلة التى تبيع عن طريقها منتجك».

يحب جون تشيمبرز رئيس شركة سيسكو ترديد القول بأن الشركات والدول التى ستحقق الازدهار فى اقتصاد الإنترنت هى تلك التى ستدرك أهميتها قبل غيرها، وتنشئ شبكة الاتصال بها قبل أن تدرك بقية العالم أن عليها أن تتغير. وإذا قمت بذلك أسرع من منافسيك، حسبما يقول تشيمبرز، فلن تقول لهم سوى أن «المباراة انتهت».

فلن يكون هناك سوى نوعين فقط من الأعمال، نظراً للسرعة التى نتحرك بها نحو عالم ستكون فيه الإنترنت هى التى تحدد نوعية كل من التجارة والاتصالات: الأعمال عن طريق الإنترنت، والأعمال المضادة للإنترنت. الأعمال عن طريق الإنترنت هى تلك التى يمكن إتمامها إما عبر الإنترنت، أى كل شىء بدءاً من بيع الكتب إلى السمسرة إلى المقامرة، وإما التى تعززها الإنترنت إلى حد بعيد، وهذا ينطبق على كل شىء بدءاً من استشارات الإدارة إلى إدارة المخزون. أما الأعمال المضادة للإنترنت فهى

تلك التى لا يمكن أداؤها عبر الإنترنت ـ مثل إعداد الطعام أو قص الشعر أو صناعة الصلب ـ وتلك التى تكون بصورة ما رد فعل ضد الإنترنت. وهذه قد تتضمن أموراً مثل مراكز التسوق ومقاهى ستارباكس. وأنا أصف مقاهى ستارباكس ومراكز التسوق بأنها أعمال مضادة للإنترنت لأنها تكسب من مجرد أن الناس كلما زادت فترة جلوسهم بمفردهم فى منازلهم مع أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم منهمكين مع الإنترنت، زادت نزعتهم إلى الخروج من المنزل والذهاب إلى سوق مركزى أو إلى ستارباكس أو الطريق الرئيسى ولمس أى إنسان، أو شم رائحة أى إنسان، أو تذوق شىء ما، أو الإحساس بشىء ما. وسوف تظل المنتجات بحاجة إلى عرضها، وسوف يظل الناس يتطلعون إلى المجتمع. وكلما زاد عدد مرات وجودهم بالسيارة ليكساس، زادت رغبتهم فى قضاء بعض الوقت مستندين إلى أشجار زيتونهم.

عندما تصبح الإنترنت هى حجر الزاوية فى التجارة والاتصال على مستوى العالم، فسوف يكون العنصر الحاسم فى تحديد نمو الدول الاقتصادى هو نوعية ومدى شبكات الاتصال بداخلها. ومن ثم فمن هو المتحمس ومن هو غير المتحمس الآن وفقاً لمعيار قوة الشبكة الجديدة تلك؟ إن وادى السيليكون يخشى من تايوان بسبب براعتها فى الابتكار، ومدى اتساع الاتصال، وثقافتها الديناميكية فى الأعمال الرأسمالية التى تستغل بكفاءة كل هذه التكنولوجيا. لو كانت تايوان سهماً، لاشتريته. كذلك تقع ضمن هذه الفئة الولايات المتحدة، وبريطانيا، وكندا، وأستراليا، وأجزاء من إسرائيل، وإيطاليا، وسنغافورة، والهند. والصين تخطو بسرعة مذهلة فى تشييد الشبكة، ودول اسكنديناوه ولا سيما فنلندا تحرز مرتبة مرتفعة للغاية فى إجمالى أعمال شبكات الاتصال (ولكنها تفتقر إلى ثقافة الإقدام على عمل المشاريع الخاصة التى تمكنها من استغلالها بالكامل). وقد حدث تخلف فى اليابان وكوريا للاستثمارات فى مجال شبكة الاتصال بسبب الهبوط الذى حدث فى اقتصاداتهما فى أواخر التسعينيات، فى

حين تسرع ألمانيا لكى تلحق بالركب، وبدأت فرنسا تستيقظ من توها. أما روسيا فما زالت تغط فى سباتها.

ما الذى سيأتى بعد معدل عدد أجهزة الكمبيوتر الشخصى لكل أسرة، وشبكات الاتصال لكل فرد كمقياسين للقوة الاقتصادية؟ يقتضى الرد على هذا السؤال أن يكون المرء مدركاً بأننا نتحرك سريعاً من عالم الكمبيوتر الشخصى الواقف وحيداً، إلى عالم تصبح فيه شبكة الاتصال أكثر أهمية من الجهاز المعين الذى تستخدمه فى الاتصال بها. لذلك، فإنك إذا سألت الموجودين فى وادى السيليكون عما سيجىء بعد الكمبيوتر الشخصى، والشبكات الداخلية، والإنترنت، فسوف يجيبونك بقولهم «شبكة الوجود الدائم، الإيڤرنت Evernet». سوف تكون دائماً متصلاً بالشبكة ـ وسوف تصل إليها عن طريق جهاز تليفزيونك، وجهاز الاستدعاء (البيدجر)، والتليفون الخلوى، وجهاز الكمبيوتر عندك، أو أى جهاز آخر للمعلومات لم يخترع بعد. وسوف يكون كل من هذه الأجهزة بمثابة تليفون اتصال، وبيدجر، ومرسل برقيات (فاكس)، وبريد إلكترونى، ووصلة الإنترنت. وتجرى حالياً شركة آى بى إم تجارب للتوصل إلى منتج يجمع بين كثير من هذه الصفات ويمكن ببساطة لصقه بمغناطيس فى ثلاجتك. وسوف تتمكن من توجيه التعليمات له ثم يعيد توجيه المعلومات. كذلك سوف يطلق على المنتج الاستهلاكى الكبير القادم لشركة سونى اسم «نيتمان Netman» على غرار جهاز «ووكمان»، وسيكون عبارة عن جهاز تستطيع حمله معك للدخول على الإنترنت فى أى مكان تكون فيه.

لهذا السبب سوف يكون مقياس عدد أجهزة الكمبيوتر الشخصى لكل أسرة أقل وأقل أهمية، وسوف تصبح الشبكة أكثر وأكثر أهمية. وحسبما يقولون فى وادى السيليكون، أنه من الآن فصاعداً تكون الإنترنت هى جهاز الكمبيوتر الخاص بك. أما كيفية ركوبك لأمواجه فذلك شأنك وحدك.

وسوف يتزايد قياس قوة الدول، ونحن نمضى قدماً فى هذا الطريق، بمدى قربها من الاتصال بالعالم ـ بمدى قربها بأن يصبح جميع أفراد شعوبها متصلين مباشرة بالشبكة طوال الوقت وفى أى مكان يذهبون إليه ـ وبمدى الثراء فى تنوع الخدمات التى يمكن أن يقدموها على الإيڤرنت Evernet هذه.

فعلى سبيل المثال، كم عدد الأسر لديك ممن سيكون لديهم خدمات نسخ الحديث إلى النص، عبر شبكة الإيڤرنت، بحيث يستطيع الناس أن يملوا أى شىء لأى إنسان بواسطة أجهزة الكمبيوتر الموجودة فى منازلهم؟ وما مدى كفاءة خدمات الفيديو التى ستقدمها شبكة الإيڤرنت عندك، بحيث يستطيع الناس إرسال صور والحديث وجهاً لوجه عبر شبكة الإيڤرنت بدون تكلفة تقريباً؟ ما مدى التجفير encryption (بمعنى التدافع لمنع دخول المحظور فى الشبكة) فى شبكة الإيڤرنت لديك، بحيث يمكن تخزين البيانات بشكل آمن وبحيث يمكن تنفيذ كل العمليات التجارية بدون قلق من السرقة؟ ما مدى ملاءمة أدوات المعلومات وتعدد أبعادها بحيث يحملها الناس معهم هنا وهناك فى كل الأوقات لكى يكونوا دائماً متصلين بالشبكة؟ بعبارة أخرى أنه عندما نكون جميعاً متصلين طوال الوقت، يكون مقياس القوة لمن يستطيع استغلال وإثراء هذه الاتصالية على نحو أكثر ابتكاراً من غيره.

من يدرى، ربما لن تكون سنغافورة هى الدولة الوحيدة فى العالم التى ستضع فوق رأسها تاج «ملكة جمال الإنترنت Miss Internet» . فقد كتب تحت صورة نشرتها صحيفة *يو إس إيه توداى* (19 يناير 1999) لشابة من سنغافورة يوجد فوق رأسها تاج ما يلى: «إن سنغافورة تنظر بجدية شديدة إلى عصر الرقميات إلى درجة أنها أقامت مسابقة لملكة جمال الإنترنت. وقد فازت ستلا تان فى هذه المسابقة فى أغسطس. ومن بين الأشياء التى تضمنتها المسابقة عرضاً لأزياء سيدات الأعمال وتصميماً لرداء الشبكة» .

من بيرت باركس إلى بيل جيتس: وداعاً مقياس الخصر وأهلاً بسعة الحزمة.

ما مدى سرعة بلادك؟

أشار مرة كلاوس شواب من منتدى دافوس للاقتصاد العالمى إلى: «أننا انتقلنا من عالم كان الكبير يلتهم فيه الصغير إلى عالم السريع فيه يلتهم البطيء».

وهو على حق. فكما أشرت من قبل، لقد انخفضت حواجز الدخول إلى أى مشروع تجارى تقريباً إلى حد بعيد، بسبب الديموقراطيات الثلاث المشار إليها سابقاً، ويعنى ذلك أن السرعة التى يتحول بها المنتج من «ابتكار» إلى سلعة» قد أصبحت سرعة توربينية. فإذا كانت شركتك أو دولتك لأسباب اجتماعية أو ثقافية أو سياسية لا ترغب فى أن يعمل مبدأ « التدمير الخلاق» الذى نادى به شومبيتر بالسرعة التى تسير بها الأسواق التوربينية اليوم فإنها ستتخلف عن الركب. وأنه ليس من قبيل الهراء ذلك الذى يردده بيل جيتس من أنهم فى شركة مايكروسوفت لا يعرفون سوى شيء واحد: إن كل منتج يصنعونه سيكون طرازاً قديماً فى غضون أربع سنوات. والسؤال الوحيد هو هل شركة مايكروسوفت هى التى ستجعله قديماً أم منافسوها. فإذا كانت مايكروسوفت هى التى ستجعله طرازاً قديماً، فسوف يكتب لها الازدهار. أما إذا جعله أحد منافسيها طرازاً قديماً فسوف تلقى مايكروسوفت عند ذاك المتاعب. ولقد جعل بيل جيتس شركة مايكروسوفت ذاتها طرازاً قديماً تقريباً عندما أشار مبدئياً إلى أن الإنترنت ليست هى مستقبل الحاسوبات. لقد كان من حسن حظه أنه أدرك ذلك قبل أن تنتهى السنوات الأربع المتاحة له.

لم يكن كبار المديرين بشركة كومباك للكمبيوتر بحاجة إلى من يشرح لهم موضوع السرعة هذا. فقد كانت بداية كومباك أنها أسرع من شركة آى بى إم فى التدمير الخلاق. وقد دمرت تقريباً شركة آى بى إم فى طريقها إلى تحقيق ذلك. إن ما حدث فى عام 1985 أن خرجت شركة إنتل بشذرة المايكروبروسسور 386 الجديدة

التى حققت سرعة أكبر كثيراً من سرعة شذرتها 286. ولكن يعود إيكهارد فايفر رئيس شركة كومباك بالذاكرة حيث يقول إن شركة آى بى إم فى ذلك الوقت كانت مع ذلك تواصل العمل بنموذج عمل الحرب الباردة البطىء. والمرء لا يصدق الآن أن شركة آى بى إم كانت تعد زبائنها بأنهم إذا اشتروا آخر ابتكاراتهم من أجهزة الكمبيوتر ـ وكان فى ذلك الوقت عبارة عن طراز بالتكنولوجيا المتطورة للاستخدام المكتبى ـ فإن آى بى إم تضمن لهم ألا يصبح طرازاً قديماً لمدة خمس سنوات! هل تتخيل الآن أى شركة لتصنيع أجهزة الكمبيوتر تعد بألا تصبح أجهزتها قديمة الطراز لمدة خمس سنوات؟ (اليوم، تفخر شركات الكمبيوتر بأنها ستنتج طرازاً جديداً أسرع من أجهزة الكمبيوتر التى تنتجها كل خمسة شهور).

ويمضى فايفر قائلاً: «لقد كانت شركة آى بى إم تواصل العمل بموجب نموذج قديم للعمل. ولم تفهم أن هذه الفئة الجديدة من المنتجات تطبق قواعد مختلفة تماماً. وهكذا خرجت شركة إنتل بشذرة الكمبيوتر 386 وقالت لشركة آى بى إم 'تكيفى معها' وقالت شركة آى بى إم 'لا'. وهكذا جاءتنا شركة إنتل فى شركة كومباك وقلنا لها، 'سوف نصنعها' وبالفعل وقعنا الصفقة مع إنتل».

المباراة انتهت. لقد استحوذت كومباك على قضمة كبيرة من سوق آى بى إم للكمبيوتر الشخصى، وما زالت تقضم منها أجزاء حتى الآن.

يضيف فايفر قائلاً: «ربما كان من الممكن أن أقول قبل عشرة أو خمسة عشر عاماً إنه لا يهم كثيراً أن يكون الإنتاج عند خط البداية، إلى أن خرجت شركة إنتل بشذرة المايكروبروسسور الجديدة. فالناس فى ذلك الوقت لم يكن لديهم ذلك الإحساس بالإلحاحية. كان منهم من يقول 'حسناً، سوف انتظر شهراً أو شهرين. ربما أربح من النظام الذى أبيعه الآن بضعة دولارات أخرى'. أما اليوم فقد أصبح محتماً تماماً الاستعداد للإنتاج الجديد من شذرات المايكروبروسسور واستخدامها منذ أول يوم

لظهورها. إننا الآن نمر بمرحلة دورات ثلاث للمنتج فى كل عام مع كل جهاز كمبيوتر ننتجه. فهناك تصميمان جديدان كل عام على الورق ثم تصميم واحد يستفيد من التكنولوجيا الموجودة».

قبل خمسة عشر عاماً عندماً ظهر الكمبيوتر الشخصى الجديد، كان من الممكن ترويجه أولاً فى الولايات المتحدة، ثم فى أوروبا بعد عدة شهور، وأخيراً قد يصل إلى الهند والشرق الأوسط؛ فقد كان من المفترض أن الأسواق الأوروبية والآسيوية لديها حماية من نوع ما ضد ما يحدث فى أمريكا. أما الآن فقد اختلف الحال. فالمنتج الجديد لا بد أن يوزع فى أنحاء العالم فى اللحظة نفسها تماماً. وإذا أعلنت شركة إنتل عن شذرة جديدة وقرأ الناس عنها فى صحفهم أو على الإنترنت، فإنهم يتوقعون أن تزود بها أجهزة الكمبيوتر الشخصى أو جهاز الكمبيوتر المتنقل الذى سيشترونه فى اليوم التالى. يقول إنريكو بيساتورى النائب الأول لرئيس شركة كومباك للتسويق: «إنك ستحب أن تجده معروضاً فى ذلك اليوم فى المحل الذى تتعامل معه. أما إذا تأخرت لمدة أسبوعين فقط فسوف تعتبر بطيئاً، وسوف يصنفك المحللون بأنك شركة بطيئة، وسوف ينظر إليك باعتبار أنك لن تستفيد بالهامش الإجمالى المبكر من الأرباح التى تجىء حين تكون أول من ينزل إلى السوق بالمنتج الجديد».

لا غرابة إذن فى أن شركة كومباك أصبحت الشركة التى تقوم على مبدأ السرعة، وهذا هو السبب فيما حققته من ثراء. فقد استطاعت تصميم منتجات أسرع من منافسيها، ولذلك استطاعت تقديم حلول لزبائنها أسرع من منافسيها، ومن ثم استطاعت جمع أرباح أسرع من منافسيها. ويعرف ذلك بدورة الإنتاج ـ أى الانتقال بالمنتج من البحث إلى التصميم إلى التطوير إلى التصنيع إلى المبيعات وفى النهاية إلى تحقيق الأرباح ثم خوض الدورة بأسرها مرة أخرى. لقد نجحت كومباك فى هذه الدورة التى لا تنتهى للإنتاج، من تقليص فترة «دورة الربح إلى الربح» ـ أى الفترة ما بين

الدفع للمورد وجمع الأموال من الزبون ـ من 121 يوماً قبل ثلاث سنوات إلى 72 يوماً اليوم. يوضح لنا إيرل ميسون المسئول المالى لشركة كومباك ذلك بقوله: «إذا كان باستطاعتك خفض الفترة ما بين قيامك بصرف دولار إلى (المورد) وباسترداد دولار (من الزبون) باستمرار، فإن إجمالى دورات أصولك ستبدأ فى التسارع إلى درجة تستطيع معها أن تكسب كميات هائلة من الأموال. والآن إذا نظرت إلى ما استطعنا تحقيقه وراقبت حساب ما لدينا من أموال منذ نهاية عام 1985 وحتى الربع الأول من عام 1998، فإن تسارع الفترة الزمنية ما بين الأرباح والأرباح سمح لنا بتنمية حسابنا من الأموال السائلة من 900 مليون دولار إلى 7 مليارات دولار. ثم إنك تقوم بعد ذلك باستثمار هذه الأموال فى شركات جديدة وتخوض دورة أخرى من تقليص دورة الحياة من الربح إلى الربح فى الشركة الجديدة، ثم تنزل مرة أخرى للتسوق. وإذا نجحت فى أن تكون سريعاً فإنك ستكبر بالضرورة. أما إذا كنت كبيراً فقط، ولست سريعاً، فإن حجمك هذا سوف يأخذ فى الهبوط».

فى مثل هذا العالم تتمثل وظيفة الدولة فى أن تساعد مواطنيها ورجال الأعمال فيها على الخطو السريع. وهكذا فإننى عندما أذهب الآن إلى دولة ما فإنه فى مقدمة الأسئلة التى أوجهها: إلى أى مدى أعدت هيكلة دولتك لزيادة سرعة موافقات الحكومة والمعاملات والاستثمار والإنتاج؟ ما مدى السرعة التى يستطيع بها أحد مواطنيك الانتقال بفكرة ما من جراج منزله إلى السوق؟ ما مدى السرعة التى تستطيع بها جمع رأس مال لتنفيذ فكرة مجنونة، وما مدى السرعة التى توصلك إلى أفكار جديدة؟ وما مدى السرعة التى تستطيع بها القضاء على الشركات التى دون مستوى الكفاءة، عن طريق التفليسات؟

من بين الأسباب التى أوحلت اليابان فى الكساد منذ انهيار سور برلين أنها لم تتمكن لأسباب ثقافية وسياسية من التأقلم مع نظام العولمة الجديد الذى يتطلب

رأسمالية أقدر على المواجهة من تلك التى اعتاد عليها اليابانيون. يتطلب من البنك اليابانى (أ) أن يقولها صراحة للشركة اليابانية (ب) : «لقد انتهيت. أنت شركة ليست فى مستوى الكفاءة وغير رابحة، وسوف أتوقف عن إمدادك بالقروض؛ لأننى أريد أن أعطى ر أس المال هذا لمن هو أكثر كفاءة». ويتطلب من الحكومة اليابانية أن تقول للبنك اليابانى (أ) : «لقد انتهيت. سوف نستولى عليك ونبيع أصولك أو نجبرك على الاندماج مع البنك (ب) الأكثر قوة منك. إننا لن نستمر فى تقديم الدعم لك، مثلما فعلنا فى الحرب الباردة عندما كان العالم أكثر بطئاً ويتمتع بحماية أكبر».

تتميز بعض الدول بالسرعة فى إيجاد رأس المال لأن حكوماتها تعلمت كيف تسرع بالأمور. قال بيساتورى: «من قبل، لم يكن هناك من ينتج حقيقة فى اسكتلندا. أما الآن فإنك لا تتحمل أن لا تكون هناك. لماذا؟ لأنهم قد أقاموا بنية أساسية. فإذا ذهبت إلى اسكتلندا فإنك ستجد كل شئ جاهزاً ـ نظام الضوابط، والبيئة الضرائبية، والنقل، والاتصالات عن بعد ـ من أجلك لإقامة المصنع الذى تريده فى أسرع وقت».

كما أن بعض الدول سريعة لأن شعوبها ـ لأسباب ثقافية أو تاريخية أو لمجرد صفاتها الوراثية فى الحمض النووى (الدنا DNA) ـ تتميز بطبيعتها بالتوثب، وبأنها أصبحت أسرع بمجرد أن وفرت لها حكوماتها الأساسيات ثم أفسحت لها الطريق. وهناك مناطق مثل شمال إيطاليا، وتل أبيب، وشنغهاى، وكوريا الجنوبية، وبيروت، وبانجالور فى الهند، سريعة بطبيعتها وهم آخذون فى النهوض هذه الأيام، مبتعدين بأنفسهم عن الأجزاء الأخرى حتى فى بلادهم ذاتها. هذه المناطق هى «المناطق الساخنة»، وسوف تكون هى محرك النمو المدهش لبلادها. وعندما تأخذ إحدى تلك المناطق الساخنة، وتزودها بالإنترنت وتصلها بمجتمع الشتات المنتشر فى أنحاء العالم ـ مثل الصينيين فى الخارج، أو اليهود، أو الإيطاليين، أو اللبنانيين أو الهنود أو الكوريين ـ فسوف يكون لديك ما أحب أن أطلق عليه اسم «قبيلة السيبر cybertribe

أو قبيلة المعلومات». وتجمع قبائل المعلومات هذه بين السرعة والابتكار وموهبة إقامة المشاريع الخاصة وشبكات الاتصال العالمية بصور تمكنها من توليد ثروة هائلة.

والواقع، إن شمال إيطاليا اليوم هو أغنى منطقة فى أوروبا. وقد وضح لى مرة ريجنالد بارثولوميو السفير الأمريكى السابق فى إيطاليا السبب فى ذلك. قال: «هب أنك جئت إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا، وقلت لهم، 'أريد شراء بعض الجبن الأحمر'. ماذا يحدث؟ حسناً، سيقول لك الفرنسيون، 'مسيو، الجبن لا يكون لونه أحمر مطلقاً'. وسيقول لك الألمان، 'الجبن الأحمر ليس مدرجاً فى الكتالوج هذا العام'، أما الإيطاليون ..... آه، سيقول لك الإيطاليون، 'ما درجة احمرار الجبن التى تريدها؟ أحمر أرجوانى' ؟»

لو كان شمال إيطاليا سهماً لاشتريته.

هل تحصد بلادك ثمار معرفتها؟

لقد انتقلنا من عالم كانت الطريق فيه إلى الثروة تتمثل فى قدرتك على الاستيلاء على أراض والتمسك بها واستغلالها إلى عالم يتمثل فيه الطريق إلى الثروة فى كيف تجمع دولتك أو شركتك المعرفة وتنشرها وتحصدها. يقول عن ذلك وولتر ريستون الرئيس السابق لبنك سيتى بانك فى مقال له نشر بمجلة *فورين أفيرز* (سبتمبر 1997): «إن السعى إلى تحقيق الثروة أصبح الآن إلى حد كبير سعياً وراء المعلومات وتطبيقها على وسائل الإنتاج. وأصبحت القواعد والعادات والمهارات والمواهب، اللازمة للكشف عن المعلومات والتقاطها وإنتاجها والحفاظ عليها واستغلالها، هى أشد الأصول أهمية بالنسبة للجنس البشرى. لقد حل التنافس على أفضل المعلومات محل التنافس على امتلاك أفضل الأراضى الزراعية أو مناجم الفحم. والواقع، إن الشهية لضم الأراضى قد

خفت حدتها بالفعل، وانسحبت القوى العظمى من الأراضى التى كانت تحتلها من قبل ... فى الماضى عندما تغيرت طريقة تحقيق الثروة، فقدت هياكل القوة القديمة نفوذها، وظهرت هياكل جديدة، وتأثرت كل جوانب المجتمع. وبعد أن رأينا بالفعل بداية هذه العملية فى هذه الثورة، يستطيع المرء أن يزعم أنه فى العقود القليلة القادمة سوف تحدد القدرة على اجتذاب رأس المال الفكرى وإدارته المؤسسات والأمم التى سيكتب لها البقاء والازدهار، والتى لن يكتب لها ذلك».

«ما مدى الاتصال داخل بلادك؟» ذلك هو مقياس لمدى اتساع وعمق شبكات الاتصال لديك. أما السؤال:«هل تحصد دولتك ثمار معرفتها؟» فذلك مقياس لمدى قدرة الدولة وشركاتها على استخدام هذه الشبكات. الاتصال ضرورى، ولكنه غير كاف. فالدول بحاجة أيضاً إلى تجميع المعرفة بفاعلية ونشرها بفاعلية. وهى بحاجة لكى تكون أكثر اتصالاً من أى وقت مضى وأكثر تعلماً وثقافة من أى وقت مضى. وهذا هو السبب فى أننى أحب أن أتفقد جدولين عندما أصل إلى أى دولة. أحدهما الجدول الذى تضعه شركة هيوليت باكارد، وفيه تبين الدول التى لديها أكثر اتصال فى العالم اليوم. والجدول الثانى هو ذلك الجدول الذى تصدره منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية، وفيه تبين أى الدول من بين أغنى تسع وعشرين دولة فى العالم من حيث تخريج أعلى نسبة مئوية من خريجى المدارس العليا لديها ومن حيث إنفاقها أعلى نسبة من دخلها القومى على مرتبات المدرسين. وإذا بحثت عن الدول التى تحتل أعلى ترتيب فى كلتا القائمتين ـ أى قائمة معدل الميجابايت لكل فرد ومعدل خريجى المدارس العليا لكل فرد ـ فسوف يكون لديك مؤشر جيد عمن يسير على الدرب الصحيح من هذه الدول وعمن لا يسير. وليس من قبيل الصدفة، على سبيل المثال، أن فنلندا التى لديها الآن أحد أعلى مستويات المعيشة فى العالم تجلس بالقرب من قمة القائمتين.

ويصدق ذلك على الشركات؛ فشركة سيمنز للإلكترونيات الألمانية العملاقة تعتبر من الشركات ذات الاتصال الجيد، ولكن اشتهر عنها أنها ضعيفة فى الاستفادة بما لديها من معرفة. ولقد سمعت مرة أحد الاستشاريين الإداريين ممن عملوا فى شركة سيمنز يقول: «لو أن سيمنز تعرف فقط ما تعرفه سيمنز لكانت شركة غنية». ويصدق ذلك على الدول. «لو أن فرنسا تعرف فقط ما تعرفه فرنسا .... ولو أن الصين تعرف فقط ما تعرفه الصين .... ».

إن الشركات والدول التى تتعلم كيف تستخدم شبكاتها بأقصى قدر من الكفاءة هى تلك التى سوف تحقق الازدهار. وهذا المبدأ يصبح مفهوماً أفضل ما يكون عندما يطبق على شركة لا يمكن وصفها عادة بأن لها علاقة بمجال المعرفة ـ لنقل مثلاً، شركة شيڤرون للبترول. لقد كنت فى زيارة للكويت فى عام 1997 حيث كنت أتحدث إلى هـ. ف. إسكندر المدير العام لشركة شيڤرون فى الكويت وواحد من أكثر رجال البترول حذقاً فى الخليج. كنا نتحادث حول ما تحاول شركة شيڤرون أن تفعله للعودة إلى مجال التنقيب عن البترول فى الكويت. عندما كان إسكندر يعدّد نقاط القوة لدى شركة شيڤرون والسبب فى ضرورة أن تكون جذابة للكويت أشار إشارة عابرة إلى أن «شركة شيڤرون ليست شركة بترول، إنها شركة للتعلم».

سألته: « ماذا تعنى بشركة للتعلم؟» فشركات البترول هى شركات تنقيب عن البترول. إنها شركات لرجال على رؤوسهم خوذات العمل، وأيديهم ووجوههم ملطخة بالبترول الخام. فما هذا الحديث عن «شركة للتعلم؟»

وضح إسكندر قائلاً: فى أثناء عقد السبعينيات، طردت كل الدول المصدرة للبترول تقريباً فى الشرق الأوسط شركات البترول متعددة الجنسية الكبرى حتى تضخ بترولها بنفسها. كان ذلك قراراً اقتصادياً من جهة، وقراراً سياسياً من جهة أخرى يعكس التأكيد بصفة عامة على استقلال الدول التى كانت مستعمرة من قبل، وذلك

فى أثناء الحرب الباردة. ولكن بعد مرور عشرين عاماً أصبحت دول كثيرة من هذه الدول المصدرة للبترول الآن تعيد النظر فيما فعلوه، وتنظر فى إمكانية دعوة شركات البترول متعددة الجنسية للعودة مرة أخرى. ويرجع ذلك إلى حد ما، إلى أنها بعد تضاؤل ما لديها من احتياطى بترولى والحاجة إلى البدء فى البحث عن احتياطيات للبترول يصعب العثور عليها، أصبح التنقيب عن البترول أكثر تكلفة ويتطلب مزيداً من رؤوس الأموال. ولكن ذلك يرجع أيضاً إلى حد ما إلى أنها بعد تضاؤل ما لديها من احتياطى بترولى والحاجة إلى البدء فى البحث عن هذه الاحتياطيات البترولية التى يصعب العثور عليها، أصبح التنقيب عن البترول يتطلب مزيداً من المعرفة.

ومضى إسكندر موضحاً، «إن شركة شيڤرون تستخرج البترول فى مواقع مختلفة فى أنحاء العالم. ولا توجد مشكلة لم تواجهها شيڤرون فى مكان ما ولم تتوصل إلى حل لها. وليس هناك صخرة لم تنقب خلالها عن البترول. وقد ركزنا كل هذه المعرفة فى مقر الشركة، وقمنا بتحليله وتصنيفه مما جعلنا قادرين على حل أى مشكلة فى التنقيب فى أى مكان فى العالم. قد يكون لديك باعتبارك دولة نامية شركة وطنية للبترول تستخرج بترولك طوال عشرين عاماً. ولكننا نقول لهم، انظروا، إن لديكم خبرة عشرين عاماً، ولكنكم لا تمتلكون التنوع فى هذه الخبرة. إنها مجرد خبرة عام واحد تراكمت عشرين مرة. أما إذا كنت تعمل فى دول متعددة، مثل شركة شيڤرون، فإنك تواجه مشكلات متعددة ومختلفة، ولابد من أن يكون لديك حلول متعددة ومختلفة لهذه المشكلات. لابد أن يكون لديك ذلك وإلا فسوف تخرج من مجال هذا العمل. وكل هذه الحلول تختزن عندئذ فى ذاكرة شركة شيڤرون. إن مفتاح عملنا الآن هو الدخول على تلك الذاكرة، وإحضار الحلول التى استخدمناها فى مواجهة مشكلة ظهرت أمامنا فى نيجيريا حتى يتسنى لنا حل هذه المشكلة فى الصين أو الكويت. فيما مضى كنا نستغرق عامين فى العثور فى الشركة على ذلك الشخص الذى توصل

حقيقة إلى حل مشكلة نيچيريا وإرساله إلى الصين، حيث يستطيع تطبيق ذلك الحل. أما الآن فإننا نستطيع الحصول على هذا الحل من ذاكرة شيڤرون بسرعة كبيرة بالبريد الإلكترونى وعولمة قوة عملنا، حيث أصبح الناس يتحركون حول العالم فى مهام مختلفة أكثر كثيراً» .

وهذا هو السبب فى أن كثيراً من الشركات اليوم تحمى شبكات معرفتها الداخلية بالطريقة التى اعتادت بها الممالك القديمة بناء الأسوار والخنادق حول أراضيها وحقولها الزراعية. ذهبت ذات مرة لزيارة شركة صن مايكروسيستمز فى مقرها خارج مدينة پالو آلتو. وقبل أن أتمكن من الدخول إلى الشركة لإجراء المقابلة الصحفية التى رتبتها مع المدير التنفيذى، سلمنى مسئول الاستقبال استمارة قانونية من صفحة واحدة للتوقيع عليها، وكان عنوانها «اتفاقية بعدم إفشاء الأسرار». وقد كُتب فى أعلى الاستمارة خانتان لملئهما: «زيارة سرية» «وزيارة غير سرية». وكان من بين الأشياء التى يجب أن أوافق عليها فى هذه الوثيقة قبل أن أتمكن من الدخول إلى مكاتب شركة صن أن «الموقع على هذه الوثيقة يوافق على عدم كشف المعلومات عن صاحب الشركة إلى أى طرف ثالث. ويوافق الموقع على الوثيقة على استخدام معلومات عن صاحب الشركة فى الأغراض التى تصرح بها شركة صن كتابة وألا تستخدم فى أغراض خاصة بالموقع على الوثيقة». لقد أصبح الدخول اليوم إلى وكالة المخابرات المركزية يحتاج إلى وثائق أقل.

وهذا هو السبب أيضاً فى أن جميع الشركات الكبرى الآن، والكثير من الشركات الصغيرة، قد أضافت وظيفة المسئول الأول عن المعلومات *(CIO)*. لقد اكتشفت الشركات أن هناك فائدة أساسية وفاعلية أكثر كثيراً من التأكد من أنها تستخدم المعرفة والمعلومات الخاصة بها الاستخدام الأمثل فى كل مرحلة من مراحل الإنتاج والتطوير. فلن يمضى وقت طويل حتى يكون لكل دولة «وزير للإعلام» ليست

وظيفته إخبار العالم الخارجى بما يجرى داخل هذه الدولة، كما كان يحدث فى الحرب الباردة، وإنما مساعدة الدولة على فهم ما تعرفه والتأكد من أنها تحصد ثمار معرفتها على أفضل صورة ممكنة.

يقول تى جى رودجرز مؤسس شركة سايبريس سيميكونداكتور: «سوف يكون التعرف على الفائزين والخاسرين فى عصر المعلومات عن طريق قوة العقل. ويقتضى الأمر 2 فى المائة من الأمريكيين لإطعامنا و 5 فى المائة ليصنعوا لنا كل ما نحتاجه. وكل ما عدا ذلك سيكون تكنولوجيات للخدمة والمعلومات، وسوف يكون البشر والعقول فى هذا العالم هم المتغير الأساسى فى كل ذلك».

كم يصل وزن دولتك؟

إننا ننتقل من عالم كان ثقيل الوزن فيه يلتهم خفيف الوزن إلى عالم يلتهم فيه خفيف الوزن ثقيل الوزن. وهكذا فإننى عندما أذهب الآن لزيارة دولة ما، فإن أحد الأشياء التى أسأل عنها كم تزن هذه الدولة ـ أو فى الواقع، كم يبلغ متوسط وزن حاوية التصدير فيها؟

لقد علمنى آلان جرينسبان مغزى هذا السؤال. إن له علاقة بما يسميه الاقتصاديون «تأثير البديل» حيث تزايد إحلال تكنولوجيات الأفكار والمعرفة والمعلومات محل إجمالى الوزن فيما يتعلق بالقيمة الاقتصادية. فكلما زادت لديك المعرفة وتكنولوچيا المعلومات، مثل شذرات الكمبيوتر الدقيقة متناهية الصغر، التى تتحول إلى منتج، صارت أكثر ميلاً إلى قلة الوزن، وكلما زادت إنتاجيتها أصبحت أكثر ميلاً للبيع وزادت من ثراء شركتك أو دولتك. لقد استطعنا أن نجعل أجهزة الراديو أصغر باستخدامنا للترانزستور بدلاً من الأنابيب مفرغة الهواء. وحلت كابلات بصريات الألياف التى فى سمك الشعرة محل الأسلاك النحاسية ثقيلة الوزن. وتوفر أجهزة

التسجيل ذات الشرائط الرقمية الآن تسجيلاً ممتازاً للأصوات بدون شرائط على الإطلاق، بل مجرد شذرات الكمبيوتر الدقيقة والأرقام. وأصبحت الآلة الحاسبة التى كان والدك يضعها فوق مكتبه مجرد آلة حاسبة تحملها فى يدك. ويمنحنا التقدم فى مجال التشييد المعمارى والهندسة الآن، فضلاً عن تطوير مواد بناء أخف وأقوى، المساحة نفسها من المبانى ولكن بقدر أقل كثيراً من أطنان الخرسانة المسلحة والزجاج والصلب مما كان ضرورياً فى حقبة سابقة. وربما حلّ بالفعل الآن محل مسئول الاستقبال الذى يزن 120 رطلاً ويقف خلف مكتب يزن 200 رطل جهاز صوتى دقيق موجود فى تليفونك لا يزيد وزنه عن وزن الريشة.

ومن ثم، فإن من بين مقاييس قوة الدولة وحيويتها وسلطانها اليوم هو مدى خفتها بالنسبة لإجمالى الناتج المحلى. فقد أصبح وزن الدولار الأمريكى الآن أخف بالنسبة لإجمالى الناتج المحلى من أى وقت مضى. يوضح جرينسبان أنه حتى منتصف القرن الحالى كانت «رموز القوة الاقتصادية الأمريكية» ما زالت هى إنتاجيتنا من أشياء ثقيلة الوزن مثل الصلب، والسيارات، وآلات الخدمة الشاقة ـ وهى بنود تعكس نسبة كبيرة من تكاليف إنتاجها قيمة المواد الأولية ووزنها والعمل اليدوى اللازم لاستغلالها والبراعة فيها. وكانت فكرة «الوزن يساوى القيمة» تلك مغروسة فى الأذهان إلى حد أنه تُروى حكايات عن أنه عندما خرجت شركة آبل للكمبيوتر بابتكارها آبل II، وهو أول كمبيوتر منزلى حقيقى، فى عام 1997، فكر المسئولون فيها بالفعل فى إضافة بعض الوزن الصناعى إليه لأنه كان خفيفاً إلى درجة أنهم خشوا ألا يأخذه الناس مأخذ الجد. غير أن جرينسبان يشير إلى أنه منذ ذلك الوقت تركزت الاتجاهات على «الإنتاجية الأقل حجماً، والأصغر، والأقل هيكلاً ملموساً». واليوم، سوف يكون كبيراً وزن الدولة التى تصدر أساساً المواد الأولية ـ مثل السلع والحديد الخام والبترول الخام.

أما الدولة التى تتخصص فى تكنولوجيات وخدمات المعلومات فسوف يكون وزنها أقل كثيراً وربما توفر مستوى أعلى للمعيشة لكثير من أفراد شعبها.

وهذا هو الحال أيضاً بالنسبة للشركات. فقد تباهت نشرة الاكتتاب لشركة كومباك فى عام 1983، عندما طرحت أسهم الشركة للاكتتاب العام للمرة الأولى، بأن «الكمبيوتر المحمول لشركة كومباك .... هو كمبيوتر شخصى من 16 بتاً فى وحدة مكتملة الأجزاء فى ذاتها ويمكن حملها، ويبلغ عرضها 20 بوصة وارتفاعها 8.5 بوصة وعمقها 16 بوصة. ويزن هذا التكوين العام القياسى 28 رطلاً تقريباً، وهو خفيف بحيث يمكن حمله من مكتب إلى مكتب، أو إلى المنزل فى العطلات الأسبوعية أو رحلات العمل...».

كان ذلك الكمبيوتر «النقال» الذى يزن 28 رطلاً يعرف باسم « المسحوب كحقيبة السفر»، فقد كانت تلك هى الطريقة الوحيدة التى يمكن نقله بها هنا وهناك. وكان السعر القطاعى لهذا الجهاز بتكوينه العام القياسى يبلغ 2,995 دولاراً. وبحلول عام 1999 كان آخر إنتاج لشركة كومباك من جهاز الكمبيوتر النقال هو جهاز كومباك أرمادا 3500، ويزن 4.4 رطلاً فقط، وتتضاعف سعة ذاكرته 500 مرة. ويتكلف ما بين 3,299 دولاراً و 4,399 دولاراً بحسب التكوين العام. ولما كانت شركة كومباك بأسرها تعمل منذ عام 1983 على أساس إجمالى هامش ربح يصل إلى 27.6 فى المائة وظلت بهامش ربح مماثل تقريباً فى عام 1997، أى بنسبة 27.5 فى المائة، فقد أصبحت الآن تحقق أرباحاً أكبر لأنها تعلمت كيف تجمع مزيداً من قوة العقل فى منتج يزن سُبع وزن ما كانت تنتجه فى عام 1983.

لقد أصبحت شركة كومباك أكثر ثراء لأنها أصبحت أقل وزناً وأكثر ذكاء.

هل تجرؤ دولتك على أن تكون منفتحة؟

لقد انتقلنا من عالم كانت فيه الدول المنغلقة تعتقد أنها بذلك أقدر على البقاء من الدول المنفتحة إلى عالم أصبحت فيه الدول المنفتحة تتمتع بالازدهار الذى يفوق كثيراً الدول المنغلقة.

مرة أخرى، لننظر إلى عالم الكمبيوتر، لقد واجه مصنعو الكمبيوتر، الذين حاولوا المنافسة عن طريق الاحتفاظ لأنفسهم باحتكار المعايير، أشد الصعوبات من أجل البقاء، فى حين ازدهرت تلك الشركات التى آثرت التنافس على أساس المعايير المعلنة لصناعة أجهزة الكمبيوتر ـ التى كانت الريادة فيها لشركة آى بى إم ، بمساعدة شركة إنتل . لقد تبنت شركات إنتاج ما يطلق عليه الكمبيوتر الشخصى سليل شركة آى بى إم ـ مثل كومباك، ودل، وجيتواى، و هيوليت باكارد، ومايكرون، و آسر Acer ـ المعيار الذى أرسته آى بى إم ثم تحولت إلى محاولة قتل شركة آى بى إم والشركات الأخرى بأن صممت أجهزة كمبيوتر تستطيع التعامل مع هذا المعيار المعلن بصورة أفضل، وبتكلفة أقل، وبمساندة تكنولوجية أكثر. وقد حاولت شركات الكمبيوتر داتا جنرال، وكومودور، ووانج، وبرايم، وآبل جميعاً أن تكون لها معايير الملكية الخاصة بها. واعتقدت، حسبما يوضح نيكولاس نيجروبونتى فى كتابه ***أن تكون رقمياً***، أنها إذا استطاعت التوصل إلى نظام يكون مبسطاً ومتفرداً فى آن واحد، فإنها تستطيع السيطرة على كل منافسة واحتكار السوق لنفسها. ولكن لم يتحقق النجاح إلا لشركة آبل، والسبب الوحيد لذلك أنها نجحت فى بناء شبكة من عتاة المخلصين المستخدمين لأجهزتها وليس بسبب الترويج لها بين المستخدمين العاديين .

يقول نيجروبونتى، «فى نظام مفتوح، نحن نتنافس مع خيالنا، وليس مع القفل والمفتاح. والنتيجة لم تقتصر على وجود عدد أكبر من الشركات الناجحة، بل أيضاً وجود عدد كبير من الاختيارات المتنوعة أمام المستهلك وأمام قطاع تجارى يتزايد ذكاء باستمرار، قطاع قادر على التغير والنمو السريع».

لقد نجحت هذه الاستراتيجية بالتأكيد مع شركة كومباك. يوضح ذلك إيرل ميسون المدير التنفيذى الأول لشركة كومباك بقوله: «كانت استراتيجية كومباك، وما زالت على ثقة، من أن تظل قائدة فى مجال معايير الحاسوب المعلنة لأنه كلما زاد عدد الأشخاص الذين يكتبون تطبيقات وبرمجيات لأجهزتنا زادت قدرتنا على زيادة مبيعاتنا من أجهزة الكمبيوتر، ومبيعاتنا من الخدمات، ومبيعاتنا من الحلول. فى النموذج القديم للتفكير، كانت صناعة الكمبيوتر تتمثل فى أنه إذا كان لدىّ نظام التشغيل الخاص بى وحدى، وإذا كان لدىّ بائعو البرمجيات المستقلون الذين يعملون لى وحدى، فسوف يكون بوسعى السيطرة على هذه الصناعة بأسرها، وقد أكون مستقلاً، ولست معتمداً على الآخرين، وأن يكون لدىّ شىء لا يوجد عند الآخرين. ولكن هذا النوع من التفكير لم يكتب له النجاح، لأن كُتّاب البرمجيات كانوا يريدون الكتابة لمزيد ومزيد من المستفيدين، ولذلك فإذا كنت تتبنى، بصفتك شركة لتصنيع الكمبيوتر، المعيار المعلن لهذه الصناعة فسوف تبيع لمستفيدين أكثر وأكثر. كانت شركة آبل، فى بداياتها، ترفض المشاركة فى المعايير الخاصة بها على نحو معلن. ولذلك قال العاملون فى مجال البرمجيات، 'بحسبك، هذه ليست لعبة. لو اقتصر عمل الواحد منا على برمجيات آبل فلن يتمكن من كتابة الكثير من التطبيقات، ومن ثم ستكون مبيعاتى مقصورة على تطبيقات آبل فقط، وسوف أظل معتمداً على شركة آبل من أجل بيع إنتاجى كله. ولكننى إذا عملت مع شركات تعمل بمعيار معلن فسوف أعتمد على كثير من الشركات المختلفة، مثل كومباك، و آى بى إم ودل، وذلك سوف يتيح لى بالفعل زيادة مبيعاتى'.

وبما أن شركة كومباك آثرت التنافس على أساس هذا المعيار المعلن، فقد كانت الطريقة الوحيدة التى تجعلها تسبق الجميع هى أن تتعلم كيف تكون أسرع، وأن تتعلم كيف تدير الأمور على نحو أذكى، وأن تتعلم كيف تتعامل مع زبائنها أفضل، وأن

تتعلم كيف تدير ما لديها من معرفة بصورة أفضل، وأن تتعلم كيف تسيطر على التكاليف بفاعلية أكبر، وأن تتعلم كيف تصنع منتجها بحيث تكون الثقة فيه أكبر. فإذا استطعت أن تكون الأفضل فى كل هذه الجوانب، فسوف تتمكن دائماً من منافسة الجميع وعلى أى معيار. حقاً، إن المعرفة الوحيدة التى تتطلب منك حمايتها وتحتفظ بها سراً هى التقنيات التى تطورها حتى تستطيع أن تقدم الشىء الذى يعرفه الجميع بصورة أفضل. يوضح ذلك ميسون بقوله: «هناك أشياء لا نشترك فيها جميعاً. والسبب الوحيد الذى يجعلنا لا نريدك أن ترى بعض الأشياء التى نقوم بها أثناء عملية التصنيع هو أننا نقوم هناك بأشياء تشكل التفوق الوحيد الذى نتميز به، وإذا رأيتها وأنت منافس لنا فإنك تستطيع بسهولة تنفيذ هذا الشىء».

من بين الأسباب التى أدت إلى نمو الإنترنت بهذه السرعة هى أنها معيار معلن. ذلك أن أفضل الحلول هى التى تفوز سريعاً، أما الحلول الميتة فتنتقل بعيداً عن أرض المعركة بسرعة. ولاعزاء للمتخلفين. والواقع أن الشركات تستهلك وقتاً أقل نسبياً فى الحصول على براءات الاختراع، وتستهلك وقتاً أطول فى مجرد إعلان الفوز.

يردد روبرت شابيرو رئيس شركة مونسانتو دائماً القول بأن هناك دائماً بضعة أشياء قليلة تستحق أن تظل سراً. غير أن الثقافة التى تنشطها حول السرية ثقافة أبطأ تتناسب مع عالم أبطأ. والشركات ينتهى بها الأمر عادة إلى المبالغة فى تقدير ما تعرفه وتبخس قيمة ما هو معروض علينا تحت أنظار الجميع. يقول شابيرو فى ذلك: «أستطيع أن أقول فى هذا 'انظر، إننى سأقول لك كل شئ أعرفه عن كيفية عمل هذا النظام، ومع ذلك فإننى سوف أتفوق عليك فى طريقة بنائى له'. فالحقيقة أنك لا تستطيع الاعتماد على احتكار المعلومات لمدة طويلة. ففى النهاية، الشىء المهم والشىء الذى يستمر هو الشىء الذى يجعلك أفضل فى المنافسة فى سباق مفتوح على مصراعيه أمام الجميع. والطريقة التى تدير وتتبادل بها ما لديك من معلومات والطريقة التى تتعلم بها كشركة ـ هى كل المميزات الدائمة التى تتفوق بها على الآخرين».

ويصدق ذلك على الدول أيضاً. يقول ميسون: «كل ما أستطيع قوله هو أنه بالعلانية تكون فرصتك فى أن تصبح ضحية لما تعتقد أنك تعرفه أقل كثيراً مما لو كنت منغلقاً. انظر إلى صناعة البنوك فى اليابان. لماذا أصبحت مفلسة من الناحية الفنية؟ لأنها مفرطة فى الانغلاق. لقد أصبحت ضحية لما يعتقدون أنهم يعرفونه».

حقاً، إن هناك علاقة تبادلية مباشرة بين انفتاح اقتصاد دولة ومستوى معيشتها. فلقد وجدت دراسة أجراها الاقتصادى چيفرى زاكس ومعهد هارڤارد للتنمية الدولية أن الانفتاح عنصر حاسم فى سرعة النمو. ويقول زاكس إن الاقتصادات المفتوحة «تنمو أسرع بنسبة 1.2 نقاط مئوية فى العام عن الاقتصادات المنغلقة، حتى إذا تساوت فى كل شىء آخر، لأنه كلما كان اقتصادك منفتحاً، أصبحت أكثر اندماجاً فى شبكة الأفكار والأسواق والتكنولوجيات وإدارة الابتكارات فى عالم اليوم».

عندما كنت فى زيارة لمقاطعة چيلين فى شمالى الصين لمراقبة انتخابات القرى كان من بين القرى التى زرناها قرية كاى آن، حيث تيسر لنا زيارة القرويين فى بيوتهم. كانت معظمها بيوت مقسمة إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول عبارة عن كوخ صغير مبنى بالطوب اللبن حيث كانت الأسرة تعيش فى ظل حكم ماوتسى تونج، والقسم الثانى عبارة عن بناء أوسع من الطوب الأحمر حيث كانت الأسرة تعيش فى ظل حكم دينج زياوبينج، والقسم الثالث وكان دائماً هو الأحدث عبارة عن بناء من الطوب الأبيض مزين بالقرميد الملون حول الباب الأمامى، وقد بنى فى فترة حكم جيانج زيمين. وبذلك تستطيع أن تعرف كيف أصبحت الصين دولة أكثر انفتاحاً، بمدى توسع كل منزل من منازل القرويين.

فى المستقبل سوف تتضاعف مزايا استمرار انفتاح اقتصادك بقدر الإمكان؛ لأن حقبة معرفة العولمة هى مفتاح النمو الاقتصادى، ولو أغلقت دولتك على أى صورة من الصور أمام أفضل العقول فى العالم أو أمام أفضل التكنولوجيات فى العالم، فسوف

تتخلف عن الركب بسرعة أكبر. وهذا هو السبب فى أن أكثر المجتمعات انفتاحاً فى التفكير وتسامحاً وقدرة على الابتكار والتنوع سوف يطيب لها العيش مع العولمة، فى حين سوف تعانى أكثر الدول والشركات انغلاقاً، وتشدداً، وصرامة، وانهماكاً فى الشئون الذاتية، وتمسكاً بالتقاليد ـ وهى الدول والشركات التى لا تشعر بالارتياح إلى الانفتاح.

أجرت أنالى ساكسينيان، الخبيرة فى الدراسات الحضرية بجامعة كاليفورنيا فى بيركلى، دراسة ممتعة بعنوان «الميزة الإقليمية» شرحت فيها الأسباب التى جعلت وادى السيليكون متميزاً على هذا النحو عن معظم خلايا التكنولوجيا المتقدمة الأخرى. وخلصت إلى أن السبب فى تفرد وادى السيليكون هو تلك الحدود المفتوحة على مصراعيها والقائمة بين شركات التكنولوجيا، وبين هذه الشركات ومجتمع رأس المال المغامر، ومجتمع البنوك، ومجتمع البحوث الجامعية والحكومة المحلية. وتشير ساكسينيان إلى أن وادى السيليكون الموجود على الساحل الشرقى طريق 128 فى بوسطن قد تخلف دائماً عن وادى السيليكون الحقيقى، لأن طريق 128 سيطرت عليه تقاليد السرية والاكتفاء الذاتى داخل الشركات واجتناب المخاطرة سواء من جانب الشركات أو مجتمعات المال.

هناك بعض الدول الصغيرة التى تلحق بأفضال الانفتاح. فقد أشارت صحيفة *واشنطن بوست* (17 أكتوبر 1997) أنه فى حين أصبحت الهجرة هى نقطة الاحتكاك بين المحافظين والليبرالين فى الولايات المتحدة، «قررت دول أخرى الاستفادة من تجربة الهجرة الأمريكية». فقد كشفت هينج ـ تشى تشان سفيرة سنغافورة فى واشنطن عن مبادرة لاجتذاب المهاجرين إلى سنغافورة، وتحثهم على « الاتجاه غرباً» ـ الغرب حقيقة، الغرب الأقصى ـ «المضى غرباً أبعد وأبعد إلى أن يصلوا إلى آسيا». ونقل عن السفيرة قولها: «إننا ندرك أننا بحاجة إلى مزيد من الناس لمشاركتنا رؤيتنا عن المدينة

الذكية، مدينة المستقبل». ووضحت أن فكرة السعى وراء المهاجرين انبثقت عن دراسة استقصائية للمجتمعات المزدهرة، مثل الولايات المتحدة وبريطانيا التى حققت نجاحاً اقتصادياً بسبب انفتاحها وتنوعها.

تضيف السفيرة قائلة: «لقد اكتشفنا أن المجتمعات المنفتحة تظل فى حالة ابتكار وتقدم إلى الأمام». ومن ثم تبحث سنغافورة عن «سماد تهجين» فى مجالات تكنولوجيا المعلومات، والهندسة، والصيدلة، والبحث والتطوير، فضلاً عن مجال البنوك. وأضافت، «سوف نجد نمواً مستمراً فى هذه الدول (متنوعة المجتمعات)، وهذا هو السبب فى أن سنغافورة متأكدة تماماً من أهمية تجنيد المواهب». ولقد اجتذب برنامج تجنيد العمالة فى سنغافورة الذى يسمى «اتصل بسنغافورة» بالفعل شباباً من أوروبا وأستراليا. وقالت سفيرة سنغافورة إن الأجور المعروضة مرتفعة وتنافس الأجور فى وادى السيليكون. (ومع ذلك ما زالت سنغافورة متخلفة فى حريات سياسية معينة ضرورية لاستمرار الانفتاح الفكرى الذى تتطلع إليه. ولكن ذلك سوف يتغير بمجرد تقاعد الجيل الحالى من السياسيين).

إنك لن تجتذب مزيداً من العقول فقط عندما تكون منفتحاً، ولكنك ستجتذب أيضاً مزيداً من انتقال التكنولوجيا من القطيع الإلكترونى. فعندما تكون التعريفات والحواجز التجارية منخفضة فى دولة، يكون ذلك إشارة شديدة الأهمية للقطيع الإلكترونى، ولا سيما للشركات متعددة الجنسية، أى الماشية طويلة القرون. لنفترض أنك شركة زيروكس وأنك قررت بناء مصنع فى البرازيل لصناعة الناسخات. فإذا احتفظت البرازيل بسوق الناسخات فيها مفتوحة ولم تحاول حماية مصانع الناسخات التى تمتلكها فسوف يكون لدى شركة زيروكس حافز كبير لنقل أحدث تكنولوجيا للناسخات عندها إلى مصنعها الجديد فى البرازيل، لأنها قد تجد منافسة فى السوق البرازيلية من أى مكان فى العالم، بما فى ذلك أفضل الناسخات اليابانية والأوروبية.

ولكن إذا كانت شركة زيروكس تعلم أن البرازيل تميل إلى الاحتفاظ بتعريفات جمركية مرتفعة لحماية مصانعها للناسخات فقد تفتتح زيروكس مع ذلك مصنعاً لتنافس به فى السوق البرازيلية، ولكنها لن تخضع لضغوط تركيب أكثر تكنولوجياتها تفوقاً فى ذلك المصنع البرازيلى. فما الذى يجبرها إذا كانت ستتنافس فقط مع الشركات البرازيلية قليلة الخبرة التى تحظى بالحماية؟ وهكذا ينتهى الأمر بالخسارة بالنسبة للبرازيل. فقد حُرم عمالها وسوقها والمستهلكون فيها من الكشف عن أفضل تكنولوجيا متاحة.

وهذه قصة حقيقية. لقد كانت البرازيل وتايوان متساويتين تقريباً فى دخل الفرد فى أوائل الثمانينيات، وفى كل منهما شركات وطنية كثيرة ومهمة، ورأس مال وفير، وعمال مهرة وإدارة متوسطة مدربة تدريباً جيداً. وقررت كل منهما أنها تريد القفز فى خضم مجال الإلكترونيات الدولية على نطاق ضخم، ولا سيما فى سوق صناعة ماكينات الفاكس. وكانت المشكلة أن هناك مصدراً واحداً بالنسبة للبلدين لأفضل تكنولوجيا فى صناعة أجهزة الفاكس، وهو شركة فوچيتسو اليابانية. وقد فرض الكونجرس البرازيلى فى عام 1988 مجموعة واسعة النطاق من التعريفات الجمركية على المنتجات الإلكترونية، بما فى ذلك ماكينات الفاكس، وذلك فى محاولة لحماية صناعة ماكينات الفاكس البرازيلية الوليدة. وقد أدى ذلك إلى أنه لم يكن هناك من لديه الحافز لنقل أفضل تكنولوجيا الفاكس لديه إلى السوق البرازيلية. أما تايوان فقد ألغت التعريفات الجمركية وأعلنت عن فتح مجال المنافسة أمام من يستطيع صنع أفضل ماكينات الفاكس. وتشير دراسة للبنك الدولى، إلى أن تايوان كانت فى عام 1994 فى مقدمة صانعى أجهزة الفاكس فى العالم، فى حين تتكلف ماكينات الفاكس البرازيلية أكثر كثيراً من المعدل العالمى وأصبحت على شفا الانهيار. وفى عام 1995، ألغى الكونجرس البرازيلى التعريفات الجمركية المفروضة على ماكينات الفاكس وقررت البرازيل الدخول فى المنافسة بأسلوب منفتح.

ما مدى براعة بلدك فى اكتساب الأصدقاء؟

لقد انتقلنا من عالم كان الجميع يريدون فيه خوض التجربة بمفردهم ـ حيث الفردية الصارمة هى نموذج لدور الشخص التنفيذى وحيث تكون الشركة المتكاملة رأسياً التى تصنع كل شىء هى النموذج للشركات ـ إلى عالم لا يكتب لك البقاء فيه ما لم يكن لديك الكثير من الحلفاء، وحيث يكون صانع التحالفات التشرتشيلية هو النموذج لدور الشخص التنفيذى والشركة المتحالفة أفقياً هى نموذج الشركات.

يتعذر عليك، فى اقتصاد عالمى، البقاء فى مجال صناعات معينة ما لم تكن قادراً على التنافس على أساس عالمى، ولن تستطيع أن تفعل ذلك بدون تحالفات. ومن السهولة بمكان معرفة السبب. ففى عدد من الصناعات، مثل صناعة أشباه الموصلات، والفضائيات، والاتصالات عن بعد، والصيدلة، حسبما يقول ستيفن جى. كوبرين خبير العولمة فى وارتون سكول، «حدث نمو فى حجم التكنولوجيا إلى حد جعل حتى قادة الصناعة قد لا يجدون المصادر التى تجعلهم يواجهون بمفردهم المنافسة فى جهد البحث والتطوير، فى ضوء التكلفة الهائلة التى ينطوى عليها ذلك، وغموض النتائج، والأهم من ذلك قصر دورة حياة المنتج». كذلك يتطلب حجم المعرفة العلمية والتقنية فى حد ذاته على نحو متزايد تطوير منتجات معقدة فى عالم اليوم الذى يتطلب باستمرار أن تقوم عدة شركات بتجميع مصادرها. وفى النهاية، فإن الطريق الوحيد أمام هذه الشركات لتعويض استثماراتها الهائلة فى البحث والتطوير هو أن لا تبيع إنتاجها فى أسواقها الوطنية التى تعتبر صغيرة جداً فحسب، وإنما أيضاً فى العالم أجمع، وهذا أيضاً يحتاج إلى حلفاء.

والتحالفات ليست اندماجات. إنها تتضمن شركتين تحتفظ كل منها بشخصيتها المتميزة، ولكنهما تتفقان على العمل معاً بحميمية شديدة. هذه الضغوط المتزايدة من أجل التحالفات حسبما يرى كوبرين، «إحدى سمات هذه الحقبة من

العولمة ليست جديدة فى درجتها فقط وإنما هى جديدة أيضاً فى نوعها. إنها واحدة من السمات التى تنسج بمهارة العالم بعضه إلى بعض، وتؤدى إلى مزيد من العولمة، بطرق ليست دائماً ظاهرة للعيان» .

وصناعة شركات الخطوط الجوية أحد المجالات التى تبدو فيها هذه التحالفات أكثر وضوحاً للعين المجردة. لاحظ الإعلانات التى تخص «تحالف النجوم Star Alliance» ـ ذلك التحالف بين ستة خطوط جوية لتبادل حجز مقاعد الرحلات الجوية عليها جميعاً، عن طريق شفرة للحجز يشتركون فيها جميعاً، واحترام كل منها برنامج الطيران للشركات الأخرى. وبذلك تستطيع كل شركة عضو فى هذا التحالف، عن طريق المشاركة، أن تعرض على زبائنها تشكيلة من رحلات التوقف للتسوق مرة واحدة إلى أى مكان فى العالم. هذه الشركات تعلم أنها فى عالم اليوم يجب أن تكون قادرة على تقديم مثل هذه الخدمة، ولكنها لا تستطيع ذلك إلا عن طريق تحالف، لأنه يستحيل على كل منها تغطية العالم كله بمفردها. ويُظهر الإعلان عن هذا التحالف طائرة استطالت بحيث أصبح أنف الطائرة من شركة يونيتد، وكابينة المقدمة من شركة إير كندا، والقسم الأوسط من شركات ساس وڤاريج والخطوط الجوية التايلاندية، وقسم الذيل من لوفتهانزا ـ وجميعها يلى عنوان الإعلان الموحى: «تحالف النجوم، شبكة الخطوط العالمية للكرة الأرضية» .

وتستطيع شركة كومباك، بتوصلها إلى مشاركة استراتيجية مع إنتل لصناعة المايكروبروسسور، ومع مايكروسوفت لتقديم نظم التشغيل والبرمجيات ويندوز، أن تدمج على الفور أحدث الابتكارات التكنولوجية فى مجالى أشباه الموصلات ونظم التشغيل على السواء فى كل جهاز كمبيوتر جديد لتستطيع أن تقف تماماً على قمة التفوق. ويشير التقرير السنوى لعام 1997 لشركة كومباك إلى أن «الزبائن أصبحوا يعلمون على نحو متزايد أن أفضل الحواسب تأتى من الشركة التى تقيم أفضل المشاركات مع

الشركات الأخرى. وهذه الشركة هى كومباك». نقلت مجلة **فوربس** مرة عن مدير استشارى وصفاً للعلاقة بين آندى جروف رئيس شركة إنتل وإيكهارد فايفر رئيس شركة كومباك، قال فيه: «ما يخرج من فم آندى يذهب إلى أذن إيكهارد. إنها أشبه بعلاقة زواج».

لا عجب إذن فيما نشرته **الإيكونوميست** (4 أبريل 1998) من أنه قد تشكل نحو 32 ألف تحالف بين الشركات فى أنحاء العالم فى السنوات الثلاث الأخيرة، ثلاثة أرباعها بين شركات عبر الحدود.

ما يجرى بين الشركات يجرى مثله بين الدول. فقد كانت أمريكا، من حيث الأمن الاقتصادى، بحاجة دائماً، إلى حلفاء فى عالم الاقتصادات الدولية. فنحن لم نكن قط جزيرة منغلقة على ذاتها. إننا فقط نريد مزيداً من الحلفاء الآن بمزيد من الطرق وفى مزيد من الأوقات. قال لى روبرت روبين وزير الخزانة الأمريكى: «لا أستطيع أن أتخيل أنه قبل عشرين أو خمسة وعشرين عاماً كان على من سبقونى فى هذا المنصب أن ينشغلوا بأزمة اقتصادية فى تايلاند أو إندونيسيا أو حتى كوريا. قد تنشغل بما يحدث فى إنجلترا أو اليابان. أما تايلاند فلا. ولكن اليوم أصبح هناك عدد كبير من الدول جزءاً مما يعتبر لأسباب عملية الاقتصاد العالمى. وقد يؤثر أداؤها فى بلادنا، وإننى أستنزف الكثير من وقتى وجهدى فى التعامل مع ما ينجم عن ذلك».

وينطبق الكثير من ضغوط العثور على مزيد من الشركاء والحلفاء على صعيد الأمن القومى. فمن ناحية، فى غياب الحرب الباردة التى كانت تسيطر على كل شىء بما كانت تنطوى عليه من عدو يهدد كل شىء، لا يريد شعب أية دولة أن يدفع ثمناً باهظاً سواء بالدم أو المال لتأديب صغار الأوغاد ـ حتى وإن كانوا يشكلون خطراً داهماً. وعندما جاء صدام حسين ليهدد طرق البترول ويلوِّح بأسلحة الدمار الشامل، كان على إدارة بوش أن تقضى ستة أشهر فى تشكيل تحالف من الشركاء، ليس فقط

من أجل مواجهة صدام، وإنما الأهم من ذلك، من أجل دفع تكاليف هذه المواجهة. لقد كنت أغطى رحلة وزير الخارجية بيكر عندما ذهب فى جولة لجمع الأموال لحرب الخليج الأولى. لقد أسهم جميع المراسلين الصحفيين المصاحبين له على الطائرة فى شراء وعاء من القصدير ليتسول به!

غير أنه إلى جانب الحاجة إلى مزيد من الحلفاء لمواجهة الأوغاد، هناك مجموعة كبيرة من القضايا ذات الصبغة الدولية التى أصبحت الآن أكثر تهديداً من أى وقت مضى فى عالم أصبح بلا أسوار. ولا يمكن مواجهة هذه القضايا بفاعلية أكبر إلا بالعمل المشترك لمجموعة من الدول ضد لاعبين آخرين ليسوا من الدول، سواء كانوا من الإرهابيين، أو المافيا، أو مروجى الأسلحة، أو حتى ظاهرة النينو الجغرافية El Nino.

فعلى سبيل المثال، ظلت الولايات المتحدة تحاول طوال السنوات القليلة الماضية إقناع الحكومة الروسية الضعيفة بالحد من مبيعات الصواريخ والتكنولوجيا النووية لإيران عن طريق شركات روسية خاصة. وفى نظام الحرب الباردة، لم تكن الولايات المتحدة تشعر بالقلق مما تفعله الشركات الروسية الخاصة بمفردها. فلم يكن هناك شئ كهذا. لم يكن هناك سوى مبيعات أسلحة روسية رسمية يمكن ردعها بالتهديد رسمياً بإرسال أسلحة أمريكية أو بوسائل أخرى من دولة إلى دولة. ولكن الأمر لم يعد كذلك. لقد أصبح أصحاب مصانع الأسلحة الروس لاعبين «قطاع خاص» متلهفين على جمع الأموال. ولا تستطيع الولايات المتحدة، بمفردها، فرض قيود على التصدير للشركات الروسية الخاصة. وعليها بدلاً من ذلك استخدام كل أنواع الجزر للترغيب والعصى للترهيب التى يجب على واشنطن تنسيقها مع الأوروبيين والإسرائيليين والشركات الخاصة. حقاً، لقد كان على إدارة كلينتون، فى حالة بيع الأسلحة الروسية إلى إيران، أن تذهب شوطاً بعيداً بفرض عقوبات اقتصادية على جامعة ومعهدين للتعليم الفنى

فى روسيا، ومحاولة إقناع الأوروبيين بأن يحذوا حذوها، لأنه كان من المعتقد أن الخبراء الروس فى هذه الكليات يعملون لإيران وأن الحكومة الروسية لم تفعل، أو لم تكن تستطيع أن تفعل، شيئاً حيال ذلك. فى الحرب الباردة، كان بوسع أمريكا وقف مثل هذه المبيعات كعازف منفرد. أما الآن فإنها لا تستطيع وقفها إلا إذا تصرفت مثل قائد الأوركسترا.

وهذا هو السبب فى أن التحدى الأكبر لزعامة الولايات المتحدة فى نظام العولمة هو أن تقوم بتصنيف للمشكلات التى تستطيع مواجهتها منفردة باستراتيجية الردع العسكرى الكلاسيكية من دولة إلى دولة، والمشكلات التى لا تستطيع مواجهتها اليوم إلا مع شركاء آخرين.

تحدث إلى روبرت شاپيرو رئيس شركة مونسانتو ذات مرة عن كيفية تعامل شركته مع هذا التحدى. وهى قضية كبرى بالنسبة لشركة مونسانتو لأنها تقوم بتطوير مجموعة متنوعة جديدة ومتطورة من البذور التى تسوقها للمزارعين، ولكنها بحاجة إلى العمل الوثيق مع الشركات الزراعية الكبرى، مثل شركة كارجيل، حتى تتأكد من أن شركة كارجيل سوف تعترف بتفرد هذه المجموعة الجديدة من البذور لشركة مونسانتو ثم تحدد قيمة أعلى للمحاصيل التى تنبتها هذه البذور الجديدة، حتى يكون لدى المزارعين فى أنحاء العالم الحافز لاستخدام هذه البذور الجديدة ودفع سعر أعلى. وكان لابد لشركتى كارجيل ومونسانتو أن تعرفا تماماً ما تقوم كل منهما به على النطاق العالمى حتى يتسنى لشركة مونسانتو جنى ثمار إنجازاتها العلمية الكبيرة. كان شاپيرو، وهو يصف ذلك النوع من ترتيب التحالفات أشبه برئيس الولايات المتحدة وهو يحاول التوصل إلى كيفية معالجة الولايات المتحدة لعملية إنقاذ المكسيك أو التوصل إلى نوع الائتلاف، إذا نجح فى ذلك، يستطيع استخدامه لمواجهة واحتواء العراق. قال شاپيرو: «هذا العالم الجديد من التحالفات أرض مجهولة لم تكتشف بعد. فالجميع لديه

نموذج فى رأسه لا يعرف أحد كيف يعمل: كيف يستطيع المرء الموازنة بين المصالح المشتركة والمصالح الذاتية، وبين المكاسب طويلة الأجل والقصيرة الأجل؟ أين توجد الأرض المشتركة بين المتحالفين، وأين يكون ذلك الذى يريدون الاحتفاظ حقيقة فيه بالهويات المنفصلة؟ إننا نعرف تماماً كيف نقوم بعمليات الاندماج، ولكن التحالفات بين أنداد شيء مختلف. ينبغى أن أعتمد على قدراتك لأنها جزء مهم فى حياتى. والتحدى الحقيقى هو أنك لن تسع إلى تحقيق واحد فقط من هذه التحالفات. بل يجب أن يكون لديك مجموعة منها تعمل فى آن واحد إذا كنت تريد المنافسة على النطاق العالمى. ثم يصل الأمر حينئذ إلى كيف يتسنى لى القيام بمبادلات بينك وبينى، وبينك وبين فريد، وبين فريد وبينى؟ إنه أمر معقد حقيقة».

هل فهمتها الإدارة فى بلادك؟

منذ عدة سنوات مضت كنت أجرى مقابلة صحفية مع زعيم إحدى الدول العربية، وفى أثناء المقابلة، أعربت له عن تهنئتى لأن وكالة موديز للتصنيف الائتمانى للدول قد أعادت من توها تصنيف بلاده ورفعت هذا التصنيف من درجة ما دون الاستثمار إلى درجة الاستثمار. شكرنى هذا الزعيم العربى ثم التفت إلى مستشار له يجلس إلى جواره وسأله باللغة العربية: «ما هى موديز تلك»؟

لقد كانت الإدارة مهمة دائماً، ولكن الإدارة والزعامة زادت أهميتهما إلى حد ما فى مثل هذا النظام الأكثر تعقيداً والأسرع خطى. عندما أنظر الآن إلى دولة أو إلى شركة فإننى أتساءل، هل الرئيس يمكنه مراجعة المعلومات، هل يظل هو أو هى يؤلف بين الأبعاد الستة المختلفة فى آن واحد، هل يستوعب هو أو هى الديموقراطيات الثلاث والاستفادة منها؟ ذلك لأنه إذا تعذر عليك رؤية العالم، وتعذر عليك رؤية ذلك التفاعل الذى يعمل على تشكيل العالم، فسوف يتعذر عليك بلا شك وضع تصور استراتيجى لك عن العالم.

قال لى كريج باريت مدير شركة إنتل فى إحدى المرات الملاحظة التالية: «إننا أكبر مستثمر فى أيرلندا، وفى اعتقادى أننا أكبر شركة من حيث عدد العاملين فيها هناك. ووجودنا فى أيرلندا يرجع إلى أنها مواتية تماماً لإقامة المشروعات، ولديهم بنية أساسية تعليمية قوية جداً، ويسهل فيها إلى حد مذهل دخول وخروج الأشياء، كما يسهل فيها أيضاً العمل مع الحكومة. إننى أفضل الاستثمار فى إيرلندا ولا أستثمر فى ألمانيا أو فرنسا. فرنسا هى الدولة الوحيدة فى العالم التى جرّمت استخدام التجفير en-cryption، فى التجارة عبر الإنترنت». وتعتبر التكنولوجيا، التى تستخدمها شركة إنتل الآن فى شذرات الكمبيوتر، عنصراً حاسماً فى التجارة عبر الإنترنت لمنع المجرمين من سرقة أرقام بطاقات الائتمان وغيرها من البيانات الشخصية. ويمضى باريت قائلاً: «فرنسا هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لا نستطيع أن نتلقى فيها طلبيات من زبائننا عبر الإنترنت، لأننا لا نستطيع استخدام تكنولوجيات التجفير فيها. لقد كنت مؤخراً فى باريس لعرض بعض المنتجات الجديدة لشركة إنتل، وكان لابد لنا من الحصول على تصريح كتابى خاص من الحكومة الفرنسية لمجرد عرض تكنولوجيا التجفير لشركتنا فى هذه المناسبة فقط».

قد تشعر معظم دول العالم بالرعب إذا علمت أن رئيس شركة إنتل يرى أنها متخلفة عن الركب. أما فرنسا فترى أن إنتل متخلفة عن الركب. قال باريت: «إنك تضع قانوناً غبيا يجرّم استخدام التجفير ـ هذا التجفير الذى تستطيع بالفعل الحصول عليه من الإنترنت ـ ثم ينتهى بك الأمر إلى منع تجارتك واقتصادك من النمو. ولكن موقفى هو إما أن تسمح لى باستخدام التجفير بتفوق وإما أن أرحل عنك تماماً».

فى أواخر الثمانينيات، عقدت شركة إنتل مؤتمراً للتسويق فى أوروبا بأسرها، لتحديد أين تضع مواردها والتوصل إلى الدول التى ستكون مناسبة والدول التى لن تكون كذلك. وظهر رئيس قطاع التسويق الأوروبى فى شركة إنتل فى الاجتماع ومعه

خريطة لأوروبا ـ ولكنه كان قد انتزع فقط الجزء الذى يمثل فرنسا من خريطة التسويق بشفرة حلاقة.

لو كانت فرنسا سهماً لبعته.

ما مدى جودة العلامة التجارية لبلدك؟

تحتاج الشركة العالمية أو الدولة القوية، فى عالم العولمة هذه الأيام، إلى أن يكون لها اسم تجارى أو ماركة «قوية» يمكن أن تجتذب وتأسر المستهلكين أو المستثمرين. ماذا يعنى الاسم التجارى أو الماركة؟ لقد وضع فريق من شركة ماكينزى الاستشارية تعريفاً جيداً لذلك فى عام 1997 فى الصحيفة التى تصدرها شركتهم، إذ قالوا: «يصبح الاسم ماركة (علامة مسجلة) عندما يربطه المستهلكون بمجموعة من المزايا الملموسة أو غير الملموسة»، التى يحصلون عليها من هذه السلعة أو الخدمة. «وكلما زادت قوة هذه الرابطة، زاد إخلاص المستهلكين لهذه السلعة أو الخدمة واستعدادهم لدفع زيادة فى السعر عن القيمة العادية... إن أى شركة بحاجة إلى القيام بشيئين حتى يتسنى لها بناء حقوق ملكية الماركة المميزة لها: أولاً، أن تجعل منتجها متميزاً عن غيره فى السوق، وثانياً، أن تجعل ما تقوله فى الإعلان والتسويق عن منتجها مرتبطاً بالفعل بالمنتج الذى تسلمه للزبون. حينئذ تنشأ علاقة بين الاسم التجارى والمستهلك... وكلما قوى هذا الارتباط قويت الاسم التجارى».

بعبارة أخرى، يتطلب بناء اسم تجارى قوى من أى شركة أن تبين مدى أهمية نواحى القوة الخاصة بمنتجها ومدى اختلافها عن المنتجات الأخرى. لقد وقعت شركة كومباك فى مشاكل خطيرة متعلقة بالاسم أو العلامة التجارية فى منتصف التسعينيات، عندما تمكنت، فى الواقع، الشركات المصنعة لمكونات أجهزتها وشركاؤها المتحالفون معها وشركتا إنتل ومايكروسوفت، من التفوق على ماركتها التجارية. فقد

توقف المستهلكون عن الاهتمام كثيراً بالصندوق الذى يحتوى على التجهيزات سواء كان اسمه دل، أو جيتواى، أو هيوليت باكارد، أو آى بى إم، أوكومباك. كان كل اهتمامهم أن يوجد بداخله المايكروبروسسور الذى صنعته إنتل وأن يعمل بنظم تشغيل وبرمجيات ويندوز. ولا عجب أن المسئولين التنفيذيين فى كومباك بدأوا فى التذمر قائلين: «لقد سئمنا أن نكون موزعين لآندى جروف (رئيس شركة إنتل)».

من أسباب تفوق ماركتى إنتل ومايكروسوفت على ماركة كومباك أنها كانت تنظر إلى نفسها بصورة محدودة للغاية، وكانت إعلاناتها تعكس ذلك. لقد رأت كومباك فى نفسها مجرد شركة لصناعة منتج واحد فقط، شركة مصنعة ومسوقة لأجهزة الكمبيوتر. كانت بالفعل تصنع أجهزة كمبيوتر جيدة، ولكن إعلاناتها لم تكن سوى صور لكل جهاز كمبيوتر من أجهزة الكمبيوتر المكتبية والمتنقلة والسيرفر. وفى يونيه عام 1998، وبعد أن اشترت شركة كومباك شركة ديجيتال إكوييمنت شنت حملة عالمية جديدة لتغيير ماركتها. وكانت استراتيجيتها تتمثل فى إيجاد رابطة حقيقية بين كومباك وزبائنها، بدءاً من المشترى الصغير لجهاز الكمبيوتر المكتبى وانتهاء بأكبر شركة أو حكومة مستخدمة لأجهزتها. وفعلت ذلك بثلاث طرق، الأولى بتغيير الوسيلة التى توزع بها منتجاتها، فقد كانت كومباك تبيع دائماً أجهزتها عن طريق منافذ للبيع بالقطاعى وغيرها ممن يعيدون البيع كطرف ثالث. ونجم عن ذلك عدم وجود علاقة مباشرة بينها وبين معظم زبائنها. ومن ثم فقد تحولت إلى استراتيجية مهجنة فى التوزيع تتيح لكومباك أن تبرم صفقات البيع عن طريق التليفون وعبر الإنترنت حتى تتمكن من بناء نوع من المشاركة الخاصة بها مع زبائنها. والطريقة الثانية، أن شركة كومباك عززت إدارة الخدمة الفنية للعملاء بحيث يستطيع كل من لديه جهاز كمبيوتر كومباك الاتصال فى أى وقت، ومن أى مكان فى العالم، لكى يشكو من أى مشكلة ـ سواء كانت المشكلة لها علاقة بالكمبيوتر أو بالبرمجيات أو

حتى بحل الكلمات المتقاطعة التى تنشرها صحيفة *نيويورك تايمز* كل يوم أحد ـ وسوف يساعدهم أحد ممثلى شركة كومباك فى حلها.

أما الطريقة الثالثة فقد أعادت كومباك تصميم حملتها الإعلانية بحيث تدعم هذا النهج الجديد، بأن نشرت إعلانات تثير شعوراً بالمشاركة أكثر من مجرد عرض منتج. فاشترت كومباك اثنتى عشرة صفحة متقابلة فى صحيفة *وول ستريت جورنال* للكشف عن منتجها الجديد، ولم تتضمن هذه الصفحات المتقابلة صورة واحدة لجهاز كمبيوتر. وإنما احتوت بدلاً من ذلك على صور أشبه بما ينشر فى الصفحات الأخيرة للصحف، يظهر فيها طفلان يسيران تجاه إحدى الغابات وتتشابك أيديهما، مع شعار كتب أعلى الصفحة «كومباك، إجابات أفضل».

تأمل هذا: إجابات أفضل، وليس أجهزة كمبيوتر أفضل. قال إيرل ميسون: «لقد أعدنا بناء أنفسنا فى ظل ماركة كومباك بغية تعزيز ماركة كومباك».

الدول أيضاً تواجه الآن هذا التحدى فى مواجهة زبائنها فى السوق العالمية ـ أى أعضاء القطيع الإلكترونى. فقد اعتادت الدول أن تضع لنفسها ماركة من أجل السياحة فقط. ولكن ذلك لم يعد كافياً. ونحن ننتقل إلى عالم أصبح لدى الجميع فيه أجهزة كمبيوتر واحدة وأصبح الجميع مضطرون إلى الحصول على البرمجيات التى تتفق مع هذه الأجهزة، أصبحت ماركة دولة ما، والعلاقة الفريدة التى تقيمها مع مستثمريها الأجانب أشد أهمية. تذكر أوروبا بعد أن احتل الاتحاد النقدى الأوروبى مكانه. ما الذى يدعوك إلى إقامة مصنعك فى أوروبا وليس فى اسكتلندا؟ قد يكون السبب مجرد الطقس أو الطعام أو لمجرد أن الماركة الإيطالية يبدو أنها تشيع قدراً أكبر من المتعة والأسلوب الخاص وفطائر البيتزا.

التقط زميلى وارين هوج مدير مكتب *نيويورك تايمز* فى لندن الجهود التى تبذلها بريطانيا لإعادة رسم ماركتها المسجلة لتصبح «بريطانيا الجديدة». كتب هوج

فى 12 نوفمبر 1997 ، أنه فى بريطانيا التى أعادت رسم ماركتها، «فى الخارج تجد مشاهد لملاعب الكريكيت الريفية، والشاى والكعك المدور، وقلاع البارونات، وأصحاب المناحل، وصيد الطيهوج فى مستنقعات الخلنج، والمشاركين فى الاحتفالات الرسمية بشعورهم المستعارة ومشداتهم، وشراب الجعة الإنجليزى بلونه الكهرمانى الفاتح، والعلم البريطانى يرفرف منتصراً. وفى الداخل، هناك صور لوسائل الاتصال وهى تنبض، وصفقات العمل العالمية، وتكنولوچيات المعلومات، ورجال أعمال مغامرون، والهندسة المعمارية الجريئة، وإعلانات فاضحة، وموضة جريئة، وموسيقى بوب بريطانية، كباريهات ـ أى شىء، باختصار، ينم عن الشباب والابتكار، وتعبر عنه كلمة 'مودرن' التى يفضل قادة هذا البلد الذى يجدد نفسه ترديدها ...... وقد تبنت حكومة العمال الجديدة أسلوب الهجوم بناء على اقتراح لمركز ديموس، وهو مركز لبحوث السياسات الاجتماعية مقرب للسيد بلير، الذى أوصى فى الشهر الماضى بأن الوقت قد حان لإعادة رسم ماركة بريطانيا باعتبارها 'إحدى الدول الرائدة فى العالم' وليست إحدى متاحف العالم. قال تونى بلير: 'إننى فخور بماضى بلادى ولكننى لا أريد أن أعيش فيه'. وقد فهمتها وكالة السياحة للحكومة البريطانية فهماً صحيحاً عندما قررت فى عام 1997 تغيير شعار البلاد من 'النظام، بريطانيا!' إلى 'بريطانيا الممتازة ......' ».

قد تعمل دولة ما أيضاً على تلطيخ ماركتها. ففى التسعينيات طورت ماليزيا صورة لماركة رائعة، تلك هى الدولة الإسلامية متعددة القوميات التى تحتضن الثورة التكنولوجية وتجعل اسمها مرادفاً لتكنولوجيا المعلومات، بل تقيم شيئاً يسمى الممر الفائق لتكنولوجيا المعلومات، وهو عبارة عن حديقة صناعية للتكنولوجيا المتقدمة حول كوالا لمبور. ولكن عندما انهارت العملات الآسيوية فى صيف عام 1997 ومضى رئيس الوزراء مهاتير فى خطبه الملتهبة متهماً اليهود وجورج سوروس ونائب رئيس الوزراء أنور إبراهيم بالتآمر لتدمير الاقتصاد الماليزى، انتزع ماركة ماليزيا وقوض الثقة الدولية فى بلاده.

يتعين على الدول، فى هذه الأيام، أن تهتم بماركتها حتى إذا أدرك صغار اللصوص ذلك. روى جون باسى، المحرر فى صحيفة ***وول ستريت جورنال*** قصة مدهشة (27 فبراير 1998) عما حدث له ولصديقته عندما ركبا سيارة أجرة فى ميكسيكو سيتى فى إحدى الليالى، وتعرضا فى الواقع للاختطاف من جانب سائق السيارة وعصابة من عدة أفراد. كتب يقول: «اكتشف الشخص الذى يصوب بندقيته نحو رأسى ليلة السبت فى ميكسيكو سيتى أننى أعمل لإحدى الصحف. وكنا قد أمضينا ساعة نجوب الشوارع فى السيارة الأجرة ووجهى إلى أرض السيارة وهو يجلس فوقى. وكان أحد شركائه يجلس محشوراً فى المقعد المجاور له ويكاد يجلس فوق صديقتى ليثبتها فى مكانها.

سألنى اللص الذى يمسك بالبندقية: «هل تعمل لصحيفة أمريكية؟»

أجبته، ’نعم، إننى قادم فى رحلة عمل من الولايات المتحدة‘. ولم أكن أدرى أهذا شىء طيب أم سيئ. ربما هو لا يحب الصحفيين. ربما هو يكره الأمريكيين.

قال الرجل: ’حسناً. لا تكتب شيئاً مما حدث الليلة. فقد يكون ذلك محرجاً لبلادى‘.

’محرجا لبلاده؟ ‘ لو كانت هذه ظروف مختلفة قليلاً، ولو لم تكن ماسورة البندقية عيار 45. على بعد ثلاث بوصات من رأسى طوال الساعة الماضية، ولو لم يفرغ اللصوص ما فى حافظة نقودى، ولم يأخذوا ساعتى، ولم يحاولوا الآن السطو على حسابى فى البنك ببطاقة ائتمانى ـ ربما اعتبرت الفكرة محببة. بعض الكرامة الوطنية، حماس من نوع ما تشهده بطولة كأس العالم لكرة القدم. إن قلبه معلق ببلاده، المكسيك.

أكدت للص وأنا فى أرضية السيارة: « ’كلا. لا تقلق. إنها صحيفة اقتصادية، أسهم وسندات. ولن أتمكن من نشر قصة كهذه فى الصحيفة ـ مجرد حادث سرقة آخر فى المكسيك‘ ». لو كانت المكسيك سهماً ....

لما كان هناك المزيد والمزيد من الناس الذين بدأوا يدركون أن بلادهم تستطيع فعلاً اختيار الرخاء إذا اختارت السياسات السليمة، وبما أن المزيد والمزيد من الناس أدركوا تماماً كيف يعيش الآخرون ولا سيما فى الدول الناجحة، فسوف يتساءلون عن السبب فى عدم اختيار إدارتهم السياسية للرخاء. فى نظام الحرب الباردة كان بوسع الكثير من الدول اجتناب الإخفاق بسبب ما تتميز به من موقع أو بسبب تاريخها. مصر مثلاً ارتفع قدرها بصورة ضخمة فى الحرب الباردة لمجرد أنها كانت دولة محورية فى الشرق الأوسط ما بين الأمريكيين والسوفيت وبعد ذلك بين الدول العربية وإسرائيل. وكان لديها تاريخ عظيم وأهرامات تتعلق بها. وفرنسا أيضاً ازدادت أهميتها لقدرتها ورغبتها فى المناورة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. ولديها تاريخ مبهر ترتكن إليه.

فى نظام العولمة، لم يعد لموقع بلادك أهمية كبيرة. ولم يعد تاريخ بلادك يهم كثيراً. ولئن كان ينبغى تشجيع الدول على الحفاظ على ثقافتها وتراثها إلا أنها لا تستطيع الارتكان إليها. الآن أصبح المهم هو من أنت، وهذا يتوقف على اتخاذك لاختيارات الرخاء المتاحة فى هذا النظام.

حكى لى ديريك شيرر قصة مفيدة فى هذا الصدد. فى منتصف التسعينيات، عندما كان يشغل منصب سفير الولايات المتحدة فى فنلندا، كانت تصحبه زوجته، روث جولدواى، التى كانت تشغل منصب عمدة سانتا مونيكا فى منتصف الثمانينيات وأشرفت على إعادة تنشيط المدينة. توجه السفير شيرر وزوجته فى أحد الأيام من

هلسنكى لزيارة مدينة سانت بطرسبرج الروسية العظيمة لمقابلة المسئولين بالمدينة، وأيضاً القنصل الأمريكى العام فيها. قال شيرر: «وهكذا اجتمعنا مع نائب عمدة سانت بطرسبرج ورئيس التخطيط فى المدينة وبعض المسئولين الآخرين فيها على عشاء أقامه لنا قنصلنا العام. وظل هؤلاء المسئولون يتحدثون ويتحدثون عن عظمة مدينة سانت بطرسبرج وعن تلك الآثار الثقافية العظيمة التى تقدمها. غير أننا كنا قد قدمنا من المطار فى ذلك اليوم وكان الطريق من المطار إلى المدينة ملئ بالمطبات وقطعته السيارة بصعوبة شديدة. كذلك كنا قد زرنا فى ذلك اليوم متحف الهيرميتاج وشعرنا بالحزن لدى روية المكان المتصدع - لم تكن هناك أى إضاءة صحيحة للقطع الفنية المعروضة فيه. ولم يكن ملحقاً به مطعم أو محل للهدايا. كان الموقع فى حالة فوضى. ربما كان للمتحف تاريخ عظيم، ولكنه لن يقف قط على قدم المساواة مع المتاحف العظيمة فى مدن أخرى فى الوقت الحاضر. فى غضون ذلك، كان المسئولون الروس عن المدينة يتجادلون بشأن اختيار أسماء جديدة لشوارع المدينة [كانت مدينة سانت بطرسبرج اسمها لينينجراد فى عصر الاتحاد السوفيتى وكانت أسماء الشوارع كلها أسماء شيوعية]. وهكذا قالت لهم روث: 'لدى اقتراح بسيط. بدلاً من الجدل حول الأسماء الجديدة للشوارع، لم لا تمهدونها أولاً' قالوا، ' فعلاً ، إنها فكرة جيدة'».

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل العاشر

نظرية الأقواس الذهبية لمنع الصراعات

فى كل مرة أسافر إلى الخارج أحتاج إلى أن أستمتع بوجبة البيرجر والبطاطس المقلية من ماكدونالدز. ويخيل إلىّ أننى أكلت شطائر البيرجر والبطاطس المقلية من ماكدونالدز فى الكثير من دول العالم أكثر من الآخرين، وأستطيع أن أشهد أن مذاقها جميعاً متشابه حقيقة. غير أننى وأنا أجوب أركان الأرض الأربعة حول العالم فى السنوات الأخيرة بدأت ألحظ شيئاً محيراً. ولا أدرى متى واتتنى هذه الفكرة. كان الأمر أشبه بضربة صاعقة من السماء انطلقت من مكان ما بين ماكدونالدز فى ميدان تيانانمين فى بيجنج (بكين)، وماكدونالدز بميدان التحرير بالقاهرة، وماكدونالدز بالقرب من ميدان زيون فى القدس. وتلك هى الفكرة:

لم يحدث أن خاضت دولتان يوجد بهما مطاعم ماكدونالدز حرباً فيما بينهما منذ أن افتتح ماكدونالدز فى كل منهما.

إننى لا أمزح. إنه شىء غريب فعلاً. انظر إلى الشرق الأوسط: فى إسرائيل الآن محلات ماكدونالدز كوشير، وفى السعودية محلات ماكدونالدز التى تغلق خمس مرات فى اليوم فى أوقات صلاة المسلمين، ومصر بها محلات ماكدونالدز كما

أصبحت لبنان والأردن من الدول التى توجد بها محلات ماكدونالدز. لم تحدث فى أى من هذه الدول حرب منذ دخول الأقواس الذهبية (علامة ماكدونالدز) إليها. أين يوجد اليوم التهديد الكبير بالحرب فى الشرق الأوسط؟ إسرائيل وسوريا، إسرائيل وإيران، إسرائيل والعراق. ما هى الدول الثلاث التى لا يوجد بها ماكدونالدز؟ سوريا وإيران والعراق. وماذا عن الهند وباكستان؟ إننى على ثقة من أنهما تستطيعان نسف بعضهما بعض الآن بعد امتلاكهما للأسلحة النووية، ولكن واحدة منهما فقط هى الهند، يوجد بها الخضروات المقلية. ففى الهند، حيث 40 فى المائة من سكانها نباتيون، يوجد أول مطاعم لماكدونالدز فى العالم بدون لحوم (ناجيتس من الخضروات!)، أما باكستان فهى منطقة خالية حتى الآن من الماكدونالدز ـ وهو أمر خطير.

لقد حيرتنى نظريتى هذه إلى درجة أننى توجهت إلى مقر شركة ماكدونالدز فى أوكبروك، بولاية إلينوى، وقلتها لهم. وشعروا هم أيضاً بالحيرة إلى درجة أنهم دعونى إلى اختبار مدى صحتها مع بعض المسئولين التنفيذيين العالميين لديهم فى جامعة هامبورجر، وهى إدارة للبحث والتدريب الداخلى فى ماكدونالدز. عرض هؤلاء العاملون فى ماكدونالدز النموذج الذى توصلت إليه على جميع خبرائهم الدوليين وثبت أنهم، أيضاً، لم يجدوا استثناء لهذه النظرية. كنت أخشى أن تكون حرب فوكلاند هى هذا الاستثناء. ولكن الأرجنتين لم تدخلها مطاعم ماكدونالدز قبل عام 1986، أى بعد مرور أربع سنوات على حربها مع بريطانيا العظمى. (لا تدخل الحروب الأهلية والمناوشات الحدودية فى إطار هذه النظرية: فقد كانت محال ماكدونالدز فى موسكو والسلفادور ونيكاراجوا تقدم وجبات البيرجر للجانبين فى الحروب الأهلية فى هذه الدول).

أستطيع وأنا مسلح بهذه البيانات أن أقدم نظرية « الأقواس الذهبية لمنع نشوب الصراعات» ـ وتنص على أنه إذا وصلت دولة ما إلى مستوى التنمية الاقتصادية الذى يؤدى إلى وجود طبقة وسطى تكفى لنجاح شبكة من محال ماكدونالدز بها فإنها تصبح إحدى دول ماكدونالدز. والشعوب فى دول ماكدونالدز لم تعد تحب خوض الحروب، بل تفضل الانتظار فى طوابير البيرجر.

عندما عرضت ذلك على جيمس كانتالوبو، وكان رئيساً لشركة ماكدونالدز الدولية فى ذلك الوقت، قال لى: «لا أظن أنه توجد دولة فى العالم لم نتلق منها دعوة للعمل فيها. عندى هنا طابور طويل دائم من السفراء والممثلين التجاريين الذين يصفون لنا الأحوال فى بلادهم والأسباب التى تجعل ماكدونالدز شيئاً طيباً بالنسبة لها».

لا شك أن كل دولة تقريباً سوف يكون بها ماكدونالدز فى نهاية الأمر، ولا شك أنه ستنشب حرب بين دولتين منها فى نهاية الأمر. ولكن، إلى أن يحدث ذلك فإن نظرية الأقواس الذهبية تثير سؤالاً محيّراً: إلى أى مدى تستطيع دولة ما تقييد قدرة قادتها على شن الحرب بالتحامها بالقطيع الإلكترونى لهذه الأيام وبارتدائها لقميص القيد الذهبى؟

لقد سأل آخرون هذا السؤال فى أثناء فترات أخرى طويلة من السلام والتجارة. فقد كتب الفيلسوف الفرنسى مونتيسكيو فى القرن الثامن عشر أن التجارة الدولية أنشأت جمهورية كبرى دولية، كانت توحد بين جميع التجار والأمم التى تتبادل التجارة عبر الحدود، وهو ما يؤدى دون شك إلى عالم أكثر سلاماً. كتب يقول فى كتابه *روح القوانين* إن «وجود حركة مرور متبادل بين دولتين تؤدى بهما إلى اعتماد الواحدة على الأخرى، لأنه إذا كانت إحداهما مهتمة بالشراء فالأخرى تكون مهتمة بالبيع، وهكذا يقوم الاتحاد بينهما على أساس احتياجاتهما المشتركة». وفى الفصل

المعنون بـ «كيف اخترقت التجارة البربرية الأوروبية»، يدافع مونتيسكيو عن نظرية البيج ماك (الماكدونالدز الكبير) الخاصة به، فيقول: «من حسن حظ الإنسانية أنها فى وضع يجعلها رغم ما تمليه عليها عاطفتها بأن تكون شريرة؛ فإن مصلحتها تملى عليها، مع ذلك، أن تكون رحيمة وفاضلة».

فى حقبة العولمة لما قبل الحرب العالمية الأولى، لاحظ الكاتب البريطانى نورمان آنچل، فى كتابه الذى أصدره عام 1910، بعنوان ***الوهم الكبير***، أن القوى الصناعية الغربية الكبرى، أمريكا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا، قد فقدت شهيتها فى إشعال الحرب: «كيف يمكن للحياة الحديثة، بما فيها من معدل طاغ من الأنشطة الصناعية ومعدل لا حدود له من آلة الحرب أن تحافظ على الغرائز المرتبطة بالحرب فى مواجهة الغرائز الأخرى التى تكونت بفعل السلام؟» لقد رأى آنچل أنه فى ظل وجود كل هذه التجارة الحرة والاتصالات التجارية التى تربط بين القوى الأوروبية الكبرى فى ذلك الوقت، يكون خوضها الحرب ضرباً من الجنون؛ لأنها سوف تقضى على المنتصر والمهزوم على السواء.

لقد كان مونتيسكيو وآنچل على صواب بالفعل: ذلك أن التكامل الاقتصادى يجعل الحرب أكثر تكلفة على المنتصر والمغلوب على السواء، وأن الدولة التى تختار أن تتجاهل هذه الحقيقة مقضى عليها دون شك. ولكن الأمل الذى راودهما بأن تقضى هذه الحقيقة بصورة ما على الجغرافية السياسية كان خطأ. قد يقول المرء أن مونتيسكيو وآنچل نسيا تعاليم المؤرخ الإغريقى ثيوسيديدس. لقد كتب ثيوسيديدس فى تاريخه للحرب البليپونيزية أن الأمم تذهب إلى الحرب لسبب من ثلاثة أسباب ـ «الشرف والخوف والمصلحة» ـ وعلى الرغم من أن العولمة تزيد من تكلفة الذهاب إلى الحرب لأسباب الشرف أو الخوف أو المصلحة فإنها لا تجعل، ولا تستطيع أن تجعل، هذه الغرائز شيئاً عفا عليه الزمن ـ ما دام العالم قد خلق من بشر وليس من آلات. وسوف

يستمر الصراع على القوة، والسعى إلى تحقيق المصالح المادية والاستراتيجية، وذلك الارتباط العاطفى الدائم أبداً بين الإنسان وشجرة زيتونه حتى فى عالم شذرات الكمبيوتر الدقيقة، وتليفونات الأقمار الصناعية والإنترنت. فالعولمة لا تضع نهاية للجغرافية السياسية. وسوف أكرر ذلك لجميع الواقعيين الذين يقرأون هذا الكتاب : ***العولمة لا تضع نهاية للجغرافية السياسية.***

إن ما أود استخلاصه ببساطة من نظرية الأقواس الذهبية لمنع نشوب الصراعات هو أن نظام العولمة يرتفع إلى حد كبير بالتكلفة التى تتحملها الدول التى تستخدم الحرب فى السعى إلى الدفاع عن الشرف أو كرد فعل للخوف أو لتحقيق مصالحها. أما الجديد اليوم، مقارنة بالأيام التى كان يكتب فيها مونتيسكيو بل وآنجل ، فهو الاختلاف فى *الدرجة*. إن نسخة اليوم من العولمة ـ بما فيها من تكامل اقتصادى، وتكامل رقمى، واتصال بين الأفراد والأمم لا يتوقف عن الاتساع، وانتشار للقيم الرأسمالية والشبكات التى تصل إلى أبعد ركن فى العالم واعتمادها المتزايد على قميص القيد الذهبى والقطيع الإلكترونى ـ تعمل من أجل شبكة أقوى من الضغوط على السلوك المتعلق بالسياسة الخارجية لتلك الأمم التى التحمت بالنظام. إنها تزيد من إغراءات عدم خوض الحروب وتزيد من تكلفة خوض الحروب على نحو يفوق أى حقبة سابقة فى التاريخ الحديث.

ولا يضمن ذلك أن لا تنشب حروب أخرى فى المستقبل. فسوف يظل هناك دائما قادة وأمم، سيلجأون إلى خوض الحرب لأسباب جيدة وأسباب سيئة، وسوف تختار بعض الأمم، مثل كوريا الشمالية أو العراق أو إيران، أن تعيش خارج قيود هذا النظام. ومع ذلك تظل الفكرة الأساسية هى: إذا كانت الأمم التى عاشت فى ظل نظام العولمة السابق قد فكرت مرتين قبل أن تلجأ إلى حل المشكلات بطريق الحرب فإنها ستفكر ثلاث مرات فى ذلك فى هذه الحقبة من العولمة.

تستطيع حقيقة أن تلمس كل ما تريد أن تعرفه عن الاختلاف فى طريقة تشكيل نظام الحرب الباردة للجغرافية السياسية وفى طريقة تشكيل نظام العولمة للسياسة الجغرافية بدراسة ألبانيا.

عندما انغمست ألبانيا فى حرب أهلية فى مطلع عام 1997، حدث أن كنت أشاهد قناة سى إن إن التليفزيونية الإخبارية حتى أظل متابعاً للأحداث. لم يكن لدى سى إن إن اتصال مباشر على الهواء من ألبانيا، ومن ثم ظلت تعرض خريطة للبحر الأدرياتى، قبالة ساحل ألبانيا. وكانت على هذه الخريطة بعض النماذج الصغيرة لسفن، تمثل كل منها السفن الحربية الأمريكية والأوروبية وغيرها من الدول التى سارعت لإجلاء مواطنيها من ألبانيا. كان أول ما خطر على بالى وأنا أنظر إلى هذه الخريطة أنه لو كان ذلك فى حقبة الحرب الباردة فربما كانت هذه السفن سفناً حربية أمريكية وسوڤيتية، تتنافس كل منهما لمعرفة من منها تستطيع ملء الفراغ فى ألبانيا، ومن منهما تستطيع مساندة مواطنيها هناك بفاعلية أكبر، ومن منهما تستطيع جذب البيدق الألبانى أسرع من الأخرى جانبها فى لوحة شطرنج الحرب الباردة. وباختصار كانت الدولتان العظميان تتنافسان لمعرفة من منهما تصل إلى ألبانيا أسرع من الأخرى، وأبعد من الأخرى، وأعمق من الأخرى. ولكن ذلك لم يكن يحدث على شاشة سى إن إن فى ذلك اليوم. كان ذلك هو نظام العولمة اليوم، وفى هذا النظام كانت القوى المختلفة تتنافس فى الواقع لمعرفة من التى تستطيع إخراج مواطنيها من ألبانيا ***قبل الآخرين، والابتعاد بهم عنها أكثر من الآخرين، وبسرعة أكبر من الآخرين***. والدولة التى تحقق ذلك السبق هى المنتصرة فى ألبانيا والدولة الخاسرة هى القوة الخارجية التى اضطرت إلى تحمل مسئولية إدارة ألبانيا ـ وتبين أنها إيطاليا.

ما مغزى ذلك؟ مغزاه أن نظام الحرب الباردة تميز بسمتين أساسيتين: لوحة الشطرنج ودفتر الشيكات. بمعنى أن نظام الحرب الباردة سيطرت عليه قوتان، الولايات

المتحدة والاتحاد السوفيتي. وكانتا منهمكتين في منافسة عالمية على التفوق الاستراتيجي والموارد والشرف، حيث كانت مكاسب كل طرف منهما خسائر للطرف الآخر وكان كل ركن من العالم له قيمته بالنسبة لهما، وله أهميته مثل أي ركن آخر من العالم. يقول مايكل ماندلباوم في هذا الصدد: «في نظام الحرب الباردة، كان العالم أشبه بلوحة شطرنج واحدة متكاملة. كل حركة قام بها السوفيت أثرت في كل منا وكل حركة قمنا بها أثرت في كل منهم. كنا نحن نلعب بالقطع البيضاء وهم يلعبون بالقطع السوداء. إذا تحركوا إلى مربع أبيض، تحركنا إلى مربع أسود. إذا حركوا بيادق سوداء إلى ألبانيا حركنا بيادق بيضاء. كل بيدق منها مهم لأنه يحمي الملك عندك. ومن ثم، إذا استولوا على بيدق أصبحوا أقرب كثيراً من الملك عندك وتكون بذلك قد اقتربت كثيراً من الهزيمة. وهذا هو السبب في أنه يتعين عليك حماية كل بيدق. وكان الدفاع عن البيادق وسيلة للدفاع عن الملك. ولهذا السبب انتهينا إلى التورط في أماكن ليست لها أهمية حقيقية، مثل ڤيتنام وأنجولا والسلفادور.

بعبارة أخرى، كان في نظام الحرب الباردة نوع من الحافز الضمني على تشجيع الصراعات الإقليمية وعلى تصعيدها لكي تصبح جزءاً لا يتجزأ من التنافس العالمي للقوى الكبرى ولكي تحظى بالاهتمام العالمي. ونظراً لأنه كان هناك تنافس عالمي على رقعة الشطرنج هذه، لم تكن أي من القوتين العظميين على استعداد للتسليم بخسارة مربع أسود أو أبيض في أي مكان في العالم، وذلك خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى خسائر أخرى تؤدي في النهاية إلى سيطرة الطرف الآخر على العالم. وأصبح هذا الخوف يعرف باسم «نظرية الدومينو» في مجال الجغرافية السياسية.

بالإضافة إلى رقعة الشطرنج كان هناك عنصر آخر يعرف به نظام الحرب الباردة وهو دفتر الشيكات. كما أشرنا من قبل، كان من السهل كثيراً على الدول النامية في نظام الحرب الباردة أن تجتنب الإخفاق اقتصادياً رغم ضعف نظام تشغيلها وبرمجياتها.

وكان بوسع بعض الدول النامية أن يظل أداؤها دون المستوى لفترة طويلة، لأنها كانت تستطيع امتصاص الأموال من القوتين العظميين المتنافستين بمجرد التعهد بالتحالف مع هذا الطرف أو ذاك فى الحرب الباردة. لقد كانت حكومة الولايات المتحدة والحكومة السوفيتية وبدرجة أقل الحكومة الصينية والاتحاد الأوروبى على استعداد للذهاب إلى دافعى الضرائب عندها، وأن تأخذ نقودهم ثم تكتب شيكات بمبالغ هائلة للأجانب لشراء النفوذ فى مربعات مختلفة فوق رقعة الشطرنج. كانت دبلوماسية دفتر الشيكات تلك تسمى «المعونة الخارجية». كانت أمريكا تجبر دافعى الضرائب عندها على دفع مرتبات للكونترا فى نيكاراجوا أو للمجاهدين فى أفغانستان، وفعل السوفيت هذا الشيء نفسه للساندنيستا فى نيكاراجوا وللفييت كونج فى فيتنام. أجبرت أمريكا دافعى الضرائب عندها على دعم الجيش الإسرائيلى، وأجبر الاتحاد السوفيتى دافعى الضرائب عنده على إعادة بناء سلاح الطيران السورى بعد أن أسقطت إسرائيل 97 مقاتلة نفاثة سورية فى أول أيام الحرب اللبنانية عام 1982. كانت القوتان العظميان تشتريان الولاء ليس فقط بالمدافع ولكن أيضاً بالزبد. لقد فتحوا دفاتر شيكاتهم لدعم الطرق والسدود والقاعات الثقافية والواردات - أى شيء لجذب أى دولة من العالم الثالث إلى جانبها فى ذلك الصراع العالمى. كانت موسكو وواشنطن تحرران تلك الشيكات بدون أن يكون لها فى الواقع أى مطالب إزاء الطريقة التى تدير بها هذه الدول اقتصاداتها، فقد كانت موسكو وواشنطن على السواء تخشيان إذا أفرطتا فى الضغط على بيادقها إزاء قضايا متعلقة بالإصلاح الداخلى أن تعدو هاربة إلى الجانب الآخر. وهكذا حصلت أنظمة مرتشية ومتخلفة وفاسدة، مثل فرديناند ماركوس فى الفلبين أو أنستازيو سوموزا فى نيكاراجوا، على شيكاتها من واشنطن، وحصلت أنظمة فى كوبا وأنجولا وفيتنام على شيكاتها من موسكو على أساس مساندتها للنظام الاقتصادى سواء كان رأسمالياً أم شيوعياً - وليس على أساس من الكفاءة التى تدير بها هذه النظم.

كل ما فى الأمر أن القوتين العظميين لم تكونا تعبآن بمدى كفاءة خطوط الاتصال الاقتصادى لهذه الدول، لأنهما كانتا تريدان فى ذلك الوقت شراء ولائها، وليس شركات تليفوناتها. وحتى فى حالة اليابان سمحت الولايات المتحدة لطوكيو بفرض معدلات غير معقولة من قوانين الحماية، لأنها كانت تريد مساندة اليابان لها فى الحرب الباردة ولم تسمح وزارتا الدفاع أو الخارجية الأمريكيتان قط لوزارة التجارة أو لمكتب التمثيل التجارى بالضغط بشدة على اليابان فيما يتعلق بالمسائل التجارية، خشية أن تفقدها فيما يتعلق بالمسائل الأمنية. ولكن بالتحديد لما كانت القوتان العظميان على استعداد لتحرير شيكات على بياض، فقد ظل الكثير من الصراعات الإقليمية كامن لوقت أطول مما يجب. ما الذى كان يجبر منظمة التحرير الفلسطينية على الاعتراف بإسرائيل فى الستينيات والسبعينيات، حين كان الاتحاد السوفيتى يقدم المنح الدراسية للشباب الفلسطينى والمدافع لرجال المقاومة الفلسطينية، بصرف النظر عما تفعله منظمة التحرير الفلسطينية؟

وهكذا لم يكن نظام الحرب الباردة هذا يقدم ***الحوافز*** لازدهار الصراعات الإقليمية وإضفاء العولمة عليها فحسب، ولكنه كان أيضاً يقدم ***الموارد*** التى تعمل على ازدهار هذه الصراعات الإقليمية فتصبح عالمية ـ مع كل هذه الشيكات التى راح إيڤان والعم سام يكتبانها بهذه الضراوة.

والآن، ادفع هذا العالم بعيداً.

ومرحبا بالعولمة. فما أن أصبحت العولمة النظام العالمى المسيطر مع نهاية الحرب الباردة حتى وضعت إطاراً مختلفاً حول الجغرافية السياسية. ولئن كان نظام العولمة لم يقض على الجغرافية السياسية، إلا أن الاعتقاد بأنه لا يؤثر فيها من بعض النواحى الجذرية يعتبر تفكيراً سطحيا وغبياً.

بدايةً، لم يعد فى حقبة العولمة لوحة للشطرنج، ينقسم عليها العالم إلى مربعات بيضاء وسوداء. فمنذ انهيار الاتحاد السوفيتى لم يعد هناك الأسود، ومن ثم لم يعد هناك الأبيض. لم يعد هناك «رجالهم»، ومن ثم لم يعد هناك «رجالنا». ولذلك انتهى الحافز الكامن ضمنياً فى نظام الحرب الباردة لتصعيد أى صراع إقليمى ليصبح صراعاً عالمياً. وانتهت أيضا الموارد. فى حقبة العولمة، أصبح هناك طرف جديد يمسك بيده دفتر الشيكات. لقد أصبح القطيع الإلكترونى الآن هو الكيان الوحيد الذى يمتلك الأموال ينثرها هنا وهناك. لم يعد للاتحاد السوفيتى وجود حتى يستطيع تحرير الشيكات بمبالغ ضخمة، والولايات المتحدة ارتدت قميص القيد الذهبى ولن تحرر شيكات للمعونات الخارجية بمبالغ ضخمة بعد الآن.

المكان الوحيد الذى تستطيع دولة ما الذهاب إليه للحصول على شيكات بمبالغ ضخمة هو القطيع الإلكترونى، والقطيع الإلكترونى لا يلعب الشطرنج. إنه يلعب لعبة المونوبولى. فالمكان الذى ستبنى فيه شركة إنتل أو سيسكو أو مايكروسوفت مصنعها الجديد، أو المكان الذى سوف يستثمر فيه صندوق فيديليتى العالمى المشترك أمواله، هو الذى سيحدد من سيحصل على التمويل ومن الذى لن يحصل عليه. كما أن ثيران القطيع الإلكترونى لا تحرر شيكات على بياض من أجل اكتساب حب دولة ما أو ولائها، إنها تحرر شيكات استثمارية من أجل الحصول على أرباح. ولم تعد أسواق السوبر ماركت أو القطيع الإلكترونى يعبأ فى الواقع بلون بلادك من الخارج. وكل ما يهتم به هو مدى اتصال دولتك من الداخل، وما هو مستوى نظام التشغيل والبرمجيات التى تستطيع إدارتها، وهل تستطيع حكومتك حماية الملكية الخاصة.

وهكذا، فلن يرفض القطيع فقط تمويل أى حرب إقليمية لدولة ما أو إعادة بناء قواتها المسلحة بعد إحدى الحروب بدون مقابل ـ مثلما كانت تفعل القوتان العظميان لمجرد كسب ولائها ـ بل إنه فى الواقع سوف يعاقب أى دولة تشن حرباً على جيرانها؛

بأن يسحب المصدر الكبير الوحيد لنمو رأس المال فى العالم اليوم. وبما أن الأمر كذلك، فليس أمام الدول إلا أن تختار السلوك الذى يجذب إليها القطيع أو أن تختار تجاهل القطيع لها؛ وبذلك تعتمد على نفسها فى كسب قوتها بدونه.

من الواضح أن بعض الدول اختارت الحياة بدون القطيع حتى يتسنى لها تحقيق أهدافها السياسية الخاصة، وسوف يكون هناك دائماً من يفعل ذلك. الرئيس العراقى صدام حسين قد يفضل تحقيق طموحات جنون العظمة لديه وأن يحرق وينهب جيرانه على أن يخضع نفسه لنظام القطيع، وأن يتمكن بنظام حكمه المستبد من فرض إرادته على شعبه. ويصدق ذلك على نظم الحكم فى كوريا الشمالية وأفغانستان والسودان وإيران. ولا تنطبق على هذه النظم نظرية الأقواس الذهبية لأنها اختارت ألا تلتحم مع القطيع وأسواق السوبر ماركت، وهى إما لديها ما يكفى من البترول أو من الأيديولوجيا بما يسمح لها أن تعيش بدون القطيع لفترة من الزمن. ولكن ذلك أصبح ينطبق على عدد أقل وأقل من الدول اليوم.

انظر إلى الصين. فى عام 1979، لم يكن فى الصين مطاعم ماكدونالدز. وكان دينج زياوبينج قد بدأ من توِّه فى فتح الصين على العالم. وعندما جاء دينج إلى أمريكا للاشتراك فى قمة مع الرئيس كارتر، أشار إشارة عابرة إلى أنه عندما يعود إلى بلاده سوف يغزو ڤيتنام، لأن الڤيتناميين أصبحوا متعالين ومغرورين أكثر مما يجب. وحاول كارتر أن يثنيه عن عزمه، مستخدماً وجهة النظر القائلة بأن ذلك سيؤدى إلى الإساءة إلى صورة الصين (وليس إلى اقتصادها)، ولكن دينج لم يقتنع وغزا ڤيتنام.

والآن، لننتقل سريعاً إلى عام 1996. كان قد أصبح فى الصين 207 امتيازات لماكدونالدز. وكنت فى بيجنج (بكين) فى ذلك الوقت لمراقبة التوتر بين الصين وتايوان. وكنت فى مقابلة صحفية مع أحد كبار الاقتصاديين من الأكاديمية الصينية للعلوم قبل إجراء أول انتخابات ديموقراطية كاملة فى تايوان مباشرة، وكان الكثيرون

من المسئولين فى بيجنج (بكين) يخشون أن تكون مقدمة لإعلان تايوان الاستقلال التام عن الصين. وكانت الصين تهدد بغزو تايوان إذا انفصلت تماماً عن الصين. وفيما نحن نمتص شرائط المكرونة فى أحد مطاعم السطح فى بكين ألقيت على ذلك الاقتصادى الصينى سؤالاً بسيطاً: هل تستطيع الصين تحمل نتائج الهجوم على تايوان؟ رد علىّ بلا تردد، «كلا - إن ذلك قد يوقف الاستثمارات فى الصين، ويوقف النمو، ويوقف آخر فرصة لنا للحاق ببقية العالم».

وشعر ذلك الاقتصادى، مثل جميع من تحدثت إليهم فى الحكومة الصينية فى ذلك الوقت، أن الصين قد تجد التسويغ الكامل لأى هجوم لتحطيم تايوان لكى يمنعها تماماً من إعلان استقلالها. غير أنه على عكس الآخرين، كان على استعداد للتعبير عما يعرفه كبار الزعماء الصينيين جميعاً ولكنهم لا يفصحون عنه جهراً - إن الصين لا تستطيع الهجوم على تايوان بدون أن يتعرض اقتصادها ذاته للدمار.

فى حقبة العولمة تعلم الصين وتايوان تمام العلم أن تدمير الاقتصاد فيهما سيكون متبادلاً، فمن منظور بيجنج (بكين)، لم تعد الصين تلك الدولة التى تعيش فى عزلة، ولم يعد اقتصادها قائماً على الفلاحين كما كان الحال فى عهد ماو ومطلع عهد دينج. لقد أصبحت الآن متصلة إلى حد ما بالقطيع الإلكترونى وأصبحت الأيديولوجية الوحيدة التى تعتنقها القيادة الصينية الآن هى: «الثراء هو العظمة». ولا يستطيع قادة الصين تحقيق هذه الأيديولوجية بدون ما يقرب من 40 مليار دولار من الاستثمارات الأجنبية التى تتدفق على الصين سنوياً - التى تستأثر بنسبة 20 فى المائة من إجمالى استثماراتها السنوية. وسوف يجف تدفق جزء كبير من هذه الأربعين مليار دولار فى اللحظة التى تهاجم فيها تايوان. فالكونجرس الأمريكى سوف يرد على ذلك بمنع كثير من الواردات الأمريكية من الصين - التى تستأثر بنسبة 40 فى المائة من

إجمالى الصادرات الصينية. ويوجد الآن نحو 40,600 منفذ للتصنيع والأعمال التجارية، مملوكة للتايوانيين فى الصين ويعمل فيها ملايين الصينيين، سوف تتوقف دون شك عن العمل. وربما قدم وانغ شوجينج مدير هيئة الاستثمار الأجنبى فى شنغهاى أفضل تلخيص لضعف الموقف الصينى فى أى حرب مع تايوان عندما أعلن فى ذروة الأزمة الصينية التايوانية فى عام 1996 أنه حتى إذا اضطرت الصين إلى الهجوم على تايوان «فلن يكون هناك تغيير كبير فى موقفنا تجاه المستثمرين التايوانيين». يا للمفارقة التى ينطوى عليها هذا التصريح: حتى إذا غزوناكم فإننا بالتأكيد نأمل ألا يأخذ مستثمروكم هذا الغزو من منظور شخصى! (ليس من قبيل المصادفة أن الصين تسير وفق استراتيجية جديدة من «الحرب بلا دماء»، تشير إلى أشكال متعددة من الحرب الإلكترونية متقدمة التكنولوجيا التى تستهدف إصابة اقتصاد متقدم بالشلل المؤقت. ويبدو أن الهدف من ذلك هو الاستيلاء على بيضة تايوان الذهبية فى يوم من الأيام بدون تحطيمها).

غير أن ذلك التدمير المتبادل المؤكد متبادل حقاً. إن قدرة تايوان على احتمال فقدان ثقة المستثمر الأجنبى أقل كثيراً من الصين، وهذا هو السبب فى أن حزب المعارضة الرئيسى فى تايوان، قد تراجع مؤخراً عن التزامه باستقلال تايوان. فمن الممكن أن يقوض صليل السيوف الصينية البسيط الاقتصاد التايوانى. ففى يوليه عام 1995، عندما أطلقت الصين أول أربعة صواريخ من طراز M-9 فى شرق بحر الصين إلى الشمال من تايوان للتعبير عن استيائها من زيارة الرئيس التايوانى لى تينج ـ هوى لجامعة كورنيل الأمريكية، فقدت بورصة تايوان 33 فى المائة من قيمة الأسهم لديها وبدأت احتياطيات تايوان من النقد الأجنبى فى الفرار منها بمعدل نحو 500 مليون دولار يومياً.

ليس لدىّ أدنى شك فى أنه إذا تجاوزت تايوان الحدود فى سعيها نحو وضع أكثر استقلالاً على المسرح العالمى، فقد تستخدم الصين القوة العسكرية لوقف تايپيه ـ مهما كانت العواقب الاقتصادية. فلن يستطيع أى قائد صينى الاستمرار فى موقعه إذا سمح لتايوان بالاستقلال. هنا ستتعرض شرعية الزعامة الصينية للخطر. ولكن أيضاً لن يكتب البقاء لأى زعامة صينية اليوم بدون الاستثمارات والتجارة الخارجية. بل إن شرعيتها تعتمد أكثر على ذلك الآن. وهكذا فإن على القيادة فى الصين أن تقيم حساباتها على نحو شديد الاختلاف عن حساباتها فى الماضى، بعد أن أصبحت الصين الآن ملتحمة إلى حد ما مع القطيع الإلكترونى .

فى النهاية، جاء حل أزمة عام 1996 بين الصين وتايوان بعمل مشترك من جانب القوة العظمى وأسواق السوبر ماركت، إذ أرسلت الولايات المتحدة مجموعة من حاملات الطائرات إلى قبالة سواحل تايوان وأرسلت أسواق السوبر ماركت رسالتها عن طريق الانحدار الشديد فى أسعار بورصتى تايوان وهونج كونج. كان الأمران ضروريين، وكان لهما تأثير فى ردع الصين عن تنفيذ أى تهديدات لها ـ غير أن الاعتراف بالفضل فى ذلك كان للقوة العظمى وحدها

لا تحدث الحروب الكبرى إلا عندما ترغب القوى الكبرى فى القتال، وقد أصبحت أول غريزة للقوى الكبرى فى نظام العولمة اليوم هى ألا تلقى بنفسها فى أتون الحرب. بل أصبحت القوى الكبرى اليوم تفضل ألا تستدرج فى الصراعات الإقليمية مثل البوسنة أو رواندا أو ليبيريا أو الجزائر أو كوسوفو، وتحاول بدلاً من ذلك بناء ستار حديدى حول هذه الصراعات الأهلية والالتفات حولها كما لو كانوا جيراناً سيئيين. وهذا هو السبب فى أن الكثير من الصراعات العسكرية الإقليمية اليوم أميل إلى الاحتواء منها إلى أن تتحول أتوماتيكياً إلى صراعات عالمية مثلما كان يحدث فى الحرب الباردة. وربما كان ذلك من سوء الحظ، من حيث إنه يصبح من السهل

تجاهلها، ولكنها الحقيقة. فلئن كانت الأزمات العسكرية الإقليمية هى ما نحتويه اليوم إلا أن ما يتجه إلى العولمة فهو الأزمات الاقتصادية الإقليمية ـ مثل المكسيك فى منتصف التسعينيات، وجنوب شرقى آسيا فى أواخر التسعينيات، وروسيا فى نهاية التسعينيات. إنها تلك الأزمات الاقتصادية الإقليمية، وإمكانية انتشارها للأسواق الأخرى، التى هزت نظام العولمة فى سنواته المبكرة. وأصبحت نظرية الدومينو التى كانت تنتمى فى وقت من الأوقات إلى عالم السياسة تنتمى الآن إلى عالم المال.

تؤكد نظرية الأقواس الذهبية على أهمية طريقة واحدة تؤثر بها العولمة فى الجغرافية السياسية ـ بأن ترفع كثيراً من تكلفة الحرب بسبب التكامل الاقتصادى. غير أن العولمة تؤثر بطرق أخرى عديدة فى الجغرافية السياسية. فهى على سبيل المثال، تخلق مصادر جديدة للقوة، تتجاوز مقاييس القوة العسكرية التقليدية من الدبابات والطائرات والصواريخ؛ وتخلق نوعاً جديداً من الضغوط على الدول لتغيير طريقة تنظيمها لنفسها، ضغوط لا تأتى من الاجتياح العسكرى الكلاسيكى من دولة لأراضى دولة أخرى، وإنما بالأحرى غزوات خفية من أسواق السوبر ماركت والأفراد الذين اكتسبوا قوة عظمى.

وأفضل طريقة للتعرف على ذلك أن تنظر بإمعان لمنطقة مثل الشرق الأوسط من حيث الأبعاد المتعددة للعولمة. وسوف تكتشف بعض الأشياء المثيرة للاهتمام.

فى خريف عام 1997 كنت فى زيارة لإسرائيل. وكانت عملية السلام تمر بمرحلة من الركود، غير أننى تصادف أن قرأت موضوعاً فى الجزء الخاص بالأعمال فى إحدى الصحف يشير إلى أن الاستثمار الأجنبى فى إسرائيل قوى كما كان دائماً. أصابنى ذلك بالحيرة، ومن ثم توجهت إلى چيكوب فرينكل، محافظ البنك المركزى ووجهت إليه السؤال التالى: «كيف يتأتى أن تكون عملية السلام فى هبوط والاستثمار الأجنبى فى إسرائيل فى صعود؟»

والإجابة التى توصلت إليها مع فرينكل هى أن إسرائيل تتحول الآن سريعاً عن سياستها الاقتصادية القديمة القائمة على البرتقال والماس والمنسوجات إلى اقتصاد التكنولوجيا المتقدمة التى جعلت من إسرائيل، إلى حد ما، أقل ضعفاً أمام الضغوط السياسية العربية، والمقاطعة والتذبذبات صعوداً وهبوطاً فى عملية السلام، فى حين تجعل إسرائيل أكثر ضعفاً أمام أى حرب تقليدية. وإليك السبب: كانت إسرائيل فيما مضى تزرع البرتقال، والمغرب تزرع البرتقال، وأسبانيا تزرع البرتقال. ومن ثم فإذا كانت دولة مثل اليابان أو فرنسا تشعر بالاستياء تجاه بعض السياسات الإسرائيلية فى الضفة الغربية فإنها تستطيع ببساطة معاقبة إسرائيل بشراء البرتقال من أى دولة أخرى. ولكن ما هو الحال عندما تخترع شركة إسرائيلية، هى شركة جاليليو تكنولوجى ليمتد مفتاح إيثرنت Ethernet المكون من شذرة كمبيوتر واحدة تستخدم فى كثير من نظم الاتصالات الخاصة ببيانات الشبكة الداخلية فى الإنترنت؟ إنك لن تستطيع الحصول على ذلك من المغرب. وما هو الحال عندما تبدأ الشركات الإسرائيلية فى السيطرة على قطاع التكنولوجيا المتقدمة الحاسم مثل أدوات التجفير المتصلة بالإنترنت والخاصة بتأمين المعلومات، التى بنيت استناداً إلى مجموعة القواعد الخوارزمية (نظام العد العشرى) المعقدة التى طورت فى معهد تكنيون والجيش الإسرائيلى؟ إنك لا تستطيع الحصول على تلك الأدوات من أسبانيا. وما يحدث نتيجة لذلك هو أن تأتى هذه الدول إلى إسرائيل لتخطب ودها أيا كان وضع العملية السلمية. إن كل شركة أمريكية للتكنولوجيا المتقدمة لديها فرع فى إسرائيل ـ شركة إنتل مثلاً انتهت من فورها من إقامة مصنع هناك لشذرات الكمبيوتر قيمته 1.5 مليار دولار ـ أو تمتلك جزءاً من شركة كمبيوتر إسرائيلية. واليابان التى كانت دائماً تنفر من إسرائيل خوفاً من رد الفعل العربى، أصبحت الآن ثانى أكبر مستثمر فى رأس المال المغامر فى إسرائيل، بعد الولايات المتحدة. فاليابان ضعيفة فى مجال تصميم البرمجيات وهى اليوم

تتخطف إنتاج شركات البرمجيات الإسرائيلية. وأرى فى ذلك بالذات شيئاً غريباً، لأننى عندما كنت مراسلاً لصحيفة ***نيويورك تايمز*** فى القدس فى منتصف الثمانينيات كانت السيارة اليابانية الوحيدة التى تستطيع شراءها فى إسرائيل هى السيارة دايهاتسو نصف النقل وسوبارو منخفضة المؤخرة، التى كانت تستطيع بيع سياراتها الجيدة حقيقة إلى العرب. انتهى كل ذلك. واليوم تستطيع شراء السيارة اليابانية الفاخرة ليكساس من إسرائيل، لأن إسرائيل من الناحية الاقتصادية أصبحت اليوم أكبر من المملكة العربية السعودية فى تصدير الطاقة. بمعنى أن تصدير إسرائيل للبرمجيات وشذرات الكمبيوتر وغيرها من ابتكارات التكنولوجيا المتقدمة يجعل منها دولة مصدرة لمصادر الطاقة لاقتصاد المعلومات فى أيامنا هذه، وكل الدول تريد هذه الطاقة، بصرف النظر عما تفعله إسرائيل فى الفلسطينيين، تماماً مثلما كانت تريد البترول فى السبعينيات، بصرف النظر عما يفعله العرب فى اليهود. إن ذلك له مغزاه الحقيقى فى الجغرافية السياسية. قال لى أحد الكتاب الاقتصاديين الإسرائيليين، «إذا كان عندك التكنولوجيا التى يريدها الناس، فليس هناك من يعبأ بما إذا كنت تقهر الفلسطينيين أم لا». ألق فقط نظرة على الأرقام. فى عام 1998 ، كان للصين 52 عالماً يجرون بحوثاً فى معهد وايزمان المعروف، والهند أيضاً كان لها 52 عالماً هناك. أى أن دولتين لم يكن لهما أن تقتربا من إسرائيل فى السبعينيات أصبحتا الآن تتحرقان شوقاً لإرسال علمائهما إلى هناك.

وثمة سبب آخر فى أن إسرائيل أقل ضعفاً أمام الضغوط الخفيفة هو أن صادراتها من المعرفة فى مجال التكنولوجيا المتقدمة تميل إلى أن تكون خفيفة للغاية وليس من السهل إيقافها. بعضها يصدر عن طريق مودم. كما أن استثمار التكنولوجيا المتقدمة فى إسرائيل هو إلى حد بعيد استثمار فى البشر، وقوة العقل، وليس استثماراً فى المصانع التى يمكن تدميرها بسهولة. كذلك لا تذهب الصادرات الإسرائيلية من

التكنولوجيا المتقدمة إلى جيرانها الذين يوجد توتر فى علاقاتها بهم، وإنما إلى أسواق بعيدة فى آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية. الواقع أن معظم شركات التكنولوجيا المتقدمة فى إسرائيل لا تبيع شيئاً تقريباً فى السوق الإسرائيلية أو السوق الشرق أوسطية، ومن ثم فهى غير ضعيفة أمام تقلبات السياسة فى المنطقة. وليس من قبيل الصدفة أن فندق تل أبيب هيلتون هو الذى قرر فى التسعينيات استخدام بار للسوشى وليس أى من المطاعم العربية. كذلك تجمع شركات التكنولوجيا المتقدمة الإسرائيلية معظم رأس مالها فى وول ستريت أو فى شركات رأس المال المغامر فى وادى السيليكون، ولا تعتمد على بورصة تل أبيب. وآخر الاتجاهات السائدة الآن هى أن تشترك شركات التكنولوجيا المتقدمة الإسرائيلية فى تجديد أماكن عملياتها مع فرع فى وادى السيليكون وفرع فى إسرائيل. انتبه، هناك شركة إسرائيلية تسيطر على نحو 50 فى المائة من سوق تأمين الإنترنت ضد انتشار الحريق لحماية المعلومات ولهذه الشركة مكتب وفرع للبحوث فى إسرائيل وتدفع بعض الضرائب هناك، ولكن لها فى الوقت نفسه مكتباً فى وادى السيليكون قريب من الأسواق. قالت لى إحدى معارفى من المحللين فى وول ستريت تغطى بتحليلاتها صناعة التكنولوجيا المتقدمة فى إسرائيل إنها تستغرق الآن فى الذهاب إلى كاليفورنيا لتغطية الشركات الإسرائيلية وقتاً أطول مما تستغرقه فى الذهاب إلى إسرائيل.

ورغم كل هذه الأسباب فإن إسرائيل أكثر ضعفاً بصورة أخرى. فلئن كانت إسرائيل تطور اقتصاد المعرفة فإن حركة العاملين فى مجال المعرفة كبيرة وهم يحبون الحياة فى أماكن لطيفة. وإذا قرر العاملون فى مجال المعرفة البارزون فى إسرائيل أن الأوضاع فيها وصلت إلى درجة لا تحتمل ـ بسبب الصراع الذى لا ينتهى أو النزاع الدينى ـ فإنهم سوف يرحلون، أو يخرجون بمزيد من عملياتهم بعيداً عن إسرائيل. ومثل هذا الوضع ما زال أمامه وقت طويل، غير أنه ليس بعيد الاحتمال. لقد ارتفع

مستوى المعيشة فى إسرائيل الآن إلى ما يقرب من مستوى المعيشة فى إنجلترا بعد أن وصل دخل الفرد فيها إلى 17 ألف دولار سنوياً. إن إسرائيل إحدى دول ماكدونالدز. ولو طلب أى رئيس لوزراء إسرائيل من الشباب الإسرائيلى الذهاب لإعادة احتلال أجزاء من الضفة الغربية أو غزة فى حرب اختيارية لا حرب للبقاء، فسوف يهرع كثيرون من الإسرائيليين العاملين فى مجال المعرفة إلى الخروج منها.

بلا شك، أنه إذا امتلك شخص ما ليس ملتحماً بالقطيع، مثل صدام حسين أو بعض الإرهابيين، سلاحاً نووياً وألقاه فوق إسرائيل فلا يهم حينئذ إذا كان اقتصادها يعتمد على التكنولوجيا المتقدمة أو المتخلفة. فما زالت القوة العسكرية لها أهميتها. ولكننى أعتقد أن الفجوة فى القوة غير العسكرية بين إسرائيل والعرب سوف تتسع أكثر وأكثر فى العقد القادم إذا تمكنت إسرائيل من تسوية الصراع الإسرائيلى الفلسطينى. ذلك إنه إذا كان كل ما بوسعك تقديمه للعالم هو اليد العاملة الرخيصة أو البترول، وهذا هو الحال تقريباً بالنسبة للدول العربية، فأنت مقيد بحجم قوة العمل لديك وبأسعار البترول. أما إذا كان لديك اقتصاد اختار الازدهار وأصبح قادراً على تجميع المعرفة ورأس المال والموارد من أنحاء العالم فلن تكون مقيداً بحجمك بعد الآن، وإسرائيل لم تعد بعد الآن مقيدة بحجمها. لقد كان هناك على مر التاريخ قوتان نهريتان فى الشرق الأوسط: مصر على ضفاف نهر النيل، والعراق على ضفاف نهرى دجلة والفرات. وفى اعتقادى أنه سيكون هناك فى القرن الحادى والعشرين قوة نهرية ثالثة هى إسرائيل على ضفاف نهر الأردن. ستكون إسرائيل هى قاطرة التكنولوجيا المتقدمة التى ستجذب معها الأردن والفلسطينيين. وقد ربطت بالفعل شركة سيمنز مصنعها بالقرب من حيفا، وهو مصنع سيمنز داتا كوميونيكيشن، وفريق من مهندسى النظم الفلسطينيين فى شركة سيمنز بمدينة رام الله بالضفة الغربية، بمقر شركة سيمنز فى ألمانيا. إنها مجرد بداية.

يفيدنا هذا المنظور العالمى فى توضيح موقف العرب المسلمين اليوم. فى نوفمبر عام 1997 ذهبت فى جولة لمنطقة الخليج. دعنى أقص عليك أربع قصص من هذه الجولة.

قصة رقم 1: فى أول توقف لى فى هذه الجولة فى الكويت وعندما كنت على وشك الذهاب إلى الفراش فى فندق شيراتون فى إحدى الليالى رن جرس التليفون. كانت المتحدثة سيدة كويتية شابة. قالت إنها تعمل فى وكالة الأنباء الكويتية (كونا)، وإنها كانت كثيراً ما تترجم مقالاتى وتود إجراء لقاء صحفى معى. أدهشتنى تلك المكالمة ـ صحفية كويتية تتصل بمراسل صحفى غربى فى فندقه فى الساعة العاشرة مساء. قلت لها إننى سوف أكون فى جولة فى حقول البترول فى اليوم التالى وإذا أرادت أن تصحبنى فى الطريق إليها فمرحباً بها، ولكن عليها مقابلتى فى بهو الفندق فى الساعة 7 صباحاً. وفى الساعة 7 صباحاً، كانت تقف هناك منتظرة. ووجهها مغطى بغلالة فى تحفظ. وثبت فيما بعد أنها امرأة شديدة الذكاء. سألتها ونحن فى الطريق إن كان لها أقرباء. قالت: «عندى أخ، تزوج مؤخراً من امرأة كويتية قابلها فى إحدى غرف الدردشة الكويتية على الإنترنت. أما ما لم تفصح عنه لى ولكنى اكتشفته فيما بعد، هو أن ذلك كان زواجاً مختلطاً. كانت إحدى الأسرتين تنتمى إلى المذهب السنى والأخرى تنتمى إلى المذهب الشيعى. ولكن الزوجين تقابلا عبر الإنترنت التى لا يؤخذ فيها بأى من العادات والقيود القديمة للمجتمع الكويتى، وعندما تقابلا وجهاً لوجه كان الحب من أول نظرة (أو من أول «بايت» كما قال أحدهم). وقد انزعج والدا الفتاة لدرجة كبيرة. ولكنها قالت لهما إنها سوف تتزوج، بموافقتهم أو بدونها، وأذعنا فى نهاية الأمر.

قالت الصحفية الكويتية الشابة، «كانت كعكة زفافهما على شكل جهاز كمبيوتر ولوحة المفاتيح الخاصة به».

قصة رقم 2: أثناء وجودي في الكويت ذهبت لزيارة إبراهيم س. دبدوب كبير مديري العموم بالبنك الوطني الكويتي وواحد من أكثر المصرفيين في الخليج احتراماً. عندما دخلت عليه مكتبه في مدينة الكويت كان يبدو عليه التوتر بوضوح. سألته: ما الخطب؟ وضح لي دبدوب الأمر قائلاً: إن شركة الخطوط الجوية الكويتية الشركة الوطنية في البلاد كانت قد طرحت مؤخراً عطاء لتمويل شراء طائرتين جديدتين لها من طراز بوينج. وكان حصول البنك في الماضي على مثل هذه الصفقة أمراً مفروغاً منه. حسناً، مضى موضحاً، إنه يبدو أن البنك قد فقد الصفقة في هذه المرة لصالح شيء يسمى «ناشيونال بانك في ماريلاند» تقدم بعرض لتمويل الصفقة يزيد بربع نقطة فقط عن السعر الأساسي، وهو سعر منخفض إلى درجة غير معقولة. شرح لي ما تفعله بعض الدول التي تصدر منتجاتها بأقل من التكاليف الفعلية للتصنيع لمجرد السيطرة على السوق. «هذه مباراة غير نظيفة على الإطلاق. بنك إقليمي أمريكي كبير، وليس حتى أحد البنوك العالمية، وغير معروف لكثيرين من الناس دخل المباراة مع البنوك المحلية الكويتية وفاز بالصفقة».

قصة رقم 3: توجهت من الكويت إلى قطر لحضور مؤتمر. وأثناء حزم حقائبي في حجرتي بفندق شيراتون استعداداً للرحيل رن جرس التليفون. كانت المتحدثة صحفية قطرية تبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً. لقد قرأت كتابي وتود أن تلتقي بي. (إنني لا أختلق ذلك ولكن زوجتي لا تصدق كلمة منه!) قلت لها: إنني في طريقي إلى الذهاب إلى المطار، ولكننا نستطيع الحديث إذا وافقت على مرافقتي في السيارة إلى المطار. وافقت على العرض. كانت شابة جميلة، واضحة

الذكاء، وتتحدث الإنجليزية بطلاقة. الواقع أن لغتها الإنجليزية كانت جيدة إلى درجة أنني سألتها إن كانت قد كتبت من قبل موضوعات صحفية بالإنجليزية، لأنها إذا كانت قد فعلت فإنها تستطيع العمل لصحيفة **نيويورك تايمز** أثناء مؤتمر القمة الاقتصادي القادم للشرق الأوسط. قالت: حسناً، أقول لك الحقيقة، إنني أكتب لموقع إخباري عن الخليج على الشبكة، وذلك دون علم الحكومة.

يا له من شيء مدهش. تخيل مدى ما اكتسبته امرأة عربية شابة من قوة بأن تقدم للعالم أخباراً عن بلادها عبر الإنترنت، وحكومة بلادها لا تعرف حتى بوجودها. إن ذلك لم يكن ليحدث قبل عشر سنوات فقط، ناهيك عن مائة سنة. ولكننا الآن في المستقبل. فاليوم هناك عدد من أنجح البرامج التليفزيونية العربية، وهناك أيضاً عدد من أكثر الصحف العربية انتشاراً تقوم شركات خاصة ببثها وطبعها في أوروبا، ولا تخضع الآن لسيطرة أي حكومة محلية.

بيد أنه سوف يحدث غزو آخر صامت في الشرق الأوسط -هو غزو المعلومات ورأس المال الخاص عن طريق نظام العولمة الجديد. لقد ظل العالم العربي طوال سنوات محاطاً بالأسوار ضد ثورات المعلومات والأسواق المالية التي أعادت تشكيل آسيا وأجزاء أخرى من العالم. وقد أتاح البترول للعرب والإيرانيين الإفلات من كثير من الضغوط من أجل تخفيض حجم اقتصاداتها وتجديدها وخصخصتها. وسمح لها ببناء أسوار ضد هذه الضغوط، والاحتفاظ بهذه الأسوار حتى بعد انهيار سور برلين. لقد انتهى كل ذلك. إن الطريقة التي سوف تستجيب بها المجتمعات العربية لهذا الغزو من رأس المال الخاص والمعلومات -سواء كان بالتكيف له أو تبنيه أو مقاومته أو رفضه- سوف

يكون لها الأثر الجغرافي السياسي لصدام حسين في تلك المنطقة. فإذا كنت لا ترى هذا الغزو الآخر، فإنك لا ترى الشرق الأوسط اليوم، وإذا أنت لم تأخذ هذا الغزو الآخر في الحسبان فلن تستطيع وضع الاستراتيجية السليمة عن الشرق الأوسط الآن. أقولها نصيحة لك، لن يكون هناك وقف لإطلاق النار مع هذا الغزو الصامت.

كنت ذات مرة أسير في أحد شوارع طهران ومعي مندوبة ***نيويورك تايمز*** هناك، سيدة إيرانية تبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً ذات ثقافة غربية. كنا نتحدث عن الأثر الذي كان يتركه البترول على السياسة في إيران وبصفة خاصة أنه ساعد آيات الله على الاستمرار في السلطة لمدة أطول مما يجب؛ لأن عائدات البترول كانت تعوض الأداء الاقتصادي الضعيف لإيران بصفة عامة في ظل نظام الحكم الإسلامي فلم يكن البترول مجرد باعث للحماس الديني وإنما كان السلاح الحقيقي الخفي في أيدي آيات الله. إذ إنه بدون شريان الحياة المالي الذي كان يوفره البترول لآيات الله لكان عليهم فتح إيران أكثر على العالم وارتداء قميص القيد الذهبي؛ وذلك لأن اقتصادها ببساطة لا يستطيع مسايرة النمو السكاني بدون استثمارات أجنبية هائلة. لقد قالت هذه السيدة الإيرانية أثناء حديثنا في هذا الموضوع شيئاً لن أنساه مطلقاً. قالت عن إيران: «لو لم يكن لدينا البترول لأصبحنا مثل اليابان تماماً».

وعدتها شيئًا واحداً. سوف تنضب في يوم ما آبار البترول الإيرانية، أو يجد العالم مصدراً بديلاً للطاقة، وعندما يحدث ذلك سوف يضطر آيات الله حينئذ إلى ارتداء قميص القيد الذهبي وإلا فالإطاحة بحكمهم. قلت لها: «أبلغيني عندما

تبدأ ثروة إيران البترولية في التضاؤل، وسوف أخبرك باليوم الذي سيظهر فيه آية الله جورباتشوف على مسرح الأحداث هنا».

ويظهر أيضاً رونالد ماكدونالدز.

أؤكد لكم أن الناس لا يرى كل منهم العالم بعد بهذا المنظور العولمي. كنت ذات مرة في زيارة للمغرب في عام 1996 أتناول طعام العشاء مع دبلوماسي أمريكي صديق لي، كنت قد قابلته أول مرة في موسكو في الثمانينات. وكان يشرح لي كيف اختلفت وظيفته عن أيام الحرب الباردة، وكيف أن القوى التي كانت تشكل الدولة التي يعمل بها، والشؤون العالمية بوجه عام، أصبحت الآن شديدة الغموض، مقارنة بتصادم القوة الذي لا ينتهي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. اعترف لي قائلاً: «عندما بدأت العمل في إدارة الخدمة الأجنبية، كانت عبارة عن مؤسسة تعرف فيها مكان قائمي المرمى. وتحصل على تدريبك اللغوي، ثم تبدأ مشاركتك في المباراة فيرسلونك إلى سفارة في الخارج. كان الأمر أشبه بلاعب يخرج من الملعب ويحل محله لاعب آخر، تعرف أنت كل فنون اللعبة وتعرف أسرارها وتعرف خط تسجيل الأهداف. أما الآن فإننا أصبحنا نحتشد في عجالة ونقول كل للآخر: إننا ذاهبون فما هو نوع الكرة التي سنلعب بها بل ومن هم المشاهدون على أية حال؟ يجيء إليك سفير بلادك ويقول لك: ماذا ستفعل لي؟ وأنت لست واثقاً من شيء. وهكذا تبدأ في التساؤل بينك وبين نفسك، لماذا أنا هنا؟ إن مجرد حقيقة أنه كان من الممكن لحكومة الولايات المتحدة أن توقف أعمالها (في عام 1996) ولم يكن ذلك ليؤثر في شيء كان بمثابة جرس الإنذار لكثيرين من الناس... وكلما استمر بقائي هنا زاد شعوري بأنني في ذلك

المشهد من رواية عناقيد الغضب عندما جاء مندوب البنك للاستيلاء على بيت القروي لصالح المستأجر ويهدد القرويُّ بقتل مندوب البنك، ولكن الأخير يقول له: «إن الخطأ ليس خطأه، وإنه مجرد موظف في مؤسسة كبرى. يسأله القروي: إذن على من تقع مسؤولية كل هذا؟ من الذي سنصوب نحوه البندقية لنقتله؟ ويرد مندوب النبك قائلاً: لا أدري. ربما ليس هناك شخص محدد تستطيع أن تقتله».

كثيراً ما يتردد على سمعك هذه الأيام ما كان يشكو منه صديقي هذا في دوائر العاملين في السياسة الخارجية. لماذا هو مرتبك إلى هذا الحد؟ لأن نظام الحرب الباردة كان عبارة عن عالم منقسم، وكل فرد فيه كان يعرف كيف يقيس القوة، ويقيم التهديدات ووسائل الردع والاستمالة، ويضع الاستراتيجيات على هذا الأساس. ورغم أنه كان هناك الكثير من الخلافات إزاء ما يجب أن تكون عليه هذه الاستراتيجية -الاحتواء المشدد أو الوفاق أو الرقابة على التسلح- فقد كان يبدو أن الجميع يشتركون في لغة ومنظور واحد إزاء عناصر هذه الاستراتيجية. كان هناك اتفاق على نطاق واسع بأن الحرب الباردة كانت نظاماً تقليدياً لتوازن القوى أحاط بالدول والجيوش والأسلحة النووية. وكان عمل رجل الاستراتيجية يتمثل في خلط هذه الأجزاء وتركيبها في أشكال مختلفة من أجل إدارة هذا التقسيم للعالم أو تثبيته أو القضاء عليه.

بيد أن الجغرافية السياسية لحقبة العولمة أكثر تعقيداً من ذلك، فما زال عليك الاهتمام بالتهديدات القادمة من الدول الأم المنشقة عليك مثل: العراق أو إيران أو كوريا الشمالية. ولكن عليك أيضاً الاهتمام بصورة أكبر بالتهديدات القادمة من

أولئك الذين ترتبط بهم - عبر الإنترنت، وعن طريق الأسواق، والأفراد الذين اكتسبوا قوة عظمى ولديهم القدرة على تهديدك في عقر دارك مباشرة. وليس من السهل دائماً رؤية هذه التهديدات، ولا يسهل بناء وسائل الردع، ولم تعد الموارد متوافرة بسهولة، ومع ذلك فإن لديها قدرة هائلة على إشاعة عدم الاستقرار أو التأثير في سلوك الدول.

لقد اتسم تكيف مجتمع السياسة الخارجية مع هذا النظام بالبطء لأسباب متعددة. إذ يرجع ذلك من ناحية إلى أنه ما زال حديثاً جداً وتجاربنا معه ما زالت محدودة للغاية. ويرجع من ناحية أخرى إلى أن الناس الذين ظلوا طوال حياتهم خبراء في شيء واحد فقط -هو الحرب الباردة- لا يحبون أن يقال لهم إن خبرتهم هذه لن تذهب بهم بعيداً في تحليل الجغرافية السياسية لهذا النظام الجديد، ومن ثم فإنهم يحاولون أن يصرفوا النظر عنه. وربما يرجع من جهة ثالثة إلى الطبيعة غير البطولية لكثير من قضايا السياسة الخارجية التي تبرز في ذلك النظام. إنها تفتقر إلى تلك الدراما والعاطفة التي ارتبطت ببناء الدولة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وحسمت الحدود التي يجب أن تتمتع بها كل دولة ومن يجب أن يعيش في داخل هذه الحدود. لقد أصبح عدد القضايا الكبرى المرتبطة بسياسات تحديد الهوية وتقرير المصير أقل وأقل هذه الأيام. ولا شك، ما زال هناك دراما هائلة لحقوق الإنسان في الصين. وهناك سياسات تحديد الهوية في البوسنة، ورواندا، وكوسوفو، وعملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية، ولكن عدد هذه القضايا التي كانت تسود حقبتي ما بعد الاستعمار والحرب الباردة تضاءل إلى حد بعيد. أما القضايا الكبرى في إطار نظام العولمة اليوم فإنها تميل إلى أن تكون متعلقة بعرقلة

العدالة - مثل من يحصل على ماذا في داخل تلك الحدود التي سيطرت عليها الدول الأمم.

(ربما يثبت أن حقبة العولمة هي عصر الحروب الأهلية، وليست الحروب بين الدول. وفي هذه الحروب الأهلية الجديدة، لن تكون خطوط المعركة بين الموالين للأمريكيين والموالين للسوفيت، أو حتى بين اليسار التقليدي واليمين التقليدي. كلا، سوف تكون هذه الحروب الأهلية بين الموالية لأنصار العولمة والمناهضين لها، بين أنصار العولمة في كل مجتمع والمحليين في كل مجتمع، بين أولئك الذين يستفيدون من التغيير من هذا النظام الجديد، وأولئك الذين يشعرون بأن هذا النظام أغفلهم. لو نظرت إلى إيران اليوم، والصين، وإندونيسيا، والبرازيل، والهند، وروسيا، فسوف ترى توترات هائلة بين أولئك الذين يمتلكون المهارات والقدرة والموارد والميل إلى الاستفادة من مزايا نظام العولمة وأولئك الذين لا يمتلكون ذلك. وهذا هو السبب في أنه عندما يسألني الناس عن الوظيفة التي أكسب بها عيشي، أجيبهم أحياناً: أنا كاتب عمود في الشؤون الخارجية بصحيفة ***نيويورك تايمز*** وأغطي الحروب بين المنتصرين والخاسرين داخل الدول. ذلك أنه يبدو أن هذه الحروب ونتائجها -سواء كانت في إندونيسيا أو روسيا أو البرازيل- هي التي تعيد تشكيل العلاقات الدولية هذه الأيام أكثر بكثير من الحروب بين الدول).

وفي النهاية، لقد كانت عملية التكيف لرؤية النظام السائد اليوم بطيئة؛ لأن هناك إلى حد ما نوعاً من الحساسية داخل أجزاء من مؤسسة السياسة الخارجية تجاه إخضاع الأسواق والمال للتحليل. إذ يبدو الأمر وكأن الحديث عن المال والأسواق شيء غير مناسب أو غير رجولي عند تحليل الجغرافية السياسية. وفي

عام 1998 وجدت نفسي أكثر من مرة أدخل في مناقشات مع محللين جادين للسياسة الخارجية يشتكون من أن العالم يمر بإحدى تلك المراحل المملة وغير المترابطة التي يستحيل فيها حقيقة التفكير الاستراتيجي الشامل. وكان ردي دائماً ما معناه: إنكم تتحدثون عن هذه اللحظة وكأنها نوع من الوقت الممل بالنسبة للاستراتيجيين. ولكن في الفترة ما بين منتصف شهر أغسطس واليوم تفكك تقريباً النظام الاقتصادي العالمي الذي نعرفه بأسره، بدءاً بالعجز الروسي، وذلك شيء من شأنه زعزعة استقرار أي قوة صغيرة كانت أم كبيرة في العالم وهناك قدر كبير من التفكير الاستراتيجي والتنسيق يجري حالياً لمنع ذلك من الحدوث. والاختلاف الوحيد هو أن هذا التفكير الاستراتيجي يكون لأناس لا يرتبطون عادة بالاستراتيجية المتعمقة. وأسماؤهم هي: جرينسبان، وروبين، وسومرز. ولكن لا تعتقد أنه لمجرد أنهم هم الذين يفكرون فكراً استراتيجياً، وليس وزير الخارجية أو وزير الدفاع، فلا يتطلب الأمر منهم رؤية عالمية ولا إقامة صروح عالمية ستؤدي بالضرورة إلى تشكيل العلاقة بين الدول، وتحقيق الاستقرا بينها كما نأمل، وإن لم تكن تلك هي الاستراتيجية الشاملة فلست أدري ما ذا تكون إذن: وإذا لم تكن تلك سياسة خارجية فلست أدري ما ذا تكون إذن.

إن الطريق الوحيد لكي تكون مؤثراً، سواء كنت صحفياً يحاول تفسير هذا العالم أو كنت من رجال الاستراتيجية وتحاول إعادة تشكيله، هو أن تقترب منه من وجهة نظر رجل يناصر العولمة. ويعني ذلك دائماً التحرك جيئة وذهاباً ما بين المنظور الاقتصادي والأمن القومي والمنظور السياسي والثقافي والبيئي والتكنولوجي - محاولاً أن تعطي ثقلاً مختلفاً لكل منها في السياقات المختلفة.

ما زالت عناصر الشرف والخوف والمصلحة تستحث الدول الأم حتى يومنا هذا، وفي سعي الدول وراء هذه الأشياء سوف ينحني بعضها أمام القيود والضغوط والحوافز الجديدة لنظام العولمة، وسوف تختبر بعضها هذه القيود ثم تتراجع، وهناك دول أخرى لن تفعل سوى تجاهل هذه القيود والانطلاق من خلالها مباشرة. وليست تنبؤات إزاء النتيجة النهائية، وكل ما أتنبأ به هو أن التفاعل بين دوافع السياسة الخارجية للزمن القديم وهذا النظام الجديد المعقد هي التي ستمثل دراما العلاقات الدولية في عصر العولمة.

كتبت ذات مرة من أجل التأكيد على هذه النقطة عموداً حاولت فيه تخيل كيف تسير مناقشة يحاول فيها وزير الخارجية المهذب وارين كريستوفر شرح نظام العولمة وتأثيره على الجغرافية السياسية لزعيم مثل الرئيس السوري حافظ الأسد، وهو رجل من عصر الحرب الباردة وشجرة الزيتون، وقد أجريت على ذلك الحوار بعض التعديلات، وإليك ما أظن أنه قد يكون عليه الحوار اليوم:

وارين كريستوفر: حافظ - هل تسمح لي أن أناديك حافظ؟ حافظ، أنت رجل من الماضي. إنك ما زلت تعيش في الحرب الباردة. أعلم أنك لم تسافر خارج الشرق الأوسط إلا مرات قليلة، لذلك دعني أقص عليك قليلاً عن العالم الجديد. يا حافظ، لقد ظلت سوريا طوال سنوات تبحث هل تتيح لشعبها الحصول على آلات الفاكس. ثم مكثت تبحث طوال أربع سنوات هل تسمح لهم جميعاً باستخدام الإنترنت. هذا شيء مؤسف. وهذا هو السبب في أن دخل الفرد عندك لا يتعدى 1.200 دولار سنوياً.

وتستطيع بصعوبة تصنيع مصباح كهربائي. منذ عام 1994 بلغت صادرات

القطاع الخاص عندك بالكاد مليار دولار سنوياً. ولدينا عشرات الشركات التي لم نسمع حتى عنها تصل قيمة صادراتها إلى مليار دولار سنوياً. والآن يا حافظ، إن السبب الذي دعاني إلى أن أقول لك ذلك كله هو أنه في أثناء الحرب الباردة لم يكن من المهم إذا كانت سوريا تصنع شذرات الكمبيوتر أم شرائح البطاطس، سيارة ليكساس أم مصباحاً كهربائياً، لأنه كان بوسعك أن تحيا حياة طيبة باستنزاف المعونات من القوى الكبرى ومساعدة جيرانك، نعم أراك تبتسم يا حافظ. أنت تعلم أن ذلك صحيح، إنني أرفع قبعتي تحية لك، ولكن يا حافظ هذه الأيام ولت وانتهت، وإمداداتك أنت شخصياً من البترول آخذة في النفاذ، وسوف تلجأ إلى استيراده بالكامل في غضون عشر سنوات، كما أن لديك أعلى معدل مواليد في الشرق الأوسط. تلك إذن ليس بالصورة الجميلة، يا حافظ. والأسوأ من ذلك أنه أصبح هناك هندسة عالمية جديدة. لم يعد هناك قوتان عظميان لتثير إحداهما ضد الأخرى. والروس مهزومون تماماً ونحن ندير ميزانية متوازنة. لقد أصبح يوجد الآن، ياحافظ، الأسواق العظمى بدلاً من القوى العظمى. ودعني أقولها لك يا حافظ، إنك لن تستطيع إثارة بورصة طوكيو ضد بورصة فرانكفورت ضد بورصة سنغافورة ضد بورصة وول ستريت، لا، لا، لا يا حافظ. هم الذين سيتلاعبون بك. سوف يثيرون سوريا ضد المكسيك ضد البرازيل ضد تايلاند. وسوف يحصل من يقومون بالإصلاحات الضرورية على جائزتهم على صورة رأسمال استثماري من أسواق السوبر ماركت. أما من يمتنعون عن إجراء هذه الإصلاحات فسوف يتركون مثخنين بالجراح على الطريق السريع للاستثمار العالمي. وأنت يا حافظ قدر أن تُقتل على الطريق.

على فكرة، يا حافظ، لقد لاحظت أنه قد حدثت مؤخراً مناوشات على الحدود بينك وبين تركيا، ولكننى لاحظت أيضاً أنك مستميت فى اجتناب حرب حقيقية مع تركيا. وكلانا يعرف السبب، أليس كذلك ياحافظ؟ لأن الاتحاد السوفيتى لم يعد له وجود وأنت تعلم أن أى أسلحة ستفقدها فى الحرب مع تركيا أو مع إسرائيل أو مع أى دولة أخرى، هى أسلحة سوف تأتى بغيرها على حسابك أنت وحدك وسوف تدفعها نقداً. حافظ! أرنى هذا المال الذى لديك! لم يعد هناك اتحاد سوفيتى لكى يعطيك أسلحة جديدة أو يقايض عليها معك مقابل النفاية التى تنتجها مصانعك المملوكة للدولة. ولم يعد هناك دول عربية منتجة للبترول لتشترى هذه الأسلحة لحسابك، لأنها أصبحت هى أيضاً مفلسة. وهكذا ترى أنك فى موقف حرج، يا حافظ. إننى أقول دائماً إنه ليس هناك ما يكبح جماح زعيم دولة نامية أفضل من أن يُقال له إن عليه أن يدفع نقداً ثمن أسلحته، ولا سيما فى هذا اليوم وهذا العصر، الذى يمكن أن تصل فيه تكلفة طائرة مقاتلة متقدمة واحدة إلى 50 مليون دولار. ماذا أقول لك، يا حافظ، سوف أترك لك تليفونى الخلوى المتصل بالقمر الصناعى. إنه أحدث إنتاج لشركة موتورولا، متصل بنظام قمرهم الصناعى إريديوم Iridium الجديد. تستطيع الاتصال بى فى واشنطن فى ثوان. فأنا، ياحافظ، لا أعتزم القيام بمزيد من الزيارات الآن. إن دروس التاريخ عن الصليبيين التى كنت تسمعها لى طوال تسع ساعات فى كل زيارة لك ليست استغلالاً جيداً لوقتى. لماذا لا تكتبها رقمياً وتضعها على قرص مدمج تسلمها فقط لكل وزير خارجية أمريكى يأتيك زائراً أو تضعها على موقع فى الشبكة حتى يستطيع العاملون عندى تفريغها. أنت تعلم، ياحافظ أن هناك أماكن أخرى مهمة علىّ أن أزورها: المكسيك، تايلاند، الصين. قد يكون السؤال عمن سيحكم مرتفعات الجولان سؤالاً مهماً، ولكنه غير مهم على الإطلاق بالنسبة للمصالح الأمريكية اليوم. ولكن، اسمع. إننا ما زلنا نحب أن نسمع أخبارك. فإذا كنت على استعداد للعمل

معنا، فما عليك إلا أن تتصل بالرقم 4910-647-202-001 ثم تضغط على الزر أرسل SEND، ثم تسأل عن كريس. وإلا، فما عليك يا حافظ إلا أن تغرب عن وجهى».

وإليك ما أعتقد أنه سيكون رد الأسد:

الأسد: «كريس ـ هل تسمح لى أن أناديك كريس؟ كريس آمل أن تكون مستريحاً فى ذلك المقعد الوثير. لقد غطس فيه كثيرون من وزراء الخارجية الأمريكيين قبلك. كان كيسنجر يحب أن يمتعنى بقصص عن مواعيده الغرامية مع جيل سانت جونز ـ ياله من زير نساء هنرى هذا. وكان بيكر أيضاً كثيراً ما يغلق مفكرته بعصبية ويقول لى إننى إذا لم أقبل بشروطه الأخيرة فسوف يرحل عن دمشق ولا يعود إليها مطلقاً. آه، ولكنهم يعودون دائماً. أليس كذلك ياكريس؟ وكذلك أنت. لقد أتيت إلى هنا حتى الآن اثنتين وعشرين مرة. ولم تذهب إلى المكسيك إلا مرة واحدة. إننى سعيد أن أراك تضع أولوياتك على نحو سليم. والآن، أنت تقول لى يا كريس الكثير عن العالم خارج سوريا. ولكن دعنى أنا أقُلْ لك عن الجوار. ربما تكون السياسة والعاطفة قد استسلمت لسوق الأوراق المالية فى أمريكا، ولكن ذلك لم يحدث فى أزقة دمشق. هنا، ما زالت الروابط القبلية، وليست روابط الشركات، هى الحاكمة اليوم. هنا مازالت القبضة الحديدية للقبيلة الحاكمة هى التى تسيطر على السياسة وليس اليد الخفية للسوق. إننا نعيش هنا فى عصر شجرة الزيتون ياكريس وليس فى عصر السيارة ليكساس. لقد جئت أنا من قبيلة أقلية فى سوريا، العلويين. وذلك يعنى أننى إذا أظهرت أى بادرة ضعف فإن الأغلبية الإسلامية هنا سوف تسلخنى حيا وتترك جسدى جريحاً على الطريق. إننى لا أتكلم هنا مجازاً. يا كريس. هل رأيت من قبل رجلاً يُسلخ حيا؟ أننى أفكر فى ذلك كل صباح، يا كريس ـ وليس فى موقع الأمازون على الشبكة، إننى أعيش هنا فى غابة حقيقية، وليست نسخة تخيلية من فنون الكمبيوتر. وهذا هو السبب فى أننى قد أكون فقيراً، ولكننى لست ضعيفاً. إنهم يقدرون الاستقرار

الذى توفره قبضتى الحديدية. إن لدينا هنا مثلاً عربياً يقول: 'مائة سنة طغيان أفضل من يوم واحد من الفوضى'. صحيح أنه لا يوجد لدينا ذلك الذى تطلقون عليه ماذا، ماكدونالدز. كما أن الدخل السنوى للفرد عندنا ليس مرتفعاً مثل إسرائيل. ولكن عملتنا ثابتة، ولا أحد يموت جوعاً أو ينام على الأرصفة، وما زالت الروابط الأسرية قوية ولم يطأنا قطيعك الإلكترونى وهو يفر مذعوراً. إننا نعيش هنا يا كريس فى العالم البطىء وليس فى العالم السريع. إننى قادر على الصبر. فهل يبدو شعبى وقد نفد صبره ياكريس؟ كلا بلا شك. لقد فزت فى الانتخابات الأخيرة بنسبة 99.7 فى المائة ياكريس. وجاءنى بعدها المساعدون وقالوا: سيدى الرئيس لقد فزت بنسبة 99.7 فى المائة. وهذا يعنى أن0.3 فى المائة فقط من الشعب لم يصوتوا لصالحك. فماذا تريد بعد ذلك؟ وقلت أنا لهم «أسماءهم».

«ها، ها، ها!»

«كلا يا كريس. إننى أستطيع تحمل الصبر. سوف أحقق السلام مع اليهود بطريقة تجعل منى الزعيم العربى الوحيد الذى عرف كيف يحقق السلام مع الكرامة ـ الذى لم يتذلل مثلما فعل عرفات والسادات. لن أكون السادات الآخر. إننى أعتزم أن أكون أفضل من السادات. أعتزم أن أعطى للإسرائيليين أقل وأحصل على أكثر. فهذه هى الطريقة الوحيدة التى أستطيع أن أحمى بها نفسى من الأصوليين وخصومى فى الداخل وأحتفظ بوضع الزعامة العربية التى ستأتى لسوريا دائماً بأموال من جهة ما. وإذا كان ذلك يعنى أنه يتعين علىّ استغلال جيرانى المقربين فى لبنان فى استنزاف دم الإسرائيليين، فليست هناك مشكلة. إنها جيرة سيئة ياكريس، والإسرائيليون قد أصبحوا واهنين. لقد أفرطوا فى أكل شطائر كوشير بيج ماك من ماكدونالدز. إن كل هؤلاء الصبية الإسرائيليين الذين يأتون للقتال فى لبنان يحملون معهم تليفوناتهم الخلوية حتى يتسنى لهم الاتصال بأمهاتهم اليهوديات كل ليلة. يا لهم من صبية صغار طيبين. أتظن أننا لم نلحظ ذلك؟

«ولذلك فإذا كنت تود، ياكريس، التوصل إلى اتفاق بينى وبين اليهود حول مرتفعات الجولان ،فعليك أن تدفع ثمنها بعملتى. إننى أبداً لن أسقط فى جحرك. ولكننى أشعر بالقلق ياكريس. فمع كثرة ما شهدته من وزراء خارجية أمريكيين يجلسون على هذا الكرسى الوثير لم أشهد فقط نهاية الحرب الباردة، وإنما أيضاً نهاية أمريكا كقوة عظمى. فمن موقعى هذا أستطيع أن أرى أننا انتقلنا من عالم القوتين العظميين إلى عالم القوة العظمى الوحيدة إلى عالم بدون قوة عظمى على الإطلاق. إنك تأتى إلى هنا بجيوب خاوية وقبضة مطاطية، ياكريس. وقد يكون من الأفضل أن أذهب للتفاوض مع شركة ميريل لينش. فهم على الأقل ينفذون تهديداتهم. أنت أيضاً تجىء هنا ولست على استعداد لفرض أى قيود على الإسرائيليين، لأن إدارتك وصل بها الضعف إلى حد أنها تخشى إغضاب ولو حتى صوت انتخابى يهودى واحد. انظر إلى الإسرائيليين. إنهم ما زالوا ماضين فى بناء المستوطنات كالمجانين فى الضفة الغربية ولم تستطيعوا أن تنبسوا ببنت شفة. ولا حتى ببنت شفة يا كريس. إن ما يتعلمه أى رئيس لسوريا هو كيف يشم رائحة الضعف، وأنا أشمها فى أنحاء أمريكا الآن.

«أتعلم ما الذى يضايقنى حقيقة من الأمريكيين ـ إنكم تريدون تحقيق كل شئ بالطريقتين المتناقضتين. أنتم تريدون إلقاء المحاضرات على الجميع عن قيمكم، وعن الحرية والتحرر، ولكن عندما تقف هذه القيم فى طريق مصالحكم السياسية والاقتصادية فإنكم تنسونها تماماً. لذلك، وفر علىّ محاضرات القيم ياكريس. أنت الشخص الذى يجب عليه أن يقرر، هل تريدون أن تكونوا قوة عظمى تمثل القيم العليا التى تؤمنون بها أو أنك تتجول مثل البائع الذى يمثل أسواق السوبر ماركت عندك. عليك أن تحزم أمرك. وحتى يحدث ذلك، اغرب عن وجهى. وبالمناسبة يا كريس، أعيد إليك تليفونك الخلوى. فلست بحاجة إلى الاتصال بأحد خارج سوريا.

«أوه، على فكرة، كن حذراً وأنت تضغط على الزر «إرسل SEND»، فلن تعرف ما الذى يمكن أن يحدث...».

الفصل الحادى عشر

رجــل الدمــار

7. تُرجمت جملة بيبسى «تعال وانتعش مع جيل بيبسى» إلى اللغة الصينية بالعبارة «بيبسى تبعث أسلافك أحياء من قبورهم».

8. تُرجم شعار دجاج فرانك بيردو «إن طهى دجاجة طرية يحتاج إلى رجل قوى» إلى الإسبانية بالعبارة «إن إثارة عاطفة الدجاجة يحتاج إلى رجل فحل».

9. كان اسم الكوكاكولا يقرأ فى البداية فى الصين «كى-كوو-كى-لا ke-kou-ke-la» التى تعنى بالصينية اقضم الشرغوف (الضفدعة) المصنوعة من الشمع» أو «أنثى الحصان المحشوة بالشمع» بحسب اللهجة. فأجرت شركة كوكا بحثاً على 40 ألف حرف صينى للعثور على المثيل الصوتى للمقاطع «كو-كوو-كو- لا Ko- Kou- Ko-Le» التى تترجم بمعنى «مذاق السعادة».

10. حينما كان ممثلو شركة باركر بن للأقلام يسوّقون القلم ذا الرأس الدوارة فى المكسيك، كان من المفترض أن تقرأ إعلاناته على النحو التالى، «إنه لن يجعل الحبر يتسرب فى جيبك ويشعرك بالإحراج». ولكن خطأ فى الترجمة جعلها تقرأ فى الإعلانات على أنها، «إنها لن تجعل الحبر يتسرب فى جيبك ويجعلك حامل (حبلى)».

ـ جزء من قائمة من أكبر عشرة أخطاء فى التسويق العالمى،

نشرته صحيفة ساراسوتا هيرالد تريبيون

فى 19 يناير 1998.

فى عام 1993، اشترك سيلفيستر ستالونى وويزلى سنايبس فى بطولة فيلم غير مشهور، ويصعب تذكره، ولكنه مثير اسمه **رجل الدمار** *Demolition Man*. تقع أحداث الفيلم فى عام 2032، عندما تسيطر العولمة تماماً على الحياة فى أمريكا ويُحظر قانوناً، القسم، أو التدخين، أو استخدام الملح، أو أن تكون فقيراً، أو تبادل السوائل، أو استخدام الخشونة والفظاظة، أو تعاطى الكحوليات، أو إنجاب أطفال بدون ترخيص. يخرج المجرم العتيد سيمون فينيكس (سنايبس) من سجن التجميد العميق الذى ظل به لمدة ثلاثين عاماً، وفيه يتجمد النزلاء على الفور باستخدام تكنولوجيا التبريد. وعندما يخرج من هذا السجن يجد أن كاليفورنيا الجنوبية هادئة ومسالمة وخالية من الجريمة وقد أصبحت ثمرة ناضجة ليقطفها أحد رجال العصابات الأشداء مثله. وبسرعة اكتشف المسئولون المحليون، الذين لم يعتادوا على وجود الجريمة، أنهم بحاجة إلى رجل شرطة من طراز قديم للتصدى للمجرم من الطراز القديم. ومن ثم يذيبون تجميد جون سبارتان (ستالونى)، الذى كان بدوره يقضى عقوبة كمكعب للثلج فى سجن التجميد نفسه بسبب مواجهة دموية سابقة مع فينيكس، قتل فيها الكثيرون من المدنيين الأبرياء. ولكن قصة هذا الفيلم لا تعنينا. أما أكثر ما يلتصق بالذاكرة عن هذا الفيلم فهو أنه لا يوجد فى ولاية كاليفورنيا الجنوبية المستقبلية والعولمية سوى مطعم واحد فقط، هو تاكو بيل.

يكتشف ستالونى هذه الحقيقة، بعد أن يزول عنه التجميد، عندما يدعوه مسئول محلى على مأدبة عشاء تكريماً له لأن ستالونى أنقذ حياته. ويصاب ستالونى بصدمة عندما يكتشف أن حفل العشاء سوف يقام فى مطعم تاكو بيل. ويتبادل الحوار التالى مع شرطية زميلة له، وهو الدور الذى تلعبه ساندرا بولوك، وهما فى طريقهما لحضور حفل العشاء:

ستالونى: إنه يقول إننى أنقذت حياته، وأنا لست واثقاً حتى من أننى فعلت ذلك، وأن مكافأتى هى العشاء والرقص فى مطعم تاكو بيل؟ أعنى، صحيح أننى أحب الطعام المكسيكى، ولكن ليس تاكوبيل».

بولوك: لهجتك تنم عن السخرية، ولكنك لا تدرك أن تاكو بيل هو المطعم الوحيد الذى نجا من حروب الامتيازات».

ستالونى: وماذا بعد؟

بولوك: ولهذا، ترى أن كل المطاعم الموجودة الآن هى تاكو بيل.

ستالونى: «مستحيل».

بعد ذلك، يسير الاثنان إلى داخل هذا المطعم الخيالى، تاكو بيل، حيث يغنى عازف البيانو الذى يشبه بارى مانيلو أغنية الإعلانات للخضروات المحفوظة جرين چيانت:

أشياء طيبة من الحديقة
الحديقة فى الوادى
وادى جرين چيانت الجميل.

ذلك أنه بحلول عام 2032 لن يبق من الأغانى سوى أغانى الإعلانات. وبعد أن تجلس المجموعة إلى مائدة العشاء، يطلب ستالونى من أحدهم أن يمرر له الملاحة.

بولوك: «الملح مضرّ بك، ومن ثم فهو غير قانونى».

ترى هوليود، أن ذلك هو ما ستبدو عليه أمريكا عندما تحكم العولمة الأرض، حين تتجانس كل الثقافات والبيئات، وتصبح نمطية وصحية. إنه تصوير خيالى علمى للمستقبل يبعث القشعريرة فى النفس، ولكن أكثر ما يقلقنى هو أنه ربما يكون فيه أكثر من مجرد بذرة من الحقيقة، بل وملح أيضاً.

عندما سافرت إلى الدوحة عاصمة قطر فى خريف عام 1997، أقمت فى فندق شيراتون الذى يقع عند طرف كورنيش الدوحة تماماً، ويطل على الخليج العربى بمياهه الخضراء الضاربة إلى الزرقة. وكورنيش الدوحة هذا طريق للمشى على ساحل البحر يبلغ طوله عشرة أميال، ممهد بالحجارة البيضاء وتتخلله الحدائق وأشجار النخيل. وتتنزه النساء القطريات بزيهن القطرى، وبعضهن يرتدين أقنعة سوداء لا تظهر منها سوى أعينهن رائحات غاديات على هذا الكورنيش. والرجال القطريون يرافقونهن ويحرسونهن، فى حين تدفع الأمهات بعربات أطفالهن، وتسير العائلة على مهل بالقرب منهن، وجميعهم يستمتعون بالنسمات الباردة الآتية من الخليج. فى أول صباح لى فى الدوحة، خرجت من الفندق للتمشية على الكورنيش، وقلت فى نفسى والألوان تتسرب إلى عقلى ومشاعرى، وباقة ألوان الناس واللوحة بأسرها: «لقد صمم هذا المكان حقيقة بذوق رفيع. ولو كان هناك ثقافة ومنظر يعبران بأصالة عن الخليج العربى، لكان هذا المكان». وكلما مشيت زاد استمتاعى - إلى أن وجدته فجأة أمامى وأنا أدور حول أحد الأركان، مثل بقعة هائلة فى الأفق:

تاكو بيل.

نعم هناك تماماً، فى وسط الكورنيش القطرى، تاكو بيل - وصورة ارتفاعها عشرون قدماً لأمير قطر منتصبة فوق سطحه. نظرت إلى ذلك المنظر وقلت فى نفسى: «أوه، كلا، يا إلهى، ماذا يفعل هذا هنا؟ لماذا وضعوا تاكو بيل تماماً فى منتصف هذا الكورنيش الجميل؟ لقد كنت أشعر هنا بلحظة قطرية أصيلة، هنا كنت أشعر بأننى بعيد عن بلادى فى بقعة فريدة من بقاع العالم، ومع ذلك كان علىّ أن أرى تاكو بيل». وأسوأ ما فى الأمر أنه كان مزدحماً!

قال الكاتب توماس وولف، «إنك لن تستطيع العودة مرة أخرى إلى الوطن». ولكننى أخشى أنه كان مخطئاً. ففى عالم العولمة لن تستطيع أن تغادر وطنك مرة

أخرى. فبما أن العولمة تنشئ سوقاً واحدة ـ باقتصاديات حجم هائلة تجعل إنجاز العمل نفسه أو بيع المنتج نفسه فى أنحاء العالم وفى وقت واحد مجزياً ـ فهى تستطيع أن تجعل الاستهلاك متجانساً فى آن واحد فى أنحاء العالم. ولما كانت العولمة قوة تعمد إلى التجانس الثقافى والتهام البيئة قادمة بسرعة كبيرة، فهناك خطر حقيقى من أنها فى غضون عقود قليلة فقط قد تقضى تماماً على التنوع الإيكولوجى والثقافى الذى أفرزه التطور البشرى والبيولوجى طوال ملايين السنين.

ولا يوجد هناك حقيقة سوى أمل واحد فى وقف ذلك أو على الأقل إبطاء حدوثه. فتماماً كما تحتاج الدول إلى تطوير الأدوات الصحيحة للوقاية من الاندفاعات العارمة والبرمجيات الصحيحة إذا كانت ترغب فى الالتحام بالقطيع الإلكترونى مالياً بدون أن يسحقها القطيع، فإن ذلك يصدق على المجالات البيئية والثقافية. تحتاج الدول إلى تطوير مرشحات ثقافية وبيئية قوية وكافية حتى يتسنى لها التفاعل مع القطيع بدون أن يسحقها ويحول ثقافتها إلى عصيدة عالمية وبنيتها إلى هريسة عالمية. وإذا لم تفعل الدول ذلك، ولا سيما الدول النامية، فسوف نصبح جميعاً أكثر فقراً. كل الأماكن ستبدو مثل كل الأماكن، بمطاعم تاكو بيل، وكنتكى فرايد تشيكين، وفنادق الماريوت نفسها، والأسواق وقناة إم تى فى وشخصيات ديزنى نفسها، وبالأفلام والموسيقى نفسها، وبالغابات العارية من الأشجار ووديان الخرسانة المسلحة نفسها. وسوف تصبح السياحة حول العالم مثل الذهاب إلى حديقة الحيوان ومشاهدة الحيوان نفسه فى كل قفص ـ حيوان محنط.

عندما زرت بانكوك فى مارس 1996 كان الناس هناك ما زالوا يتحدثون عنها. كانوا يطلقون عليها «أم جميع اختناقات المرور».

كانت المناسبة هى الإجازة الرسمية لمدة أربعة أيام احتفالاً ببدء موسم الأمطار فى تايلاند فى شهر أبريل السابق. وقد أعاد ريتشارد فرانكل، الذى يعمل مهندساً للبيئة فى بانكوك على أسماعى، رواية ما حدث: «فى مساء الأربعاء تصورنا أننا نستطيع محاولة اجتناب زحام المرور والذهاب إلى خارج المدينة. كنا نعتزم الذهاب بالسيارة إلى تشيانغ ماى، التى تبعد مائتى ميل إلى الشمال، وأن نقضى الإجازة هناك. وهكذا حمّلنا السيارة وأطعمنا الجميع وانطلقنا من المنزل. كنا ننوى استخدام الطريق السريع الدائرى حول بانكوك، ومواصلة السير إلى ما بعد المطار وبعد ذلك الاتجاه شمالاً. غادرنا المنزل فى الساعة العاشرة مساءً. وكان الأطفال نياماً فى المقعد الخلفى. سار كل شىء على أكمل وجه - إلى أن وصلنا إلى الطريق السريع. كان المرور متوقفاً، السيارة خلف السيارة على مسافة ستين ميلاً. وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى كنا قد تمكنا فقط من الوصول إلى المطار على بعد بضعة أميال من منزلنا، وقد ترك بعض الناس سياراتهم. وفى النهاية نجحنا فى الدوران إلى الخلف وأمضينا الإجازة فى المنزل».

تعتبر بانكوك مثالاً مفرطاً فى المبالغة لما يمكن أن يحدث عندما تفتح دولة نامية أبوابها أمام اندفاع الاستثمار العالمى بدون إقامة المرشحات والأدوات الصحيحة للوقاية من الاندفاعات العارمة لكى تضبط النمو. انظر إلى المشكلة من هذه الزاوية: فى نهاية التسعينيات كان هذا الكوكب يحمل 5.8 مليار نسمة. لنقل أن 1.5 مليار نسمة منهم يعيشون اليوم فيما يمكن أن نسميه أسلوب الحياة العولمية. بمعنى أنهم كانوا يعيشون فى الطبقات الوسطى المنخفضة أو الوسطى أو العليا من مجتمعاتهم، لديهم التليفزيون، وربما التليفون، ونوع ما من المركبات للانتقال بها، ومنزل به ثلاجة كهربائية، وغسالة ملابس بالمجفف. وبعبارة أخرى، إنهم كانوا يعيشون أسلوب حياة قائم على الاستهلاك المكثف للبتروكيماويات (بدءاً من البلاستيك وانتهاء بالأسمدة) والهيدروكربونات (فحم وغاز وبترول) والمعادن المرنة (المحنية) (سيارات، وثلاجات كهربائية، وطائرات).

وفى العقد التالى، إذا استمرت العولمة فى جذب المزيد والمزيد من الناس إلى هذا الأسلوب من الحياة، وإذا لم نتعلم كيف نصنع أشياء أكثر باستخدام مواد أقل، فسوف ينتهى بنا الحال إلى القضاء على ما لدينا من المناطق المحتفظة بنقائها الأصلى، من الغابات والأنهار والأراضى الرطبة، إحراقاً وإزالة وتمهيداً واستهلاكاً، واستغلالاً للامتيازات بمعدل لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية.

اذهب إلى بانكوك وانظر إلى المستقبل: ثراء المدينة وفقر الحياة. إن بعض السائقين فى بانكوك لا يغادرون منازلهم بدون تليفون متنقل وسلة صغيرة محمولة للطعام فى سياراتهم بسبب زحمة المرور. وبانكوك مدينة يعيش فيها 10 ملايين نسمة مع تخطيط مركزى ضعيف بحيث لا يوجد بها حتى أواخر التسعينيات مترو للأنفاق أو حتى تخطيط لحارات سير السيارات. وتوقف الكثيرون من سكان بانكوك عن استقبال الضيوف فى أمسيات الإجازات بسبب صعوبة وصول الضيوف فى مواعيد مناسبة. اشتكى من ذلك لى ذات ليلة جيمس فاهن الصحفى فى مجال البيئة قائلاً: «لقد ولت كل مظاهر العفوية من الحياة. إنك حتى لا تستطيع الاتصال بصديقك وتقول له: 'نتقابل فى مطعم بعد خمس عشرة دقيقة'.

لقد كان الجدل التقليدى الذى تسمعه فى الدول النامية على شاكلة هذا القول: «إننا قد نشيع الفوضى الآن ولكننا سوف نقوم بعملية الترتيب فيما بعد عندما يتسير لنا ذلك». ولكن بانكوك تثبت لنا أنه عندما تتوسع مدينة ما بهذه السرعة وبلا ضوابط على هذا النحو فربما لن يكون هنا فيما بعد. لقد انتهى بالفعل وجود الأرصفة فى الشوارع. ولم يعد هناك أماكن لإقامة متنزهات جديدة. والقنوات ردمت بالأسمنت لكى تحل محلها المبانى الجديدة. والأسماك فى النهر ماتت. ويعانى نصف رجال شرطة المرور من مشكلات فى التنفس. وفى بانكوك، تجاوزت السوق الحرة والقطيع الإلكترونى الحكومة ببساطة، أو أصبحت تفوق الحكومة ثراءً بحيث يستطيع

المستثمرون التهرب من كل قوانين البيئة عن طريق الفساد. قالها لى ذات مرة أحد الدبلوماسيين الأمريكيين فى تايلاند عندما زرتها فى عام 1996، «لقد افتتحنا نحو اثنتى عشرة سفارة لنا فى دول الاتحاد السوفيتى السابق، ووظيفتنا هناك أن نشرح للناس أن هناك شيئاً اسمه 'السوق'. أما مهمتنا فى تايلاند فهى أن نشرح للناس أن هناك أشياء أخرى غير السوق».

كنت ذات مرة أجرى مقابلة مع آجوس پورنومو رئيس الصندوق العالمى للطبيعة فى إندونيسيا، وسألته: «كيف يكون المرء مدافعاً عن البيئة فى بلد من بلدان الأسواق الناهضة؟ هل يجعل ذلك من المرء أكثر الأشخاص شعوراً بالوحدة فى المدينة؟»

تنهد قائلاً: «إننا فى سباق متصل مع التنمية. فحتى قبل أن تسنح لنا الفرصة لإقناع أكبر عدد من الناس هنا بأن التنمية القائمة على أساس بيئى سليم هى الأسلوب الصحيح لتنفيذ الأشياء، نجد أن خطط تمهيد الطرق أو إقامة المصانع أو محطات القوى تسبقنا. ولدينا هنا مشكلة بطالة، ومن ثم سوف يلقى الدعم كل من يطور شيئاً يستطيع به بيع الوعود بأنه يخلق فرص العمل. وعندما يحدث ذلك فإننا نكون موضع الاتهام بأننا ضد محاربة البطالة ويعاملوننا مثل الدخلاء».

غير أن الدمار الذى ينشأ عن ذلك يحدث الآن بسرعة كبيرة وغالباً ما يستعصى على الإصلاح، حسبما قال. «فأنت إذ تفقد جبلاً، تفقده إلى الأبد. فلا تستطيع أن تعيده مرة أخرى. وإذا أزلت أشجار الغابات، فقد تستطيع زراعتها مرة أخرى ولكنك تفقد التنوع البيولوجى ـ النباتات والحيوانات. وما يثير قلقى أننا فى غضون عشر سنوات سوف يكون لدينا جميعاً الوعى البيئى، غير أنه لن يكون هناك ما ندافع عنه».

ما العمل؟ هل يمكننا التوصل إلى أسلوب فى العولمة يحافظ على البيئة باستمرار؟ إن الأمل الوحيد بلا شك هو أن نطور التكنولوچيا بطرق تساعدنا على الحفاظ على

المساحات الخضراء بسرعة تفوق قدرة القطيع الإلكترونى على سحقها. أو كما يحب روبرت شابيرو رئيس شركة مونسانتو أن يردد القول: «إن ضرب عدد البشر فى آمال البشر لوجود طبقة وسطى ثم قسمتها على مجموع أدوات التكنولوجيا الراهنة يضع ضغوطاً غير متصلة على النظم البيولوجية التى تدعم الحياة على كوكبنا. فعندما كان يعيش ثلاثة رجال على ضفاف بحيرة ويلقون مخلفاتهم فيها، فهذه لم تكن مشكلة. أما إذا كان 30 ألف رجل يفعلون ذلك، فمن الأفضل لك أن تجد طريقة تخفض بها حجم مخلفاتهم، أو تتعامل مع هذه المخلفات، أو تقلل من عدد الناس الذين تنتج عنهم هذه المخلفات ـ وإلا فسوف تختفى البحيرة من الوجود».

وسوف يتطلب ذلك التوصل إلى اكتشافات حقيقية فى تكنولوجيا المعلومات، والتكنولوجيا الحيوية، وتكنولوجيا النمنمة (تصغير الأشياء إلى مستويات الجزئ والذرة التى تمكن المصادر الدقيقة للطاقة من إدارة نظم ضخمة) حتى يتسنى لنا إيجاد القيمة على نطاق أصغر فأصغر، فى حين نستخدم المواد بصورة أقل فأقل. فعلى سبيل المثال، من العلامات المشجعة أنه بفضل التكنولوجيا الحيوية، نستطيع الآن أن ندخل فى النباتات ونغير الأزواج الرئيسية من حمضها النووى (الدنا DNA)، بحيث تكون بطبيعتها طاردة للحشرات بدون الحاجة إلى استخدام الأسمدة أو المبيدات. كذلك من العلامات المشجعة أنه بفضل تكنولوجيا المعلومات تحولت الآن أشياء مثل أشرطة التسجيل والأفلام إلى أرقام ـ أرقام من 1و 0 ـ لا تتعرض للخطر ولا تنتج عنها مخلفات، ويمكن إعادة استخدامها إلى ما لا نهاية.

غير أن الاكتشافات التكنولوجية وحدها لن تكف للقضاء على الآثار البيئية للقطيع، لأن الابتكارات ببساطة لا تحدث بسرعة كافية ـ مقارنة بالسرعة التى يتحرك بها القطيع وينمو، ويبيد الأشياء. إنك تستطيع أن ترى ذلك فى إحصائيات تدمير البيئة الآن. فقد نشرت مجلة *تايم* فى عام 1998 أن 50 فى المائة من أنواع الرئيسيات المعروفة

فى العالم وعددها 233 نوعاً مهددة الآن بالانقراض وأن العالم يفقد 52 آيكراً من غاباته فى *كل دقيقة*.

ولهذا السبب، يجب أيضاً أن يتعلم أنصار البيئة التحرك بسرعة أكبر. إنهم بحاجة إلى تطوير البرمجيات التنظيمية وإجراءات تنفيذ الحفاظ على البيئة بسرعة لضمان التنمية المستدامة والمحافظة على أكثر المناطق الطبيعية نقاءاً أصلياً. وهم بحاجة إلى تكثيف جهودهم مع المزارعين المحليين والشعوب البدائية التى يعتمد بقاؤها على سلامة الغابات وغيرها من النظم الطبيعية. إنهم بحاجة إلى رعاية الصفوة المحلية على وجه السرعة لكى يكونوا مستعدين لبناء المتنزهات والمحميات الطبيعية والحفاظ عليها بحيث لا تجد البورجوازية الجديدة والطبقات السفلى فى الحضر الوقت أو الموارد أو النية لتكون مصدر إزعاج لها. وهم بطبيعة الحال بحاجة إلى تعزيز سياسات فعالة لتنظيم النسل على الفور، لأن النمو السكانى الذى لا يجد ما يكبح جماحه سوف يؤدى إلى انفجار أى مرشحات للحماية البيئية. كتب هوارد يوث، فى مجلة ***وورلد ووتش***، عن نجاح الشعب الكاريبى فى هندوراس فى تطوير نوع من الوعى الأخضر على مر السنين، وذكر أن هذا الجهد الشاق كاد أن يتعرض للخطر بسبب نقص فى وسائل منع الحمل. كتب يقول، «إنك تستطيع أن ترى وأنت تحلق بالطائرة فوق ريف هندوراس دولة آخذة فى النمو : نيران تحرق الأشجار القصيرة والأجمات، ومدن جديدة، وطرقات جديدة، وقطع جديدة من أراضى الغابات التى أزيلت أشجارها من المنحدرات تشكل خليطاً من النشاط الإنسانى.... إن أكبر نمو سكانى يحدث فى الريف ـ فى القرى المنتشرة على اتساع الأراضى القاحلة ـ وفى الكثير من هذه الأماكن لا تتوافر وسائل منع الحمل... ».

ولكن فى حين أنه من دواعى السرور أن يكون أنصار البيئة قادرين على التحرك بسرعة أكبر فى كل المجالات، فإن الاعتقاد بأنهم سيفعلون أمر غير واقعى. إذن أين

يتركنا ذلك؟ إنه يتركنا مع هذه الحقيقة: إن الطريقة الوحيدة حتى الآن للجرى بسرعة القطيع هو ركوب القطيع ذاته ومحاولة إعادة توجيهه. إننا بحاجة إلى أن نثبت للقطيع أنه يمكن للخضرة والعولمة والنهم أن تسير جنباً إلى جنب. إذا أردت إنقاذ الأمازون، فعليك أن تذهب إلى كلية الأعمال وأن تتعلم كيف تبرم صفقة ما.

ليس من السهل العثور على أناس يجمعون بين حاسة البريد الأخضر والسلام الأخضر، ولكن كيث آلجر هو أقرب من قابلتهم لتلك النوعية من الناس.

قابلت آلجر، الذى يبلغ من العمر أربعة وأربعين عاماً، فى أثناء جولتى فى الغابة المطيرة المطلة على الأطلنطى فى البرازيل، حيث كان أحد قادة الائتلاف الذى ساعد فى إنقاذ ما تبقى من الغابة المطيرة فى الشمال الشرقى من ولاية باهيا بالبرازيل، ويعمل أيضاً على إيجاد وظائف بديلة هناك لبعض من يعملون فى قطع الأخشاب. جاء آلجر، ذلك العالم السياسى المتزوج من خبيرة برازيلية فى القرود، إلى البرازيل برؤية أن بإمكانه إنقاذ الغابة المطيرة بالمساعدة فى تثقيف البرازيليين حول أهميتها الإيكولوجية. ولكن سرعان ما أدرك أنه طالما لم يستطع توفير وظائف للعاملين فى قطع الأخشاب الذين سيتوقف نشاطهم عند إنقاذ الغابة المطيرة، فلن يصل إلى شىء. وقد وصف لى آلجر الوضع قائلاً: «من الصعب على الناس أن يكونوا فقراء، ومما يثير الكثير من الحرج أن لا تستطيع رعاية من يحيطون بك. فقد يقول المزارعون هنا إنهم يرغبون بالفعل فى إنقاذ الغابة المطيرة، ولكن وظائفهم أيضاً تتعرض للخطر. فإذا احتاجوا إلى شراء سيارة جديدة أو إرسال ابن إلى الكلية فما عليهم إلا أن يستأجروا آلة قطع الأخشاب لإزالة بضعة هكتارات من أشجارهم القديمة، التى كانوا يدخرونها مثلما يدخرون النقود فى البنك. فإذا كنت أريد إنقاذ الغابة المطيرة فيجب أن أساعدهم فى الحصول على وظائف».

وهكذا تعاون آلجر الذى يدير معهد الدراسات الاجتماعية والبيئية فى ولاية باهايا الجنوبية مع منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال (أى المنظمة الدولية للحفاظ على البيئة) ومقرها واشنطن، ومع مجموعة من أنصار البيئة المحليين وأصبحوا جميعاً مستثمرين بيئيين لإنقاذ الغابة المطيرة. كان آلجر وزملاؤه البرازيليون يحاربون بيد العاملين بقطع الأخشاب فى معركة سياسة عامة استمرت سبع سنوات وانتهت أخيراً فى عام 1998 بإصدار الحكومة البرازيلية حظراً على جميع أعمال قطع الأخشاب فى غابة الأطلنطى المطيرة فى باهيا الجنوبية. وباليد الأخرى أنشأ فريق آلجر ومنظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال متنزهاً إيكولوچياً وسط رقعة من هذه الغابة المطيرة ذاتها كانت قد تعرضت للإفراط فى إزالة أشجارها. واستعانوا فى ذلك بمجموعة من متسلقى الصخور المحترفين الذين استخدموا الأقواس والسهام لكى يمدوا الأحبال فوق الأشجار التى يبلغ ارتفاعها مائة قدم ثم ينسجون الأحبال ويشبكون بعضها ببعض لإنشاء ممشى ظليلاً فوق الأشجار يربط بين بيوت الأشجار. يقع هذا الممشى، الذى يبلغ عرضه نحو قدم ويهتز قليلاً عندما تخطو فوقه من قمة شجرة إلى قمة شجرة أخرى، خارج مدينة أونا، حيث كانت الغابة المطلة على الأطلنطى تغطى فى يوم من الأيام الساحل بأسره. واليوم لم ينج من نشاط قاطعى الأشجار والمزارعين الذين يستخدمون فروع الأشجار وقوداً سوى 7 فى المائة من هذه الغابة.

إن هذا الممشى الظليل شىء مذهل. ولا يجد المرء فى كل الغابات أن الهكتار الواحد يحتوى على 450 نوعاً مختلفاً من أنواع الأشجار، وكلها تتصارع من أجل ضوء الشمس. وتستطيع وأنت تسير على أطراف أصابعك فوق هذا الممشى الظليل أن تنظر إلى أحد أندر القرود على وجه الأرض، وهو القرد الأمريكى الجنوبى الصغير ذو الرأس الذهبية التى تشبه رأس الأسد، أن تنظر فى عينيه مباشرة وهو يقفز من شجرة إلى شجرة. وتستطيع أن تتفقد أعشاش النمل الأبيض التى يصل حجمها إلى حجم ثمار

نباتات اليقطين التى تتدلى من أشجار المطاط أثناء تساقط عصارتها الطبيعية. وتستطيع أيضاً وأنت تمشى فى الممرات الترابية على أرض الغابة المطيرة، التى تعتبر أيضاً جزءاً من متنزه أونا الإيكولوچى، أن تسير جنباً إلى جنب مع قوافل من النمل القاطع لأوراق الأشجار وهو يحمل على ظهره كميات من أوراق الشجر فى طريقها إلى تل النمل الذى يصل حجمه إلى حجم كومة كبيرة من أوراق نبات السلوى الإبريقى.

وقد تمكن فريق آلجر، بمساعدة من منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال، من جمع التمويل لبناء هذا المتنزه الإيكولوجى من شركة فورد للسيارات وشركة آنهويزر - بوش Anheuser-Busch (بادويزر Budweiser)، وكلتاهما لديها أعمال كبرى فى البرازيل، وأيضاً من وكالة المعونة الأمريكية (وكالة التنمية الدولية التابعة لحكومة الولايات المتحدة) ومن بانكوريال، ذلك البنك البرازيلى الذى يمتلك فندق ترانس أمريكا Transamerica المجاور الذى قال مديره للمسئولين البرازيليين المحليين: «أريد أن يرى السائحون فى فندقى الأشجار فى الخلفية عندما ينظرون من نوافذ الفندق، لا أن يروا أرضاً جرداء يغمرها ضوء القمر بعد أن اقتطعت أشجارها». وقد أرسلت شركة آنهويزر - بوش بالفعل أحد العاملين لديها فى تصميم المتنزهات، من حدائق بوش فى فلوريدا، للمساعدة فى تصميم المتنزه الإيكولوچى.

وعمل آلجر، إلى جانب إنشاء هذه المتنزه، مع عمدة مدينة أونا، وهو نفسه من قاطعى الأشجار، لإيجاد وظائف بطرق أخرى. فعلى سبيل المثال، يعمل فى فندق ترانس أمريكا 600 شخص، وهو ينظم حالياً جولات سياحية فى الغابة المطيرة. ويعمل ائتلاف آلجر على زيادة الزراعة داخل الغابة المطيرة بمحاصيل مثل الكاكاو والبن، اللذين يمكن جمع محصوليهما فى ظل الأشجار. كذلك أرسل فريق آلجر إلى الحكومة الفيدرالية البرازيلية اقتراحاً بتوفير منحة مهنية لحكومة مدينة أونا ونجح فى الحصول على تمويل من وزارة التعليم لبرنامج تدريبى متقدم لمدرسى المدارس فى مدينة

أونا. يقول آلجر: « لقد جعلت العمدة، وهو من قاطعى الأخشاب، يفقد وظيفته، وكان علىّ أن أوفر البديل لهذا الرجل وإلا قالوا إننا خذلناهم».

وثمة موقع آخر جذب اهتمام آلجر وهو مجتمع التكنولوجيا المتقدمة الذى أصبح له الآن مصداقية هائلة فى الدول النامية، حيث يحلم كل محافظ وعمدة أن يكون لديه مصنع لشذرات الكمبيوتر فى فنائه الخلفى. وقد قدمت شركة إنتل، بإلحاح من أحد مؤسسيها وهو جوردون مور الذى يشارك فى عضوية مجلس إدارة منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال، التمويل وأجهزة الكمبيوتر لفريق آلجر لوضع خريطة سليمة للغابة المطيرة والتركيز على الأشياء التى تحتاج للإنقاذ أكثر من غيرها. واستطاع فريق آلجر، باستخدام ما يسمى نظام المعلومات الجغرافية تغذية الكمبيوتر بالخرائط ثم توجيه أسئلة مهمة معينة له.

قال آلجر: «كان أهم سؤال طرحناه على الكمبيوتر يدور حول أهم النقاط والممرات المسدودة فيما بين الأقسام المختلفة للغابة المطيرة المطلة على المحيط الأطلنطى، وقد حددها لنا نظام المعلومات الجغرافية تماماً. وكانت تلك خطوة حاسمة لأن هذه الممرات تربط بين قطاعين كبيرين من الغابة المطيرة وبدونها يصبحان مجرد مجموعة من الأجزاء المفتتة المنعزلة، ومن ثم لا تستطيع تحمل الكثير من أنواع الكائنات، وبالتالى سوف ينقرض الكثير من هذه الأنواع إذا لم نحافظ على هذه الممرات. وقد أنشأنا المتنزه الإيكولوجى على واحد من هذه الممرات التى كان العمدة قد صرح بالفعل بقطع أخشابها» .

كذلك نجح آلجر فى الحصول على مساعدة جورج سان لوران، وهو أحد رجال الأعمال الأمريكيين المغامرين غريبى الأطوار، كان قد افتتح مصنعاً للكمبيوتر من أجل السوق البرازيلية، مستغلاً أحد مصانع الكاكاو المهجورة بالقرب من مدينة أونا. وقد حصل سان لوران على حوافز ضريبية من حكومة الولاية لكى يفتتح مصنعه

للتكنولوجيا المتقدمة هناك، ولكنه أبلغ المحافظ المحلى أنه يحتاج إلى أكثر من مجرد مزايا ضريبية إذا كان له أن يغرى مهندسى الكمبيوتر فى ساو باولو ووادى السيليكون على الانتقال إلى شمال شرقى البرازيل. كان بحاجة إلى بعض الخضرة وليس فقط أوراق البنكنوت الخضراء. ذلك أن الحفاظ على بيئة ممتعة يمكن أن يكون عنصراً له أهمية حاسمة فى جذب العاملين فى مجال معرفة التكنولوجيا المتقدمة الذين يكون لديهم غالباً الكثير من الاختيارات للأماكن التى سيعيشون ويعملون فيها. فلم يوجد وادى السيليكون فى كاليفورنيا اعتباطاً. قال سان لوران: «أبلغت المحافظ أننا بحاجة إلى بيئة ممتعة، وقلت له إن مهندسى الكمبيوتر يستطيعون الانتقال للحياة فى أى مكان ولكنهم يفضلون المستوى العالى من الحياة والأماكن التى يستطيعون تمضية إجازاتهم الأسبوعية فيها. فإذا تصادف أنهم يعيشون بجوار واحد من أكثر نظم التنوع البيولوجى إثارة، فقد يفضلون أن يكونوا جزءاً منه لا مجرد مشاهدين لعمليات تدميره». وقد وعد سان لوران الحكومة المحلية بتقديم أجهزة كمبيوتر منحة للمدارس المحلية فى بادرة لمساعدة آلجر فى كسب تأييد الحكومة المحلية.

وفى النهاية، خضع محافظ أونا ديجاير بيرشنر على مضض لضغوط الحكومة البرازيلية وائتلاف آلجر. وصرح لى العمدة بقوله:

«عندما سمعت لأول مرة عن هؤلاء الأنصار للبيئة، اعتقدت أنهم سوف يضطهدوننا. ولكن قبل عامين فقط بدأت أدرك أنهم يهتمون بتنمية المنطقة. فمدينة أونا يسكنها 32 ألف نسمة وتبلغ مساحتها 1,700 كيلو متر مربع. وأكبر ثلاثة أصحاب أعمال هم فندق ترانس أمريكا ومزرعة أناكو (وهى مزرعة كبيرة للكاكاو) والإدارة المحلية. والحياة هنا قاسية للغاية. إذ يعيش نحو 40 فى المائة من المواطنين هنا فى أكواخ خشبية، وقد ازدادت الأحوال سوءاً منذ انهيار صناعة الكاكاو هنا ... إننى لا ألوم

كيث على إفصاحه لنا بالحقيقة ـ إن قطع الأخشاب ليس بالعمل الدائم. وأنه يجب علينا إيجاد وظائف جديدة. ولكن يجب على كيث أن يقوم هو الآخر بدوره».

لقد كان الدرس الذى تعلمه آلجر من ذلك كله هو أن السبيل الوحيد لإنقاذ الغابة المطيرة هو ذلك السبيل الذى تنقذ به النظام المالى لأى دولة ـ بأن تعامله على أنه مجتمع ناهض، وليس سوقاً ناهضة. فإذا أنقذت المجتمع يمكنك إنقاذ الأشجار.

قال آلجر: «بدأنا بالعمل مع مجموعة من ألمع خريجى الجامعات البرازيلية المحلية من الأماكن المحيطة بنا لإنشاء معهد الدراسات الاجتماعية والبيئية فى باهيا الجنوبية. ثم بدأنا فى تدريب الناس وتزويدهم بالمهارات التى تجعل منهم محافظين عصريين على البيئة. وكان ذلك يعنى تدريس المتخصصين فى البيولوجيا كيفية التفكير فى الصفقات التجارية وتدريس الاقتصاديين أحدث التقنيات شديدة التطوير لرسم الخرائط. فلم يكن هناك حتى وقت قريب فى الجامعات البرازيلية مثل هذا المنهج المتكامل فى هذه المهارات المتداخلة، التى يحتاجها المرء حتى يصبح مستثمراً ناجحاً للبيئة فى هذه الأيام. إننا ندرب الآن جيلاً جديداً على كيفية الحصول على أعلى عائد من الدولار، والعائد الذى أتكلم عنه هو الجمع بين المحافظة على الأنواع النباتية والحيوانية وتوفير الفرص الاقتصادية والاجتماعية للبشر الذين يعيشون حول هذه الأنواع. ولقد كان من المستحيل علينا إنقاذ شجرة واحدة بدون أن نعرف كيف نفعل هذين الاثنين معاً.

* * *

الوسيلة الأخرى لبعث الخضرة فى العولمة هى أن نثبت للشركات ولحملة أسهمها أن أرباحهم وأسعار أسهمهم سوف تزيد إذا تبنّوا أساليب إنتاجية سليمة بيئياً.

شرح لى چيم ليفاين، وهو مهندس بيئى وظيفته فى هيئة الحفاظ على البيئة والتنمية فى خليج سان فرانسيسكو ويعلّم الشركات كيف تكون خضراء ونهمة فى

آن واحد، كيف يجرى العمل: «إن كل ما عليك هو إقناع الشركات وحملة الأسهم والمحللين الماليين فى وول ستريت بأن الأداء البيئى الفقير يساوى أرباحاً ضائعة. ولم يكن الأداء البيئى فى التصنيع ضمن أهداف تصميم المشروعات قبل عشر سنوات فقط. ولكن المؤشر بدأ فى التحول الآن، بعد أن أمسكت الحكومة بالعصا للشركات باستخدام القوانين الجديدة والحوافز الضريبية الجديدة معاً حتى تكون خضراء، ومطالبة هيئة الأوراق المالية والبورصة للشركات بأن تبدأ فى تحديد مسئولياتها البيئية بدقة للمساهمين ـ كأن تتعرض للتقاضى بسبب النفايات فضلاً عن تكلفة التخلص من المخلفات. فقد بدأت الشركات فى إدراك أنها إذا ذهبت إلى بانكوك وأقامت لها مصنعاً هناك يلوث البيئة ثم تراوغ الحكومة التايلاندية أخيراً فتصدر قوانين وبرمجيات تنظيمية تلزم هذه المصانع بتنظيف البيئة، فسوف يكون التعامل مع تلك المشكلة فيما بعد أكثر تكلفة من البناء وفق إجراءات خضراء منذ البداية» .

تعتبر شركة باكستر إنترناشيونال لإنتاج المواد الصحية ومقرها شيكاجو واحدة من بين الشركات الرائدة فى هذا النموذج الجديد. وفى عام1997 بلغت مبيعات شركة باكستر 6.1 مليار دولار من إنتاج ستين مصنعاً فى أنحاء العالم. وتدرج شركة باكستر ضمن بياناتها المالية السنوية لحملة الأسهم بياناً مالياً بيئياً لكل عملياتها. وقد جاء فى بيانها المالى البيئى لعام 1997 أن الأخذ بأساليب الإنتاج الخضراء التى طبقت فى ذلك العام وفرت للشركة 14 مليون دولار، وبذلك تكون قد غطت تكاليف البرنامج وزيادة. هذا بالإضافة إلى أن اجتناب مصروفات بسبب الأخذ بأساليب الإنتاج الخضراء وفر للشركة 86 مليون دولار أخرى منذ عام 1990 . ويقول التقرير «إن ذلك يعنى أن شركة باكستر كانت ستضطر إلى إنفاق 100 مليون دولار أخرى فى عام 1997 على عمليات الإنتاج للمواد الأولية، وتكاليف التخلص من المخلفات والتغليف إذا لم تكن الشركة قد طبقت إجراءات فى صالح البيئة منذ عام 1990» .

ومعظم الدول ليس لديها حتى الآن قوانين فعالة بتغريم من يلوث البيئة، ولكن فى يوم ما سيكون لكثير منها مثل هذه القوانين. وهذا هو السبب فى أن شركة باكستر ذكرت فى تقريرها السنوى لعام 1997 إنه «من الأفضل لنا أن تذهب كل مخلفاتنا الدولية اليوم إلى مواقع ذات سمعة طيبة. وبذلك نكون جميعاً فى أفضل وضع لتفادى احتمال تحمل أية مسئوليات كبرى فى المستقبل». إن المسئولين التنفيذيين الذين لا يفكرون على هذا النحو لا يرعون مصالح حملة أسهمهم ويحرمون أنفسهم من مكافآت مالية أكبر.

ومع ذلك أحياناً، لا يكفى حتى هذا الحافز المادى للقيام بالمهمة. وأحياناً يكون الاستغلال الجائر للأرض وبيعها للمصالح العالمية الجشعة أكثر أرباحاً. ولا يترك ذلك أمامنا سوى استراتيچية واحدة، وهى استراتيچية قوية بحق ـ أن نتعلم كيف نستخدم العولمة ضد العولمة.

لقد اكتشفت ذلك أيضاً فى البرازيل. ليس فى الغابة المطيرة ولكن فى أراضى بانتانال الرطبة، التى زرتها مع فريق من منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال. أخذنا طائرة مروحية صغيرة إلى فازيندا ريو نيجرو، وهى مزرعة لتربية الماشية ومأوى طبيعى على ضفاف نهر ريو نيجرو، وبها مهبط عشبى للطائرات يقع فى فنائها الأمامى. كانت خطتنا تتمثل فى أن نبدأ جولتنا بإجراء مقابلة صحفية مع نيلسون دى باروس مدير البيئة فى ولاية ماتو جروسو دو سول البرازيلية. وكنت أعلم أن هذه المقابلة ستكون ممتعة عندما أصر دى باروس على أن نجريها فى وسط نهر ريو نيجرو. ركبنا لنشات مزودة بمحركات فى فازيندا وأبحرنا إلى نقطة الاجتماع عند انحناءة ضحلة فى النهر. وهناك كان دى باروس وفريقه فى انتظارنا واقفين وسط النهر ومياهه ترتفع حتى وسطهم. وعلى مقربة منهم يوجد زورق به مبرد ملىء بعلب البيرة.

قال وهو يفتح علبة من شراب سكول والنهر يتدفق جارياً حولنا: «البيرة أولاً، ثم الحمام، ثم نتحدث بعد ذلك .

عندها اعتبرت أننى أقوم بأفضل وظيفة فى العالم.

شرح لنا دى باروس أن إقليم بانتانال الذى يقع على طول الحدود بين البرازيل وبوليفيا وباراجواى، هو أكبر الأراضى الرطبة بالمياه العذبة فى العالم (بمساحة ولاية ويسكونسن)، وهو موطن النمر الاستوائى الأمريكى المرقّط وملجأ لكثير غيره من الأنواع المعرضة للانقراض. ومحمية بانتانال الطبيعية التى كنا نقف فيها فى منتصف النهر أشبه بمتنزه من العصر الجوراسى ولكن بدون الديناصورات. مررنا على طول النهر بعشرات من التماسيح الأمريكية الاستوائية على شاطئ النهر، وثعالب البحر العملاقة التى ترقص إلى أعلى وإلى أسفل، مع طائر البَلَشون الأبيض، وزنابق الياقوتية، والببغاوات، وطائر الطوقان ضخم المنقار، وطائر أبو منجل المائى طويل القائمتين والمنقار، وغزال المستنقعات، وطائر أبو ملعقة، وطائر اللقلاق وأنواع من النعام وكلها تتسكع خارج الغابة فى مواقع مختلفة. وقد وضح لنا دى باروس أن إقليم بانتانال على عكس الأمازون ليس مهدداً من السكان الفقراء الذين يسعون إلى تدمير الموئل من أجل التخلص من فقرهم. حقاً، إن التراث الثقافى فى إقليم بانتانال مثال نادر للإنسان والطبيعة وهما يزدهران فى انسجام باقتصاد يقوم على تربية الماشية وصيد السمك، والآن السياحة الإيكولوجية. ويأتى الخطر إلى هذا الإقليم من العولمة: فهناك الفلاحون الذين يزرعون فول الصويا على السهل الواسع المرتفع المطل على حوض بانتانال، ويتوقون إلى إشباع سوق عالمية لفول الصويا آخذة فى الاتساع بسرعة كبيرة وتعمل مبيدات الآفات والغرين التى تنصرف من مزارعهم على تلويث الأنهار والإضرار بالحياة البرية. وفى الوقت نفسه شكلت كل من البرازيل والأرجنتين وأوروجواى وبارجواى وبوليفيا كتلة تجارية تجعلهم أكثر قدرة على التنافس عالمياً. وحتى يتسنى

لهم الخروج بإنتاجهم من الصويا من هذا الإقليم إلى الأسواق العالمية بسرعة، فإنهم يرغبون فى تطهير وتعديل مجارى الأنهار ـ حتى تتمكن مراكب نقل البضائع من الإبحار فيها على نحو أسهل وأسرع ـ ولكن بأساليب قد تضر ضرراً بالغاً بالنظام الإيكولوجى. وفى النهاية، يمد اتحاد من شركات الطاقة الدولية، بقيادة شركة إنرون، خط أنابيب للغاز يحتمل أن يشكل خطورة بيئية، عبر أراضى بانتانال يبدأ من بوليڤيا الغنية بمواردها من الغاز وينتهى فى ساو باولو المتعطشة للطاقة.

ولئن كانت العولمة هى مصدر التهديد الأساسى لإقليم بانتانال، إلا أنها أيضاً أملها فى الخلاص. أولاً، لأن سكان بانتانال لديهم الآن الفرصة للحفاظ على أسلوبهم التقليدى فى الحياة، الذى يقوم على أساس الإبقاء على طبيعة الأرض ـ وذلك بالسياحة الإيكولوجية وبيع الأبقار التى تتغذى طبيعياً لأسواق عالمية على استعداد لدفع ثمن مرتفع فى منتجات صديقة للبيئة. وعلاوة على ذلك، فقد يكون هناك ميزة فى وجود شركات متفوقة عالمياً. فقد اجتذبت تجارة فول الصويا شركات النقل البحرى العالمية الكبرى، وهى على خلاف الشركات المحلية تستطيع استخدام تكنولوچيا متطورة للغاية أقل قسوة على البيئة ـ مثل الزوارق الحديثة التى تستطيع الإبحار فى المنحنيات الحادة الموجودة فى الأنهار باستخدام محركات دفع عالية التكنولوچيا. ومن ثمة يمكن استبعاد عمليات تعديل مجارى الأنهار.

أما عندما تصبح العولمة مصدر قوة حقيقية فيتمثل فى أنها تخلق «أنصاراً للبيئة اكتسبوا قوة عظمى»، يستطيعون الآن وهم يعملون بمفردهم التصدى بفاعلية لكل من القطيع الإلكترونى والحكومات على السواء. ويستطيع أنصار البيئة فى إحدى الدول، بفضل الإنترنت، نشر تصرفات الشركات متعددة الجنسية إلى أنصار البيئة فى دول أخرى على وجه السرعة. ولذلك أصبح هناك عدد متزايد من الشركات متعددة الجنسية على وعى بأنها إذا كانت تريد المحافظة على سمعتها العالمية وفروعها المنتشرة

فى العالم أمام العناصر النشطة على الإنترنت، فإنه يتعين عليها أن تشعر بالمسئولية البيئية. وما حدث فى بانتانال، فى الواقع، هو أن أنصار البيئة المحليين اشتركوا مع أنصار البيئة فى أمريكا الشمالية فى الضغط على بنك التنمية الأمريكى الدولى الذى كان يعتزم تمويل عملية تطهير وتعديل مجارى الأنهار. وقد استجاب بنك التنمية الذى يشعر بالحساسية تجاه سمعته الدولية بالضغط على الحكومات المحلية التى تتبنى المشروع لإعادة تقييمه وإجراء تقييم بيئى شامل له. وفى النهاية، توصلت الحكومات المعنية إلى طرق لتحسين الملاحة فى الأنهار فى بانتانال بدون تغيير شكل الأنهار.

يقول جلين بريكيت نائب الرئيس لقطاع المشاركة بين الشركات فى منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال، «إن ذلك يختلف تماماً عما كان يحدث قبل خمسة عشر عاماً. انظر لما حدث فى دولة مثل البرازيل. فقبل خمسة عشر عاماً كان الحكم فى يد الجنرالات، وعندما انتقد أنصار البيئة الأجانب التنمية الاقتصادية فى الأمازون، كان كل ما فعله الجنرالات هو أن قالوا لهم: 'اذهبوا إلى الجحيم. هذه سيادتنا على أراضينا. هذا ليس من شأنكم'. ولكن، بعد ذلك، جاءت العولمة والإنترنت وبدأت الحكومة البرازيلية فى السماح لكل هذه الشركات العالمية الكبرى، بل فى الواقع فى دعوتها، للاستثمار فيها. وأدى ذلك إلى إيجاد ديناميكية جديدة. وتحولت القوة الدافعة للتنمية إلى الشركات والمؤسسات العالمية، التى لابد لها بالضرورة من القيام بعملياتها على نطاق عالمى، وتحتاج إلى حرية التحرك عالمياً، ومن ثم فهى بحاجة إلى أن تهتم بسمعتها البيئية على نطاق عالمى. فإذا استخدم أنصار البيئة فى البرازيل الإنترنت وأبلغوا زملاءهم فى الولايات المتحدة وأوروبا أن هذه الشركة العالمية تدمر البيئة فى البرازيل فسوف ينشط أنصار البيئة فى تلك الدول الأخرى. وسرعان ما تواجه هذه الشركة حملة عالمية قد تؤثر فى أعمالها، ليس فى البرازيل فقط وإنما فى العالم أجمع».

ومع انتشار الديموقراطية فى كثير من دول العالم الآن، فالأمر لا يحتاج أحياناً إلا إلى واحد فقط من أنصار البيئة يلوح برسالة، تسلّمها بالبريد الإلكترونى، فى قاعة برلمان بلاده لكى يوقف مشروع إنشاء محطة قوى كبرى أو غيرها من الصفقات الحساسة بيئياً. ومن ناحية أخرى، فقد تعلمت الشركات العالمية أنها تستطيع بدعمها لبرامج الحفاظ على البيئة تحسين صورة ماركتها العالمية بين الزبائن الذين يتزايد تقديرهم للبيئة.

قال بريكيت، «لم يعد هناك أماكن للاختباء للشركات ذات السمعة السيئة بيئياً فى عالم يربط بين العناصر النشطة على نطاق عالمى. لقد أصبح الآن بوسع الزبائن والمشرعين وحملة الأسهم فى كل مكان مكافأة أو عقاب الشركات لما تفعله فى أماكن بعيدة. إنهم يستطيعون فتح الأبواب أمام الشركات التى تحسن التصرف ويستطيعون إغلاقها فى وجه من تسىء التصرف».

يساعدنا ذلك على فهم السبب فى أن شركة فورد موتور تمول الآن البحث الذى تجريه منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال عن إقليم بانتانال، وبرنامجها لإدارة الحياة البرية هناك وتحويل مزارع الماشية فى بانتانال إلى محميات خاصة ـ بل وأيضاً ممارسة نفوذها فى البرازيل من أجل دعم حماية إقليم بانتانال. ولا جدال فى أن شركة فورد لا تسعى إلى إنقاذ بانتانال لأنها وقعت فى حب الأنواع المهددة بالانقراض فيها، وإنما لاعتقادها أنها تستطيع بيع عدد أكبر من سيارات چاجوار (النمر) إذا كانت فى نظر الناس تعمل على إنقاذ النمور الأمريكية فى إقليم بانتانال. فإذا كان هذا هو كل المطلوب من أجل إنقاذ النظام الإيكولوجى شديد الروعة وأسلوب الحياة هناك فلا يسعنا إلا الدعاء لهنرى فورد والإنترنت.

ولئن كان إنقاذ الغابة المطيرة من القطيع الإلكترونى أمراً صعباً إلا أن إنقاذ الثقافة التى تنمو حول الغابة المطيرة ربما كان مهمة أكثر تعقيداً.

فى نظام الحرب الباردة، ناهيك عن الفترات التى سبقتها من التاريخ، لم تكن الدول والثقافات تتقابل كثيراً ومباشرة وصراحة مثلما يحدث اليوم. كان السفر إلى كثير من المناطق أكثر صعوبة، وكان هناك الجدران والأسوار والأستار الحديدية والوديان والبقاع التى تختبىء وراءها الثقافات الخاصة وتحتفظ فيها بفرديتها. ولكن الثقافات اليوم معروضة للاستهلاك العالمى ويمكن مقارنتها بعضها ببعض على الإنترنت وعن طريق قنوات التليفزيون الفضائية والحدود المفتوحة بطريقة فيها قسوة داروينية. إننى أذهب لزيارة قرى فى شمال شرقى الصين لأرى كيف يبدو العالم خلف حدود العولمة وأكتشف أن الفتيات المراهقات يرتدين الأحذية جو ـ جو عالية الساق. التحم بالعولمة بدون أن يكون لديك البرمجيات ونظم التشغيل السليمة وستجد أن اقتصادك انصهر فى لمح البصر. التحم بالعولمة بدون الأدوات الصحيحة للوقاية من الاندفاعات العارمة بيئياً، وسوف تجتاج غاباتك دهساً فى لحظة. افتح حدودك لمجزرة الثقافة العولمية بدون وجود المرشحات الواقية، وستجد أنك تستطيع الذهاب إلى سريرك معتقداً أنك هندى أو مصرى أو إسرائيلى أو صينى أو برازيلى وعندما تصحو فى الصباح سوف تكتشف أن أولادك يشبهون تابل الزنجبيل.

بعد شهر من زيارتى لقطر التى صدمت فيها برؤية تاكو بيل، توجهت إلى كوالالمبور عاصمة ماليزيا، حيث أقمت فى فندق «شانجرى-لا»، وهو من الفنادق الكبرى القديمة فى جنوب شرقى آسيا. يعجبنى كثيراً ذلك الاسم، «شانجرى-لا». إنه يبدو مثيراً وغريباً. وصلت إلى كوالالمبور فى وقت متأخر من الليل ولم يتح لى فى الحقيقة مشاهدة الكثير فى الطريق إلى المدينة، ولذلك فقد سارعت فور استيقاظى صباح اليوم التالى بفتح ستائر غرفتى فى الفندق، وكان أول ما شاهدته فوق المبنى صورة ارتفاعها طابقين للكولونيل ساندرز من كنتكى فرايد تشيكين.

قلت فى نفسى، « أوه، يا إلهى. ماذا يفعل هنا هذا الرجل؟ هل تكبدت مشقة السفر 15 ألف ميل للمجىء إلى كوالالمبور والإقامة فى شانجرى-لا ليكون أول من أراه الكولونيل ساندرز!

فى مناسبة أخرى كنت فى زيارة لأحد رجال الأعمال فى وسط مدينة چاكارتا وسألته أن يصف لى الطريق إلى المقابلة التالية. كانت تعليماته لى كالتالى تماماً، «اذهب إلى المبنى الذى يوجد فى أعلى سلمه أرمانى امبوريام - تعرفه طبعاً، تماماً أعلى مقهى هارد روك - ثم اتجه يميناً عند ماكدونالدز». لم يسعنى سوى أن أنظر إليه ضاحكاً وتساءلت، «أين أنا؟»

والهند من الدول التى بذلت جهداً فى محاولة مقاومة الكثير من التجانس الثقافى العالمى. ولكنه حتى هناك، وبين الصفوة فى الهند، ينشط القطيع الإلكترونى فى وضع بصمته. كنت فى نيودلهى فى إحدى أمسيات الحر الخانق لصيف عام 1998 لإجراء مقابلة صحفية مع رئيس الوزراء الهندى الأسبق آى. كى. جوچرال البالغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً، ويعتبر من أكثر السياسيين فى الهند ثقافة. بدأ المقابلة باستعادة شىء قاله له ممثل كندا فى مؤتمر لليونسكو، بعد أن تقدم رجل الدولة الهندى بقرار قصد به ضمان أن يكون «النظام الإعلامى الجديد» الذى يسيطر على العالم تبادلاً بين طرفين للثقافة والمعلومات - وليس مجرد تدفق لثقافات الدول المتقدمة فى الدول النامية. فقد ذهل جوچرال من أن ممثل كندا يؤيد القرار الذى تقدم به. ويعود جوچرال بالذاكرة ويقول: «سألته لماذا تساند كندا هذا القرار». «أجابنى قائلاً، 'لأننا نعانى بالفعل مما تخشاه. لم يعد هناك موسيقى أو مسرح أو أفلام أو ثقافة أو لغة كندية'. لقد تأمركت جميعاً».

عندما سألته عن سبب هذه الأهمية التى يوليها لهذا الموضوع قال جوچرال الذى يرتدى الزى التقليدى الهندى ما فحواه أنه ما لم تحافظ على بعض أشجار

الزيتون على الأقل فى فنائك الخلفى، فلن تشعر قط بالألفة فى بيتك ذاته. سأل صوت عال، «ما هى جذورى؟ جذورى ليست مجرد أننى أعيش هنا فى الهند. جذورى هى أننى أسمع أحدهم يتلو شعراً بلغتى الوطنية. جذورى أن أسمع وأنا أمشى فى الطريق من يغنى أغنية بلغتى الوطنية. جذورى هى أن أجلس فى بيتى معك وأنا أرتدى زيّى الوطنى. إن تقاليدنا ترجع إلى ألف سنة. ولا تستطيع أن تتركها هكذا تضيع فى لحظة. وسوف يكون العالم أكثر ثراء إذا أبقينا وشجعنا الصفات المميزة والتنوع للثقافات المختلفة».

إننى أتفق تماماً مع جوجرال، ربما لأننى ولدت وترعرعت فى مجتمع صغير نسبياً فى مينيسوتا. فالعولمة يمكن أن تطيح بالتفرد. إن اقتلاع شجرة زيتونك أو وتجانسها لكى تصبح نوعاً من اللباب العالمى يعنى أن تفقد مغزى وجودك فى العالم.

كنت فى إحدى الأمسيات أمزح حول هذا الموضوع فى القدس مع صديقى يارون إيزراحى المنظّر السياسى، عندما ألقى بملاحظة لاذعة. قال : «أتعلم يا توم، هناك طريقتان تستطيع بهما أن تشعر أحدهم بأنه مشرد لا بيت له ـ إحداهما أن تدمر بيته والأخرى أن تجعل بيته يبدو له كأنه بيت أى إنسان آخر».

كيف السبيل إلى منع حدوث هذا النوع من التشريد؟ أول ما نفعله هو أن نفهم أن العولمة ـ الأمركة لا تعنى فقط الدفع بل تعنى أيضاً الجذب. والناس فى أنحاء العالم يرغبون فى أن يصبحوا جزءاً من العولمة لأسباب كثيرة. فهؤلاء القطريون الذى تزاحموا فى مطعم تاكو بيل على كورنيش الدوحة لم يجيئوا من أحد الملاهى السارة أو من حانة مجاورة مليئة بالتحف البراقة وأشجار السنديان. فقبل أن يوجد تاكو بيل على ذلك الكورنيش، ربما كان هناك كشك على الرصيف يغزوه الذباب، وشخص يقوم بالشواء على الفحم فى ظروف تفتقر إلى النظافة، بدون إضاءة وبدون دورة مياه.

وقـد حظى القطريون، بدلاً من كل ذلك بشىء لم يتـذوقـوه من قـبل، الطعـام المكسيكى، ومعه دورة مياه نظيفة، ومستويات دولية من النظافة، وترحيب فى الخدمة ورقابة على الجودة ـ كل ذلك بسعر رخيص يقدرون عليه. فلا عجب إذن أن يكون مزدحماً.

وثمة شيء آخر يقدم إليهم، شيء أقل وضوحاً، ولكنه أكثر قيمة للكثيرين منهم. اكتشفت ذلك للمرة الأولى فى ماليزيا. كنت ذاهباً لمقابلة وزير المالية، وأثناء انتظارى فى الحجرة الملحقة بمكتبه قدمنى مساعده الصحفى لرجل أعمال ماليزى جاء هو أيضاً لمقابلة الوزير. قدمه لى بقوله، «هذا هو السيد إسحق إسماعيل الذى يمتلك امتيازات كنتكى فرايد تشيكين فى ماليزيا». وعلى الفور أخرجت مفكرتى الآى بى إم الإلكترونية وتمسكت بإجراء لقاء صحفى معه.

سألته: «قل لى، ما هو أكثر ما يجذب الماليزيين فى كنتكى فرايد تشيكين؟ قال إنهم لا يحبون مذاقها فقط بل إنهم يحبون أكثر ما تمثله: العصرية، والأمركة، ومجاراة الموضة. قال السيد اسماعيل موضحاً: «أى شيء غربى، ولا سيما أمريكى، يحبه الناس هنا، إنهم يريدون أن يأكلوها ويصبحوا على شاكلتها. لقد شاهدت الناس فى المدن الريفية الصغيرة فى ماليزيا يصطفون فى طوابير أمام كنتكى فرايد تشيكين ـ إنهم يأتون من كل مكان للحصول عليها». إنهم يريدون أن تكون لهم صلة بأمريكا. الناس هنا يحبون كل ما هو عصرى. إنهم يشعرون أنهم عصريون عندما يأكلونه». حقاً، فالذهاب إلى مطعم كنتكى فرايد تشيكين فى المناطق الريفية فى ماليزيا هو أرخص رحلة يستطيع كثيرون من الماليزيين القيام بها إلى أمريكا.

يذهب الماليزيون إلى مطاعم كنتكى فرايد تشيكين ويذهب القطريون إلى تاكو بيل لذلك السبب الذى يجعل الأمريكيين يذهبون إلى استوديوهات يونيفرسال ـ لرؤية المصدر الذى يمنحهم أحلامهم الخيالية. واليوم، أصبحت العولمة، سواء فى السراء أو

فى الضراء، هى وسيلة نشر الفانتازيا (الخيال المبتكر) الأمريكية حول العالم. فى الوقت الحاضر يعرف الناس فى القرية العالمية أن هناك طريقة أخرى للحياة، يعرفون أسلوب الحياة الأمريكية، والكثيرون منهم يريدون أكبر شريحة ممكنة منها ـ بكل ما يعلوها من أشياء لذيذة. بعض الناس يذهبون إلى عالم ديزنى للحصول عليها، وبعضهم يذهبون إلى مطاعم كنتكى فرايد تشيكين فى شمالى ماليزيا. لقد عبرت لى آيڤى جوسياه ذات مرة، وهى شابة ماليزية من العناصر النشطة المطالبة بحقوق الإنسان، عن المشاعر المختلطة لجيلها من الشباب إزاء هذه الظاهرة. قالت: «إننى أشعر بالأسى عندما أفكر فى كيف أن مطاعم الأكشاك التقليدية سوف تلتهمها مطاعم كنتكى فرايد تشيكين وماكدونالدز وتشيلليز. إننا نفقد هويتنا الخاصة. لقد ترعرعنا على مطاعم الأكشاك هذه. ولكن الجيل الأصغر منا لم يتعامل معها. إن المرء يذهب إلى تلك الأكشاك الآن فيجد فيها الفئران والمياه غير النقية. وأصبح أهم نزهة للطفل الماليزى الآن أن يذهب إلى بيتزا هت. العولمة هى الأمركة. إن الصفوة هنا يقولون، «يجب ألا نفتح أبوابنا لماكدونالدز. ولكن الشباب الذين لا يمكنهم السفر إلى أمريكا يريدون أن تأتى أمريكا إليهم هنا».

لكل هذه الأسباب يصبح من السذاجة التفكير فى أنه يمكننا بطريقة ما أن نمنع القوة العالمية الساحقة لماكدونالدز أو تاكو بيل من افتتاح فروع لها فى كل مكان حول العالم. إنها تنتشر لأنها تقدم للناس شيئاً يريدونه، أما أن تقول للناس فى الدول النامية إنهم لن يستطيعوا الحصول عليها لأنها قد تفسد المنظر والتجربة على الناس القادمين للزيارة من الدول المتقدمة فقد يكون ذلك تفكيراً متعجرفاً وعقيماً بصورة لا تحتمل.

بيد أن ذلك سيؤدى، من الوجهة الثقافية، إلى فقدان شىء ما ـ بالنسبة لهم وبالنسبة لنا ـ كلما انتصبت أمامنا هذه الاستثمارات العالمية فوق كل تل، وفى صالات الوصول فى كل مطار، وفى كل ركن نذهب إليه. والأمل الوحيد ـ وهو

مجرد أمل - هو أن الدول أيضاً سوف تتعلم كيفية تطوير مرشحات متعددة لمنع ثقافاتها من الزوال بفعل ذلك الجذب والدفع لرأس المال العالمى. ففى ضوء قوة العولمة وسرعتها اليوم، سوف تنقرض تلك الثقافات التى لا تتمتع بالقوة الكافية لكى تفعل ذلك، مثلها مثل أنواع الكائنات الأخرى التى لا تستطيع التكيف مع التغييرات التى تحدث فى بيئتها.

وفى اعتقادى أن أهم هذه المرشحات هو القدرة على الجمع بين العالمية والمحلية «العوحلية». وتعريفى للجمع بين العالمية والمحلية أو العوحلية الصحية هو قدرة ثقافة ما، فى مواجهتها لثقافات قوية أخرى، على امتصاص التأثيرات التى تتوافق طبيعياً معها وأن تثرى هذه الثقافة، وقدرتها على مقاومة تلك الأشياء الدخيلة بحق، وقدرتها على أن تحتوى تلك الأشياء التى يمكن، رغم اختلافها، الاستمتاع والاحتفاء بها لأنها شىء مختلف. إن كل ما تهدف إليه «العوحلية» هو قدرتك على أن تجعل بلادك وثقافتك تمتص مظاهر العولمة بطريقة تمثل إضافة لنموها وتنوعها بدون أن تطغى عليها.

«العوحلية» فى الواقع عملية قديمة جداً، تعود إلى العصور القديمة، عندما واجهت الثقافات المحلية، على سبيل المثال، انتشار الهيللينية وحاولت امتصاص أفضل ما فيها دون أن تطغى عليها. واليهودية مثال كلاسيكى للثقافة الدينية التى امتصت مؤثرات من كثير من الدول المختلفة على مر الأجيال، بدون أن تفقد أبداً لب هويتها. يشير مدرسى تزفى ماركس المتخصص فى الديانة اليهودية أنه عندما واجه اليهود الإغريق لأول مرة فى القرن الرابع قبل الميلاد، كان أكثر الأشياء التى امتصها الفكر اليهودى بعمق هو المنطق الإغريقى الذى تجانس مع تعاليم التوراة والحاخامات فى ذلك الوقت.

يقول ماركس: «كان هذا الامتصاص للمنطق الإغريقى سهلاً نسبياً؛ لأنه كان متصلاً بصورة عضوية بما يفعله الحاخامات ودارسو التوراة فى تلك الأيام، وكان يتمثل فى رعاية الحقيقة. وتظهر علامة الامتصاص الصحى عندما يستطيع مجتمع ما أن يأخذ شيئاً من خارجه، وأن يتبناه وكأنه نابع منه، وأن يعيد تهيئته ليتناسب مع الإطار المرجعى له وينسى تماماً أنه جاء من خارجه. يحدث هذا عندما تلمس القوة الخارجية التى امتُصت شيئاً كامناً فى ثقافتك الخاصة، وإن يكن غير ناضج تماماً، وتعمد المواجهة مع الحافز الخارجى حقيقة إلى إثراء ذلك الشيء الكامن ومساعدته على الازدهار». وهذا هو الطريق الذى تتقدم به أنواع الكائنات والثقافات.

غير أنه فى ذلك الوقت الذى انفتح فيه اليهود على المنطق الإغريقى انفتحوا أيضاً على الاحتفاء الإغريقى بالجسد، ناهيك عن انشغالهم الكامل بإله الحب إيروس وبتعدد الآلهة. ولم يمتص اليهود هذه المؤثرات. فقد كانت فى نظرهم دخيلة، وظلت كما هى دخيلة. كان الإغريق يستمتعون بمشاهدة الرياضات العارية. ولم يفعل اليهود ذلك، ولم يمتصوا قط تلك الجزئية من الثقافة الإغريقية. واعُتبر الذين فعلوا ذلك بأنهم قد تجانسوا معها وفقدوا إحساسهم الأصيل بذواتهم. وفى النهاية، كانت هناك أشياء للإغريق يأكلونها وأساليب فى الملابس انتقى بعضها اليهود فى تلك الأيام واستمتعوا بها لمجرد أنها مختلفة، ولكنهم أبداً لم يجعلوها خاصة بهم. وبعبارة أخرى وباستخدام المصطلحات اللامعقولة: إنهم لم يتخلوا عن شوربة فطائر خبز كرة الماتزو لكى يأكلوا السوڤلاكى، ولكنهم أكلوا السوڤلاكى واستمتعوا به لأنه شيء مختلف.

و«العوحلية» الصحية هى دائماً عملية تجربة وخطأ، ولكنها عملية ضرورية بلا حدود. ففى عالم أزيلت فيه كثير من جدران وأسوار وخنادق الحماية، وسوف تستمر إزالتها، ستكون للثقافات التى تحسن عملية «العوحلية» ميزة حقيقية، أما تلك الثقافات التى لن تحسنها فسوف تحتاج إلى أن تتعلم ذلك. هناك بلا شك بعض

الثقافات التى لا تحسن «العوحلية»، وهذا يجعلها مهددة تماماً من جانب العولمة. وعندما لا تجيد الدول أو الثقافات العوحلية فإنك تحصل على رد فعل من نوع منظمة طالبان الإسلامية الأصولية فى أفغانستان: إنها تخشى مواجهة التجربة والخطأ مع العولمة لأنها تخشى أن ينتهى كل شيء إلى الخطأ وأن يقضى على ثقافاتهم، ولذلك يسدلون الخمار على بلادهم بأسرها، أو يحاولون بناء أسوار أعلى وأعلى. ولكن هذه الأسوار سوف يجتاحها القطيع الإلكترونى لا محالة، وعندما يحدث ذلك ويبدأ الناس فى فقدان هويتهم الثقافية سينتهى بهم المطاف إلى أن يصبحوا وقد استوعبتهم ثقافة أخرى فى بلادهم ذاتها. وتصبح بلادهم مجرد مكان تمر من خلاله دول وثقافات أخرى .

وثمة خطر آخر. قد تظن بعض الثقافات أنها تسير نحو «العوحلية» بصورة صحية، ولكن هناك فى الواقع ما يستوعبها ويفقدها هويتها بأسلوب الحركة البطيئة الماكرة. وثمة مثال مبتذل ولكنه واضح لذلك يتمثل فى الطريقة التى استوعبت بها الثقافة والعمارة اليابانية ماكدونالدز اليابان. يوجد فى اليابان 2000 مطعم من ماكدونالدز اليابان الذى يعرف أيضاً باسم «ماكدونالدو». وهو أكبر امتياز لماكدونالدز خارج الولايات المتحدة. وقد حقق ماكدونالدز اليابان نجاحاً كبيراً فى إدماج نفسه فى اليابان إلى حد أن هناك قصة تروى عن فتاة يابانية صغيرة وصلت إلى لوس أنجيليس، ونظرت حولها، وشاهدت بعض مطاعم ماكدونالدز، فشدت كم أمها وقالت لها: «انظرى يا أمى، عندهم ماكدونالدز فى بلدهم أيضاً». قد تلتمس العذر للطفلة الصغيرة لاندهاشها بأن ماكدونالدز شركة أمريكية، وليست فى الواقع شركة يابانية. (لقد غير اليابانيون العاملون فى ماكدونالدز اسمه من رونالد ماكدونالد إلى «دونالد ماكدونالد» ليجعلوه أكثر سهولة فى النطق على اليابانيين). قال لى چيمس كانتالوبو رئيس شركة ماكدونالدز إنترناشيونال: «إنك لا تفتح لك ألفى محل فى اليابان لمجرد أنك شركة أمريكية. كلا. إن ماكدونالدز لا يقدم سوى اللحم والخبز والبطاطس.

والناس فى أنحاء العالم يأكلون اللحم والخبز والبطاطس. ولكن السر يكمن فى الشكل الذى تقدمها به والخبرة التى تعرضها».

وقصة الفتاة التى لم تكن تعرف أن ماكدونالدز مصدره شيكاجو وأن مؤسسه رجل يدعى راى كروك، وهو لا يمت لليابانيين بصلة، تعنى بالنسبة لى علامة على «العوحلية» غير الصحية. أما إذا عوملت شطيرة بيج ماك على أنها شىء مختلف وأن الاستمتاع بها مرده إلى أنها شىء مختلف فتلك هى العوحلية الصحية. العوحلية غير الصحية هى أن تمتص شيئاً ليس جزءاً من ثقافتك، ولا يرتبط بأى شىء كامن فى ثقافتك، ولكنك فقدت صلتك بثقافتك إلى درجة أنك تعتقد أن هذا الشىء جزء منها. يقول تزفى ماركس: «فى مجال الطب يقولون إن من بين الطرق التى ينفذ بها فيروس السرطان إلى الخلية أن يتخفى بحيث لا تعرف الخلية بوجوده داخلها وتعتقد أن السرطان جزء عضوى منها ـ وتظل الخلية على هذا الاعتقاد إلى أن يكون الوقت قد فات، ويكون السرطان قد استولى على نواة الخلية وفجأة تصبح الخلية فى خبر كان». وهذا قد يحدث ـ عندما تلعب العوحلية دور فيروس السرطان الذى يخدعك بحيث تظن أنه شىء ينتمى إليك، وهو ليس كذلك. قد أكون سعيداً بانتشار محال ماكدونالدز فى اليابان وسعيداً بوجود بار يقدم مشروب السوشى اليابانى بالقرب من منزلى فى مدينة بيثيسدا الأمريكية . وقد أكون سعيداً لأن الفتاة الصغيرة فى قصتنا تلك تحب ماكدونالدز، قدر سعادتى بأن ابنتى تحب السوشى. ولكن المهم أن تحب هذه الفتاة اليابانية ماكدونالدز لأنه مختلف، وليس لأنها انخدعت بحيث اعتقدت أنها بالفعل محال يابانية. وعندما يحدث ذلك يصبح التجانس على مقربة. وعندما يحدث ذلك لن يكون هناك ما يمنع من أن تفقد تلك الفتاة اليابانية فى نهاية الأمر الاتصال بكل ما هو يابانى بحق، وسوف تستيقظ فى يوم من الأيام لتجد نفسها مثل تلك الخلية وتكتشف أنها تعرضت للغزو ولم يبق شىء من ذاتها وثقافتها.

ومع ذلك، فإن العوحلية وحدها، حتى فى أشد أشكالها صحة، ليست كافية لحماية الثقافات الأصلية من العولمة. إذ لابد أيضاً من وجود بعض المرشحات القوية. بداية، أنت بحاجة إلى قوانين للتطويق، وقوانين المحميات وبرامج تعليمية للحفاظ على المناطق الفريدة والتراث الثقافى من التطورات الماكرة التى تعمد إلى التجانس. وليس معنى ذلك أن تقول لا لكل ماكدونالدز، ولكنه قد يعنى أن تقول لا لماكدونالدز فى أحياء معينة. وذلك يتطلب تخطيطاً قوياً يضعه مسئولون بيروقراطيون لا يمكن شراؤهم وسياسيون على استعداد للاعتراف بالقيمة الحقيقية للحفاظ على التراث.

ظل الجنوب الفرنسى، كما هو الجنوب الفرنسى، إلى حد ما، لأن ألمانيا تقدم عن طريق الاتحاد الأوروبى الدعم للزراعة الفرنسية، بحيث يظل صغار المزارعين الفرنسيين، ومن ثم صغار التجار وصغار القرى صامدين دون مساس بهم - على الرغم من الضغوط العالمية التى يتعرضون لها من أجل تجميع المزارع وتحويل القرى إلى أسواق لكل شيء. وبعبارة أخرى، إن ما يعجبنا فى الجنوب الفرنسى يقوم على أساس سياسات تقدر القيمة الحقيقية للحفاظ على التراث الثقافى. إنه يقوم على سياسات زراعية أوروبية مشتركة وانتقال الأموال عبر الحدود لكى تدعم زراعة المساحات الزراعية الصغيرة بغية الإبقاء على القرى الصغيرة هناك دون مساس، لأنها فى نظرهم، مصدر للثراء الثقافى إلى حد ما. نحن إذن بحاجة إلى مثل هذه الأنواع من شبكات الأمان الاجتماعى من أجل الحفاظ على تراثنا الثقافى. ويجب أن يعلم السياسيون جماهير الشعب بقيمة شبكات الأمان الثقافى وأن يكونوا على استعداد لإقناعهم.

وفى الدول النامية، حيث لا توجد بعد طبقة وسطى كبيرة بدرجة تكفى للاهتمام بحماية التراث الثقافى أو حتى للضغط من أجل ذلك، وحيث تتسم فيها قوانين التطويق والتشريع البيئى بالضعف، سواء كان بالخروج عليها أو لأنها أساساً غير موجودة، فإنك بحاجة أكبر إلى الاعتماد بشدة على مرشّح آخر - وهو السوق. إنك

عندما تجىء إلى أحد قاطعى الأخشاب فى إندونيسيا، لديه أسرة مكونة من اثنى عشر شخصاً يجب عليه إعالتهم، ثم تقول له إنه يجب عليه حقيقة عدم تجريد الغابة المطيرة من الأشجار أو إحراقها لأنها جزء من التراث الثقافى لبلاده، فلن تصل ببساطة إلى نتيجة. سيقول لك، «إذا كنت تريد الحفاظ عليها ـ فعليك أن تشتريها» . لابد من أن يرى الناس أن المحافظة على تراثهم الثقافى مرتبط برفاهيتهم ولا يعنى التضحية بأنفسهم فى سباق الرخاء. ويمكن أن تلعب السياحة دوراً مهماً فى إيجاد حوافز للسكان المحليين للحفاظ على خصائص مكان ما وتقاليده. فالسائحون دائماً يريدون أن يعرفوا: هل باستطاعتهم أن يتنفسوا هواء نقياً؟ هل باستطاعتهم شرب ماء نقى؟ هذه هى المسائل المهمة بالنسبة لمن ينشئ فندقاً ويريد أن يبيع وجبة العشاء للسائحين بمبلغ 20 دولاراً بدلاً من دولار واحد للمواطنين. وأحياناً يكون أفضل طريق لحماية هرم أو موقع للتنقيب عن الآثار أو حى له طابع فريد، هو أن تجعل الحفاظ عليه مربحاً لمن يعيشون بالقرب منه.

فى عام 1997 ، كنت ذات مرة فى زيارة لجزيرة بالى الإندونيسية حيث كنا أنا وزوجتى نشاهد هناك أحد أجمل المواقع الدينية، پورا تاناه لوت، وهو ذلك المعبد الذى شيد فوق بروز صخرى ساحلى. وحينما يأتى المد، يصبح هذا البروز الصخرى والمعبد منعزلين بفعل الأمواج المتكسرة على الصخر. وهو منظر خلاب يجتذب ملايين السائحين الإندونيسيين الذين يأتون إليه ويقدمون القرابين الهندوسية. وصلنا إلى الموقع عند غروب الشمس، وحينما ذهبت لالتقاط صورة لزوجتى بحيث يكون المعبد فى خلفيتها لاحظت وجود إحدى عربات الجولف تسير مسرعة. لقد أنشئ ملعب للجولف على طول الساحل، لا يبعد عن المعبد إلا ببضع مئات من الأمتار، وكان ممر عربة الجولف يمر على طول خط الشاطئ تماماً. والآن، أنا بالفعل أحب الجولف، ولكننى أحب أيضاً المشاهد الطبيعية التى تأخذ بالألباب وأحترم المعابد المقدسة. وكان

من الواضح أنه لم يكن هناك تخطيط فى الموافقة على موقع ملعب الجولف هذا، أو أن الموظفين فى المحليات المسئولين عن التخطيط قد ارتشوا.

ولاعجب إذن فيما نشرته صحيفة **جاكارتا بوست** فى أثناء الأسبوع الذى قضيناه هناك عن أن بعض الفنانين من بالى أقاموا معرضاً فنياً للاحتجاج على انتهاك الجرارت لجنتهم. قالت الصحيفة إن المعرض تضمن لوحة لكرة الجولف متجهة نحو فى موكب هندوكى، ولوحة أخرى تمثل جزيرة بالى على صورة كرة جولف يلعب بها العالم، وصورة أخرى لأحد المزارعين وهو يستخدم مغرفته مثلما يفعل لاعب الجولف بعصاه ـ إلا أنه يطوحها تجاه القائمين بتحويل المنطقة إلى ملعب للجولف. وقد أطلق على المعرض اسم له دلالته: «عولمة بالى glo-BALI-zation».

إذا واصلت بالى السير فى هذا الطريق الذى تدمر به نفسها فإن ذلك معناه نهاية لصناعة السياحة بها. حقاً، كان الكتاب السياحى الذى استعنا به لإرشادنا أثناء زيارة بالى، وهو أحد الكتب السياحية لشركة كنوف، قد كتب قبل سنتين من زيارتنا، يقول ما يلى عن موقع پورا تاناه لوت: «إن الأعمال المكثفة لتحويل المكان إلى مزار سياحى محيرة، وهى حتى لم تنته بعد: إذ يجرى التخطيط لإنشاء فندق فخم وملعب للجولف. إنه مكان ما زال حتى الآن يستحق الزيارة». وعندما يبدأ المرشدون السياحيون فى تحذيرك من أن البلاد تفرط فى استغلال تراثها الثقافى ذاته ويقولون لسائحيها أن يسارعوا بزيارة معالمها السياحية قبل أن تضيع، فإنك تدرك أن هذا البلد قد دخل فى منطقة خطرة. وأخشى أن تتضمن النسخة التالية من دليل كنوف ببساطة ما يلى: «تأخرت كثيراً. اذهب إلى مكان آخر».

هذا هو السبب فى أن حافز الربح غير كاف رغم ضرورته فى بعض الأوقات، لأنه يمكن بسهولة شديدة أن يؤدى إلى المتاجرة بكل قيمة تراثية واستغلالها. كما أنك بحاجة أيضاً إلى طبقة وسطى وصفوة لديهما ما يقدمانه من الالتزام الكافى

بالتحرك الاجتماعى بما يحافظ على رموزها الثقافية، حتى وإن كان ذلك غير مربح مادياً ـ بل وبالتحديد عندما يكون ذلك غير مربح مادياً. عندما يتعلق الأمر بالحفاظ على الجوانب غير التجارية فى الحياة فلا تستطيع أن تطلب الكثير من السوق، وأنت لا تريد أيضاً من السوق أن تفعل الكثير.

يرى فريد زكريا رئيس التحرير الإدارى لمجلة ***فورين أفيرز*** *Foreign Affairs* وهو من أصل هندى، أنه «على المدى الطويل سوف يكون من قبيل الأوهام أن تظن أن السوق ودافع الربح وحدهما يكفيان لحماية التراث الثقافى لدولة ما أو أصولها البيئية. إن ذلك ببساطة لن يحدث. لأن ما تفعله العولمة هو إكساب الرجل العادى القوة. إنها تكسب الرجال والنساء العاديين القوة فى أن يقوموا بجميع هذه الاختيارات، وعندما يحدث ذلك فلا بد أن تكون لديهم الاختيارات التى تبدو أكثر جاذبية لهم، وأكثر عصرية، وأكثر إغراءً، وأكثر ملاءمة، وأكثر ربحاً. قد يرغبون فى وجود أسواق شاملة فى كل شارع وتاكو بيل فى كل ركن ـ حتى وإن أدى ذلك على المدى القصير إلى القضاء على تراثهم الثقافى المحلى والقومى. وهذا هو السبب فى أنه لا يكفى مجرد أن تستغل السوق، بل عليك أن تضع ضوابط لها. ولكنك لكى تضبطها ستكون بحاجة إلى الصفوة المستعدة لحماية الأشياء من طغيان السوق ـ أن تنشئ مساحات لا تتحكم فيها السوق أو تغزوها، وبذلك تحمى كل تلك الجوانب اللاعقلانية واللااقتصادية التى تمثل الصفات القومية لدولة ما. ودائماً تكون الصفوة وحدها التى تحميها ثروتها الخاصة على استعداد للاهتمام بمثل هذه الأشياء. لقد ساعدت أسرة روكفلر فى إنشاء نظام المتنزه القومى فى أمريكا. وأسس الرأسماليون العظام متحف متروبوليتان بعد أن قالوا إننا بحاجة إلى متحف ليس له علاقة بالسوق».

ولئن كانت كل هذه المرشحات التى تحمى التراث الثقافى والبيئة معقولة من الناحية النظرية إلا أنك بحاجة إلى أن تجعلها تعمل جميعاً على الفور حتى يكون لديك أى أمل فى أن تؤتى ثمارها. فلن يدر متنزه الغابة المطيرة وحده عائداً كافياً لمنع قطع الأخشاب تماماً. وليست لدى المسئولين البيروقراطيين وحدهم الإرادة السياسية الكافية لتنفيذ كل القوانين البيئية. ولن تكون الشركات الخضراء وحدها كافية على الإطلاق لإبطاء سرعة تدهور البيئة. ولن تكون العناصر النشطة على الإنترنت وحدها قط كافية فى كبح جماح القطيع الإلكترونى.

ولهذا السبب آمل، بل الواقع أننى أعتقد، أننا ونحن بسبيلنا إلى دخول ذلك العقد التالى من العولمة أن يقيم شخص ما، أو حزب ما، برنامجه السياسى على أساس فكرة أن تعمل كل هذه المرشحات معاً. وأنا لا أتكلم عن جرينپيس (السلام الأخضر)، وإنما أتكلم عن الأحزاب والسياسيين البارزين.

ولسوف يبدأ ذلك فى الدول المتقدمة ثم يأخذ بعد ذلك فى الانتشار. والأنباء الطيبة هى أن هذه السياسات أصبح لها الآن اسم - «قضية القدرة على استمرار الحياة». ففى الولايات المتحدة بدأ آل جور نائب الرئيس فى تبنى هذه القضية. وهو يرى أن القدرة على استمرار الحياة تتطلب «نمواً ذكياً»، وأن النمو الذكى يتطلب السياسيين الذين يضعون مجموعة من القوانين والحوافز والمبادرات التى من شأنها أن تجعل كل هذه المرشحات تعمل معاً. والعنصر الأساسى فى استراتيچية جور هو إيجاد «سندات لأمريكا أفضل». ويسمح هذا البرنامج، من خلال الدعم الضريبى الفيدرالى، للمجتمعات بجمع ما يصل إلى 9.5 مليار دولار وذلك بطرح سندات ثم استخدام هذه الأموال فى شراء المساحات المفتوحة التى ما زالت خضراء، واستعادة المتنزهات التى تذوى، وتجديد المناطق التى دمرت فيها البيئة وما زال بالإمكان استعادتها، ولا سيما المناطق الداخلية فى المدن. فكلما استصلحت المناطق الداخلية فى المدن قلت الضغوط لزحف المبانى على المناطق الخضراء.

لن تسنح الفرصة لكبح جماح الخطط التجارية التى لا تلين، والمنسقة، والممولة تمويلاً جيداً وذات الكفاءة لشركات مثل نايك، وإم تى فى MTV، وماكدونالدز، وبيتزا هت، وإنرون وتاكو بيل سوى بسياسات منسقة لا تلين تزيد من القدرة على استمرارية الحياة وتمكن مجتمع ما من النجاح فى تشغيل كل المرشحات البيئية والثقافية الضرورية فى تناغم. قد يكون ذلك الآن مجرد أمل أو رجاء، ولكنه أمل ورجاء ضروريان ـ فلن تكون هناك عولمة مستدامة ومتواصلة بدون الحفاظ على البيئة والحفاظ على التراث الثقافى.

جميعها يسير جنباً إلى جنب. فالتراث الثقافى يزدهر ويستمر فى ظل بيئة أصلية. إن أكثر القبائل إثارة للاهتمام وأكثرها تنوعاً فى منطقة الأمازون تعيش فى أكثر المناطق احتفاظاً بأصالتها وخلواً من التلوث وأقلها تطوراً. كما أن أكثر المدن والأحياء والمناطق والمجتمعات تنوعاً فى أمريكا أو فى قطر أو فى جنوب فرنسا هى تلك التى لم يطغ التطوير والأسواق الشاملة على طبيعتها بحيث تبدو أشبه بأى مكان آخر فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وتعتبر إسرائيل من حالات الدراسة الشيقة فى هذا الصدد، لأنها مكان له تراث ثقافى قوى يرجع إلى آلاف السنين، وبيئة ترتبط أكثر من أى مكان آخر فى العالم بكل تل وصخرة ذكرت فى التوراة. ومع ذلك، تصارع جمعية حماية الطبيعة فى إسرائيل الزحف المدنى المكثف على البلاد. لأنك إذا غرست شجرة على التلال القائمة بين القدس وتل أبيب فعليك أن تذهب لرؤيتها سريعاً. فربما لن تظل هناك فترة طويلة، لأنه بحلول عام 2020 سوف تصبح المنطقة الممتدة من حيفا إلى تل أبيب إلى القدس على الأرجح امتداداً عمرانياً ضخماً ملتحماً واحداً. فالإسرائيليون يقومون بالبناء وكأنهم يعيشون فى أستراليا ـ المزيد أفضل، الأكبر أفضل، الأوسع أفضل. وإذا استمرت الاتجاهات السكانية الحالية، فسوف تصبح إسرائيل من أكثر الدول كثافة

سكانية فى العالم فى المساحة التى تقع إلى خارج صحراء النقب. والمؤسف أن الأقواس الذهبية لماكدونالدز تحتل الآن قمة أحد التلال الشهيرة التى تصادفك وأنت تدخل إلى القدس أو تخرج منها من ناحية الغرب.

ويتعين على إسرائيل أن تشعر بحساسية أكبر تجاه التنمية المستدامة لأنها بالتحديد لا تستطيع أن تحدّ مطلقاً من هجرة اليهود إليها. وإلا فإن التراث الإسرائيلى ـ الصهيونى سوف يفقد البيئة التى خرج منها ويرتبط بها ارتباطاً حميماً. قال لى آفرام شاكيد منسق الحماية فى جمعية حماية البيئة فى إسرائيل موضحاً ونحن نقضى صباح أحد الأيام فى مراقبة البلدوزرات وهى تقتطع بضع قضمات من التلال اليهودية: «إن كل مشروع نال الموافقة وفقاً للخطة القومية، ثم يدمر فضاءً مفتوحاً، فهو يدمر معه جزءاً من التراث اليهودى ـ المناظر الطبيعية التى ذكرت فى التوراة فى عهد داود وسليمان. فالتوراة تشير إلى كروم بن شيمن. واليوم أصبح بن شيمن أكبر تقاطع طريق سريع فى البلاد. إننا ما زلنا نتحدث عن 'أرض إسرائيل' على نحو ميتافزيقى، ولكننا ننسى الأرض الفعلية».

تدخل بعدها يواف ساجى رئيس جمعية حماية الطبيعة فى إسرائيل فى الحديث ثائراً، وقال: «لا بد لنا هنا من تغيير مفاهيمنا، من إخضاع الأرض إلى حماية الأرض. ذلك أنه إذا حدث فى يوم من الأيام أن أصبحت إسرائيل دولة عادية، بدون مواجهة حروب أخرى، فإن ما ساعدنا على استمرار الحياة هنا هو نوعية الحياة وارتباطنا بالأرض. ولكننا إذا واصلنا الاتجاه الحالى فلن تكون هناك نوعية للحياة ولا أرض نرتبط بها».

إنك عندما تنزع عن بيوت الناس تميزها ـ إما بتجانسها وإما بتدميرها بيئياً ـ فإنك لا تعرض للخطر التراث الثقافى وحده وإنما تماسك النسيج الاجتماعى أيضاً. فقد يكون التراث الثقافى فى أفضل الظروف واحداً من أقوى أشكال التقييد الاختيارى

للاندفاع فى سلوك البشر. فهو يمنح الحياة الشكل والمعنى. إنه يقر مجموعة كاملة من العادات والضوابط السلوكية، والآمال والتقاليد التى تعطى للحياة شكلاً معيناً وتشد المجتمع بعضه إلى بعضه الآخر. وعندما تقتلع العولمة الجامحة الثقافات والبيئات من جذورها تدمر فى الوقت ذاته النسيج الضرورى اللازم للحياة الاجتماعية.

يعود بنا ذلك إلى الحديث عن العولمة المستديمة أو المتواصلة . إنك لا تستطيع بناء مجتمع ناهض ـ وهو شيء جوهرى فى التعامل مع نظام العولمة ـ إذا كنت تدمر فى آن واحد الأساسيات الثقافية التى تدعم مجتمعك وتعطيه الثقة بالنفس والتماسك لكى يتفاعل بصورة سليمة مع العالم. وهذا هو السبب فى أن ما أشعر به من قلق تجاه الدول النامية التى تطغى العولمة على ما يميزها عن غيرها يتجاوز مجرد الاهتمام الضيق برغبتى فى أن تظل أماكن مبهرة نسعد بها جميعاً كسائحين. ويرجع ما أشعر به من قلق إلى أنه بدون بيئة لن يكون هناك التراث الثقافى المتواصل، وبدون التراث الثقافى المتواصل لن يكون هناك المجتمع المتواصل، وبدون المجتمع المتواصل لن تكون هناك عولمة متواصلة.

إننى أشهد هذه العملية بوضوح فى الحى الذى أعيش فيه. المقهى المفضل لدىّ هذه الأيام، ويقع على بُعد بضعة أميال من منزلى فى مدينة بيثيسدا بولاية ميريلاند، واسمه كورنر بيكرى (مخبز الناصية) . بداية، يعجبنى اسم كورنر بيكرى. إنه يعطى شعوراً بالدفء والجوار، وهم يبيعون فى الداخل ثلاثين نوعاً مختلفاً من الخبز. كما أن له نكهة المخابز القديمة وشكلها أيضاً. وبه ديكورات من الخشب والنحاس اللامع ويتميز العاملون به بالود. نعم، هذا هو مقهى كورنر بيكرى الخاص بى. ولكن ثمة مشكلة وحيدة تتعلق بمقهى كورنر بيكرى الخاص بى. وهو أنه ليس على كورنر (ناصية) . بل إنه يوجد فى داخل مونتجومرى مول، وهو مركز للتسوق. فعلى الرغم من أن الاسم والأجواء التى تحيط بالمكان تذكرك بشارع مين ستريت Main Street

القـديم، فـلا توجـد بـه تلك الروح التى كـانت سـائدة قـديماً. فـإذا ذهبت إلى كـورنر بيكرى لا تجد تلك العبـارات الحـمـيـمـة «مرحباً يا جار ـ مرحبا پوپ ـ مرحباً دكتور». إنهم مجرد مجموعة من الغرباء تقابلوا صدفة على الطريق. وبعبارة أخرى، إننا قد وصلنا بالفعل إلى حقبة ما بعد ماكدونالدز. وإننا عدنا من الظاهر فقط إلى شيء فى جذورنا ـ ولكن المجتمع والبيئة المحيطة التى أعطت الحياة لمخبز الناصية القديم ليست قائمة هناك فى خلفيـة سلسلة مقاهى كورنر بيكرى الجديدة. وهكذا فإنها مجرد واجهة بوتمكين، لا يثبتها المجتمع فى مكانها وإنما تثبتها الخرسانة المسلحة.

إن أكثر ما أخشاه أن تصل ماليزيا وتايلاند، والهند وإسرائيل، وقطر وإندونيسيا فى نهاية الأمر إلى مرحلة من تطورها تجعلها أيضاً تريد استعادة مخابز الناصية الخاصة بها ـ المشاهد والروائح والألوان وأكشاك الشوارع والعمارة والمناظر الطبيعية للأيام الخوالى. تلك هى الأعشاش التى غرست وترعرعت فيها ثقافاتها المتميزة، أشجار زيتونها. ولكنهم قد يكتشفون أنها محيت من الوجود إلى الأبد، ليس بفعل نوع جديد ومتطور من ثقافتهم القديمة التى حدثت على مر التاريخ، وإنما بالأحرى بفعل ثقافة عالمية عقيمة أخذت طريقها بعنف إلى مجتمعاتهم محطمة حدودها الثقافية.

ليس بوسعنا أن نأمل فى أن نحافظ على كل تراث ثقافى فى العالم كما هو عليه تماماً. كما أننا لا نود الاحتفاظ بتراث ثقافى يفتقر إلى الإرادة الذاتية والتماسك اللازمين للقيام بذلك بنفسه. فكما هو الحال بالنسبة لأنواع الكائنات الحية يعتبر انبثاق الثقافات وازدهارها ثم موتها جزءاً من التطور. ولكن ما يحدث اليوم، بفضل العولمة، هو تطور توربينى. شيء أقرب إلى الظلم. ففى عالم بلا أسوار، لا تستطيع حتى بعض الثقافات القوية مجاراة قُوى القطيع الإلكترونى. وتحتاج إلى ما يساعدها على البقاء، وإلا فإنه سيقضى عليها بمعدل يفوق قدرتها على التجدد بفعل التطور، وسوف ينتهى بنا الحال بوجود حيوان واحد فى حديقة الحيوان.

ولا يوجد من يفهم ذلك أفضل من جيمس وولفينسون رئيس البنك الدولى. حكى لى وولفينسون ذات مرة عن رحلة قام بها فى جواتيمالا، بعد وقت ليس بطويل من توليه رئاسة البنك الدولى: «كنت فى ذلك البلد ذى الأراضى المرتفعة، حيث قابلت زعماء قبائل المايا المسنين. كان اللقاء فى قرية شديدة الفقر، ومحرومة من كل شيء. كان هؤلاء الناس لا يملكون شيئاً. وكان علينا أن نذهب إلى هناك لنعرف كيف السبيل إلى مساعدتهم على النهوض بشئون الرعاية الصحية والتعليم. وعندما أثرنا موضوع التعليم وجدنا أن ذلك هو الشيء الذى يفضلون الحديث عنه أكثر من أى شيء آخر. بل أكثر من الحديث عن المياه. كانوا يريدون منا مساعدتهم فى حماية التعليم المايى، وهو عبارة عن تراث شفهى تتناقله الأجيال عبر ثلاثة آلاف عام. هنا كان الناس فى شدة الفقر، ولكنهم كانوا أثرياء إلى حد مذهل فى تاريخهم وثقافتهم ـ لقد درسوا الرياضيات والفلك قبل الغرب بزمن طويل ـ وكانوا يريدون منا مساعدتهم على الاستمرار فى نقل هذا التراث إلى أطفالهم. إن العالم ليصبح مكاناً أكثر فقراً إذا لم نساعدهم على ذلك».

وهكذا بدأ وولفينسون برنامجاً للإقراض الثقافى فى البنك الدولى ـ إلى جانب الإقراض الإنمائى العادى ـ على اعتبار أن فقدان معرفة وثقافة زعماء قبائل المايا هؤلاء سيكون بمثابة فقدان الحمض النووى (الدنا DNA) لنوع نادر من النباتات أو الحيوانات. ومن بين مشروعات الإقراض الثقافى التى يدعمها البنك الدولى الآن ترميم المتحف الوطنى فى البرازيل، وترميم مساجد فى سمرقند، والحفاظ على المواقع الأثرية فى بيت لحم، وإصدار قاموس لغوى فى أوغندا، وتطوير مشروعات الثقافات الحية للشعوب الأصلية فى بيرو وبوليفيا، ودعم الحرفيين المهرة وأصحاب المهن اليدوية فى المغرب. والأمر المحزن الوحيد هو أن وولفينسون عليه أن يصارع كل عام مجلس إدارة البنك الدولى المؤلف من وزراء للمالية، لاستمرار تمويل هذا البرنامج. يقول

وولفينسون: «أقول لهم، 'هل يمكن أن تتخيلوا إنجلترا بدون تاريخها؟ هل يمكن أن تتخيلوا كيف يكون الحال إذا ذهبنا إلى فرنسا ولم نعثر على ثقافتها؟ حسناً، إذا كنتم لا تستطيعون تخيل ذلك، فلم إذن تنكرونها على الدول النامية التى تحتاج إليها حتى أكثر منكم؟ فليس فى استطاعتكم مساعدة الناس على التقدم إلى الأمام ما لم تكن لديهم معرفة بالقاعدة أو الماضى اللذين انحدروا منهما'». إن أفضل جزء فى برنامج وولفينسون هو أنه يتعين على الدول التى تحصل على مساعدات ثقافية، أن تستخدم15 فى المائة منها لتمويل الفنانين والمصورين وأصحاب الحرف والشعراء المعاصرين حتى لا تصبح مساعدات البنك الدولى مجرد وضع التراث الثقافى فى المتاحف بل رعايته باعتباره حقيقة تعيش فى الوقت الراهن.

لن يكتب الاستمرار للعولمة إلى حد ما إلا بمدى نجاح كل منا فى وضع المرشحات اللازمة لحماية تراثنا الثقافى وبيئتنا، فى حين يحصل على أفضل ما لدى الآخرين من هذا التراث الثقافى. لو كانت العولمة أكثر من مجرد طريقة لتبادل الثقافات ـ بما يتيح لى أن أتذوق السوتشى والكابوكى اليابانى اللذين يخصان تلك الفتاة اليابانية فى حين تستمتع هى بمذاق ماكدونالدز وديزنى اللذين ينتميان لى ـ بحيث تسمح أكثر للناس بأن ينتقوا ويختاروا بالفعل. وإذا تحولت إلى نوع من الاتحاد الكونفيدرالى بين ثقافات مميزة وليست متجانسة، وإذا ساندت عالماً أكثر تنوعاً ثقافياً بدلاً من ذلك العالم النمطى الذى يفتقر إلى الروح، فسوف يكتب لها الاستمرار. يقول يارون إيزراحى فى ذلك: «إما أن تعمل العولمة على تجانسنا من السطح فقط وتظل جذورنا الثقافية المحلية باقية، وإما أن تعمل على تجانسنا حتى الجذور، وتصبح حينئذ أداة للدمار البيئى والثقافى والسياسى».

لا بأس فى أن يوجد فى عالم ديزنى الجناح الصينى والجناح الفرنسى والجناح المكسيكى. ولكن فليلطف بنا الله من عالم يكون فيه الجناح الصينى فى عالم ديزنى

هو كل ما يذكرنا بما كانت عليه الصين، وحيث تكون مملكة الحيوان فى عالم ديزنى هى المكان الوحيد الذى يذكرنا بما كانت عليه الغابة فى يوم من الأيام، وحيث يكون مقهى الغابة المطيرة هو الغابة المطيرة الوحيدة التى ستقع عليها عينك وعيون أولادك.

@Ahmedyassin90

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل الثانى عشر

الفائزون يحصدون كل الأرباح

أعطنى سعر إقفال مؤشر نيكى والنقاط التى بلغتها أسهم ديترويت

ـ مايكل جوردان، يتحدث فى إعلان كان يلعب فيه دور أحد المسئولين التنفيذيين فى وول ستريت.

دينيس، لقد جئت من أجلك من بولندا.

ـ لافتة رفعت فى مدرجات ملعب شيكاجو بولز فى مركز يونايتد سنتر موجهة إلى دينيس رودمان.

11 أبريل، 1998

إننى ممن يعطون تذكرة لحضور جميع مباريات الموسم لفريق واشنطن ويزاردز لكرة السلة التابع للاتحاد القومى لكرة السلة (NBA). وكان صيف عام 1996 من الأوقات الكئيبة لكل مشجعى فريق ويزاردز .كان چوان هوارد نجم نجوم فريق ويزاردز، حر فى الانضمام إلى أى فريق فى ذلك الصيف، وكان نادى ميامى هيت العامرة خزائنه بالأموال يحاول استمالته بتقديم عرض يقرب من 120 مليون دولار على مدى سبع سنوات. وكان نادى ويزاردز يعرض عليه مبدئياً ما بين 75 و 80 مليون دولار «فقط». وفى ذروة المفاوضات على عقد هوارد تقابلت مصادفة مع المعلق السياسى فى معهد

أمريكان إنتربرايز، نورمان أورنشتاين، وهو أيضاً من مشجعى نادى ويزاردز، وكنا نعبر عن أسفنا على ما يبدو أنه سيحدث لا محالة من أن يفقد نادى ويزاردز لاعبه هوارد لصالح نادى ميامى.

قال أورنشتاين أثناء حديثنا فى هذا الصدد: «أتعلم أن السبب فى ذلك كله هو اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة (نافتا NAFTA)».

ضحكنا معاً، لأن كلانا يعلم أن ما قاله أورنشتاين فيه كثير من الحقيقة. ببساطة، العولمة تحدث نوعاً من السوق العالمية الموحدة الأكثر انفتاحاً لكثير من السلع والخدمات. والنتيجة، أنه عندما تلتحم دولة ما بهذا النظام، فإن أولئك الذين يتمتعون بمهارات أو مواهب خاصة لبيع سلعهم أو خدماتهم فى تلك السوق العالمية الموحدة يستطيعون تحقيق أرباح حقيقية، لأنهم يستطيعون البيع فى سوق بحجم العالم أجمع. وقد كان من حسن طالع چوان هوارد أن التحسن الذى حدث فى مهاراته لرميات القفز العالى للكرة واستعادتها تزامن مع سقوط سور برلين، واتفاقية نافتا، والاتحاد النقدى الأوروبى، والجات، وانهيار الشيوعية، كما تزامن أيضاً مع غير ذلك من قوى السوق البازغة التى مكنت الاتحاد القومى لكرة السلة من أن يجعل منها رياضية عالمية ومكنت المشجعين من موسكو إلى المكسيك إلى ميامى من المساعدة فى دفع مرتب هوارد. لقد تمكن الاتحاد القومى لكرة السلة فى عام 1998 من بيع ما قيمته 500 مليون دولار من كرات السلة واللوحات التى تعلق عليها السلة، والتى ـ شيرت، وملابس الفريق، وأغطية الرأس التى حصل الاتحاد القومى لكرة السلة على حق تسويقها خارج الولايات المتحدة. ناهيك عن ملايين الدولارات الأخرى من حقوق مشاهدتها بالقمر الصناعى والكابل.

حقاً، لقد بدأت اليوم كرة السلة، التى يرعاها الاتحاد القومى لكرة السلة، تنافس كرة القدم باعتبارها الأكثر شعبية فى العالم. فإلى أى مدى وصلت شعبيتها

العالمية؟ تعرفون بالطبع عرائس ماتروشكا تلك التى يبيعونها فى روسيا ـ وهى عرائس خشبية كل واحدة منها داخل الأخرى الأكبر منها. حسناً، عندما زرت موسكو فى عام 1989 كانت أكثر عرائس ماتروشكا مبيعاً هى تلك التى تمثل مختلف القادة السوفيت وآخر القياصرة. وكنت تستطيع الحصول على لينين بداخل ستالين بداخل خروتشوف بداخل بريجنيف بداخل جورباتشوف. ولكن عندما زرت موسكو لتغطية انتخابات الرئاسة الروسية فى عام 1996، وجدت أن أكثر عرائس ماتروشكا مبيعاً خارج أسوار الكرملين عبارة عن عرائس على شكل اللاعبين دينيس رودمان بداخل سكوتى بيبين بداخل تونى كوكوتش بداخل لوك لونجلى بداخل ستيف كير بداخل مايكل جودران! أنت لست من مشجعى البولز؟ ليست مشكلة. لقد كان البائعون فى شوارع موسكو يبيعون فى ذلك العام جميع فرق الاتحاد القومى لكرة السلة الأمريكى فى مجموعات من عرائس ماتروشكا..

غير أنه إذا كانت العولمة يمكن أن تفسر حسن طالع هوارد، فإنها تساعد أيضاً فى تفسير واحد من أكثر المنتجات الفرعية خطورة للالتحام بنظام العولمة ـ ذلك أنه حدث اتساع ملحوظ فى الفجوة فى الدخل بين من يملكون ومن لا يملكون داخل الدول الصناعية إبان فترة الثمانينيات والتسعينيات عندما أخذت العولمة تحل محل الحرب الباردة، بعد بضع عشرات من السنين ظلت فيها هذه الفجوة مستقرة نسبياً.

سوف يقول لك الاقتصاديون إن هناك أسباباً كثيرة وراء الفجوة فى الدخل الآخذة فى الاتساع، يتصل معظمها بالعولمة. ومن بين هذه الأسباب الانتقالات السكانية (الديموجرافية) من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية، والتغييرات التكنولوجية السريعة التى تجزل العطاء للعاملين فى مجال المعرفة أكثر من غيرهم الأقل مهارة، وتدهور الاتحادات العمالية، وارتفاع معدل الهجرة إلى الدول المتقدمة التى تؤدى إلى انخفاض أجور بعض الأعمال، والتوسع فى التجارة الخارجية.

وينبغى أن تؤخذ كل هذه العوامل فى الحسبان عند محاولة تفسير الفجوة الآخذة فى الاتساع بين من يملكون ومن لا يملكون، ولكننى أودّ، من أجل الهدف الذى أرمى إليه من هذا الفصل، أن أبحث عن العامل الذى ربما يكون أهمها جميعاً، وكان بلا شك هو أكثرها وضوحاً لى أثناء أسفارى. تلك هى ظاهرة «الفائز يحصد كل الأرباح» ـ التى تشير إلى أن الفائزين فى أى مجال اليوم يمكن حقيقة أن يحصدوا كل الأرباح لأنهم يستطيعون البيع فى هذه السوق العالمية الهائلة، فى حين يجد أولئك الأقل موهبة منهم فقط، أو الذين يفتقرون تماماً إلى المهارة، أنهم مقيدون بالبيع فقط فى سوقهم المحلية، ومن ثم تميل أرباحهم إلى أن تكون أقل كثيراً. لقد أشارت صحيفة *يو إس إيه توداى* إلى أن العرض الأول الذى قدمه نادى ميامى هيت لكى يحصل هوارد على 98 مليون دولار على مدى سبع سنوات يمكن أن يوازى مرتب مدرس مدرسة إعدادية (30 ألف دولار فى السنة) لمدة 3,267 عاماً.

يشير الاقتصاديان روبرت هـ. فرانك وفيليب ج. كوك فى كتابهما العظيم، ***مجتمع الفائز يحصد كل الأرباح*** *The Winner-Take-All Society*، إلى أن العولمة «لعبت دوراً مهماً فى اتساع عدم المساواة» بأن أوجدت سوقاً عالمية يحصل فيها الفائز على كل الأرباح. ويشيران إلى أن سوقاً عالمية موحدة لكثير من الصناعات والمهن قد ظهرت إلى الوجود مع انخفاض الحواجز والتعريفات الجمركية أو إزالتها تماماً فى أنحاء الأرض، وانخفاض أسعار السفر، وإزالة كثير من ضوابط الأسواق الداخلية، وانتشار المعلومات بلا قيود عبر حدود الدول. فالبائع الرحالة الذى اعتاد أن يكون عمله مقصوراً على منطقة من خمس ولايات يستطيع الآن استخدام الفاكس وتليفونات الأقمار الصناعية والإنترنت لكى يجلب زبائن له على مستوى الدولة أو المستوى العالمى. والطبيب الذى كان عمله مقصوراً على مستشفى واحد يستطيع الآن أن يشخص وينصح بالعلاج لمرضى عن طريق شبكات إرسال البيانات التى تمتد فى أنحاء

العالم. والمغنى الذى اعتاد أن يقتصر مستمعوه على بلاده فقط يستطيع الآن استخدام تكنولوجيا القرص المدمج (CD) ونظم الكابلات الممتدة حول العالم التى تحصل على اشتراكات للمشاهدة، ليس فقط من أجل الوصول إلى مستمعين عالميين مثلما فعل فريق البيتلز، وإنما أيضاً لتحقيق أرباح هائلة بطرق عديدة من وراء ذلك. وفى الوقت نفسه، يرى فرانك وكوك أن إزالة القواعد الرسمية وغير الرسمية التى كانت تحد من عرض أسعار تنافسية للأفضل فى أى صناعة ـ مثل قواعد شرط التحفظ فى عقود الاحتراف الرياضية التى تحد من قدرة اللاعب على عرض نفسه لمن يتقدم بأعلى سعر، أو القواعد غير الرسمية فى الصناعة التى كانت تفرض على الشركات أن ترقى إلى الدرجات التنفيذية من بين العاملين لديها بدلاً من أن تجوب العالم بحثاً عن الأفضل والأذكى ـ قد أسهمت أيضاً فى إيجاد سوق مفتوحة وعالمية للمزاد. (ويمكن أن يستفيد المستهلكون أيضاً من ذلك فإذا كنت تشكو من مرض نادر، فسوف تكون ممتناً أن تستطيع استشارة أفضل المتخصصين فى أى مكان فى العالم عبر الإنترنت، وإذا كنت من حملة الأسهم فى إحدى شركات فورتشن *500* الهابطة، فسوف يسرك أنها تستطيع استمالة أفضل مسئول تنفيذى حر من أبعد مكان فى العالم، أستراليا مثلاً، ولن تشعر أنك مضطر لمساندة أحد الأغبياء من داخل الشركة).

إذا وضعت هذه العوامل جنباً إلى جنب، فسوف ينتهى بك الأمر إلى وضع تمتد فيه السوق المحتملة الآن من أحد طرفى المعمورة إلى طرفها الآخر، وذلك بالنسبة لأى سلعة أو خدمة، لأى مطرب أو مؤلف أغان، لأى كاتب أو ممثل، لأى طبيب أو محام، لأى رياضى أو أكاديمى. ذلك الانفتاح وحرية الحركة اللذان لم يسبق لهما مثيل يمكنان الشركات والصناعات والمهنيين ويشجعانهم، بل ويطالبانهم بمحاولة تغطية هذه السوق باتساع العالم أجمع ـ وإلا فإن هناك آخر سيفعل ذلك. وعندما يبرز فائز من بين هؤلاء اللاعبين ـ مثل «شركة المحاسبة»، «الطبيب»، «الممثل»،

«المحامى»، «المطرب»، «خبير المبيعات»، «لاعب كرة السلة»، « الرجل»، «المرأة» فى أى مجال معين، فلن يفوز هذا الشخص بالولايات المتحدة أو أوروبا فقط، ولا باليابان أو الصين فقط. بل سيكون بوسعه جنى أرباح وفوائد حقوق ملكية هائلة من كل مكان فى العالم على الفور. إن أفضل تعبير عن ذلك جاء فى شعار الإعلان عن شركة فورد موتورز. «فورد. تفوز بالعالم كله».

يقول فرانك وكوك فى كتابهما: «فى هذه القرية العالمية، يستطيع لاعبو القمة ـ أى أولئك الذين يستطيعون تقديم أفضل منتج ـ تحقيق أرباح هائلة. لنضرب مثالاً، بشركة آكمى راديالز، نفترض أنها شركة لإنتاج الإطارات فى مدينة آكرون بولاية أوهايو. فإذا كانت آكمى هى الأفضل، فى شمالى أوهايو مثلاً، فإنها كانت تضمن حجم أعمال لا بأس به. غير أن المستهلكين الأكثر وعياً هذه الأيام تزداد مشترياتهم من الإطارات من بضع شركات قليلة لصنع أفضل الإطارات فى العالم أجمع. فإذا كانت شركة آكمى واحدة من الأفضل فإنها سوف تفوز وسوف تقفز أرباحها إلى عنان السماء، وإلا فسوف يكون مستقبلها مظلماً على الأرجح».

يشير فرانك وكوك فى هذا الصدد إلى أنه فى حين يستطيع الفائزون تحقيق نجاح مذهل فى هذه السوق العالمية فإن من يقلون مهارة عنهم بدرجة قد لا تذكر سيكون نجاحهم أقل كثيراً، أما من لا يمتلكون سوى القليل من المهارات أو الذين يفتقرون إليها تماماً، فسوف يكون أداؤهم ضعيفاً. لذلك تزداد الفجوة بين المركز الأول والمركز الثانى اتساعاً، ويصبح من الصعوبة تخطى الفجوة بين المركز الأول والمركز الأخير. وبطبيعة الحال، يندر أن يكون هناك فائز واحد فى كثير من المجالات، ولكن أولئك الموجودين بالقرب من القمة يحصلون على نصيب غير متكافىء مع الآخرين. وكلما تعولمت هذه الأسواق المختلفة وأصبحت أسواق «الفائز يحصد كل الأرباح» اتسع عدم التكافؤ داخل الدول، ومن ثم، بين الدول بعضها وبعض.

لقد أصبح عدم التكافؤ هذا من بين أكثر المنتجات الفرعية الاجتماعية إثارة للقلق فى هذا النظام. يشير تقرير لمجلة **ناشيونال چورنال**، إلى أن دخول أفقر خُمس من الأسر العاملة فى أمريكا انخفضت بنسبة 21 فى المائة فى الفترة ما بين عامى1979 و1995 ، معدلة من أجل التضخم، فى حين قفزت دخول أغنى خُمْس من الأسر العاملة بنسبة 30 فى المائة فى تلك الفترة. وفى 30 مايو 1998، ذكرت صحيفة **الإيكونوميست** أن أمريكا بها 170 مليارديراً، فى حين كان عددهم 13 فقط فى عام 1982. وأضافت **الإيكونوميست**، «إن الأداء الاقتصادى يحقق تقدماً الآن بحيث يفوز الجميع. ولكن عدم التكافؤ ازداد زيادة حادة على مدى الثلاثين عاماً الماضية، ولم يكن ذلك شيئاً غير ملحوظ. ففى رسوم الكارتون الصحفية، تحول بيل جيتس من بطل الألعاب إلى محتكر متنمر على من هم أضعف منه ـ تماماً على شاكلة روكفللر. وفيلم **تيتانيك** الذى حطم الدنيا، قدم وجهة نظر تقترب من الماركسية للأحداث، وكان ابتهاج المشاهدين الأمريكيين بغرق واحد أو اثنين من أغنى ركاب السفينة شيئاً يبعث القشعريرة». يقول صدر الدين أغاخان رئيس مؤسسة بيلليريڤ التى ترصد آثار العولمة فى تقرير له إن ثروة بيل جيتس وصلت فى مرحلة ما إلى ما يوازى إجمالى دخل 106 ملايين نسمة من أفقر الأمريكيين.

هناك الكثير من الأمثلة الأخرى لتأثير العولمة فى الفجوات فى الدخول والآثار الاجتماعية المترتبة على ذلك. غير أنك تستطيع، حسب ما أشرت آنفاً ـ أن تعرف كل ما تريد معرفته فى هذا الصدد، بإجراء مجرد دراسة لمجموعة واحدة من الناس ـ مثل الاتحاد القومى لكرة السلة، ولا سيما الأرقام الخاصة بفريق الأبطال العالمى شيكاجو بولز لعام 1997-98.

يعتبر لاعبو وأصحاب الاتحاد القومى لكرة السلة من بين أعظم المنتفعين من نظام العولمة فى يومنا هذا ـ وهو نظام لم يستطع أحد أن يفهمه، أو أن يفهم كيف يستغله أفضل من ديفيد ستيرن مفوض الاتحاد القومى لكرة السلة. وفى هذا قال لى ستيرن موضحاً فى لقاء صحفى أجريته معه، إنه بفضل ديموقراطية التكنولوجيا التى سادت أنحاء العالم الشيوعى السابق، وجد الاتحاد القومى لكرة السلة نفسه فجأة أمام «منافذ متعددة يستطيع بها إذاعة مبارياته ـ الكابل، وأطباق الأقمار الصناعية، والإنترنت، وبصريات الألياف، والتليفزيون التقليدى ـ وذلك فى عدد لا يحصى من الدول». وقال إن الاتحاد القومى لكرة السلة مرتبط اليوم بعلاقات مع أكثر من 90 جهة إذاعية حول العالم، تأتى بمباريات الاتحاد القومى لكرة السلة إلى أكثر من 190 دولة وبواحد وأربعين لغة مختلفة. حتى الصين أصبحت تذيع مباراة أسبوعياً صباح كل سبت. وبفضل ديموقراطية التمويل، وانهيار الشيوعية، وزوال الكثير من حواجز السفر والتجارة، أصبحت هناك سوق هائلة تمتد عبر الدول لكل أنواع السلع الاستهلاكية. وتتلهف الشركات التى ترغب فى البيع فى هذه السوق على أن يكون منتجها له صلة بأحد الرموز العالمية التى يمكن تسويقها عبر الكثير من الحدود والمناطق مختلفة التوقيت فى آن واحد. وأصبح شعار الاتحاد القومى لكرة السلة ولاعبوه الرمز العالمى الذى يمكن أن يجمع ما بين تلك الماركات العالمية ـ معجون الأسنان أو الأحذية أو مزيل للعرق ـ وتمنحها مصداقية فورية مع المستهلكين من بوينيس أيريس إلى بيجنج (بكين). وبفضل ديموقراطية المعلومات ـ وبزوغ نجم مايكل جوردان ـ يمكن أن يظهر أحد المتحدثين باسم سلعة ما ليحظى بالإعجاب من أحد طرفى السوق العالمية إلى طرفها الآخر، على الرغم من الخلافات بين الدول.

وضح لى ستيرن قائلاً: «وهكذا تجد أن شركة سبرايت تذيع إعلانين فى الدنمارك وبولندا فى آن واحد وكلاهما يستخدمان شعار الاتحاد القومى لكرة السلة،

الذى يعطى لمنتجهما جواز المرور الذى يمكن أن يكون مفهوماً فى أى سوق». ولكى يعزز ذلك أضاف قائلاً: «لقد أصبح للاتحاد القومى لكرة السلة مكاتب تسويق تليفزيونى فى باريس، وبرشلونة، ولندن، وتايوان، وطوكيو، وهونج كونج، وملبورن، وتورنتو، ونيوجيرسى، وميامى، وفى مكسيكو سيتى للتسويق فى أمريكا اللاتينية. ونحن نلعب الآن بانتظام ثمانى مباريات كل موسم فى طوكيو ومبارتين فى مكسيكو سيتى».

فى عام 1990، أذيعت مباريات الاتحاد القومى لكرة السلة فى 200 مليون منزل فى 77 دولة. وبحلول عام 1998، ارتفع الرقم إلى 600 مليون منزل فى 190 دولة. وهناك أكثر من 35 فى المائة من المشجعين المتصلين بالموقع الرسمى للاتحاد القومى لكرة السلة على الشبكة، www.nba.com، يعيشون خارج الولايات المتحدة. ويدخل الكثيرون من مستخدمى الكمبيوتر فى 50 دولة بانتظام على موقع www.nba.com. ومنذ عام 1994 تضاعف عدد اللاعبين الدوليين الذين التحقوا بالاتحاد القومى لكرة السلة أربع مرات.

وقد أجريت لقاءً صحفياً مع اللاعب ستيف كير المتخصص فى الرميات الثلاثية، الذى لعب مع مايكل جوردان لعدة سنوات فى فريق شيكاجو بولز، حتى أتمكن من استيضاح هذه النقطة أكثر. بدأ كير عمله الرياضى فى الاتحاد القومى لكرة السلة قبل سقوط سور برلين مباشرة، عندما كان الاحتراف فى كرة السلة رياضة أمريكية بالدرجة الأولى، وبلغ ذروة احترافه اليوم، بعد أن أصبحت رياضة دولية. قال لى كير: «لقد ذهبت إلى طوكيو منذ عامين للمشاركة فى معسكر لكرة السلة هناك يديره سين إليوت (أحد نجوم الاتحاد القومى لكرة السلة أيضاً)، ولم أستطع تصديق أن يعرفنى هذا العدد الكبير من الناس فى أنحاء طوكيو. ففى صبيحة أحد الأيام استيقظت فى الساعة الخامسة صباحاً للذهاب إلى سوق السمك فى طوكيو لمراقبتهم

وهم يبيعون الأسماك بالمزاد. كان الأمر بالنسبة لى أشبه بالمزارات السياحية. فعندما تدخل إلى السوق تجد أسماك التونة الضخمة ترقد هنا وهناك تلك التى يبيعونها بسعر 50 ألف دولار للسمكة. كانت الأسماك موضوعة فوق تلك المنصات النقالة المنتشرة فى أرجاء المكان. وكنت أسير أنا هنا وهناك أشاهد أسماك التونة هذه، وكل هؤلاء الصيادين اليابانيين يتحدثون اليابانية ويزايدون على الأسماك. ولكن فى كل مكان كنت أذهب إليه كان هولاء الصيادون (اليابانيون) الصيادون! ـ يأتون إلىّ ويقولون: 'آه ه، ستيف كير ـ شيكاجو بولز'. كان ذلك فى الساعة الخامسة صباحاً فى سوق السمك بطوكيو!»

وعندما لعب فريق شيكاجو بولز فى مسابقة استعراضية قبل الموسم فى باريس فى أكتوبر 1997 (كانت المسابقة تسمى بطولة ماكدونالدز ـ هل يمكن أن يكون شيئاً غير ذلك؟) صدرت تصريحات بحضور المسابقة لنحو 1,000 صحفى ومصور ـ وهو عدد يفوق عدد من يحضرون منهم نهائيات مسابقات الاتحاد القومى لكرة السلة. ويذكر كير: «شعرت بشىء من الاستغراب وأنا أمشى فى شوارع باريس والجميع يعرفون من أنا».

كان صديقى ألين آلتر مراسل الشئون الخارجية بشبكة سى بى إس CBS الإخبارية يحاول الحصول على تأشيرات دخول لفريق من سى بى إس إلى كوريا الشمالية فى شتاء عام 1997. فقام بما يمكن أن يقوم به أى مراسل جيد ـ إذ أخذ فى التقرب من اثنين من كبار الدبلوماسيين الكوريين الجنوبيين فى الأمم المتحدة كانا مسئولين عن إصدار التأشيرات. ذكر الدبلوماسيان عرضاً أثناء العشاء فى إحدى الأمسيات أنهما مهتمان كثيراً بمباريات الاتحاد القومى لكرة السلة، ومن ثم فقد أرسل لهما آلتر شريط فيديو لمباراة النهائى للاتحاد لعام 1997: بين شيكاجو بولز ويوتاه جاز. وفى صباح اليوم التالى، أرسل له الكوريان الشماليان اللذان لم يهتما من قبل

قط بالرد على أى مكالمات تليفونية أو رسائل فاكس، بمحض اختيارهما، فاكساً يشكرانه فيه على الشريط ويبلغانه أن «التأشيرات فى طريقها بالفعل إلى بيونج يانج بالحقيبة الدبلوماسية». وبعد بضعة أسابيع قليلة جاء وفد كورى شمالى لزيارة نيويورك وذكر أحد الدبلوماسيين الكوريين الشماليين لآلتر أنهم، «معجبون جداً بقادة الهتافات - إننا نشعر بالانبهار تجاههم فى بلادنا». بلا شك أن «الرئيس العزيز» لكوريا الشمالية، كيم يونج إيل، الذى اشتهر عنه بالفعل إعجابه بجودزيللا وبالساحر ديفيد كوبرفيلد قد أصبح يتذوق هتافات المشجعين أثناء مشاهدته للشرائط السينمائية لأهم أحداث الاتحاد القومى لكرة السلة.

ناحوم بارينا كاتب العمود السياسى البارز فى صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، أحد المشجعين لمباريات الاتحاد القومى لكرة السلة المتحمسين، وهو يستطيع بسهولة إشباع نهمه لهذه المباريات؛ لأن الكثير منها يذاع الآن على الهواء مباشرة فى التليفزيون الإسرائيلى على الرغم من فرق التوقيت الذى يصل إلى سبع ساعات. قال لى بارينا إنه كان فى زيارة لوالدته المقيمة بإحدى دور المسنين فى اليوم الذى أقيمت فيه المباراة السادسة لنهائيات الاتحاد القومى لكرة السلة لعام 1997 بين شيكاجو بولز ويوتاه چاز. وأثناء دردشته مع والدته حوّل التليفزيون الموجود فى حجرتها إلى المباراة بين البولز والچاز، بحيث يستطيع زيارتها ومشاهدة المباراة فى آن واحد. وعندما لاحظت والدة ناحوم المسنة أثناء سير المباراة أن ابنها مندمج إلى حد بعيد مع الأهداف التى تحرز أثناء المباراة، سألت ناحوم: «أى الفريقين الفريق الإسرائيلى؟» إذ لم يخطر على بال مسز بارينا أن يكون ابنها متحمساً إلى هذا الحد فى مشاهدة مباراة لكرة السلة لا يشارك فيها على الأقل فريق إسرائيلى واحد.

بيد أن عولمة مباريات الاتحاد القومى لكرة السلة له عواقبه الاجتماعية. ما عليك إلا أن تنظر إلى دكة فريق شيكاجو بولز. فعند أحد طرفى هذه الدكة يجلس مايكل

جوردان. لقد قدرت مجلة **فوربس** دخل جوردان من التوقيع على المنتجات، وهى مصادر غير كرة السلة، بمبلغ 47 مليون دولار فى عام 1997 وبلغ مرتبه فى ذلك العام 31.3 مليون دولار، وبذلك يصل إجمالى دخله إلى نحو 80 مليون دولار. وفى عام 1998، قبل وقت قصير من اعتزال جوردان، قدمت مجلة **فورتشن** تقديرات لتأثير جوردان فى الاقتصاد الأمريكى منذ انضمامه إلى الاتحاد القومى لكرة السلة فى عام 1984 بأنه بلغ «10 مليارات دولار» ـ إذا أخذنا فى الاعتبار أنه كان السبب وراء ارتفاع مبيعات الاتحاد القومى لكرة السلة من التذاكر، وحقوق إذاعة المباريات فى الخارج، وارتفاع أسعار البث التليفزيونى التى كان هو السبب فيها، ومن بيع أحذية ومنتجات نايك وغيرها من المنتجات التى كان جوردان يوقع عليها. لقد أشارت مجلة **سبورتينج نيوز** إلى أن «قيمة جوردان تأكدت لدى عودته إلى الاتحاد القومى لكرة السلة فى مارس 1995، بعد فترة استغرقت ثمانية عشر شهراً لعب فى أثنائها كرة البيسبول. فقد قفزت قيمة أسهم شركاته الخمس التى يوقع على منتجاتها ـ وهى ماكدونالدز، وسارا لى، ونايك، وجنرال ميلز، وكويكر أوتس ـ فى البورصة إلى 3.8 مليار دولار فى غضون أسبوعين». وكان من الأنسب لشركة أبر ديك Upper Deck Company التى تصنع بطاقات كرة السلة وكرة البيسبول أن تنشر إعلاناً فى مجلة **سبورتينج نيوز** يظهر فيه جوردان وهو يمسك بالعالم بين يديه، غير أن حجم العالم كان فقط فى حجم كرة السلة. وإلى جانب صورة جوردان وهو يمسك بيديه الكرة الأرضية كتبت عبارة «هل هذا هو حجمها الحقيقى؟»

إن مايكل جوردان بحق هو الفائز الذى يحصد كل شىء. غير أنه يوجد اثنا عشر لاعباً آخرون فى فريق الاتحاد القومى لكرة السلة. وكان يجلس على هذه الدكة مع جوردان فى آخر موسم له ـ يجلس فى الواقع على بعد أحد عشر مكاناً منه ـ أحد اللاعبين ممن يتميزون بمهارات فى التصويب تقل فى فاعليتها بدرجة طفيفة عنه،

ورمية القفز لديه أقل دقة ولكن بدرجة طفيفة، وتصويباته فى الرمية الحرة أقل توافقاً ولكن بدرجة طفيفة، ومهاراته الدفاعية أقل قوة بدرجة طفيفة. ومع ذلك فهو لاعب كرة سلة عظيم. فقبل كل شيء هو من لاعبى الاتحاد القومى لكرة السلة، وهو من أبطال فريق شيكاجو بولز. اسمه جو كلاين. إنه يجلس على بعد أحد عشر مكاناً من المقعد الذى يجلس عليه جوردان، وكان مرتبه فى عام 1997 أدنى مرتب يدفعه الاتحاد القومى لكرة السلة وهو 272,250 دولاراً سنوياً ـ أى أقل من إجمالى مرتب جوردان بنحو 79,727,750 دولاراً. اللعبة نفسها، والاتحاد نفسه، والفريق نفسه، والدكة نفسها. وأحد أسباب تلك الفجوة الضخمة هو أنه فى حين كانت لمايكل جوردان سوق عالمية لخدماته وأوتوجرافاته كانت سوق خدمات جوكلاين وأتوجرافاته لا تتجاوز المركز التجارى فى شيكاجو.

بعد المباراة بين شيكاجو بولز وأورلاندو ماجيك فى 11 أبريل عام 1998، ذهبت إلى غرفة خلع ملابس لاعبى بولز للحديث مع جوكلاين وزملائه. كانت حقائق السوق العالمية بارزة للعيان على نحو صارخ هناك. كان هناك نحو ثلاثين مراسلاً، صحفياً وتليفزيونياً على السواء، يقفون فى القاعة خارج حجرة خلع الملابس قبل فتحها بعد انتهاء البولز من المباراة. وبعد فتح الحجرة فى النهاية انحشر هؤلاء المراسلون جميعاً متزاحمين على صورة نصف دائرة حول خزانة ملابس مايكل جوردان. وكان ضمن الجمع فريق تليفزيونى يابانى، يتحدثون باليابانية مع بعضهم بعض. وكانت تقودهم مراسلة تليفزيونية يابانية شابة ظل وجهها تعلوه حمرة الخجل كلما خرج واحد من أعضاء البولز العمالقة الذين تصل أطوالهم إلى نحو سبعة أقدام من الحمام وهم يلفون وسطهم بأصغر المناشف. إن المرء لا يرى ذلك فى اليابان كل يوم!

ولكن تخيل هذا المنظر: هناك غرفة لخلع الملابس. وهناك اثنتا عشرة خزانة لخلع الملابس توجد أمامها المقاعد الخشبية. ومع ذلك تجمع أولئك المراسلون الثلاثون فى

نصف دائرة حول الخزانة الخالية للاعب واحد ـ مايكل جوردان. وكانت ميكروفونات المراسلين وكاميراتهم كلها موجهة إلى مقعده الخالى، وجميعهم فى انتظار لحظة وصوله، وجميعهم يأملون فى الحصول منه على تصريح لنقله إلى أنحاء العالم. وذلك فى حين يقف الأحد عشر لاعباً الآخرون يرتدون ملابسهم أمام خزانات ملابسهم، لا يجذبون أى اهتمام تقريباً. (يجتذب سكوتى پيپين فى النهاية اهتمام بضعة مراسلين عندما يظهر).

سرت متمهلاً، من قبيل حب الاستطلاع، نحو جوكلاين، وقدمت له نفسى وسألته عما إذا كان يشعر بالانزعاج إزاء اتساع الفجوة فى الدخول بين لاعبين مثله ومثل جوردان. أشار كلاين إلى أنه يفهم تماماً مبدأ الفائز يحصد كل شيء. وقال فى هذا الصدد: «لقد ظلت المرتبات ترتفع فى هذا الاتحاد بالنسبة للجميع، ولكن النجوم السوبر حققوا قفزة كبيرة. وبالنسبة لى، فقد اخترت أن ألعب مع هذا الفريق وبالحد الأدنى من المرتبات. لقد كان ذلك هو اختيارى، ومن ثم فلا أشكو منه».

فى المجتمع، مثلما فى الاتحاد القومى لكرة السلة، حدثت آثار اجتماعية حقيقية من جراء هذه الفجوات فى الدخل. وقد يصبح الأمر قضية خطيرة فى الفرق الرياضية التى لا يحصل فيها اللاعبون ذوو الرواتب المنخفضة على التعويض النفسى للعب مع لاعب مثل مايكل جوردان أو لايفوزون بأطواق البطولة. لأنه كلما زاد ما يحصل عليه النجوم السوبر، قل ما تبقى للدفع للآخرين، وكان ذلك من القضايا الكبرى فى شروط عقود الاتحاد القومى لكرة السلة فى موسم عام 99-1998. ففى عام 1998 حصل عدد كبير من لاعبى الاتحاد القومى لكرة السلة (25 فى المائة منهم) على أقل حد أدنى فى تاريخ الاتحاد القومى لكرة السلة. وقد نشرت مجلة ***بيترسين برو باسكتبول*** فى هذا الشأن: «لقد بدأ الاتحاد القومى لكرة السلة يصبح انعكاساً للمجتمع الأمريكى بأسره: الأثرياء يزدادون ثراء، وهناك عدد كبير (نسبياً) من الفقراء، ويبدو أن الطبقة الوسطى

تتعرض لخطر الاختفاء. لقد صرح دون كرونسون وكيل اللاعبين بالاتحاد القومى لكرة السلة بقوله، 'فى العام الماضى (97-1996) حصل نحو ثلث لاعبى الاتحاد ـ 110لاعباً من مجموع 348 لاعباً ـ على الحد الأدنى من الأجور فى الاتحاد'. ويبدو من ماجريات الأمور أن هذا العدد سوف يرتفع فى هذا العام إلى نحو150 لاعباً. ففيما بين القيود المفروضة على الحد الأعلى للأجور والحجم المذهل لأجور النجوم السوبر، لم يتبق شىء تقريباً لمن يحصلون على ما بين مليون إلى مليونى دولار، الذين هم عادة أفضل أربعة إلى سبعة لاعبين فى القائمة. ولذلك سيكون لديك ما يكفى لثلاثة على القمة وخمسة فى القاع، ممن يسعدون لمجرد انضمامهم للاتحاد والتهام الفول السودانى. غير أن لديك لاعبين من الرابع إلى السابع هم الأعضاء الأساسيين الذين يتعين عليك إسعادهم ـ وهم بالفعل لن يسعدوا من مجرد وجودهم فى الاتحاد، بأى صورة. فسوف يكون هناك الكثير من الغيرة والاستياء أكثر مما حدث من قبل بكثير. إذ إن وجود فجوة هائلة فى الأجور تعنى مشاكل خطيرة فى غرفة خلع الملابس فى كل وقت، وتلك هى الطبيعة البشرية. وبلا شك أنها أصبحت طبيعة لاعب كرة السلة المحترف فى هذه الأيام'. وكان أفضل مثال على الفجوة بين طبقات اللاعبين ما حدث فى الموسم الماضى مع لاعبى نادى هيوستون روكيتس، حيث حصل نجومه السوبر الثلاثة على مرتبات تزيد على 21 مليون دولار، ولا يوجد فى منطقة الطبقة الوسطى من قائمة الفريق سوى لاعبين اثنين فقط (كيڤين ويليس وماريو إيلى)، ويوجد ما لا يقل عن ثمانية لاعبين آخرين ممن يحصلون على الحد الأدنى من الأجور. يعلق كرونسون على ذلك بقوله: 'مما سمعت أرى أن ذلك سوف يكون فريقاً غير سعيد'».

صرح ستيڤ كير الذى لعب لفريقين آخرين فى الاتحاد القومى لكرة السلة قبل أن يلعب لفريق البولز بقوله: «إنها مشكلة حقيقية. لقد أصبحت هناك أعداد كبيرة من اللاعبين ممن يحصلون على الحد الأدنى من مرتبات الاتحاد القومى لكرة

السلة وهم يشاركون بالفعل فى اللعب، فى حين هناك لاعبون سابقون يحصل الواحد منهم على 4 ملايين دولار ويجلسون على دكة الاحتياطى. ويستحيل والوضع كذلك ألا يشعر بالتذمر هؤلاء المشاركون فى اللعب الذين يحصلون على الحد الأدنى، وألا يكون هناك شعور بالذنب بين هؤلاء المشاركين السابقين الذين يحصلون على 4 ملايين دولار وهم جالسين على دكة الاحتياطى». وعندما سئل كير عما إذا كان قد شعر بالاستياء إزاء هذا الفرق فى المرتبات بينه وبين جوردان، أوضح أنه يفهم العولمة ويعرف مكانه على هذا الكوكب، قائلاً: «كلا لم أشعر بذلك حقيقة. فأنا أفكر فى أولئك الآلاف من اللاعبين الجياد الذين لا يجدون لهم مكاناً فى الاتحاد. وأرى كم أنا محظوظ لأننى أحد أعضائه».

تلك الفجوة الموجودة فى قوائم الاتحاد القومى لكرة السلة تنعكس أيضاً فى الفجوة المتزايدة فى مقصورات مالكى الاتحاد. لقد جرت العادة على أن يكون ملاك الاتحاد القومى لكرة السلة من رجال الأعمال فى المجتمع المحلى. واليوم، أصبح ملاك الاتحاد القومى لكرة السلة من الشركات الكبرى التى تحقق الدخل العالمى اللازم لدفع المرتبات العالمية للرياضيين فى رياضة عالمية. من تظن يملك فريق نيويورك نيكس؟ إنه شركة نظم الكابلات التليفزيونية Cablevision System Corporation. ومن تظن يملك نادى أطلانطا هوكس؟ إنه شركة تايم وورنر. ومن تظن يملك نادى بورتلاند تريل بليزرز؟ إنه پول آلان، أحد مؤسسى شركة مايكروسوفت. ومن تظن يملك نادى فيلادلفيا سيڤينتى سيكسرز ؟ إنه شركة كومكاست كابل. ومن تظن يملك نادى سياتل سوبرسونيكس؟ إنه اتحاد مجموعة الشركات الإعلامية إيكرلى جروب ومن تظن يملك نادى ميامى هيت؟ إنه ميكى آريسون صاحب شركة كارنيڤال للخطوط الملاحية. أما آبى پولين، مالك نوادى واشنطن ويزاردز، فهو واحد من القلة من رجال الأعمال من ملاك النوادى المحليين. وپولين هو أحد أعمدة المجتمع

فى واشنطن، وأحد رجال الخير والكرم هناك. وقد جمع پولين ثروته من تجارة العقارات فى واشنطن وكان عليه أن يعد اللاعب چوان هوارد بمرتب يوازى تقريباً كل ثروته لكى يوقع لناديه فقط لمدة سبع سنوات ويمنعه من الانضمام إلى فريق ميامى. ولكن ملاك الأندية من أمثال پولين، الذين هم جزء من مجتمعهم، أصبحوا الآن سلالة آخذة فى الانقراض، مما يؤدى إلى تقلص المجتمع بأسره.

ذكرت صحيفة ***نيويورك تايمز*** (10 يناير 1999) أنه، «نادراً ما يحدث أن يدخل تشارلس دولان رئيس شركة نظم الكابلات التليفزيونية، التى تمتلك نادى نيكس، إلى حجرة خلع الملابس فى ماديسون سكوير جاردن. أما فى فترة الستينيات والسبعينيات فقد كان الملاك يدعون اللاعبين لقضاء إجازاتهم معهم. حيث كانت الروح الأسرية تغلف العلاقات بين الملاك واللاعبين. والآن هناك من اللاعبين من لم يلتق قط مع ملاك فرقهم». حقاً، فعندما انتقل اللاعب المسّاك مايك بياتزا من نادى لوس أنجيليس دودجرز إلى نادى فلوريدا مارلينز ثم إلى نيويورك ميتس فى مايو 1998، اشتكى من أن ملاك نادى دودجرز كانوا مبتعدين كثيراً عن اللاعبين بحيث يصعب عليهم الاتصال بهم. من تظن يمتلك نادى دودجرز؟ إنه روبرت ميردوخ الأسترالى صاحب التكتلات التجارية، وهى شركات الإعلام الإخبارية التليفزيونية الذى وصفه بياتزا بأنه، «يتعذر الاتصال به، ومتباعد، ويشبه سحلية الساحر أوز».

وفى النهاية، تنعكس تلك الفجوة الموجودة على دكة اللاعبين وفى مقصورة ملاك الأندية أيضاً فى وجودة فجوة فى المواقف. قد لا يحمل مشجعو مايكل جوردان أى ضغينة إزاء ما يحصل عليه من مرتب، ولا سيما إذا ظل يحقق الفوز فى البطولات. ولكن الهوة المتسعة بين الفائزين والخاسرين فى الاقتصاد العالمى التى تظهرها مرتبات الرياضيين لها عواقبها الاجتماعية. لقد أصبح الأغنياء والفقراء يعيشون على نحو متزايد وجوداً منفصلاً، ويرسلون أولادهم إلى مدارس مختلفة، ويعيشون فى

أحياء مختلفة، ويتسوقون من متاجر مختلفة، ويشاهدون أحداثاً رياضية مختلفة ـ بل الأسوأ، أنهم لا يشاهدون هذه الأحداث على الإطلاق. لقد كان الذهاب إلى المباراة أشبه بشد الناس بعضهم إلى بعض. ولكن محبى الرياضة ستقل قدرتهم على مشاهدة المباريات أكثر وأكثر لأنه حتى يتسنى دفع هذه المرتبات الضخمة أصبحت أسعار التذاكر أكبر من طاقة الجميع سوى الأغنياء، وتم الفصل بين الطبقات فى المدرجات، حيث يجلس الفقراء الأجلاف الذين يطيقون دفع 75 دولاراً للتذكرة محشورين فى المدرجات المكشوفة يأكلون الفول السودانى، فى حين يجلس الأثرياء فى مقصوراتهم الفخمة الفسيحة ويتناولون غداءهم من فطائر الكابوريا غالية الثمن التى تقدمها لهم المضيفات. حتى اللاعبين أنفسهم، الذين ينحدر الكثيرون منهم من بيئات فقيرة يتحدثون عن الفجوة الاجتماعية بينهم وبين الجماهير الغنية البيضاء فى معظمها الذين يدفعون ثمن مشاهدتهم لهم. صرح أحد اللاعبين السود لصحيفة *سبورتس إللاستريتيد* بقوله: «عندما تسقط مندفعاً فى المقصورة وراء إحدى الكرات، تتعثر فى التليفون الخلوى لأحد رجال البنوك الاستثمارية. وفى الوقت نفسه لا يستطيع صديقك الذى نشأت معه تحمل ثمن التذكرة. إن المرء يفكر كثيراً فى مثل هذه الأشياء». وقد اضطر نادى لوس أنجيليس ليكرز، حتى يستطيع دفع 121 مليون دولار للاعب شاكيل أونيل لعقد مدته سبع سنوات إلى رفع قيمة أرخص تذكرة من9.5 دولاراً للمباراة إلى 21 دولاراً، وإلى رفع أغلى تذكرة للمقاعد الجانبية من 500 دولار إلى 600 دولار فى المباراة الواحدة. يذكر مايكل چى. ساندل، المنظّر السياسى بجامعة هارفارد، أن ملعب الكرة الذى كان دائماً شيئاً أساسياً فى العمل على تجانس المجتمع، «لم يعد، نتيجة لذلك، ذلك المكان العام الذى يشترك الجميع فى الانتماء إليه والذى يترابط فيه الناس من مختلف مدارج الحياة».

حقاً، لقد أصبحت الفجوة بين نجوم العالم الرياضيين ومشجعيهم أقرب إلى عالم الخيال. قال لى ستيڤ كير: «كنت أقرأ ذات مرة قصة عن الملاكم إيفاندر هوليفيلد الذى بنى منزلاً مساحته 56 ألف قدم مربع. وأنا واثق من أنه كان يعنى بذلك شيئاً طيباً، ولكن المقال نقل عنه قوله أنه كان يعتزم دعوة الأطفال المحرومين إلى جولة فى هذا المنزل حتى يتأكد لهم أنهم يستطيعون تحقيق ذلك بالعمل الشاق. يا إلهى، منزل مساحته 56 ألف قدم مربع! والطريقة الوحيدة التى يمكن أن تحقق بها ذلك هو أن تصبح بطل العالم فى الملاكمة للوزن الثقيل، ولا يوجد سوى شخص واحد يستطيع تحقيق ذلك. إن كل شيء يتركز حول ما الذى تستطيع شراءه. إننا نجد لاعبين يذهبون إلى المدارس ويقولون للأطفال، 'استمروا فى دراستكم حتى يمكنكم شراء كل هذه الأشياء التى تجدونها عندى'. ولست واثقاً من أن تلك هى الرسالة الصحيحة التى يجب إبلاغها لهم. بل يجب أن تكون الرسالة، استمروا فى دراستكم حتى يمكنكم أن تصنعوا ما تريدون صنعه فى الحياة».

عندما يتعذر علىّ استخدام تذاكرى لمباريات واشنطن ويزاردز فإننى أعطيها غالباً لأحد أصدقائى يعمل بواباً. وهو يشعر بالامتنان الشديد، وأنا أشعر بالحزن الشديد. إننى أشعر بهذا الحزن الشديد لأنه يشعر بالامتنان لأنه تيسر له القيام بشيء كنت أقوم به مع والدى عندما كنت صغيراً ـ فقد كنت أذهب إلى مباريات مينيابوليس ليكرز بلا تردد، عندما كان دخل أبى 13 ألف دولار سنوياً.

ثمة خطأ ما فى أن يكون هناك الآن ذلك العدد الكبير من الناس الذين حيل بينهم وبين هذه التجربة البسيطة. لقد تآكل المجتمع درجة أخرى، ولذلك فلن تدهش عندما تلتقط صحيفة ***واشنطن تايمز*** ليوم 12 نوفمبر 1997، لتقرأ فيها الخبر التالى: «قُتل اثنان من المارة فى فيلادلفيا بعد خلاف حول من الأفضل من حارسى المرمى، آلين إيفرسون من نادى فيلادلڤيا سيفنتى سيكسرز أم جارى بيتون حارس مرمى سياتل

سوبر سونيكس. فقد تحولت الكلمات إلى طلقات رصاص بعد مباراة سيفنتى سيكسرز وسونيكس وقُتل ديريك واشنطن، 21 عاماً، وابن خالته چاميكا رايت، 22 عاماً، فى تبادل لإطلاق النار فى حى الإسكان الشعبى فى ساوثوارك بلازا».

أعلم أن هذا النوع من الاقتصاد ذى الطبقتين كان حقاً من أوجه عدة هو القاعدة فى كثير من مراحل التاريخ الأمريكى وأن صعود طبقة وسطى عريضة كان بالفعل ظاهرة من ظواهر منتصف القرن العشرين. فلم يكن ليتسنى لأبى قط أن يفهم معنى ألا يستطيع تحمل تكلفة الذهاب إلى مباراة لكرة السلة، ولكننى واثق من أن جدى كان ليتفهم ذلك. والمؤسف، أنه يبدو أن أحفادى سوف يتفهمون ذلك أيضاً.

لقد استخدمت مثال الاتحاد القومى لكرة السلة ليس لأننى أتعاطف مع اللاعبين الذين لا يحصلون إلا على 272,250 دولاراً فقط سنوياً، وإنما لأنه وسيلة سهلة لشرح الفجوات الآخذة فى الاتساع فى الدخول التى تعمل على إذكاء حدوث ردة ضد العولمة فى أنحاء العالم (وهو ما سوف أناقشه بالتفصيل فى الجزء التالى من هذا الكتاب). وتتضح هذه الفجوات فى الدخول بصفة خاصة خارج الولايات المتحدة حيث تأخذ الطبقات الوسطى فى النقصان وحيث قوانين مناهضة الاحتكار وغيرها من قوانين التوزيع العادل للدخل أقل صرامة. فعلى المدى الطويل قد تتحول هذه الفجوات فى الدخول إذا استمرت فى الاتساع إلى كعب أخيل العولمة (نقطة الضعف فيها). ويبدو لى أن هناك شيئاً غير مستقر كامن فى عالم أصبح مشدوداً إلى بعضه بعض بإحكام أكثر وأكثر عن طريق التكنولوجيا والأسواق ووسائل الاتصال، فى حين يتفسخ أكثر فأكثر اجتماعياً واقتصادياً.

تأمل الموضوع الإخبارى الذى تصادف أن قرأته فى وكالة أنباء رويترز: «بورت ـ أو ـ برينس، هاييتى (رويترز) ـ سوف تقيم هاييتى ـ أفقر دولة فى نصف الكرة الغربى،

خدمة للتليفون الخلوى للمرة الأولى فى نهاية شهر مايو 1998، حسبما صرح المسئولون فى الشركة المسئولة عن إقامة هذه الخدمة اليوم الجمعة. ولن يتحمل الاستفادة من هذه الخدمة سوى أقلية من الأسر الثرية والمستثمرين ورجال الأعمال الأجانب. ويبلغ دخل الفرد فى هاييتى 250 دولاراً سنوياً. وسوف يتكلف التليفون الخلوى 450 دولاراً بالإضافة إلى 100 دولار للاشتراك فى الخدمة لأول مرة، فضلاً عن رسوم قدرها 20 دولاراً فى الشهر مقابل هذه الخدمة». بعبارة أخرى، أن التليفون الخلوى مجرد أداة للاستخدام اليومى بالنسبة لقطاع صفوة العولمة من الشعب الهاييتى، أما بالنسبة لمعظم الهاييتيين الآخرين فيساوى مرتب عامين.

وذلك شىء لا يؤدى إلى الاستقرار، ولكن المؤسف أنه أيضاً شىء عادى. إذ حسبما يقول تقرير التنمية البشرية لمنظمة الأمم المتحدة فى عام 1998، أنه فى عام 1960 كان دخل العشرين فى المائة من سكان العالم الذين يعيشون فى أغنى الدول يعادل 30 ضعفاً من دخل العشرين فى المائة من أفقر سكان العالم. أما فى عام1995، فقد أصبح دخل هذه الـ20 فى المائة الأغنى 82 ضعف الأفقر. ففى البرازيل، على سبيل المثال، كان الخمسون فى المائة الأفقر من سكان البلاد يحصلون على 18 فى المائة من الدخل القومى فى عام 1960. أما فى عام 1995 فقد أصبح ما يحصلون عليه 11.6 فى المائة، فى حين أصبح أغنى 10 فى المائة من سكان البرازيل يحصلون على 63 فى المائة من الدخل القومى. وفى روسيا، أصبح أغنى 20 فى المائة من السكان يحصلون الآن على 11 ضعفاً لما يحصل عليه أفقر 20 فى المائة من الدخل القومى.

واليوم يستهلك أغنى خُمس من سكان العالم 58 فى المائة من إجمالى الطاقة، فى حين يستهلك أفقر خُمس أقل من 4 فى المائة. وأصبح لدى أغنى خُمس 74 فى المائة من جميع الخطوط التليفونية، وأفقر خُمس لديهم 1.5 فى المائة. ويوجد فى

الولايات المتحدة والسويد 600 خط تليفونى لكل 1,000 شخص، فى حين يوجد فى تشاد خط تليفونى واحد لكل 1,000 شخص. ويستهلك أغنى خمس 45 فى المائة من إجمالى حجم اللحوم والأسماك، فى حين يستهلك أفقر خمس أقل من 5 فى المائة. ويشير تقرير الأمم المتحدة للتنمية البشرية إلى أنه، بفضل العولمة، أصبح الباحثون فى مجال السوق يحاولون بيع منتجاتهم إلى «الصفوة فى العالم»، و«الطبقة الوسطى فى العالم» و«الشباب تحت العشرين فى العالم»، لأنه أيا كان المكان الذى يعيشون فيه فإنهم الآن يتبعون الأساليب الاستهلاكية الأساسية نفسها ويظهرون تفضيل «الماركات العالمية» نفسها فى الموسيقى وأفلام الفيديو وقمصان التى ـ شيرت. ويتساءل التقرير: ما هى النتائج؟ «أولاً، أصبحت هناك أمام كثيرين من المستهلكين مجموعة كبيرة من الاختيارات ـ ولكن الكثيرين أيضاً من المستهلكين تركوا فى العراء لافتقارهم إلى الدخل الكافى. كذلك تتصاعد ضغوط التنافس فى الإنفاق. وتحولت 'مجاراة الغربيين' من السعى إلى محاكاة استهلاك أقرب الجيران إلى السعى وراء أسلوب حياة الأغنياء والمشاهير التى تصورها الأفلام والعروض التليفزيونية».

اذهب فقط لزيارة أى دولة نامية اليوم وسوف تشهد تلك الفجوات الغائرة منتشرة هنا وهناك فى كل ركن منها. حينما كنت فى زيارة لمدينة ريو دى چانيرو ذهبت لإجراء مقابلات صحفية مع الناس المقيمين فى حى الفقراء العشوائى (الفاڤيلا Favela) بمنطقة روسينها Rocinha، وهو حى من الأكواخ والبيوت المؤقتة المكتظة بالسكان، وتعتبر أكبر حى عشوائى فى أمريكا الجنوبية. لاحظت ونحن متجهون بالسيارة نحو الفاڤيلا أن الطريق تفرع إلى ثلاثة اتجاهات مثل الشوكة. إذا اتجهت يميناً، فإنك تخرج عن طريق السيارات وتمر بمنطقة من الحدائق التى شذبت أغصانها، إلى حيث توجد المدرسة الأمريكية فى ريو، التى تعتبر أغلى مدرسة فى البلاد، إذ تصل مصاريفها إلى 2,000 دولار شهرياً. وتقع المدرسة فى قلب حى جاڤيا، وهو من ألطف أحياء ريو، وتفرض قيود مشددة على الالتحاق بهذه المدرسة. وإذا

اتجهت نحو اليسار فى التقاطع نفسه فإنك تدخل إلى حى فاڤيلا بمنطقة روسينها، حيث يسكن الكثيرون من الناس ممن لا يصل دخلهم إلى 2,000 دولار سنوياً كما أن الالتحاق به، سوف نقول، إنه بلا قيود. حسناً، ينحشر فى الفاڤيلا أكثر من 100 ألف شخص. فإذا واصلت البرازيل نموها الاقتصادى فربما يمكن أن يستمر التعايش فى هذا التقاطع سياسياً. أما إذا تباطأ هذا النمو فى البرازيل حقيقة فإن مفترق الطرق هذا قد يشطر البلاد إلى نصفين.

وقد اضطر الرئيس البرازيلى فيرناندو هنريك كاردوزو، حتى يتسنى لبلاده ارتداء قميص القيد الذهبى بإحكام أكبر لإرضاء القطيع الإلكترونى، إلى خفض الإنفاق على التأمينات الاجتماعية فور إعادة انتخابه فى أكتوبر عام 1998 . كتبت ديانا جين شيمو مراسلة **نيويورك تايمز** فى البرازيل مقالاً عن بعض من انحشروا فى هذا القميص نتيجة لذلك. وكان كادروزو فى ذلك الوقت يعانى بالفعل من مشكلة سياسية مع شعبه بعد أن وصف أولئك الذين يرغبون فى التقاعد والحصول على التأمينات الاجتماعية بأنهم «متبطلون». قالت لى شيمو قصة أحد هؤلاء العمال، اسمه نيلتون تامبارا، عامل معادن متقاعد يبلغ من العمر أربعة وخمسين عاماً، بدأ العمل وهو فى سن الحادية عشرة ودفع فى نظام التأمين الاجتماعى البرازيلى طوال ثلاثة وثلاثين عاماً من مجموع الواحد والأربعين عاماً التى عمل فيها.

تساءل تامبارا وهو يقف خارج مركز وال ـ مارت للتسوق فى ساو پاولو، يشكو من أنه لا يتحمل شراء سلم من الألومنيوم ثمنه 16 دولاراً: «ألا توجد طريقة لكى يظل الإنسان هادئاً فى هذه البلاد؟ إن الفئات التى تتحدث عنها الحكومة ـ الأغنياء والطبقة الوسطى والفقراء ـ ليس لها وجود. فلم يعد يوجد سوى الأغنياء والبؤساء».

وفى القاهرة العاصمة المصرية، هناك نحو 500 ألف نسمة يعيشون داخل المقابر فى «مدينة الموتى» ـ وهى عبارة عن مدافن تقع على مساحة خمسة أميال مربعة فى

قلب العاصمة المصرية. ولكن مدينة الموتى تقع على بعد أقل من عشرة أميال من أحدث مجمع لملاعب الجولف فى مصر ـ ويسمى تلال القطامية، وهو واحد من تلك المجمعات المتعددة التى يعيش فيها بضع مئات من العائلات فى واحة من المنازل والحدائق والبحيرات الصناعية والنافورات والفنادق. والكلمات التى صيغ بها الإعلان عنها، الذى تجده على الإنترنت، تفخر بما يلى: «تلال القطامية منتجع يوفر كل سبل الحياة الرغدة لأولئك الذين يحبون خوض مباريات الجولف أو التنس ومتع الأنشطة العائلية فى بيئة صحراوية نظيفة. ويبرز المنتجع 27 حفرة لبطولات الجولف، ومرافق التدريب، وأكاديمية لتعلم الجولف، ونادى شديد الترف مساحته 50 ألف قدم مربع، تنتشر به المطاعم والاستراحات وحمامات السباحة والمرافق الصحية والترويحية. ويبلغ سعر تذكرة دخول ملاعب الجولف، بما فى ذلك الانتقال من القطامية وإليها 165 دولاراً للفرد». وكان دخل الفرد فى عام 1998 فى مصر 1410 دولارات فى السنة ـ أى ما يكفى لتسع دورات من الجولف.

تايلاند دولة انشطرت بحدة بين طبقة متمدينة من العاملين بالتصدير وأصحاب الأعمال الذين يعيشون فى الأحياء المالية والصناعية فى البلاد ويستمتعون بكثير من مزايا العولمة، وقطاع ريفى فقير ومنكفىء على ذاته، ومع أنه متأثر بالعولمة بطريق غير مباشر، إلا أنه قليل الفهم لها ولا يرى منها سوى القليل من المزايا. وعندما انهارت عملة الباهت التايلاندية فى عام 1997 لم يشعر القطاع الريفى فى تايلاند، الذى ما زال يعيش بالدرجة الأولى على ما تنتجه الأرض الزراعية من ثمرات، بكثير من التعاطف مع سكان المدن المتأنقين المتعولمين (أى السائرين فى درب العولمة) الذين قضى عليهم مع قرار الحكومة بالتخلى عن دعم الباهت وتركه عائماً ليهوى سعره إلى القاع.

فى ذلك الوقت خرج المغنى التايلاندى پلوين برومدان بأغنية من نوع الانتقاد القاسى للبلاد بعنوان «الباهت العائم». وتتألف الأغنية من حوار بين مصرفىّ ومزارع.

وقد قمت بترجمة معانى جزء منها هنا لأنها تلتقط بذكاء شديد كيف يمكن أن تتسع الفجوة بين المتعولمين وغير المتعولمين فى المجتمع، إذا لم يلتفت إليها، حتى تصل إلى نقطة قد لايستطيع عندها الناس الذين يتحدثون اللغة نفسها فهم بعضهم بعض، ناهيك عن الشعور بوجود رابطة مشتركة بينهم.

وإليكم ترجمة تقريبية: تبدأ الأغنية باللازمة التالية، «باهتنا يعوم الآن، باهتنا يعوم الآن، كم من الوقت سيظل عائماً أمر يعتمد على الظروف. من فضلك راقب الظروف بدقة».

المصرفى: «أوكى، انظروا جميعاً، اليوم أصبح باهتنا عائماً بالفعل.

المزارع: «بالأمس، سقط طفل عمره سنتان فى النهر ولكنه لم يمت».

المصرفى: «كيف ذلك؟ ما الذى منعه من الغرق؟»

المزارع: «نعم سقط الصغير فى الماء، وظل الناس يرقبونه وهو يغطس ويقب، ثم نزل الناس مسرعين إلى النهر ووجدوا أنه متعلق بالباهت العائم».

المصرفى: «ألا تفهم؟ إننى أتحدث عن تعويم عملتنا».

المزارع: «حسناً، لولا الباهت العائم لغرق الصغير».

المصرفى: «إننى أتكلم عن تعويم العملة، يا غبى».

المزارع: «حسناً، لماذا تقول لنا ذلك؟ ما أهمية ذلك؟»

المصرفى: «أنا أقول لكم لأنه يجب عليكم أن تهتموا بذلك، أقول لكم لأننى أخشى ألا تكونوا قد علمتم».

المزارع: «ما الذى يدعونا إلى الانشغال بمثل هذه الأشياء؟»

المصـــرفى: «هذه أفكار فلسفية عليك التفكير فيها».

المـــــزارع: «مـا الذى يجـعلنى أرغب فى التـفكيـر فى ذلك؟ نحن لسنا فلاسفة».

المصـــرفى: «أنت مغفل».

المـــــزارع: «فعلاً، لو لـم أكن مغفلاً لكنت رئيساً لأحد البيوت الماليـة». [أفلست معظم البيوت المالية عندما انهار الباهت].

لازمـــــة: «باهتنا يعـوم الآن. عندمـا يعـوم البـاهت تعـوم أسـعـار كل السلع أيضاً».

المصـــرفى: (كمن يلقى محاضرة): «عندما يعوم الباهت، تعوم أسعار السلع إلى هذا المستوى. وأسعار السلع تتحرك أيضاً إلى أى مستوى يعوم إليه الباهت على مدى يوم أو اثنين. كل شىء يعوم إلى أعلى، ولا شىء يعوم إلى أسفل. هذه هى طبيعة الأشياء».

المـــــزارع: «إذن لماذا تشكو وتئن طوال الوقت؟»

المصـــرفى: «إننا نشكو ونصيح ونلعن، وفى النهـاية نخـرج إلى الشـوارع فى مظاهرة ونغلق الطرقات، وسوف ينتبه إلينا الناس، ويتعاطفون معنا، ويساعدوننا فى حل المشكلة».

المـــــزارع: «لماذا أنت متلهف هكذا على حل المشكلة؟»

المصـــرفى: «حتى تصبح الأمور أفضل، يا أبله».

المـــــزارع: (يضحك فى وجهه): ها، ها، ها، انظر إلى نفسك وأنت تصرخ مثل الأطفال. لقد كنت عاقلاً تماماً وها أنت تصيح فجأة».

المصـــرفى: «أيها الأبله».

لازمـــــة: «الباهت أصبح الآن ضعيفاً جداً ولم يعد قوياً كما كان من قبل ويسبب لنا كل أنواع المشاكل. لقد ارتفعت أسعار كل شيء اعتدنا شراءه».

المصـــرفى: «أموال تايلاند تتدفق خارج البلاد، ولكن الأموال الأجنبية لا تتدفق داخل البلاد. الشعب التايلاندى يحب أن يتدفق خارجاً إلى الدول الأجنبية لقضاء الإجازات. إنهم يذهبون ويجيئون ويشترون الأشياء وهم فى الخارج».

المـــــزارع: «حسناً، هم يحبون أن يفعلوا ذلك لأن عندهم المال. إنها أموالهم. إذن فأين هى المشكلة؟»

المصـــرفى: إنها مع ذلك ما زالت أموال تايلاند التى يخرجون بها، والأمر يزداد تدهوراً عندما يخرجون بالأموال إلى خارج البلاد. والباهت التايلاندى يفقد قيمته، ثم يحدث فقد لرؤوس الأموال اللازمة للاستثمار أيضاً».

المـــــزارع: «كيف تعلم ذلك؟»

المصـــرفى: «إنها موجودة فى الأخبار كل يوم وكل أسبوع. ألا تتابع الأخبار؟»

المـــــزارع: «إننى لا أستمع إلى الراديو قط. ولا أقرأ قط. ولا يهمنى أى شيء فى هذا الموضوع كله. إننى لا أهتم إلا بالملاكمة التايلاندية وبطولة كرة القدم».

المصـــرفى: «من فـضلك انظر حـولك وأعط بعض تفكيـرك واهتـمـامك لمشكلات البلاد».

المـــــزارع: «أخشى أن يفقد الملاكم التايلاندى البطولة أمام ملاكم أجنبى. أليس ذلك ما يجب أن يقلق الإنسان بشأنه؟»

المصـــرفى: ألا تعلم أن بلادنا اقترضت مبالغ هائلة من الخارج؟»

المـــــزارع: «كم يا ترى؟»

المصـــرفى: «قروض ضخمة، قروض هائلة. يالك من أبله. إنك لا تفهم كلمة واحدة مما أ قول، أليس كذلك؟ إننى أضيع جهدى فى الحديث معك. إنك عندما تقترض هذه الأموال من الخارج فعليك أن تسددها».

المـــــزارع: ألا يحق للرجل الذى اقترض المال أن يستمتع به؟»

المصـــرفى: إنهم أمثالك ممن يخربون البلاد ويضيعون الأموال هباء. إنك جزء من الأمة التايلاندية، الأسرة التايلاندية المسئولة عن هذا الإسراف. إننا جميعاً ضالعون فى ذلك».

المـــــزارع: «أوه، ولكننى غير متزوج. وليست لى أسرة».

الجزء الثالث

الردة ضد النظام

@Ahmedyassin90

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل الثالث عشر

الــردة

راى بويد: «ما الخطب يا ماما؟»

دوروثى بويد: «الدرجة الأولى، ذلك هو الخطب. لقد اعتدت على طعام أفضل. والآن إنها حياة أفضل.

- من حوار فى فيلم چيرى ماجواير

يعتبر منتدى داڤوس للاقتصاد العالمى الذى يعقد سنوياً أفضل ما تجده مقياساً للشئون العالمية. ففى فبراير من كل عام يتجمع كبار العولميين فى العالم فى هذا المنتجع الجبلى السويسرى للاحتفاء بالعولمة ومناقشة أمورها. ويحضر هذا الاجتماع كبار رجال الصناعة، والشخصيات السياسية، والاقتصاديون، ورجال التكنولوچيا، والعلماء، وعلماء الاجتماع من كل أركان الدنيا. وفى كل عام، تبرز شخصية، أو شخصيتان، رمزاً للاتجاهات السائدة. ففى عام كانت تلك الشخصية قيصر الاقتصاد فى الصين زهو رونجى، وفى عام آخر كان ياسر عرفات وإسحق رابين وشيمون بيريز، وفى عام ثالث كان الإصلاحيون الروس، وفى عام آخر كان قادة الدول الآسيوية المنكوبة اقتصادياً. وفى عام 1995 كان نجم منتدى داڤوس للاقتصاد العالمى هو جورج سوروس، الرأسمالى والملياردير. وأنا أعلم ذلك لأننى دعيت لحضور مؤتمر صحفى تجمع فيه

ممثلو جميع المنظمات الإعلامية الكبرى فى العالم حول مائدة المؤتمر وطرحوا الأسئلة على سوروس وكأنه رئيس لقوة عظمى. وكان يبدو أنه يعتقد أنه كذلك بالفعل. وقد قام مراسلو وكالات الأنباء والصحف من رويترز، وبلومبرج، وأسوشيتدبرس ـ داو جونز، *نيويورك تايمز*، *واشنطن بوست* و*التايمز* اللندنية و*فاينانشيال تايمز* باعتصار سوروس بالأسئلة إزاء آرائه بشأن المكسيك وروسيا واليابان واتجاهات الاقتصاد العالمى، ثم خرجوا مسرعين من الغرفة لإرسال تقرير بما صرح به إلى الجهات التى يعملون بها عن طريق التليفون. وجاءت أفكاره فى الصفحات الأولى من صحيفة *إنترناشيونال هيرالد تريبيون* وكثير من الصحف الأخرى فى اليوم التالى.

شعرت وأنا أرقب هذا المشهد أننى أشهد نقطة تحول هامة. فقد كان سوروس يجسد القطيع الإلكترونى. كان أحد الثيران القائدة للقطيع. بل ربما كان هو الثور القائد. وكان ذلك حوالى الوقت الذى بدأ فيه كثيرون من الناس إدراك أن هذا القطيع الإلكترونى احتل مكان الاتحاد السوفيتى وأصبح القوة العظمى الأخرى فى عالمنا ذى القوتين العظميين. وقبل ذلك بعدة سنوات فقط كان سوروس قد لقن جون ميجور رئيس الوزراء البريطانى درساً اقتصادياً أفقده الصواب. كان ميجور يرى أن قيمة الجنيه الإسترلينى صحيحة. ولكن سوروس لم ير ذلك. وقاد سوروس، فى سبتمبر عام 1992، القطيع فى حملة لإرغام الجنيه الإسترلينى على الهبوط إلى معدله «الصحيح». استهزأ ميجور بسوروس، ثم سخر منه، ثم قاومه، وفى النهاية رفع الراية البيضاء وخفض قيمة الجنيه بنسبة 12 فى المائة. خرج سوروس من هذه المعركة التى استمرت بضعة أشهر بأرباح بلغت مليار دولار. وداعاً، الاتحاد السوفيتى، مرحباً، بالقطيع الإلكترونى.

من المثير للاهتمام، أنه بعد عام من رؤيتى لسوروس أول مرة وهو يمسك بزمام مؤتمره الصحفى فى دافوس، ذهبت إلى دافوس، متلهفاً لمعرفة نجم المنتدى لعام 1996. كنت واقفاً عند أحد أجهزة الكمبيوتر الطرفية فى الصالة الرئيسية فى محاولة

لاستلام بريدى الإلكترونى، ولاحظت أن جورج سوروس يمر بجانبى. ولكن ما أدهشنى هو أنه فى هذه السنة لم يكن أحد يعره اهتماماً على الإطلاق. وفى الواقع أنه بدا لى وحيداً تماماً. أى تحول حدث فى عام واحد. لا أعتقد أنه كان يستطيع شراء مؤتمر صحفى لنفسه فى ذلك العام. لماذا ؟ من كان نجم داڤوس لعام 1996 ؟ إنه ليس سوى جينادى أ . زيوجانوف، زعيم الحزب الشيوعى السوڤيتى!

فمنتدى داڤوس مؤتمر رأسمالى مطلق. فكيف يتسنى لذلك الديناصور القادم من حقبة المتنزه الچوراسى للحرب الباردة ـ چينادى زيوجانوڤ ـ أن يكون هو رجل الساعة؟ لأن صفوة رجال الأعمال والسياسة المتجمعين فى داڤوس فى ذلك العام كانوا يدركون، وكثيرون منهم للمرة الأولى، أن تلك الظاهرة القوية التى تسمى العولمة كانت تفرز أيضاً ردة بالقوة نفسها فى بعض الدوائر. ففى ذلك الوقت، كان زيوجانوڤ يبدو وكأنه سوف يهزم بوريس يلتسين حقاً فى معركة الرئاسة الروسية ، ومن ثم فسوف تستولى قُوى الارتداد الرجعية حقاً على السلطة فى دولة كبرى. ولذلك كان جميع المسئولين التنفيذيين فى داڤوس يرغبون فى الحديث إلى زيوجانوڤ ـ «وحش الردة» ـ واكتشاف نواياه بالنسبة للملكية الخاصة، والميزانية الروسية ، وقابلية التحويل بين الروبل والدولار. وقد أجريت لقاءً صحفياً مع زيوجانوف فى ذلك الوقت، وتبين لى أنه ليس لديه أى فكرة عما سيفعله. وبدا لى أنه يقضى معظم الوقت مختفياً عن صفوة رجال الأعمال الغربيين. كل ما كان لدى زيوجانوف، مثله فى ذلك مثل غيره من المرتدين الأيديولوچيين ضد العولمة، مجرد موقف ولكن بدون برنامج عملى،كثير من الأفكار عن كيفية توزيع الدخل وليس عن كيفية توليد الدخل.

غير أنه منذ ذلك الوقت أصبحت الردة ضد العولمة أكثر وضوحاً وانتشاراً. وما تشترك فيه كل قوى الارتداد هو شعور بأنه ما دامت بلادهم قد التحمت بالنظام العالمى، فهم مضطرين إلى ارتداء قميص القيد الذهبى الموحد المقاس للجميع. وبعض

الناس لا يحبون قميص القيد لأنهم يشعرون بالعجز الاقتصادى داخله. وبعضهم يشعرون بالقلق لأنهم لا يمتلكون المعرفة أو المهارات أو الموارد لتوسيع قميص القيد ولن يتحقق لهم النجاح على الإطلاق فى الحصول منه على الذهب. وبعضهم لا يحبونه لأنهم مستاؤون من فجوات الدخل الآخذة فى الاتساع التى تترتب على ارتداء قميص القيد أو من الطريقة التى يعتصر بها الوظائف من دول الأجور المرتفعة إلى دول الأجور المنخفضة. وبعضهم لا يحبونه لأنه يفتح أبوابهم أمام جميع القوى والتأثيرات العالمية التى تترك لدى أطفالهم شعوراً بالاغتراب عن ثقافاتهم وأشجار زيتونهم. وبعضهم لا يحبونه بسبب الضغوط التى يفرضها على بيئتهم. وبعضهم لا يحبونه لأنهم يشعرون بأن الأخذ ببلادهم إلى مستويات نظم تشغيل رأس المال 6.0 مهمة شديدة المشقة.

بعبارة أخرى، الردة ضد العولمة ظاهرة عريضة تغذيها كثير من الانفعالات وأسباب القلق المختلفة التى انطلقت بفعل هذا النظام الجديد وتحديات التكيف معه. وتعبر الردة عن نفسها بأشكال مختلفة عن طريق شخصيات مختلفة فى دول مختلفة. وهذا الفصل من الكتاب يدور حول تلك الانفعالات والأشكال والشخصيات المختلفة، وكيف أنها تتجمع معاً فتنشأ عنها دوامة لم تؤد ـ حتى الآن ـ إلا إلى مقاومة نظام العولمة ولكنها قد تصبح فى يوم ما من القوة بحيث تؤدى إلى زعزعته.

كما أشرت من قبل، إننى فى صيف عام 1998 كنت فى جولة فى البرازيل مع منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال الدولية للمحافظة على البيئة، التى أنشأت متنزهاً إيكولوجياً فى الغابة المطيرة المطلة على المحيط الأطلنطى بالتعاون مع السكان فى مدينة أونا المجاورة، وذلك فى محاولة لمساعدتهم على إنشاء صناعة سياحية يمكن أن تخلق وظائف كافية تعوضهم عن قطع الأخشاب. ولقد دعت منظمة كونسيرفيشن إنترناشيونال ديجاير بريشنر، عمدة أونا البالغ من العمر ثمانية وأربعين عاماً، لكى

يصحبنى فى أثناء جولتى ليشرح لى كيف كان ذلك كله يؤثر فى مدينته. كان العمدة من نوع شخصية پول بونيان، إذ كان والده وجده يعملان فى قطع الأخشاب، ولكنه فقد عمله الآن أساساً بسبب أنصار البيئة. كان العمدة بريشنر، أثناء تجولنا فى الغابة المطيرة، يربت على كل شجرة. كان يعرف نوع كل شجرة فى الغابة المطيرة باسمها البرازيلى. شعرت بإعجاب فورى بهذا الخشاب البرازيلى. كان هناك شىء شديد الصلابة فى شخصيته. وبعد الانتهاء من جولتنا، جلسنا فوق أريكة للرحلات على حافة الغابة الأطلنطية المطيرة وتحدثنا عن التحديات التى تواجه العمدة. وشرح لى العمدة أنه متفهم من الوجهة الفكرية أن قطع الأخشاب لم يعد العمل الذى يمكن الاستمرار فيه. ولكنه بقدر ما هو متفهم لذلك، فهو يعلم أيضاً أن بلدته الصغيرة ليست مستعدة للحياة بدون قطع أخشاب. تحدثنا لمدة نصف ساعة تقريباً، وعندما انتهيت من لقائى الصحفى مع العمدة، شكرته وبدأت فى حزم جهاز الكمبيوتر المحمول من طراز آى بى إم الذى أحمله معى، عندما قال لى، «الآن، أريد أن أطرح عليك: سؤالاً».

أجبته: «من فضلك اسأل ما تريد».

حينئذ نظر إلىّ العمدة فى عينى مباشرة وقال، هل تأمل فى أى مستقبل لنا؟»

أوجعنى سؤاله كما لو كنت قد تلقيت ضربة فى المعدة. وكادت الدموع تفر من عينى، وأنا أنظر عبر الأريكة نحو ذلك الرجل المعتد بنفسه، الثابت، العمدة كما يجب أن يكون العمدة، الذى يسألنى إن كان هناك ثمة مستقبل له ولسكان قريته. كنت أعلم تماماً السبب وراء السؤال الذى وجهه لى: «إن مواطنى قريتى لم يعد بوسعهم أن يعيشوا من عملهم فى الغابة ونحن لسنا مهيئين للعمل بالكمبيوتر. إن أبى وجدى كانا يكسبان رزقهما من قطع الأخشاب، وقد يكسب أحفادى رزقهم من الإنترنت. ولكن ماذا يفعل كل أولئك الذين يعيشون بين الجيلين؟»

تمتمت ببعض الإجابة العشوائية، فى محاولة لأن أوضح له فى كلمات بسيطة أنه هو وشعبه أمامهم مستقبل، ولكن عليهم أن يبدأوا فى فترة انتقالية ما بين اقتصاد زراعى إلى اقتصاد يعتمد بصورة أكبر على المعرفة، على أن يبدأوا بتوفير تعليم أفضل لأولاد البلدة. أنصت إلى العمدة وهو يومئ برأسه، وشكرنى بأدب شديد، ثم نهض ليذهب إلى سيارته. أخذت المترجم جانباً، والعمدة يهم بالانصراف، وسألته إن كان يستطيع أن يسأل العمدة عندما يصلان إلى سيارة العمدة، عن رأيه فى إجابتى عن سؤاله.

وبعد بضع دقائق عاد المترجم. وأبلغنى أن العمدة يريد فقط أن يذكرنى بشئ أشار إليه فى أثناء اللقاء الصحفى: إنه عندما يتوجه إلى مكتبه كل صباح يجد فى انتظاره مائتى شخص يسألونه عن الوظائف وعن المساكن والأغذية ـ ناهيك عن قاطعى الأخشاب المتوقفين عن العمل الذين يهددون حياته. وأنه إذا لم يتمكن من توفير الوظائف والمساكن والطعام لهم، فسوف يأكلون الغابة المطيرة ـ سواء أدى ذلك إلى بقائها أم لا.

قال المترجم: «لقد كان يريد منك فقط أن تفهم ذلك».

يمثل العمدة بريشنر جيلاً كاملاً من الناس المنتشرين فى أنحاء العالم اليوم ممن يشعرون بأن العولمة تهددهم لأنهم يخشون من أنهم لا يمتلكون مجموعة المهارات ولا الطاقة التى تدخلهم إلى «العالم السريع». وأنا أطلق على هؤلاء اسم «السلاحف»، لماذا؟ لأن رجال الأعمال فى وادى السيليكون يحبون دائماً تشبيه أعمالهم فائقة التنافسية بتلك القصة عن الأسد والغزالة فى الغابة: فالأسد يذهب للنوم كل ليلة فى الغابة وهو يعلم أنه فى الصباح، عندما تشرق الشمس، إذا لم يتفوق فى الجرى على أبطأ غزالة فإنه سيظل جائعاً. والغزالة تذهب للنوم كل ليلة فى الغابة وهى تعلم أنها فى الصباح، عندما تشرق الشمس، إذا لم تتفوق فى الجرى على أسرع أسد فسوف تكون إفطاراً

لواحد منهم. غير أن الشىء الوحيد الذى يعلمه الأسد والغزالة عندما يذهبان للنوم هو أنه فى الصباح، عندما تشرق الشمس ، فمن الأفضل لهما البدء فى الجرى.

وهذا هو الحال مع العولمة.

والمؤسف أن الجميع غير مزودين بما يساعدهم على الجرى بسرعة. فالعالم ملىء بالسلاحف التى تسعى جاهدة إلى اجتناب مصير القتيل الملقى على الطريق. السلاحف هم كل أولئك الناس الذين امتصهم العالم السريع بعد تساقط الأسوار، ويشعرون الآن لسبب أو لآخر بأنه يهددهم اقتصادياً أو يرفسهم بعيداً. وليس السبب أنهم لا يجدون وظائف. بل السبب هو أن وظائفهم تتغير طبيعتها بسرعة كبيرة، أو تقل أهميتها، أو تتجدد لرفع كفاءتها أو تصبح طرازاً قديماً عفا عليه الزمن بفعل العولمة. ولأن ذلك التنافس العالمى ذاته يجبر حكوماتهم أيضاً على التقليل من حجمها وتجديدها لرفع كفاءتها فإن معنى ذلك أن الكثير من تلك السلاحف لن تجد الشبكة التى تسقط فوقها لتنقذها.

يوجد بالمسرحية الموسيقية ***راجايم*** *Ragtime* التى تعرضها برودواى مشهد يشرح فيه هنرى فورد عبقرية خط التجميع فى مصنعه. لقد ظلت أشعاره عالقة فى ذهنى، لأنها تصف بدقة كبيرة العالم الذى كان ذات يوم آمناً بالنسبة للسلاحف، ولكنه لم يعد كذلك الآن. تجرى سطور الأشعار التى يغنى بها هنرى فورد على النحو التالى:

هل ترى العاملين عندى؟ حسناً، إليك نظريتى
إلى ماذا يسير هذا البلد
كل عامل ترس متحرك.
نعم، تلك فكرة هنرى فورد.
رجل يجذب والآخر يرخى

ورجل واحد يحاول جذب حبل واحد
السيارات تتحرك فى اتجاه واحد
انحناءة احتراماً لهنرى فورد.
(حرك السير بسرعة، حرك السير بسرعة، يا سام!)
الإنتاج الضخم سوف يجتاح البلاد،
العالم يقدر الفكرة البسيطة.
حتى أولئك الذين لا يتمتعون بذكاء كبير
يستطيعون أن يتعلموا إحكام الصمولة إلى الأبد،
أن يثبتوا بدالاً واحداً أو يجذبوا رافعة واحدة .....

المؤسف أن أولئك الذين لا يتمتعون بذكاء كبير اليوم لن يتعلموا صنع شذرة الكمبيوتر الدقيقة إلى الأبد. فالوظيفة الجيدة تحتاج إلى عدة مهارات. كتبت مرة موضوعاً عن الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (وكالة المعونة الأمريكية)، التى تعمل عادة على توفير التدريب الوظيفى والمساعدة الاقتصادية للدول النامية فى أفريقيا، وكيف تحاول استخدام بعض تقنياتها لإحياء الأحياء الفقيرة فى داخل مدينة بالتيمور. أو كما جاء فى مانشيت لصحيفة **بالتيمورصن**: «بالتيمور تجرب حلول دول العالم الثالث». من أسباب استدعاء بالتيمور لوكالة المعونة الأمريكية لمساعدتها هو أن سلاحفها الخاصة لم تنجح فى مواكبة العالم السريع. شرحت إحدى المسئولات فى المدينة المشكلة ببلاغة قائلة: إنه فى فترة الستينيات كانت شركة صُلب بيت لحم هى أكبر مستخدم (صاحب عمل) فى بالتيمور. فقد كان أى شخص حاصل على تعليم ثانوى أو أقل فى إمكانه الحصول على وظيفة فى مصنع الصلب. ويحيا حياة طيبة، ويشترى منزلاً، ويربى أولاده ويرسلهم إلى الكلية. وكان ذلك يعنى أن الحلم الأمريكى كان متاحاً أمام السلاحف حتى من أفقر الأحياء فى المدينة. واليوم أصبح أكبر

مستخدم فى بالتيمور هو مركز جونز هوبكنز الطبى. وما لم تكن ترغب فقط فى وظيفة البواب، فلن تتمكن حتى من إجراء مقابلة شخصية فى مركز جونز هوبكنز بدون حصولك على شهادة عليا. إذن فلتمتنع السلاحف عن التقدم بطلبات لشغل وظائف فيه. وأنت بالتأكيد لن تستطع التقدم بطلب وظيفة هناك إذا كنت واحداً من 150 ألف من سكان بالتيمور الأميين وظيفياً ـ ويبلغ إجمالى عدد السكان فى بالتيمور 730 ألف نسمة ـ (وقد ظل المسئولون فى بالتيمور يتساءلون عن السبب فى عدم حصول سكان المدينة الفقراء على الفائدة الكاملة من البرامج الاجتماعية الممولة جيداً فى المدينة، بعدها اكتشفوا أن معظمهم لا يستطيعون قراءة العلامات. وكان ذلك أحد أسباب استدعاء المساعدة من وكالة المعونة الأمريكية : فقد طورت مسلسلاً كاملاً من الشخصيات الكارتونية وغيرها من الوسائل البصرية للتغلب على مشكلة الأمية فى أفريقيا. وقد قال لى دكتور بيتر بيلينسون المفوض الصحى لمدينة بالتيمور عندما أجريت معه مقابلة صحفية: «هل تريد أن تعرف المفارقة الحقيقية؟ إن الشركة التى طورت برامج الاتصال هذه لوكالة المعونة الأمريكية من بالتيمور. وتقع مكاتبها على بعد بضع بنايات عن مكاننا هذا»).

مع تقدم العولمة، واستخدام الآلات بدلاً من كثير من الوظائف اليدوية المتكررة، وحاجتها إلى مزيد من المهارات لأداء الوظائف المتبقية، أصبحت الوظائف الجيدة التى تبقت للسلاحف أقل وأقل. نشرت صحيفة ***واشنطن بوست*** مقالاً فى يونيه 1998، عن إضراب العاملين فى شركة جنرال موتورز فى مدينة فلينت بولاية ميتشجان، تقدم للقارئ فكرة كاملة عن محنة السلاحف اليوم. وجاء فى الموضوع ما يلى: «فى السنوات العشرين الماضية خفضت شركة جنرال موتورز العمالة فى فلينت من 76 ألف عامل إلى 35 ألف عامل، وتقول إنها قد تلغى 11 ألف وظيفة أخرى على مدى السنوات القليلة القادمة ... وقد خفضت شركة جنرال موتورز إجمالى قوة العمل بها

فى الولايات المتحدة بواقع 297 ألف ساعة عمل على مدى العشرين سنة الماضية وخفضت إجمالى عدد الوظائف بها إلى 223 ألف وظيفة ... وبعض الوظائف انتقلت إلى كندا والمكسيك، حيث المصانع فيها إما أكثر كفاءة وإما أقل تكلفة، ***ولكن الآلات حلت ببساطة محل معظم العاملين***» .

ونقل ذلك المقال عن چورج بيترسون، رئيس شركة أوتوباسيفيك، وهى شركة لبحوث واستشارات صناعة السيارات مقرها كاليفورنيا، قوله، إنه فى المصانع غير المنضمة إلى اتحاد عمال السيارات فى الولايات المتحدة ـ مثل مصنع الفرع الأمريكى لشركة هوندا للسيارات فى مدينة ماريسفيل بولاية أوهايو ـ يتمتع العاملون بمهارات متعددة ومقدرة على أداء مهام متعددة. وأضاف أن هذا التنوع يساعد شركة هوندا على خفض تكاليف الإنتاج. قال بيترسون: «ما زال ممكناً الحصول على وظيفة بوقت كامل فى هذه الصناعة، ***إذا كنت على استعداد لأداء أكثر من وظيفة واحدة***» ، مشيراً إلى قلق اتحاد عمال السيارات إزاء الأمان الوظيفى.

وهكذا، فأنت لست فقط بحاجة، أكثر من أى وقت مضى، إلى مزيد من المهارات للحصول على وظيفة فى مجال التصنيع اليوم، وإنما أنت بحاجة أيضاً إلى مهارات متعددة للاحتفاظ بوظيفتك كى لا يستولى عليها الروبوت. وذلك يصعّب الأمر كثيراً على السلاحف.

لقد ظل المحللون يتساءلون منذ فترة وحتى الآن عما إذا كانت السلاحف التى خلفتها العولمة وراءها، أو تعرضت إلى معاملة قاسية منها، سوف تطور أيديولوچية بديلة تحل محل رأسمالية السوق الحرة الليبرالية. وكما أشرت من قبل، فإنه فى الحقبة الأولى للعولمة، عندما شهد العالم للمرة الأولى التدمير الخلاق الذى تحدثه الرأسمالية العالمية، أفرزت الردة فى نهاية الأمر مجموعة كاملة من الأيديولوچيات الجديدة ـ الشيوعية والاشتراكية والفاشية ـ التى كانت تعد بالإمساك بزمام الأمور بديلاً عن

الرأسمالية، ولا سيما بالنسبة للعامل العادى. والآن، بعد أن فقدت هذه الأيديولوچيات مصداقيتها فإننى أشك فى أننا سنشهد رد فعل أيديولوچى جديد ومتماسك وعالمى للعولمة ـ لأننى لا أعتقد أن هناك أيديولوچية ستتمكن من تخفيف حدة قسوة الرأسمالية وتتمكن فى الوقت نفسه من الارتفاع بمستويات المعيشة بصورة مطردة.

فى اعتقادى أن ما سوف يحدث بدلاً من ذلك هو أن السلاحف وكل أولئك الذين لن يتمكنوا من المواكبة لن يشغلوا أنفسهم بالبحث عن أيديولوچية بديلة. وسوف تتخذ ردتهم شكلاً مختلفاً. كل ما سيفعلونه هو أن يلتهموا الغابة المطيرة ـ كل بطريقته الخاصة، بدون محاولة تفسير ذلك أو تسويغه أو تغليفه بلفافة أيديولوچية. فى إندونيسيا، سوف يلتهمون التجار الصينيين بسلب حوانيتهم. وفى روسيا، سوف يبيعون الأسلحة لإيران أو يتحولون إلى الجريمة. وفى البرازيل، سوف يقطعون الأشجار الباقية فى الغابة المطيرة أو ينضمون إلى حركة الفلاحين فى الريف البرازيلى المعروفة باسم «سيم تيتو Sem Teto» (المحرومون من الأسطح)، الذين يسرقون ببساطة ما يحتاجون إليه. ويوجد نحو 3.5 مليون من هؤلاء فى البرازيل ـ مزارعون بدون أراض، يعيشون فى نحو 250 معسكراً منتشرة فى أنحاء البلاد. أحياناً يعيشون على الشوارع، وما عليهم إلا أن يغلقوا الشوارع إلى أن يُدفع لهم أو يبعدونهم بالقوة، وأحياناً يغزون أسواق السوبر ماركت أو يسطون على البنوك أو يسرقون الشاحنات. ليست لديهم راية ولا بيان رسمى. كل ما لديهم احتياجات وآمال غير مشبعة. وهذا هو السبب فى أن ما نشهده فى كثير من الدول ليس معارضة شعبية جارفة، وإنما موجة تتبعها موجة من الجريمة ـ كل ما يفعله الناس هو اختطاف احتياجاتهم، ونسج شبكات الأمان الاجتماعى الخاصة بهم، ولا يعبأون بالنظرية أو الأيديولوچية.

* * *

العولمة، مثل كل الثورات، تنطوى على انتقال السلطة من جماعة إلى أخرى. وتنطوى فى معظم الدول على انتقال السلطة من الدولة وموظفيها البيروقراطيين إلى القطاع الخاص ورجال الأعمال. وحينما يحدث ذلك، يمكن أن يصبح من الخاسرين كل أولئك الذين اكتسبوا مكانتهم من وظائفهم البيروقراطية أو من علاقتهم بها، أو من مراكزهم فى نظام اقتصادى فرضت عليه ضوابط وحماية مشددة إذا لم ينجحوا فى الانتقال إلى العالم السريع. ويشمل هذا رجال الأعمال وأصدقاءهم المقربين الذين يستفيدون من احتكار الحكومة للواردات والصادرات، ورجال الصناعة الذين تحميهم الحكومة بفرض تعريفات جمركية مرتفعة على الواردات من المنتجات التى يصنعونها، ونقابات العمال الكبرى التى اعتادت على الفوز بساعات عمل أقل وأجور أعلى مع إبرام كل عقد عمل جديد، والعمال فى المصانع المملوكة للدولة الذين يحصلون على أجورهم سواء حقق مصنعهم أرباحاً أم لم يحقق، والعاطلين فى الدول الغنية الذين يتمتعون بمزايا سخية نسبياً وبرعاية صحية فى كل الأحوال، وكل أولئك الذين اعتمدوا على كرم الدولة فى حمايتهم من السوق وحررتهم من أكثر جوانبها قسوة .

وهذا يفسر السبب فى أنه فى بعض الدول لا يأتى أقوى ارتداد ضد العولمة، من أفقر شريحة من السكان ومن السلاحف، وإنما من أولئك الذين «اعتادوا الوقوف» فى الطبقة الوسطى والطبقة الوسطى الأدنى، الذين عثروا على أكبر قدر من الأمان فى ظل النظم الشيوعية والاشتراكية والاجتماعية التى تفرض حمايتها عليهم. لقد أصبح هؤلاء فى شدة التعاسة، بعد أن شهدوا أسوار الحماية تنهار من حولهم، وشهدوا الألاعيب التى ازدهروا فى ظلها وهى تنكشف، وشبكات الأمان وهى تتقلص من تحتهم. تلك الجماعات التى انحدر بها الحال، لديها القبضة السياسية التى تمكنها من تنظيم نفسها ضد العولمة وذلك على عكس السلاحف.

تكشفت لى للمرة الأولى ردة الطبقة الوسطى هذه بالصدفة عندما كنت فى بيجنج (بكين) أتحدث إلى وانغ جيزى، الذى يرأس قسم الدراسات الأمريكية فى

الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية. كان الحديث قد ابتعد بنا عن مناقشة أمريكا إلى مناقشة حياته الخاصة فى الصين التى كانت تتحرك سريعاً نحو السوق الحرة، التى يرحب بها الكثيرون من الصينيين ويخشونها فى آن واحد. قال وانج: «آلية السوق قادمة إلى الصين، ولكن السؤال هو كيف يمكن فرضها. أنا أعتمد على الوحدة التى أعمل بها فى توفير المسكن لى. فإذا تحول الإسكان كله إلى نظام السوق الحرة فقد أفقد مسكنى. إننى لست محافظاً، ولكن عندما يصل الأمر إلى قضايا عملية مثل هذه. فقد يصبح الناس محافظين إذا ألقى بهم إلى السوق بعد أن اعتادوا على أن يكون هناك من يعتنى بهم. لقد اشتكى لى سائق سيارتى ذات يوم من أنه عندما كان أصغر سناً أسهم بكل طاقته وبكل ما يملك فى إقامة صرح الماوية وفى 'البناء الاشتراكى'. ولكنه أصبح الآن فى الخامسة والأربعين أو الخمسين من عمره وأصبح فجأة مطالباً بأن يندمج فى السوق. وهو يسأل الحكومة: 'هل من العدل أن أكرس نفسى لكل ما طلبتم منى طوال عقود من الزمن ثم فجأة تنسوننى الآن، وتدفعون بى إلى السوق بعد أن تقدم بى العمر؟ هذا ليس عدلاً. إننى لم أخطئ فى شيء. لقد كنت دائماً أتبع تعليماتكم أيتها الحكومة العزيزة، ولكن تعليماتكم الآن لى هى أن أنسى وجود الحكومة'. إن [هذا السائق] يسعد بالعمل معنا هنا، وهو لا يريد أن يصبح سائق تاكسى وأن يفقد كل ما يحصل عليه من مزايا. إنه لا يريد أن يكون فى السوق».

لست بحاجة إلى أن تكون، من قبل، نحلة شيوعية عاملة لتشعر على هذا النحو. نقل لى ذات مرة بيتر شوارتز، رئيس شركة جلوبال بيزنيس نيتورك، وهى شركة استشارية، حديثاً دار قبل أن يُجرى معه لقاء صحفى فى لندن لأحد البرامج الاقتصادية لإذاعة البى بى سى. «سألنى مقدم العرض البريطانى، وهو يصحبنى إلى اللقاء، عن بعض أفكارى الأساسية. ألمحت إلى فكرة أن بريطانيا مثال جيد لانطلاق اقتصاد القطاع الخاص ـ ولا سيما عند مقارنته ببقية أوروبا ـ وأن أفضل مؤشر على هذا الاختلاف

هو الفرق فى معدل البطالة بين المملكة المتحدة، وبقية الدول فى قارة أوروبا. عند هذه النقطة سألنى: «أليس ذلك شيئاً فظيعاً؟ لقد أصبحت إعانات البطالة الآن منخفضة كثيراً فى بريطانيا إلى درجة أن الأمر لم يعد يستحق الاكتفاء بهذه الإعانة وأن الناس عليهم أن يذهبوا إلى العمل».

بعدئذ أضاف شوارتز: «هناك من الناس من يرى فى هذا التحول (إلى العولمة) خسارة كبرى، وليس مكسباً. إنهم لا يفقدون إعانة فقط وإنما يفقدون شيئاً يرون أنه حق لهم ـ تلك هى فكرة أن المجتمعات الصناعية الحديثة من الثراء بحيث إنه من حق الناس الحصول على تأمين سخى عند البطالة».

إذا كنت تريد رؤية هذه الحرب بين من كانوا يحصلون على الحماية وبين دعاة العولمة فى أحد حالاتها اليوم، فاذهب إلى العالم العربى. ففى عام 1996، كان من المقرر أن تستضيف مصر مؤتمر القمة الاقتصادى للشرق الأوسط، الذى كان سيجمع بين المسئولين التنفيذيين للشركات الخاصة الكبرى الغربية والآسيوية والعربية والإسرائيلية. وحاربت البيروقراطية المصرية بضراوة عقد هذا المؤتمر. وكان ذلك من ناحية بتوجهات سياسية من أولئك المصريين الذين لا يشعرون أن إسرائيل فعلت ما يكفى بالنسبة للفلسطينيين مما يجعلها تستحق التطبيع. ولكنه كان من الناحية الأخرى يرجع إلى أن البيروقراطيين المصريين، الذين سيطروا على الاقتصاد المصرى منذ تأميم جمال عبد الناصر لكل المؤسسات التجارية الكبرى فى الستينيات، أدركوا بحدسهم أن هذه القمة قد تكون الخطوة الأولى تجاه فقدهم لنفوذهم لصالح القطاع الخاص، الذى كان بالفعل قد منح الفرصة لشراء الشركات المختلفة المملوكة للدولة، وأنه قد يضع فى نهاية الأمر يده على وسائل الإعلام التى تسيطر عليها الدولة. لقد نددت صحيفة **الشعب** المعارضة بالقمة الاقتصادية باعتبارها «مؤتمر العار». غير أن القطاع الخاص المصرى نجح، لأول مرة، فى تنظيم نفسه فى جماعات للضغط ـ مثل الغرفة

التجارية الأمريكية المصرية ، والمجلس الرئاسى لقادة الأعمال المصريين وجمعية رجال الأعمال فى مصر ـ واجتذبوا الرئيس مبارك فى الاتجاه الآخر، وقالوا، إن استضافة هذا المؤتمر ومشاركة مئات المستثمرين من أنحاء العالم فيه شيء جوهرى من أجل توفير الوظائف لقوة العمل المصرية التى ينضم إليها 400 ألف شخص جديد كل عام. وظل الرئيس مبارك بين الشد والجذب إلى أن انحاز إلى جانب القطاع الخاص ووافق على استضافة القمة ، وأعلنها صراحة فى كلمته الافتتاحية قائلاً: «فى هذا العام انضمت مصر إلى الاقتصاد العالمى. وسوف تعيش وفقاً لقواعده». ولكن البيروقراطية المصرية، التى لا ترغب فى التخلى عن أى نفوذ للقطاع الخاص، ما زالت تحارب هذه الخطوة، وكلما حدث اتجاه إلى الهبوط فى الاقتصاد العالمى، مثل الانهيار الآسيوى فى عام 1998 يذهب البيروقراطيون المصريون إلى الرئيس مبارك، ويقولون له: «انظر، لقد قلناها لك، لابد أن نبطئ قليلاً من اندفاعنا، عليك أن تقيم بعض الأسوار الجديدة، وإلا فسوف يحدث لنا ما حدث للبرازيل.

والآن تنطلق طبول الحرب هذه فى أنحاء العالم العربى، من المغرب إلى الكويت. وقد وصف أحد المسئولين الماليين العرب البارزين ذلك الصراع العولمى فى بلاده فقال: «أحياناً أشعر بأننى جزء من الحركة الماسونية أو المجتمع السرى، لأننى أنظر إلى العالم بشكل مختلف عن الكثيرين من الناس حولى. هناك فجوة هائلة فى اللغة والمفردات بينى وبينهم. وليس الأمر أننى أخفقت فى إقناعهم. فإننى غالباً لا أستطيع حتى التواصل معهم، إنهم بعيدون كثيراً عن هذه النظرة العالمية. ولذلك، يصبح السؤال دائماً بالنسبة لى، عندما أسعى إلى تنفيذ سياسات متعلقة بالعولمة، هو كم عدد الأشخاص الذين أستطيع جمعهم حول هذا المفهوم الجديد بحيث أنجح فى تجميع القوة اللازمة لإحداث تحول؟ إنك إذا نجحت فى توفير العدد الكافى من شعبك لوضعهم فى الأماكن المناسبة، فسوف تنجح فى دفع النظام إلى الأمام. ولكن تلك

مهمة شاقة. وأشعر فى كثير من الأيام كمن يجئ إليه الناس، يقولون له: 'إننا بالفعل بحاجة إلى إعادة طلاء الحجرة'. وأقول أنا لهم، 'كلا، إننا فى الواقع بحاجة إلى إعادة بناء المبنى كله على أساسات جديدة'. وهكذا يدور كل حديثهم معك حول اللون الذى سوف يستخدم فى الطلاء، فى حين كل ما تستطيع أن ترسمه فى مخيلتك بناء جديد كامل يجب تشييده وأساسات جديدة يجب إرساؤها. وبعد ذلك يمكن أن نشغل بالنا بلون الطلاء ! لقد أصبح فى البرازيل والمكسيك والأرجنتين الآن ذلك التجمع المؤثر من الناس والمسئولين الذين يستطيعون رؤية هذا العالم. ولكن معظم الدول النامية لا يوجد فيها بعد، وهذا هو السبب فى أن التحول ما زال حتى الآن غير مؤكد.

وفى المغرب، كل ما تفعله الحكومة هو ببساطة إجراء الخصخصة ببيع الكثير من الشركات المملوكة للدولة لتلك الزمرة الاقتصادية الصغيرة المرتبطة بالقصر الملكى التى كانت ذات مرة تسيطر على احتكارات الدولة. وذلك هو السبب فى أن 3 فى المائة فقط من سكان المغرب يسيطرون على 85 فى المائة من ثروة البلاد. والجامعات المغربية التى تجمع على نحو فريد بين أسوأ ما فى نظم التعليم الاشتراكى والفرنسى، تخرّج كل عام الكثيرين من الخريجين الذين لا يستطيعون العثور على وظائف، وليست لديهم مهارات للعمل الخاص أو مهارات تقنية تتناسب مع اقتصاد المعلومات اليوم، إلى درجة أنه أصبح هناك فى المغرب الآن «اتحاد لخريجى الجامعات العاطلين».

إنك تجد فى كل دولة تقريباً ارتدت قميص القيد الذهبى حزباً شعبياً واحداً أو مرشحاً رئيسياً على الأقل يدعو طوال الوقت ضد العولمة. وهؤلاء يقدمون الحلول الحمائية الشعبية المختلفة التى يزعمون أنها ستؤدى إلى مستويات المعيشة نفسها، بلا حاجة إلى الجرى بهذه السرعة أو التجارة على هذا البعد أو فتح الحدود على مصراعيها على هذا النحو. جميعهم يزعمون أنه بمجرد إقامة بضع أسوار جديدة هنا

وهناك سوف تصبح الأمور على ما يرام. وهؤلاء يستميلون إلى جانبهم كل من يفضلون ماضيهم على مستقبلهم. فى روسيا، على سبيل المثال، يواصل الأعضاء الشيوعيون فى مجلس الدوما قيادة الردة ضد العولمة بأن يقولوا للطبقات العاملة وأصحاب المعاشات إنه ربما كانت وظائفهم أثناء وجود الاتحاد السوفيتى سيئة وربما كانوا مضطرين إلى الوقوف فى طوابير الخبز، ولكنهم كانوا متأكدين دائماً من أن الوظائف موجودة ومن وجود الخبز الذى يتحملون شراءه عندما يصلون إلى أول الطابور.

وتعتمد قوة هؤلاء الشعبيين والمرشحين المناهضين للعولمة، إلى حد بعيد، على ضعف الاقتصاد فى بلادهم. إذ إنه غالباً، كلما كان الاقتصاد ضعيفاً، اتسع نطاق من يجتذبهم اتباع مثل هذه الحلول المبسطة. ولكن الاعتقاد بأن هؤلاء لا يزدهرون إلا فى الأوقات السيئة قد يكون غلطة كبرى. ففى عام 1998، رفضت أغلبية أعضاء الكونجرس الأمريكى منح الرئيس سلطة توسيع منظمة نافتا لتضم شيلى إلى عضويتها - شيلى الصغيرة - بدعوى أن ذلك قد يؤدى إلى فقد وظائف أمريكية. سادت وجهة النظر العنيدة تلك فى وقت كانت بورصة الأوراق المالية الأمريكية تحقق فيه ارتفاعاً قياسياً، وكانت البطالة فى أدنى مستوى لها، وكانت كل الدراسات تقريباً تشير إلى أن اتفاقية نافتا كانت مكسباً ومكسباً ومكسباً للولايات المتحدة وكندا والمكسيك. تأمل مدى غباء ما حدث: خصص الكونجرس الأمريكى 18 مليار دولار لإعادة تمويل صندوق النقد الدولى، حتى يتمكن من القيام بعمليات إنقاذ أخرى للدول التى تعانى من العولمة، ولكن الكونجرس رفض توسيع اتفاقية نافتا لمنطقة التجارة الحرة لتشمل شيلى. فما هو المنطق فى ذلك؟ لا يمكن سوى أن يكون: «نحن ندعم المساعدات لا التجارة».

إنه شيء غير منطقى، ولكن السبب فى أن مثل هذه الآراء يمكن أن تتردد فى أوقات اليسر وفى أوقات العسر على السواء هو أن لحظات التغير السريع على هذا النحو تشيع من عدم الأمان ما يوازى ما تشيعه من ازدهار. فما زال نظام العولمة جديداً بالنسبة لكثيرين من الناس، وينطوى على كثير من التغييرات لكثيرين من الناس، بحيث لا تسمح لهم بأن يكونوا على ثقة حتى من أن الوظيفة الجيدة التى يشغلونها ستظل موجودة دائماً. وذلك يسمح بوجود الردة من جانب هؤلاء الدهماء بحلولهم المبسطة، سواء كانوا على شاكلة بات بوكانان عضو الكونجرس الأمريكى أم جان مارى لو بان فى فرنسا.

فى الوقت الذى تلتحم فيه مزيد من الدول فى نظام العولمة وبالعالم السريع ما زالت هناك جماعة ارتدادية جديدة بدأت فى التجمع ـ تلك هى الغزلان الجريحة. وتضم هذه الجماعة الناس الذين يشعرون بأنهم جربوا نظام العولمة، والذين أصابهم هذا النظام بضرباته المتكررة، والذين بدلاً من النهوض على أرجلهم مرة أخرى وإزاحة التراب عنهم، وبذل كل ما فى وسعهم من أجل العودة مرة أخرى إلى العالم السريع، يصطنعون الآن محاولة أن يوصدوا الباب فى وجه العولمة أو يعملوا على تغيير قواعد النظام بأسره. ويعتبر أصدق مثال لهذه الجماعة رئيس الوزراء الماليزى مهاتير. إن غضب جهنم ذاته لا يوازى غضب من احترق بنار العولمة. فى 25 أكتوبر 1997، وفى ذروة الانهيار الاقتصادى الآسيوى، أعلن مهاتير أمام قمة الكومنولث فى أدنبرة أن الاقتصاد العالمى ـ الذى ضخ مليارات الدولارات من الاستثمارات فى ماليزيا، التى لم يكن ليتحقق لها ذلك النمو المذهل بدون هذه الاستثمارات ـ قد أصبح «مثيراً للفوضى».

قال مهاتير وهو ينفث غضبه: «هذا عالم ظالم. لقد كافح الكثيرون منا كفاحاً شاقاً بل وضحى بدمائه من أجل الحصول على الاستقلال. وعندما تُزال الحدود ويصبح العالم كياناً واحداً فإن الاستقلال قد يصبح بلا معنى».

ليس من المستغرب إذن أن يكون مهاتير فى عام 1998 هو أول عولمى آسيوى يفرض قيوداً على رأس المال فى محاولة لإيقاف المضاربات الشرسة على عملته وفى بورصته. وعندما وصف جورج يوو، وزير الإعلام فى سنغافورة، تلك الخطوة التى اتخذها مهاتير، فإنه قال، «لقد لجأت ماليزيا فى تراجعها إلى بحيرة ضحلة وهى تحاول أن ترسى فيها زوارقها، ولكن تلك الاستراتيچية لا تخلو من المخاطر».

حقاً إنها لا تخلو من المخاطر. فإن كنت تظن أنه باستطاعتك التقهقر بصفة دائمة إلى مكان ثالث مبنى على أساس زائف، وتستمتع بكل مستويات المعيشة للعالم السريع بدون أى ضغوط، فإنك فى الحقيقة تخدع نفسك وتخدع شعبك.

بيد أن الدول النامية تلقت تقهقر مهاتير المؤقت بكثير من التعاطف - رغم أن إحداها لم تقلده. فقد أصبح هناك، ونحن بسبيلنا إلى دخول العقد الثانى من العولمة، إدراك متزايد بين تلك الدول التى قاومت ارتداء قميص القيد الذهبى والعالم السريع بأنها لن تستطيع الاستمرار فى المقاومة. وهى تعلم أن استراتيچية للتقهقر لن تؤدى إلى النمو على المدى الطويل. ولذلك فهى تقول الآن: «بربكم، ألا يستطيع أحدهم على الأقل إبطاء حركة العالم السريع قليلاً حتى نستطيع القفز إليه بدون أن تنقلب بلادنا رأساً على عقب؟» لقد كنت طوال عدة سنوات أتقابل مع عماد الدين أديب رئيس تحرير صحيفة *العالم اليوم* المصرية، فى مؤتمرات مختلفة للبنك الدولى وغيرها من المناسبات، وظل طوال سنوات يعبر لى عن تحفظاته القوية إزاء انضمام مصر لنظام العولمة. وعندما قابلته فى عام 1999، فى منتدى داڤوس، قال لى: «حسناً، أوافقك على أننا يجب أن نستعد لهذه العولمة وأن هذا جزء من مسئوليتنا. إنه قطار لا يتوقف كثيراً، وكان يجب علينا أن ندرك ذلك وأن نفعل ما يجب علينا أن نفعله. ولكنك الآن يجب أن تهدىء قليلاً من سرعة هذا القطار حتى تكون لدينا فرصة القفز إليه».

لم تطاوعنى نفسى أن أقول له إننى انتهيت من توى من مناقشة دارت حول التجارة عبر الإنترنت ـ مع بعض كبار المجددين فيها ـ وخلصوا إلى أن العالم لن يتباطأ فقط، ولكنه، مع هذا الانتشار السريع للإنترنت، سوف يصبح أكثر سرعة. وقلت لأديب، أتمنى أن نستطيع تهدئة هذا القطار، غير أن هذا القطار ليس به سائق محدد.

كنت ذات مرة أتناول القهوة فى مقهى الإنترنت بالعاصمة الأردنية عمان، الذى يطلق عليه اسم مقهى@الكتب ويقع فى الشارع الذى توجد به الأطلال التى تحظى بعناية فائقة لواحد من أعظم المسارح الأثرية الرومانية فى الشرق الأوسط. كانت زيارتى تلك للمقهى فى سبتمبر 1997، حيث توقف مالكها، مدين الجزيرة، عند مروره أمام طاولتى ليقدم لى نفسه. تمسّك هو بأن يقدم لى قطعة من فطيرة كريمة الموز على حسابه. لماذا بالذات فطيرة كريمة الموز؟ كان سؤالى له. حسناً، لقد وضح لى أنها من صنع زوجة نائب السفير الإسرائيلى فى عمان.

قلت له: «أفهمنى إياها مباشرة، فطيرة كريمة الموز فى مقهى الإنترنت بعمان من صنع زوجة نائب السفير الإسرائيلى! شىء عظيم. كم يعجبنى ذلك».

حسناً، لم يكن ذلك شىء عظيم بالنسبة للجميع، حسبما وضح لى. إذ عندما اكتشف الإسلاميون الأصوليون فى عمان أن فطيرة كريمة الموز فى مقهى الإنترنت بعمان من صنع زوجة دبلوماسى إسرائيلى، طالبوا بمقاطعة مقهى الإنترنت حتى تحذف الفطيرة من قائمة ما يقدم فى المقهى. وأضاف مالك المقهى قائلاً: «بل إنهم طالبوا بمقاطعة الشبكة المحلية للإنترنت». (ويبدو أن الدعوة إلى المقاطعة أخفقت وما زالت الفطيرة موجودة فى قائمة ما يقدمه المقهى!)

يمثل الأصوليون المناهضون لفطيرة كريمة الموز الإسرائيلية الصناعة ارتداداً آخر ضد العولمة. إنها ردة كل هؤلاء الملايين من البشر الذين يحتقرون الطريقة التى تعمد

بهـا الإنترنت إلى تجانس الناس، وتضع بهـا فطيـرة كـريمة الموز إسرائيليـة الصناعـة فى مـواجهـة المسلمين الأردنيين، وتأتى بالأغراب إلى ديارك بطرق غـريبـة، وتمحو تميـز الثقافات، وتقتلع بلا رحمة أشجار الزيتون التى تحدد موقعك من العالم وتشدك إليه. ومن الواضح أن الكثيرين من الناس على استعداد إما للتخلى عن كثير من ثقافاتهم المحلية لصالح الثقافة الاستهلاكية للعولمة والأمركة وإما أن يستخدموا الحيلة للجمع بين الاثنتين فى حيـاتهم، وملابسـهم، وعـادات الأكل لديهم، ونظرتهم للحيـاة. ولا يجب على الإطلاق بخس قدرة الناس على التحايل للجمع بين مثل هذه الأشياء. ولو لم يكن الناس بهذه القدرة على استخدام الحيلة، لما تمتـعت مطاعم ماكدونالدز أو شخصيات ديزنى بكل هذا الانتشار فى أنحاء العالم. غير أن هناك بعض الناس ممن لا يتقنون التحايل. بل الواقع أنهم على استعداد لخوض الحرب لحماية ثقافتهم المحلية من الثقافة العالمية. وتتمثل صيحتهم للحرب فى: «لا أريد أن أكون عالمياً. أريد أن أكون محليـاً» . بالنسبـة للعولميين فإن المكانة تعنى أولئك الأكـثر ارتباطاً بالعـالم. وبالنسبـة للأصوليين المكانة لأولئك الأقل ارتباطاً ـ بأى شىء سوى مصدر واحد للحقيقة.

وتصبح هذه الردة الثقافية أشد ما يكون زعزعة للاستقرار السياسى عندما تتزاوج مع ردة أخرى ـ حين تندمج الجماعات الأكثر حرماناً من الناحيـة الاقتصـادية مع أولئك المضطهـدين ثقـافيـاً. وتبـدو هذه الظاهرة أوضح مـا تكون فى الشـرق الأوسط، حيث أصبح الأصوليون من جميع الأنواع يتميزون بمهارة شديدة فى نسج الأسباب الثقافية والسياسية والاقتصادية للردة ضد العولمة فى راية واحدة وحركة سياسية عريضة تسعى إلى الاستيلاء على السلطة وتضع النقاب بينها وبين العالم. لقد كانت أول راية رفعتها المعارضة الجزائرية عبارة عن كيس فارغ مما يوضع فيه الكسكسى، تلك الوجبة الشعبية فى منطقة شمال أفريقيا، التى ترمز إلى إحباط العمال الجزائريين، ولا سيما الشبـاب منهم، بسـبب مـا يعـانونه من بطالة. غـيـر أن هؤلاء الذين يحـملون كـيس

الكسكسى الفارغ هذا أخذوا ينحازون ببطء إلى الإسلاميين الأصوليين المعارضين لسيطرة الأسلوب الغربى فى الحياة والأساليب العلمانية لنظام الحكم الجزائرى، ونجحوا معاً فى إحداث ردة قوية، فى ظل الراية الخضراء للإسلاميين، ضد أولئك الجزائريين الذين يريدون ربط بلادهم بنظام العولمة.

كذلك يمثل بنيامين نيتنياهو، الذى انتخب رئيساً لوزراء إسرائيل فى عام 1996، إلى حد ما نوعاً من الردة السياسية ضد مشكلات اتفاقيات أوسلو للسلام، ولكنه كان يمثل أيضاً ردة ثقافية ضد العولمة والتكامل الكامنين ضمناً فى عملية السلام بين إسرائيل والعرب. لقد أبدى لى موشيه هالبرتال عالم الدين الإسرائيلى ذات مرة ملاحظة بأن رؤية شيمون بيريز بأن يشترك أحفاده وأحفاد ياسر عرفات «معاً فى صنع شذرة الكمبيوتر الدقيقة» كانت شيئاً يمثل بالضرورة تهديداً لكثيرين من اليهود المتدينين فى إسرائيل. لقد كانوا يخشون من إنه إذا سقطت أسوار الجيتو المحيطة بإسرائيل وذابت إسرائيل فى الشرق الأوسط ـ كما ذاب اليهود الأمريكيون فى أمريكا ـ فلن يكون ذلك فى مصلحة اليهودية. كانوا يخشون من أنه عند حد معين لن تستطيع حركة «السلام الآن» و«اليهودية الآن» التعايش معاً حقيقة ـ ولا سيما عندما يبدو أن السلام يعنى مزيداً من العولمة، ومزيداً من التكامل، ومزيداً من شرائط فيديو بلوكباستر، ومزيداً من محطات الكابلات الملطخة بالسواد، ومزيداً من محال بيتزا هت. من هنا ظهرت تلك اللافتات فى الأحياء الدينية المتعصبة ليلة انتخاب نيتنياهو فى عام 1996: «صوتوا من أجل بيبى! فذلك فى صالح اليهود». غير أن الردة الثقافية فى إسرائيل ضد العولمة اندمجت مع الردة الاقتصادية والسياسية. ففى أعقاب اتفاق السلام مع الأردن، بدأت صناعة النسيج الإسرائيلية فى اتخاذ خطوات منطقية؛ وهى نقل وظائف النسيج ذات المهارات القليلة من مدن التطوير الإسرائيلية، مثل كيريات جات، عبر النهر إلى الأردن، حيث الأجور هناك جزء ضئيل من الأجور فى إسرائيل. وفجأة،

وجد عمال النسيج الإسرائيليون الذين لم يكونوا مهيئين للعمل فى مصنع إنتل Intel الذى بنى فى إسرائيل أيضاً أن وظائفهم تنتقل إلى الأردن ـ وهو مكان كان من المستحيل أن تنتقل إليه وظائفهم لولا السلام والعولمة. ويخشى عمال كيريات جات من عدم اتفاق «السلام الآن» مع «الوظائف الآن»، ونظراً لأن الكثيرين منهم من اليهود الشرقيين، فقد جاء رد فعلهم على صورة مساندة سياسية لحزب شاس، وهو حزب السفارديم شديد التعصب الدينى المعارض للعولمة على أسس دينية وثقافية ويتركز اهتمامه على «المسيح الآن». وهكذا فقد اندمجت معاً المسيح الآن، واليهودية الآن والوظائف الآن فى حركة احتجاج واحدة معادية للعولمة.

لا عيب، دون شك، فى محاولة أن تبنى مجتمعك على أساس القيم الدينية والتقاليد. وليس كل من يدعو إلى ذلك ضالعاً بصورة أو بأخرى فى العنف الأصولى. ولكن عندما تكون الأصولية غير مدفوعة بالتعاليم الروحية الحقيقية، ولكن مدفوعة بالردة ضد العولمة فإنها تسقط فى الطائفية والعنف ورفض الآخرين. وكلما زادت عزلتهم، ضعفت شبكة اتصالاتهم وزاد تخلفهم عن الآخرين، وكلما زاد تخلفهم عن الآخرين، زاد استعدادهم للتقهقر ورفض العالم الخارجى بفرض مزيد من العزلة على أنفسهم.

ولكن ليس من الضرورى أن تكون مسلماً أو يهودياً حتى ترغب فى الارتداد ضد العولمة لما تصيبك به من إحساس بالغربة فى دارك ذاتها. فتلك ظاهرة عالمية. كنت فى جولة لى فى آسيا عندما كان الأستراليون يجرون انتخاباتهم العامة فى عام 1996 وأدهشنى أن تكون معظم حملتهم الانتخابية تدور حول البسكويت وملابس السباحة. نعم، كانت القضية فى أستراليا هى: أن جون هوارد، الذى كان فى ذلك الوقت رئيساً لحزب المحافظين الأسترالى، زعم أن حزب العمال بزعامة پول كيتينج فى غمرة حماسه لكى يجعل أستراليا تتكامل مع الاقتصاد العالمى وأن تصبح أكثر انفتاحاً

أمام الاستثمار الأجنبى، قد أوجد وضعاً ساعد الشركات العالمية المتمركزة فى الخارج على شراء أكثر الشركات الأسترالية نجاحاً بحيث أصبحت ملكاً للأجانب. وزعم هوارد أن أستراليا تفقد رموزها الوطنية، بل فى الواقع سيادتها وهويتها، للسوق العالمية، على الرغم من سعى أستراليا إلى النهوض باقتصادها. وأشار، بصفة خاصة، إلى أن شركة آرنوت للبسكويت، الذى نشأ عليه كل تلميذ أسترالى، قد بيعت لشركة أمريكية (ليس أقل من شركة كامبلز سوب!)، قد تبدأ فى العبث فى مكونات حلوى آيسْد ڤو - ڤوس Iced Vo-vos - أشهر أنواع الحلوى الأستراالية - المصنوعة من حلوى الخطمى وجوز الهند. وقال هوارد: لقد حدث هذا بالنسبة لشركة ملابس السباحة الشهيرة من ماركة سبيدو Speedo، التى بيعت لشركة أمريكية. وأصبح بالفعل ما حدث لحلوى الآيسد ڤو - ڤوس وملابس السباحة ماركة سبيدو من الموضوعات الساخنة فى الحملات الانتخابية. وقد ساعد ذلك الحماس الذى أبداه هوارد تجاه شجرة الزيتون على أن يهزم كيتنج المحب للسيارة ليكساس هزيمة قاسية.

بعد مضى عام كنت أسير عبر الأراضى الزراعية بولاية إنديانا فى ربيع عام 1997 فى طريقى إلى جامعة پوردو. وكان يصحبنى إليها البروفيسور جون لارسون أستاذ التاريخ بجامعة پوردو الذى يرعى حقوق الآخرين. ولدى اقترابنا من لافاييت شاهدت مصنعاً ضخماً يظهر فى الأفق. سألته: «ما هذا؟» قال بروفيسور لارسون موضحاً ونحن نقترب منه: «إنه مصنع شركة سوبارو». ثم أضاف: إن مصنع سوبارو هذا يمثل لولاية إنديانا «أول تجربة باعتبارها بلداً من العالم الثالث».

سألته: كيف ذاك؟

قال لارسون: «لقد شب الجيل الذى أنتمى إليه، الجيل الذى نضج فى الخمسينيات على فكرة أن أمريكا تتفوق فى كل شىء. وإننا نحن الذين نصنع العولمة. ولكن عندما كان رجال صناعة السيارات اليابانية يبحثون عن موقع لمصنع سوبارو

جاءوا هنا بالطريقة التى يذهب بها الأمريكيون إلى الهند، يسألون كل تلك الأسئلة: هل نستطيع الحصول على كل ما نطلبه؟ هل يمكن أن نثق فيكم؟ هل لديكم قوة عمل مستقرة؟ ما هو مستوى التعليم هنا؟ هل سنحصل على إعفاءات ضريبية؟ وكان قادة المجتمع هنا متلهفين على الاستثمار، ولكن بعض الناس تساءلوا: «من يكون هؤلاء اليابانيون حتى يسألوا عن مدارسنا؟»

وعندما قرر المسئولون فى شركة سوبارو إقامة مصنعهم فى لافاييت، اقترح أحدهم إطلاق اسم جديد على الطريق السريع الذى يمتد أمام المصنع مثل اسم «طريق سوبارو السريع» تكريماً لهذه الشركة التى ستأتى وتجلب معها كل فرص العمل هذه. وأضاف لارسون موضحاً «غير أن النقابة المحلية لعمال السيارات سمعت بذلك وأقامت ضجة كبيرة. قالوا إنه لا يمكن إطلاق اسم جديد على الطريق السريع. فهل تعلم ماذا يعنى اسم هذا الطريق؟» كان الطريق قد أطلق عليه بالفعل اسم طريق باتانBataan السريع ـ تكريماً لاسم شبه الجزيرة الموجودة فى الفلبين التى لقى فيها آلاف الأمريكيين حتفهم فى مسيرة للموت بعد أن صاروا أسرى للقوات اليابانية فى أبريل عام 1942.

وأضاف بروفيسور لارسون: «أبدى المسئولون فى شركة سوبارو تعاطفاً شديداً وقالوا إنه يجب علينا، أن لا نطلق بأى حال من الأحوال، على طريق باتان السريع الاسم الجديد 'طريق سوبارو السريع'. ومنذ ذلك الوقت اعتاد الناس تماماً على وجود اليابانيين ويُقابلونهم هنا بالترحاب. ويتناوب علينا هنا المديرون اليابانيون جيئة وذهاباً مع عائلاتهم. ويذهب أطفالهم إلى المدارس المحلية ـ فيما عدا أيام السبت التى يذهب فيها الأطفال اليابانيون إلى مدارسهم الخاصة حتى يحافظوا على لغتهم كما أنهم لا يعتقدون أن الرياضيات التى ندرسها لهم قوية بدرجة كافية».

@Ahmedyassin90

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل الرابع عشر

النمو التلقائى السريع

(أو الردة ضد الردة)

كنت فى زيارة لهانوى فى خريف عام 1995. وفى كل صباح كنت أذهب فيه للتريض كنت أسير حول المعابد الموجودة بالقرب من بحيرة هوان كييم، فى قلب هانوى، وفى كل صباح كنت أتوقف لزيارة امرأة ڤيتنامية دقيقة الحجم تقبع فى مذلة على الرصيف ومعها ميزان للحمّام. كانت تعرض أن تزن الناس مقابل مبلغ ضئيل. وفى كل مرة كنت أدفع لها دولاراً وأزن نفسى. لم يكن ذلك لأننى كنت أرغب فى معرفة وزنى. فقد كنت أعرفه. (وأتذكر أن ميزانها بصفة خاصة لم يكن دقيقاً). كلا، بل كان تعاملى التجارى مع هذه السيدة مساهمة منى فى عولمة ڤيتنام. كان شعارها الذى لم تفصح عنه هو بالنسبة لى: «أيا كان ما تملكه، كبيراً كان أم صغيراً ـ عليك أن تبيعه، أو تقايض به، أو تستفيد منه، أو تؤجره، أى شىء يمكن أن يتحقق لك فيه ربح، وترفع به من مستوى معيشتك وأن تكون طرفاً فى المباراة».

تجسد هذه السيدة وميزانها حقيقة أساسية عن العولمة تضيع غالباً فى حديث صفوة المديرين الماليين، وصناديق الحماية، وشذرات المايكروبروسسور عالية السرعة. تلك الحقيقة هى أن العولمة تظهر من أسفل، من مستوى الشارع، من داخل أرواح

الناس ومن أعمق ما يتوقون إليه. نعم، العولمة هى نتاج لديموقراطيات التمويل، والتكنولوجيا والمعلومات، غير أن ما يدفع هذه الديموقراطيات الثلاث هو الرغبة الإنسانية الأساسية فى حياة أفضل ـ حياة يتمتع فيها المرء بمزيد من الاختيارات إزاء ماذا يأكل، وماذا يلبس، وأين يعيش، وأين يسافر، وكيف يعمل، وماذا يقرأ، وماذا يكتب، وماذا يتعلم. إن العملية كلها تبدأ من سيدة فى هانوى، قابعة فى ذلة على الرصيف، تقدم لك ميزان الحمام كتذكرتها إلى دخول العالم السريع.

لقد أصبح وسط هانوى اليوم، كما لو أن كل بوصة من أرصفة شوارعها يقف عليها شخص ما يبيع بسعر رخيص فائض سلع المتاجر كالحصر أو الملابس المستعملة أو المتبقى فوق الأرفف فى واجهة أحد المحال. وكل بوصة من الطريق يحتلها أناس يقايضون صنادلهم مقابل دراجة، أو دراجتهم مقابل دراجة سكوتر آلية، أو الدراجة السكوتر مقابل هوندا سيڤيك، أو سيارتهم الهوندا سيڤيك مقابل سيارة تويوتا كامرى، نعم، بل حتى سيارتهم التويوتا الكامرى مقابل السيارة ليكساس أحياناً. ولما كنا نميل إلى الاعتقاد بأن العولمة شيء يربط الدول بأشياء من خارجها، أو شيء مفروض من أعلى ومن بعيد، فإننا فى المقابل نميل إلى أن ننسى إلى أى مدى هى فى حقيقتها أيضاً حركة ذات جذور متأصلة تخرج من داخل كل منا.

وهذا هو السبب فى أنه يجب علينا دائماً أن لا ننسى أنه إلى جانب الردة ضد القسوة والضغوط والتحديات الكامنة فى العولمة، يوجد أيضاً نمو تلقائى سريع بين الناس الذين يطالبون بمزايا العولمة. وقد أطلق العنان لهذا النمو التلقائى السريع ملايين العمال الذين طرحتهم العولمة أرضاً، ومع ذلك يواصلون النهوض، وينفضون عنهم التراب، ويدقون باب العولمة مرة أخرى، مطالبين بالالتحاق بالنظام. فإذا كان للسلاحف نصف فرصة، فإنها لا تريد أن تظل سلاحف، والمتخلفون عن الركب لا

يريدون أن يظلوا متخلفين، وقليلو المعرفة يريدون معرفة المزيد. إنهم يريدون أن يصبحوا أسوداً أو غزلاناً. يريدون أن يحصلوا على قطعة من النظام، لا أن يدمروه.

تصادف أن كنت فى ريو دى جانيرو عندما خصخصت الحكومة البرازيلية شركة التليفونات الحكومية، تليبراس. وخرج الناس إلى الشوارع فى مظاهرة احتجاج ضخمة ضد الخصخصة. غير أن أكثر ما أدهشنى هو أن صحيفة **أوجلوبو** *Oglobo* البرازيلية نشرت فى اليوم التالى حديثاً صحفياً مع أحد المتظاهرين وسألته عن سبب اشتراكه فى المظاهرة. فأجاب بأنه شارك فيها لأنه «اعتقدت أننى قد أحصل على وظيفة». المسكين لم يكن ضد العولمة، بل كان فقط يريد المشاركة فيها.

سوف يتحمل الناس المزيد من الضغوط المرتبطة بالعولمة أكثر مما يظن المرء ـ من ناحية لأن عمال التعدين الروس والفلاحين المكسيكيين والعمال الإندونيسيين يدركون بقدر ما أنه ليس أمامهم اختيار سوى أن ينهضوا ويسارعوا نحو العالم السريع، ومن الناحية الأخرى أنهم لا يريدون أن يكون الأمر على نحو آخر. ومن الواضح أنه إذا تعذر تماماً هزيمة قُوى السوق ـ إذا شعر الناس أن النظام أصبح مجنوناً إلى حد قطع الرابطة بين بذل الجهد الشاق والارتفاع بمستوى المعيشة، ومن ثم لم ينجح أى قدر من الإصلاحات المؤلمة أو شد الأحزمة على البطون فى أن تجعل لهم نصيباً فى هذا النظام ـ عندئذ يكون هذا النظام فى خطر. ولكننا لم نصل إلى هذا الحد بعد.

من القصص المفضلة لدىّ عن روسيا فى عام 1998 قصة حكاها اقتصادى روسى لأحد أصدقائى عن سائق الدبابة الروسى فى بلدة تقع وراء جبال الأورال الذى قاد دبابته إلى مقر إدارة البلدة مطالباً بكل رواتبه المتأخرة. وعندما أحاط سكان البلدة بالدبابة فى ذعر وسألوا السائق إن كان ينوى نسف المقر، أجاب قائلاً، كلا، كلا، كلا، ـ لقد كان السبب الوحيد فى أنه جاء بدبابته هو أنه لم يكن لديه أى وسيلة

أخرى للوصول إلى هناك وأنه لا يقدر على دفع أجرة التاكسى. إن كل ما يريده هو الحصول على راتبه.

حقاً، فعلى الرغم من كل الاضطرابات والاهتزازات التى تأتى بها الرأسمالية العالمية إلى مجتمع ما، فقد أحدث انتشار الرأسمالية ارتفاعاً فى مستوى المعيشة أعلى لكثيرين من الناس وأسرع مما حدث على مر التاريخ. كذلك أدى إلى وصول عدد أكبر من الفقراء إلى الطبقات الوسطى أسرع من أى وقت فى تاريخ البشرية. وهكذا، فعلى الرغم من أن الفجوة بين الأغنياء والفقراء آخذة فى الاتساع - حيث أن الفائزين فى نظام العولمة يحققون انطلاقة حقيقية، وينأون بأنفسهم عن كل الآخرين - فإن الأرض التى يقف عليها الفقراء آخذة فى ارتفاع مطرد فى مناطق كثيرة من العالم. وبعبارة أخرى، لئن كان الفقر النسبى يزداد فى كثير من الدول فإن الفقر المطلق ينخفض حقيقة فى كثير من الدول. يقول تقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة لعام 1997، انخفض الفقراء فى الخمسين عاماً الماضية أكثر مما حدث طوال الخمسمائة عام السابقة. وقد تقدمت الدول النامية فى الثلاثين عاماً الماضية بسرعة تماثل ما حققته الثورة الصناعية طوال القرن الماضى. ومنذ عام 1960 انخفضت معدلات وفيات الأطفال وسوء التغذية والأمية إلى حد كبير، فى حين يزداد معدل الحصول على المياه النقية. ولقد نجحت الدول الأكثر انفتاحاً للعولمة مثل تايوان وسنغافورة وإسرائيل وشيلى والسويد فى فترة قصيرة نسبياً فى الوصول إلى مستوى للمعيشة يمكن مقارنته بمستويات المعيشة فى أمريكا واليابان، فى حين تضخمت الطبقة الوسطى فى دول مثل تايلاند والبرازيل والهند وكوريا، بفعل العولمة إلى حد ما.

وهذا هو السبب فى أنه على الرغم من أن الردة ضد العولمة ما زالت نشطة وقوية فإن حدة هذه الردة تخف باستمرار بفعل النمو التلقائى السريع لمزيد من العولمة - فالمزيد من الناس يتوقون إلى الانضمام إلى النظام. وأنت لست بحاجة إلى أن تكون

أستاذاً فى العلوم السياسية حتى تدرك ذلك. كل ما عليك هو أن تسير فى شوارع كل الدول النامية تقريباً.

سوف تقابلك شانوكفات فيتاكوانوكون؛ تلك المرأة الصينية التايلاندية البالغة من العمر أربعين عاماً التى تبيع السجائر وزلابية باو الصينية فى ذلك الكشك الصغير الذى أقامته فى طريق وايرليس فى وسط مدينة بانكوك. كنت أنزل بفندق بالقرب من ذلك المكان فى ديسمبر عام 1997، فى الأسبوع الذى أغلقت فيه الحكومة معظم بيوت المال فى البلاد، وطلبت من مترجم صحيفة *نيويورك تايمز* أن يصحبنى فى جولة أتعرف فيها على بعض ردود الأفعال من تجار الشوارع. كانت شانوكفات هى أول من تحدثت إليهم. بادرتها بالسؤال: «كيف الأحوال فى العمل؟»

أجابت فى تجهم: «منخفضة بنسبة 40 إلى 50 فى المائة».

سألتها إن كانت قد سمعت عن جورج سوروس، الملياردير مدير صندوق الحماية الذى اتهم حينئذ بالمضاربة بالعملات الآسيوية والتسبب فى بدء الانهيار.

قالت وهى تهز رأسها: «كلا». إنها لم تسمع قط عن سوروس هذا.

قلت لها: «دعينى أسألك سؤالاً. هل تعرفين ما هى البورصة؟»

قالت بدون تردد، «نعم، عندى بعض الأسهم فى بنك بانكوك وبنك آسيا».

سألتها، «كيف بحق السماء جاءتك فكرة شراء أسهم بنكية؟»

أجابت: «كل أقاربى يشترونها، ولذلك فقد اشتريتها أنا أيضاً. لقد ألقيت بهم فى البنك. لم يعد لهم قيمة كبيرة الآن».

عند هذا الحد من الحديث نظرت إلى أسفل، ولاحظت أنها لا ترتدى أى حذاء. ربما كان لديها حذاء فى مكان ما، ولكنه لم يكن فى قدميها. ولم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير على النحو التالى: «إنها لا ترتدى حذاء، وتعليمها لا يزيد على

السنة الخامسة الابتدائية، ولكنها تمتلك أسهماً مصرفية فى بورصة تايلاند». ثم دارت فى ذهنى بعد ذلك بعض التساؤلات. ما هى اهتماماتها؟ هل ستقود مظاهرة لإشعال النار فى مكتب صندوق النقد الدولى الذى فرض كل هذه الشروط على تايلاند من أجل إصلاح اقتصادها؟ أم، لأنها أصبحت الآن بطريقة ما جزءاً من النظام، قد تكون على استعداد للعمل بجد أكثر، وادخار نقود أكثر، وتقديم تضحيات أكثر، حتى لصندوق النقد الدولى، إذا كان ذلك سيؤدى إلى انعاش الاقتصاد التايلاندى؟ شىء ما يقول لى أنها ستختار الطريق الأخير. إنه النمو التلقائى السريع فى أجْلى معانيه.

سوف تقابل أيضاً تيرا فوتراكول الذى يرأس واحداً من أكبر الصناديق المشتركة فى تايلاند. ذهبت لإجراء لقاء صحفى معه فى إحدى الأمسيات فى بانكوك لمعرفة ما إذا كانت ستحدث ردة فى تايلاند ضد المصرفيين الغربيين والأمريكيين الذين قد يحاولون التحرك لشراء البنوك والشركات التايلاندية الآن بعد أن أصبحت العملة رخيصة إلى هذا الحد وبعد الانهيار التام لكثير من الشركات، أمعن تيرا التفكير لحظة ثم أجابنى بالقصة التالية: قبل بضعة أسابيع سرقت محفظة أحد أصدقائه. كان فى تلك المحفظة بطاقات ائتمانية من أربعة بنوك: أمريكان إكسبريس وثلاثة بنوك تايلاندية. اتصل على الفور ببنك أمريكان إكسبريس والبنوك التايلاندية الثلاثة الأخرى وأبلغها بسرقة بطاقاته الائتمانية. سأله بنك أمريكان إكسبريس إذا كان يريد أن ترسل له بطاقات جديدة بواسطة الدراجة البخارية سكوتر فى اليوم نفسه. أما البنوك الثلاثة الأخرى فلم ترد عليه حتى الآن.

قال تيرا، «وهكذا، فأسأل نفسك أنت هذا السؤال: 'هل سيهتم صديقى حقاً إذا اشترى بنك سيتى بانك الأمريكى البنوك التايلاندية الثلاثة وارتفع بمستوى أدائها إلى مستوى بنك أمريكان إكسبريس؟' وهل سيشعر بالغضب كمواطن؟ ربما، ولكن

ذلك قد لا يستمر لفترة طويلة إذا بدأت هذه البنوك التايلاندية فى توظيف أناس آخرين وبدأت فجأة تُدار بكفاءة وربحية سيتى بانك وأمريكان إكسبريس. ذلك إذن هو النمو التلقائى السريع فى أجْلى صوره.

سوف تقابل أيضاً ليليان، موظفة الخدمة الاجتماعية البرازيلية التى تبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، وتعيش فى حى روسينها العشوائى الفقير، الفاڤيلا (*favela*) فى ريو، وتعمل فى الحكم المحلى بها. اصطحبتنى فى جولة فى مركز الرعاية النهارية فى الفاڤيلا وقالت لى ونحن فى طريقنا إليه إنها ادخرت على مدى بضع سنوات حتى تتمكن فى النهاية من الانتقال بعائلتها خارج هذا الحى. والآن وبعد أن انتقلوا من الفاڤيلا وأصبحوا فى العالم السريع ، أصبح آخر شىء تريده هو أن ينهار هذا العالم حتى لو كافحت للدخول فيه. قالت لى:«عندما كنت صغيرة كان كل جيراننا فى حى الفاڤيلا يشاهدون التليفزيون فى منزل واحد. والآن انتقلت إلى مكان يبعد عن عملى مسافة ساعة وعشرين دقيقة، بدلاً من عشرين دقيقة، ولكنه بعيد عن الفاڤيلا وبعيد عن الجريمة. لقد انتقلت إلى المكان الجديد من أجل أولادى فليس فيه تجّار مخدرات. وأنا اكسب 900 ريال فى الشهر. وأستطيع الآن شراء تليفون. الآن منزلنا مبنى بالطوب الأحمر، وليس من الخشب، ومع ذلك يتبق لى فى نهاية الشهر مبلغ من النقود. حين كان يحدث عندنا تضخم من قبل، كان يتعذر علينا الشراء بالتقسيط لأننا لا نستطيع تحمل ارتفاع معدلات الفائدة. واليوم حتى الفقراء أصبح لديهم تليفون، ولديهم قنوات الكابل التليفزيونية وعندهم كهرباء. لدىّ كل الأشياء الأساسية التى عند الأثرياء. الآن أصبح بوسعنا الشكوى من سوء الخدمات (الكهرباء أو شركة التليفون) . من قبل، لم يكن لدينا هذه الأشياء، ولذلك فلم نكن نشكو منها» . ذلك إذن هو النمو التلقائى السريع فى أجْلى صوره .

سوف تقابل أيضاً فاطمة العبدلى الخبيرة الكويتية فى علوم صحة البيئة التى تمتلك أشهر مقهى للإنترنت فى مدينة الكويت «وادى القهوة» حيث تستطيع الاستمتاع بارتشاف القهوة والإبحار فى عالم الشبكة. تلقت فاطمة تعليمها فى أمريكا، وهى ترتدى الحجاب علامة على التقوى الإسلامية، ولكن يوجد تحت هذا الحجاب رأس منشغل تماما بالشبكة. كنت فى الكويت ألقى محاضرة عن العولمة، وكانت هى من بين الحضور. بعدها دعتنى لزيارة مقهاها ومقابلة بعض الطلبة هناك. كان المقهى موجوداً فى أحد مراكز التسوق الحديثة. قلت لها وأنا أجلس فى أحد أركان المقهى : «انظرى، إننى أشعر بنوع من الحيرة. وأريدك أن توضحى لى شيئاً. أنت ترتدين غطاء الرأس الإسلامى، فمن الواضح أنك امرأة متدينة، ولكنك تلقيت تعليمك فى جامعة أمريكية وتأتين بالإنترنت إلى الكويت. وأنا أرى هناك نوعاً من التناقض فى كل ذلك».

كان مضمون إجابتها هو أن العالم العربى الإسلامى تعرض فى الماضى للغزو مرات عديدة من الأجانب، بما يأتون به غالباً من تأثيرات وتكنولوچيات أجنبية. وقالت، حسناً، إنهم يتعرضون مرة أخرى للغزو. ولكنها فى هذه المرة سوف تمتلك هى هذا الغزو، ولن تسمح للغزو أن يمتلكها. إنها سوف تضع نوعاً من الحجاب حول الإنترنت وتتأكد من أن الشباب الذين يترددون على مقهاها يستخدمونها استخداماً سليماً. أعجبنى ذلك الجهد الذى تبذله. لا ترتد ضده ـ بل امتلكه أنت أيضاً.

قالت لى، وكان ذلك فى عام 1997، «إن فكرة إنشاء مقهى للإنترنت جاءتنى منذ ثلاث سنوات. كنت أعرف أنها آتية لا محالة وأننى إذا لم أفتتح واحدة لهذا الغرض، فإن آخر سيفعل. وأدركت أنه يجب أن يكون لدينا نوع من التحكم فيها، إذن فلنعلّم الناس الجانب الطيب فيها ونجعله متسقاً مع ثقافتنا، بدلاً من الانتظار إلى أن تغزونا هى. لقد تبنيتها، ثم عدلتها وفق احتياجاتنا، ونحن نقدم فى موقعنا عليها ببطء بعض قضايا حقوق المرأة [فى الإسلام]».

ودعت العبدلى بعض طلبة جامعة الكويت للانضمام إلينا. أشار أحدهم إشارة عابرة إلى أنهم أجروا مؤخراً انتخابات طلابية فى الجامعة، وفيها فاز مرشحو الأحزاب المستقلة والليبرالية والعلمانية فوزاً ساحقاً على مرشحى الأصوليين الإسلاميين. وفى العالم العربى تحظى انتخابات الطلبة بأهمية كبيرة، لأنها تميل إلى أن تكون أكثر حرية ومن ثم تكون غالباً الأصدق تعبيراً عن المواقف الجماهيرية، بين الشباب على الأقل. سألت عبد العزيز الساحلى طالب الاتصالات البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً عن السبب فى هذه الهزيمة القاسية للإسلاميين. قال: «لم يعد الإسلاميون مؤثرين. والأحزاب العلمانية تقدم مساعدات أكثر للطلبة فى الأشياء الصغيرة التى يهتم بها الطلبة ـ مثل التصوير الإلكترونى بماكينات زيروكس، وحل مشكلات البريد الإلكترونى، وتوفير الكتب الدراسية، وأماكن وقوف السيارات. لقد قل الآن تمسك المجتمع بالأيديولوچيات. فنحن بحاجة إلى البحث عن وظيفة. ذلك إذن هو النمو التلقائى السريع فى أجْلى صوره.

سوف تقابل أيضاً اثنين من أصدقائى الأستراليين، آن وجيرارد هيندرسون المتخصصين فى العلوم الاجتماعية. لقد مر الزوجان علىّ لرؤيتى ذات يوم فى واشنطن وتحدثا إلىّ عن ابنتهما التى تدرس فى الجامعة فى أستراليا. فقال جيرارد:.«ابنتنا جوانا، تبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً. وفى ذات يوم تلقت هى وزميلتها التى تشاركها فى الشقة التى تقيمان بها رسالة من شركة التليفون الأسترالية، تليسترا، تعلن فيها أن ثلث الشركة بسبيله إلى الخصخصة وأنه يحق لكل منزل به تليفون تابع لشركة تليسترا شراء مجموعة من أسهمها. اتصلت بنا وسألتنا إن كانت تستطيع ذلك، فقلنا نعم. وهكذا وافقت على العرض. لم يكن معها سوى مبلغ ضئيل من المال ـ وكان سعر السهم ثلاثة دولارات أسترالية، وهكذا اشترت مائة سهم فيها. إنها لم تحصل بعد على أى

مرتب. فقد تعمل أمينة مكتبة أو مدرسة، أو ممن يحصلون على دخل جيد عن طريق العمل الشاق، ولكنها كانت الوحيدة من أفراد العائلة التى قبلت عرض شركة تليسترا. وقد اشترى العاملون فى هذه الشركة 90 فى المائة من الأسهم المطروحة، وأصبحوا منذ ذلك الحين أقل تشدداً فى مطالبهم من الشركة. لقد أدرك الناس مثل هذه الأشياء. وكان المحافظون قد استغلوا فى انتخابات عام 1996 الأفكار المناهضة للعولمة فى هزيمة حكومة دول كيتينج العمالية، ثم اعتنقوا ببساطة هذه الأفكار. لا يوجد بديل آخر، إلا إذا كنت ترغب فى العودة إلى الوراء. قبل عشر سنوات كان من الممكن أن تسير ابنتى فى التيار المضاد للعولمة، ولكنها، ببضعة أسهم فى شركة تليسترا، وهو كل ما كانت تمتلكه، أصبحت فجأة مهتمة بما يحدث فى وول ستريت؛ لأن ذلك أصبح يؤثر فيها الآن. ذلك إذن هو النمو التلقائى السريع فى أجلى صوره.

ولا يندفع هذا النمو التلقائى السريع بالقوة الدافعة لأن الكثيرين من الناس يرغبون فى أن يلحقوا بالنظام فحسب، ولكنه يزدهر أيضاً لأن النظام نفسه يزيد من قدرة أولئك الذين تعرضوا لقسوته على أن يحكوا للناس عن آلامهم أو على تنظيم أنفسهم ليفعلوا شيئاً إزاءه. إذ بفضل الإنترنت، على سبيل المثال، لم يعد الأمر يقتصر على بضعة شركات إعلامية كبرى مندمجة تستطيع مخاطبة الكثيرين من الناس. بل أصبح الكثيرون من الناس يستطيعون مخاطبة الكثيرين من الناس.

لقد عرفت ذلك من شاندرا مظفّر، رئيس منظمة حقوق الإنسان الماليزية التى يطلق عليها اسم الحركة الدولية من أجل عالم منصف .ذهبت لمقابلة ذلك الرجل الماليزى المسلم المهذب فى مكتبه البسيط بإحدى ضواحى كوالالمبور. ذهبت لرؤيته لهدف واضح هو الاستماع إليه وهو يلعن العولمة نيابة عن أولئك الذين تركتهم العولمة قتلى على الطريق أو الذين تخلفوا عن ركبها، وتعتبر منظمته أقوى المدافعين عنهم. ولكننى تلقيت منه رسالة أكثر رقة وأكثر إثارة للاهتمام.

قال مظفر:« فى اعتقادى أن العولمة ليست مجرد عودة إلى عصر الاستعمار. والذين يعارضون ذلك لم يفهموها على النحو السليم. فهى أكثر تعقيداً من ذلك. انظر حولك. فقد أصبح لديك نتيجة للعولمة، عناصر ثقافية من الشعوب التى خضعت للسيطرة تتسلل الآن إلى عالم الشمال. لم يعد الطعام المفضل من الأغذية البحرية للبريطانيين اليوم مجرد أسماك ورقائق البطاطس، وإنما أيضاً الكارى. إنه حتى لم يعد ذلك الطعام الغريب عليهم. ولكننى لا أتحدث فقط عن الكارى. فهناك، حتى على مستوى الأفكار قدر معين من الاهتمام بالأديان المختلفة الآن. وهكذا فإنه لئن كانت هناك تلك القوة المسيطرة (الأمركة) فإن لديك تدفقاً ثانوياً من الاتجاه الآخر ... فهناك الآن فرص متاحة للآخرين فى عرض قضيتهم عبر الإنترنت. فإيران مثلاً شديدة الاتصال بالإنترنت. وهم يرون فيها أداة يمكن لهم استخدامها فى نقل وجهة نظرهم عبر الحدود. ويعتبر فوز الفيلم الإيرانى، *مذاق الكرز* بالجائزة الأولى فى مهرجان كان للسينما جزءاً من ذلك التدفق المضاد. وفى ماليزيا، استطاع مهاتير أن يحظى بتغطية إعلامية إلى حد ما فى أنحاء العالم على شبكة سى إن إن الإخبارية التليفزيونية. ولقد شنت الحملة من أجل حظر الألغام عن طريق الإنترنت. هذا هو ما تفعله العولمة للجماعات الهامشية. والقول بأنها طريق له اتجاه واحد خطأ، وينبغى علينا أن ندرك أن الأمر أصبح أكثر تعقيداً. الناس يعملون على مستويات مختلفة. فعند أحد المستويات، قد يغضبون لما تتعرض له مجتمعاتهم من ظلم بسبب الأمركة، ثم يذهبون إلى ماكدونالدز ثم يناقشون هذا الموضوع مع أولادهم الذين يدرسون فى الولايات المتحدة.

ذلك إذن النمو التلقائى السريع يواجه الردة.

إن ذلك يصدق أيضاً حتى على أكثر المجتمعات تقدماً. نشرت مجلة *فوربس* ـ التى يصعب القول بأنها تدافع عن المحرومين من المعرفة ـ موضوعاً شديد الذكاء فى يوليه عام 1998، بعد تقرير تايم وورنر المشئوم الذى أذاعته سى إن إن يوم 7 يونيه عام

1998 عن استخدام مشاة البحرية الأمريكية لغاز الأعصاب عن عمد ضد المرتدين فى لاوس عام 1970 . وما أن أذيع هذا التقرير على الهواء حتى وصف المحاربون القدماء فى الجيش الأمريكى ما يسمى بكشف أسرار العملية تيلويند بأنه استند إلى تقارير مزيفة ومصادر مشكوك فيها. ولكن قناة سى إن إن العالمية العملاقة لم تتراجع عما أذاعته برغم الشكاوى العديدة (القنوات الإخبارية العالمية العملاقة لا تعتذر لأحد، ولا سيما لبعض العسكريين المتقاعدين) .

أشارت مجلة *فوربس* إلى أن «تايم وورنر ربما كان يتوقع أن يهدأ هذا الغضب المترتب على تقريره، ولكن المحاربون القدماء الذين جن جنونهم عبأوا أنفسهم على الإنترنت ـ وهى الوسيلة الوحيدة المتوافرة بسهولة لهم. ولولا الإنترنت لكان البحث عن الحقائق قد استغرق شهوراً ـ وعندئذ قد لا يهتم الكثيرون بالأمر. لقد صرح جنرال سلاح الطيران (المتقاعد) والمستشار العسكرى لشبكة سى إن إن، پيرى سميث بقوله، 'لقد أتاحت لى الإنترنت أن أفعل فى ثلاثة أيام ما فعله إبريل أوليفر (المنتج فى شبكة سى إن إن) فى ثمانية أشهر'. غير إنه ترك العمل فى الشبكة احتجاجاً على البرنامج، ثم ساعد فى دحض ما جاء به. وقال سميث إنه فى ليلة إذاعة البرنامج، وضع على عجل قائمة بأسئلة حول ما جرى حقيقة فى لاوس. فقد أرسل هذه الأسئلة بمجرد الضغط على زر إلى أكثر من 300 من أفضل مصادره ـ ويصفها سميث 'بريدى الإلكترونى الجدير بالثقة'. وهكذا، بدأ البريد الإلكترونى يصل إلىّ طائراً من كل اتجاه. لقد كان تصنيف عملية تيلوند أنها بالغة السرية، وهكذا فإنه كان على المحاربين القدماء فى ڤيتنام الانتظار إلى أن تقرر لهم البيروقراطية فى البنتاجون السماح أو عدم السماح بالاطلاع على المعلومات التى يرغبون فيها من أجل تكذيب ما أذاعته شبكة سى إن إن، وتكون حينئذ الضجة قد هدأت. ولكنهم باستخدام شبكة البريد الإلكترونى، التى لا تكلفهم شيئاً تقريباً، استطاعوا بمجهودهم وحدهم تجميع كل

الشـهـادات التى يحتـاجـونهـا من الجنود الذين كـانوا فى مسـرح الأحداث فى ذلك الوقت، ثم إبرازها فى وجه سى إن إن فى غضون أيام.

وفى النهـاية، أجبـر المحاربون القـدمـاء ـ الذين لا تكاد تكفـيـهـم المعـاشات وهم مسلحين بالبـريد الإلكتـرونى ـ ريك كـابلان رئيس شبكة سى إن إن عـالى المكانة أن يظهـر على شاشة شبكته، وهو يبدو مثل الغزال المذعور أمام الأضواء، وينفى صحة القـصـة التى أذاعـهـا وأن يعتـذر مرات ومرات لإنقاذ وظيفـته ومحاولة استعـادة بعض المصداقية لشبكته التليفزيونية.

وتذكرنا كل هذه القصص على نحو ما بأنه إذا كانت العولمة تفرز شعوراً هائلاً بالاغتراب، نظراً لاستمرار انتقال القوة إلى المزيد والمزيد من تلك المستويات المجردة التى يصعب لمسها أو والتأثير فيها أو حتى رؤيتها، فإنها تستطيع أيضاً أن تفعل العكس. إنها تستطيع أن تهبط بمزيد من القـوة والموارد إلى المستوى المحلى وإلى الأفـراد بصـورة لم تحدث من قبل.

تساعدنا أيضاً كل هذه القصص فى تفسير السبب فى أن الردة ضد العولمة لم تكتسب حتى الآن ـ وأنا أشفق من التـعـبـيـر ''حتى الآن'' ـ الحجم الكافى حتى تتمكن حقيقة من عرقلة هذا النظام الجديد. انظر إلى جنوب شرقى آسيا. أحياناً تكون الأخبار فى تلك الضوضاء ـ فى صراخ الناس فى الشوارع وفى نقوشهم أو رسومهم البسيطة على الجدران. ولكن أحياناً تكون الأخبار حقاً فى ذلك الصمت ـ فيما لم يقله أحد. إن أعظم حكمة تستطيع اكتسابها وأنت مراسل صحفى هو أن تفهم الفرق بين الاثنين، وأن تعرف متى يكون فى الصمت أبلغ الكلام. إننى أشعر بأن أهم قصة إخبـارية خرجت من آسيا فى عام 1998 هى ذلك الصمت النسبى الذى تقبلت به الطبقات الدنيا والمتوسطة فى تايلاند وكوريا وماليزيا، بل وفى إندونيسيا الحكم الذى أصدرته السوق العالميـة ـ بأن بلادهم لديهـا مشكلات أساسيـة فى برمجياتهـا ونظام

تشغيلها ـ وأنها على استعداد لقبول العقاب وأنها تحاول الآن القيام بالتعديلات اللازمة.

كان من المستحيل التنبؤ بالفترة التى سوف يستغرقها ذلك، إلا أنه ظل يدحض كل أولئك الذين كانوا يتنبأون بقرب زوال العولمة. إذ إنه بعد كل اضطراب يحدث فى الاقتصاد العالمى، أو بعد كل تجربة نووية هندية، يكتب بعض النقاد أن كل ذلك يثبت أن العولمة قد «انتهت» ، وأن النظام ينهار، وأنه لم يعد هناك سوى بيئة تسودها المنافسة الشرسة من أجل البقاء. لقد دفنت العولمة تماماً على يد أولئك الذين لا يفهمون أبسط الأشياء عنها ، والذين لم يتحدث إليهم أمثال ليليان أو تيرا أو تشاندرا أو شانوكفات أو ابنة عائلة هندرسون أو عمال المعادن الروس ناهيك عن السيدة العجوز ضئيلة الحجم ذات الميزان فى هانوى . ذلك أنه عندما يتخلى هؤلاء جميعاً عن محاولة أن يكونوا جزءاً من العالم السريع، وعندما يعلن هؤلاء جميعاً أنهم يفضلون العودة إلى نظمهم القديمة المنغلقة التى تخضع لسيطرة الحكومات وأنهم يتخلون عن محاولة الحصول على أسلوب حياة أفضل ـ لهم أو لصغارهم ـ فحينئذ سوف أعترف بأن العولمة انتهت وأن الردة ضدها قد انتصرت.

وحتى يحدث ذلك ، دعنى أطلعك على سر صغير عرفته من حديثى مع كل هؤلاء الناس: مع كل ما نكنّه من احترام لأصحاب النظريات الثوريين إلا أن «التعساء فى الأرض» يريدون الذهاب إلى عالم ديزنى ـ وليس إلى المعسكرات. إنهم يريدون المملكة السحرية، وليس *البوساء*. وإذا شيدت لهم نظاماً اقتصادياً وسياسياً يمنحهم بعض الإحساس بأنهم بالعمل الشاق والتضحيات سوف يذهبون إلى عالم ديزنى وسوف يستمتعون بالمملكة السحرية، فسوف يتمسك معظمهم بالمباراة لفترة أطول كثيراً مما كنت تتوقع.

الجزء الرابع

أمريكا والنظام

@Ahmedyassin90

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل الخامس عشر
الحماس المنطقى

عندما أطلق آلان جرينسبان رئيس الاحتياطى الفيدرالى تعليقه الشهير فى مطلع عام 1997 وحذر فيه المستثمرين فى سوق الأوراق المالية الأمريكية من «الحماس غير المنطقى» بسبب الطريقة التى كانوا يدفعون بها أسعار أسهمهم نحو الارتفاع على نحو يتجاوز أى حسابات معقولة للأسعار ـ مقابل الأرباح، كتبت عاموداً على صورة رسالة إلى جرينسبان، وكأنه طبيب استشارى يعمل بإحدى الصحف. بدأت الرسالة على النحو التالى:«عزيزى دكتور جرينسبان، إننى أشكو من مشكلة رهيبة. إننى أشعر بحماس غير منطقى إزاء سوق الأوراق المالية الأمريكية ولكننى لا أستطيع أن آلفه.

أعلم أنك قلت إن الحماس غير المنطقى مضر بصحتى، ولقد جرّبت كل شىء: التنويم المغناطيسى. الفاليوم. البيع على المكشوف، بل إننى أعدت قراءة أحاديثك التى ألقيتها منذ عام 1987 . ولكن لم يفدنى شىء فيها. ففى كل مرة أذهب إلى أوروبا، أو أزور اليابان، فإننى أعود للوطن وأنا متلهف على استثمار المزيد فى السوق الأمريكية. أرجوك، أرجوك، ساعدنى. المخلص، السيد متشبع إى. بالاستثمار».

مضيت قائلاً له إننى لا أعرف ما هو المستوى السليم الذى يجب أن تكون عليه سوق الأوراق المالية الأمريكية، وإننى كنت أعتقد أنه إذا لم تواصل أمريكا القيام بالأشياء الأساسية لزيادة الإنتاجية وأن تواصل المحافظة على انخفاض معدلات الفائدة

والتضخم فسوف تأخذ سوق الأوراق المالية فى الانخفاض تماماً مثلما أخذت فى الارتفاع. ولكن النقطة التى كنت أريد إبرازها هى أنه إذا حدث بعض الاندفاع فى الأسواق الأمريكية فلن يكون مرد ذلك فقط إلى أن هناك الكثير من «الحماس غير المنطقى» للاقتصاد الأمريكى، وإنما مرد ذلك أيضاً إلى وجود بعض الحماس المنطقى لأمريكا.

وبما أننى أمضيت الكثير من وقتى فى الخارج وبعيداً عن وول ستريت ـ حيث كنت أنظر إلى بلادى من الخارج ـ فإننى معرض بصورة دائمة للحماس المنطقى لأمريكا فى باقى العالم . وقد استند هذا الحماس المنطقى إلى المنطق التالى: إنك إذا نظرت إلى العولمة على أنها النظام الدولى السائد اليوم، ونظرت إلى الصفات التى تحتاجها الشركات والدول على السواء لكى تحقق الازدهار فى هذا النظام، فسوف تخلص إلى أن أمريكا لديها أصول أكثر وخصوم أقل، فيما يتعلق بهذا النظام، من أية دولة كبرى أخرى. وهذا هو ما أسميه الحماس المنطقى. إنه الحدس السائد بين المستثمرين العالميين بأنه فى حين ما زالت كثير من الدول فى أوروبا وآسيا تحاول أن تكيّف مجتمعاتها مع العولمة، وفى حين يقف بعضها بالكاد على خط البداية، فقد انتهى أنكل سام بالفعل من أول دورة له حول المضمار بأقصى سرعة.

وثمة طريقة مفيدة لتحليل هذا الحماس المنطقى تتمثل فى طرح السؤال التالى: لو أنك جئت قبل مائة عام من الآن إلى مهندس جغرافى ملهم وقلت له إنه فى عام 2000 سوف يعرف العالم بنظام يطلق عليه اسم «العولمة»، فما هو نوع البلد الذى سيقوم بتصميمه لكى ينافس ويفوز فى ذلك العالم؟ الإجابة هى أنه كان قد يصمم شيئاً يشبه إلى حد كبير الولايات المتحدة الأمريكية. وإليك ما أقصده:

قبل كل شىء. إنه قد يصمم دولة توجد فى موقع جغرافى نموذجى من حيث القدرة على المنافسة. بمعنى، أنه قد يصمم دولة تطل على كل من المحيطين الأطلنطى

والهادى، بحيث تنظر بارتياح من كلا الاتجاهين ، وفى الوقت نفسه تكون متصلة بكتلة من اليابسة بكل من كندا وأمريكا اللاتينية، حتى يتسنى لها التفاعل بسهولة مع كل الأسواق الرئيسية فى العالم ـ آسيا وأوروبا والأمريكتين. وهذه كلها ستكون فى متناول اليد.

قد يصمم دولة تتمتع بتنوع سكانى متعدد الثقافات ومتعدد الإثنيات (العرقيات) ومتعدد اللغات له ارتباطات طبيعية بكل القارات ، ولكن هذه الدولة تكون فى الوقت نفسه مرتبطة إلى بعضها بعض بلغة واحدة ـ هى الإنجليزية ـ التى قد تكون أيضاً هى اللغة المسيطرة للإنترنت. كما أنه قد ينعم على هذه الدولة بخمسة اقتصادات إقليمية مختلفة على الأقل تكون مرتبطة معاً بعملة واحدة، هى الدولار، الذى قد يكون هو أيضاً عملة الاحتياطى لبقية دول العالم. فوجود دولة واحدة بها عدة اقتصادات إقليمية مختلفة يعتبر ميزة عظيمة لأنه عندما يحدث هبوط فى أحد الأقاليم، فقد يحدث انتعاش كبير فى الإقليم الآخر، مما يساعد على التخفيف من حدة الصعود والهبوط فى دورة الأعمال التجارية. قد يكون كل ذلك من العوامل المساعدة.

وقد يصمم بلداً له أسواق شديدة التنوع والابتكار ورأس المال الكفء، تعتبر فيه الرأسمالية المغامرة فناً نبيلاً ومقداماً، بحيث يستطيع أى إنسان عنده اختراع معقول (أو حتى سخيف) فى بدروم أو جراج منزله أن يجد رأسمالياً مغامراً فى مكان ما يقدم له الدعم. وهذا شىء لطيف. ذلك لأنك عندما تتحدث عن السرعة فلا يوجد من هو أسرع من أسواق رأس المال الأمريكية فى إلقاء الأموال إلى الأفكار الجديدة. فإذا قارنت بين قائمة لأكبر خمس وعشرين شركة فى أوروبا قبل خمسة وعشرين عاماً بقائمة لأكبر خمس وعشرين شركة أوروبية اليوم فسوف تجد القائمتين متطابقتين تقريباً. ولكنك إذا أخذت قائمة بأكبر خمس وعشرين شركة فى أمريكا منذ خمسة وعشرين عاماً وقارنتها بقائمة بأكبر خمس وعشرين شركة أمريكية الآن فسوف تجد أن

معظم الشركات مختلفة. نعم، لم تكن أسواق المال الأمريكية، بسعيها المتواصل إلى الأرباح قصيرة الأجل والمكاسب ربع السنوية، لتسمح غالباً للشركات أن « تبدد الأموال» بالتركيز على النمو طويل الأجل. هذا صحيح. ولكن هذه الأسواق ذاتها سوف تمنح شخصاً ما لديه فكرة تافهة 50 ألف دولار فى لحظة فى محاولة ليجعل منها جهاز آبل كمبيوتر التالى. وفى ماساشوسيتس وحدها صناعة لرأس المال المغامر تفوق ما فى أوروبا بأسرها. إن أصحاب رأس المال المغامر مهمون جداً فى هذه الأيام وهذا العصر، ليس فقط باعتبارهم مصدراً للأموال. إن أفضلهم يقدم خبرة حقيقية للشركات المبتدئة. فهم يرون الكثير منها ويفهمون المراحل التى يجب على الشركات أن تمر بها لكى تنمو، ويستطيعون مساعدتها فى اجتياز هذه المراحل، وهو أمر له أهمية الأموال المطلوبة للبدء فى أى مشروع جديد.

ومما لا شك فيه أن مهندسنا الجغرافى قد يصمم دولة يوجد بها أكثر البيئات القانونية والتنظيمية أمانة فى العالم. ويستطيع المستثمرون المحليون والأجانب على السواء فى هذه الدولة أن يعتمدوا دائماً على وجود حلبة لعب مستوية إلى حد معقول، وبها قدر قليل نسبياً من الفساد، وقدر كبير من الضمانات القانونية لأى أجنبى يرغب فى الاستثمار ثم الخروج بأرباحه فى أى وقت، وسيادة القانون التى تمكن الأسواق والعقود التجارية من العمل وتحمى وتشجع الابتكار بحماية الاختراع. إن أسواق المال فى الولايات المتحدة اليوم ليست فقط أكثر كفاءة من أى دولة أخرى، ولكنها أيضاً أكثرها شفافية. ولن تتحمل أسواق الأوراق المالية فى الولايات المتحدة ببساطة السرية، ومن ثم، يجب على كل شركة مسجلة أن تقدم فى الأوقات المحددة تقارير الأرباح مع بياناتها المالية المراجعة محاسبياً بانتظام، بحيث يكون من السهل رصد سوء الإدارة أو سوء التخصيص للموارد وإنزال العقاب بها.

وقد يصمم دولة لها نظام من قوانين الإفلاس والمحاكم يشجع بالفعل أولئك الذين يخفقون فى مشاريعهم التجارية على إعلان إفلاسهم ثم معاودة المحاولة من جديد وربما يخفقون من جديد، فيعلنون إفلاسهم مرة أخرى، ثم يحاولون أيضاً من جديد، وذلك قبل أن يتحقق لهم النجاح ويبدأون فى تأسيس شركة Amazon.com التالية ـ وذلك دون أن يحملوا وصمة إفلاساتهم الأولى طوال حياتهم. يقول جون دوير صاحب رأس المال المغامر البارز إنه، فى وادى السيليكون،« لا بأس من الإخفاق، بل قد يكون من المهم لك فى الواقع أن تكون قد أخفقت من قبل بأموال شخص آخر». ففى وادى السيليكون يعتبرون الإفلاس ثمناً ضرورياً وحتمياً للابتكار، وهذا الموقف يشجع الناس على المجازفة. إنك إذا لم تخفق فلن تستطيع أن تبدأ. لقد أسس هارى سال أحد أنجح نظم البرمجيات التشخيصية فى وادى السيليكون، بعد أن شارك فى عدد من المشروعات المبتدئة التى انهارت من أساسها، وقد قال لى ذات مرة، ونحن نحتسى القهوة فى پالو آلتو: «إن وجهة النظر السائدة هنا هى أنك تزداد صلابة وحكمة عندما تخفق. وهذا هو السبب فى أن الناس هنا حين يخفقون فى محاولتهم الأولى، يصبح من السهل عليهم جمع الأموال فى المرة التالية من هنا وهناك. يقول الناس، 'أوه، هل أفلس فى أول مشروع له؟ أراهن أنه تعلم شيئاً من ذلك، ولذلك فسوف أسانده بالمال مرة أخرى' ».

أما فى أوروبا فيعتبر الإفلاس وصمة مدى الحياة. فمهما حدث لك، لا تعلن إفلاسك فى ألمانيا؛ فسوف تحمل أنت وأولادك وأحفادك وصمة قابيل إلى الأبد فى أعين المجتمع الألمانى. وإذا تحتم عليك إعلان الإفلاس فى ألمانيا، فمن الأفضل لك أن ترحل عن البلاد.(وسوف يفتحون لك أذرعهم مرحبين فى پالو آلتو».

وبالنسبة لهذا الموضوع، فقد يصمم مهندسنا الجغرافى بلا شك دولة مستعدة استعداداً طيباً لقبول مهاجرين جدد؛ بحيث يستطيع أى إنسان أن يأتى إلى سواحلها

وأن يُعامل دستورياً على قدم المساواة مع أى إنسان آخر، مما يمكن هذه الدولة باستمرار من سحب أفضل العقول فى العالم والجمع بينهم فى شركاتها ومراكزها الطبية وجامعاتها. إن ثلث العلماء والمهندسين تقريباً الموجودين اليوم فى وادى السيليكون من المهاجرين المولودين فى دول أجنبية، الذين يحدثون عندئذ تغييراً حاداً فى قيم وادى السيليكون ومنتجاته ثم ينشرونها فى أنحاء العالم. لقد جاء فى بحث أنالى ساكسينيان، الخبيرة فى الشئون المدنية بجامعة بيركلى بولاية كاليفورنيا، الذى أجرته لمعهد السياسات العامة فى كاليفورنيا إنه فى عام 1996، كانت 1786 شركة للتكنولوچيا فى وادى السيليكون، تصل مبيعاتها إلى 12.6 مليار دولار، ويصل عدد العاملين فيها إلى 64 ألف عامل، تخضع لإدارة مديرين تنفيذيين من المهاجرين الهنود أو الصينيين فقط. لقد أسس دونالد رايس الرئيس السابق لشركة تيليداين شركة للتكنولوچيا الحيوية، اسمها يوروچنيسيز ، فى عام 1997 لإنتاج أدوية لعلاج مشكلات الپروستاتا. وقد اتخذ من سانتا مونيكا بكاليفورنيا مقراً لشركته. وصف لى فى يوم من الأيام العاملين لديه، بقوله: «لدينا تسعة عشر عاملاً. ثلاثة منهم من مواليد ڤيتنام، وهم عالمان وإدارى؛ واثنان من مواليد كندا، وهما عالمان؛ وواحد من مواليد ألمانيا، وهو عالم؛ وواحد من مواليد پيرو، وهو عالم؛ وواحد من مواليد ماليزيا وهوعالم؛ وواحد من مواليد الصين، وهو عالم؛ وواحد من إيران، وهوعالم؛ وواحد من الهند، وهو عالم. أما الباقون فهم أمريكيون بالمولد. ولا يمكن أن أتصور دولة أخرى فى العالم تستطيع أن تجمع فيها بين مثل هذا الفريق». ذلك أكيد. هل علمت بشخص استطاع مؤخراً أن يصبح مواطناً يابانياً؟ وماذا عن السويسريين؟ فلكى تكون يابانياً لا بد لك أن تكون من مواليد اليابان. ولكى تكون سويسرياً يجب تكون من مواليد سويسرا. ولكن لكى تكون أمريكياً فما عليك إلا أن ترغب فقط فى أن تكون أمريكياً. وذلك لا يعنى أننا نسمح بالدخول لكل من يرغب فى أن يكون أمريكياً، ولكن عندما تكون المواطنة

مسألة قانونية وليست عرقية أو عنصرية أو وطنية، فإن ذلك يجعل الأمر أسهل كثيراً على البلد لكى يمتص الموهبة الجديدة. ويحب أحد أصدقائى فى وادى السيليكون أن يقول فى ذلك: «إننى لا أخاف من اليابان أو الدول الآسيوية الأخرى. فالآسيويون منا سوف يهزمون الآسيويين منهم فى أى يوم».

كلما زاد عدد عمال المعرفة الذين تستطيع جذبهم إلى شواطئ بلادك، زاد نجاحك. وفى حالة أمريكا، أقول اسع إلى جلب هذه النوعية من الناس، ولا تقتصر على جلب الأغنياء وأصحاب المشروعات المتعلمين. إننى لن أرفض قط دخول بحار هاييتى واحد. فالإنسان الذى لديه الذكاء والطاقة ويستطيع بهما أن يبنى زورقاً من علب اللبن الكارتون ثم يبحر به عبر الأطلنطى ليصل إلى شواطئ أمريكا إنما هو من أرغب فى أن يكون مهاجراً لدى. يقول تى. جى. رودجرز رئيس شركة سايبريس سيميكونداكتور لأشباه الموصلات فى هذا الصدد وهو يشكو من القيود التى فرضها الكونجرس على عدد تأشيرات الدخول للعمل المؤقت المخصصة للمهندسين الأجانب : «فى عصر المعلومات سوف يتحدد مصير الفائزين والخاسرين بقوة العقل. ولكن عندنا أعضاء فى مجلس الشيوخ لا يرون ذلك. إنهم يريدون إغلاق الباب أمام الاختيارات الأولى لعالم المفكرين وبذلك نعيدهم إلى بلادهم ليتمكنوا من منافستنا من هناك. إن هناك أربعة من بين نواب الرئيس العشرة فى شركتى من المهاجرين. وهناك نحو 35 فى المائة من المهندسين لدى من المهاجرين. نائب الرئيس لشئون البحوث عندى ـ ذلك الرجل الذى يصمم أكثر شذرات الكمبيوتر تطوراً عندى ـ من كوبا» . فهل ترغب فى أن تعتمد الوظائف فى بلادك على المهندسين الذين تخرجهم بلادك فقط، أم هل ترغب فى أن تكون لديك الفرصة للحصول على أفضل 10 فى المائة من جميع المهندسين فى أنحاء العالم؟ إن أمريكا هى الدولة الوحيدة التى لديها الفرصة اليوم. أما اليابان وسويسرا وألمانيا ـ فليست لديها تاريخ حقيقى للهجرة، وهذا سوف يكون خسارة كبيرة لهم .

وقد يصمم مهندسنا الجغرافى بلا شك دولة، لها نظام سياسى فيدرالى ديمقراطى مرن يسمح بقدر كبير من لا مركزية اتخاذ القرار السياسى التى تمكن الأقاليم والمحليات المختلفة من التكيف مع الاتجاهات العالمية بدون انتظار تحرك المركز. حقاً إن وجود نظام فيدرالى ـ به خمسون ولاية لديها جميعاً الحافز للتنافس والتجربة من أجل العثور على حلول لمشكلات التعليم والرعاية الاجتماعية والرعاية الصحية المتشابكة ـ يعتبر رصيداً هائلاً فى عصر العولمة، حين يمكن أن تكون هذه المشكلات شديدة التعقيد ويندر أن تحصل لها على الحل الصحيح بدون إجراء تجارب عدة مرات.

وقد يصمم مهندسنا الجغرافى بلا شك دولة يوجد بها أكثر أسواق العمل مرونة فى العالم ـ دولة تملك سوقاً للعمل تمكن العمال من التحرك بسهولة من منطقة اقتصادية إلى أخرى، وسوقاً للعمل تمكن أصحاب الأعمال من توظيف العمال والاستغناء عنهم بسهولة نسبية. إذ كلما سهلت عملية الاستغناء عن العمال، زاد حافز أصحاب الأعمال على توظيفهم. قارن بين ملايين الوظائف التى ألغيت فى أمريكا فى التسعينيات والملايين الكثيرة الأخرى من الوظائف التى أنشئت فى أمريكا فى التسعينيات، مع دوران العمل الثابت تقريباً فى أوروبا الغربية. ففى أمريكا، يمكن للمرء أن يفقد وظيفته فى ولاية مين فى يوم، وأن يحصل فى اليوم التالى على وظيفة أخرى، إذا توافرت فى سان دييجو. ولكن إذا فقد المرء وظيفته فى طوكيو فى يوم فلا أنصحه بالبحث عن وظيفة أخرى فى سول فى اليوم التالى. وإذا فقد المرء وظيفته فى ميونيخ فى يوم، فلن يكون من السهل عليه الحصول على وظيفة أخرى فى ميلانو فى اليوم التالى، حتى مع وجود العملة الأوروبية الموحدة والسوق الموحدة.

وقد يصمم مهندسنا الجغرافى دولة تعتبر فيها اتحادات المنتجين التى تحميها الحكومة شيئاً كريهاً، ومن ثم يتعين على كل شركة وبنك أن يكافح ويقف على قدميه معتمداً على نفسه فقط. ولن يسمح بوجود الاحتكارات. وسوف يكون ذلك

مهماً. وحتى عندما تصبح الشركة الأمريكية شديدة النجاح، ومثل الدرة العالمية كشركة مايكروسوفت مثلاً، فما زال عليها أن تخضع لاستجواب مدعى مكافحة الاحتكار بوزارة العدل الذى لا يتعدى مرتبه 75 ألف دولار سنوياً.

وقد يصمم مهندسنا الجغرافى دولة تتحمل وجود غريبى الأطوار، مثل ذلك الرجل الذى يعقص شعره على صورة ذيل حصان، أو تلك الفتاة التى تضع قرطاً فى أنفها، ولكنهما مع ذلك يتمتعان بعبقرية حسابية أو ببراعة فى كتابة البرمجيات. أمريكا هى الدولة التى فى اللحظة التى يقف فيها شخص ما ليقول، «هذا مستحيل» يدخل آخر من الباب ليعلن، «لقد فعلتها». يقول أفرام ميللر نائب رئيس شركة إنتل: «لم يدرك اليابانيون ذلك، لأنهم يركزون على التجانس والإنتاج النمطى. وعندما كان اليابانيون يشيدون صرحاً صناعياً من كل الأشياء المتماثلة فإنهم كانوا خبراء العالم فيها، وقد أخطأنا واعتقدنا أن ذلك نوع من العبقرية الخاصة. ولكن العالم اليوم لم يعد يرغب فى كثير من الأشياء المتماثلة، وفى عالم يريد فيه الجميع شيئاً مختلفاً ـ وتستطيع التكنولوچيا أن تقدم لهم الشىء المهيأ تماماً لاحتياجاتهم ومواصفاتهم الخاصة ـ فإن أمريكا تتمتع بميزة حقيقية».

وقد يصمم مهندسنا الجغرافى دولة أنجز فيها قطاع الشركات فى منتصف التسعينيات ـ على عكس هذا القطاع فى أوروبا أو اليابان ـ معظم عمليات خفض الأحجام، والخصخصة، ومد الشبكات، وخفض الضوابط، وإعادة الهندسة، والتحديث ورفع الكفاءة وإعادة الهيكلة اللازمة للتكيف الكامل مع ديموقراطيات التمويل والتكنولوچيا والمعلومات واستغلالها على أكمل وجه، واجتناب إصابة شذرات الكمبيوتر الدقيقة بمرض نقص المناعة. وتماماً مثلما فازت أمريكا فى سباق الفضاء فإنها تفوز الآن فى سباق السايبر سبيس (cyberspace تكنولوچيات الفضاء المعلوماتى). فالشركات الأمريكية تنفق على تكنولوچيا المعلومات نسبة من دخل الفرد تفوق ما تنفقه أى دولة غيرها فى أنحاء العالم.

وقد يصمم أيضاً دولة لديها تقاليد عميقة الجذور فى إقامة المشروعات الخاصة، ولديها نظام الضرائب الذى يسمح للمستثمر أو المبتكر الناجح بالحصول على نصيب كبير من مكاسبه الرأسمالية، ومن ثم فهناك حافز مستمر دائماً لتحقيق الثراء الهائل. ففى بلدنا النموذجى هذا، لا يعتبر هوراشيو آلجر شخصية أسطورية وإنما قد يكون أحياناً أقرب جار لك تصادف فقط أنه عمل مهندساً فى شركة إنتل أو أمريكا أون لاين عندما كانتا فى بدايتهما وانتهى به الحال إلى الحصول على جزء من مرتبه على صورة أسهم فأصبحت قيمتها الآن 10 ملايين دولار.

وقد يصمم مهندسنا الجغرافى بلا شك دولة ما زال بها الكثير من الأماكن والمدن الصغيرة ذات البيئة الجذابة المفتوحة على اتساعها لكى تجذب عمال المعرفة. ذلك لأنه بفضل الإنترنت وآلات الفاكس وتوصيل الطرود فى صباح اليوم التالى، أصبح باستطاعة شركات التكنولوچيا المتقدمة وعمال المعرفة الهروب من المراكز الحضرية والاستقرار فى أى مكان يرغبون فيه تقريباً. ولهذا قد يكون وجود الكثير من الوديان الخضراء المورقة التى لا تبعد كثيراً عن المحيطات أو الجبال رصيداً حقيقياً. ولهذا السبب تشهد اليوم ولايات مثل إيداهو، وواشنطن، وأوريجون، ومينيسوتا، ونورث كارولينا ازدهاراً فى قطاعات التكنولوچيا المتقدمة.

وقد يصمم أيضاً دولة تقدر التدفق الحر للمعلومات إلى حد الدفاع عن حقوق أسوأ الإباحيين وأشد العنصريين إثارة للفتن فى أن يؤدوا أعمالهم. فقد يكون ذلك رصيداً. لأنه فى عالم سوف تتدفق فيه المعلومات، والمعرفة، والسلع والخدمات بسرعة متزايدة عبر العالم السريع أو عن طريق الفضاء المعلوماتى (السايبر سبيس)، فقد تكون هناك ميزة حقيقية لتلك الدول التى تشعر بالارتياح فى مثل هذا الانفتاح وذلك التنافر وتلك الفوضى التى تصاحبه أحياناً، تلك الدول التى تشعر بالارتياح فى جو التنافس على أساس التخيل، وليس من خلف أسوار الحماية. وقد حافظت أمريكا على

ثقافة الانفتاح تلك منذ بداية تأسيسها، عن طريق مرسوم حرية الحصول على المعلومات الذى لا يسمح للحكومة بالاحتفاظ بالأسرار لفترة طويلة.

والأهم من ذلك أن مهندسنا الجغرافى قد يصمم دولة تستطيع الشركات المتعددة الجنسية وصغار رجال الأعمال فيها التخطيط بمزيد من الارتياح لمشروعات كبيرة والتخطيط على أساس عالمى، وتتفوق الآن فى كل نشاط سريع، وخفيف، ومتصل بشبكات، ومكثف للمعرفة. إن أمريكا تتفوق الآن فى مجالات تصميم البرمجيات، والحواسب، والتصميم عن طريق الإنترنت، والتسويق عن طريق الإنترنت، وأعمال البنوك التجارية، والبريد الإلكترونى، والتأمين، والمشتقات، والهندسة الوراثية، والذكاء الاصطناعى، وأعمال البنوك الاستثمارية، والرعاية الصحية نبيلة الأهداف، والتعليم الأعلى مستوى، وتسليم الطرود صباح اليوم التالى، والفنادق، والاستشارات، والأطعمة السريعة، والإعلان، والتكنولوجيا الحيوية، ووسائل الإعلام، ووسائل الترفيه، وإدارة المخلفات، والخدمات المالية، والصناعات البيئية، والاتصالات. إنه عالم ما بعد الصناعة، وأمريكا اليوم تجيد كل شىء فيما بعد الصناعة.

* * *

فى عالم الفائز فيه يحصد كل شىء فإن أمريكا، بلا شك، حتى الآن على الأقل، لديها نظام يحصل فيه الفائز على الكثير. وذلك يجعل أمريكا دولة عظمى فريدة. فهى تتفوق فى مصادر القوة التقليدية. أى أن لديها جيشاً عاملاً ضخماً، مزوداً بعدد من حاملات الطائرات، والمقاتلات النفاثة المتطورة، وطائرات النقل، والأسلحة النووية يزيد على ما كان لديها فى أى وقت مضى، بحيث تستطيع استعراض القوة بدرجة تفوق أى دولة أخرى فى العالم. بل وأشد عمقاً أيضاً. إن امتلاك أمريكا كل من قاذفات القنابل الشبح طويلة المدى ب 2 (B-2) ومقاتلات الشبح قصيرة المدى إف 22 (F-22)

التى يجرى تطويرها الآن يعنى أن طائرات سلاح الطيران الأمريكى تستطيع اختراق نظام الدفاع الجوى لأى دولة أخرى تقريباً بدون اكتشاف وجودها. وفى الوقت نفسه، وكما أسهبنا آنفا، تتفوق أمريكا فى كل مقاييس القوة الجديدة فى حقبة العولمة.

ولكن تذكر هذا: قبل عقد واحد من السنين بدا أن الآسيويين والأوروبيين لهم اليد العليا، وكان أفول نجم أمريكا هو كل البدعة السائدة. والآن، وحسبما يقول جون نوفر، المحلل الأمريكى بمعهد بحوث ميتسوى مارين فى طوكيو، لصحيفة ***نيويورك تايمز***، أصبح كل شىء معكوساً فجأة: «اليابانيون لا يرون الضوء فى آخر النفق، والأمريكيون لا يرون المنحدر الصخرى المطل على البحر الذى قد يسيرون إليه».

ومع ذلك، فإن هذا لا يعنى أنه لا يوجد بالفعل منحدرات صخرية. لقد كانت موجودة دائماً. أيا كانت الميزات التنافسية الأساسية التى تتمتع بها أمريكا فى هذه اللحظة من التاريخ، فما زال عليها تصحيح الأساسيات حتى يتسنى لها المنافسة. وما زال عليها أن تتأكد من التحسن المطرد فى الإنتاجية، والقدرة على إنتاج سلع وخدمات بأقل وأقل التكاليف بحيث يمكن رفع الأجور بدون حدوث تضخم. وفى هذه اللحظة، قد تكون الخصوم فى اليابان أكبر من الأصول فى هذه الحقبة من العولمة، ولكن اليابان ما زالت صانعاً بارعاً فى كثير من الصناعات الأساسية، إذ لديها دائماً معدل مرتفع من المدخرات المفيدة وشعب قادر على العمل الشاق. وما زالت اليابان أيضاً هى آلة الابتكار فى مجالات مثل التصنيع النهائى عالى الجودة، وإدارة المخزون والإلكترونيات. وهناك كثيرون من رجال الأعمال اليابانيين الجياد الذين يختنقون من نظام بلادهم. ولذلك فإن تعثرات الاقتصاد الكلى التى حدثت فى اليابان فى التسعينيات لم تقض عليها، وإنما تطلبت منها فقط بعض التعديل. ولن يمثل اليابانيون والأوروبيون الغربيون تحدياً لأمريكا طالما ظلوا متمسكين بنظمهم المتصلبة التى تأخذ بأسلوب توفير الحماية الاجتماعية، التى وإن كانت تجعل الرأسمالية

أقل قسوة، إلا أنها تجعلها أقل إبداعاً وإثراءً. ولكن كلما ابتعدت أمريكا فى طريق هذه الحقبة من العولمة، زاد توقعى أن تسعى هذه الدول إلى أن تكون انعكاساً لأمريكا وأن تحاول محاكاتها. وسوف يصاحب هذا التعديل المحتوم آلام هائلة، ولكن هذه الدول سوف تضطر إلى فرض هذا التعديل للحفاظ على كل ما يجعلها تواصل مستوياتها الحالية للمعيشة.

ولا يعنى ذلك أن تلك المجتمعات لا تفرز العقليات التى تتناسب مع هذه الحقبة فى إقامة المشروعات. فالعقول الفرنسية تعمل تماماً مثل العقول الأمريكية. ولكن التساؤل الوحيد هو، ما هى الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تسمح لهذه العقول بالازدهار والنمو. لقد كان السبب فى اندفاع الكثيرين من مهندسى البرمجيات الفرنسيين نحو وادى السيليكون هو أنهم ببساطة لا يشعرون بأن باستطاعتهم الازدهار فى ظل النظام السائد اليوم فى فرنسا. ففى 21 مارس1998، نشرت صحيفة ***واشنطن بوست*** تقريراً من باريس عن استنزاف العقول من فرنسا إلى وادى السيليكون بسبب المرونة التى يوفرها النظام الأمريكى، جاء فيه: إن رضا مالك زاده، البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً وخريج إحدى أكثر كليات الأعمال الفرنسية احتراماً انتقل إلى الولايات المتحدة، وتنقل بين ثلاث وظائف على مدى ثلاث سنوات، ثم أصبح مديراً لشركة أمريكية لعمليات نظم الشبكات، هى شركة سوفتواى إنترناشيونال، فى سان فرانسيسكو. قال زاده: «لم أستطع أن أفعل فى فرنسا ما فعلته هنا. ففى فرنسا، تظل حتى بعد أن تبلغ الخمسين من عمرك توصف بأنك خريج الكلية التى كنت تذهب إليها. أما هنا، فلا يهتم الناس إلا بما تستطيع أن تقوم به، وليس بكم تبلغ من العمر أو بالكلية التى ذهبت إليها قبل خمسة عشر عاماً». لقد أصبح الآن واحداً من بين40 ألف مواطن فرنسى يعيشون فى نورثرن كاليفورنيا. ما عليك إلا تغيير الظروف فى

فرنسا، وسوف يعود، بلا شك، الكثيرون منهم، وسوف يقل عدد القادمين إلى وادى السيليكون.

كذلك يتعين على أمريكا استغلال هذه اللحظة التى تتمتع فيها بقليل من الأرصدة الإضافية، للتعامل مع ما لديها من خصوم فعلية: الجريمة التى تنتشر فى الأحياء الشعبية فى مدنها، والنقص المجنون فى السيطرة على امتلاك الأسلحة، واتساع الفجوة فى الدخول، والمدارس العامة المفتقرة إلى التمويل الكافى، وتقاليد فى التقاضى يمكن أن توهن أى إنسان بدءاً من صغار رجال الأعمال وانتهاءً بالشركات الكبرى، ونظام للتأمينات الاجتماعية يفتقر إلى التمويل الكافى، وتقاليد البطاقة الائتمانية للمستهلك التى تشجع الكثيرين من الناس على الإنفاق بصورة تتجاوز قدراتهم، وتؤدى إلى تراكم جبل من ديون المستهلك التى قد تكون خطراً حقيقياً، فى حالة الكساد، على الهيكل المالى بأسره، ونظام سياسى يزداد فساداً بسبب تراخى قوانين تمويل الحملات الانتخابية. وقد يصبح التصدى لهذه المشكلات فى متناول اليد حقاً فى حقبة العولمة.

وأظل على تفاؤلى بأن أمريكا سوف تستغل ما لديها من أصول بحكمة، ولا أعتقد أننى الوحيد الذى لديه هذا الحماس المنطقى. ولكننا إذا تهاونا فإن الانهيار سيجىء حتماً بعد الازدهار مثلما يجىء الغروب بعد الشروق. وهذا هو السبب فى أننى أهتم بكلمات لارى سومرز وزير الخزانة الأمريكى الذى يقول دائماً عن أمريكا فى التسعينيات: «إن الشىء الوحيد الذى يجب أن نخاف منه هو افتقارنا إلى الخوف ذاته».

الفصل السادس عشر

الثورة هى الولايات المتحدة

إن عاجلا أو آجلا سوف يرد اسم ماكدونالدز فى كل قصة: أين كان أو جى سيمبسون يتناول طعامه قبل اغتيال نيكول؟ فى ماكدونالدز. ماذا قدم رون براون وزير التجارة للقوات الأمريكية قبل وفاته؟ ماكدونالدز.

ـ ما سبق جملة موجودة فى المكتب الصحفى فى المقر الرئيسى لشركة ماكدونالدز فى أوك بروك بولاية إلينوى.

إننى أومن بنظرية محطات البنزين الخمس للعالم.

هذا صحيح: إننى واثق من أنك تستطيع تلخيص أنواع الاقتصاد فى العالم اليوم فى مجرد خمس محطات بنزين مختلفة. أولاً، محطة البنزين اليابانية. سعر البنزين فيها 5 دولارات للجالون. ويوجد بها أربعة رجال يقومون على خدمتك فى زيهم الموحد وقفازاتهم البيضاء وعقود عمل مدى الحياة. إنهم يضخون البنزين فى سيارتك. ويغيرون زيت سيارتك. وينظفون زجاج سيارتك، ويلوحون لك بأيديهم فى ابتسامة ودودة وأنت ترحل بسيارتك فى سلام. والثانية محطة أمريكية. البنزين فيها لا يزيد سعره عن دولار واحد للجالون، ولكنك تضخه إلى سيارتك بنفسك. وتغسل زجاج سيارتك بنفسك. وتملأ إطارات سيارتك بالهواء بنفسك. ويحاول أربعة من المشردين

وأنت تدور حول الناصية سرقة غطاء الإطارات. والثالثة محطة بنزين أوروبية غربية. سعر البنزين هناك أيضاً 5 دولارات للجالون. ولا يوجد سوى شخص واحد يقدم الخدمة. فهو يضخ البنزين إلى سيارتك فى تذمر ويغير لك الزيت وهو متجهم، ويذكرك طوال الوقت بأن عقود اتحاد العمال المشترك فى عضويته تنص على ضخ البنزين وتغيير الزيت فقط. وهو لا يغسل نوافذ السيارة. ويعمل فقط اثنين وثلاثين ساعة فى الأسبوع، مع الحصول على راحة لمدة ساعة ونصف يومياً لتناول طعام الغداء، تغلق فى أثنائها محطة البنزين. وهو يحصل أيضاً على إجازة سنوية لمدة ستة أسابيع كل صيف يقضيها فى جنوب فرنسا. وهناك عبر الشارع، ترى أخاه وعمه يلعبان كرة البوتشى، وقد ظلا عاطلين طوال عشر سنوات لأن التأمين الذى تدفعه الدولة ضد البطالة يزيد على مرتب آخر وظيفة لهما. والرابعة محطة بنزين فى دولة نامية. تجد فيها خمسة عشر شخصاً يعملون وجميعهم أقرباء. وعندما تدخل بسيارتك إلى المحطة لا يلتفت إليك أحد لأنهم جميعاً منهمكون فى تبادل الأحاديث فيما بينهم. ولا يزيد سعر البنزين على 35 سنتاً لأن الحكومة تدعمه، ولكن لا تعمل فعلاً من المضخات الست الموجودة سوى مضخة واحدة. والمضخات الأخرى معطلة وهى فى انتظار وصول قطع الغيار من أوروبا. والمحطة فى حالة سيئة لأن مالكها يعيش فى زيوريخ ويخرج بأرباحها كلها إلى الخارج. ولا يعرف هذا المالك أن نصف العاملين فى المحطة ينامون فى الواقع فى ورش الإصلاح فى أثناء الليل ويستخدمون معدات غسيل السيارات فى الاستحمام. ومعظم زبائن محطة البنزين فى الدول النامية إما أنهم يركبون سيارات المرسيدس أو دراجات بخارية سكوتر. غير أن المكان يعج دائماً بالحركة، فالكثيرون من الناس يتوقفون لاستخدام مضخة الهواء لملء إطارات دراجاتهم. وأخيراً هناك محطة البنزين الشيوعية. والبنزين هناك سعره 50 سنتاً فقط للجالون ـ ولكن لا يوجد بنزين، لأن الرجال الأربعة الذين يعملون بالمحطة باعوه كله فى السوق السوداء بسعر 5

دولارات للجالون. ولا يوجد فى الواقع سوى واحد فقط من الرجال الأربعة العاملين فى محطة البنزين. أما الثلاثة الآخرون فيعملون فى وظيفة ثانية فى الاقتصاد السرى ولا يأتون إلى المحطة إلا مرة كل أسبوع لاستلام أجورهم.

وما يحدث فى العالم اليوم، بمعناه الواسع، هو أن الجميع مجبرون على التوجه إلى محطة البنزين الأمريكية عن طريق عملية العولمة. فإذا لم تكن أمريكياً ولا تعرف كيف تضخ بنفسك البنزين إلى سيارتك، فإننى أنصحك بأن تتعلمها. إذ إنه مع انتهاء الحرب الباردة، تعمد العولمة إلى نشر نموذج الرأسمالية الأنجلو أمريكية وقميص القيد الذهبى فى العالم. إنها تعولم الثقافة والمقدسات الثقافية الأمريكية. إنها تعولم الثورة الأمريكية وتعولم محطة البنزين الأمريكية.

والمؤسف، أن ما تمثله محطة البنزين الأمريكية لا يروق للجميع. أما محطات البنزين اليابانية والأوروبية الغربية والشيوعية فيكمن وراءها عقود عمل اشتراكية شديدة الاختلاف عن محطة البنزين الأمريكية ومواقف شديدة الاختلاف إزاء الطريقة التى يجب أن تعمل وتدار بها الأسواق. فالأوروبيون واليابانيون يؤمنون بسيطرة الدولة على الناس وعلى الأسواق، فى حين يميل الأمريكيون إلى الإيمان بوضع السلطة فى يد الأفراد والسماح قدر الإمكان بحرية السوق فى تصنيف من يفوز ومن يخسر. وبما أن اليابانيين والأوروبيين الغربيين والشيوعيين لا يشعرون بالارتياح تجاه الأسواق التى تحررت تماماً من القيود والمزايا والعقوبات غير المتكافئة التى يوزعونها، فقد صممت محطات البنزين لديهم لكى تخفف من حدة عدم التكافؤ هذا ولكى توزع الجوائز بالعدل. كذلك تعطى محطات بنزينهم اهتماماً أكبر للتقاليد المتميزة وتقدر قيمة الأشياء التى تفضلها مجتمعاتها. ويطبق الأوروبيون ذلك بتوظيف عدد أقل، ولكنهم يدفعون لهم أجوراً مرتفعة ويفرضون ضرائب مرتفعة لإعالة العاطلين بسخاء وضمان تقديم سلة وافرة من أطايب الإعانات الاجتماعية الأخرى التى تقدمها الدولة. ويطبقها

اليابانيون بأن يدفعوا للعاملين أجوراً أقل ولكنهم يضمنون لهم وظائفهم مدى الحياة، ثم يعملون على حماية هذه الوظائف والمزايا مدى الحياة بفرض قيود على دخول متنافسين أجانب إلى السوق اليابانية. أما محطة البنزين الأمريكية، فهى على العكس، مكانٌ أكثر كفاءة لكى تصل إلى الهدف: فالزبون ملك، وليس لمحطة البنزين وظيفة اجتماعية، وهدفها الوحيد أن توفر أكبر كمية من البنزين بأرخص الأسعار. فإذا أمكن ذلك بدون وجود العاملين على الإطلاق ـ حسناً، أهلاً ومرحباً. فسوف تجد سوق العمل الأكثر مرونة عملاً لهم فى مكان آخر. أتقول تلك قسوة بالغة؟ ربما كان ذلك صحيحاً. ولكن سواء كنت مستعداً لذلك أم غير مستعد، فهذا هو النموذج الذى يتزايد الطلب على محاكاته فى بقية العالم.

ويوجه اللوم كله إلى أمريكا فى ذلك لأن العولمة هى نحن فى كثير من الوجوه. ولكننا لسنا النمر. فالعولمة هى النمر. ولكننا الشعب الأكثر مهارة فى امتطاء النمر، ونحن الآن نقول للآخرين جميعاً، إما أن يركبوا معنا وإما أن يبتعدوا عن الطريق. والسبب فى أننا بهذه المهارة فى امتطاء هذا النمر هو أننا ربيناه منذ أن كان صغيراً. فقد ترعرعت الديموقراطيات الثلاث فى أمريكا فى المقام الأول. وكذلك صنع قميص القيد الذهبى فى أمريكا فى المقام الأول. وتقود ثيران بورصة وول ستريت الأمريكية القطيع الإلكترونى، والعم سام هو أكثر الوكلاء نفوذاً فى الضغط على الدول الأخرى لكى تفتح أسواقها أمام التجارة الحرة والاستثمار الحر. واللافتة التى نرفعها لشغل الوظائف تقول: **العم سام يريدك** (من أجل القطيع الإلكترونى).

ويأتى فى مقدمة هذا كله أن العولمة لها وجه أمريكى مميز: لها أذنا ميكى ماوس، وتأكل شطائر ماكدونالدز الكبيرة، وتشرب الكوكا والبيبسى، وتقوم بعملياتها الحسابية بجهاز كمبيوتر محمول من طراز آى بى إم أو آبل، وتستخدم ويندوز98، مع بروسسور من طراز إنتل بينتيوم II وشبكة اتصال من شركة سيسكو سيستيمز. ولذلك،

فإنه لئن كان الفرق بين ما هو عولمى وما هو أمركة واضح لمعظم الأمريكيين، إلا أنه ليس كذلك بالنسبة للكثيرين غيرهم فى أنحاء العالم. ففى معظم المجتمعات لم يعد باستطاعة الكثيرين من الناس التمييز بين القوة الأمريكية، والصادرات الأمريكية، والهجمات الثقافية الأمريكية، والصادرات الثقافية الأمريكية وبين النكهة الواضحة للعولمة. فكلها جميعاً ملفوفة فى ربطة واحدة.

حكى لى مارتين إندايك، السفير الأمريكى السابق فى إسرائيل، قصة تصور هذه النقطة بوضوح. فقد دُعى، باعتباره السفير الأمريكى، إلى افتتاح أول فرع لماكدونالدز فى القدس. ولما سألته عما صرح به فى مناسبة مثل افتتاح فرع ماكدونالدز فى المدينة المقدسة، أجاب قائلاً: «الطعام السريع من أجل الأمة السريعة». ولكن أفضل ما فى القصة، الذى حكاه لى فيما بعد، هو أن ماكدونالدز قدم له قبعة بيسبول زاهية الألوان وعليها شعار ماكدونالدز ليرتديها وهو مدعو لوجبة احتفالية بأول شطيرة بيج ماك الكبرى فى أول فرع يفتتحه ماكدونالدز فى القدس ـ ذلك مع تصوير التليفزيون الإسرائيلى لكل قضمة لإذاعتها فى نشرة أخبار المساء. وكان المطعم يكتظ بالشباب الإسرائيلى المتلهف على أن يشهد ذلك الحدث التاريخى. وحين كان السفير إندايك يستعد لتناول أول شطيرة بيج ماك رسمية فى القدس، شق أحد المراهقين الإسرائيليين طريقه بصعوبة وسط الزحام حتى وصل إليه. وكان هذا المراهق يحمل فى يده قبعة ماكدونالدز الخاصة به، وسلمها للسفير إندايك ومعها قلم، وسأله: «هل أنت السفير؟ هل أستطيع الحصول على توقيعك على هذه القبعة؟

ردّ السفير إندايك فى شىء من الخجل: «نعم بالتأكيد، لم يطلب أحد منى من قبل التوقيع على أوتوجرافه».

أخذ السفير القبعة واستعد للتوقيع باسمه عليها، عندما سأله المراهق، «واو، ما هو شعورك فى أن تكون سفيراً من ماكدونالدز تجوب أنحاء العالم تفتتح فيها فروعاً لماكدونالدز؟»

ذهل السفير إندايك نوعاً ما ونظر إلى الشاب الإسرائيلى، وقال، «لا، لا، أنا السفير الأمريكى - ولست السفير من ماكدونالدز!».

ونظر إليه الشاب الإسرائيلى وهو فى شدة الخجل. وقد وصف لى السفير إندايك ما حدث فيما بعد: «قلت له، 'هل يعنى ذلك أنك لا تريد توقيعى على القبعة؟' فرد الصبى قائلاً، لا، لا أريد توقيعك، وأخذ قبعته وسار بعيداً».

لا عجب إذن فى أن علاقة الحب والكره التى ظلت قائمة بين أمريكا وباقى العالم تبدو لى أنها أخذت شكلاً أكثر حدة هذه الأيام. فقد أصبحت الأمركة والعولمة بالنسبة للكثيرين من الناس طريقاً شديد الجاذبية، وعاملاً مساعداً ومغرياً بصورة مذهلة للارتفاع بمستوى المعيشة. ومع ذلك، فمن الممكن أن تفرز هذه الأمركة والعولمة، بالنسبة لآخرين كثيرين، شعوراً عميقاً بالحسد والاستياء تجاه الولايات المتحدة - الحسد لأن أمريكا تبدو أفضل كثيراً فى امتطاء هذا النمر، والاستياء لأن الأمركة والعولمة تعطى غالباً الشعور بأن الولايات المتحدة تجلد الجميع حتى يسرعوا فى سيرهم، وفى التحامهم بالشبكة، وحتى يخفضوا من الحجم، ويتقولبوا، ويسيروا على نغمات الثقافة الأمريكية نحو العالم السريع. وعلى الرغم من ثقتى بأن من يحبون أمريكا ما زالوا أكثر ممن يكرهونها، فإن هذا الفصل يدور حول هؤلاء الكارهين لها. إنه يدور حول أنواع الارتداد الأخرى ضد العولمة - حول استفحال الشعور بالاستياء تجاه الولايات المتحدة الذى انطلق مع تحركنا نحو نظام العولمة المتأثر بشدة فى هذه الأيام بالأذواق والأسواق والقوة العسكرية الأمريكية.

أشار ذات مرة المؤرخ رونالد ستيل فى هذا الصدد إلى أنه «لم يكن الاتحاد السوفيتى أبداً بل ولا الولايات المتحدة ذاتها، القوة الثورية الحقيقية. إننا نؤمن بأن مؤسساتنا هى التى يجب أن توقف الآخرين جميعاً عند حدودهم فى كومة رماد التاريخ. إننا نتبع نظاماً اقتصادياً استطاع بكفاءة أن يدفن كل الأشكال الأخرى للإنتاج والتوزيع ـ مخلفاً وراءه كثيراً من الثروة وأحياناً كثيراً من الخراب. وتنطلق الرسالة الثقافية التى نبعث بها عن طريق هوليوود وماكدونالدز إلى أنحاء العالم لكى تأسر مجتمعاته، ولكى تقوضها أيضاً. وإننا، على عكس غيرنا من قوى الاستعمار التقليدية، لا نقنع بمجرد إخضاع الآخرين: إننا نصر على أن يكونوا مثلنا. وذلك بالطبع لمصلحتهم الخاصة. إننا من أشد المبشرين تصميماً فى العالم. إذ يجب أن يكون العالم ديموقراطياً. ويجب أن يكون رأسمالياً. ويجب أن يكون مرتبطاً بالرسائل المدمرة لشبكة الاتصال العالمية. فلا غرابة إذن فى أن الكثيرين يشعرون بأنهم مهددون بما نمثله لهم».

إن الصورة الذاتية لأمريكا الكلاسيكية هى لوحة ***الأمريكى الفظ*** التى رسمها جرانت وود، وهى لزوجين متزمتين يمسكان بالمذراة فى أيديهما، ويسيطران على تعبيرات وجهيهما، ويقفان فى هدوء وتيقظ خارج الحظيرة. ولكن بالنسبة لبقية العالم، تمثل لوحة الأمريكى الفظ فى الواقع اثنين من مهندسى البرمجيات الأمريكيين فى العشرينيات من عمرهما يأتيان إلى بلادك يرتديان شعوراً طويلة وخرزات وصنادل، ويضعان قرطين فى أنفيهما وطلاءً فى أظافرهما. ويدفعان باب منزلك الأمامى، يقلبان كل شىء فى المنزل رأساً على عقب، ويضعان فى فمك شطيرة بيج ماك. ويملآن رؤوس أولادك بأفكار لم تكن لديك أبداً ولا يمكن أن تفهمها. ويوصلان بعنف علبة الكابل فى جهاز تليفزيونك، ويغلقان القنوات على قناة واحدة هى قناة الأفلام إم تى فى MTV، ويضعان قابس الإنترنت فى جهاز الكمبيوتر الخاص بك، ويقولان لك: «إما أن تحمله وإما أن تموت».

هذا هو نحن. نحن الأمريكيون رواد العالم السريع، وأعداء التقاليد، وأنبياء السوق الحرة، وكرادلة التكنولوچيا المتقدمة. نحن نريد «توسيع» قيمنا ومطاعم بيتزا هت الخاصة بنا. نحن نريد من العالم أن يحذو حذونا، فيصبحون ديمقراطيين، ورأسماليين، ولديهم موقع على الشبكة فى كل ركن، وزجاجة بيبسى على كل شفة، وبرمجيات مايكروسوفت ويندوز فى كل كمبيوتر، وأهم من هذا كله ـ أهم من هذا كله ـ أن يكون الجميع، وفى كل مكان، يضخون البنزين الخاص بهم.

لقد شاهدت تلك اللافتة فوق المدخل الرئيسى بمجرد دخولى إلى بهو فندق هوما فى وسط طهران فى سبتمبر عام 1996. كان مكتوباً عليها «تسقط الولايات المتحدة الأمريكية». لم تكن لافتة. ولم تكن كتابات على الجدران. ولكنها كانت منحوتة فى الحائط.

قلت فى نفسى «يا إلهى، منحوتة فى الحائط! إن هؤلاء الناس لديهم مشكلة حقيقية مع أمريكا».

بعد فترة قصيرة لاحظت أن الملالى الإيرانيين، الذين كانوا دائماً يشعرون بالحساسية تجاه تصاريف القوة الثقافية والعسكرية الأمريكية أكثر من غيرهم، أصبحوا يطلقون على الولايات المتحدة شيئاً آخر وهو «الشيطان الأكبر» ومعقل «الإمبريالية والصهيونية». لقد بدأ الإيرانيون يطلقون على أمريكا «عاصمة الغطرسة فى العالم». لقد لاحظت تغييراً طفيفاً ولكنه موحياً. لقد بدا لى أن القيادة الإيرانية تفهم أن هذه «الغطرسة العالمية» تختلف عن الإمبريالية. فالإمبريالية هى أن تحتل مادياً شعباً آخر وتجبره على الأخذ بأساليبك. أما الغطرسة العالمية فهى عندما تكون ضربتك الثقافية والاقتصادية من القوة والاتساع فى انتشار تأثيرها بحيث تعرف أنك لست بحاجة إلى احتلال شعب آخر لكى تؤثر فى حياته. قال لى ذات مرة شرى ياشوانت سينها وزير

المالية الهندى عن علاقات أمريكا ببقية العالم اليوم: «إنه لا يوجد توازن، لا توجد قوة مقابلة. إن كل ما تقولونه قانون».

وهذا هو ما يجعل اتحاد الأمركة مع العولمة اليوم بهذه القوة. وما يزعج الكثيرين من الناس من أمريكا اليوم ليس لأننا نرسل قواتنا إلى كل مكان، ولكن لأننا نرسل ثقافتنا، وقيمنا، واقتصادنا، وتكنولوچياتنا، وأساليبنا فى الحياة إلى كل مكان ـ سواء كنا نحن نريد أو هم يريدون ذلك أم لا. قال جوزيف چوف الخبير الألمانى فى السياسة الخارجية فى مقال له نشر فى عدد سبتمبر 1997 من مجلة *فورين أفيرز*، «أمريكا مختلفة، فهى تثير الضيق وتفرض السيطرة ، ولكنها لا تحتل بالقوة العسكرية. إنها قد تحاول إعداد العُدة أو لى القوانين، ولكنها لا تذهب إلى الحرب من أجل الاستيلاء على الأرض أو تحقيق المجد... الولايات المتحدة لديها أكثر المؤسسات العسكرية تقدماً، ولكنها ليست أكبرها، فى العالم. ولكنها دون شك تحتل مرتبة خاصة بها فى لعبة قوة البرمجيات. ولا يستطيع الجالسون معها على مائدة اللعب ـ الصين وروسيا واليابان، بل وأوروبا الغربية ـ أن يأملوا فى مجاراة الولايات المتحدة فى العدد الهائل من شذرات الكمبيوتر التى تمتلكها. فالناس يخاطرون بحياتهم وسط الأمواج المتلاطمة حتى يصلوا إلى الولايات المتحدة، لا إلى الصين . ولا يوجد كثيرون من الناس ممن يرغبون فى الحصول على ماجستير فى إدارة الأعمال من جامعة موسكو، أو يرتدون ملابس اليابانيين أو يرقصون رقصاتهم. وللأسف إن عدداً أقل وأقل من الناس يرغبون فى تعلم اللغة الفرنسية أو الألمانية. لقد أصبحت الإنجليزية، بلكنتها الأمريكية، هى لغة العالم. هذه النوعية من القوة ـ تلك الثقافة التى تصل إشعاعاتها إلى الخارج والسوق التى تجذب إلى الداخل ـ تعتمد على الجذب وليس على الدفع، على القبول وليس على الإخضاع. والأسوأ أن هذه النوعية من القوة لا يمكن حساب مجموعها، ولا يمكن أيضاً وضع موازنة لها. ففى هذه الحلبة ـ لا يمكن لأوروبا واليابان والصين وروسيا ـ

أن تتجمع معاً ضد الولايات المتحدة مثلما كان يحدث فى تحالفات الأمس. ولا يمكن لكل استوديوهات السينما لديهم مجتمعة أن تكسر قبضة هوليوود على هذه الصناعة. ولا يمكن لاتحاد من جامعاتهم أن ينزل جامعة هارڤارد عن عرشها... ولهذا السبب تبدو 'الشراكة الاستراتيجية' التى توصلت إليها روسيا والصين فى عام 1997 وكأنها تحدث فى غير زمانها. ما الذى تستطيعان أن تفعلاه إزاء أمريكا؟ فلن يرغب بوريس يلتسين فى تسوق المعرفة وأجهزة الكمبيوتر فى بيجنج (بكين). ولن ترغب الصين فى المخاطرة بأهم سوق للتصدير بالنسبة لها».

فلا عجب إذن فى أن يتبين لى، وأنا أجوب العالم فى أواخر التسعينيات، أنه لم يكن الإيرانيون وحدهم الذين يطلقون على أمريكا اسم «عاصمة الغطرسة فى العالم»، وإنما أيضاً يقولها من وراء ظهورنا الفرنسيون والماليزيون والروس والكنديون والصينيون والهنود والباكستانيون والمصريون واليابانيون والمكسيكيون والكوريون الجنوبيون والألمان - بل الجميع تقريباً. لقد حاول الرئيس العراقى صدام حسين الذى يشعر دائماً، مثل الإيرانيين، بأدق التغييرات فى الوضع الدولى لأمريكا أن يلعب بدهاء على هذا الاستياء الذى ظهر مؤخراً، بأن يعدّل من الخط الذى تسير عليه دعايته. فقد رسم صدام لنفسه فى أزمة حرب الخليج الأولى فى أوائل التسعينيات صورة روبين هود الذى جاء ليسرق العرب الأغنياء لكى يعطى للعرب الفقراء. وفى حرب الخليج الثانية فى أواخر التسعينيات، رسم صدام لنفسه صورة لوك والكر الذى يسير فوق السحاب، ويتصدى لإمبراطورية الشر الأمريكية. ففى كل مرة يظهر فيها وزير خارجية صدام فى لقاء تليفزيونى كان يشكو من أن تصرفات أمريكا كانت تشبه «الأيام الأخيرة للإمبراطورية الرومانية». لقد أصبح ذلك هو خط الدعاية الجديد للعراق، بداية من أعلى منصب فى نظام الحكم إلى أدنى عابر فى الشارع. لقد كنت أشاهد شبكة سى إن إن ذات مرة وسمعتهم يجرون لقاء مع «رجل فى أحد شوارع بغداد»، وسمعته يشير إلى أمريكا بأنها «دراكولا الدولى الذى يمتص دماء الشعوب حول العالم».

لا بأس، لا بأس، إذن فبقية العالم ترى فينا ثيراناً بغيضة ويحسدوننا. وماذا بعد؟ فما هو تأثير ذلك حقيقة على العلاقات بين الولايات المتحدة والحكومات الأخرى؟ الإجابة المختصرة هى أن ذلك يجعل علاقة أمريكا بكل دولة من دول العالم أكثر تعقيداً اليوم إلى حد ما. فبعض الدول تخرج عن مسارها الآن لمجرد قرص أمريكا فى أنفها، ودول أخرى تجلس هادئة ومستمتعة بدور المتفرج - وتسمح لأمريكا بأن تلعب دور رجل الشرطة فى العالم، وأن تدفع كل تكاليف مواجهة صدام حسين وغيره من المارقين، وتستمتع بالمزايا فى حين تشكو طوال الوقت من أمريكا، ودول أخرى تشعر بالتذمر والاهتياج إزاء السيطرة الأمريكية، ودول أخرى لا تفعل سوى أن تنصاع فى هدوء للخط الأمريكى.

فى الواقع تشبه علاقة أمريكا اليوم ببقية العالم إلى حد بعيد ما كانت عليه علاقة مايكل جوردان - فى ذروة نجاحه - ببقية أعضاء الاتحاد القومى لكرة السلة. لقد كان كل لاعب وفريق آخر يتوق إلى هزيمة مايكل جوردان، وكل لاعب وفريق آخر يكره الطريقة التى كان يكشف بها عن كل نقاط ضعفهم، وكل لاعب وفريق آخر يقارن نفسه بمايكل جوردان، ومن ثم يقتدون به فى تحركاتهم إلى حد ما، وكل لاعب وفريق آخر يشكو من أن الحكام كانوا يتركون مايكل جوردان يفلت بكل أنواع الأخطاء التى لا يستطيع أى لاعب آخر الإفلات بها. ولكن على الرغم من كل ذلك لم يكن أى فريق آخر يريد حقاً أن يرى مايكل جوردان مصاباً أو معتزلاً، لأنه فى كل مرة يذهب فيها إلى أى مدينة، كانت كل التذاكر تباع. لقد كان هو الذى يبعث الحركة فيهم جميعاً.

تأمل بضعة أمثلة لهذه الظاهرة: عندما كان أنتونى تشوبايس، وهو أحد المهندسين الأصليين لبرنامج الخصخصة فى روسيا، يتفاوض بشأن برنامج آخر لصندوق النقد الدولى لإنقاذ روسيا فى صيف عام 1998، كان الصندوق يطالب بتنفيذ شروط

أكثر تشدداً من أى وقت مضى، ولم يكن أمام تشوبايس إلا الاستسلام لهذه الشروط. وفى ذروة المفاوضات، قدم برنامج الاستعراضات التليفزيونى الروسى، **كوكلى** *Kukli* الذى يصور عرائس ترتدى ملابس القادة الروس، عرضاً مقتبساً عن قصة «ذات الرداء الأحمر». كان بوريس يلتسين هو الجدة وكان رئيس الوزراء كيرينكو هو ذات الرداء الأحمر التى تحاول الوصول إلى يلتسين قبل الآخرين حتى تؤثر فى آخر خطة لإنقاذ روسيا. غير أنه عندما وصل كيرينكو إلى منزل الجدة، وجد تشوبايس جالساً بالفعل إلى جوار يلتسين. وكان تشوبايس يرتدى بذلة الفضاء وخوذة الهبوط على القمر. وفى واجهة البذلة كتبت الحروف «IMF» (معناها صندوق النقد الدولى) وعلم أمريكى. وكان تشوبايس يصور حرفياً على أنه عميل قادم من كوكب أمريكا، لكى يملى على الروس ما يجب عليهم عمله. وعندما رآه كيرينكو جالساً إلى جوار يلتسين، قال للمشاهدين، «يبدو أننى تأخرت كثيراً فى الوصول».

فى منتدى دافوس للاقتصاد العالمى لعام 1999، كان مينورو موروفوشى، رئيس شركة ايتوشو العملاقة اليابانية، عضواً فى لجنة مع رئيس الوزراء الروسى يفجينى بريماكوف. وكان موروفوشى يعلق على جهود بريماكوف للتفاوض من أجل إنهاء الأزمة الاقتصادية الروسية، عندما قال رجل الأعمال اليابانى فى زلة لسان فرويدية، «أعلم أن السيد بريماكوف سوف يلتقى غداً مع مستر فيشر من IBM ـ أعنى من صندوق النقد الدولى». حسناً IMF,IBM ما الفرق ـ كلاهما يسيطر عليه الأمريكيون!

تعتبر يوان مينج، أستاذة العلاقات الدولية بجامعة بيجنج (بكين)، واحدة من أبرز المتخصصين الصينيين فى الشئون الأمريكية. حكت لى ذات مرة قصة تشير إلى أن الصين ترى أن الطريقة الوحيدة التى ترد بها على الغطرسة العالمية لأمريكا هو أن تبدى هى أيضاً بعض الغطرسة، فقالت: «إن قادتنا السياسيين لا يستخدمون فى خطبهم

العامة كلمة 'العولمة globalization'. إنهم يستخدمون مصطلح التحديث 'modernization'. ويوجد سبب ثقافى لذلك. فالدرس التاريخى ما زال ماثلاً فى أذهان الشعب الصينى بأن الصين أجبرت على الانخراط فى المجتمع الدولى فى القرن الماضى بقوة السلاح - ومن ثم فالعولمة تمثل شيئاً لا تسعى إليه الصين بل يفرضه الغرب أو أمريكا عليها. أما التحديث فإنه، من الناحية الأخرى، شيء نستطيع السيطرة عليه. هناك برنامج استعراض تليفزيونى يذاع سنوياً بمناسبة العام الجديد على القناة الرئيسية. ويعتبر هذا البرنامج من أكبر الأحداث التليفزيونية السنوية فى الصين. ويشاهده نحو مليار شخص. وغالباً يقتصر على المطربين ونجوم الكوميديا. غير أنه قبل ثلاث سنوات [فى عام 1995]، عرض البرنامج اسكتشاً يمثل أبوين فى منطقة ريفية يتصلان هاتفياً بابنهما الذى يدرس فى الولايات المتحدة، يسألانه: 'كيف حالك فى يوم رأس السنة هذا؟' يقول إنه بخير وأنه يعتزم العودة إلى الوطن بعد الانتهاء من رسالة الدكتوراه فى الولايات المتحدة. يفرح الأبوان لسماع ذلك، غير أن الجملة التى ما زالت عالقة فى ذهنى هى عندما يبلغ الأبوان ابنهما أن الحياة فى الصين أصبحت طيبة فى كثير من الوجوه مثل أمريكا. إذ يقولان: 'لقد كنت تقوم ببعض أعمال غسيل الأطباق فى أمريكا. والآن لدينا بعض الأمريكيين يغسلون لنا الأطباق'».

كنت فى طريق عودتى من اليابان إلى الوطن بالطائرة يوم 14 ديسمبر 1997، وكنت أقرأ باب رسائل إلى المحرر فى صحيفة ***جابان تايمز*** لذلك اليوم. فأنا أحب دائماً قراءة هذا الباب فى أى بلد أكون فيه، لأننى أجد فى تلك الرسائل بعض المفارقات المثيرة للاهتمام. كانت تلك الرسالة بعنوان «الصلف الأمريكى». وكانت تتحدث نيابة عن عدد كبير من الناس. وجاءت سطورها على النحو التالى: «مرة أخرى لا تسعفنى الكلمات لوصف استمرار الولايات المتحدة فى تكتيكاتها المتنمرة. فى هذه المرة قرأت أن الولايات المتحدة ترفض التوقيع على أى اتفاقية[فى مؤتمر كيوتو حول التغيرات

المناخيـة] مـا لم تنفـذ ثلاثة مطالب من 'مطالبـهـا' ... إننى لا أقلل قط من تاريخ الولايات المتحدة فى 'المساعدة'، أينما طلب إليها ذلك ـ ولكن 'أعظم دولة فى العالم' (هكذا تزعم الرسالة ولست أنا) يجب أن تتعلم التواضع. فعودتها مؤخراً إلى المجد تعزى بالقدر نفسه إلى إخفاق النظم السياسية والاقتصادية لمنافسيها. إن الغرور يسبق السقوط. ويجدر بحكومة الولايات المتحدة أن لا تنسى ذلك» التوقيع: أندرو أوج. طوكيو.

لقد زرت الهند فى أعقاب تجاربها النووية 1998، وصرح لى الجنرال (المتقاعد) ڤى. آر راغاڤان، الرئيس السابق للعمليات فى الجيش الهندى، والآن يعمل محللاً لمجموعة دلهى بوليسى Delhi Policy Group، أنه عائد تواً من المشاركة فى ندوة حول القضية النووية. وكان من بين المشاركين فيها خبراء بريطانيون وأمريكيون وصينيون وهنود وغيرهم. قال الجنرال راغاڤان: «فى أثناء إحدى الاستراحات ذهبنا فى جولة فى قرية هندية صغيرة لمشاهدة حوانيتها وبيوتها وروث الأبقار الذى يستخدمونه مصدراً للطاقة. وكان أكثر ما أثار افتتانهم تلك الزيارة التى قمنا بها إلى مدرسة إعدادية فى القرية. كان بها نحو ثلاثين تلميذاً فى مطلع سن المراهقة، وبعض المدرسين، وأراد بعض أعضاء مجموعتنا التحدث إليهم. ومن ثم فقد جهزوا لهم بعض المقاعد الخشبية وجلسوا لتبادل الحديث. وكان من بين أعضاء المجموعة محام من نيويورك سأل الصغار عن رأيهم فى الصين والولايات المتحدة. ردّ هؤلاء الصغار بدون تردد بأن الصين هى أكبر جيراننا، وكانت هناك حرب بيننا وبين الصين، ولكن الصين تقف إلى جانب الدول الأضعف وليست لنا مشاكل مع الصين. سألهم: 'وماذا عن الولايات المتحدة؟' فقالوا إن الولايات المتحدة 'فتوة يتحكم فى الكل ولا يفكر إلا فى نفسه'. ولم يكن أعضا ء المجموعة يصدقون ما يسمعون».

فى عام 1997، حضرت مؤتمراً أكاديمياً فى المغرب تحت عنوان «العولمة والعالم العربى». وكانت ثقافة معظم المشاركين العرب فرنسية من شمال أفريقيا وفرنسا (فإن

تكن مفكراً عربياً وثقافتك فرنسية فتلك أسوأ توليفة ممكنة لفهم العولمة. إنها أشبه بالإعاقة المزدوجة، لأن كلتا الثقافتين تعاديان بالسليقة تلك الظاهرة برمتها). وقد طُلب إليّ إلقاء كلمة مختصرة أقدم بها نبذة عن العولمة، وهو ما قمت به. وعندما انتهيت من كلمتى، طُلب إلى أحد رؤساء الوزراء الجزائريين السابقين الذى كان يعيش فى المنفى ويشارك فى المؤتمر الرد على ما قلته من ملاحظات. فتحدث بالفرنسية، منددأً بكل ما قلته. وقال «إن هذه العولمة التى تتحدث عنها هى مجرد مؤامرة أمريكية أخرى للحيلولة دون العرب والتقدم، مثل الصهيونية والاستعمار».

استمعت فى أدب إلى ملاحظاته، التى سارت على هذا المنوال بإسهاب، ثم قررت أن أرد عليه فى صورة تعمدت أن تكون مستفزة، آملاً أن أخترق طريقى إلى عقله المتصلب. قلت ما معناه (مع التخفيف مما تفوهت به من تجريح): «سيدى رئيس الوزراء، لقد تحدثت عن العولمة باعتبارها مجرد مؤامرة أمريكية أخرى للحيلولة دون تقدمكم. حسناً، دعنى أقول لك شيئاً ـ إن الأمر أسوأ كثيراً مما تظن، أسوأ كثيراً. أتعرف، إنك تظن أننا نجلس هناك فى واشنطن ولا نفكر إلا فيكم وفى التآمر على كيفية الحيلولة دون تقدمكم، وليس لنا من شغل شاغل سوى ذلك. كم كنت أود ذلك. يا إلهى، كم كنت أود ذلك. لأننى أحبكم وشغلى الشاغل أن أرفع من شأنكم. ولكن الحقيقة هى، ***أننا لا نفكر فيكم مطلقاً!*** ولا لثانية واحدة. إننا لا نعيركم أدنى اهتمام. وليس ذلك لأننا نتعمد الأذى. ولكن لأننا نتعرض للضغوط التى تتعرضون لها، ونحن نحاول أن نسبق فى مضمار المنافسة بخطوة واحدة مثلما تفعلون أنتم أيضاً، ونشعر بالقلق لما سيكون عليه سوق السندات غداً، مثلما تشعرون أنتم أيضاً بالقلق. لذلك فكم كنت أود أن أوافقك على وجود مؤامرة للحيلولة دون تقدمكم، ولكننى لا أستطيع ... والآن إذا كنت ترغب فى بناء جسر إسلامى لهذا القطار العولمى فابن لك جسراً إسلامياً. وإذا كنت تريد بناء جسر ماوى لهذا القطار فابن لك

جسراً ماوياً. وإذا كنت تريد بناء جسر چيفرسونى لهذا القطار فابن جسراً چيفرسونياً. ولكن عدنى بشىء واحد: أنك سوف تبنى هذا الجسر. لأن هذا القطار سوف يرحل بدونك».

ولكن مقابل كل إنسان شمال إفريقى يقابل الأمركة والعولمة بمجرد التلويح بقبضته لها، هناك ببساطة آخر يتواءم معها ويحاول الاستفادة من أفضل ما فيها. فى أثناء زيارتى للدار البيضاء فى عام 1997، توقفت فرقاطة الصواريخ الموجهة يو إس إس كار فى الميناء فى زيارة له. وأقامت القنصلية الأمريكية فى الدار البيضاء حفل استقبال دعت إليه المسئولين المحليين والضيوف على متن الفرقاطة كار ودعتنى للحضور. وحين كانت الفتيات المغربيات يتزاحمن لالتقاط صور مع البحارة الأمريكيين بزيهم البحرى والضيوف يتناولون الغداء من الدجاج والشراب، انشغلت بالحديث مع محافظ الدار البيضاء. وشرح لى المسئول المغربى، الذى كان يرتدى ملابس رياضية بفخر، بلغة فرنسية سليمة الأسباب التى جعلته يرسل ولديه إلى المدرسة الأمريكية فى الدار البيضاء وليس إلى المدارس الفرنسية التى تلقى هو تعليمه فيها.

قال الرجل: «هناك سببان. الأول هو أنه فى ذلك العالم الذى نحن نسير إليه، إذا لم تكن تتكلم الإنجليزية فأنت أمىّ. والثانى هو أن النظام الفرنسى يعلمك كيف تكون إدارياً. أما النظام الأمريكى فإنه يعلمك كيف تستمر فى الحياة معتمداً على نفسك. وهذا هو ما أردت لأولادى أن يتعلموه».

على الرغم من أن الثقافة والتعليم الفرنسى أصبح جزءاً لا يتجزأ من كل مدينة مغربية كبرى منذ عام 1912، فإنه يوجد الآن ثلاث مدارس أمريكية هناك، وعليها إقبال كبير لدرجة أنه يوجد فى كل منها قوائم انتظار لقائمة الانتظار. والواقع، أنه أصبح هناك الآن تنافس ثقافى بين أمريكا وفرنسا على قلوب وعقول الجيل الجديد فى منطقة شمال وغرب إفريقيا المرتبطة تاريخياً بالثقافة الفرنسية، وهو تنافس تكسبه أمريكا

باطراد ـ حتى بدون سعى من جانبها. الأمر كله يخضع للطلب. وتُعلّق دومينيك مويزى التى اعتادت التدريس فى المدرسة الوطنية للإدارة أو كلية ENA الفرنسية المجددة، والتى تعتبر من الخبراء البارزين فى الشئون الدولية، على ذلك بقولها: «إن التعليم العالى الفرنسى لم يتكيف بعد لهذه الفترة الثورية. فالنظام الفرنسى يكافئ الناس على قدرتهم على السير فى الطريق المفتوح أمامهم. ولكنه لا يشجع الناس على التمرد أو تنمية شخصياتهم. وأصبح المزاج السائد هو أنه إذا كانت الأمور تتغير الآن ونحن فى التسعينيات، فلا يد لفرنسا فى ذلك. لقد أصبحت أمريكا مرآة تعكس شكوكنا. إننا ننظر إليكم ونرى فيكم الأشياء التى نفتقر إليها».

وهناك رد فعل عام آخر للأمركة والعولمة اليوم وهو اتجاه بعض الدول إلى الشكوى بمرارة من أن أمريكا تلقى بثقلها هنا وهناك، فى حين تجلس هى فى سلام لتحصد ثمار القوة الأمريكية. سوف يقول لك اليابانيون سراً إننا «على حق تماماً» فى مطالبة الصين بالالتزام بالقوانين الدولية للملكية الفكرية. وسيقولون لك إن الشركات اليابانية، مثل سونى ونينتندو، تتكبد خسائر هائلة من القراصنة الصينيين تماماً مثلما يحدث لشركات أمريكية مثل ديزنى ومايكروسوفت. غير أن اليابان لن تناطح بيجنج (بكين) فى هذا الشأن. إنها سوف تترك لواشنطن، القوة الوحيدة فى العالم، هذه المهمة فى حين تمسك اليابان بطرف معطف أمريكا وتستمر فى إبرام الصفقات مع الصين بكل طاقتها ـ بل وتستغل ما تفقده أسواق الولايات المتحدة فى مواجهتها مع بيجنج (بكين). وبنهاية اليوم، إذا نجح الأمريكيون فى الحصول على تنازلات من الصين بشأن حقوق الملكية الفكرية فسوف تستفيد اليابان من ذلك أيضاً. كيف تقول «الفارس الحر» باليابانية؟

وأخيراً، هناك اتجاه من بعض الدول للبحث عن الفرص التى من شأنها تعقيد الدبلوماسية الأمريكية والتصدى للقوة الأمريكية، وذلك لأسباب جغرافية سياسية من جهة ولمجرد الشعور بالارتياح من جهة أخرى. لنأخذ روسيا أو فرنسا، على سبيل المثال:

كلما تعذر عليهما تحقيق الشرف والكرامة فى العالم السريع، زادت محاولتهما لتحقيقهما فى أماكن خاطئة بدلاً من ذلك ـ وذلك بتحدى الدبلوماسية الأمريكية فى البوسنة أو كوسوفو أو الأمم المتحدة أو العراق. والواقع أنه كلما ازدادت روسيا ضعفاً، زاد الإغراء لديها لتضخيم حتى اختلافاتها الصغيرة مع الولايات المتحدة، وزادت محاولة الروس لوضع أصبعهم فى عين أمريكا حتى يشعرهم ذلك بالارتياح ـ الشعور بأنهم ما زالوا أنداداً للولايات المتحدة بصورة ما.

قال لى ذات مرة، أليكسى بوشكوف المعلق السياسى الروسى فى هذا الصدد: «إن الموقف السائد هنا هو أنه يجب على روسيا أن تصبح قوة توازن تصحح بها المواقف التى تشعر فيها أمريكا بالزهو بقوتها». ولكننى قد أقولها بشكل مختلف قليلاً. فالشعار غير المعلن عند روسيا وغيرها هو: « إذا أصبح من المتعذر أن تكون فى موقف جيد فى الحرب التى قد تشنها حتى تصرف الانتباه عن مشاكلك الداخلية، فعليك على الأقل أن تكون فى موقف جيد من الجدل مع الأمريكيين».

وإن تكن أمريكا هى القوة العظمى الوحيدة فى العالم ، فذلك لا يضمن لها أن تجد طريقاً لها فى كل مكان من العالم، ولكنه يضمن لها أن تتعرض للانتقادات فى كل مكان من العالم. مرة أخرى. نعود لنتأمل مثال الاتحاد القومى لكرة السلة. يعتبر جارى بيتون هو النجم الوحيد لحراسة المرمى لنادى سياتل سوبرسونيكس. وهو لاعب عظيم، ولكنه ليس مايكل جوردان وهو يعوض بعض النقص فى مهاراته بأن يوجه السباب إلى خصومه، ولاسيما مايكل جوردان قبل اعتزاله. وأنا أرى أن فرنسا وروسيا اليوم مثل جارى بيتون ـ فهما أكبر دولتين توجهان السباب فى العالم، وتحاولان دائماً تعويض ضعفهما بأن توجها الكثير من السباب لكل الناس، ولا سيما لواشنطن.

فى الفيلم الكلاسيكى لاخوان ماركس، **حساء الأوزة** *Duck Soup*، مشهد يتحدث فيه تشيكو وهاريو إلى رجل الدولة الأوروبى ترينتينو، الشرير الماكر، والمنافس السياسى

لجروتشو، الذي استأجر تشيكو وهاربو للتجسس من أجله. وعندما يصل تشيكو وهاربو إلى مكتب ترينتينو ليقدما تقريراً له عما حققاه من تقدم فيما يقومان به من تجسس تدخل سكرتيرته إلى الحجرة ومعها برقية. يخطف هاربو البرقية من يدها، ويفحصها بدقة ثم يمزقها إلى قطع صغيرة، ويرمي بها على الأرض ويهز رأسه. وعندما يلتفت ترينتيون إلى تشيكو، وقد أخذته الدهشة والمفاجأة، ويرمقه بنظرة متسائلة كمن يقول: لماذا فعل ذلك؟ يجيب تشيكو قائلاً: إنه يفقد عقله لأنه لا يستطيع القراءة.

يذكرني هذا المشهد باتجاه آخر لردود الأفعال إزاء الأمركة والعولمة - وهو رد الفعل الخطير فعلاً. إنه رد فعل أولئك الذين لا يسعهم الوصول إلى الأمركة والعولمة أو لا يريدون الوصول إليها لأسباب حضارية أو اقتصادية أو سياسية، ويريدون تمزيقها إبراً كلما قفزت أمام وجوههم. أولئك على شاكلة هاربو - رجال ونساء غاضبون لا يريدونها لأي من السببين، على عكس قادتهم. إنهم فقط لا يريدون الانحناء أمام أمريكا ثم انتقادها من وراء ظهرها. إنهم يريدون أن تسير الأمور بطريقة واحدة، الطريقة القديمة، طريقتهم هم.

صوّرها لي ذات مرة رونالد ستيل بما معناه أن الرجال الغاضبين يرون في الأمركة والعولمة ضيفاً غير مرغوب فيه: تحاول أنت إغلاق الباب فيأتي إليك من النافذة. وتحاول إغلاق النافذة فيأتي إليك عن طريق الكابل. وعندما تقطع الكابل يأتيك على الإنترنت عن طريق الخط التليفوني. وعندما تقطع خط التليفون يأتي إليك عن طريق الأقمار الصناعية. وعندما تلقي التليفون الخلوي بعيداً فإنك تجده هناك على لوحة الإعلانات. وعندما تهدم لوحة الإعلانات، يأتي إليك عن طريق مكان العمل أو أرضية المصنع. وهي ليست معك فقط داخل الحجرة، تلك الأمركة والعولمة. إنك تأكلها. إنها تتسلل إلى داخلك. وعندما تأتي إليك فهي غالباً تقيم

هوة هائلة بين الآباء والأبناء، الأمهات وبناتهن، الأجداد وأحفادهم. إنها تخلق موقفاً يرى فيه أحد الأجيال العالم بصورة تختلف اختلافاً جذرياً عن آبائهم، وكل ذلك بفعل أمريكا.

رئيس الوزراء الهندي السابق آي. كي. جوجوال كان لي حديث معه ذات مرة في نيودلهي عبر فيه عن حزنه لما يشعر به بعض الناس إزاء الطريقة التي تتغلغل بها الأمركة والعولمة إلى داخل عائلاتهم وبيوتهم، فقال: أرى ذلك الشيء نفسه يحدث الآن في الهند - التغييرات التي تحدث في ملابسنا، وعاداتنا في الأكل. إن حفيدتي في الرابعة من عمرها. إنها تتكلم دائماً عن علكة الفقاقيع، وليس عن الغذاء الهندي، أو تقول: لا أحب البيبسي أحب الكوكا. بل إنها تتحدث اللغة الإنجليزية أكثر مما تتحدث الهندية. سألتها ذات يوم لماذا لا تتكلم معي بالهندية، حينئذ ذهبت إلى أمها وسألتها: ألا يتكلم جدي الإنجليزية؟ إنني أواصل مراقبة أحفادي لأن ذلك يعطيني مؤشراً. قالت حفيدتي منذ يومين: إنها تريد بيتزا. فقالت لها أمها إنها ستصنع لها بيتزا في اليوم التالي. قالت حفيدتي: لا لا أريد بيتزا هت.

في شنغهاي، أجريت مقابلة صحفية مع وانج جوليانج، أحد كبار المسؤولين في بنك الاتصالات، وهو أحد البنوك الصينية الأربعة الكبرى المملوكة للدولة، سألته من قبيل المداعبة عن المصدر الذي يحصل منه على أخبار العالم. فقال: إن سكرتيرته تعد له كل صباح ملخصاً من الإنترنت ووكالة أنباء رويترز، ولكنه يحصل أيضاً على كثير من الأخبار من ابنه.

بعدها، وعلى حين فجأة، شرع في إلقاء محاضرة عن الآباء والأبناء انحرفت لتصبح خطبة مسهبة ضد الإنترنت.

قال المصرفى الصينى: «إن ابنى خبير فى الإنترنت. وفى أى وقت يقع على شيء مثير للاهتمام على الإنترنت يريه لى. ولكن يجب أن لا يكون الأبناء هم الذين يوجهون الآباء، ابنى يقترح علىّ أيضاً أشياء، ولكننى لا أحب معظم ما يعرضه علىّ من مقترحات. فالأب يجب أن لا يستمع إلى الابن. إن ذلك يعرض سلطة الأب للخطر. لقد قلت لابنى أن يقلل من قراءاته للإنترنت وأن يُكثر من استذكار دروسه».

يعتبر آى كى جوچرال وواغ جوليانغ على درجة رفيعة من الثقافة والتطور الفكرى بحيث لا يكون رد فعلهما عنيفاً إزاء ذلك، ولكن رد فعل الرجال الغاضبين الآخرين ليس كذلك. فليست لدى هؤلاء الرجال الغاضبين أيديولوچية بديلة شاملة للأمركة والعولمة. إنهم مثل هاريو. إنهم يفضلون فقط أن يمزقوا الرسالة ويطأوها بأقدامهم. وهم على عكس حكوماتهم المتخاذلة التى تشتكى من العم سام ولكنها تسير على دربه، فالرجال الغاضبون على استعداد لتخطى الحدود وجذب الزناد.

الآن وصلنا إلى ما هو مخيف حقاً. فلا تعطى الأمركة والعولمة لهؤلاء الرجال الغاضبين حافزاً أكبر لكره أمريكا فحسب، إنها تمنحهم أيضاً قوة أعظم، كأفراد، لجذب هذا الزناد. فالعولمة تمنحهم قوة عظمى بطريقتين مهمتين:

الأولى لقد أصبح بوسع الإرهابيين الآن إشعال غضب الكثيرين من الناس فى التو واللحظة، بعد أن أصبح العالم متصلاً على هذا النحو، وبعد أن أصبحنا جميعاً على اتصال أكبر بكثير من الأماكن وفى كثير من الأوقات. تأمل ما حدث معى فى إحدى إجازاتى فى ديسمبر عام 1998 : كنت أقوم برحلة تزلج على الجليد فى جبال روكى ولاحظت للمرة الأولى أنه فى كل مصاعد التزلج التى كنت أصعد بها إلى الجبل تقريباً كان هناك شخص ما يتكلم إلى شخص آخر بالتليفون الخلوى. وكان هناك صديق لى يتزلج وهو يحمل جهاز استدعاء يعطيه باستمرار آخر المعلومات عن

معدلات مؤشر داو جونز الصناعى ووضع محفظة أسهمه فى السوق. وكان يراجعه فيما بين الانزلاقات التى يقوم بها على الجبل. وحينما كنت أرسل عدة فصول من هذا الكتاب عن طريق مكتب الأقمار الصناعية لفيدرال إكسبريس، لتسليمها عبر مسافة تصل إلى نصف البلاد فى الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم التالى، قابلت صدفة ديفيد ستيرن مفوض الاتحاد القومى لكرة السلة يسير فى الطريق وهو يضع تليفوناً خلوياً على أذنه يتفاوض من خلاله لإنهاء أزمة يواجهها الاتحاد القومى لكرة السلة. وفى نهاية كل يوم من أيام التزلج، كنت أذهب إلى المنزل لمراجعة واحدة من الأربعين قناة تليفزيونية المذاعة على الكابل المحلى، وأجرى اتصالات هاتفية مع أصدقائى فى مصر والقدس باستخدام بطاقتى الائتمانية لشركة الاتصالات إيه تى أند تى أو باستخدام رقم AOL 800 (أمريكا أون لاين 800) الخاص بى لمراجعة الأخبار على وكالات الأنباء أو البريد الإلكترونى الذى قد يكون قد وصلنى. وبعد العشاء فى إحدى ليالى رأس السنة، ذهبت لاستلام معطفى فى المطعم الذى اعتدت الذهاب إليه وسمعت الحوار التالى عند مكتب الاستعلامات بين أحد الزبائن الغاضبين ومسئول الاستعلامات: «ماذا تعنى بقولك إنك لم تتلق حجزى؟ لقد أرسلته إليك بالبريد الإلكترونى منذ عدة أسابيع! الاسم أشرف، أش راف» وقبل ذهابى إلى النوم التقطت نسخة من صحيفة *يو إس إيه توداى* وكان عليها الصورة التى وضعتها فى الفصل الثانى وتبين أحد الحاخامات اليهود وهو يلصق التليفون الخلوى بأحجار حائط المبكى حتى يستطيع أحد الأقارب فى فرنسا قراءة صلواته فى الأرض المقدسة.

كل ذلك حدث أثناء إجازة كنت أقضيها فى الجبال!

وما عليك إلا أن تتخيل ما يمكن أن يحدث و أنت فى منزلك أو فى مكتبك. لقد أصبحنا فى حالة اتصال شديد اليوم. إننا نعرف، أو نستطيع أن نعرف، فى التو واللحظة كل ما يحدث. وفى مثل هذا العالم، لا يحتاج الأمر إلا إلى كمية أقل كثيراً

من الديناميت أو الأسلحة الجرثومية أو اليوارنيوم شديد التخصيب لإشاعة القلق والذعر بين المليارات من الناس فى وقت واحد.

وأيضاً تمنح العولمة الإرهابيين نشاطاً أكبر مقابل ما يدفعونه من أموال بطريقة أخرى. ذلك أنه عندما تجعل شذرات الكمبيوتر الدقيقة وعمليات النمنمة الأشياء أصغر حجماً وأخف وزناً يصبح كل شيء أصغر وأخف. لقد لاحظ سام كوهين مخترع قنبلة النيوترون فى حديث نشرته له صحيفة ***واشنطن تايمز*** (7يونيه 1998)، أنه فى غضون عشر سنوات بعد أول تجربة لانشطار البلوتونيوم فى ألاموجوردو تمكن المصممون الأمريكيون من خفض وزن الرأس الحربى الذى يعطى حجم الانفجار نفسه ـ أى 20 كيلو طن ـ بنحو مائة مرة تقريباً. كذلك طورت الولايات المتحدة رأسا حربياً يستخدم فى أرض المعركة لحلف الأطلنطى يطلقه رجلان يحملان مدفع بزوكا، بقوة نيران تقل عن عُشْر الكيلو طن. وبالمثل فعل الروس. ولقد اكتشفنا ذلك عندما زعم ألكسندر ليبيد مستشار الأمن القومى الروسى السابق أن مائة سلاح نووى صغير الحجم، مما يعرف باسم «قنبلة حقيبة الملابس»، مفقودة من معدات القوات الخاصة الروسية. ولهذا صرح لى ذات مرة چيوف بايهر، رئيس شبكة التصميمات فى شركة صن مايكروسيستمز، بقوله: «إن أكثر ما يشعرنى بالقلق ـ وهو شيء لا مبالغة فيه ـ أن هذه البنية الأساسية بأسرها ضعيفة أشد الضعف، ليس فقط من جانب قطاع طريق الكمبيوتر، وإنما أيضاً من جانب أى شخص يستطيع الدخول على لوحة مفاتيح التليفون. ففى مثل هذا العالم يستطيع أى مهاجم الذهاب إلى جبهة التليفونات، ثم يتوجه إلى بيته لتناول شطيرة، ثم يعود للهجوم مرة أخرى».

عندما تجمع ما بين الرجال الغاضبين الذين تفرزهم الأمركة والعولمة وبين الطريقة التى تُكسب بها العولمة الأفراد قوةً عظمى، يصبح لديك ما أرى أنه تهديد حقيقى مباشر للأمن القومى للولايات المتحدة اليوم: الرجل الغاضب الذى اكتسب قوة عظمى.

نعم، هو كـذلك، إنهـا ليست قـوة عظمى تلك التى تهـدد أمريكا فى نهـاية القـرن العشرين. إن الخطر الأعظم الذى تواجهه اليوم الولايات المتحدة يأتى من الأفراد الذين اكتسبوا قوة عظمى، ويكرهون أمريكا اليوم أكثر من أى وقت مضى بسبب العولمة، ويستطيعون فعل شىء ما حيالها اعتماداً على أنفسهم، أكثر من أى وقت مضى، وذلك أيضاً بفضل العولمة.

فى نظام الحرب الباردة، كان الرجل الذى اكتسب قوة عظمى ـ سواء كان هتلر أو ستالين ـ يحتاج إلى السيطرة على دولة حتى يتسنى له إشاعة الدمار فى العالم. ولكن الرجل الغاضب، أو المرأة الغاضبة، الذى اكتسب قوة عظمى اليوم، يستطيع استخدام القوى التى تعتبر جزءاً لا يتجزأ من العولمة للهجوم حتى على قوة عظمى. لقد كان يقال عن الإمبراطورية الرومانية واسعة النطاق إن كل الطرق تؤدى إلى روما ـ الشمال والجنوب والشرق والغرب. وعن طريق هذا النظام من الطرق استطاع قيصر أن يبسط سلطانه فى كل اتجاه. لقد كانت تلك طرقاً عظيمة. غير أنه يوجد شىء محير إزاء الطرق. إنها تسير فى الاتجاهين، وإنه عندما قررت قبائل الوندال الجرمانية والقوط الغربيون الهجوم على روما أتوا عبر هذه الطرق مباشرة. وهكذا قد يكون الحال بالنسبة للعولمة.

ويأتى الرجال الغاضبون الذين اكتسبوا قوة عظمى فى أشكال مختلفة. وهم يتفاوتون ما بين الغاضبين جداً ولكنهم أقل عنفاً والغاضبين جداً مع عنف خفيف والغاضبين جداً مع العنف الشديد. وأفضل مثال على الغاضبين الأقل عنفاً هم قراصنة الكمبيوتر الذين هاجموا صحيفتى، *نيويورك تايمز*، أحد أعمدة المؤسسة الأمريكية. ففى 13 سبتمبر 1998، اقتحم هؤلاء القراصنة موقع الصحيفة على الشبكة، وهى المرة الأولى التى يقتحم فيها قراصنة موقعاً لصحيفة كبرى على الشبكة. وقد حكى لى القصة مارتن نيسينهولتس رئيس شركة نيويورك تايمز إلكترونيك ميديا، قال: كنا قد

نشرنا من فورنا تقرير كينيث ستار بشأن كلينتون يوم الجمعة وكان ذلك يوماً عظيماً بالنسبة لموقعنا على الشبكة. فقد استطعنا الحصول على النسخة الكاملة لتقرير ستار ووضعناه على الشبكة، فليس عليك سوى الضغط على لوحة مفاتيح جهاز الكمبيوتر حتى تحصل على ما تريده من التقرير، وبالفعل حطمنا كل أنواع الأرقام القياسية لاستخدام الموقع. كنت أشعر بارتياح كبير بما حققناه إلى درجة أننى قبلت دعوة للذهاب إلى فيلادلفيا للتحدث أمام منتدى وارتون الدولى. وهكذا توجهت مساء السبت إلى فيلادلفيا. وفى الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة من صباح يوم الأحد، تلقيت اتصالاً هاتفياً من محرر موقعنا على الشبكة بأننا تعرضنا لعملية قرصنة. وكان ذلك قد حدث من قبل عندما حاولت إحدى الجماعات إغراق أجهزة السيرڤر الخاصة بنا بالطلبات. ولكن هذا كان شيئاً مختلفاً. لقد استولوا فى الواقع على موقعنا وكانوا ينشرون الرسالة الخاصة بهم على صفحة الشئون الداخلية تحت شعار HFG 'اصطياد البنات Hacking for Girlies ' ووضعوا صورة لإمرأة عارية فوق جسم هذا الشعار واستعدنا الموقع بعد ذلك ونشرنا صحيفتنا فوق مادتهم، ثم عادوا هم واستولوا على الموقع ونشروا فوقنا مرة أخرى. ولذلك عدنا واستعدنا الموقع مرة أخرى، ولكنهم عادوا ليستولوا عليه من جديد. وظلت المعركة دائرة فوق صفحة الشئون الداخلية فى موقعنا على الشبكة طوال ساعتين! لقد تمكنوا من اقتحام نظامنا واستولوا على أجهزة السيرڤر الخاصة بنا ـ وهو مكان تخزين صفحات صحيفتنا على الشبكة ـ ونجحوا فى الدخول على موقعنا على الشبكة. وبعد أن دخلوا إليه أصبحت لديهم حرية الوصول التى لدينا لإدارة موقع صحيفة *نيويورك تايمز* على الشبكة. وأخذنا نتساءل. هل يجب علينا أن نلغى الموقع، ولكننى قلت لا. ولكن فى النهاية أصبح واضحاً أنه يجب علينا اتخاذ هذه الخطوة. وهكذا، ألغينا الموقع فى الساعة العاشرة وعشرين دقيقة، وأغلقنا كل المداخل [نقاط الدخول البعيدة عن الموقع]. وقد اعتمدت الطريقة التى

دخلوا بها على استغلال جرثومة فى نظام التشغيل يونيكس Unix ، فقمنا بانتزاع أجهزة السيرڤر التى استولوا عليها وأعدنا بناء الموقع بأجهزة سيرڤر جديدة، غير متصلة بأى مداخل بعيدة» .

كان أكثر ما أثار اهتمامى هو الرسائل التى وضعها القراصنة فوق موقع صحيفة **نيويورك تايمز**. كانت الرسالة الافتتاحية تقرأ على النحو التالى «نحن نمتلك جسدها» . وكانت أجزاء من رسائلهم مكتوبة بالشفرة، نوع ما من لغة شجرة زيتونهم الخاصة على درجة كبيرة من التقدم التكنولوجى. فقد كانوا يستخدمون الأرقام فى أماكن الحروف اللينة. وكانت رسالتهم الأخيرة تقول «تأكدوا من أننا سنعود إليكم فى وقت قريب» . وكان من الواضح أن القراصنة يستمتعون، مثل چيسى چيمس، بفكرة أنهم أكثر ذكاء من هيكل القوة العالمى، الذى تمثله صحيفة ***نيويورك تايمز*** وموقعها على الشبكة. كانت رسالتهم تقول إنكم قد تكونون أغنياء ولكنكم لا تستطيعون منافسة العقول السرية للإنترنت، حتى إذا كانت قوتها أقل منكم كثيراً. كانوا يقولون فيما يبدو إن عقولهم هى التى تحقق العدل. وكان من بين الرسائل التى نشرها القراصنة، رسالة تقول. «ليس معنى أننا نطبع بالحروف الكابيتال ولا نستخدم لغة الصفوة أننا مجرد أطفال، أو لا نستطيع امتلاككم. إن كل من يصفنا بأننا صبية ولم نشب عن الطوق بعد يبخسنا حقنا. والأسوأ، ما هو رأيكم فى أمنكم؟ إن هؤلاء الصبية، الذين لم يشبوا عن الطوق بعد، يستطيعون تجاوز حوائطكم الدفاعية التى تكلفت 25 ألف دولار، وتجاوز نظام الأمن الذى وضعه الإداريون بعد خبرة عشرات السنين أو الحاصلون على أعلى الدرجات العلمية من كلياتكم. نياه نياه» .

كان الطلب الوحيد للقراصنة هو الإفراج عن كيڤين دى. ميتنيك قرصان الكمبيوتر سيء السمعة الموجود فى السجن منذ اعتقال مكتب التحقيقات الفيدرالى له فى فبراير 1995 . وقد اتهم ميتنيك، الذى كان يعد فى وقت من الأوقات أشد القراصنة

المطلوبين للقبض عليهم فى العالم، بسلسلة من الجرائم كان من بينها سرقة آلاف من ملفات البيانات وأرقام 20 ألف بطاقة ائتمانية على الأقل من نظم الكمبيوتر فى أنحاء البلاد. كان ميتنيك يعمل عن طريق مودم كمبيوتر متصل بتليفونه الخلوى، وقد اعتقل بعد اختراقه للكمبيوتر المنزلى لخبير أمن الكمبيوتر البارز تسوتومى شيمومورا، الباحث فى مركز سان دييجو سوبر كمبيوتر. وقد ساعد شيمومورا حشداً من الفنيين فى شركة التليفونات والمحققين الفيدراليين على استخدام أجهزة الإسكانر للترددات الخلوية فى مطاردة ميتنيك وإلقاء القبض عليه.

ويعتبر قراصنة الكمبيوتر أساساً من الأصوليين بالإنترنت. ولهم عاداتهم القبلية، وأبطالهم الشعبيون، ولغتهم الخاصة، ونظرياتهم الخاصة فى التآمر، ومصدرهم الخاص بالحقيقة. ولكن ليس لديهم أيديولوجية سياسية متماسكة بمعنى وجود نظام حقيقى بديل. إنهم مجموعة حقيقية على شاكلة هاريو. لديهم موقف نعم، ولكن ليس لديهم أيديولوجية. إنهم فقط لا يريدون سوى إسقاط هيكل القوة الموجود حالياً. إنهم يريدون إثبات أن النظام لا يتحكم فيهم، بل إنهم هم الذين يتحكمون فى النظام.

غير أنك عندما تصعد درجات السلم تجد أولئك الغاضبين بصورة أكبر قليلاً وأولئك الذين يزداد عنفهم قليلاً، مثل الانفصاليين التاميل الذين اكتسبوا قوة عظمى وهاجموا السفارة السرى لانكية فى واشنطن فى سبتمبر عام 1998. قالت صحيفة *واشنطن تايمز* فى سردها للموضوع: «عندما حصلت سفارة سرى لانكا لها على عنوان للبريد الإلكترونى، وجد فيه رجال حرب عصابات منظمة نمور التاميل تطبيقاً جديداً لأساليب الإرهاب. وبدأوا على الفور فى إغراق السفارة بتهديدات بوجود قنبلة وغير ذلك كثير من رسائل البريد الإلكترونى التافهة ـ إلى درجة أنه تعذر على الدبلوماسيين استخدام هذا العنوان الإلكترونى فى إرسال الرسائل المشروعة. ووصف أحد الدبلوماسيين ذلك بأنه 'إرهاب البريد الإلكترونى' . وجاء فى الموضوع أن السفارة

السرى لانكية اضطرت أخيراً فى العام الماضى إلى اللجوء إلى أحد خبراء الكمبيوتر لتطوير برمجيات جديدة لتنقية البريد الإلكترونى من منظمة تحرير نمور إيلام تاميل. وقد ورد ذكر التكتيك الذى اتبعه النمور باعتباره تهديداً جديداً فى تقرير وزارة الخارجية الأمريكية عن الإرهاب الدولى. نص هذا التقرير على أن جماعة تطلق على نفسها اسم نمور الإنترنت السودكانت قد وجهت ضربتها من قبل فى أغسطس1997 باستخدام 'أسلحة' «البريد الإلكترونى» التى أدت إلى تعطيل نظم البريد الإلكترونى. وقال تقرير وزارة الخارجية: «لقد زعمت هذه الجماعة فى مراسلاتها على الإنترنت أنها قسم للصفوة فى منظمة تحرير نمور إيلام تاميل، متخصص فى 'عمليات تفجير انتحارية بواسطة البريد الإلكترونى'. وقد استخدمت الجماعة ما أسمته «صواريخ بريد إلكترونى ـ FTB مضادة للسيرفر» لزيادة الأحمال على عنوان بريد إلكترونى مستهدف ويحدث أعطال من حيث حجم البريد المرسل تجبر المتلقى على إلغاء موقع بريده الإلكترونى كلية.

وأخيراً هناك الرجال الغاضبون حقاً ويتسمون بالعنف حقاً ممن اكتسبوا قوة عظمى ولا يستخدمون البريد الإلكترونى. هؤلاء على شاكلة هاريو ولكنهم يمتلكون مدافع حقيقية. ويدركون أن هناك نظاماً حاكماً للعالم وهم ليسوا جزءاً منه ولن يكونوا قط. وتعتبر الولايات المتحدة، وشركة آى بى إم ، وصحيفة **نيويورك تايمز**، وأيضاً وول ستريت، والاقتصاد العالمى جميعاً، من وجهة نظرهم جزءاً من صرح واحد للقوة يجب القضاء عليه. ومن بين هؤلاء الرجال الغاضبين الذين اكتسبوا قوة عظمى طائفة أوم شينريكيو (الحقيقة السامية) Aum Shinrikio فى اليابان، وجماعة أسامة بن لادن فى أفغانستان، وجماعة أونابومبر Unabomber ورمزى يوسف فى نيويورك. كانت طائفة أوم شينريكيو تبشر بتعاليم مجنونة هى خليط من الهندوكية والبوذية ونظريات تآمرية مختلفة يشترك فيها العالم أجمع تضم أمريكا، واليهود، والماسونيين الأحرار

والرأسماليين العالميين. وقد قتلت هذه الطائفة اليابانية اثنى عشر شخصاً وأصابت عدة آلاف آخرين فى مارس 1995 عندما أطلقت غاز الأعصاب، السارين، فى مترو الأنفاق بطوكيو. غير أن طائفة أوم شينريكيو، حسبما ذكرت صحيفة ***الإيكونوميست***، كانت قد جمعت ما يقرب من مليار دولار من الأرصدة وقامت فعلاً بشراء طائرة هليكوبتر روسية متطورة الصنع مزودة بمعدات لرش الكيماويات المميتة. وأيضاً أسامة بن لادن، ذلك المليونير السعودى الذى موّل عملية تفجير السفارتين الأمريكيتين فى كينيا وتنزانيا وقتل فيها أكثر من 200 شخص، وهو يجرى يومياً اتصالات حول العالم باستخدام تليفونات الأقمار الصناعية من خطه الخاص المتصل بالإنترنت المسمى جهاد أون لاين (JOL). وذكرت صحيفة ***نيويورك تايمز*** أن مكتب التحقيقات الفيدرالى فرغ البيانات الموجودة فى جهاز الكمبيوتر الشخصى الذى استحوذ عليه من أحد أتباع ابن لادن النشطين فى كينيا، وهو هارون فاضل، ووجد بداخله رسالة بالبريد الإلكترونى حكى فيها بالتفصيل كيف أنه ظل يتابع الأحداث العالمية على شبكة سى إن إن الإخبارية التليفزيونية، واستخدم الإنترنت فى الاتصال بالأعضاء الآخرين فى شبكة ابن لادن السرية وكان يصف وظيفته بأنها «مسئول الإعلام الصحفى فى خلية شرق أفريقيا».

أما رمزى يوسف فقد كان العقل المدبر وراء عملية تفجير مركز التجارة العالمى بنيويورك فى 26 فبراير 1993، التى أدت إلى مصرع ستة أشخاص وإصابة أكثر من ألف آخرين. جاء رمزى من جيل من الشباب الغاضبين فى العالم الثالث ممن كانوا يتوقون إلى الحصول على فرصة ليقوموا بما لم يستطع آباؤهم القيام به. وذلك بأن يصبّوا جام غضبهم على الغرب، انتقاماً لكل الاضطرابات التى أحاقها بمجتمعاتهم، ولكن أن يفعلوا ذلك باستخدام التكنولوجيا الغربية مع رفض مجموعة القيم الغربية التى كانت وراء هذه التكنولوچيا. إنهم يحبون فكرة أنهم قادرون على انتزاع طبقة المعرفة

التكنولوجية لدى الغرب وإلصاقها على بطاقة الڤيزا، ومع ذلك يستطيعون أن يعيشوا بأسلوب حياة الأصوليين مع إغلاق النوافذ وإسدال النقاب. وبرغم أن الأصوليين فى الإنترنت مستعدون فقط لاستخدام الماوس أو جرثومة يونيكس Unix للتعبير عن وجهة نظرهم، كان رمزى يوسف وجماعته على استعداد لاستخدام الديناميت وإحدى الشاحنات التى استأجرها من شركة رايدر لتأجير الشاحنات. ولكن الهدف كان واحداً فى الأساس ـ وهو البصق فى وجه الأمركة والعولمة ووطأها بالأقدام، باستخدام النظام ضد نفسه.

ورمزى يوسف هو فى الحقيقة نموذج للرجل الغاضب الذى اكتسب قوة عظمى. تأمل فيه لحظة. ماذا كان برنامجه؟ ما هى أيديولوچيته؟ فهو قبل كل شىء حاول نسف أعلى مبنيين فى أمريكا. هل كان يريد دولة إسلامية فى بروكلين؟ هل كان يريد دولة فلسطينية فى نيو جيرسى؟ كلا. كل ما كان يريده هو نسف اثنين من أعلى المبانى فى أمريكا. فقد اعترف أمام المحكمة المحلية الفيدرالية فى مانهاتن بأن هدفه هو إطلاق انفجار يؤدى إلى انهيار أحد برجى مركز التجارة العالمى على البرج الآخر لكى يقتل 250 ألف مدنى. كانت رسالة رمزى يوسف أنه ليس لديه رسالة، سوى تمزيق الرسالة القادمة من القوة الوحيدة، أمريكا، إلى مجتمعه. وأشارت صحيفة **الإيكونوميست** ذات مرة إلى أنه «كان من المعتاد القول عن الإرهابيين 'بأنهم يريدون أكثر عدد من المشاهدين لعملياتهم وليس أكثر عدد من القتلى'». ولكن ليس هذا هو حال الرجال الغاضبين الذين اكتسبوا قوة عظمى. إنهم يريدون أكثر عدد من القتلى. إنهم لا يحاولون تغيير العالم. فهم يعلمون أنهم لا يستطيعون ذلك، ولذلك فإنهم يريدون فقط تدمير كل ما يسعهم تدميره.

لقد اعتمد جزء كبير من قضية التآمر التى رفعتها الحكومة الأمريكية ضد رمزى يوسف (كان يعتزم نسف اثنتى عشرة شركة طيران أمريكية فى آسيا فى يناير 1995، إلى جانب محاولته نسف مركز التجارة العالمى فى عام 1993) على ملفات عثر عليها فى جهازه المكتبى للكمبيوتر من طراز توشيبا الذى ذكرت الشرطة الفلبينية أن يوسف خلّفه وراءه عند هروبه من شقته فى مانيلا فى يناير 1995، قبل فترة وجيزة من اعتقاله. وعندما حصل المحققون على جهاز الكمبيوتر المكتبى الذى كان لدى يوسف واقتحموا ملفاته، وجدوا أن هذا الكمبيوتر يحتوى على جداول مواعيد الرحلات الجوية، ومواعيد التفجيرات المقترحة وعينات من وثائق الهوية التى تحمل صوراً لبعض المتآمرين معه. كم أحب ذلك ـ لقد احتفظ رمزى يوسف بكل مؤامراته على قرص تشغيل جهاز الكمبيوتر التوشيبا الخاص به!

ومما يثير الاهتمام بشأن رمزى يوسف وغيره من الرجال الغاضبين الذين اكتسبوا قوة عظمى القادمين من العالم العربى الإسلامى اليوم، حسبما يشير ستيفين پى كوهين الخبير فى شئون الشرق الأوسط، هو أنهم «اعتادوا على الاعتقاد بأن عليهم الإطاحة بحكوماتهم، والسيطرة على مقدرات دولهم، قبل استيلائهم على أمريكا. وهم الآن يقومون بذلك مباشرة معتمدين على أنفسهم كأفراد». ولم تيسر لهم العولمة فقط الهجوم على الولايات المتحدة كأفراد، ولم تعطهم فقط الدافع للقيام بذلك، ولكنها أعطتهم المنطق لذلك. هذا المنطق هو أن دولهم لم تعد تمثل الهيكل الحقيقى للقوة. فقد أصبح هيكل القوة المناسب لهم عالمياً. إنه فى يد القوة العظمى الأمريكية وأسواق السوبر ماركت، فتلك هى التى تأمر الحكومات الأخرى بما يجب عليهم القيام به. ولذلك، فإذا كنت تريد هدم الهيكل الحقيقى للقوة، فعليك ملاحقة القوة العظمى وأسواق السوبر ماركت ولا تشغل بالك بحكومة باكستان أو مصر.

فليس ما يشغل بال هؤلاء الرجال الغاضبين الذين اكتسبوا قوة عظمى هو أن الولايات المتحدة متفوقة تكنولوچيا فحسب، بل إنها تزعم أن قيمها متفوقة أيضاً، فى حين، يرى هؤلاء الإرهابيون أن هذه القيم الأمريكية ليست سوى عبادة بلا روح لتكنولوچيا استهلاكية تفتقر إلى الذكاء. ولقد دار الحوار التالى فى نهاية محاكمة رمزى يوسف، بينه وبين قاضى المحكمة، كيڤن توماس داڤى. إنه حوار بين رجل غاضب اكتسب قوة عظمى والقوة العظمى.

رمزى يوسف: «إنكم لا تتوقفون عن الحديث عن العقاب الجماعى وقتل الأبرياء .... أنتم الذين بدأتم بقتل الأبرياء، وأنتم الذين بدأتم بتقديم هذا النوع من الإرهاب فى تاريخ البشرية، عندما أسقطتم قنبلة نووية قتلت عشرات الآلاف من النساء والأطفال فى اليابان، وعندما قتلتم أكثر من 100 ألف نسمة، معظمهم من المدنيين حين قصفتم مدينة طوكيو. لقد قتلتموهم حرقاً. قتلتم المدنيين فى فيتنام بالمواد الكيماوية وأيضاً بما تطلقون عليه العامل البرتقالى. قتلتم المدنيين والأبرياء، وليس العسكريين فى كل حرب اشتركتم فيها. لقد خضتم من الحروب أكثر من أى بلد آخر فى هذا القرن، وعلاوة على ذلك لديكم الشجاعة للحديث عن قتل الأبرياء. والآن اخترعتم طرقاً جديدة لقتل أناس أبرياء. عندكم ما تطلقون عليه الحصار الاقتصادى الذى لا يقتل سوى الأطفال والمسنين، والذى تفرضونه، إلى جانب العراق، على كوبا وغيرها من البلاد منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً. تقول الحكومة فى تلخيصها لعريضة الاتهام الموجهة لى وفى كلمة الادعاء الافتتاحية إننى 'إرهابى'، نعم، أنا إرهابى وأنا فخور بذلك. وأنا أساند الإرهاب طالما ظل موجهاً ضد حكومة الولايات المتحدة وضد إسرائيل، لأنكم أنتم أيضاً لستم سوى إرهابيين، أنتم الذين اخترعتم الإرهاب، وأنتم الذين تستخدمونه كل يوم. إنكم جزارون وكاذبون ومنافقون» .

حينئذ رد القاضى كيفن داقى على يوسف ـ بما يعنى فى الواقع أن عليه أن يأخذ ثورة غضبه العدمية تلك ويرحل: «رمزى يوسف، أنت تزعم إنك مناضل إسلامى. ولكن من بين كل أولئك الذين قتلتهم أو أصابتهم قنبلة مركز التجارة العالمى بصورة أو بأخرى، لا يمكنك أن تحدد لى بالاسم من يتخذ منهم موقفاً معارضاً لك أو لقضيتك. ذلك شىء لا يعنيك، طالما قد تركت وراءك جثث القتلى والجرحى. رمزى يوسف، إنك إنسان لا تصلح أن تكون مسلماً. فإلهك الموت. . وليس إلهك الله تعالى .... إنك لم تكن تسعى إلى الهداية. كل ما كنت تبغيه هو أن تتسبب فى الموت. إلهك ليس الله تعالى. إنك تعبد الموت والخراب. إن ما تفعله، لا تفعله لوجه الله تعالى، إنك تفعله فقط من أجل إرضاء شعورك المختل بذاتك. لقد كنت تريد من الآخرين أن يؤمنوا بأنك جندى، ولكن هجماتك على المدنيين، التى تقف مداناً من أجلها هنا، ليست سوى هجمات غادرة لم تهدف إلا إلى قتل وتشويه أناس أبرياء تماماً .... لقد جئت، يا رمزى يوسف، إلى هذا البلد مدعياً إنك من الإسلاميين الأصوليين، ولكنك لم تهتم إلا قليلاً بالإسلام أو عقيدة المسلمين أو أنك لم تهتم بهما إطلاقاً. بل الأحرى، إنك لا تعبد الله تعالى، ولكنك تعبد الشر الذى أصبحت أنت تمثله. ويحق لى القول، بأنك باعتبارك رسول الشر، قد أديت رسالتك على أكمل وجه».

بيد أن الجزء المفضل لدىّ من قضية رمزى يوسف، هو أن أحد المتآمرين معه، واسمه محمد سلامة، عاد مرة أخرى ـ بعد انفجار مركز التجارة العالمى ـ إلى وكالة رايدر لتأجير الشاحنات التى استأجر منها الشاحنة المغلقة التى استخدمت فى التفجير. فقد أودع سلامة تأميناً قدره 400 دولار عند استئجار الشاحنة وأراد استرداده رغم أنه نسف الشاحنة المغلقة. [قال للموجودين فى وكالة تأجير السيارات إن الشاحنة قد سرقت] كان العالم بالنسبة لسلامة عالمين مختلفين. فى الصباح تنسف مركز التجارة

العالمى لقتل الأمريكيين لكى تنتصر للخير على الشر، وفى المساء تسترد نقودك على أساس المبادئ القانونية الأمريكية وقانون الاستئجار الأمريكى. فلا شىء أفضل من ذلك يجتذب قدرة الرجال الغاضبين الذين اكتسبوا قوة عظمى على استغلال تكنولوجيا العالم الحديث بدون تفهم لأى قيمة من قيمه. وعندما سأل المحققون رمزى يوسف، كيف يتأتى لسلامة أن يعود لاسترداد تأمين السيارة ـ وهو التصرف الذى ساعد الشرطة على تعقب المسئولين عن الانفجار ـ رد فى كلمة واحدة بقوله: «غبى».

هل يوجد ثمة دفاع عن هؤلاء الناس؟ قد يرتاح المرء للاعتقاد بأن المجتمعات تستطيع، عن طريق البرامج الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية الصحيحة، القضاء على الدافع والشعور بالاستياء والغضب لهؤلاء الذين يشعرون أن الأمركة والعولمة سحقتهم فى طريقها. ولكننا لا نستطيع. فالناس على شاكلة رمزى يوسف لديهم قدر كبير من الحافز أو من الحرمان. والإحساس بما يشعرون به من آلام لن يرجعهم عما هم فيه، ولن ينجح أيضاً معهم العمل الاجتماعى. فسوف تظل هناك دائماً المجموعة الأساسية العنيدة، من أمثال رمزى يوسف. والدفاع الوحيد لمواجهتهم هو عزل هذه المجموعة الأساسية العنيدة عن المجتمع الأكبر المحيط بهم. والطريقة الوحيدة لتنفيذ ذلك هو التأكد من أن جزءاً كبيراً من ذلك المجتمع أصبحت له مصالح مع نظام العولمة. فكيف يتسنى للمرء أن يفعل ذلك؟ ذلك هو أحد الخيوط التى يتناولها الفصل الأخير من هذا الكتاب.

بيد أن المرء يجب أن لا يتعلق بالأوهام. فالرجال الغاضبون الذين اكتسبوا قوة عظمى موجودون هناك، وهم يمثلون اليوم أقرب التهديدات للولايات المتحدة ولاستقرار هذا النظام الجديد. ولا يرجع الأمر إلى أن رمزى يوسف يمكن أن يصبح فى يوم ما قوة عظمى. لا، لا، لا. بل يرجع إلى أنه فى العالم اليوم يوجد كثيرون من الناس ممن يمكن أن يكونوا رمزى يوسف.

الفصل السابع عشر

إذا أردت التحدث إلى أحد البشر، اضغط على الزر رقم 1

لو كان هناك قاسم مشترك أعظم يربط بين صفحات هذا الكتاب لكان فكرة أن ***العولمة هى كل شىء وعكسه***. إنها قد تكسب قوة مذهلة وقد تكون قوة قهر مذهلة أيضاً. وقد تؤدى إلى الديموقراطية فى الفرص والديموقراطية فى الفزع. إنها تزيد من حجم الحيتان ومن قوة الأسماك الصغيرة. إنها تتركك وراءها أسرع وأسرع، وتلحق بك أسرع وأسرع. وهى حين تجعل الثقافات متجانسة تمكّن الناس أيضاً من نشر فرديتها الفذة على نحو أبعد وأوسع. إنها تجعلنا نرغب فى النضال من أجل السيارة ليكساس بقوة أكبر من أى وقت مضى والتشبث بشجرة زيتوننا بإحكام أكبر من أى وقت مضى. إنها تمكننا من الوصول إلى العالم كما لم يحدث من قبل وتمكن العالم أيضاً من الوصول إلى كل منا كما لم يحدث من قبل.

وقد حاولت أن أثبت فى هذا الكتاب أنه منذ البدايات الأولى للعولمة كنظام دولى ظلت الدول والمجتمعات المختلفة تتأرجح ما بين الانجذاب إلى مزاياها والرفض لمساوئها. وقد ظلت العولمة باستمرار وحتى الآن، وفى موجات المد والجزر ما بين العولمة والردة ضدها، لها اليد العليا فى كل دولة كبرى التحمت بهذا النظام. ولم

تنجح الردة ضد العولمة فى الاستيلاء على السلطة فى أى دولة كبرى، ولم تصل شعبية الردة ضد العولمة فى أى دولة كبرى إلى الحد الذى يجعل هذه الدولة راغبة فى تقويض النظام بأسره ـ مثلما فعلت إمبراطورية النمسا والمجر قبل الحرب العالمية الأولى أو ألمانيا واليابان قبل الحرب العالمية الثانية.

فهل سيظل الحال على هذا النحو؟ وهل يستحيل التراجع عن العولمة؟ تقديرى الشخصى يقول لى إنه يستحيل «تقريباً» التراجع عنها. لماذا أقول «تقريباً» يستحيل التراجع عنها، ولا أقولها صريحة واضحة إنه يستحيل التراجع عنها؟ العولمة يصعب كثيراً التراجع عنها لأنها مدفوعة بطموحات بشرية هائلة القوة نحو مستويات أعلى للمعيشة من ناحية، وبتكنولوچيات هائلة القوة تعمل على إحداث المزيد والمزيد من التكامل بيننا كل يوم من ناحية أخرى، سواء أعجبنا ذلك أم لا. وقد يكون من الممكن نظرياً كبت هذه الطموحات وهذه التكنولوچيات، ولكن ذلك باهظ الثمن بالنسبة لتطور أى مجتمع ولن يتحقق إلا ببناء أسوار أكثر ارتفاعاً وأكثر سمكاً. ولا أعتقد أنه من المحتمل أن يحدث فى أى مكان فى العالم، ولكنه ممكن الحدوث. ممكن الحدوث إذا تجاوز النظام الحدود بحيث لا تشعر الأقلية المحرومة وحدها بالظلم بل تشعر به أيضاً الأغلبية الكبيرة فى الدول الكبيرة.

وتعتبر العولمة، إلى حد ما، هى التهديد الأكبر للعولمة. ذلك أن النظام قد يحتوى على بذور تدميره لذاته. وفيما يلى الطرق الخمس التى يمكن لنظام العولمة بواسطتها أن يطلق العنان لنزواته أو أن يصبح شديد القهر بدرجة تجعل أغلبيات كبيرة فى عدد كبير من الدول الكبيرة تشعر بأنها خاسرة ومن ثم تهدد استمرار بقاء النظام برمته.

إنها فقط مفرطة فى المشقة

عندما كنت فى زيارة بانكوك، فى أثناء الاضطرابات الاقتصادية التى حدثت فى تايلاند فى عام 1997 ، كنت أتحدث إلى دبلوماسى أمريكى هناك عما تعنيه هذه النكسة لتايلاند. كنا نتحدث تحديداً عن كل الأشياء التى يتعين على تايلاند القيام بها فى فترة وجيزة من الزمن حتى تعود ببرمجياتها ونظم تشغيلها إلى السرعة المطلوبة للنجاح فى لعبة العولمة. فعرض الدبلوماسى قائمة كاملة بالأشياء المطلوب تنظيفها، وعندما انتهى منها، قلت له: «أتعلم أننا نطلب من تايلاند أن تفعل على مدى عشرين عاماً ما فعلته الولايات المتحدة فى مائتى عام».

رد قائلاً وهو يهز رأسه بما يعنى أننى فهمت خطأ قصده، «لا، لا. إننا لا نطلب إليهم أن يفعلوها فى عشرين عاماً .... إننا نطلب إليهم أن يفعلوها فى عام واحد».

لقد أصبح واضحاً الآن أن قوة أى دولة ومكانتها فى حقبة العولمة ستكون، من ناحية، هى مدى قدرتها ورغبتها فى تطوير البرمجيات ونظم التشغيل الصحيحة اللازمة للنجاح. ولكن ماذا لو ثبت أن عملية تطوير هذه المؤسسات، وتحرير الأسواق، وارتداء قميص القيد الذهبى مفرطة فى المشقة لكثير من الدول الكبيرة؟ فلئن كان بمقدور السياسيين وأتباعهم تحمل الكثير من الآلام والتقشف من أجل الوصول إلى عالم ديزنى، فهناك حدود. لقد قال هنرى كيسنجر ذات مرة فى هذا الصدد، إن القادة السياسيين «لا يستطيعون الصمود دعاةً للتقشف الدائم تقريباً على أساس التوجيهات المفروضة من الخارج». فقد يستغرق بناء البرمجيات وقتاً طويلاً، وقد يستغرق تشكيل دولتك على النحو السليم الذى يجعلها تلتحم وتتفاعل مع القطيع الإلكترونى وقتاً طويلاً، وربما لا تستطيع بعض الدول احتمال هذه المهمة سياسياً واقتصادياً ـ على الأقل فى الإطار الزمنى الذى يبدو أن القطيع يطالب به. وقد لا يستطيع آخرون

احتماله ثقافياً. فالثقافات تتغير ببطء. ومن الأسهل كثيراً تطوير طراز جديد من السيارة ليكساس عن استنباط أنواع جديدة من شجر الزيتون، الذى يمكن أن يستغرق أجيالاً.

لو أرّخ المرء لنظام العولمة اليوم منذ سقوط سور برلين، فقد يستطيع القول بأن النظام يشرف على الدخول فى عقده الثانى. وما شهدناه فى العقد الأول لنظام العولمة هو ما يحدث عندما يتعذر على بعض الدول الصغيرة ـ مثل البوسنة وألبانيا والجزائر وصربيا وسوريا وكثير من الدول الإفريقية ـ إجراء هذا التحول. غير أن هذه الدول ضعيفة وصغيرة إلى درجة أن كل ما يفعله النظام حيالها هو بناء جدار مانع لانتشار النيران حولها.

بيد أنه مع دخولنا إلى العقد الثانى، يواجهنا سؤال أكثر أهمية: ماذا سيحدث لو أخفقت فى إجراء هذا التحول دولة كبيرة جداً، مثل روسيا أو الصين أو اليابان، ناهيك عن إندونيسيا أو البرازيل أو حتى بعض الدول الأعضاء فى الاتحاد النقدى الأوروبى؟ ماذا لو وجدت أن ارتداء قميص القيد الذهبى مؤلم بشدة، أو أن مجتمعاتها لا تستطيع مجرد إجراء هذا التحول الثقافى والسياسى والاقتصادى إلى رأسمالية شومبيتر التى تتسم بالقسوة وعدم المواربة، والتى تعدم فيها الشركات الخاسرة رمياً بالرصاص ولا تضع لها أجهزة التنفس الصناعى لسنوات دون انقطاع. ربما جعلت الديموقراطيات الثلاث من انهيار اقتصاد الاتحاد السوفيتى والحقبة الشيوعية فى الصين أمراً محتوماً. وربما جعلت من انهيار نظم الحكم الفاسدة فى ألبانيا أو إندونيسيا أمراً محتوماً. وربما جعلت من انهيار النظام الاقتصادى اليابانى الذى يدار بالتلاعب ويفرط فى الحماية أمراً محتوماً. ولكن ذلك لا يعنى أن نجاحهم فى نظام العولمة الجديد أمر محتوم.

دعنا نلقى نظرة فاحصة على الدول الثلاث الأكثر أهمية من بين هذه الدول اليوم، وهى روسيا والصين واليابان. فما الذى تراه عندما تفحصها عن كثب؟ إن ما

أراه هو ثلاث من الدول الأم الكبيرة والقوية، التى تبدو من الخارج مثل مصارع يزن 280 رطلاً، مفتول العضلات، ولكن من الداخل، تعانى كل منها من مرض احتقان القلب. أى أن قلوبها ـ وهى نظم تشغيلها وبرمجياتها المسئولة عن ضخ الدماء فى عضلاتها الصناعية ـ معوقة وتضخ كمية كبيرة جداً من الدماء إلى أقدامها وكمية غير كافية من الدماء إلى رؤوسها وغيرها من المناطق. فروسيا تحتاج إلى عملية زرع أعضاء كاملة. والصين تحتاج إلى تحويلة خماسية الأفرع. أما اليابان فتحتاج إلى علاج دوائى جذرى لخفض نسبة الكوليسترول. [قد لا تحتاج دول مثل فرنسا أو ألمانيا أو غيرهما من دول أوروبا الغربية مثل هذا العلاج الجذرى تماماً، ولكنها قد تحتاج إلى نظام غذائى يخلو من الدهون إذا كان لها أن تهيئ نفسها لارتداء قميص القيد الذهبى الخاص بها ـ وهو الاتحاد النقدى الأوروبى. وسوف يكون هذا النظام الغذائى مؤلماً فى بعض الأحيان، وسوف يقتضى بعض التغييرات الحقيقية فى أسلوب الحياة، وهو الأمر الذى يجعل مؤازرة الاتحاد النقدى الأوروبى والعملة الموحدة سياسياً أكثر مما يدرك كثيرون من الناس].

غير أن قادة هذه الدول وأجواءها السياسية تقاوم جميعاً مثل هذا العلاج الجذرى. لقد نشأتُ فى عصر كانت أكبر التهديدات الخارجية لأمريكا فيه هى القوة العسكرية لروسيا والصين والقوة الاقتصادية لليابان. غير أننى أظن أن ابنتىَّ اللتين تبلغان من العمر عشر سنوات وثلاث عشرة سنة، سوف تكبران فى عالم سوف تأتى فيه أكبر التهديدات لأمريكا من الضعف العسكرى لروسيا والصين والضعف الاقتصادى لليابان. وسوف يكون التأقلم مع مثل هذا النظام الجديد شديد الصعوبة بالنسبة لهذه الدول الثلاث جميعاً. ومما لا شك فيه أن هذه الدول مختلفة، والتحديات التى تواجهها مختلفة، ولكن هذا الاختلاف ليس كما تظن.

وإليكم هذا السر الصغير: لقد كان الاقتصاد اليابانى دائماً شيوعياً أكثر منه رأسمالياً. لقد ظل وولت موسبيرج، الكاتب المتخصص فى التكنولوجيا فى صحيفة

وول ستريت جورنال يردد القول بأن «اليابان هى أكثر الدول الشيوعية نجاحاً فى العالم». والواقع أنها الدولة الوحيدة التى نجحت فيها الشيوعية حقاً. فطوال الحرب الباردة، سيطر على اليابان حزب واحد، هو الحزب الديموقراطى الليبرالى. وفى حين كان هذا الحزب يحكم اليابان ،كانت هناك مجموعة من الأسماء، من الصفوة البيروقراطية هى التى تدير البلاد، تماماً مثلما كان الحال فى روسيا والصين. كانت هذه الصفوة البيروقراطية هى التى تحدد غالباً كيفية تخصيص الموارد. وكانت وسائل الإعلام فى اليابان سهلة الانقياد إلى حد بعيد، وكانت موجهة بالضرورة من جانب الحكومة، رغم أنها غير خاضعة رسمياً لها. وفى اليابان شعب شديد الطاعة، ويتكبد غير المطيعين تكاليف باهظة. ولا ينفى غير المطيعين إلى معسكرات العمل الجماعى الروسية وإنما ينفون فى سيبريا الداخلية الخاصة بهم. ففى اليابان يطلق على غير المطيعين صفة «المادوجيوازوكو Madogiwazoku» التى تترجم إلى «الجمع الذى ينظر إلى خارج النافذة» ، فغالباً كانت تخصص لهؤلاء مقاعد تواجه النافذة وكان الآخرون يجتنبونهم أساساً. كان هذا الشعب المطيع على استعداد لتقبل ساعات عمل طويلة فى مقابل مستوى معيشة آخذ فى الارتفاع، وعقود للعمل مدى الحياة، وحد معين من الاستقرار فى الحياة. وفرضت اليابان برنامجاً للادخار يجبر الأفراد والشركات على الادخار والاستثمار لا على الاستهلاك. ولو حققت الشيوعية السوفيتية نصف نجاح الشيوعية اليابانية لما خسرت موسكو قط الحرب الباردة.

وبطبيعة الحال، هناك شيء من المبالغة والنفاق فى ذلك. فالاقتصاد اليابانى به أيضاً عنصر السوق الحرة. فهناك ثلث الاقتصاد اليابانى اليوم عبارة عن مشروعات امتيازات شديدة التفوق تتنافس على المستوى العالمى مثل شركة سونى وميتسوبيشى وكانون وليكساس. وهذه تعتبر من أفضل الشركات فى العالم زودت اليابان بمدخرات هائلة. وقد كانت هذه المدخرات حماية للثلثين الآخرين من الاقتصاد اليابانى ـ ذلك

القطاع الشيوعى، المكون من الشركات المنتفخة والمتصلبة وديناصورية الحجم التى صمدت على مدى سنوات بفضل الحواجز الحمائية التى نصبتها دولة الحزب الواحد فى اليابان. لقد حققت اليابان من الحرب الباردة مدخرات ساعدت على اجتياز العقد الأول من العولمة بدون أن تغرق ـ حتى وإن ظل نموها الاقتصادى راكداً تقريباً منذ عام 1992. وذلك على عكس كوريا التى اتخذت لنفسها النموذج اليابانى، ولكن لم تتراكم لديها المدخرات التى كانت لدى اليابان عندما انهارت كل الأسوار. ولذلك كان على كوريا أن تكابد آلام وقسوة عملية التكيف دون أن يكون لديها الوقت الكافى للاستعداد لذلك.

وفى النهاية، إذا كان لليابان أن تجتنب الركود الدائم، فلا بد لها من «خصخصة» القطاع الشيوعى من الاقتصاد اليابانى تماماً مثلما فعلت الصين وروسيا. لا بد من التخلص تماماً من الشركات والبنوك المتعثرة ونقل رأسمالها الميت إلى شركات أخرى أكثر كفاءة. ويقول لنا التاريخ اليابانى إن اليابان قادرة على التغير والتكيف مع النظم الجديدة، ولكن فقط بعد أن تصل إلى نقطة الأزمة التى تحرر يدها بالقوة. ولست أشك فى أن اليابان يمكن أن تعود قوة اقتصادية هائلة مرة أخرى، ولكن فقط بعد أن تجتاز بعض التعديلات الاجتماعية والسياسية والثقافية المؤلمة. لنأخذ ،مثلاً واحداً فقط من التقاليد اليابانية البسيطة: تتألف جميع مجالس إدارات كل شركة عامة تقريباً فى اليابان ـ باستثناء أشد الشركات تفوقاً وسيراً على النظام الأمريكى، مثل شركة سونى ـ من المديرين التنفيذيين المتقاعدين والحاليين فى الشركة، ولا حيلة لحملة الأسهم فى ذلك تقريباً. ولا وجود تقريباً لنظام الأعضاء المستقلين الخارجيين فى مجلس الإدارة. ولا سبيل إلى أن يدفع هذا النظام الكامن بأى حال من الأحوال التغيير وينفذ التدمير الخلاق بالسرعة المطلوبة للعقد القادم. فهل ستقوم اليابان فى النهاية بعملية التكيف؟ يجب عليها. ولكن ذلك لن يتحقق بدون اضطرابات.

أما أمريكا فهى مجتمع فيه توافق شديد بين معاييرها الثقافية ـ المرونة والشفافية ـ ومعايير العمل التى تحظى بأعظم التقدير فى نظام العولمة ـ وهى المرونة والشفافية. وليس لدى اليابان هذا التوافق. فلديها تراث من السرية والغموض ونظام اشتهر بالصرامة. وكلما زاد التباين بين المعايير الثقافية للدولة ومعايير نظام العولمة، زادت شدة آلام التكيف معها. ففى العالم الإسلامى، سوف تسدل النساء الورعات النقاب الشخصى فوق وجوههن لكى يفصل بينهن وبين العالم. أما اليابان فهى جزيرة بأسرها ترتدى النقاب. إنه نقاب شديد الشفافية وأحياناً تصعب رؤيته، ولكنه موجود، ويحجب الكثير عن العالم أكثر مما يعتقد الزائر غير المدقق.

الصين أيضاً ستواجه عملية تكيف صعبة ـ لا لأسباب حضارية ولكن لأسباب سياسية. فالصين لديها الإرادة، ولكنها فقط لا تعرف الطريق. والخطأ الأكبر الذى يرتكبه الاستراتيچيون هو الاعتقاد بأن الصين سوف تنمو اقتصادياً وعسكرياً على خط مستقيم من المكان الذى تقف عنده الآن إلى نقطة تبعد عشرين عاماً من الآن، ويفترض أنها عندها ستنافس الولايات المتحدة وتصبح قوة عظمى نداً لها. لا أعتقد ذلك.

لا تفهمنى خطأ. فربما تصبح الصين على مدى عشرين عاماً قوة اقتصادية وعسكرية قادرة على منافسة الولايات المتحدة ـ ولكنها لن تصل إلى هذه النقطة فى خط مستقيم. فهناك نتوء ضخم يحد من السرعة على الطريق ويجب عليها اجتيازه أولاً. فما زال هناك الآن نحو 40 فى المائة من الاقتصاد الصينى يتكون من صناعات وبنوك مملوكة للدولة، والكثير منها مفلس أو غير منتج. والطريقة الوحيدة التى تستطيع بها الصين رعاية ملايين الصينيين الذين يعملون فى هذه الشركات هى خصخصتها، وإغلاق ودمج الشركات الضعيفة ثم توجيه رأس المال إلى الشركات التى تحقق الكفاءة والأرباح. والطريقة الوحيدة التى تستطيع بها الصين تنفيذ ذلك بدون إحداث موجة من البطالة على نطاق واسع هى جذب استثمارات أجنبية مكثفة.

وليس هناك من شك فى أن الصين قد اجتذبت الكثير من الاستثمارات الأجنبية المباشرة لمصانع ثابتة، ولكن عملتها ليست قابلة للتحويل بالكامل، وليس لديها سوق للأسهم أو السندات يستطيع الأجانب اللعب فيها بحرية. وما زالت الصين تأخذ بالرأسمالية المتهاونة، التى بدأت فى العمل على طرد الكثيرين من المستثمرين الأجانب. هذا بالإضافة إلى أن الحزب الشيوعى فى الصين يدير أساساً سلسلة من الأعمال التجارية والخطط الفاسدة ليحتفظ لنفسه بقدر جيد من التمويل والحماية. وقد تركزت الأضواء فى أكتوبر 1998 على مثال واحد لهذا الفساد الرسمى واسع النطاق فى الصين، فى تقرير عن مشتريات دولة الصين من الحبوب. وقد كشف هذا التقرير عن تخصيص 65 مليون دولار لشراء الحبوب من المزارعين منذ عام 1992، ثم اختفاء 25 مليون دولار منها، أى نحو 40 فى المائة. تقول مجلة ***تايم*** (عدد 2 نوفمبر 1998) لقد اكتشف المحققون أن المسئولين فى الحكومة أنفقوا معظم الأموال المفقودة فى مظاهر الرفاهية، والصفقات التجارية المستقبلية، والمشتريات من السيارات والتليفونات المحمولة. ويتمثل المأزق الذى تمر به الصين فى أنها لا تستطيع جذب رأس المال الكافى من القطيع الإلكترونى لتحويلها إلى نصف الاقتصاد الصينى المملوك للدولة المفلس، دون تحديث نظام التشغيل لديها برمته من نظام تشغيل رأس المال 1.0 إلى 6.0، وأيضاً دون إدخال برمجيات لحكم القانون الحقيقى. وذلك سوف يتصادم ويتناطح مع عادات ومصالح الحزب الحاكم الفاسد فى الصين.

ولهذا السبب فأنك لا تستطيع رسم خط مستقيم من النقطة التى تقف فيها الصين اليوم إلى النقطة التى تريد الوصول إليها فى عشرين عاماً ثم تفترض فقط أنها سوف تصبح نظاماً سلطوياً أكثر وأكثر ثراء مع استمرار الحزب الشيوعى الحاكم على ما هو عليه اليوم. هذا هراء. فعند نقطة معينة، إما أن لا تصبح الصين أكثر ثراء وإما أن لا تكون دولة سلطوية كما هى الآن، ولكن شيئاً ما سيحدث، لأن ما تستطيع الحكومة

الصينية الفرار به الآن يختلف أشد الاختلاف عما تستطيع الفرار به إذا تكاملت تماماً مع القطيع. أما أولئك الذين يعتقدون عكس ذلك فيرتكبون خطأ الاستماع كثيراً للقادة الصينيين، ولا ينظرون إليهم ولا إلى التحديات الهائلة التى ستواجهها الصين فى إطار نظام العولمة. ولن يكون التحول فى الصين عملية يسيرة. فعندما يصطدم 1.2مليار نسمة يسيرون بسرعة 80 ميلاً فى الساعة بنتوء الحد من السرعة، فسوف يختل توازن العالم بأسره.

ويصدق هذا على روسيا بل وأكثر من ذلك، لأنها تنطلق من قاعدة تنخفض كثيراً عن الصين واليابان.

بلا شك، تظل روسيا دولة شديدة التسلح، ولديها أسلحة نووية. ولكنها الآن بعد أن تكاملت مع نظام العولمة، فإن ضعفها، وليس قوتها، هو الذى يمثل خطراً مباشراً للاستقرار العالمى، وسوف يظل كذلك لبعض الوقت. فعندما تهاوى الاقتصاد الروسى فى أغسطس 1998، أطلق تأثيراً مالياً ضاراً تسبب فى خسائر للمؤسسات المالية الغربية فى شهر واحد يفوق سبعين سنة من الشيوعية الروسية. غير أن بعض السياسيين والمحللين للسياسات الخارجية وقعوا فى حب الحرب الباردة إلى درجة أنهم لا يستطيعون رؤية روسيا اليوم إلا كاتحاد سوفيتى ولا النظام الدولى اليوم إلا كحرب باردة. ومما يثير الدهشة أن يرى المرء ألمانيا النازية، التى شنت حرباً ضد العالم وقضت على ستة ملايين يهودى، قد تحولت فى جيلين إلى ديموقراطية مزدهرة تعتبر من أكثر الديموقراطيات حيوية فى العالم. ولكن ما زال أنصار الحرب الباردة يعاملون روسيا كدولة غير قادرة على التغيير وأنه مقدر لها بالفطرة أن تظل العدو السياسى الجغرافى لأمريكا ـ إلى الأبد.

كلا، يجب علينا أن لا نعامل روسيا الآن مثل كندا، لمجرد أنها نظمت انتخابات واحدة ولأن بوريس يلتسين تعلم كيف يعتلى موجه الإنترنت. إنها دولة كبيرة، ولها

تاريخ كبير، وبها مخزون كبير من الأسلحة النووية، وسوف تستمر فى تنافسها مع الولايات المتحدة على النفوذ، مثل أى قوة كبرى. ولكن ذلك يصدق أيضاً على فرنسا. إن روسيا لم تعد هى الاتحاد السوفيتى. إنها أمة تمر وسط مرحلة انتقالية غير مؤكدة تجرى فى إطار نظام دولى شديد الاختلاف. قد تكون روسيا غير قادرة على إنجاز التحول إلى نظام تشغيل رأس المال 1.0، ناهيك عن نظام تشغيل رأس المال 6.0، ولكنها ليس مقدراً لها أن لا تتمكن من ذلك، وكما هو الحال مع الصين واليابان، لنا فى المرحلة الانتقالية الروسية مخاطر كبيرة ـ لا نستطيع أن نحددها، ولكننا نستطيع التأثير فيها. وهذا هو سبب معارضتى لتوسيع حلف شمال الأطلنطى (الناتو NATO). ففى نظام العولمة، تعتبر أخطر المشكلات التى تهدد الولايات المتحدة هى مبيعات الرؤوس النووية فى السوق السوداء، وتخفيض الصورايخ النووية الاستراتيچية، والانحطاط البيئى، واحتواء الدول المارقة مثل العراق أو كوريا الشمالية، والفيروسات المالية. ولا تستطيع الولايات المتحدة التصدى لهذه المشكلات بفاعلية بدون تعاون مع دولة روسية مستقرة وديموقراطية بدرجة معقولة. ولذلك يجب أن يكون أهم أولوياتنا حشد التعاون الروسى معنا وفعل كل ما بوسعنا من أجل دفع الإصلاح السياسى هناك ـ وليس توسيع الناتو الذى لن يؤد إلا إلى تقويض التعاون مع موسكو.

فى مطلع عام 1998، كنت جالساً فى مكتب كاريل كوڤوندا نائب وزير خارجية جمهورية التشيك فى براج. وفى أثناء شرحه شديد البلاغة للسبب فى ضرورة توسيع الناتو ليضم جمهورية التشيك، حكى لى مازحاً كيف أن العولمة تؤثر فى الحى الذى يسكنه، وفى جمهورية التشيك بوجه عام.

قال كوڤوندا: «إننى أجد متعة فى المناخ الدولى الذى أصبح لدينا هنا الآن بعد أن انتهت الحرب الباردة وانفتحت جمهورية التشيك على العالم. فطفلى يذهب إلى حضانة مع طفلة صغيرة من كوريا وأطفال من كرواتيا والبوسنة. والآن أشترى بقالتى

من منتجات صينية تباع عند الخضرى المجاور. ولكن الجانب السلبى فى الأمر هو أن هناك بعض أعضاء المافيا الأوكرانيين يسكنون فى المبنى المجاور. كل ذلك يحدث فى ضاحيتى الصغيرة خارج براج. كما أن هناك بعض الشكوك والإنزعاج المتزايدين هنا إزاء الزيادة الخطيرة فى عدد الأجانب الذين يعيشون الآن فى هذا البلد بصورة غير قانونية، ويعملون فى هذا البلد بصورة غير قانونية، ويتاجرون فى هذا البلد بصورة غير قانونية، ويقومون بالأعمال هنا فى هذا البلد بصورة غير قانونية ـ سواء فى المناطق الريفية أو فى قلب العاصمة براج ذاتها. إنك تجد العولمة بجانبيها فى جمهورية التشيك اليوم، وبما أننا نقع على مفترق الطرق فى أوروبا فإننا نكون أول محطة لكثيرين من المهاجرين غير القانونيين من الشرق إلى الغرب، ومع ذلك، فإنه من الناحية الأخرى، ما زالت حدودنا مع ألمانيا حتى الآن أقل انفتاحاً. ويوجد فوق مكتبى تقرير شديد السرية حول الجريمة الدولية المنظمة والأنشطة الإجرامية فى هذا البلد. ففى الماضى وفى ظل الحكم الشيوعى لم يكن الكثير من ذلك ليحدث قط. وعندما كان الشيوعيون فى السلطة هنا كان يتعذر عليك، فى معظم الأحوال، الحصول على تأشيرة دخول إلى هذا البلد أما الآن فإنك حتى لا تحتاج إلى تأشيرة دخول. إذ إن مكمن الخطر هنا فى تهريب أجزاء من أسلحة نووية ومادة انشطارية. لقد ألقينا القبض على أشخاص يهربون مادة انشطارية من أماكن تقع فى شرقنا وجنوبنا. تلك هى أنواع الأخطار التى لا يقدر مداها السكان بوجه عام .... ».

أومأت برأسى موافقاً، وعازفاً عن سؤاله عما يعتقد أنه مصدر تسرب كل هذه المادة الانشطارية الخطيرة، وماذا ينوى لحل هذه المشكلة، فى حين تستبعد روسيا عن طريق توسيع حلف الناتو.

ما زال هناك فى روسيا والصين واليابان زعماء من جيل الحرب الباردة يحاولون إدارة الفترة الانتقالية إلى حقبة العولمة، وهم ببساطة فى كثير من الأحوال ليس لديهم

الأدوات. وربما يكون علينا انتظار أن يصل إلى السلطة فى تلك الدول من يطلق عليهم روبرت هورماتس اسم «جيل الألفية» ـ أولئك الذين سينضجون فى نظام العولمة ـ وذلك قبل أن يحدث تحول إلى الاتجاه العكسى قادر على الاستمرار. يقول هورماتس: «عندما يسألنى الناس، 'كيف يتسنى بحق السماء إحداث تغيير سياسى فى روسيا؟' كنت أجيبهم دائماً بأن تلك عملية تستغرق تسعة أشهر ثم ـ بعد ذلك ـ واحداً وعشرين عاماً. وتعتبر روسيا فى وسط تلك العملية الآن».

وما يثير القلق هو ما يحدث فى غضون تلك الفترة، ونحن فى انتظار هذا الجيل الجديد. لقد أجريت، فيما سبق، مقارنة بين الشركات والدول، وهناك الكثير من التشابه فى هذه المقارنة. ولكن هناك طريقة واحدة لن تتشابه فيها الدول والشركات على الإطلاق. فالشركات قد تزدهر وتخفق وتسقط وتختفى. أما الدول فقد تزدهر وتخفق وتسقط ـ ولكنها نادراً ما تختفى. إنها بدلاً من ذلك، تظل قائمة هناك دولاً ضعيفة. تخيل مثلاً أن تفلس شركة آى بى إم، ومع ذلك تظل فى السوق، بكل مندوبى مبيعاتها ومديريها بدون حصولهم على مرتباتهم، وتبيع أجزاء أجهزة الكمبيوتر فى السوق السوداء، وتحاول أن تغش زبائنها القدامى وتحاول إثبات استمرار وجودها فى هذه السوق بإلقاء العراقيل أمام كل ما كان يقوم به منافسوها القدامى.

وثمة سبب واحد لانزلاق حقبة العولمة، فيما قبل عام 1914، إلى هوة الحرب العالمية الأولى وهو أن إمبراطورية النمسا والمجر، التى كانت أحد اللاعبين الأساسيين فى نظام توازن القوى الأوروبى فى تلك الفترة، عانت من ضعف طويل وبطئ فى قوتها اكتسب قوة دافعة فى الفترة ما بين عامى 1909 و 1914. فقد أدركت إمبراطورية النمسا والمجر أنها بسبيلها إلى الخروج من سباق القوى الكبرى اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً. وبدلاً من أن تعانى من ذلك الإذلال فى هدوء، تصرفت مثل الرجل المسلح الذى وجد نفسه وسط مقامرة للبوكر لا يستطيع الفوز فيها. فيقلب

منضدة اللعب ثم يأخذ فى إطلاق النار. وفى حالة إمبراطورية النمسا والمجر، فقد تحالفت مع ألمانيا للقضاء على صربيا فى حرب محلية، وهى تعلم أن ذلك قد يشعل حرباً عالمية مع روسيا.

عندما تتمرد الصرب وألبانيا والجزائر، فقد تختلط الأمور، غير أن ذلك لن يهدد النظام برمته. ولكن ما لا نعرف عنه شيئاً هو ما يحدث عندما تضعف دول كبيرة مثل روسيا أو اليابان أو الصين فى حقبة العولمة وتظل مع ذلك محتفظة بقوة عسكرية من النظام القديم. فهل يستطيع أولئك الذين يتعذر عليهم صنع شذرة الكمبيوتر الدقيقة أن يصنعوا المتاعب؟

إنها فقط مفرطة فى الاتصال

هناك طريقة أخرى يمكن فيها للعولمة أن تهدد العولمة وذلك عندما يصبح النظام ذاته مفرطاً فى الاتصال، ويربط العالم بعضه ببعض بإحكام شديد، إلى درجة أن الجماعات الصغيرة من الناس ـ سواء كانوا من المستثمرين أو من الرجال الغاضبين الذين اكتسبوا قوة عظمى ـ تستطيع تهديد الصرح بأسره بتجاوزاتها. فإذا تحدثت إلى البنوك الاستثمارية فى وول ستريت اليوم فسوف يقولون لك إن الشىء الذى باغتهم تماماً فى انهيار السوق فى شهرى أغسطس وسبتمبر 1998 ، هو أن مدى ما وصل إليه النظام من اتصال كان أكبر من إدراكهم. فلم يكن هناك من نماذج الأخطار لديهم ـ التى كانت تقوم على أساس العلاقات المتبادلة القديمة بين الاستثمارات وأحداث معينة ـ ما تنبأ بمثل سلسلة ردود الأفعال التى هزأت فى عام 1998 بمفهوم التنوع فى الاستثمار برمته. ذلك أنه سرعان ما اكتشفت الشركات ـ التى ظنت أنها نوعت فى استثمار أموالها بأدوات مالية مختلفة، واستحقاقات أجل مختلفة، وعملات مختلفة، وفى أسواق مختلفة، وفى دول مختلفة ـ أن كل استثماراتها كانت جزءاً من سلسلة

كبيرة واحدة متشابكة لم يستطيعوا الفكاك منها عندما بدأ انهيار الأسواق. فقد كانت كل حلقة من حلقات هذه السلسلة تشد الأخرى إلى أسفل. وبفضل العولمة أصبحت هذه السلسلة تمتد أطول وأطول، وتضيق أكثر وأكثر كل يوم، والحقيقة التى تثير الفزع هو أننا ما زلنا لا ندرك تماماً معنى أن نكون على هذا النحو من الاتصال أو كيف نحمى أنفسنا عندما تضعف إحدى هذه الحلقات.

ولا ينطبق ذلك الاتصال المتبادل على الأسواق المالية وحدها. تأمل فى جرثومة الكمبيوتر Y2K لهذه الألفية. فهذه المشكلة ترجع إلى الخمسينيات حينما كتبت للمرة الأولى برمجيات الكمبيوتر وكان لأجهزة الكمبيوتر طاقات محدودة على التخزين فى الذاكرة بحيث لم يرغب المبرمجون فى إهدارها بأشياء مثل التواريخ ـ وكان عام 2000 يبدو لهم بعيداً جداً. وحتى يتسنى توفير أماكن على بطاقات التخريم التى كانت تستخدم فى برمجة الكمبيوتر فى تلك الأيام، وضع للتواريخ مكان ستة أرقام فقط ـ اثنان لليوم واثنان للشهر واثنان، كما توقعت أنت، للسنة. لقد ظل هذا النوع من الممارسة جزءاً لا يتجزأ من البرمجيات على مدى سنوات إلى أن قارب القرن على الانتهاء، وأدركت الشركات أن تلك قد تصبح مشكلة. وهكذا فإننا عندما ننتقل من يوم 12/31/99 إلى يوم 01/01/2000 فإن الكثير من أجهزة الكمبيوتر لن تسجل ذلك على أنه 01/01/2000 بل على أنه 01/01/00 وسوف تعتقد أن عام 1900 جاء مرة أخرى من جديد. والنتيجة هى أن بعض أجهزة الكمبيوتر سوف يتجمد نشاطها، وبعضها سوف يقدم إجابات خاطئة، وبعضها الآخر سوف يصدر تعليمات خاطئة. وفى حين أن معظم أجهزة الكمبيوتر فى الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغنية المتقدمة ستعمل على نحو صحيح، فإن ما لسنا متأكدين منه تماماً هو ما سيحدث فى محطات القوى وإمدادات المياه ونظم التحكم فى حركة الطيران التى تدار جميعاً بالكمبيوتر فى الدول الأقل تقدماً التى تتصل بها أمريكا وغيرها من الدول. فماذا سيحدث عندما

يحاول الاحتياطى الفيدرالى القيام بأعمال مع البنك المركزى فى باكستان؟ وماذا سيحدث لأجهزة الكمبيوتر فى طائرات إيروفلوت الروسية للركاب التى تغادر موسكو ليلة 31 ديسمبر 1999، وتهبط فى مطار جون فيتزجيرالد كينيدى صباح يوم الأول من يناير 2000؟ إنك قد لا تتمنى أن تكون بالقرب من مهبط الطائرات فى ذلك اليوم.

ومع ذلك فإن اجتياز أزمة الأول من يناير 2000، قد لا يعنى انتهاء مشكلات أجهزة الكمبيوتر لدينا. تأمل فقط هذه الحقيقة: عندما يحدث انفجار نووى بعيد فى الفضاء، فإنه يطلق شحنة كهربائية مغناطيسية هائلة. فإذا حاول أحد الإرهابيين، أو إحدى الدول المارقة، أن يفجر ولو تفجيراً نووياً صغيراً فوق سماء أمريكا فقد يؤدى إلى تجميد نشاط كل أجهزة الكمبيوتر فى البلاد ويجعلها غير قادرة على العمل بصورة تبدو معها جرثومة Y2K وكأنها يوم تقضيه على الشاطئ. وقد شرح تيم وينر تلك الظاهرة فى كتابه *Blank Check* عن أسرار برامج الحكومة الأمريكية، فقال: «إن انفجار رأس نووية على بعد 300 ميل فوق مدينة أوماها سوف يضرب الولايات المتحدة فى التو من الساحل إلى الساحل بموجة مد من الإلكترونات المشحونة. وسوف يحدث لكل نظام إلكترونى، وكل إرسال لاسلكى، وكل بنك يعمل بشبكة كمبيوتر فى البلاد ما يشبه ضربة صاعقة مضاعفة مليون مرة. وسوف يحدث ارتفاع هائل فى التيار الكهربائى يصل إلى 50 ألف ڤولت فى كل متر من الأسلاك التى تربط الأمة بأسرها. لقد اكتشفت هذه الظاهرة فى عام 1962، عندما أجرت الولايات المتحدة ثلاثة تفجيرات نووية فى أعالى المحيط الهادى. وعلى الرغم من أن هذه التجارب حدثت على بعد 800 ميل من هاواى فقد أظلمت الأضواء فى شوارع أواهو وانطلقت أجهزة الإنذار ضد السرقة فى هونولولو».

وتظل آثار هذه النبضة الكهربائية المغناطيسية، على عكس مشكلات جرثومة Y2K، حسبما يقول وينر مشكلة «المعروف غير المعروف» ـ أى المشكلة المعروف بوجودها ولكن غير المعروف الحلول لها.

إنها فقط مفرطة فى اقتحام حياتك

حسبما أشرت من قبل يتمثل أحد الجوانب الإيجابية فى العولمة والقطيع الإلكترونى فى أنهما يشجعان على الشفافية فى المعاملات المالية. وما على الدول والشركات على السواء التى تريد الالتحام بالقطيع إلا أن تكشف للسوق عن أشياء كانت فى الماضى تستطيع إخفاءها. وكما أن الدول والشركات لا تجد مكاناً لتختبئ فيه فكذلك يتزايد عدم وجود مكان لكى يختبئ فيه الأفراد. إن كل اتصال تليفونى تجريه، وكل فاتورة تدفعها، وكل دواء تشتريه، وكل شريط فيديو تستأجره، وكل رحلة جوية تقوم بها، وكل آلة نقود تتعامل معها، كل ذلك يسجل هناك فى مكان ما فى جهاز كمبيوتر للقطيع الإلكترونى، وليست لديك أدنى فكرة عن الوقت الذى يبرزها فيه لكى يطاردك. لتكن لك علاقة عاطفية مع رئيس الولايات المتحدة وسوف تجدين أن المدعى الخاص قد يتعقب فى يوم ما كل مكالمة تليفونية أجريتها معه وكل ربطة عنق اشتريتها ودفعت ثمنها ببطاقة الائتمان. هل تشاهد موقع الصور العارية على الشبكة «الجنس الساخن» ؟حسناً، تذكر فقط: أنك عندما تشاهد الكثير من المواقع على الشبكة اليوم فإنها مصممة بحيث تترك وراءك أوتوماتيكياً ما يعرف باسم «قطعة الحلوى a Kookie» . إنها عبارة عن بصمة إصبع إلكترونية يمكن تتبع أثرها إلى أن تصل إلى جهاز الكمبيوتر عندك. والتجار الذين يستخدمون الخط المتصل بالشبكة يحبون قطع الحلوى هذه، لأنها تتيح لهم تعقب آثار من يشاهدون مواقعهم ثم يرسلون إليهم كل أنواع العروض فى عمليات تسويق مباشرة. وليست لديك أدنى فكرة عن أن بقايا هذه الحلوى التى تركتها وراءك سوف تظهر فى يوم من الأيام فى قاعدة بيانات قد يتوافر لأى إنسان حرية الوصول إليها.

هل تقول إن ذلك لا يقلقك؟ إذن تأمل ما يلى: فى عام 1998 شاهدت إعلاناً تليفزيونياً عن شيء يسمى «جارد دوج أو كلب الحراسة» ـ وهو عبارة عن برمجيات

توفر الأمان والتجفير لشبكة الإنترنت فى جهاز الكمبيوتر المنزلى لديك وللموقع الخاص بك على الشبكة. يبين الإعلان أحد الأشخاص ينظر متلصصاً من مصراعى النافذة المغلقة ثم صوت يقول: «الإنترنت هى نافذتك على العالم»، ولكنها قد تكون أيضا «نافذة تطل عليك». ولمنع حدوث ذلك، اشتر برمجيات «كلب الحراسة». «إنها تحميك من اعتلاء الشبكة لك». وبعد بضعة شهور، شاهدت خبراً على شبكة إيه بى سى ABC الإخبارية يوضح تماماً السبب فى أنك قد ترغب فى «كلب الحراسة». فقد جاء فى الخبر ما يلى: أسفرت نتيجة استطلاع للرأى على المستوى القومى أن «81 فى المائة من الناس يعتقدون أن المعلومات الشخصية الخاصة بهم مثل معدلات الائتمان والتاريخ الطبى والسجلات المالية غير آمنة». وأضاف التقرير أن ولايات مثل تكساس قد بدأت بالفعل فى عرض سجلات الجرائم فى هذه الولايات على خط الاتصال المباشر بالشبكة. ويمكن البحث فى سجلات الجرائم بولاية تكساس بواقع 3.15 دولاراً لكل اسم تبحث عنه. وهناك شركة أجنبية، تسمى پابليكداتا PublicData ومقرها أنجويلا بجزر الهند الغربية البريطانية، تشترى السجلات العامة بالجملة وتضعها على خط الاتصال المباشر بالشبكة فى قاعدة بيانات يمكن البحث فيها بمبلغ ضئيل لا يتعدى 3 سنتات لكل حالة بحث. وتعرض شركة پابليكداتا قائمة من السجلات، بما فى ذلك سجلات الجرائم، والفهارس لسجلات بعض المحاكم المحلية، وقوائم السجلات الانتخابية، وسجلات رخص القيادة وغيرها. ففى عصر الإنترنت، عصر آلات تسجيل المدفوعات النقدية المتصلة التى تسجل مدفوعات بطاقات الائتمان، وعصر أجهزة مثل TEMPEST(تكنولوچيا رصد انبثاق النبص الكهرومغناطيسى العابر (Transient Electromagnetic Pulse Emanation Surveillance Technology) ـ وهى مجموعة من أجهزة الاستشعار الإلكترونية التى تستطيع تسجيل محتويات أى شاشة كمبيوتر، مخترقة جدران، تقع على بعد نصف ميل ـ وقال مراسل شبكة

إيه بى سى. «لقد حل حق الإنسان فى الفضول محل حق الإنسان فى أن يحتفظ لنفسه بأسراره».

وأحياناً تخرج التكنولوجيا عن السيطرة. ففى ديسمبر عام 1998 ، ذكرت صحيفة *يو إس إيه توداى* أن جهاز الكمبيوتر الشائع الاستعمال المحمول الذى صمم لتخزين المواعيد والعناوين والمذكرات «يمكن إعادة برمجته بحيث يستطيع أن ينتزع أقفال السيارات عن طريق نسخ الشفرات من مفاتيح التحكم عن البعد، حسبما أكدت الشركة التى تقوم بتصنيعه. إن جهاز الكمبيوتر بالم Palm الذى يبلغ سعره 369 دولاراً يستطيع اعتراض إشارة الأشعة تحت الحمراء لقفل السيارة من مسافة تصل إلى 10 أقدام».

فإذا كانت تجربة العولمة بالنسبة للناس هى أنها شىء يقتحم حياتهم وخصوصياتهم أكثر من أن تكسبهم القوة التى تجعل العالم فى متناول يدهم، وإذا شعروا أن الشبكة تعتليهم أكثر من اعتلائهم هم للشبكة فإنهم سوف يقيمون فى نهاية الأمر أسواراً جديدة حولهم.

إنها فقط مفرطة فى ظلم أناس كثيرين

تحكى جوليا بريستون، مراسلة صحيفة *نيويورك تايمز* فى المكسيك فى أواخر التسعينيات، حكاية رائعة ترصد التوتر بين الفائزين والخاسرين من العولمة فى المكسيك.

تتذكر بريستون أنه «كان ذلك فى عيد العمال» عام 1996 ، وكانت هناك مظاهرة ضخمة فى مدينة ميكسكو سيتى. كان ذلك فى أول عام بعد انتهاء برنامج التقشف ومن ثم فقد كانت تلك مسيرة كبرى على غير العادة، تشارك فيها أعداد كبيرة من النقابات العمالية التى كانت مشاركة فى تحالف الحكومة والعمال والتى

تحدت الأوامر بحظر المظاهرات. كنت أسير وسط أعضاء نقابة اتحاد العاملين فى الجامعة التى كان لها تاريخ طويل من النشاط اليسارى، وكانوا بصفة خاصة يثيرون ضجيجاً وسط المظاهرة. كانوا ينشدون (مويرا أورتيز) ـ الموت لأورتيز وزير المالية. كانت أصواتهم مرتفعة وعدائية. وفى وسط هذه المظاهرة رن جرس تليفونى المحمول الموجود فى حافظتى وكان على الطرف الآخر سكرتير وزير المالية أورتيز، يبلغنى بأن وزير المالية يريد التحدث إلىّ. قلت له إن شدة الضجيج تمنعنى من الحديث من المكان الذى أقف فيه فى وسط المظاهرة، ومن ثم فقد سرت بعيداً عن الزحام نحو إحدى البنايات حتى أحظى ببعض الهدوء. وحتى أعطى لنفسى أيضاً بعض الوقت للاستعداد قبل التحدث إلى أورتيز. وهكذا عندما أمسك بالهاتف قلت له: 'سيدى الوزير، لابد أن أبلغك أن هناك عدداً كبيراً من الناس هنا لا يوافقون على سياساتك الاقتصادية' وسمعت ما يشبه الضحكة الخافتة وأدركت على الفور أنه غير مهتم. لقد طلبنى ليعلن ويحتفل بأول سند حكومى للمكسيك مدته ثلاثون عاماً. كانت تلك هى المرة الأولى، منذ انهيار العملة المكسيكية البيزو فى عام 1995، التى يطرحون فيها سندات طويلة الأجل فى وول ستريت، بدون أى مساندة أمريكية، وأنها حظيت باستقبال طيب. وهكذا فقد كان هو فى حالة نفسية رائعة ـ كان يحلق فى السماء ـ وكنت أنا أحدثه فى التليفون من وسط هذه المظاهرة التى كان المشاركون فيها يطالبون له بالموت».

قد ينجو أورتيز من مثل هذا اليوم ـ وقد تنجو العولمة من مثل هذا اليوم ـ طالما ظل هناك عدد كاف من الناس فى المكسيك يشعرون بأنهم يحققون من هذا النظام ما يكفى من المزايا لتحمل مساوئه. قد يخرجون أحياناً فى مظاهرات فى الشوارع للتنديد بسياسة أو لتقديم مطلب عمالى، ولكن هؤلاء العمال المكسيكيين لا يشاركون منظمة القائد ماركوس ورجال حرب العصابات فى منظمة زاباتيستا فى رغبتهم فى إبعاد المكسيك عن الاتصال بهذا النظام. حتى الآن.

يرجع ذلك، إلى حد بعيد، إلى أن القطيع الإلكترونى وأسواق السوبر ماركت، كانت رغم إنزالها العقاب بدولة مثل المكسيك، سريعة فى مكافأتها على تحسين أدائها ـ وذلك بمزيد من الشراء من المكسيك ومزيد من الاستثمار فى المكسيك، حالما قامت بترتيب بيتها من الداخل. والنمو الذى نتج عن ذلك هو الذى جعل أشباه أورتيز فى العالم لا يأبهون بالمطالبة بموتهم بل يقولون للعمال، «ما عليكم سوى أن تظلوا إلى جانبى فترة أطول قليلاً وأعدكم بأن كل ذلك سوف يعود إلى سيرته الأولى».

ولكن ماذا سيحدث عندما يحدث انكماش اقتصادى فى الولايات المتحدة وفى أوروبا الغربية فى آن واحد، ويستمر الركود الاقتصادى فى اليابان ويتعذر عليها دفع هذا الركود؟ قد يصاب القطيع الإلكترونى بالهزال، وبدلاً من أن يتمكن من مكافأة المكسيك أو البرازيل أو كوريا بشراء سنداتهم عندما يفعلون الصواب ـ عندما يطبقون الإصلاحات فى اقتصاداتهم وعندما يرتدون قميص القيد الذهبى ـ فقد يتعذر عليه القيام بأى شىء على الإطلاق. وبدلاً من أن تتمكن الولايات المتحدة وأوروبا الغربية من امتصاص كل صادرات الدول النامية، بحيث تبعث ماء الحياة فيها عن طريق الصادرات، فقد تستدرج هذه الدول المتقدمة إلى إقامة أسوار حمائية جديدة للحد من الواردات حتى تحافظ على أسواق العمل الآخذة فى التقلص فيها. فهل سيتمكن النظام من الصمود حينئذ؟ لا نعرف، لأننا لم نشهد فى العقد الأول من العولمة حقيقة هذا السيناريو. تقول صحيفة ***الإيكونوميست*** عن حق فى هذا الصدد (19 ديسمبر 1998) إنه لن يكون لدينا «اختبار سليم» لقوة نظام العولمة وقدرتها على الصمود وعدم التراجع إلا عندما نرى كيف يكون رد فعل هذا النظام فى مواجهة تدهور اقتصادى فى أسواق السوبر ماركت والدول المحورية تلك.

إنها فقط مفرطة فى خلع صفة

الإنسانية عن البشر

كنت أقود سيارتى ذات مرة على طريق الحزام الدائرى حول واشنطن عندما سمعت نبأ فى نشرة أنباء إذاعة WTOP شد انتباهى. ذكر هذا النبأ بكثير من التفاخر أنك عندما تتصل بشركة تليفزيونية معينة ترسل بطريق الكابلات فى نيويورك، فإنها تعرض عليك الاختيار التالى: «إذا أردت التحدث إلى أحد البشر، اضغط رقم 1».

إننى أضغط دائماً رقم 1. وسوف أضغط دائماً رقم 1. فى الواقع، إننى كلما تلقيت هذه الرسالة: «إذا لم يكن لديك خدمة التتش تون التليفونية Touch-Tone phone فلتكن على اتصال بالخط وسوف يساعدك المسئول عن التشغيل ....» ودائماً أظل متصلاً بالخط فى انتظار التحدث إلى المسئول عن التشغيل، رغم أن لدى خدمة التتش تون Touch-Tone. إن قدرتك دائماً على ضغط رقم1 شيء جوهرى لنجاح العولمة، فقدرتك الدائمة على الاتصال بالخط مع المسئول عن التشغيل شيء جوهرى لنجاح العولمة. فعند نقطة معينة تكون بحاجة إلى الشعور بأن هذا النظام أنشيء للبشر وليس للآلات، وإلا فسوف يؤدى إلى شعور عميق بالاغتراب.

ولكن ماذا سيحدث إذا لم يعد الضغط على رقم 1 أحد الاختيارات؟ ماذا سيحدث إذا أصبحت العولمة مفرطة فى التنميط، مفرطة فى خلع صفة الإنسانية عن البشر؟

زوج أختى، تيد سينشورى يعمل فى اختراع الأجهزة الطبية، ولديه ورشته الخاصة فى البدروم. وتيد ممن يقال عنهم أنهم ملح الأرض. ويصنع بيديه أجهزة معقدة ومتطورة دقيقة الصنع إلى حد مذهل. كنت أتحدث إليه ذات مرة فى إحدى الأمسيات عن التقدم الذى يحدث فى التجارة باستخدام الاتصال المباشر، عن طريق

الإنترنت، وتكنولوچيا الأقمار الصناعية وغيرها، وظل يومىء برأسه برهة من الوقت ثم قال فى النهاية، «أوف، ولكن أين جودة الحياة فى كل ذلك؟»

ثم شرع هو وأختى چين فى سرد موضوع كان يسبب لهما ضيقاً بالفعل. قال تيد: «فى الصيف من كل عام نذهب من منزلنا فى فيلادلفيا إلى ساوث چيرسى لشراء بعض المنتجات المحلية هناك، ولا سيما طماطم ثور چيرسى. وهى نوع من الطماطم كبيرة الحجم المليئة بالعصير المفعم بالنكهة. فهناك شىء ما فى تربة ساوث چيرسى الرملية، فى الطريقة التى تحتفظ بها بالمياه، يناسب حقيقة زراعة الطماطم والذرة السكرية (الشامية)، ولهذا تشترى مطاعم كامبلز الطماطم التى تستخدمها فى الحساء الخاص بها من صغار المزارعين هناك. ولكن هناك مشكلة كبيرة بالنسبة لهذه الطماطم وهى أنها سريعة الفساد أثناء نقلها، ولذلك فليس هناك من يبيعها فى السوق العالمية. كما أنها تأتى على أشكال وأحجام مختلفة وبها تلك الشقوق القبيحة فى أعلاها. ولكن طعمها مذهل. وقد اعتدنا الخروج فى رحلة خاصة إلى أسواق المزارعين فى ساوث چيرسى لكى نشترى الطماطم بالرطل. ثم نأتى بها إلى المنزل ونضعها فى السلطة أو نطهيها لتصبح صلصة طماطم. ولدينا أصدقاء أكلوا الكثير منها مرة واحدة لدرجة التهاب شفاههم من الحمض الموجود بها. فأنت تنسى أن الطماطم من الثمار، ولكن طماطم ثور ساوث چيرسى كانت من الحلاوة بحيث يشبه مذاقها مذاق الفاكهة. حسناً، فى صيف عام 1997، عندما ذهبنا فى رحلتنا السنوية لشراء الطماطم، لاحظنا أنه يصعب العثور عليها. ثم فى صيف عام 1998، ذهبنا إلى أسواق المزارعين لشراء بعض منها ولكنها كانت قد اختفت. اختفت هكذا. وظهر بدلاً منها فى أسواق المزارعين نوع من الطماطم وكانت جميعها فى حجم واحد ولونها أحمر وردى ومذاقها شمعى. وفى أحد أسواق المزارعين تلك فتح أحدهم المبّرد الخاص به لنا وبه صناديق كثيرة مرصوص بداخلها حبات هذا النوع من الطماطم بعناية. وقال لنا

إن هذا الصنف الجديد يمكن تخزينه لفترة أطول وشحنه إلى أماكن أبعد. كانت جميعها حبات متشابهة ولم يعد بها تلك التشققات. ثم قال، 'إن الزبائن لا يحبون التشققات'. إن منظرها قبيح».

انضمت أختى إلى الحديث عند هذه النقطة، وقالت: «والأسوأ، هو أنهم ما زالوا يطلقون على تلك الطماطم المصنوعة فى المعامل «ثور چيرسى». وبعبارة أخرى، إنهم تخلصوا من الطماطم ولكنهم احتفظوا باسم الماركة، لكى يستطيعوا بيعها فى أنحاء العالم على أنها طماطم ثور چيرسى، حتى وإن كانت ليس لها الشكل أو المذاق نفسه! لقد أصابنى الموضوع برمته بالاكتئاب العميق. لقد شعرت بأن شيئاً كان جزءاً حقيقياً من جودة حياتى قد ضاع إلى الأبد، وأنا ما زلت فى ريعان شبابى وعلى أن أظل بقية عمرى أتناول غذاء بلاستيكياً».

فى نهاية حديثنا، قال لى زوج أختى، «إن أول شىء عنّ لى بعد عودتنا من الرحلة، بعد أن اكتشفنا أنهم لم يعودوا يبيعون الطماطم التى نحبها، هو أن أذهب إلى الإنترنت وأبدأ فى البحث عن طماطم ثور چيرسى لكى أعرف إن كان هناك من يزرع حتى الآن تلك الطماطم الحقيقية. لابد أن يكون هناك من يفعل ذلك».

وبالفعل كانت غريزة تيد على صواب. فإذا كانت هناك سوق لها، وما زالت بذورها موجودة، وهناك من يستخدم الإنترنت من المزارعين، وله موقع على الشبكة ـ www.tomatoes.Jerseybeefsteaks.com ـ ولديه حساب فى فيديرال إكسبريس، وبطاقة ڤيزا ، فمن المؤكد أنه سوف يقيم سوقاً فعلية للمزارعين حيث يكون من اليسير التقدم بطلب لشراء طماطم ثور جيرسى الأصلية عن طريق جهاز الكمبيوتر الشخصى فى منزلك، وتقييدها على بطاقة الفيزا عندك. بحيث تصل إليك عن طريق شركة فيدإكس فى اليوم التالى ـ وأنا آمل على الأقل أن يحدث ذلك.

وقد يتوقف مستقبل العولمة على ذلك!

ولسوف تكون الطريقة التى نتعلم بها كيف نحدث التوازن الصحيح بين ما هو كامن فى العولمة من عوامل لإكساب القوة والإنسانية وما هو كامن فيها من عوامل انتزاع القوة والصفة الإنسانية هى التى تحدد، هل هى قابلة للرجوع عنها أم غير قابلة، وهل هى مرحلة عارضة أم ثورة جذرية فى تطوير المجتمع البشرى.

فى يوليه 1998، نشرت صحيفة **نيويوركر** رسماً كاريكاتورياً يظهر اثنين على شاكلة زبانية جهنم ذوى شعور طويلة ولحيات مشعثة، الأول يرتدى جمجمة وعظمتين متقاطعتين وتى - شيرت، والثانى يجلس على دراجته البخارية. وكان من الواضح أن كلاً منهما يسأل الآخر عما صادفه فى يومه هذا. يقول أحد زبانية جهنم فى النهاية للآخر: «كيف كان يومى؟ قضايا التقدم لها قصب السبق على قضايا التدهور».

وهذا هو الحال مع العولمة. فالعولمة دائماً فى كفتى الميزان، إما أن ترجح هذه الكفة أو تلك. ووظيفتنا كمواطنين فى العالم هى التأكد من أن أغلبية الناس يشعرون دائماً أن قضايا التقدم لها قصب السبق على قضايا التدهور. حينئذ فقط سوف يكتب للعولمة الاستمرار. وليس هناك من أمة تتحمل المسئولية ولديها الفرصة لضمان ذلك أكثر من الولايات المتحدة الأمريكية.

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90

الفصل الثامن عشر

ثمة طريق للتقدم إلى الأمام

إذا تعذر على مجتمع حر مساعدة الكثرة من فقرائه، فإنه يتعذر عليه إنقاذ القلة من أغنيائه.

– جون ف. كينيدى

فى شتاء عام 1996، صحبت مادلين أولبرايت التى كانت تشغل فى ذلك الوقت منصب سفير الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة فى رحلة إلى مناطق الحروب فى أفريقيا التى تنتشر فيها قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام. شملت جولتنا تلك كلا من ليبيريا، وأنجولا، ورواندا، وبوروندى التى تندلع فيها الحروب الأهلية. وفى أثناء توقفنا فى رواندا، وهى آخر محطة لنا فى هذه الجولة، طلبت أولبرايت إلى مساعديها وطاقم طائرتها التابعة للسلاح الجوى بوينج 737 التوقف لالتقاط صورة على ممر الطائرات فى مطار كيجالى الدولى. كانت طائرتها مطلية باللونين الأبيض والأزرق، مثل نموذج مصغر من طائرة السلاح الجوى الأمريكى رقم واحد الخاصة بالرئاسة الأمريكية، وتزينها الكلمات «الولايات المتحدة الأمريكية». وقف مساعدو أولبرايت وطاقم الطائرة على السلم وتحت أجنحة الطائرة. وكان من بينهم أمريكى يونانى، وأمريكى تشيكى، وأمريكيون يهود، وأمريكيون سود، وأمريكيون بيض. وكان من بين طاقم السلاح

الجوى الأمريكى رجال من بلدات صغيرة وخبراء وزارة الخارجية من خريجى كليات آيفى ليج Ivy League، وكانوا جميعاً يقفون متراصين كتفاً لكتف. وبما أننى صحفى فى هذه الرحلة، فقد ظننت أنه لا مكان لى فى الصورة، ولذلك وقفت فى الجانب بعيداً وأخذت أرقب الرواندييين من العاملين فى المطار وهم يشاهدون عملية التقاط الصورة الأمريكية. كان فى نظرة الرواندييين شىء من الفضول. ولم أستطع أن أمنع نفسى من التساؤل عما يفكرون فيه إزاء هذا المشهد الذى يمثل أمريكا أفضل تمثيل: روح المجتمع، وبوتقة الانصهار، والرغبة فى مساعدة غرباء يعيشون على البعد فى وقت حاجتهم، والحرية والفرصة لكل فرد لكى يشق طريقه نحو القمة، والأهم من ذلك مفهوم المواطنة الذى يستند إلى الولاء لفكرة، وليس لقبيلة. إنها صورة تمثل كل ما تفتقر إليه رواندا. وكانت رواندا قد خرجت من توها من عربدة حرب قبلية ـ أفراد قبيلة الهوتو الرواندية ضد أفراد قبيلة التوتسى الرواندية ـ قتل فيها مليون شخص، بعضهم قطعوا إرباً فى وحشية بالمناجل. كانت رواندا كلها أشجار زيتون ولا أثر للسيارة ليكساس فيها، دولة كلها جذور نكدة تخنق بعضها بعضاً، ولا أثر فيها للفروع المزهرة.

بدأت أشعر بالغضب وأنا أرقب هذا المشهد على الممر ـ لا بسبب المأساة فى أفريقيا فحسب ـ بل أشعر بالغضب إزاء الحوار الذى كان دائراً حول الميزانية حينئذ فى الكونجرس الأمريكى. بدا لى فى ذلك الوقت، بل وأكثر الآن، أن هناك شيئاً شديد الخصوصية يميزنا فى أمريكا. ولكن إذا كان لنا أن نحافظ عليه، فلا بد لنا من دفع ثمنه، ولا بد لنا من احتضانه ورعايته. ولكننى حينما استمعت فى ذلك الوقت إلى طبقة الأعضاء الجدد فى الكونجرس من الجمهوريين سيئى السمعة فى عام 1994، استمعت إلى أصوات تفتقر أرواحها إلى الصفات الإنسانية السامية، أصوات لا يعنيها أى نوع من أنواع الحلول الوسط، أصوات كانت الحكومة الأمريكية بالنسبة لها أقرب إلى العدو الشرير . وسمعت أصوات رجال ونساء يصرون على أن يكون الحكم للسوق

وحدها، وظنوا أنه يكفى أن يكون المرء على حق إزاء القواعد الاقتصادية للسوق الحرة والعولمة، وما عدا ذلك يترك وشأنه. وسمعت مشرعين للقوانين يبدو أنهم يؤمنون بأن أمريكا لا تقع على عاتقها مسئولية خاصة إزاء الحفاظ على المؤسسات العالمية، مثل الأمم المتحدة والبنك الدولى وصندوق النقد الدولى، التى تعتبر عنصراً جوهرياً فى المحافظة على استقرار نظام دولى تستفيد منه أمريكا أكثر من أية دولة أخرى.

وفيما كنت أفكر فى كل ذلك قلت لنفسى، وأنا أقف على ممر الطائرات فى مطار كيجالى، «حسناً، يا أصدقائى الجدد من الجمهوريين تعالوا إلى أفريقيا ـ إنها الفردوس للجمهوريين الجدد». نعم يا سيدى، لا يوجد فى ليبيريا من يدفع الضرائب. ولا توجد سيطرة على الأسلحة فى أنجولا. ولا توجد رعاية اجتماعية كما نعرفها فى بوروندى، ولا حكومة كبيرة للتدخل فى السوق فى رواندا. ولكن الكثيرين من شعوبها يودون لو كان هناك كل ذلك. خذ عندك مثلاً، موظفة الاستقبال بالفندق فى لواندا عاصمة أنجولا، التى نظرت إلىّ وكأننى مجنون عندما سألتها إذا كان من المأمون أن أذهب فى الطريق الرئيسى الذى يبعد عن الفندق بثلاث عمارات فقط فى العاصمة الأنجولية وفى وضح النهار.

قالت وهى تهز رأسها، «لا، لا، لا. غير مأمون». إننى أراهن على أنها تود لو دفعت شيئاً من الضرائب مقابل زيادة عدد رجال الشرطة على الطريق. وهناك أيضاً مذيع الإذاعة الليبيرية الذى اقترب منى فى مونروفيا وطلب معرفة السبب فى أن مشاة البحرية الأمريكية جاءوا إلى ليبيريا بعد تفجر الحرب الأهلية فى عام1989، لإخلاء المواطنين الأمريكيين فقط تاركين الليبريين يتقاتلون وحدهم. قال مراسل الإذاعة الليبيرى، «لقد اعتقدنا جميعاً أنه ما دام مشاة البحرية قد جاءوا فقد كتبت لنا جميعاً النجاة. ولكنهم رحلوا بعد ذلك. فكيف لهم أن يرحلوا؟» يا للرجل المسكين! لا يوجد فى بلاده مشاة للبحرية لإنقاذه. وأراهن أنه كان على استعداد لدفع بعض

الضرائب مقابل وجود بعض الرجال الأكفاء. إنهم هناك فى ليبيريا لا يعبأون بوجود «حكومة كبيرة». ولا يهمهم فى كثير أو قليل أن تكون هناك حكومة، على الإطلاق - والفضل فى ذلك يرجع إلى العصابات وبارونات الحرب الذين سيطروا على الأرض طوال العقد الماضى. كلا، ربما لن يوجد فى ليبيريا بعد الآن من يهتم بالتعليمات الرسمية والإجراءات البيروقراطية للحكومة. والواقع أن التعليمات الوحيدة التى رأيتها فى المقر التنفيذى للحكومة فى ليبيريا هى لافتة معلقة على إحدى النوافذ المحطمة بطلق نارى عند الباب الأمامى، كتب عليها: «تجرد من سلاحك هنا».

ولا يشعر أصحاب العمل بالقلق على الإطلاق إزاء قواعد سلامة العاملين المزعجة فى أنجولا، ناهيك عن الخدمات المقدمة للمعاقين. ففيما يبدو أن السبعين ألف أنجولى ممن بترت أطرافهم بفعل الألغام الأرضية، التى زرعت على مدى الخمسة والعشرين عاماً الماضية من الحرب الأهلية، نجحوا فى الاعتماد على أنفسهم. إنك تستطيع أن تشاهدهم وهم يعرجون فى سيرهم هنا وهناك فى شوارع لواندا بطرق فيللينى الملتوية، يتدافعون من أجل الحصول على غذاء ويستخدمون أفرع الأشجار بديلاً عن الأعضاء البشرية. وفى رواندا وبوروندى، ليس هناك من يطالب بالدفع من أجل إحراز السبق أو التأمين ضد البطالة، أو البرامج التى تمولها الحكومة لعلاج غير القادرين أو برامج الخدمة الاجتماعية أو برامج قروض الطلبة. فلديهم بدلاً من ذلك، منافسة شرسة على الموارد الشحيحة من الأرض والطاقة والمياه، حيث يسعى رجال القبائل من الهوتو والتوتسى إلى تقليص حجم كل منهما للآخر لانتزاع مزيد من الموارد لقبيلتهم.

لقد قيل فى ذلك الوقت إن الأعضاء الجدد من الجمهوريين لم يشتركوا تقريباً فى رحلات للكونجرس. فقد كانوا يعتقدون أن ذلك سيبدو شيئاً سيئاً فى دوائرهم الانتخابية. بل لم يكن لدى معظمهم جوازات سفر. شىء مؤسف. كانوا يريدون الفوز

بكل الاحترام والمزايا التي تجيء لأنهم أشباه لمايكل جوردان فى مجال الجغرافية السياسية، ولأن كلاً منهم أمريكى فى نظام العولمة اليوم، ولكن بدون تقديم أى تضحيات أو التزامات مرتبطة بذلك ـ فى الداخل أو الخارج. كان عليهم المجئ إلى أفريقيا التى مزقتها الحرب للحصول على المذاق الحقيقى لما يحدث فى الدول التى تفتقر إلى الإحساس بالمجتمع، وتفتقر إلى الإحساس بأن الشعب يدين لحكومته بأى شيء، وتفتقر إلى الإحساس بأن هناك من هو مسئول عن الآخرين، وحيث يتحتم أن يعيش الأغنياء فيها خلف أسوار عالية ونوافذ ملونة، فى حين يعيش فيها الفقراء تحت رحمة السوق.

إننى لا أحب أن أعيش فى مثل هذه الدولة، ولا فى مثل هذا العالم. ليس لأنه خطأ من الناحية الأخلاقية، بل لأن الأمر يتزايد خطورة. ويجب أن يكون التوصل إلى طرق لاجتناب ذلك هو لب السياسات الداخلية والخارجية الأمريكية اليوم. والمؤسف، أنه لا الحزب الديموقراطى، ولا الحزب الجمهورى، قد انتهى تماماً من عملية التحول من نظام الحرب الباردة إلى نظام العولمة فى صياغة سياساته الخاصة. فكل منهما يتصرف وكأن العالم الآن آمن بالنسبة لنا بما يتيح لنا رفاهية الانعزال أو مناصرة كل موضوع بلا مبالاة. لقد بلغ الأمر إلى حد أنه لا توجد أى مناقشة جادة حول مصلحة قومية مشتركة اليوم، بل تدور كل المناقشات حول ما إذا كنا نستطيع تعريف التهديد المشترك الجديد وليس الرسالة المشتركة الجديدة. وما زال «العدو الأكبر» هو المبدأ الذى ينتظم الحركة الدولية الأمريكية، وليست «الفرصة الكبرى»، ناهيك عن «المسئولية الكبرى».

ولم يجرؤ الرئيس كلينتون حتى على شن حرب ضد صدام حسين، بعد استفزاز العراق الصارخ عشية مساءلة كلينتون، إلا بعد خوضه لمعركة سياسية شرسة وحقودة. وربما استفاد كلينتون من استفزاز صدام لتحويل الانتباه عن مشاكله الخاصة، ولكن

ما جعل هذا الهجوم ممكناً هو استفزاز صدام وتوقيته. وفى اعتقادى أن صدام كان يعرف تماماً ماذا يفعل عندما اختار هذه النقطة الضعيفة فى الحوار الدائر حول مساءلة كلينتون حتى يستفز أمريكا. وكان صدام يجلس هناك فى بغداد يشاهد الشبكة الفضائية سى إن إن الإخبارية، ويقول لنفسه، «يا لها من لحظة مناسبة تماماً لتحدى أمريكا ـ لحظة لم تعد تعرف فيها حتى ما هو دورها فى العالم».

إن أمريكا لديها مصلحة قومية مشتركة تسعى لتحقيقها فى نظام العولمة اليوم، ولديها دور هائل تقوم به. وبكلمات أخرى بسيطة: بما أننا الدولة التى تستفيد أكثر من غيرها من التكامل الاقتصادى العالمى، فإن وظيفتنا هى التأكد من أن العولمة مستمرة وأن ما يحدث من التقدم يسبق ما يحدث من التدهور بالنسبة لأكبر عدد ممكن من الناس، ولأكبر عدد ممكن من الدول، وفى أكثر عدد ممكن من الأيام. لقد كان السؤال الرئيسى فى نظام الحرب الباردة هو: ماذا تختار من أجهزة الكمبيوتر ونظم التشغيل؟ أما السؤال فى حقبة العولمة فهو: كيف تستفيد إلى أقصى حد من جهاز الكمبيوتر الوحيد ونظام تشغيله ـ أعنى رأسمالية السوق الحرة المتكاملة عالمياً؟

تستطيع أمريكا أن تكون، ويجب أن تكون، نموذج الدور العالمى فى الإجابة عن هذا السؤال. فقد أتيحت لأمريكا فرصة مائتى عام من الاختراع وتجديد وتقييم التوازنات التى تحتفظ للأسواق بحريتها بدون أن تتحول إلى وحوش. فلدينا الأدوات التى تجعلنا مؤثرين. وعلينا مسئولية أن نكون مؤثرين. كما أن لدينا مصلحة هائلة فى أن نكون مؤثرين. إن إدارة العولمة دور لا تجرؤ أمريكا على التخلى عنه. إنها مصلحتنا القومية الرئيسية اليوم، والحزب السياسى الذى يدرك ذلك قبل الآخر، والحزب الذى يتوصل إلى أكثر البرامج تماسكاً ومصداقية وإبداعاً لتحقيق هذه المصلحة، هو الحزب الذى سيمتلك الجسر الحقيقى نحو المستقبل.

وحتى يتسنى لك التفكير فى هذا التحدى، أنت بحاجة إلى أن تبدأ بالتخلص من اللغة السياسية لنظام الحرب الباردة، التى لا تصلح حقيقة للقضايا المعرضة للخطر، وتطوير لغة جديدة تتناسب مع نظام العولمة. وقد صممت لهذا الغرض شكلاً أعتقد أنه يحتوى على الهويات السياسية الرئيسية الأربع التى يستطيع الناس اختيار إحداها فى نظام العولمة. (انظر الرسم البيانى)

تأمل هذا الشكل لكى تكتشف من أنت ومن هم منافسيك. فالخط الذى يمر فى الوسط من اليسار إلى اليمين يمثل خط العولمة. وأول ما عليك أن تفعله هو أن تحدد مكانك على هذا الخط من حيث شعورك تجاه العولمة. ويقف عند نهاية هذا الخط فى اليمين «دعاة التكامل». أولئك هم الذين يرحبون حقا بالعولمة لأنهم يعتقدون أنها إما خير وإما أمر حتمى ويريدون العمل على تعزيزها بمزيد من التجارة الحرة، ومزيد من تجارة الإنترنت، ومزيد من ربط المدارس والمجتمعات والأعمال فى شبكة عمل واحدة، ومزيد من البريد الإلكترونى، وذلك لكى نحصل فى النهاية على تكامل عالمى طوال الأربع والعشرين ساعة يومياً، عبر أربع وعشرين منطقة زمنية ووصولاً إلى الفضاء المعلوماتى (السايبرسبيس).

وعند أقصى الطرف الأيسر لخط العولمة هذا يوجد «دعاة الانفصال». وهؤلاء أناس يعتقدون أن التجارة الحرة ـ معززة بالتكامل التكنولوچى ـ ليست خيراً ولا أمراً حتمياً، لأنها تزيد من الفجوات فى الدخول، وتؤدى إلى إرسال فرص العمل إلى الخارج، وتعمل على تنميط الثقافات وكأنها عصيدة عالمية، وتؤدى إلى حياه تسيطر عليها قوى أسواق بعيدة بلا هوية. وهم يريدون وقف العولمة عند حدودها. ويريدون القضاء عليها وقتلها الآن.

إذن فإن أول ما يجب عليك أن تفعله هو أن تحدد لنفسك مكاناً على هذا الخط. هل أنت من دعاة الانفصال؟ هل أنت من دعاة التكامل؟ أم أنك تقف فى مكان ما فيما بينهما؟

والآن، تأمل الخط الذى يسير من أعلى إلى أسفل الشكل. فهذا هو محور التوزيع. ويمثل نوع السياسات التى ترى أنه يجب أن تتبناها الحكومة حتى تساير العولمة وقميص القيد الذهبى. وفى النهاية السفلى لهذا الخط هناك دعاة شبكة الأمن الاجتماعى. وأنا أعرِّف دعاة شبكة الأمن الاجتماعى بأنهم أناس يرون أن العولمة لن يكتب لها الاستمرار إلا إذا أضفيت عليها الديمقراطية، بالمعنى الاقتصادى والسياسى لهذه الكلمة. ويعنى هذا من الناحية الاقتصادية تصميم شبكات للأمان الاجتماعى لا تسعى ببساطة لتخفيف آثار السقوط عن أولئك الذين تخلفوا عن الركب والمحرومين من المعرفة والسلاحف، وإنما تسعى حقاً إلى العمل على انضمامهم إلى النظام وذلك بمساعدتهم على اكتساب الأدوات والموارد التى تمكنهم من خوض المنافسة. ويعنى ذلك من الناحية السياسية تشجيع الأخذ بالديموقراطية فى الدول النامية التى تنضم إلى نظام العولمة، فلن تكون هناك عولمة قابلة للاستمرار بدون الديموقراطية.

ومن الواضح أن الجميع لا يتفقون مع هذا النهج. ولهذا يوجد دعاة دعهم يأكلون الكعكة عند النهاية العليا لخط التوزيع، أى عند الطرف المقابل لدعاة شبكات

الأمان الاجتماعى. فدعاة دعهم يأكلون الكعكة هم أولئك الناس الذين يرون أن العولمة تعنى بالضرورة أن الفائز يحصد كل شئ، وأن الخاسر يترك لشأنه. إنهم يريدون تقليص الحكومة والضرائب وشبكات الأمان، وأن يتركوا للناس الفرصة الحقيقية لحصاد ثمار عملهم أو دفع ثمن قلة كفاءتهم. ويقول لك دعاة دعهم يأكلون الكعكة إنه لا يوجد ما يؤدى إلى التركيز على الحصول على وظيفة والاحتفاظ بها أكثر من معرفة أنه لا توجد شبكة أسفله لكى تحميه.

ولهذا، عليك بعد ذلك أن تحدد موقعك على محور التوزيع. هل أنت من دعاة شبكات الأمان الاجتماعى؟ هل أنت من دعاة دعهم يأكلون الكعكة؟ أم أنك تقف فى مكان ما فيما بينهما؟

ويمكن أن يكون التعرف على جميع اللاعبين الرئيسيين فى الحقل السياسى الأمريكى اليوم عن طريق هذا الشكل أفضل من التعرف عليهم بالتصنيفات القديمة مثل ديمقراطى وجمهورى ومستقل. إن بيل كلينتون مثلاً من دعاة التكامل وشبكات الأمان الاجتماعى. وكان نيوت جنيجريتش الرئيس السابق لمجلس النواب من دعاة التكامل ودعهم يأكلون الكعكة. ولهذا، كان كلينتون وجينجريتش دائماً حليفيين فيما يتعلق بالتجارة الحرة ولكنهما خصمان فيما يتعلق بالإنفاق على الأمان الاجتماعى والرعاية الاجتماعية. أما ديك جيفارت زعيم الأقلية فى مجلس النواب فهو من دعاة الانفصال وشبكات الأمان الاجتماعى، وروس بيرو من دعاة الانفصال ودعهم يأكلون الكعكة. ولهذا، كان جيفارت وبيرو حليفيين ضد اتفاقية نافتا والمزيد من حرية التجارة ولكنهما خصمان إزاء الإنفاق على الأمان الاجتماعى والرعاية الاجتماعية، حيث يريد جيفارت إنفاق الأموال على برامج شبكة الأمان الاجتماعى والدفاع عن «حقوق» العمال وليس النهوض بقدراتهم فحسب.

ورغم أننى أستخدم هذا الشكل لوصف أمريكا اليوم، إلا أنك تستطيع بسهولة تطبيقه على أية دولة. ضع نفسك ببساطة على هذا الشكل لتكتشف من أنت ومن سيكونون أعداءك فى الجدل السياسى الكبير القادم. إننى من دعاة التكامل وشبكات الأمان الاجتماعى. وفى اعتقادى أنك لا تجرؤ اليوم أن تكون من دعاة العولمة بدون أن تكون ديموقراطياً اجتماعياً (أى من دعاة شبكات الأمان الاجتماعى)، لأنك إذا لم تزود من لا يملكون والسلاحف فى مجتمعك بما يساعدهم على الصمود فى هذا النظام الجديد، فسوف يفرزون فى نهاية الأمر ردة سوف تنتزع بلادك من العالم. وفى اعتقادى أنك لا تجرؤ أن لا تكون ديموقراطياً اجتماعياً أو من دعاة شبكات الأمان اليوم، بدون أن تكون من دعاة العولمة، فلن تستطع بدون التكامل مع العالم توليد الدخول التى أنت بحاجة إليها لكى تستمر فى رفع مستوى المعيشة ورعاية أولئك الذين تخلفوا عن الركب.

ولكنك بلا شك تتساءل، «ماذا يعنى أن تكون من دعاة التكامل وشبكات الأمان الاجتماعى؟» فى اعتقادى، إنه يعنى التعبير بوضوح عن سياسات للعولمة القابلة للاستمرار، سياسات جغرافية للعولمة القابلة للاستمرار ـ بما فى ذلك السياسة الخارجية والدفاعية على السواء ـ واقتصادات جغرافية للعولمة القابلة للاستمرار. وبعبارة أخرى، إنها تعنى التعبير بوضوح عن رؤية سياسية جديدة لنظام دولى جديد.

السياسة فى عصر العولمة

سوف نبدأ بسياسة للعولمة قابلة للاستمرار. وهذه لابد أن تتكون من أمرين: أحدهما صورة للعالم، بحيث يفهم الناس أين مكانهم، والأمر الآخر مجموعة من سياسات دعاة شبكة الأمان الاجتماعى والتكامل للتعامل معها.

أنت بحاجة إلى صورة للعالم حيث لا يوجد سياسة قابلة للاستمرار بدون جمهور لها يفهم بشكل عام سبب أهميتها ويرى العالم على النحو الذى تراه به. لقد كنت أرى دائماً أن كلينتون هزم كلا من جورج بوش وبوب دول لأن الأغلبية من الناخبين الأمريكيين شعروا بحدسهم أنهم فى حقبة جديدة وأن كلينتون أدرك ذلك أيضاً ولديه بعض الأفكار المعقولة للتعامل معها - فى حين لم يدركها دول وبوش على الإطلاق. والمؤسف، أن كلينتون، بمجرد أن تولى منصبه، لم يسع قط إلى تطوير هذا الشعور الحدسى بالكامل وتجسيده، وذلك بصورة حقيقية للعالم عليه أن يرددها مراراً وتكراراً. وبدأ ذلك من أول أسبوع له فى منصبه عندما حدد المشكلة الرئيسية لأمريكا بأنها توفير رعاية صحية يستطيع الناس تحمل تكاليفها - وليست عولمة قابلة للاستمرار.

ما الذى كان يجب أن يعلنه كلينتون فى أول خطاب له؟ إنه شيء أشبه بما يلى: «إخوانى الأمريكيين، إن فترة ولايتى رئيساً لكم تصادف أنها جاءت مع انتهاء نظام الحرب الباردة وبزوغ العولمة. والعولمة بالنسبة لحقبة التسعينيات والألفية التالية أشبه بما كانت عليه الحرب الباردة بدءاً من الخمسينيات وحتى الثمانينيات من القرن العشرين: وإذا كان نظام الحرب الباردة بنى على التهديد والتحدى من جانب الاتحاد السوفيتى، الذى كان يقسم العالم إلى نصفين، فقد بنى نظام العولمة على التهديد والتحدى المترتبين على التغيير التكنولوجى السريع والتكامل الاقتصادى الذى أصبح يوحد العالم بعضه مع بعض.

«ولكن إن كانت العولمة توحِّد العالم فإنها تغيِّر أيضاً مكان العمل والوظيفة والسوق والمجتمع لكل منا، وتقضى سريعاً على الوظائف القديمة وتثمر وظائف جديدة، وتقضى سريعاً على أساليب الحياة القديمة وتفرز أساليب جديدة، وتتخلص سريعاً من الأسواق القديمة وتنشئ أسواقاً جديدة، وتقضى سريعاً على الصناعات القديمة وتخترع صناعات جديدة. والتجارة الخارجية، التى كانت تمثل فقط 13 فى

المائة من إجمالى الناتج المحلى فى عام 1970، ارتفعت الآن إلى قرابة 30 فى المائة من إجمالى الناتج المحلى ـ وهى آخذة فى الارتفاع. لقد بلغت التغييرات التكنولوجية الآن من السرعة ما يجعل الشركات الأمريكية تصنع ثلاثة موديلات مختلفة من كل جهاز كمبيوتر كل عام. إن هذا ليس عالماً جديداً فحسب، إنه فى معظمه عالم أفضل. إن دولاً مثل الصين وإندونيسيا وكوريا وتايلاند وماليزيا والبرازيل والأرجنتين، حتى وإن حدث بينها وبين النظام صراع فى وقت من الأوقات، إلا أنها شهدت ارتفاعاً أسرع فى مستويات المعيشة لعدد أكبر من مواطنيها يفوق ما حدث فى أى وقت فى تاريخها ـ وذلك بفضل زيادة فعالية الأسواق المالية فى تسهيل التجارة والاستثمار على أيدى إناس من دولة إلى المصانع فى دولة أخرى. حقاً، كما يقول أحد كبار المستشارين الاقتصاديين الذين أعتز بهم، وهو لارى سومرز، فإنه بفضل زيادة العولمة إلى حد بعيد، أصبح هناك أكثر من ربع البشرية يتمتع الآن بمعدلات نمو قد ترتفع معها مستويات معيشتهم أربعة أضعاف فى غضون جيل واحد. أربعة أضعاف! إن ذلك لم يحدث من قبل فى تاريخ الاقتصاد. وقد أدى هذا النمو، الذى حدث على مستوى العالم، ولم يكن على حساب الولايات المتحدة من بعيد أو قريب، إلى أدنى معدل بطالة فى أمريكا منذ خمسين عاماً.

«فى ضوء هذه التحديات والفرص تحتاج الولايات المتحدة إلى استراتيجية تجعل العولمة قابلة للاستمرار وتضمن لنا أننا سوف نكون قادرين دائماً على المنافسة الفعالة فى هذا العالم. ولذلك لنفترض أن العالم مثل عجلة لها برامق (وهى ما يمتد بين المحور والدولاب). يوجد عند محور هذه العجلة ما يمكن أن أطلق عليه 'التغيير الاقتصادى والتكنولوچى السريع للعولمة'. وهذا يعنى بوضوح أكبر، ذلك **الشىء الوحيد الكبير** المستمر هناك. وبما أنه موجود عند المركز، فنحن بحاجة إلى تناول مختلف لقضايا الرعاية الصحية، والرعاية الاجتماعية، والتعليم، والتدريب الوظيفى،

والبيئة، وضوابط السوق، والأمان الاجتماعى، والدعوة إلى تمويل وتوسيع التجارة الحرة. ويحتاج كل من هذه المجالات إلى تعديل أو تكيّف أو إصلاح بما يساعدنا كمجتمع على تحقيق أقصى فائدة من نظام العولمة والتخفيف من أسوأ جوانبه. فعلى سبيل المثال، عندما يكون لدينا عالم يستطيع فيه الناس الآن العمل فى عشر وظائف مختلفة لعشر شركات مختلفة مدى الحياة فإنهم بحاجة إلى معاشات متحركة، ورعاية صحية متحركة، وفرص أكبر للتعلم طوال حياتهم. فالعولمة تقتضى أن يتحرك مجتمعنا بسرعة أكبر، وأن يعمل بذكاء أكبر، وأن يخوض مخاطر أكثر من أى وقت مضى فى تاريخنا. وبما أننى رئيس لكم أعدكم بأمرين؛ أعدكم أولاً أننى سأجعل شغلى الشاغل أن أهيئ كلاً منكم، ومجتمعنا بصفة عامة، لمواجهة هذا التحدى، بالمزيج من السياسات التكاملية وشبكات الأمان الاجتماعى. وأعدكم ثانياً بأننى سأكون مدافعاً لا يكل عن قوانيننا التجارية لضمان أن العولمة، وهى تتحدى العامل الأمريكى، لا تسمح للآخرين باستغلال انفتاحنا، وذلك بإغراقنا بمنتجاتهم هنا فى حين يقيدون هم حرية وصولنا إلى أسواقهم.

«إننى لست هنا لأقول لكم إن ذلك كله سيكون يسيراً. ولكننى هنا فى الواقع لأقول لكم إن ذلك سيكون شاقاً حقيقة. ولكننا إذا نجحنا فى تحقيق التوازن السليم ـ وأنا أعتقد أننا سننجح ـ فسوف نكون الطليعة التى تتقدم العالم فى كيفية إدارة التكامل فى عصر العولمة، مثلما كنا طليعة العالم فى كيفية إدارة الاحتواء فى عصر الحرب الباردة. فليحفظ الله أمريكا».

هذا هو ما يؤمن به كلينتون، ولكنه ليس ما يقوله دائماً. وكان من بين الأسباب التى جعلت خصومه يمزقون مقترحاته للرعاية الصحية إرباً ـ ليس السبب الوحيد، ولكنه أحد الأسباب ـ هو أنها لم توضع فى المكان الفعّال من صورة للعالم تتكرر باستمرار، وفيها تقع العولمة عند المركز ومنها تتدفق السياسات الأساسية. ونتيجة لذلك

يرى دانى رودريك الاقتصادى بجامعة هارفارد، «أن الاتصال بين كل هذه المجالات والإشباع المتبادل بين الاحتياجات وأوجه النقص فيها قد ضاعت فى المناقشة العامة»، وجعلت من الأيسر على الأيديولوجيين والمتطرفين، وكذلك الاقتصاديين الشعبيين، والوطنيين، والمحرومين من المعرفة، والمواطنين المصابين بعقدة الخوف من الأجانب وكرههم، والانتهازيين أن ينحرفوا عادة بالحوار فى أى قضية من القضايا ـ مثل التجارة أو إصلاح الرعاية الصحية ـ وأن يسيروا بها إلى طريق مسدود.

يجب أن يدرك السياسيون أنه من الأسهل، وذلك لأسباب كثيرة، تشويه العولمة أو تحويلها إلى شيطان ثم ينتهى بهم الحال، مثلما فعل كلينتون، إلى حيث يفقدون السيطرة على السياسة، بحيث تكون العولمة عليهم بدلاً من أن تكون معهم، وذلك على الرغم من سلامة سياساتهم الاقتصادية. إن أشد الخاسرين من العولمة، وهم العمال الذى سلبهم الإنسان الآلى أو المصانع الأجنبية وظائفهم، يعرفون قدر أنفسهم تماماً. وهذا يجعل من الأيسر تعبئتهم ضد المزيد من التكامل أو التكنولوچيا أو التجارة الحرة. أما المستفيدون من العولمة، ومن مزيد من الانفتاح فى التجارة والاستثمارات الأجنبية، فغالباً لا يعرفون ذلك. إنهم غالباً لا يربطون بين العولمة والارتفاع المستمر فى مستويات معيشتهم، ومن ثم تتعذر تعبئتهم. هل سمعت مرة عن عامل فى مصنع لشذرات الكمبيوتر الدقيقة، يقول، «انظر، كم أنا محظوظ. إذ كانت العولمة، والارتفاع المتزايد فى الطلب على الصادرات الأمريكية من التكنولوچيا المتقدمة، والنقص فى قوة العمل من العمال المهرة فى هذا البلد، والتطلعات المتزايدة للعالم النامى، السبب الذى جعل رئيسى يعطينى زيادة فى مرتبى».

وثمة سبب آخر فى سهولة تشويه العولمة يتمثل فى أن الناس لا يدركون أنها ظاهرة تدفعها التكنولوجيا إلى حد بعيد، وليست ظاهرة تدفعها التجارة. كان لدينا موظفة استقبال فى مكتب صحيفة ***نيويورك تايمز*** بواشنطن ولكن الشركة ألغت

وظيفتها. إنها لم تفقد وظيفتها لأن مواطنة مكسيكية سلبتها إياها ـ لقد سلبتها إياها شذرة كمبيوتر دقيقة ـ شذرة كمبيوتر دقيقة تدير جهاز الرسائل الصوتية فى كل تليفونات مكاتبنا. والحقيقة أن شذرة الكمبيوتر الدقيقة كانت ستسلبها وظيفتها حتى لو لم يكن لنا تعامل تجارى مع المكسيك. كانت شذرة الكمبيوتر الدقيقة ستسلبها وظيفتها حتى لو كان لدينا سور ارتفاعه ثلاثون قدماً يمتد من أحد طرفى حدودنا مع المكسيك إلى الطرف الآخر. غير أن السياسيين لا يريدون الاعتراف بذلك. فلن يقف أحدهم ليقول: «أنا أريدكم أن تنهضوا الآن، وأن تنزعوا قابس تليفوناتكم، وتلقونها من أقرب نافذة وتصيحوا '***إننا لن نتحمل هذا بعد الآن! إنقذوا الوظائف الأمريكية! امنعوا الرسائل الصوتية! ورقائق البطاطس، نعم! أما رقائق شذرات الكمبيوتر الدقيقة، فلا!***' هذه ليست رسالة سياسية فائزة. والأسهل كثيراً من ذلك شجب المكسيكيين والمصانع الأجنبية. وبطبيعة الحال، تستولى المصانع الأجنبية فعلاً، فى بعض الحالات، على الوظائف (ولكن بما لا يساوى عدد الوظائف التى تقضى عليها التكنولوجيا والوظائف التى تنشئها تقريباً)، ومن ثم، فهناك بعض ما يكفى من الحقيقة لتعزيز بعض السياسات التى تتسم بالكثير من الانفعال والخطر. وبما أنه من السهل رؤية العمال الأجانب والمصانع الأجنبية، وليس من السهل رؤية شذرات الكمبيوتر الدقيقة، فإنه يترسب فى ضمائرنا بشكل مبالغ فيه أنهم هم سبب المشكلة.

إننا إن لم نعلّم الجمهور طبيعة العالم الحقيقية اليوم ونجلو له حقيقة العولمة، فسوف يستغل دعاة الانفصال دائماً هذا الارتباك لصالحهم. ففى عام 1998 لم يستطع الرئيس كلينتون مد اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا) لكى تشمل شيلى، فقد كانت هناك أقلية تتزعمها النقابات اعتقدت أنها لا تستفيد من مزيد من التجارة الحرة، وكانت نشطة للغاية فى معارضة توسيع اتفاقية نافتا، فى حين لم تدرك الأغلبية التى تستفيد من توسيع التجارة الحرة قط قدر نفسها، ومن ثم لم تعبئ نفسها قط للدفاع عن مصالحها.

ومع ذلك، تحتاج سياسات العولمة القابلة للاستمرار إلى أكثر من مجرد الصورة الصحيحة لما يحدث فى العالم. إنها تحتاج أيضاً إلى التوازن الصحيح فى السياسات. وهذا فى رأيى هو كل ما يعنيه دعاة التكامل وشبكات الأمان الاجتماعى. ونحن دعاة التكامل وشبكات الأمان الاجتماعى، نعتقد أن هناك الكثير من الأشياء التى نستطيع القيام بها فى هذا العصر من العولمة، وهى أشياء ليست مكلفة إلى هذا الحد، ولا تنطوى على عملية جذرية لإعادة توزيع الدخل - أو برامج للإنفاق بإسراف على تعويضات الرعاية الاجتماعية التى يمكن أن تنتهك القواعد الاقتصادية لقميص القيد الذهبى - ولكنها تستحق التنفيذ من أجل تعزيز الاستقرار الاجتماعى ومنع مجتمعنا ذاته من الانجراف نحو أحد الأسوار العالية والنوافذ الملونة أكثر مما لدينا بالفعل.

وقد تتركز دعوتى للتكامل وشبكات الأمان الاجتماعى على ديموقراطية العولمة تعليمياً ومالياً وسياسياً لأكبر عدد ممكن من الناس، ولكن بطرق تتواءم بصفة عامة مع التكامل والأسواق الحرة. واليكم ما أعنيه بذلك:

ديموقراطية العولمة تعليمياً: يفضل دعاة التكامل وشبكات الأمان الاجتماعى مزيجاً من أدوات الحماية وشبكات الأمان للتعامل مع أولئك الذين تتسبب العولمة فى تخلفهم عن الركب، إما بصورة دائمة وإما بصورة مؤقتة. إذ يفرز قميص القيد الذهبى لنا كمجتمع ما يكفى من الذهب لكى نتحمل الاثنين معاً. فقد وصل الفائض إلى 70 مليار دولار فى عام 1998. وشبكات الأمان الاجتماعى مألوفة لأولئك الذين تتعذر عليهم المنافسة - مثل التأمين الاجتماعى، وبرنامج الرعاية الصحية للمسنين، وبرنامج تقديم المعونة الطبية لغير القادرين، والطوابع الغذائية (تمنحها الحكومة لأصحاب الدخل المنخفض للحصول مقابلها على الغذاء)، والرعاية الاجتماعية - وهى تحتاج إلى الدعم والاستمرار لكى تأخذ بيد أولئك الذين قد يتعذر عليهم تلبية مطالب العالم السريع. ويجب أن يكون بالإمكان دائماً تقليص هذا التجمع ممن يتخلفون عن الركب ولكن فى ظل أدوات الحماية السليمة .

وفى اعتقادى أنه للوصول إلى هذا الهدف، يجب على كل بيت أبيض أن يقدم فى هذا العصر من العولمة تشريعاً سنوياً بسيطاً يمكن أن أطلق عليه «مرسوم فرصة التغيير السريع The Rapid Change Opportunity Act» . وقد يسير هذا المرسوم جنباً إلى جنب مع التكامل أيا كانت سياسة التكامل التى كانت تتبعها الحكومة فى ذلك العام ـ سواء كانت توسيع النافتا، أو تجديد وضع الدولة الأولى بالرعاية للصين أو أى اتفاقيات أخرى للتجارة الحرة. وقد يتغير « مرسوم فرصة التغيير السريع» كل عام، ولكن هدفه إيجاد حقيقة ومفهوم أن الحكومة تدرك أن العولمة أمر حتمى ولكنها توزع الخير والرخاء بصورة غير متكافئة، ومن ثم سوف تسعى الحكومة دائماً إلى تعديل أدوات حمايتها بحيث تصل بأكثر عدد ممكن من الناس إلى السرعة التى يتطلبها العالم السريع .

فعلى سبيل المثال، قد يتضمن مرسومى لفرصة التغيير السريع لعام 98 - 1997 ما يلى : مشروعات رائدة للتوظيف العام للعمال الذين فقدوا وظائفهم مؤقتاً، وإعفاءات من الضرائب لمن توقفت أجورهم من العمال الذين فقدوا وظائفهم ، واستشارات مجانية توفرها الحكومة لمن يريد أن يبدأ من جديد لكل من يفقد وظيفته، وتمديد آخر لمرسوم كاسيباوم وكينيدى، حتى يتسنى للعمال المسرحين الاحتفاظ باشتراكاتهم للتأمين الصحى فترة أطول، وحملة إعلانية قومية لأحد أفضل إنجازات الحزبين الأمريكيين فى فترة ولاية كلينتون، ولكن أقلها حظاً من الدعاية، وهو مرسوم استثمارات العاملين. فقد عمد هذا المرسوم، الذى وقع فى أغسطس عام 1998 ، إلى دمج البرامج الحكومية للتدريب الوظيفى التى يصل عددها إلى 150 برنامجاً مختلفاً، فى ثلاث منح رئيسية: حسابات التدريب الفردى التى يستطيع العمال استخدامها فى أى تدريب يرون أن سيحسن إلى إقصى حد من فرصهم الوظيفية، ومراكز المحطة الوظيفية الواحدة لكل برنامج للتدريب الوظيفى، وزيادة فى برامج تدريب الشباب

بواقع 1.2 مليار دولار على مدى خمس سنوات. وعلاوة على ذلك، فقد أجعل مرسومى لفرصة التغيير السريع يتضمن بعض الزيادة فى القروض الأمريكية لبنوك التنمية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية لتعزيز برامج تدريب المرأة، وتقديم القروض الصغيرة للمرأة والمشروعات الصغيرة، وتنظيف البيئة فى كل دولة نامية يوجد بينها وبين أمريكا تعامل تجارى هام. وكذلك قد أجعل هذا المرسوم يتضمن زيادة فى التمويل للمبادرة الجديدة لمنظمة العمل الدولية لإقامة بدائل لعمالة الأطفال فى الدول التى تشهد أكبر إساءة لاستخدام الأطفال. وقد أجعله يتضمن زيادة فى برنامج مساعدات التعديل التجارى، القائم بالفعل، ويوفر دعماً بسيطاً للدخل والتدريب لأى شخص يستطيع إثبات أن وظيفته قضت عليها التجارة. وقد أمد فترة العمل فى برنامج تدريب العمال الذين فقدوا وظائفهم، القائم بالفعل (وقد خدم 660 ألف شخص فى عام 1997) لمساعدة أى شخص فقد وظيفته بسبب الأخذ بتكنولوچيا جديدة. وفى النهاية، قد أطلق حملة إعلانية قومية تعرّف الناس بصورة أفضل بالإعفاء الضريبى للتعلّم مدى الحياة، القائم بالفعل، والذى يسمح للمواطنين بخصم ما يصل إلى1000 دولار من دخلهم الخاضع للضريبة من تكلفة أى برنامج تعليمى أو تدريبى ينضمون إليه للنهوض بتعليمهم وبمهاراتهم الفنية.

ديموقراطية العولمة مالياً: ليس هناك من طريقة لجعل العولمة قابلة للاستمرار أفضل من منح مزيد من الناس دعماً مالياً فى «العالم السريع». وكلما فكرت فى هذا الموضوع، تذكرت دائماً قصة حكاها لى الصحفى الروسى أليكسى پوشكوف فى أبريل عام 1995 عن أحد جيرانه فى موسكو. «كان ذلك هو السائق الفقير الذى يعيش فى شقة تقع إلى الخارج من المدخل. وفى مساء كل يوم جمعة كان يسكر حتى الثمالة ثم يرفع عقيرته بغناء أغنيتين باللغة الإنجليزية ـ يرددهما مرات ومرات ـ هما أمة سعيدة Happy Nation وكل ما تريده هو طفل آخر

All She Wants Is Another Baby . ولم تكن لديه أى فكرة عن معنى الأغنيتين. وكان عندما يصبح مخموراً تماماً يبدأ فى ضرب زوجته وتبدأ هى فى الصياح. كان ذلك يصيبنا بالجنون. وكنت أود لو أرميه بقنبلة يدوية. على أية حال، منذ ثمانية أشهر مضت شارك، ولا أدرى كيف، فى ورشة صغيرة لإصلاح السيارات. ومنذ ذلك الوقت لم يعد هناك أمة سعيدة Happy Nation ولا غناء طوال الليل، ولا من مزيد من الضرب لزوجته. فهو يخرج صباحاً من بيته فى الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة إلى العمل وهو فى حالة من الرضا. وأصبح يعرف أن لديه بعض الطموح فى الحياة الآن. قالت لى زوجتى منذ بضعة أيام، «انظر إلى الأمة السعيدة Happy Nation ـ وهذا هو الاسم الذى كنا نطلقه عليه ـ لقد أصبح من أصحاب الأملاك الآن».

ولابد أن يتضمن «مرسوم فرصة التغيير السريع» فى كل دولة أيضاً استراتيجية لجعل مزيد من الناس من أصحاب الأملاك. ويعنى ذلك فى أمريكا، تقديم مبادرات تحسن من الوصول إلى رأس المال الاستثمارى لأشد المجتمعات عوزاً وانخفاضاً فى الدخل، بحيث لا ندرب الناس فحسب على وظائف غير متوافرة. وتعتبر الأحياء الداخلية فى المدن الأمريكية من الأسواق الناهضة مثلها تماماً مثل بنجلاديش، وتحتاج أحياناً لبرامج المساعدات المصممة وفقاً لتطورات السوق. يشير لارى سومرز نائب وزير الخزانة فى هذا الصدد إلى أن: «أسواق المال الخاصة، فى أنحاء العالم، تخفق عندما يتعلق الأمر بالفقراء المعدمين. فلا تبحث البنوك الكبرى عن المجتمعات الفقيرة ـ لأن تلك المناطق لا توجد فيها أموال. وهناك حواجز أخرى تسعى على نحو مصطنع إلى الحد من تدفق رأس المال إلى أحياء معينة أو جماعات أقلية معينة، مما يؤدى إلى قصور واضح فى الأسواق. غير أنك إذا حرمت الناس الذين يقطنون هذه الأحياء من فرصة الاقتراض أو التوفير، فالاحتمال الأكبر أنهم سيظلون على هذه الحال».

وثمة طريقة لكى نبدأ تطبيق ديموقراطية الوصول إلى رأس المال فى أمريكا، وتتمثل فى إعادة تنشيط «مرسوم إعادة الاستثمار للمجتمع»، الذى يستغل الضغط الحكومى فى تشجيع البنوك التجارية لتوفير الائتمان الذى لا تستطيع الأحياء المعوزة تحمله. ولكن هناك بعض القروض التى لن تقدمها البنوك التجارية مطلقاً. ولهذا السبب قد يتضمن مرسوم فرصة التغيير السريع تمويلاً لصندوق جديد لرأس مال مغامر تدعمه الحكومة من أجل الأحياء ذات الدخل المنخفض والمتوسط. ويعرف هذا الصندوق باسم «صندوق المؤسسات المالية لتنمية المجتمع»، ويقدم تمويل البداية لأصحاب المشروعات الذين على استعداد للمخاطرة بالاستثمار فى الأحياء الفقيرة، حيثما يرون إمكانيات السوق ـ فى كل المجالات بدءاً من مراكز الرعاية النهارية الخاصة إلى إسكان الدخل المنخفض إلى صالونات التجميل إلى أماكن الترفيه ـ ولكن حيث لا يتوافر لها عادة التمويل الرأسمالى المغامر.

وتقول مثل هذه الأنواع من المبادرات للمواطنين: «إنه فى حين تطلب الحكومة منك أن تقفز من عقلة ترابيز إلى عقلة ترابيز، وأن تقفز أعلى وأعلى، أسرع وأسرع، أبعد وأبعد، فسوف تصنع شبكة أمان أسفل منك فى الوقت نفسه. إنها شبكة لا يمكن لأى شخص أن يعيش عليها لفترة طويلة، ولكنها يمكن أن تقذف بكثيرين من الناس مرة أخرى إلى اللعبة». حقيقة إن اليد العليا أفضل من اليد السفلى. وحتى إذا أنفقنا بعض الأموال فى برامج اليد العليا هذه، فالثمن الذى ندفعه زهيد مقارنة بالمزايا والكفاءات التى ستترتب على الاحتفاظ، قدر الإمكان، بأسواقنا حرة ومفتوحة للعالم. إن «مرسومى لفرصة التغيير السريع» هو مجرد ثمن زهيد ندفعه مقابل المحافظة على تماسك المجتمع والإجماع السياسى على التكامل والتجارة الحرة. ومن هنا تجىء شعاراتى: «الحماية وليس الإجراءات الحمائية. وسائد المساعدة والتخفيف وليست الأسوار. الحد الأدنى للأجر، وليس الحد الأقصى للأجر. التعامل مع حقيقة العالم السريع وليس إنكاره».

ديموقراطية العولمة سياسياً: في حين تعتبر ديموقراطية الوصول إلى العولمة أمراً حاسماً، ولا سيما بالنسبة للدول النامية، فإن مواكبتها لديموقراطية نظمها السياسية على القدر نفسه من الأهمية. وذلك أحد الدروس الحقيقية للعولمة فى عقدها الأول : فمساعدة مجتمعك على الإسراع نحو الديموقراطية يعتبر عملية تعديل شديدة العنف ولذلك تتطلب مزيداً من الديموقراطية على المدى الطويل. ففى الحرب الباردة، كان لزعماء الدول النامية رعاة من القوى العظمى الذين قد يساعدونهم على البقاء، أيا كانت الطريقة التى يديرون بها بلادهم. ولكن هؤلاء الرعاة قد ذهبوا الآن ولن تساند الجماهير الحكومات الضعيفة على البقاء لفترة طويلة. (انظر القاموس تحت مدخل إندونيسيا) . فإذا أخفقت الآن فسوف تسقط ـ وما لم يمسك بك شعبك ويدعمك فسوف يكون سقوطك موجعاً. (انظر القاموس تحت مدخل سوهارتو) .

يقول لارى داياموند العالم الديموقراطى فى هذا الصدد: «لقد شهدنا الآن عدداً من الأمثلة التى صوتت فيها دول فى أمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية وشرق آسيا للإطاحة بحكومات ارتبطت بآلام الإصلاحات اللازمة للعولمة. وقد أجرت الحكومات الجديدة التى تولت الحكم بعض التعديلات ولكنها أبقت بصورة أو بأخرى على سياسات التسويق العولمى نفسها. فكيف تسنى لهم النجاة بذلك؟ لقد تحققت لهم النجاة لأن العملية الديموقراطية أعطت للجماهير فى هذه الدول إحساساً بالملكية طوال العملية المؤلمة لإصلاح السياسات الاقتصادية. فلم تعد ذلك الشيء الغريب عنهم تماماً الذى يجرى لهم. فقد كانت المشورة تطلب منهم وأتيحت لهم فرصة الاختيار على الأقل بالنسبة لسرعة هذه العملية، إن لم يكن اتجاهها. وعلاوة على ذلك، ونتيجة للفرصة التى أتيحت لهم للمشاركة فى العملية، والإطاحة بمن يشعرون أنهم تحركوا بقسوة أو بصورة فجائية أو كانوا مفرطين فى الفساد أو عدم الإحساس، فقد كانت للعملية برمتها شرعية سياسية أكبر، وبالتالى قابلية أكثر على الاستمرار.

هذا بالإضافة إلى أنه فى الدول التى تبادلت أحزابها وقادتها المواقع فى السلطة ـ وجاءت إلى الحكم أحزاب للمعارضة اتبعت إلى حد بعيد سياسات التحرر الاقتصادى والعولمة للحكومات السابقة ـ فإن الرسالة التى تصل إلى الجمهور هى أنه لا يوجد حقيقة بديل عن قميص القيد الذهبى. فكم من الدول فى أمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية والآن فى شرقى آسيا التى جاءها قادة المعارضة ممن تولوا الحكم فى العقد الماضى وقالوا، «أوه، لقد ثبت لنا أننا بالفعل مفلسون. وعلينا بالفعل أن ننفتح. والواقع أن الأمور أسوأ حتى مما كنت أظن، وسوف يكون علينا أن نسرع بتطبيق هذه الإصلاحات فليس هناك سبيل آخر. ولكننا سوف نضع عليها وجهاً إنسانياً». فالديموقراطية تجعل تقبل الواقع ممكناً. ولهذا السبب فإن الدول التى تتأقلم بشكل أفضل مع العولمة اليوم ليست غالباً من الدول الغنية بطبيعتها ـ مثل المملكة العربية السعودية أو نيجيريا أو إيران ـ وإنما بالأحرى هى الدول الأكثر ديموقراطية ـ مثل بولندا أو تايوان أو تايلاند أو كوريا. أما روسيا فإن ما تكابده من فوضى اليوم يرجع بالتحديد إلى توقف تطورها الديموقراطى. إنها لا تفتقر إلى البرمجيات ونظم التشغيل لكى تجذب القطيع فحسب ـ ولكنها تفتقر أيضاً إلى الديموقراطية الموثوق بها التى تكفى لإقناع شعبها ذاته بما سيكون هناك من عدالة ومصداقية ومساءلة فى إدارة آلالام والمكاسب الناتجة عن التكيف مع العولمة.

وليست ديموقراطية العولمة هى أكثر الطرق فاعلية لجعلها قابلة للاستمرار فحسب، ولكنها أيضاً أكثر السياسات الأخلاقية التى تستطيع أى حكومة اتباعها ولمصلحتها الذاتية.

الاقتصاد الجغرافى لعصر العولمة

كتبت ذات مرة عموداً خيالياً عن الاستثمار فى التسعينيات سار على نحو أشبه بما يلى: «وهكذا قررت القيام ببعض الاستثمارات الدولية الصغيرة. فأنعشت ذاكرتى لاستعادة لغتى الألمانية المفقودة واشتريت بعض سندات الشركات الألمانية. ودرست شيئاً من اللغة اليابانية وجمعت بضعة أسهم من مؤشر نيكى. وحصلت على فكرة جيدة من نادل فى المطعم الصينى المحلى فى هونان واشتريت بعض الأسهم فى بورصة شنغهاى. وحاول السمسار الذى أتعامل معه أن يبيعنى بعض سندات الحكومة اللبنانية، ولكننى قلت له إنه يوجد لدى بالفعل أوراق وول فى غرفة مكتبى. بل إننى قمت بواجبى تجاه الإصلاحات الروسية؛ بأن حاولت استعادة براعتى المفقودة فى الأبجدية السيريلية واشتريت بعض أذون الخزانة الروسية. ولكن بعد كل هذا التدريب اللغوى والبحوث التى لا علاقة لها بالموضوع، اكتشفت أننى نسيت فقط كلمتين إنجليزيتين: 'آلان جرينسبان'. فعندما رفع جرينسبان فجأة أسعار الفائدة فى منتصف التسعينيات، وهو ما جعل الزيادة فى الفائدة التى أحصل عليها من سنداتى الأجنبية أقل جاذبية، بدأ الكل فى إغراق هذه الأسواق الأجنبية واستعادة أموالهم إلى داخل البلاد مرة أخرى، وهكذا انتزع منى أفضل ما عندى». لقد كنت مقرضاً سيئاً. ولم أبحث الأمر كما ينبغى. وكنت فقط أجرى وراء معدلات أعلى من العائد. ولم أكن أعلم بما أملكه عندما ذهبت إلى تلك البلاد. ولم أكن أعلم بما أملكه عندما رحلت عن هذه البلاد.

حسناً، لقد أصبحت مع مرور الأيام أكثر فطنة وأصبحت أكثر دراية فى إقراض أموالى. وبدأت استثماراتى الدولية عن طريق صندوق مشترك متخصص فى الأسواق العالمية ويستطيع التدقيق فى كل مجال للاستثمار. وبعد فترة قصيرة من الانهيار الذى

حدث فى الاقتصاد الروسى فى أغسطس عام 1998، تلقيت رسالة من هذا الصندوق ـ وهو تويدى، براون جلوبال ـ يبلغنى فيه أن أرباحه آخذة فى الهبوط قليلاً بسبب الاضطراب العام فى الأسواق الدولية الذى أشعله عجز روسيا عن السداد، ولكن الصندوق لم يصل إلى الهبوط الذى وصلت إليه الصناديق الأخرى لأنه فى الواقع بحث الأمر كما ينبغى، وظل بعيداً عن روسيا. وقالت رسالة صندوق تويدى عن روسيا: «لا نستطيع فهم كيفية الاستثمار فى دول لا تتمتع بالاستقرار، وليس فيها قوانين تحمى المستثمرين، وفيها عملة لا تصلح إلا لكى تُستخدم مناديل ورقية ناعمة». نعم، أضافت الرسالة أنه فى مطلع عام 1998 توسعت السوق الروسية بواقع خمسة أضعاف، ثم فقدت 80 فى المائة من قيمتها بين عشية وضحاها ـ أى «رحلة دائرية تماماً». لقد ثبت أن روسيا، كانت مقترضاً سيئاً. لم يكن لديها نظام تشغيل ولا برمجيات، وفى النهاية كان كل ما تستطيع عرضه على المستثمرين هو رحلة دائرية تبدأ من الصفر إلى 80 فى المائة ثم العودة مرة أخرى إلى الصفر.

إننى أسرد هاتين القصتين لأنهما تعبران بصدق وفى إيجاز شديد عن أكبر تهديدين للنظام المالى العالمى اليوم ـ وهى الأزمات التى يشعلها « المُقرضون السيئون» والأزمات التى يشعلها «المقترضون السيئون». فكما يوجد لديك المتعاطون للمخدرات والموزوعون للمخدرات، فهناك دائماً فى الاقتصاد العالمى المقترضون السيئون مثل روسيا، والمقرضون السيئون مثلى أنا. والسؤال الكبير فى الجغرافية السياسية الذى نحن بحاجة إلى الإجابة عنه هو: كيف يتسنى لنا إشاعة الاستقرار فى هذا الاقتصاد العالمى لكى يكون أقل عرضة للاقتراض السيئ والإقراض السيئ، اللذين يمكن أن يصبحا اليوم على درجة من الضخامة والانتشار وعلى درجة من السرعة بحيث يمكنهما زعزعة النظام برمته؟

لنبدأ بمشكلة المقترضين السيئين. فى اعتقادى أن العولمة أسدت إلينا جميعاً معروفاً عندما حطمت الاقتصاد فى كل من تايلاند وكوريا وماليزيا وإندونيسيا والمكسيك وروسيا والبرازيل فى التسعينيات، لأنها كشفت تماماً عن الكثير من الممارسات والمؤسسات العفنة فى دول تعولمت قبل الأوان. ولم يكن فضح عائلة سوهارتو المرتشية الفاسدة فى إندونيسيا من الأزمات التى أشرت إليها فى كتابى. ولم يكن كشف الرأسمالية المتهاونة فى كوريا من الأزمات التى أشرت إليها فى كتابى. ولم يكن كشف المعاملات المشبوهة تماماً فى تايلاند من الأزمات التى أشرت إليها فى كتابى. فكل هذه النظم كان مآلها إلى السقوط إن عاجلاً وإن آجلاً.

ولكن الآن وبعد أن ساعدت العولمة فى حدوث ذلك عاجلاً، فالسؤال هو: ماذا نفعل بهده الفرصة؟ يرغب بعض الناس فى كبح جماح القطيع لكى لا يحدث هذا الهروب المذعور مرة أخرى فى هذه الدول. وآخرون يريدون تشجيع هذه الدول على فرض ضوابط على رؤوس الأموال بحيث تضع أسواراً تحول دون دخول القطيع. وكلا النهجين غير صائبين. فالقطيع الإلكترونى هو مصدر الطاقة للقرن الحادى والعشرين. ويجب أن تتعلم الدول كيف تتعامل معه، لأن كبح جماحه لا طائل من ورائه، وإبعاده لفترة طويلة لن يؤد إلا إلى حرمان الدولة من الموارد والتكنولوجيا، ويطيل من عمر الرأسمالية المتهاونة. ولذلك فإن النهج الاقتصادى الجغرافى الصحيح، هو التركيز على تقوية هذه الدول المقترضة السيئة، بحيث تستطيع الالتحام بالقطيع مرة أخرى وأن تكون مقاومة للهروب المذعور قدر الإمكان. ولسوف يظل الهروب المذعور للقطيع ممكن الحدوث، وسوف تبتلى به بعض الدول بلا شك بصورة قاسية. ولكن القطيع لا يظل مندفعاً إلى الأبد. ففيما عدا بعض الاستثناءات النادرة، فإنه لا يجرى هارباً، من الدول ذات النظم المالية السليمة التى تتبع سياسات اقتصادية سليمة، فضلاً عن أنه لا يهاجمها. إن الناس يتكلمون عن تايلاند وكوريا وإندونيسيا وروسيا وكأنها تمارس

الاقتصاد السليم تماماً، وأن القطيع قرر فقط أن يهرب منها فى أحد الأيام بلا سبب على الإطلاق. وهذا هراء. فالواقع أن هذه الدول قد تورطت فى الاقتراض السيئ.

وسوف يناقش رجال الاقتصاد والمصرفيون اليوم تفاصيل إعادة تأهيل دولة مقترضة سيئة وأن يجلعوا منها دولة محصنة ضد الهروب المذعور للقطيع. وكل دولة من هذه الدول مختلفة عن الأخرى إلى حد ما. ولكن بوجه عام، يجب أن ينطوى هذا النهج على الخطوات التالية:

الخطوة الأولى هى أن نوضح بما لا يدع مجالاً للشك للدول المقترضة السيئة أن صندوق النقد الدولى والبنك الدولى ومؤسسات الإقراض الخاصة ستكون على استعداد لتقديم قروض لإعادة القوة الاقتصادية أو لإعادة جدولة الديون بشرط ـ وفقط بشرط ـ أن تتبنى هذه الدول وتلتزم بالخطوات الثانية والثالثة والرابعة.

الخطوة الثانية تتمثل فى تعهد الدولة المقترضة السيئة تعهداً جديراً بالثقة بالنهوض بنظام تشغيلها الاقتصادى بمرور الوقت من نظام تشغيل رأس المال 1.0 إلى نظام تشغيل رأس المال 6.0. وذلك يتطلب بوضوح نوعاً من الخليط ـ يختلف من دولة إلى أخرى ـ من خفض الميزانية، وإغلاق الشركات وبيوت المال المتعثرة والمفلسة، وإجراء تعديلات على العملة، ومعدلات الفائدة ، وخفض للديون ووضع حد للمارسات الرأسمالية المتهاونة. والهدف من هذه الإصلاحات هو تثبيت أسعار عملاتها ومن ثم خفض معدلات الفائدة لحفز الطلب فى الداخل واستعادة ثقة القطيع فى الخارج.

والخطوة الثانية بحاجة حقاً إلى أن تتضمن عملية تجعل من الأسهل على القطيع شراء الشركات فى هذه الاقتصادات الضعيفة. وإننى أدرك أن هذه النقطة الأخيرة مثيرة للجدل. إنها تبدو وكأننى أحاول أن أجعل العالم رخيصاً وآمناً للرأسمالية الأمريكية. كلا لست كذلك. إننى أحاول أن أجعل العالم آمنا للعولمة والتدمير

الخلاق، وهما أمران جوهريان للنظام الرأسمالى ـ القضاء على الشركات المتعثرة واستبدال شركات أخرى بها، تكون أفضل فى إدارتها وتأخذ بالرأسمالية وتعمل وفقاً لأفضل المعايير الدولية. ولا يشغلنى أن يكون المشترون أمريكيين، أو من الألمان أو يابانيين أو الهنود. وكل ما يهمنى فى الأمر هو المعايير والرأسمالية. لقد عرف عن ولاية أريزونا أن بها نظاماً مصرفياً متهاوناً سيئ السمعة. وأفضل ما حدث على الإطلاق للنظام المصرفى فى أريزونا هو عندما سمحت النظم المصرفية داخل الولاية للبنوك ذات التكنولوجيا الأفضل والإدارة الأفضل والأساليب الرأسمالية الأفضل ـ من نيويورك وشيكاجو وسان فرانسيسكو ـ بالدخول إلى الولاية وشراء بنوك أريزونا. وثمة سبب مهم فيما حققته الأرجنتين من نجاح أكثر من البرازيل فى السنوات الأخيرة هو أن جزءاً لا بأس به من نظامها المصرفى أصبح الآن مملوكاً لأفضل البنوك العالمية.

من أكثر الطرق فاعلية وأسرعها فى بناء نظام تشغيل محلى هو نجاحك فى استعادة القطيع الإلكترونى إلى بلادك ـ وهو يشعر بالثقة فى استثمار طويل الأجل لرأسماله، ونقل التكنولوچيا وتوفير إدارة فائقة الكفاءة للمصانع. وبصراحة، إن الخوف من أن يفر القطيع مرة أخرى هو أحد أفضل الموارد طويلة الأجل للانضباط من أجل استمرار الدولة فى النهوض ببرمجياتها ونظم تشغيلها.

الخطوة الثالثة هى إقناع هذه الدول بأن لا يكون الإصلاح فى نظم تشغيلها فقط وإنما فى نظمها السياسية أيضاً ـ لكبح جماح الفساد والتهرب من الضرائب والنهوض ببرمجياتها الخاصة بحكم القانون، حتى إذا جاء وقت شد الأحزمة على البطون أن يكون لدى الناس بعض الإحساس بأن هناك نوعاً من العدالة الأساسية تجاه عملية الإصلاح.

الخطوة الرابعة يجب أن تكون التزاماً باستخدام بعض مساعدات صندوق النقد الدولى، أو غيرها من المساعدات، فى المحافظة على الحد الأدنى من شبكات الأمان

الاجتماعى فى هذه الدول، وفى توفير الوظائف العامة لامتصاص نسبة من العاطلين. وغالباً يكون هذا الحد الأدنى من شبكات الأمان هو أول ما يتعرض للتمزق فى أى برنامج للإنقاذ. فالمصرفيون الدوليون الذين يميلون إلى التركيز فقط على منع العجز عن السداد للبنوك فى الدول الأخرى، ولا يعبأون بما يحدث فيها من كساد يتضجرون من موضوع شبكات الأمان عندما يتعلق الأمر بمساعدة المقترضين السيئين. إن هذا جنون. ففى نهاية اليوم لن تكون الأزمة الحقيقية فى هذه الدول المقترضة السيئة ـ والتهديد الحقيقى الذى تستطيع أن تسببه للنظام العالمى ـ أزمة اقتصادية، بل أزمة سياسية.

وإليكم السبب: إن العولمة عندما تفضح الممارسات العفنة فى الدول المقترضة السيئة لا تعمل فقط على تدمير أصحاب رؤوس الأموال المتهاونة فيها ولكنها أيضاً تسحق فى طريقها الكثيرين من الأفراد البسطاء الذين يبذلون جهداً شاقاً فى عملهم ويلتزمون بقواعد النظم التى يعيشون فيها ويفترضون أن كل شئ على ما يرام. وهم لا يعلمون أن بلادهم تقف على أرضية زائفة. ولكن عندما انهارت هذه الأرضية فى روسيا وتايلاند وإندونيسيا والبرازيل نجم عن ذلك تسريح مكثف للعمال، وبطالة، وانكماش طفيف، وتقلص مالى، وانهيار فى الدخول الحقيقة. وهذا هو السبب فى أهمية الاحتفاظ ببعض شبكات الأمان الأساسية وبرامج الوظائف فى أثناء عملية استعادة القوة الاقتصادية. وليس هناك من سبيل تشترى به الحكومات الصبر المطلوب لإقرار السياسات الإصلاحية ووضع الدول المقترضة السيئة على طريق النمو القابل للاستمرار طالما كان هناك عدم توفير للوظائف وتجاهل لشبكات الأمان.

فإذا بدأ عدد كبير من الناس فى الإحساس بالجوع فى الدول الكبيرة فسوف يتعرض قادتها بشدة لإغراء موجع لاختيار مجرد الخروج من النظام، وبناء أسوار للحماية، والتورط فى سياسات تنافسية على تخفيض العملات تؤدى إلى إفقار الجار

ـ حتى وإن لم يجد ذلك على المدى الطويل. فتلك هى أنواع السياسات التى جعلت من «الكساد العظيم» عظيماً وجلبت لنا الحرب العالمية الثانية.

والنوع الآخر من الأزمات الاقتصادية العالمية التى يمكن أن تهدد النظام برمته هى أزمة المقرضين السيئين ـ بدءاً من البنوك إلى الصناديق المشتركة إلى صناديق الحماية ـ التى تستطيع الآن إقراض مبالغ هائلة من الأموال لعدد كبير جداً من الأشخاص فى كثير جداً من الأماكن إلى حد أنها عندما تفرط فى عمليات إقراض خرقاء على نطاق واسع، ثم تحاول فجأة استعادة أموالها، فإن لديها القدرة على إلحاق أضرار خطيرة بالاقتصادات الجيدة والسيئة على السواء. والإقراض السيئ على نطاق عالمى يشكل تهديداً مالياً حقيقياً للنظام على عكس الاقتراض السيئ الذى يشكل بالدرجة الأولى تهديداً سياسياً للنظام.

ويكون الإقراض السيئ فى أشكال مختلفة. أنا مثلاً كنت مقرضاً سيئاً عندما استثمرت أموالى فى الأسواق الناهضة بدون أن تكون لدى أدنى فكرة عن الطريقة التى تعمل بها هذه الدول. وكانت البنوك من بين أسوأ المقرضين فى السنوات الأخيرة. وقد لاحظ صديق لى يعمل فى سوق هونج كونج ذات مرة أنه فى أثناء ذروة الازدهار الاقتصادى الآسيوى فى أوائل التسعينيات، كان بنك دريسدنر الألمانى يطلب إلى مديره فى منطقة آسيا بلا مواربة: « إقرض. إقرض. إقرض، وإلا فسوف نفقد نصيبنا من السوق» . والبنوك تحقق أرباحاً من الإقراض، وكل منها افترض أن آسيا تفتقر إلى العقل، ولم يكن كل واحد منها يريد أن يفقد هذه السوق لصالح بنك آخر. وهكذا كانت تجرف أموالها خارج الأبواب تماماً مثل تجار المخدرات. وكان شعارها بالنسبة للدول النامية هو: «تعال إلى يا صغيرى. حاول فقط أن تتذوق قليلاً من هذه الأموال. القرض الأول أقدمه لك بلا مقابل» ولهذا السبب، وفى بداية عام 1999، وحتى بعد أزمات جنوب شرقى آسيا وروسيا، وصل إجمالى قيمة القروض المستحقة المقدمة، من

أكبر خمسمائة بنك فى أكبر ثلاثين دولة من الدول الديمقراطية الصناعية، للدول النامية إلى 2.4 تريليون دولار. فهذا حجم كبير لرافعة مالية معلقة هناك.

شكل آخر من أشكال الإقراض السيئ هو عندما تقرض البنوك ملايين الدولارات لصناديق الحماية حتى يتسنى لها توفير «رافعة مالية» لمضارباتها. إذ تجمع صناديق الحماية دولاراً واحداً من المستثمرين، وتقترض عليه 9 دولارات من البنوك، ثم تستخدم هذه الرافعة المالية لتعظيم كل واحدة من مضارباتها على الأسهم والسندات والمشتقات والعملات المختلفة فى أنحاء العالم. ولا يوجد بوجه عام خطأ فى الرافعة المالية. وتعتبر رهونات المنازل العادية من الروافع المالية. فأنت تريد من الناس الاستفادة من الرافعة المالية. وتريد من الناس خوض المخاطر ـ حتى وإن كانت مخاطر جنونية. وهذه هى طريقة تمويل المشروعات التجارية المبتدئة التى إما أن تفلس وإما أن تصبح مايكروسوفت. وتنجم الخطورة فى الرافعة المالية من ضخامة المبالغ التى يمكن إقراضها لصناديق الحماية أو الأسواق الناهضة اليوم، ومن أن النظام نفسه بلغ من التماسك والتكامل حداً جعل من الممكن أن يؤدى ارتكاب المخاطرين الكبار ـ مثل مؤسسة إدارة رأس المال طويل الأجل – للأخطاء الكبيرة إلى إشاعة عدم الاستقرار بين الجميع.

ولهذا فإنه منذ أزمة البيزو المكسيكية فى 95 - 1994، ازداد حجم ما كابده النظام من آثار مرات ومرات فى كل أزمة من أزمات الإقراض فى التسعينيات ـ كما ازدادت فى كل مرة المبالغ التى كان يتعين على الحكومات ومؤسسات الإقراض العالمية تعبئتها للحيلولة دون انتشار الأزمة طبقاً لنظرية الدومينو. وهذا اتجاه للسير شديد الخطورة.

إذن نستطيع الآن تحديد مشكلة الإقراض السيئ بما يلى: نحن نريد أن تكون هناك رافعة مالية فى النظام. ونريد من المستثمرين خوض المخاطر. ولكننا نريد الحد من

قدرة أى شخص أو بنك أو صندوق حماية أو بلد أو مجموعة من المستثمرين المقلدين على الإفراط فى الحصول على رافعة مالية مما يؤدى إلى انتقال تأثير الدومينو إلى الجميع. والسؤال هو: كيف؟

هناك مهندسون جغرافيون محتملون كثيرون، وكلهم يقدمون مقترحات عن طريقة إعادة اكتشاف العالم من جديد من أجل التصدى لهذه المشكلة. يقول هنرى كيسنجر إن الدول بحاجة إلى التعاون فيما بينها لكى تعثر على طريقة لترويض هذه الأسواق. ويقول بعض الاقتصاديين إننا بحاجة إلى إلقاء بعض الرمال فى تروس النظام - بفرض ضرائب على بعض المعاملات المالية أو تشجيع الحكومات على فرض ضوابط محددة على رأس المال. ويقول بعض خبراء السوق إننا بحاجة إلى بنك مركزى عالمى من شأنه تنظيم الاقتصاد العالمى بالطريقة التى ينظم بها الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى الاقتصاد الأمريكى. وهناك أيضاً آخرون يقولون إننا بحاجة إلى وضع حدود قصوى للمبالغ التى تسمح البنوك بإقراضها.

أما وجهة نظرى فإن أى فكرة من هذه الأفكار لن تنفذ فى القريب العاجل، والكثير من هذه الأفكار ليست سوى كلام خلو من المعنى، وغالباً يقترحها أناس لا يعرفون الفرق بين صندوق الحماية وصندوق الدنيا.

دعنى إذن أقدم لك نهجاً أكثر واقعية. بداية، نحن بحاجة إلى التقدم فى بطء وتواضع. وأعنى بذلك أنه يجب علينا أن ندرك أن النظام الاقتصادى العالمى اليوم ما زال جديداً وسريعاً إلى درجة لا تدرك فيها عقولنا تماماً كيف يعمل وماذا يحدث عندما تجذب رافعة هنا أو تتصل برقم هاتفى هناك. وآلان جرينسبان يدرس طوال حياته التمويل الدولى، فضلاً عن أنه من أهم الممارسين له اليوم، ولكننى عندما سألته فى ديسمبر 1998 عن نظام التمويل العولمى اليوم أجابنى بإجابة نادراً ما تجد لها مثيلاً ويجب أن نتواضع أمامها جميعاً. قال: «لقد عرفت عن الطريقة التى يعمل بها هذا

النظام المالى العالمى الجديد فى الشهور الاثنى عشر الأخيرة أكثر مما عرفته طوال العشرين عاماً الماضية».

أما أولئك الذين اقترحوا أن نضع بعض «الرمال فى تروس» هذا الاقتصاد العالمى حتى نبطئ من حركته قليلاً، فقد يكون تعليقى على ذلك هو أننى لا أظن أنه من الحكمة فى أى وقت من الأوقات أن تضع رمالاً فى تروس أية آلة إذا لم تكن لديك فكرة عن مكان هذه التروس. فإذا وضعت رمالاً فى تروس مثل هذه الآلة السريعة جيدة التشحيم المصنوعة من الصلب الذى لا يصدأ، فقد لا يقتصر الأمر على إبطاء حركتها فقط. فقد تصل إلى حالة من التوقف المصحوب بالزمجرة والتواء المعادن. كذلك، أين تضع الرمال عندما تتعامل مع مدير لأحد الصناديق يجلس فى كونيكتيكت ويستخدم تليفونه الخلوى والمودم فائق السرعة والإنترنت للاستثمار فى البرازيل عن طريق المقر الدائم لبنك يقع قبالة ساحل بنما؟ فمن الصعب أن تضع رمالاً فى شذرة كمبيوتر دقيقة، ناهيك عن الاتصال عن طريق السايبرسبيس أو الفضاء المعلوماتى. هذا بالإضافة إلى أنه فى اللحظة التى تبدأ فيها بفرض ضرائب على المعاملات المالية، فسوف تفر أعداد أكبر من البنوك وصناديق الحماية هاربة من الولايات المتحدة إلى أحضان جزر جراند كايمان خفيفة الضوابط، وهى بالفعل خامس أكبر مركز للبنوك فى العالم. (وبالمناسبة، يدار صندوق إدارة رؤوس الأموال طويلة الأجل من كونيكتيكت ولكنه معتمد قانوناً فى جزر جراند كايمان). أما أولئك الذين يريدون خفض المبالغ التى تستطيع البنوك إقراضها لصناديق الحماية أو الأسواق الناهضة، فإننى أود أن أشير لهم فقط إلى أن صناعة البنوك الأمريكية لديها جماعة من أكثر جماعات الضغط نفوذاً فى واشنطن، وأن هذه البنوك سوف تقاوم بعنف أى قيود جديدة على الإقراض يمكن أن لا تحد من قدرتها على فقد الأموال فقط وإنما أيضاً تحد من قدرتها على كسب الأموال. تقول لى حسناً، حسناً، إذن يجب على الدول حينئذ أن تفرض ضوابط لرأس

المال، بحيث لا تستطيع هذه الأموال المهربة أن تدخل وتخرج بهذه السرعة. يقول ليستر سى ثورو الاقتصادى بمعهد مساتشوستس للتكنولوجيا فى هذا الصدد، إن الصين لديها الآن ضوابط مشددة على رأس المال، ولكن فى عام 1998 نجحت البنوك الصينية والأفراد والشركات فى التهرب من هذه الضوابط كما نجحت فى ضخ مليارات الدولارات إلى خارج الصين ـ باستخدام حيل مختلفة ـ بحيث يستطيعون اللعب بهذه الأموال فى الخارج وبعيداً عن سيطرة الحكومة الصينية. فإذا تعذر على نظام سلطوى مثل النظام الصينى أن يفرض ضوابط فعالة على رأس المال، فكيف تظن سيكون الحال مع دولة مثل البرازيل؟ وفى النهاية، ما زال هناك من يطالبون بإنشاء بنك مركزى عالمى ـ بنك احتياطى فيدرالى أمريكى للعالم. إنها فكرة رائعة، ولكنها لن تحدث فى وقت قريب ـ طالما أننا نعيش جميعاً فى 200 دولة مختلفة لها 200 حكومة مختلفة.

إذن هل يعنى ذلك أنه ليس فى وسعنا أن نفعل شيئاً؟ كلا. إنه لما يدعو إلى التفاؤل أن نعلم أنه فى أعقاب أزمة 99 - 1998 فرضت السوق على نفسها الانضباط بقسوة بدون أى ضوابط جديدة أو رمال فى التروس. وتجد ما يشير إلى ذلك فى كل مكان: لقد أطيح فى عام 1998 بكبار التنفيذيين فى بعض أكبر بنوك العالم ـ باركليز، وبانك أميركا BankAmerica، ويونايتد بانك السويسرى، بعد أن سجلت هذه البنوك خسائر هائلة بسبب عمليات تبادل وإقراض عالية المخاطر فى الأسواق الناهضة. كما فقد بنك بانكرز ترست استقلاله لأنه خسر 500 مليون دولار فى ثلاثة أشهر من عام 1998 بسبب تعامله بالدرجة الأولى مع روسيا. إذ استولى عليه بنك دويتش بانك.

وفى أعقاب الإطاحة بهذه الرؤوس وضعت جميع البنوك الكبرى قيوداً على عمليات الرافعة المالية، وفصلت مديرى الصناديق الذين تجاوزوا حدودهم، وأخذت فى

مطالبة أولئك الذين ما زالوا يقدمون لهم القروض بمزيد من الشفافية، وبالتدقيق بجدية أكبر لا فى أرقام موازين مدفوعات الأسواق الناهضة فحسب، وإنما أيضاً فى نظم تشغيلها ونظمها القضائية وبرمجياتها بأسرها. وبعبارة أخرى، فلن يأخذ كل من هم فى النظام قضية إدارة المخاطر مأخذ الجد بدون إصدار قوانين أو ضوابط جديدة. وهكذا بدأت البنوك تطرح كثيراً على مديرى الصناديق السؤال التالى: «ما مدى تعرضكم للخسائر، وما مدى ضعف موقفى بما أننى الذى أقدم لكم القروض فى حالة أسوأ سيناريو للأحداث؟» وبدأ المستثمرون يطرحون كثيراً على مديرى الصناديق السؤال التالى: «ما هى أكبر المخاطر التى ترون أنها قائمة بالنسبة لكم ولنا، وما هى الحماية التى نتمتع بها؟» وبدأ صندوق النقد الدولى، ووزارة الخزانة الأمريكية، ومديرو الصناديق يسألون الدول الناهضة الأسواق كثيراً: «ماذا تفعلون من أجل النهوض بنظامكم المالى وإشرافكم على الضوابط؟ وما هى التدفقات من الأموال الخاصة والعامة التى تدخل وتخرج من بلادكم؟ إننا نريد أن نعرف ذلك بصورة مستمرة وفى الوقت الفعلى».

يعلم مديرو الصناديق أن عليهم أن يكونوا أكثر صراحة مع مستثمريهم وبنوكهم، إذا كانوا يرغبون فى الاستمرار فى جمع رأس المال، فى المستقبل القريب على الأقل. وأنا أعرف مديراً لصندوق حماية فى لندن أبلغ عملاءه فى ذروة أزمة عام 1998 بأنه افتتح موقعاً على الشبكة. ولا يمكن دخول العميل إليه إلا بكلمة سر، ولكنك بمجرد دخولك إلى الموقع، تستطيع أن ترى ـ على أساس يومى، وفى التوقيت الفعلى، وفى كل مكان تستثمر فيه أموال صندوق الحماية هذا ـ حجم الأموال المستثمرة وما هى حالة كل من هذه الاستثمارات. وقد قال لى مدير صندوق الحماية هذا: «أنا أعرف الآن، أنه إذا كنت أريد اجتذاب المزيد من الاستثمارات، فينبغى أن أوفر مزيداً من الشفافية. فالكثير من الروافع المالية تأتى من بنوك تدفع بالأموال إلى

الخارج ولا تعرف حجم ما تدفع به البنوك الأخرى من أموال فى الوقت ذاته. لقد تصرفت هذه البنوك بغباء. إننى أستطيع أن أقول هذا الكلام لعشرين مصرفياً مختلفين كل يوم ومع ذلك لا يتعلمون. إننى أقترض الأموال كل يوم، ومن ثم يتعين على البنوك أن تطالبنى فى نهاية كل يوم من أيام التعامل بمعرفة إجمالى المبالغ التى اقترضتها. إننى ألاحظ أن ذلك بدأ يحدث بالفعل. فالبنوك الآن تقول، «لا يهمنى ممن تقترض، ولكننى أريد أن أعرف حجم الأموال التى أقرضها لك من إجمالى قروضك».

فى اعتقادى أن الحل الواقعى الوحيد هو التوصل إلى طريقة لاتباع هذا النهج المحدد ومد العمل بها فى المستقبل، إلى أن يجىء اليوم الذى يمكن فيه بناء نظام عالمى للضوابط المالية. ولو أن الكل بدءاً من صندوق النقد الدولى إلى صندوق ميريل لنش إلى عمتى بيف ردد كل هذه الأسئلة كثيراً، واستمر فى طرحها، فسوف تكون لدينا الفرصة لمنع أزمتين من كل خمس أزمات قادمة وأن نحد من تأثير أزمة واحدة من الأزمات الخمس التالية. فليس هناك ما يكبح جماح السلوك الإنسانى أكثر من أن يظل الآخرون يراقبون بدقة ما هو منهمك فيه.

قال ويليام چى ماكدونو رئيس الاحتياطى الفيدرالى فى نيويورك الذى نسق خطة البنوك والمستثمرين لإنقاذ صندوق إدارة رؤوس الأموال طويلة الأجل: «إن كل ما نحاول أن تفعله هو اجتناب التجاوزات التى يمكن أن تحدث قدراً كبيراً من المخاطر التى لن تلحق الضرر بمن ارتكبوا الخطأ وحدهم بل بكثيرين من الأبرياء المشاهدين للحدث أيضاً. ويتمثل الحل فى توافر المعلومات وتبادلها. فإذا تحقق لنا التدفق فى المعلومات ـ وهى أحياناً لا تزيد على مجرد طرح بضعة أسئلة أخرى ـ فقد نستطيع أن نقول للبنوك إننا نفرض ضوابط لأن هذا الصندوق أو ذاك تضخم كثيراً وإنكم تساعدونه على هذا التضخم».

أدرك تماماً أن ذلك قد لا يثير الجاذبية ـ فكيف لك أن تطالب كل من فى النظام بأن يكون مشرعاً أفضل، ومستثمراً أذكى، ومصرفياً ومقرضاً أكثر حذراً. ولكن قد حان الوقت لكى نتوقف عن خداع أنفسنا. فلن يكون هناك بنك مركزى عالمى لفترة طويلة. كما أنه فى عالم يرتبط بعضه ببعض بالشبكات، وفى عالم أسواق السوبر ماركت والأفراد الذين اكتسبوا قوة عظمى ـ بما فى ذلك المستثمرون الذين اكتسبوا قوة عظمى ـ هناك أشياء لا تستطيع الحكومات وقفها وقوى لا تستطيع الحكومات التحكم فيها تماماً. ولذلك، علينا أن نعمل بما فى أيدينا من مؤسسات. فمن الواضح أنه عندما تفرض السوق هذا النوع من الانضباط على نفسها، ويأخذ المشرعون واجباتهم مأخذ الجد، ويأخذ صندوق النقد الدولى عملية المراقبة مأخذ الجد، فسوف يكون لهذه المؤسسات تأثير كابح، وتكون على الأقل قادرة على الحد من بعض الروافع المالية المتجاوزة التى يمكن أن تهدد النظام برمته.

إنك لا تستطيع ببساطة أن تأمل فى أكثر من ذلك. لقد أصبحت الأسواق اليوم شديدة الضخامة، وشديدة التنوع، وتزداد سرعتها بقدوم الإنترنت إلى درجة يستحيل معها تحصينها ضد الأزمات. وسوف تصبح الأزمة المالية العالمية هى القاعدة فى هذه الحقبة القادمة. ولسوف تصبح الأزمة المالية سائدة مع سرعة التغيير التى تجرى اليوم، ووجود هذا العدد الكبير من الدول التى تمر بالمراحل المختلفة للتكيف مع نظام العولمة الجديد هذا. وهكذا عزيزى القارىء، دعنى أقدم لك نصيحة صغيرة: اربط حزام النجاة واجلس معتدلاً فى مقعدك وثبّت حامل صينية الأكل فى وضع عمودى. فسوف تأتى فترات الازدهار والإخفاق على السواء بسرعة أكبر. وعليك أن تتعود على ذلك، وما عليك إلا أن تحاول التأكد من أن الرافعة المالية فى هذا النظام لا تصبح من الضخامة فى أى منطقة واحدة من العالم بحيث تجعل النظام بأسره يزدهر أو يضعف. ومن يقولون لك إن لديهم خطة لاستئصال كل هذه الأزمات لا يريدون سوى جر رجلك. والواقع، أنك حين تقرأ هذه الكلمات تتجمع سحب الأزمة المالية القادمة فى مكان ما من العالم.

عليك أن تعتبر المشاركة فى الاقتصاد العالمى اليوم وكأنه قيادة إحدى سيارات سباق فورميولا ون التى تزيد سرعتها عاماً بعد عام. فدائماً سوف تجد أحدهم يصطدم بالجدار وتتحطم سيارته، ولا سيما إذا كان قائدو هذه السيارات حتى وقت قريب يركبون الحمار. لديك إذن اختياران: أن تحظر سباق سيارات فورميولا ون. وعندئذ لن يكون هناك أى حادث تصادم. ولكن لن يحدث أيضاً أى نوع من التقدم. أو أن تفعل كل ما فى وسعك للحد من آثار كل حادثة تصادم بتحسين كل عناصر السباق. أى تتأكد من وجود سيارة إسعاف على أهبة الاستعداد دائماً، بداخلها طاقم إنقاذ جيد التدريب وكمية كبيرة من فصائل الدماء المختلفة. (والمقابل لذلك فى السوق هو أن يكون باستطاعة صندوق النقد الدولى، والدول السبعة الكبار، والبنوك المركزية الكبرى فى العالم، فى حالة الطوارئ، حقن الأسواق برؤوس الأموال لمنع حالات الانهيار الأخرى التى تهدد النظام). وفى الوقت نفسه تستطيع أن تزيد من قوة كل سيارة من سيارات سباق فورميولا ون (والمقابل لذلك فى السوق هو العمل على أن يتأكد كل مستثمر يضع قدراً ضئيلاً من المال فى سوق ناهضة من أنها تطور نظام التشغيل والبرمجيات فيها بحيث يتسنى لها تخصيص رأس المال على نحو سليم وتوليد الدخول اللازمة لسداد الأموال لمقرضيها). إنك تستطيع أن تركز على تدريب أفضل للسائقين (والمقابل لذلك فى السوق هو التأكد من أن صندوق النقد الدولى والمستثمرين والبنوك يلحون باستمرار على الحصول على المزيد والمزيد من البيانات الدقيقة وفى المواعيد المناسبة عن كيفية تطور الاقتصاد والأماكن التى تتدفق إليها رؤوس الأموال، ولا سيما الأموال قصيرة الأجل). وفى النهاية، يجب أن تضع أكبر عدد ممكن من بالات التبن حول المضمار تحسباً لخروج أى سيارة عن المسار ـ وأن تحذر السائقين من أن الاصطدام بالتبن يقرب من الاصطدام بالحائط. ولكنك لن ترغب فى وضع كثير من بالات التبن بما يعرقل من السباق. (المقابل لذلك فى السوق هو وضع ضوابط مصرفية ومالية حذرة، ومفاتيح آلية لقطع التيار، وأجراس الإنذار لرصد المشكلات ونزع فتيلها فى وقت مبكر قدر الإمكان).

إذا لم تكن تريد أن تقوم بكل هذه الأشياء فعليك إذن أن تنسى سباق سيارات فورميولا ون وأن تمارس رياضة المشى السريع، ولكن كن حذراً فعندما تكون من ممارسى رياضة المشى فى هذا العالم فسوف تدهسك إحدى سيارات سباق فورميولا ون.

الجغرافية السياسية للعولمة

ليس من السهل على هذا الجيل من الأمريكيين إدراك مدى أهمية أمريكا لبقية العالم فى حقبة العولمة. فقد كانت الولايات المتحدة، تاريخياً، إما معزولة ومبتعدة عن الشئون العالمية وإما أنها أجبرت على الدخول بعمق فى العالم جزءاً من حملة أخلاقية لردع قوة عدوانية أخرى تهدد العالم. والانعزال يسهل شرحه وفهمه. ومن السهل أيضاً شرح أو فهم الارتباط بعالم ثنائى القطب ـ مع دب سوفيتى ضخم وخطير ومسلح بأسلحة نووية يزمجر فى الناحية الأخرى. ولكن ما لا يسهل شرحه أو فهمه هو الارتباط بعالم تكون فيه الولايات المتحدة هى أكبر مستفيد، وهى القوة العظمى الوحيدة، مع وجود قوى ثانوية متعددة، وبدون وجود تهديد مرئى مباشر، ولكن بوجود تهديدات صغيرة كثيرة ونظام مجرد للعولمة يجب المحافظة عليه. ولكن هذا هو العالم الموجود بين أيدينا، وفى هذا العالم لن نستطيع أن نحتمل الانعزال عنه أو الجلوس فى انتظار أن يصبح خصم أصغر عدواً يهدد حياتنا.

وتعتبر أمريكا، كما أشرت سابقاً، مايكل جوردان الجغرافية السياسية. إنه لشىء عظيم أن تكون مايكل جوردان، وكما يقول الإعلان، إن الكثيرين من الناس يرغبون فى أن يكونوا مثل مايكل جوردان. ولكن مايكل جوردان، بكل ما يتمتع به من تميز، فهو لا شىء بدون الاتحاد القومى لكرة السلة، بفرقه التسعة والعشرين، وعقوده التليفزيونية العالمية لعرض مهاراته. وهذا هو الحال مع أمريكا. فنحن لا شىء بدون بقية العالم، كما أن العالم لا يمكن أن ينجح بدوننا. وقد ترغب أم أخرى فى التفوق على

العقول الأمريكية فى محاولات عديدة. ولكن، باستثناء الرجال الغاضبين الذين اكتسبوا قوة عظمى، فإن معظم العالم يدرك أيضاً أنه بدون أمريكا القوية، فسوف يكون العالم أقل استقراراً بكثير.

وتتطلب العولمة القابلة للاستمرار هيكلاً مستقراً للقوة، ولا توجد دولة أكثر أهمية لذلك من الولايات المتحدة. فالإنترنت وغيرها من التكنولوچيات التى يصممها وادى السيليكون لنقل الأصوات الرقمية والصور التليفزيونية والبيانات حول العالم، وعمليات التكامل التجارى والمالى المستمرة فى تعزيزها بابتكاراتها، وأيضاً كل الثروة التى تتولد عن ذلك، كلها تحدث فى عالم تعمل على استقراره قوة غير ضارة، عاصمتها واشنطن دى سى. فمن ناحية، يرجع عدم اندلاع حرب بين دولتين توجد بهما مطاعم ماكدونالدز إلى التكامل الاقتصادى، ولكنه يرجع أيضاً إلى وجود القوة الأمريكية واستعداد أمريكا لاستخدام هذه القوة ضد أولئك الذين قد يهددون نظام العولمة ـ بدءاً من العراق إلى كوريا الشمالية. فلن تنجح اليد الخفية للسوق بدون وجود قبضة خفية. ولا يمكن أن تنجح مطاعم ماكدونالدز بدون ماكدونيل دوجلاس مصمم طائرة السلاح الجوى الأمريكى إف ـ 15. وتسمى القبضة الخفية، التى تحفظ للعالم الأمان الذى يسمح لتكنولوچيات وادى السيليكون بالازدهار، جيش الولايات المتحدة، وسلاحها الجوى، وبحريتها، ومشاة بحريتها. وهذه القوات المقاتلة والمؤسسات يدفع لها بالدولار دافع الضرائب الأمريكى.

ومع كل الاحترام الواجب لوادى السيليكون، فالأفكار والتكنولوچيات لا تحقق الفوز والانتشار من تلقاء نفسها فقط. يقول روبرت كاجان، مؤرخ السياسة الدولية، «إن الأفكار والتكنولوچيات الجيدة تحتاج أيضاً إلى قوة شديدة تعزز هذه الأفكار عن طريق القدوة وحماية هذه الأفكار عن طريق الفوز فى ميدان المعركة. ولو كانت القوة التى تعزز أفكارنا وتكنولوچياتنا أقل شدة لما حازت على السيطرة العالمية التى لديها.

وعندما عززت إحدى القوى الكبرى، وهى الاتحاد السوفيتى، أفكارها السيئة فقد حققت الكثير من السيطرة لمدة تزيد على نصف قرن».

وهذه الحقيقة يسهل نسيانها كثيراً اليوم. فهناك الكثيرون جداً من التنفيذيين فى وادى السيليكون ممن يرون أنه لم تعد هناك جغرافيا أو جغرافية سياسية، ولا يوجد سوى خيارات الأسهم والإلكترونات. لقد أجابنى أحد التنفيذيين الذين يعتبرون نموذجاً للتنفيذيين فى وادى السيليكون عندما سألته عن آخر مرة تحدث فيها عن العراق أو روسيا أو حروب الدول الأجنبية، قال بفخر: «ليس أكثر من مرة واحدة فى السنة. إننا لا نعبأ حتى بواشنطن. إن وادى السيليكون يصنع الأموال ثم تبددها واشنطن. وأنا أريد أن أتحدث عن أولئك الذين يخلقون الثروة والوظائف. ولا أريد أن أتحدث عن أناس ضعفاء أو غير منتجين. وإن كنت لا أهتم بمن يدمرون الثروة فى بلادى ذاتها، فهل أهتم بمن يدمرون الثروة فى بلد آخر؟

وهذه النظرة بأن واشنطن هى العدو وأن أى دولار يدفع فى الضرائب يقابله دولار ضرائب ضائع نظرة غريبة. وهناك قول مأثور فى وادى السيليكون هو «إن الولاء ليس إلا مجرد ضغطة خطأ على الماوس». ولكنك يمكن أن تعتبر ذلك نوعاً من المبالغة. ويقول لك التنفيذيون هناك فى زهو: «لسنا شركة أمريكية. إننا شركة آى بى إم أمريكا، آى بى إم كندا، آى بى إم أستراليا، آى بى إم الصين». هكذا إذن؟ حسناً، فى المرة القادمة، عندما تتعرض آى بى إم الصين للمتاعب فى الصين فاطلب چيانج زيمين لكى يساعدك . وفى المرة القادمة عندما يغلق الكونجرس قاعدة عسكرية أخرى فى آسيا ـ وأنت لا تعبأ بذلك لأنك لا تعبأ بواشنطن ـ اطلب سلاح البحرية لشركة مايكروسوفت ليؤمن لك الممرات البحرية فى المحيط الهادى. وفى المرة القادمة عندما يرغب أحد الأعضاء الجدد فى الكونجرس من الجمهوريين إغلاق مزيد من السفارات الأمريكية، اطلب أمازون كوم Amazon.Com على الكمبيوتر لكى تستخرج لك جواز سفر جديداً!

بالتأكيد، قد يبدو من الظلم أن تتحمل أمريكا عبء العمل على استمرار العولمة أكثر من غيرها. فذلك يعنى أن هناك ركاباً كثيرين بالمجان، والكثيرين منهم، مثل الفرنسيين، سوف يركبون فوق أكتافنا وفى الوقت نفسه يوجهون لنا الانتقادات طوال الطريق. ولكن كل ذلك جزء من مهام الوظيفة. فهل سمعت مرة مايكل جوردان يشكو من أن عليه أن يحمل على ظهره فريقه أو حتى الاتحاد القومى لكرة السلة برمته؟ ولا يعنى ذلك أن على أمريكا أن تتدخل فى كل مكان طوال الوقت. فهناك مناطق كبيرة ومهمة، وهناك مناطق صغيرة وغير مهمة، ووظيفة الدبلوماسية هى أن تعرف الفرق بين الاثنين، وأن تعرف كيف تحشد الآخرين للعمل فى الأماكن التى لا نستطيع أو التى يجب أن لا نذهب إليها بمفردنا. والسبب الحقيقى وراء حاجتنا إلى دعم الأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولى، والبنك الدولى، وبنوك التنمية المختلفة فى العالم هو أن يكون فى إمكان الولايات المتحدة أن تدفع مصالحها إلى الأمام بدون أن تضع الأرواح أو الأموال الأمريكية فى خطر شديد طوال الوقت.

ولكى تستمر هذه السياسة ـ فمن الواضح أنه على أولئك الذين يهتمون بمذهب الدولية الأمريكية بناء ائتلاف جديد لدعمها. لقد كان أنصار مذهب الدولية الأمريكية الذين ظلوا يؤازرونها طوال خمسين عاماً وكانوا يدركون أهمية أمريكا بالنسبة لباقى العالم هم أولئك الذين يطلق عليهم اسم «المؤسسة الفكرية الشرقية». وهذه المؤسسة الشرقية، التى ما زالت قائمة حتى يومنا هذا، لا تقيم وزناً لأعضاء الكونجرس الذين يعترفون بأنهم بلهاء ويفخرون بذلك ولا بأعضاء مجلس الشيوخ الذين لا يمتلكون حتى جوازات سفر ويتباهون بأنهم لم يغادروا البلاد قط. وسوف يتعين على الإدارة الأمريكية، أيا كان الحزب الموجود فى السلطة، أن تبدأ فى محاولة جمع أنصار العولمة الجدد معاً ـ بدءاً من كتاب البرمجيات إلى العناصر النشطة لحقوق الإنسان، من مزارعى ولاية أيوا إلى العناصر النشطة من أنصار البيئة، ومن المصدرين

للسلع الصناعية إلى عمال خطوط تجميع التكنولوچيا المتقدمة، وذلك لتشكيل ائتلاف جديد للقرن الحادى والعشرين يستطيع مؤازرة استمرار مذهب الدولية الأمريكية.

أعلم أن ذلك لن يكون سهلاً. فقد كان الأمريكيون على استعداد لدفع أى ثمن وتحمل أى عبء فى الحرب الباردة إذ كان هناك شعور ملح وقريب بأن ديارهم وأسلوبهم فى الحياة فى خطر. ولكن هناك أغلبية عظمى ليس لديها هذا الشعور تجاه كوريا الشمالية أو العراق أو كوسوڤو، ورغم أن روسيا ما زالت لديها القدرة على توجيه تهديد قاتل لأمريكا اليوم، إلا أنها لا تفعل ذلك فى هذا الوقت. ولهذا السبب أصبح الأمريكيون فى موقف غريب الآن حيث يتحملون مسئولية كل شىء رغم أنهم كارهون للموت من أجل أى شىء. ولهذا السبب انتهت فى حقبة العولمة سياسة التصدى للعصيان، وحلت محلها سياسة الرعاية. وانتهى القتال من منزل إلى منزل وحل بدلاً منه صواريخ كروز. وخرجت القوات الخاصة من الجيش الأمريكى ودخلت قوات للأمم المتحدة بخوذاتهم الزرقاء. ويبدو، أنه فى عالمنا اليوم، لا توجد حرب يمكن لأمريكا أن تخسرها لفترة طويلة فى الخارج ولا توجد حرب تستطيع مساندتها لفترة طويلة فى الداخل. ولهذا فعندما يواجه الرئيس الأمريكى اليوم تهديداً عسكرياً، لن يكون أول سؤال له هو «ما هى الاستراتيچية التى ستنجح لكى نضع نهاية جذرية لهذا التهديد؟» بل بالأحرى إن أول سؤال هو «كم سيكلفنى هذا العرض على شبكة سى إن إن بحيث لا يشغلنى هذا الأمر؟» إذ يمكن احتواء كل شىء، ولكن لا شىء يصل إلى حل.

أمريكا بحق هى الدولة الوحيدة المسيطرة دون ضرر والمنفذة للاستقرار والعازفة عن هذه المهمة. ولكن التاريخ يعلمنا أيضاً أنه إذا أمعنت فى هذا العزوف فقد تهدد استقرار النظام بأسره. يعتبر بول شرودر، الأستاذ المتفرغ للتاريخ الدولى بجامعة إلينوى، وأحد المؤرخين الدوليين العظام فى القرن العشرين. قال لى ذات مرة، «إذا نظرت إلى

التاريخ تجد أن فترات السلام النسبى هى تلك التى يوجد بها قوة مسيطرة قادرة على الاستمرار ومستقرة وقادرة على الاحتمال تقوم بعملية التكيف وتحافظ على أدنى حد من معايير وقواعد اللعبة الضرورية. كما تدفع القوة المسيطرة دائماً نصيباً كبيراً نسبياً من التكاليف الجماعية، بل تضيع على نفسها فرص إخضاع الدول الأخرى أو تكبح جماح نفسها بصور أخرى، بحيث لا تشيع حالة من الاستياء وتضمن أن يظل النظام محتملاً من جانب الآخرين».

ويصدق ذلك، مثلاً، على ما كان يسمى بنظام ڤيينا، فى الفترة من1815 إلى 1848، التى كانت تسيطر فيها بريطانيا وروسيا، وهما قوتان مسيطرتان بعيدتان وغير ضارتين نسبياً قامتا بتنفيذ القواعد الأساسية ولكنهما سمحتا أيضاً بالحكم الذاتى والازدهار المحليين. كما يصدق ذلك على ما يسمى عهد بسمارك، فى ظل السيطرة الألمانية فى الفترة من 1871 إلى 1890.

يقول شرودر: «تأتى الصعوبة عندما تكون هذه القوة المسيطرة غير الضارة المسئولة عن المحافظة على استقرار النظام، غير قادرة، أو غير راغبة، فى دفع تكاليف كبيرة نسبياً لكى تفعل ذلك، أو عندما تصبح قوتها المسيطرة غير محتملة وضارية أكثر منها غير ضارة، أو عندما يتمرد عدد من اللاعبين ضد قواعدها ويتمسكون بنوع آخر من النظام قد لا يكون مفيداً لهذه القوة المسيطرة».

وهذا هو ما يجب علينا اجتنابه. إذ لا يستطيع نظام العولمة الصمود بدون سياسة خارجية أمريكية نشطة وسخية.

إذن انتبهوا أيها المتسوقون من سوق ك ـ مارت : إذ بدون أن تؤدى أمريكا واجبها فلن يكون هناك الاتصال المباشر عن طريق أمريكا أون لاين.

وحتى إذا حصلنا على السياسة الصحيحة، والجغرافية السياسية الصحيحة، والاقتصاد الجغرافى الصحيح من أجل العولمة القابلة للاستمرار، فهناك مجموعة أخرى من السياسات غير الملموسة تقريباً التى يجب أخذها فى الاعتبار. وتتضمن الاعتراف باحتياجات شجرة الزيتون فى داخل كل منا والتأكد من الحفاظ على هذه الأشجار أيضاً. ولهذا السبب بدأت هذا الكتاب بمناقشة قصة قابيل وهابيل وسوف أنهيه بمناقشة برج بابل. فماذا كانت مشكلة برج بابل؟ أليس ذلك ما يحلم به أنصار العلومة اليوم ـ عالم يتكلم فيه الجميع لغة واحدة، ولهم عملة واحدة، ويتبعون أساليب محاسبية واحدة؟ كان ذلك التماثل بالتحديد هو الذى أتاح للناس فى العالم فى الأزمان التى يتحدث عنها الكتاب المقدس أن يتعاونوا على بناء برج بابل ـ بناء برج يمكن أن يصل فى الواقع إلى السماء.

كنت أتحدث عن ذلك ذات مساء مع صديقى الحاخام تزفى ماركس عندما رفع تزفى رأسه فجأة عن فنجان قهوته، وسأل: «هل كان برج بابل هو النسخة الأصلية من الإنترنت؟»

وقبل كل شيء، فالإنترنت هى أيضاً نوع من اللغة العالمية بعيداً عن نطاق أى ثقافة بعينها. إنها طراز عالمى من الاتصالات التى يبدو، على الأقل من السطح، أنها تجعلنا جميعاً نفهم بعضنا بعضاً، حتى إن كنا لا نتحدث جميعاً لغة واحدة. وهى تسمح لنا بالاتصال بكل أنواع البشر ممن لم نشاركهم قط فى بستان لشجر الزيتون.

ولكن ماذا فعل الله تعالى ببرج بابل؟ لقد وضع حداً له. وكيف وضع حداً له؟ لقد جعل الناس جميعاً يتكلمون لغات مختلفة حتى لا يتمكنوا بعد ذلك من التعاون. ولماذا فعل الله تعالى ذلك؟ يوضحها تزفى على النحو التالى: «لقد فعل الله

تعالى ذلك من ناحية لأنه عرف أن الناس يحاولون السمو فوق حدود بشريتهم عندما بنوا برجاً يصل إلى السماء، بطريقة قد يكون فيها تحد له جل جلاله. ولكنه من الناحية الأخرى هدم البرج لأنه عرف أن لغتهم المشتركة ونهجهم المشترك يسلبهم بشريتهم فى نهاية الأمر. إنه ينكر عليهم الخصوصية فى الرجال والنساء لصالح لغة عالمية ومشروع عالمى. لذلك كان الحل الذى فرضه الله تعالى وعقابه هو وقف العمل فى بناء البرج بأن جعل الناس يتكلمون لغات مختلفة».

كانت تلك طريقة الله تعالى فى إعادة الناس إلى الاتصال بأشجار زيتونهم وبالتوازن معها، الأمر الذى يعكس تفردهم وروابطهم الخاصة بالمكان والمجتمع والثقافة والقبيلة والأسرة.

نعم تستطيع العولمة والإنترنت الجمع بين أناس لم يتصلوا ببعضهم قط من قبل ـ مثل أمى وشركائها الفرنسيين فى لعبة البريدج على الإنترنت. ولكن هذه التكنولوچيا بدلاً من أن تخلق أنواعاً جديدة من المجتمعات ـ خلقت فقط إحساساً زائفاً بالاتصال والحميمية. إن الأمر أشبه باثنين من أجهزة الاستدعاء يتصلان الواحد بالآخر. فهل نستطيع حقيقة الاتصال بالآخرين عن طريق البريد الإلكترونى أو لعب البريدج عبر الإنترنت أو غرف الدردشة؟ أم أن كل هذه التكنولوچيا التى تؤدى إلى التنميط تمنحنا فقط القوة للوصول إلى أماكن أبعد من العالم فى حين تبعدنا عن الفعل الحقيقى اللازم لبناء علاقات ومجتمعات مع الناس الذين يسكنون إلى جوارنا؟ لقد اعتدت على مقابلة الناس من أنحاء العالم وتبادل الأحاديث معهم أثناء انتقالى بمصاعد التزلج إلى أعلى جبال كلورادو. وما زلت استخدم هذه المصاعد، ولكن الآن الكل لديهم تليفون خلوى. وهكذا، فبدلاً من التقائى بأناس من أنحاء العالم فى هذه المصاعد اكتفيت بترك أسماعى تلتقط فقط محادثاتهم فى التليفون الخلوى مع مكاتبهم فى أنحاء العالم. كم أكره هذا! إن البريد الإلكترونى لا يقيم مجتمعاً ـ

ولكن ما يبنيه هو حضور اجتماع لجمعية الآباء والمدرسين. ولا تقيم حجرة الدردشة على الإنترنت مجتمعاً ـ ولكن يبنيه تعاونك مع جيرانك من أجل تقديم التماس إلى المجلس المحلى لمد طريق جديد. هل نستطيع بناء مجتمعات فضائية بدلاً من المجتمعات الحقيقية؟ أشك كثيراً فى ذلك. ولهذا السبب فإننى، إلى حد ما، لن أندهش إذا استيقظت من نومى يوماً واكتشفت أن الله تعالى قد قضى بانهيار شبكة الإنترنت تماماً مثلما فعل ببرج بابل.

لا أنسى أبداً ذلك الشاب الكويتى الذى قابلته فى مقهى الإنترنت بالكويت، وقال لى: «عندما كنت طالباً لم تكن لدينا شبكة الإنترنت. وكل ما كان لدينا هو بضعة أساتذة ليبراليين وكنا نلتقى معهم فى هدوء فى منازلهم ونتبادل الأحاديث فى السياسة. أما الآن فنحن الطلاب نستطيع أن نجلس فى منازلنا ونتحدث إلى العالم أجمع». ولكنه اعترف، بأنه لم يعد يلتقى وأساتذته مثلما اعتاد من قبل. هناك إذن خطورة من أنه فى أثناء تحول المجتمع إلى علاقات عن طريق الإنترنت، وانتصار كل هذه التكنولوچيا فى حياتنا، والعولمة قبل كل شيء، سوف يستيقظ الناس ذات صباح ويكتشفون أنه لم يعد هناك تفاعل بينهم إلا عن طريق الكمبيوتر. وعندما يحدث ذلك سوف يصبح الناس ضعفاء حقيقة أمام أولئك المبشرين والمتعصبين للدين فى العصر الجديد الذين يظهرون لنا ويعدوننا بإعادة اتصالنا بأجسادنا وأرواحنا وشجرة الزيتون فى داخل كل منا. وسوف يحدث هذا عندما تبدأ فى رؤية التمرد المجنون حقيقة ضد الرتابة والتنميط ـ فقد خلق الناس مختلفين من أجل أن يكونوا مختلفين فحسب، ولكن ليس على أساس أى ذاكرة تاريخية أو جذور أو تقاليد حقيقية.

إن إيجاد توازن بين سيارة ليكساس وشجرة زيتون هو ما يجب أن يسعى إليه كل مجتمع فى كل يوم. وذلك هو ما يميز أمريكا فى أفضل صورها. فأمريكا فى أفضل صورها تأخذ احتياجات الأسواق والأفراد والمجتمعات جميعاً مأخذ الجد تماماً. ولهذا

فليست أمريكا فى أفضل حالاتها، مجرد بلد. إنها قيمة روحية ونموذج للمسئولية. إنها أمة لا تخاف من الوصول إلى القمر، ولكنها تظل مع ذلك تحب أن تعود إلى المنزل لكى يجتمع شمل الأسرة. إنها الأمة التى اخترعت الفضاء المعلوماتى (السايبرسبيس)، وحفلات الشواء فى الفناء الخلفى، وأيضاً الإنترنت، وشبكة الأمان الاجتماعى، وهيئة الأوراق المالية والبورصة، واتحاد الحريات المدنية الأمريكية! إن هذه المتناقضات هى ما تحتفظ به أمريكا فى قلبها، ويجب عدم اتخاذ قرار بشأنها لصالح إحداها على الأخرى. ولكن أيضاً يجب عدم التسليم بها جدلاً. بل يجب رعايتها والعناية بها والحفاظ عليها دوماً ـ ونحن نستطيع أن نفعل ذلك بمساندة مدارسنا العامة، ودفع ما علينا من ضرائب، وإدراك أن الحكومة ليست عدواً لنا، وأن نسعى جاهدين إلى أننا ما زلنا نتعرف على جيراننا عبر سور الحديقة وليس عبر الشبكة.

ولا تكون أمريكا فى أفضل حالاتها كل يوم، ولكنها عندما تكون طيبة فإنها تكون شديدة الطيبة. فى شتاء عام 1994، كانت ابنتى الكبرى أورلى فى كورس الصف الرابع فى مدرسة بيرنينج ترى الإعدادية فى بيثسيدا، بولاية ميريلاند. وفى الكريسماس تجمعت كل فرق الكورس من المدارس الإعدادية العامة لعرض ضخم فى ميدان مدينة بيثسيدا. أتيت فى سيارتى (الليكساس) لسماع ابنتى وهى تغنى. وكان قائد الكورس رجلاً أفريقياً أمريكياً، وكان يرتدى خصيصاً لهذه المناسبة ملابس سانتا كلوز. وكانت أول أغنية للكورس فى ذلك المساء مقطوعة الهانوكا الكلاسيكية، «ماوتزور Maotzur» على أنغام أغنية «روك أوف إيدجز Rock of Ages». لقد طفرت الدموع من عينى وأنا أراقب هذا المشهد واستمع إلى هذه الأغنية. سألتنى زوجتى بعد عودتى إلى المنزل كيف كان الحال. وقلت لها: «حبيبتى، إننى فقط شاهدت رجلاً أسود يرتدى ملابس سانتا كلوز ويقود أربعمائة من أطفال المدارس الإعدادية يغنون أغنية «ماوتزور» فى ميدان مدينة بيثسيدا بولاية ميريلاند. حفظ الله أمريكا».

إن المجتمع العالمى المزدهر هو المجتمع الذى يستطيع أن يحدث التوازن بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون على الدوام، ولا يوجد نموذج لذلك على الأرض اليوم أفضل من أمريكا. ولهذا السبب فأننى أؤمن بشدة بأنه يجب أن تكون أمريكا فى أفضل حالاتها ـ اليوم وغداً، وفى كل وقت، حتى يتسنى للعولمة أن تكون قابلة الاستمرار. إنها يمكن أن تكون، ويجب أيضاً أن تكون، منارة للعالم أجمع. فلنعمل على ألا نبدد هذا الإرث.

شكر وتقدير

استغرق وضع هذا الكتاب أربع سنوات، وقدم لى العون كثيرون من الناس طوال هذا العمل. ولم تقتصر مساعدة الناشر آرثر سولزبيرجر الابن على توفير الوقت الكافى لكى أكتب هذا الكتاب، بل المهم إنه هو الذى جعل منى كاتب عمود فى السياسة الخارجية بصحيفة **نيويورك تايمز**، الأمر الذى يسر لى رؤية وفهم العولمة مباشرة. ولهذا فإننى شديد الامتنان له. وقدم لى أيضاً هاول رينز، محرر الصفحة الافتتاحية بصحيفة **نيويورك تايمز**، مساندة كبيرة فى عملى وساعدنى أيضاً على وضع هذا الكتاب، ولذلك فإننى أيضاً شديد الامتنان له. غير أننى قد أكون غافلاً إذا لم أوجه الشكر أيضاً لمدير التحرير التنفيذى الحالى فى صحيفة **نيويورك تايمز**، جو ليليڤيلد وسلفه، ماكس فرانكل، لإتاحتهما الفرصة لى منذ أعوام عديدة فى القطاع المشترك للمال والسياسة الخارجية بالصحيفة، الذى اجتذب اهتمامى أول مرة لكثير من الخطوط الفكرية التى يحتويها هذا الكتاب.

واعتبر نفسى محظوظاً لأن لى مثل هذا العدد الكبير من الأصدقاء الطيبين الذين كنت أمعن معهم التفكير فى الأفكار المختلفة التى وردت بهذا الكتاب. و لم يكن هناك من يعلمنى عن تاريخ السياسة الخارجية الأمريكية أكثر من صديقى مايكل ماندلباوم، الذى يعمل بتدريس العلاقات الدولية فى كلية جونز هوبكنز للدراسات

الدولية العليا. فقد كانت مناقشاتنا الأسبوعية حول السياسة الخارجية مصدراً لإثارة الأفكار العظيمة بالنسبة لى. ولقد شجع صديقى يارون إيزراحى أستاذ النظرية السياسية بالجامعة العبرية فى القدس مشروع كتابى هذا منذ البداية، وأشركنى دائماً وبسخاء فى أفكاره بعيدة النظر الرائعة عن النظرية الديمقراطية والفن والصحافة. وإننى لأنهل دائماً من ذكائه وصداقته. أما توأم روحى منذ الأيام التى قضيتها فى الشرق الأوسط، ستيفن ب. كوهين، من مركز السلام للشرق الأوسط فى نيويورك، فهو ليس خبيراً فى العولمة، ولكن عقله المبدع وإحساسه الرائع بالسياسيات الدولية أثرت هذا الكتاب بطرق عديدة. وهو نعمة من الله صديقاً ومعلماً. وكان صديقى لارى داياموند، الرفيق والباحث البارز فى معهد هوڤر بجامعة ستانفورد ورئيس التحرير المناوب لمجلة ***جورنال أوف ديموكراسى***، معلمى فى موضوع الديموقراطية وكان يعلق على هذا الكتاب فى كل مرحلة من مراحله. وكان لقائى به فى أثناء مراقبة انتخابات القرى فى شمال شرقى الصين من أسعد الأمور التى صادفتنى فى حياتى. وقد اتصل بى هاتفياً ذات يوم على نحو غير متوقع چيم هاسكل، من شركة جولدمان زاكس، للتعليق على ما جاء فى عمود كتبته لصحيفة ***التايمز***، ولم نتوقف عن الحديث منذ ذلك الوقت. وهو محترف فى مراجعة المعلومات واستفدت كثيراً من تعليقاته على مسودات هذا الكتاب. وكان روبرت هورماتس نائب رئيس شركة جولدمان زاكس إنترناشيونال ممن أتبادل معهم الحديث بشأن هذا الموضوع. ولا يوجد من يشعر بالتداخل بين المال والسياسة الخارجية أفضل من بوب، وفى كل مرة نجتمع فيها معاً نخرج بفكرة جديدة. أما ستفين كوبرين، مدير معهد لاودر بكلية وارتون، فقد رتب لى ندوة حول هذا الكتاب مع بعض زملائه فى وارتون غمرتنى بالحماس، ثم تجشم مشقة الجهد والوقت لقراءة النص عندما كان مسودة. وكانت كتابات ستيف عن العولمة وتعليقاته نعم العون لى. وأحمد جلال، الاقتصادى بالبنك الدولى، وهو بلا شك من أبرع أبناء

الجيل الجديد من الاقتصاديين المصريين وقد بذل هو أيضاً الوقت للاستماع إلى وجهات النظر المختلفة فى هذا الكتاب، وقرأ مسودة الكتاب كاملة وأشركنى فى أفكاره بطرق عديدة فكانت لى عوناً عظيماً.

أما جلين بريكيت، نائب مدير منظمة كونسيرفيشين إنترناشيونال، فقد صحبنى فى رحلة إلى المناطق المعرضة للخطر بيئياً فى البرازيل وأرشدنى فى كل الأمور التى تتعلق بالبيئة والعولمة. وإننى أدين له بالكثير. كما دعانى چيفرى جارتن، عميد كلية ييل للإدارة، لكى أقدم بعضاً من هذا الكتاب لأحد فصول الدراسات العليا وكان دائماً مصدراً للإلهام حول موضوع العولمة.

وكان لى مع لارى سومرز نائب وزير الخزانة ومساعده مايكل سميث حواراً لا ينقطع حول الاقتصاد الدولى على مدى السنوات الست الماضية، وهناك عدد لا بأس به من الأفكار فى هذا الكتاب انطلقت شراراتها من بعض الحكمة التى كان يلقى بها لارى عرضاً فى أحد اجتماعاتنا حيث كنا نقدح أفكارنا التى ليست للنشر. وهناك روبرت روبن وزير الخزانة، وآلان جرينسبان مدير الاحتياطى الفيدرالى، وجيكوب فرينكل محافظ البنك الإسرائيلى، والاقتصادى هنرى كاوفمان، وويليام چى ماكدونو رئيس الاحتياطى الفيدرالى بنيويورك، وليون كوبرمان مدير أحد بنوك الحماية، وليزلى جولدواسر التى تعمل فى تجارة السندات، وچون بيدچ كبير الاقتصاديين فى البنك الدولى، وچين سپيرلينج رئيس المجلس الاقتصادى القومى، وچيم وولفينسون رئيس البنك الدولى، كل هؤلاء بذلوا من وقتهم لمناقشة آرائهم عن العولمة معى. ومن القطاع الخاص، هناك رروبرت شاپيرو رئيس شركة مونسانتو، وچون تشيمبرز رئيس شركة سيسكو سيستيمز، وجيرى بورتنوى رجل الأعمال فى ولاية بالتيمور، وجارى واجنر المزارع بولاية مينيسوتا، وكبار المسئولين التنفيذيين فى شركة كومپاك كمبيوتر، ولقد أجريت معهم جميعاً لقاءات صحفية متعددة لا غنى عنها لهذا الكتاب.

وكان أستاذى الحاخام تزڤى ماركس، بفكره المتميز، نعم المساعد لى فى تصنيف بعض الجوانب الثقافية والدينية للعولمة. وكالعادة كان صديقى القديم سانديل الأستاذ بجامعة هارفارد الحكومية مصدراً للإلهام الفكرى. وإننى أدين بالفضل لتشجيع هذا المشروع بطرق عديدة وإن كانت مهمة لكل من مويسيز نعيم مدير تحرير مجلة *فورين بوليسى*، وروبرت كاجان مؤرخ السياسة الخارجية، ومايكل أوكسنبيرج الباحث فى الشئون الصينية، وولت موسبيرج كاتب العمود فى مجال التكنولوجيا بصحيفة *وول ستريت جورنال*، وروبرت باستور الأستاذ بجامعة إمورى، وفريد زكريا مدير التحرير بمجلة *فورين أفيرز*، وكلاوس شواب، وكلود سمادچا، وباربرا إيرسكين من منتدى داڤوس الاقتصادى العالمى، وزوج شقيقتى تيد سينشورى. ودائماً كان كل من والدتى مارجريت فريدمان، وشقيق زوجتى وزوجته مات وكاى باكسباوم، مصدراً لا ينضب للمساندة.

وإننى هنا أعفى الآن جميع من ذكرتهم آنفاً من أية مسئولية عن هذا الكتاب فى صورته النهائية.

ويلاحظ القارئ أننى أنقل قدراً كبيراً عن مصدرين خارجيين. أحدهما صحيفة *الإيكونوميست*، التى سبقت كثيراً كل المؤسسات الإعلامية الأخرى فى فهم العولمة والكتابة عنها. وثانيهما هو إعلانات ماديسون أڤينيو. ذلك أنه لسبب من الأسباب، كان أصحاب حقوق النشر الإعلانية يتمتعون بنظرة ثاقبة إزاء العولمة، وبالتالى لم أتردد فى الاستعانة بأعمالهم.

وفى النهاية، أدين للشريكين الدائمين لى فى لعبة الجولف فى كيفز ڤالى، وهما چويل فينكلستاين وجاك ميرفى اللذين احتفظا لى بسلامة عقلى، بعدم اهتمامهما ولو قليلاً بهذا الكتاب، وتركيز جل اهتمامهما على سلب أموالى فى مضمار الجولف.

أما مساعدتى الباحثة مايا جورمان فهى فى ذاتها ظاهرة جديرة بالاهتمام. وإنه لمما يثير فزعى التفكير فى بعض الحقائق والقصص الإخبارية من أركان الدنيا المختلفة التى تمكنت من اقتفاء أثرها. إننى أدين لها بكل العمل الرائع وروحها السامية.

أما الناشرون القدامى الذين تعاونت معهم من أيام كتابى *من بيروت إلى القدس* ـ جوناثان جالاسى المحرر بدار نشر فارار وستراوس وجيرو، ونائبه پول إيلى ووكيلى الأدبى إيشر نيوبيرج من مؤسسة إنترناشيونال كريتيف مانيجمنت ـ فهم من أفضل من يعمل فى هذا المجال دون منازع . ويسعدنى العمل معهم فى كتاب آخر.

وتحملت ابنتىّ، أورلى وناتالى، مراراً وتكراراً الاستماع إلى نسخ معدلة من هذا الكتاب فى صورة محاضرة، وتستطيعان تلاوة فقرات كاملة منه عن ظهر قلب. وكانتا دائماً تمثلان لى حلاوة المعشر ومصدر الإلهام اللذين لا ينضبان. ولكن، وكما هو الحال دائماً، فإن مدير التحرير الأول والأخير لدى هو زوجتى، آن فريدمان. فليس هناك من لديه شريك أفضل للحياة، ولها وحدها أهدى هذا الكتاب.

@Ahmedyassin90

تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90